The Golden Peaches of Samarkand

"A Study of T'ang Exotics"

By

Edward H. Schafer

دراق سمرقند الذهبي

دراسة في غرائب عهد تانج

ادوارد هـ. شيفر



ترجمة

سامي الشاهد

دُرّاقُ سمرقند الذهبي

دراسة في غرائب عهد تانج

The Golden Peaches of Samarkand
"A Study of T'ang Exotics"
By
Edward H. Schafer

إدوارد. هـ. شيفر

ترجمة
سامي الشاهد

382,0951

ش ي د ر

شيفر، إدوارد. هـ

دراق سمرقند الذهبي: دراسة في غرائب عهد تانج=

The Golden Peaches of Samarkand :
A Study of T'ang Exotics

/ إدوارد هـ. شيفر؛ ترجمة سامي الشاهد.- أبوظبي: المجمع الثقافي، 2005.

576 ص؛ صور، خارطة.

1- الصين - التجارة الخارجية - تاريخ.

2- الصين - تاريخ - تانج ديناستي (618-907).

3- الحضارة الصينية القديمة.

أ- سامي الشاهد، مترجم.

ب- العنوان.



©المجمع الثقافي 1428 هـ / 2005 م

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

ص.ب.: 2380 - هاتف: 6215300

Email:nllbrary@ns1.cultural.org.ae

www.cultural.org.ae

دُرّاقُ سمرقند الذهبي

دراسة في غرائب عهد تانج

الإهداء

إلى روح الراحل برتولد لوفر

تصدير

يتضمن الفصل الأول من هذا الكتاب الكثير مما حصلت عليه من مصادر خارجية، فقد اعتمدت كثيراً على أعمال دارسي حضارة تانج من الأمريكيين، والأوروبيين، والصينيين، واليابانيين. أما في الفصول الأخرى فسوف يجد القارئ الكثير من اجتهاداتي الشخصية، وإن حاولت قدر جهدي إخفاء ما واجهته من صعاب علمية ونقدية . ومع ذلك لا بد أن أكرر أنني في تلك الفصول أيضاً اعتمدت كثيراً على الأساتذة والعلماء المتخصصين، كما أني مدين كثيراً لزملائي (الأحياء منهم والأموات) الذين ساعدوني، خاصة برتولد لوفر، والذي لا أجد مفراً من إهداء الكتاب إليه.

ولقد كان للمنحة التي قدمها المجلس الأمريكي للجمعيات العلمية فضل كبير في إنجاز هذا الكتاب، ولذا فإني في غاية الامتنان لذلك المجلس. كذلك أتقدم بخالص الشكر للدكتور جوزيف نيدام الذي تفضل بكل الكرم بالسماح لي باستخدام مكتبته بما تضمه من كتب ومقالات حول تاريخ العلوم والتقنية، ومكتبة كلية جونفيل، وكايوس بجامعة كيمبردج.

ولقد قمت بترجمة الأشعار الواردة بهذا الكتاب (ما لم يذكر خلاف ذلك)، وكان السيد آرثر والي ثاني أكبر المساهمين في تلك الترجمة. أما العبارتان الاستشهاديتان اللتان تصدرتا الفصلين الأول والثاني فهما من الكتاب المقدس.

إدوارد. هـ. شيفر
بركلي، كاليفورنيا
فبراير 1962

شكر وتقدير

أود أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى السيد آرثر والي لموافقته على استخدام ترجمته لبعض القصائد الواردة في هذا الكتاب، وكذا موافقة دور النشر: جورج آلان، ويونوين، وآلفريد. أ. نوف على التعاقب.

وبالنسبة للوحات الواردة في هذا الكتاب فقد تم نشر هذه اللوحات (2)، (3)، (9)، (10)، بإذن من الإدارة المشتركة للقصر الوطني والمتاحف المركزية في تايتشونج، واللوحتين (5)، (7)، (8)، (11)، (13)، (14) بإذن من مجلس أمناء المتحف البريطاني، واللوحتين (4)، (6) بإذن من أيرين فونجر ڤينسينت، فهي مأخوذة عن كتابها «الواحة المقدسة» (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو 1953) واللوحة (12) بإذن من الدكتور ريتشارد فولر، رئيس ومدير متحف فنون الساتيلايت، واللوحة (15) بإذن من تشينج تشن-تو (شنغهاي 1951—1952)، واللوحة (16) بإذن من مكتبة المكتب الهندي. وكافة النماذج التي تتضمنها اللوحات ترجع إلى حقبة تانج.

كذلك فإن الرسومات التي تأتي في مقدمة الصفحة الأولى من كل فصل مأخوذة عن رسومات وتصميمات ظهرت على منسوجات وتحف من السيراميك، وغيرها من الصور التي تعود إلى عهد تانج.

المحتويات

تواريخ بدايات حكم الأسر الصينية

التاريخ	الأسرة
حوالي 1500 (ق.م.)	شانج
حوالي 1000 (ق.م.)	تشو
221 (ق.م.)	تشن
206 (ق.م.)	هان
220 (م)	ثلاث ممالك
265 (م)	تشن (تشين)
317 (م)	الأسر الشمالية والجنوبية
589 (م)	سوي
618 (م)	تانج
907 (م)	خمس أسر (شمالية)
	عشر أسر (جنوبية)
960 (م)	سونج
	ليـاو (خـيطان)، تشن (كـين)
	(جورشن) في الشمال
1260	يُوان (منغولية)
1368	مينج

1644	تشنج (منشوريا)

تواريخ اعتلاء حكام تانج للعرش

618	كاو تسو
627	تاي تسونج
650	كاو تسونج
684	تشونج تسونج
	جوي تسونج
	الإمبراطورة وُو
705	تشونج تسونج (استرداد للعرش)
710	جوي تسونج (إسترداد للعرش)
712	هسوان تسونج
756	سوتسونج
763	تاي تسونج
780	تي تسونج
805	شون تسونج
806	هسين تسونج
821	مو تسونج

«لأسناني حاسةُ تلمَّسَت بها ما يشق عليك
إدراكه..
فكم من تين لا عدّ له ولا حصر،،
وليداي سعة تلمَّسَت بها ما شق عليها احتواؤه.
فكم من ثمرة بطيخ مثلجة..
تكدَّست فوق صحفة من ذهب،،
وكم من دراقة مخملية، وكرمة بلورية..
تخلو من كل شائبة بذرية..»
كريستينا روزتي، «سوق العفاريت»

مقدمة

ازدادت السلع الغربية سحراً في عصرنا هذا، وإذا التقطت أي مجلة أمريكية فسوف يظهر لك هذا بوضوح تام، معطياً إياك عشرات من الأمثلة: العطور الفرنسية التي تفوح بشذا المحبة، والأحذية البلجيكية (ولقد اشتهر صناع تلك الأحذية بإتقانهم لحرفتهم هذه منذ ما يزيد عن ثلاثمئة عام)، والسيارات السويدية التي ترمز إلى الهندسة والصناعة السويدية الراقية، وشراب «شيري» الإسباني والذي احتفظ بمذاقه الخاص منذ عهد الملكة ڤيكتوريا؛ والمشروبات السويسرية المصنوعة من أرقى أنواع الأجاص (الكمثرى) والكرز والقيقب؛ وشراب الجِّن القوي الذي يأتي من إنجلترا والذي ضربت سرية تامة حول طريقة صنعه والمقادير الداخلة في تركيبه، والذي ينم عن مهارة توارثتها الأجيال؛ وخشب الأرضيات السيامي ذو الجودة العالية التي لا تتأثر بالزمن؛ ومعطر ما بعد حلاقة الذقن الذي

يصنع في الجزر العذراء «ڤرجين آيلاندز» والذي ينقل إليك البرودة المنعشة لزيزفون جزر الهند الشرقية، وقد وضع في عبوات ذات أشكال رائعة وغريبة صنعوها بأيديهم؛ وبندق مكاداميا الذي يأتي من هاواي ومعه كل المنتجات الأسطورية لتلك الجزيرة؛ ناهيك عن الويسكي الاسكتلندي، وآلات التصوير الألمانية، والفضيات الدانمركية، والصنادل الإيطالية، والمناديل الهندية القطنية أو الحريرية ذات الألوان الزاهية والتي يعتمر بها (المدراس)، والفلفل الإندونيسي، ومنتجات الفولاذ الصينية، والتكويلا المكسيكية (وهذا شراب مخمر يصنع من عصارة الصبار).

ونحن نقبل على تلك الأشياء «السحرية» لأنه لا يوجد مثيل لها لدينا، أو لأن شخصاً ما قد أقنعنا بأنها أفضل من منتجاتنا المحلية، أو لأنها تأتي -وهذا هو الأمر الأهم- من بلاد ساحرة تختلف صورها في أذهاننا كثيراً عن الواقع ومقتضيات الدبلوماسية العملية والميزان التجاري والحروب؛ فالحياة الحقيقية هي التي تكمن في عالم الخيال المبهر حيث نقضي إجازات حقيقية.

ولقد اختير لهذا الكتاب عنوان «دراق سمرقند الذهبي» لأنه يوحي بعدة أشياء في وقت واحد:

تفاح حدائق الهزبيرايدز الذهبي (وهذه حدائق أسطورية في الطرف الغربي من العالم تنتج تفاحاً ذهبياً -المترجم)، ودراق الخلود والذي تقول الروايات الصينية إنه كان يأتي من أقصى الغرب، وكتاب جيمس إلوري فليكر «الرحلة الذهبية إلى سمرقند»، والموسيقا التي وضعها فرديرك دليوس لفصل «الطريق الذهبي إلى سمرقند» في مسرحية فليكر التي كان عنوانها «حسن». وعلى الرغم من تلك الإشارات لكلٍّ من الأسطورة والموسيقا فإن الدراق الذهبي كان موجوداً بالفعل؛ ففي مناسبتين خلال القرن السابع الميلادي أرسلت مملكة سمرقند هدايا رسمية إلى البلاط الصيني تألفت من دراق أصفر رائع، ووصفت ثمار الدراق تلك بأنها في

حجم بيضة الإوز، وأن لونها يشبه لون الذهب، ومن هنا سميت بالدراق الذهبي. وكانت قوافل المبعوثين الرسميين (السفراء) تحمل عينات من تلك الشجرة الملكية عبر الصحارى في سيرنديا، وكانت تغرس في بساتين القصور في تشانجان. لكن الذي لا يمكن تخمينه حالياً هو ماهية تلك الثمار الفعلية وطعمها الحقيقي، فالغموض الذي يكتنفها قد زاد من شهرتها فباتت رمزاً لكل الأشياء الغريبة التي يسعى الناس إليها، والأشياء المجهولة التي يتوقون لاقتنائها. هناك في إمبراطورية تانج.

وإنها لقصة معروفة تماماً – تلك التي تحكي عن امتداد فنون وآداب الصين في عهد امبراطورية تانج إلى جيرانها في الشرق الأقصى في العصور الوسطى، خاصة اليابان، وكوريا، وتركستان، والتِّبِتْ، وآنّام. ومجرد الإشارة إلى فنون النقش على الخشب، وتخطيط المدن، وتصميم الأزياء، والكلام المنظوم يكفي لبيان ما دانت به تلك البلاد المحيطة لإمبراطورية تانج من الناحية الثقافية. ومن المألوف كذلك سعي الأجانب الذين يزورون الصين أو يقيمون فيها لبعض الوقت لاقتناء سلع وأدوات، وكذا حرص الصينيين أنفسهم على حمل مثل تلك السلع والأدوات معهم عند سفرهم للخارج. ومن بين هذه المنسوجات الحريرية، والنبيذ، والمنتجات الخزفية، والمشغولات المعدنية، والأدوية، وبعض المأكولات الشهية مثل الدراق وعسل النحل، والصنوبر، ومعها –وبطبيعة الحال– بعض دلائل التحضُّر والثقافة الراقية مثل الكتب واللوحات الفاخرة ذات الألوان الطبيعية الزاهية.

كذلك فقد لعبت الصين دور الوسيط الثقافي حيث كانت تنقل فنون وعلوم الغرب إلى بلدان الشرق. ومن أشهر الوسطاء تاو – هوسان، ذلك البوذي الذي سافر إلى اليابان في عام 735م مع السفير العائد تاجينو مابيتو هيروناري، وصاحبهما أحد كبار الكهنة الهندوس، وعازف موسيقا، وطبيب فارسي. وبالمثل

فقد كانت مساهمات مثل هؤلاء الأجانب الذين جابوا البلاد كلها في ثقافة تانغ ذاتها محل دراسات عديدة، وما بَحْثُ تأثير الديانة الهندية، وعلم الفلك الهندي، وأنماط المنسوجات والمصنوعات الفارسية، والموسيقا التوشارية والرقص التوشاري والأزياء التركية إلا جزءٍ من كُلٍّ ضخم.

والواقع أن واردات تانغ من المواد ليست معروفة بشكل جيد، وهذه تشكل موضوع هذا الكتاب. فلقد تولّدت لدى الصينيين في عهد إمبراطورية تانغ وبالأخص أولئك الذين عاشوا القرن الثامن ميلادية؛ شهية مفتوحة لاقتناء أشياء وأدوات من الخارج، وكانت لديهم القدرة المالية لتحقيق ذلك. ومن هذه الأشياء الخيول، والمصنوعات الجلدية، والفراء، والأسلحة السائدة في الشمال، والعاج، والأخشاب النادرة، والعقاقير والمواد العطرية السائدة في الجنوب، والمنسوجات، والأحجار الكريمة، والمواد المعدنية الصناعية، وفتيات الرقص من بلاد الغرب.

وحتى في ظل ذلك التركيز لن يقدم الكتاب إحصاءات مفيدة عن التجارة في العصور الوسطى، كما أنه لن يطرح أي نظرية تأخذ بالألباب بالنسبة لنظام الجزية. فهذا الكتاب عبارة عن بحث إنساني بغض النظر عن المادية المتمثلة في موضوعه. وليس ثمة تناقض أو غموض في التعرف على ما هو إنساني بالدرجة الأولى من خلال ما هو مادي أساساً. وكما قال براوست (وقد ترجمه عنه سكوت مونكريف) في كتابه «الانفتاح على وادي سوان» فإن الماضي يختفي في مكان ما خارج الإطار المألوف، وخارج نطاق العقل والفكر، ويكمن في شيء ما مادي (في ذلك الحس الذي يولده ذلك الشيء فينا) ولا يراودنا أي شك تجاهه. ولقد أثرت تلك الأشياء في الوجدان الصيني بصور مختلفة، وغيرت من نمط الحياة في تانغ، ومن ثم تجسدت في قصائد، أو مراسيم، أو قصص قصيرة، أو تذكارات للعرش. ومن أمثلة تلك الأشياء الببغاء ذو العرف (الكوكاتو) الذي كانوا يأتون به

من سيلييبس؛ أو الكلب الصغير (الجرو) من سمرقند، أو كتاب غريب الشأن من ماجادا، أو عقار قوي من تشامبايورا. وفي بعض الأشكال الأدبية المشار إليها آنفاً تحقق للأشياء الغريبة حياة جديدة أكثر طولاً وامتداداً، وبمرور الزمن -وحتى بعد اندثارها الفيزيقي- تحولت إلى صورة مثالية، واكتسبت واقعاً أفلاطونياً لم يكن لها أصلاً عندما وصلت إلى حدود الصين لأول مرة عارية فكرياً، وبعد أن فقدت في الطريق غالبية خصائصها التي ميزتها وهي تعيش في مواطنها الأصلية.

ومهما يكن الرمز الذي كانت الببغاوات ذات العرف تمثله (أو الرموز التي كانت تمثلها) في جزر سوندا فقد أصبحت رمزاً مرئياً للحكمة، كما أصبحت الجِراء (الكلاب الصغيرة) كائنات تدخل البهجة والسرور إلى نفوس الأطفال في القصص والصور.

أما السوترا (محاورات بوذا وحِكَمُهُ) فقد أذهلت الدارسين الذين شاهدوا نصوصها الرهيبة لأول مرة، كما أنَّ العقار قد أعطى النبيذ مذاقاً جديداً فأصبح أحد مكونات الشراب الذي يقدم للذواقة الخبراء.

ولهذا السبب أيضاً سمي الكتاب باسم «دراق سمرقند الذهبي». وعلى الرغم من أنه كان لتلك الثمار نوع من الوجود الفعلي فقد أصبحت أشياءً مبهمة ولا حياة لها إلا في الأدب والاستعارات، وباختصار فهي أشياء تنتمي إلى العالم الفكري بأكثر مما تنتمي إلى العالم الطبيعي.

وفي الملاحظات التالية حاولت جاهداً تفسير المفاهيم والأسماء التي تشكل أهمية خاصة في هذا الكتاب، والتي قد لا تكون واضحة لغير المتخصصين.

وعند ترجمة القصائد أو أجزاء من قصائد فقد آثرت الحفاظ على الصور البلاغية الغريبة في النصوص ولو جاء ذلك على حساب الوضوح، و لم أشأ اللجوء إلى الشرح والتفسير أو البحث عن صور بلاغية مألوفة.

النطق القديم بالألفاظ

عند طرح أسماء الأشخاص غير الصينيين من العصور الوسطى، وكذا أسماء الأماكن والأشياء فقد استخدمت نظاماً افتراضياً -وإن كان مناسباً تماماً- ويقوم على عمل قام به برنارد كارلجرن، وذلك على الرغم من أن العلامات والرموز الصوتية تُصعِّب القراءة. ومع ذلك فقد قمت في بعض الأحيان بتبسيطها بشكل تعسفي. ولقد وضعت قبل كل تركيب نجمة، علماً بأن الحرف (ت) في نهاية أي مقطع في اللغة الصينية في العصور الوسطى كان يمثل الحرف (ر) أو (ل) في اللغات الأخرى. وهكذا فإن النطق التقليدي (أي اللغة الصينية الحديثة السائدة) والذي يستخدمه الكثير من الكتاب يلقي ضوءاً قليلاً (أو لا ضوء على الإطلاق) على الشكل الصوتي لتلك الكلمات القديمة المستعارة؛ فعلى سبيل المثال فإن الاسم الكمبودي القديم لدولة قبل كمبودية قامت على خليج سيام هو «بنام» بمعنى جبل، وذلك نظراً لأنه كان ينظر لملوك تلك الدولة على أنهم بشر لهم صفات الآلهة، ويحكمون البلاد من فوق قمة الجبل المقدس. وهكذا فقد جاءت كلمة «بنوم»، ومنها «بنوم بنه» عاصمة كمبوديا الحديثة. ولقد كُتب ذلك الاسم في عهد إمبراطورية تانج بشكل مختلف، بل وأيضاً في اللغة الصينية الحديثة (فو-نان).

يظهر اسما «تون–هوانج»، «شوزوين» مراراً على صفحات هذا الكتاب، وهما أكبر وأهم مراكز المنتجات والمصنوعات التي ترجع إلى عهد إمبراطورية تانج، وتون – هوانج هي بلدة متاخمة لإقليم كانسو واسمها الرسمي في عهد تانج (شا – تشو) وفيها تم اكتشاف مكتبة مخبأة وذلك في أوائل القرن العشرين. ولقد تضمن ذلك الكنز أعداداً كبيرة من المخطوطات واللوحات الملفوفة. وقد نقل السير أوريل شتاين بعضاً منها إلى المتحف البريطاني (في لندن)، كما نقل بعضاً آخر إلى الببليوتيك ناشونال (المتحف الوطني للكتب) بمعرفة البروفسير بول بليو، ويمكن لمن يهمه الأمر مشاهدتها ودراستها هناك.

أما الشوزين فهو عبارة عن مخزن يرجع إلى العصور الوسطى كان ملحقاً بالمعبد المسمى «تودجان» في نارا بالقرب من كويوتو في اليابان، وقد احتوى على أشياء ثمينة من كل نوع، ومن كافة أنحاء آسيا، وإن كانت –على ما يبدو– تنتمي لعهد إمبراطورية تانج. ويعتبرها بعض الأساتذة اليابانيين –أو بعضها على الأقل– منتجات محلية. وفي كل الحالات فإنها تتوافق مع الأعمال المنسوبة لإمبراطورية تانج المعروفة جيداً، وفي أسوأ الحالات يمكن وصفها بأنها تقليد لمنتجات تانج الأصلية.

العصور القديمة والعصور الوسطى

بالنسبة للصين فإن عبارة «العصور الوسطى» هنا تشير إلى الحقبة ذاتها تقريباً في أوروبا. أما عبارة العصور القديمة فتشير (حسب استخدامي لها) إلى العصور الكلاسيكية (الإغريقية/ الرومانية)، وتتضمن بصفة خاصة عهد أسرة هان الحاكمة والجزء الأخير من عهد أسرة تشو. وأما عبارة «القديم الأقدم» فتشير إلى عهد أسرة شانج وأوائل عهد أسرة تشو. ولقد بذلت كل جهد ممكن لتجنب الخلط والالتباس

الناجمين عن التداخل في المصطلحات ونطق بعض الألفاظ الصينية، واختلافها من القديم الأقدم، إلى القديم، إلى العصور الوسطى.

هسوان تسونج

إذا غضضنا الطرف عن اختلاف بسيط في النغمة التي تنطق بها كلمة هسوان فإن عاهلين قد حملا هذا اللقب بعد وفاتهما، وهو اللقب الذي عرفا به في التاريخ والأكثر شهرة هو ذلك الذي امتد حكمه لفترة طويلة جداً في القرن الثامن، وأحياناً يعرف باسم «مينج هوانج» (المضيء اللامع)، ويرد ذكره مراراً في هذا الكتاب، هو و«قرينته المتألقة» السيدة يانج (كويفي). أما الآخر فقد كان أقل شهرة وإن كان حاكماً جيداً في الأوقات العصيبة في القرن التاسع. وللتمييز بين الاثنين فقد سميت الثاني باسم «هسوان تسونج».

روخشان

يعرف الشرير التقليدي الحقيقي من عصر هسوان تسونج بالتسجيل الرمزي المنداريني لاسمه، وهو ليس باسم صيني. والشكل الحديث للاسم هو «آن لوشان»، وسوف أسميه على الدوام «روخشان» بعد أن أعاد البروفسير إي. جي. بوليبلانك صياغة اسمه، وقد كان ذلك منطوق الاسم بين معاصريه. أما الاسم «روكسانا» فهو من أصل فارسي.

برابرة هُو

في عصور إمبراطورية تانج كانت أسماء الأشخاص والسلع الآتية من كثير من البلدان الأجنبية تحمل لفظة «هُو». وفي العصور القديمة أطلقت تلك الصفة في الغالب على جيران الصين الشماليين. أما في العصور الوسطى (بما في ذلك عهد الإمبراطورية تانج) فقد انطبقت أساساً على أهل الغرب، والإيرانيين بصفة خاصة،

وأحياناً على الهنود والعرب والرومان. ومن الألفاظ المرادفة لتلك الكلمة في اللغة السنسكريتية لفظة «سولي» ومن ثم «ستويوكي» ومن ثم «الايرانيون»، وطالما ترجمتها (وبشكل رديء) إلى «الغربيون» أو «أهل الغرب».

برابرة مان

كانت لفظة «مان» تطلق على الشعوب غير الصينية على الحدود الشمالية لإمبراطورية تانج، والسكان الأصليين في الأقاليم غير الصينية داخل أراضي الصين. كذلك فقد أطلق الاسم على قبائل هندية -صينية معينة، وإن كان من الصعب تحديدها الآن.

لينجنان

الإقليم الجنوبي الأعظم المسمى لينجنان هو تقريباً مقاطعة إكزوانجتونج وكوانجسي حالياً، ولقد استخدمت الاسم بحرية.

آنّام

كلمة آنّام كانت تعني «الجنوب المُؤَمّنْ»، أو «الجنوب الهادئ»، وهو مصطلح استعماري إلى حد ما أطلق على إحدى محميات إمبراطورية تانج في منطقة تونج كينج (ڤيتنام الشمالية حالياً)، وتقع إلى جنوب لينجنان مباشرة، وشمالي تشامبا.

تشيراب

سميت الدولة الكمبودية التي استوعبت «بنام» (فو– نان) باسم تشن –لا (وفقاً للنطق المنداريني الحديث). ولقد فسر البروفسير بليو أصل وتاريخ تلك الكلمة بكلمة «تشيراب» (الذين قهرهم الصينيون) على غرار مدينة «سمريب» الحديثة والتي تعني «الذين قهرهم السياميون».

كيوكو

أطلق اسم «هي–تشو» رسمياً على الإقليم الذي تمركزت به حامية تانج الكبرى في تورفان، ومعنى الاسم «جزيرة الغرب»، وكان الاسم معروفاً لدى كثير من الناس بشكل مختلف هو «سينانكانت» أي «مدينة الصينيين» ولقد سماها الصينيون أنفسهم «كاو–تشانج» وتدريجياً حُرِّفَ محلياً إلى «كيوكو»، وبصفة عامة استخدمتُ هذا الشكل الأخير.

سيرنديا

عادة ما تسمى المنطقة الشاسعة الواقعة بين تانج وترانسوكسانيا باسم «تركستان الصينية»، وأيضاً بأسماء «تركستان الشرقية»، و«حوض تاريم» و «آسيا الوسطى»، و«سينكيانج». أما أنا فقد أسميتها «سيرنديا» حيث استخدمت الاسم الذي أطلقه عليها السير أوريل شتاين.

روما

كان الناس في تانج يعرفون شيئاً عن الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وكانوا يسمونها «روما» نقلاً عن بعض الألسن الشرقية. ولقد استخدمت هذا الاسم، وأحياناً استخدمت لفظة «روم». والنطق الحديث للرّسم القديم هو «فو—لين»، وهذا مختلف تماماً عن الشكل الذي ساد في عهد تانج، والذي لم أشأ استخدامه على الإطلاق، على الرغم من حكم العادة.

تشو

كانت إمبراطورية تانج مقسمة إلى وحدات إدارية كما هو الحال في بلادنا الآن. وكانت كل وحدة تحمل اسم «تشو»، وهي كلمة تعني «أرض تحيط بها المياه»، ومن ثم «جزيرة» أو «قارة». ومن الأساطير المهمة تلك التي تحكي كيف أن البطل «يو» قد تمكن من نزح مياه الفيضان عن الأراضي الصينية، ورسم حدود الأقاليم البدائية التسع، وبهذا أوجد الأماكن ليعيش عليها الناس، وكانت هذه هي الولايات أو المحافظات الأولى. ولقد تواصل لقرون كثيرة استخدام كلمة «تشو» على هذا الغرار للدلالة على مناطق ذات مساحات متباينة. ويجوز أن تترجم تلك الكلمة إلى «الإقليم—الجزيرة»، أو «الجزيرة» فحسب، ولن يكون ذلك غريباً على الإنجليز الذين لديهم «جزيرة إلاي» التي تشبه إلى حد ما «مقاطعة إسكس»، و «كامبريدج شاير». وبالمثل هناك جزيرة فرنسا «آيل دي فرانس». ومع ذلك فقد استخدمت «تشو—تشو»، و«لونج تشو» بدلاً من «جزيرة تشو»، و«جزيرة لونج».

سزو

تقليدياً كانت أول موسسة بوذية في الصين في عهد هان تتمركز في مبنى للمكاتب الحكومية يسمى « سزو» ومن ثم فإن كافة الأديرة والمؤسسات الدينية كانت تسمى« مكاتب» (ويدخل في ذلك المعابد إذا كنا نفهم تلك الكلمة على أنها تعني مبانٍ كثيرة، وقاعات، وحدائق ضمن مجمع كبير). ولقد ترجمت كلمة «سزو» بكلمة «مكتب» أو «مكتب بالمعبد»، أو «المعبد المكتب». وفي عهد تانج كانت بعض المكاتب الحكومية لاتزال تعرف بـ «سزو» أيضاً.

النباتات

يقوم تحديد النباتات في هذا الكتاب أساساً على الأعمال التالية: ج.أ ستيوارت:« المواد الدوائية الصينية: المملكة النباتية (1911م)، ب. أ. ريد: النباتات الطبية الصينية من بن تسو كانج مو (1596م)، (1936م)، آي . هـ . بيركهيل: « قاموس المنتجات الاقتصادية لشبه جزيرة الملايو،(1935م).

«ثروتك، بضاعتك، وملاحوك وربابنتك...،
عند خروج بضاعتك من البحار،
فإنك ترضي الكثير من الناس،
فعن طريق ثروتك وتجارتك الهائلة
زدْتَ ملوك الأرض نعيماً»
حزقيال 27:27-33(*)



الفصل الأول

أمجاد تانـج

(*) نقلاً عن طبعة «دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط» (المترجم).

هذه هي رواية إمبراطورية تانج التي حكمتها أسر متعاقبة من سلالة «لي» التي اشتهرت في كل أنحاء آسيا خلال العصور الوسطى، ولا تزال آثارها تشهد عليها في الشرق الأقصى.

والآن دعونا نلقي نظرة سريعة على إمبراطورية تانج هذه. بداية ينبغي أن نلاحظ أن كلاً من القرون الثلاثة لوجودها الرسمي كان مختلفاً عن الآخر، ومن ثم ينبغي أن نميز بينها بطريقة ما، ثم علينا أن نصمم هيكلاً زمنياً نعلق عليه مادة روايتنا هذه على أن نعلنها صراحة أن هذا الهيكل أو الإطار ليس طبيعياً حيث يركز كثيراً على كل تغيير جذري، ويمر على ما ظل على حاله أو تغير بشكل غير جذري مرور الكرام. ولحسن الحظ، ونظراً لأننا سوف نهتم أساساً بالتجارة والفنون فإن بوسعنا عمل تقسيمات سهلة وعلى أساس القرون بصفة عامة، وهذا أسلوب يتناسب مع الوقائع بشكل ليس رديئاً تماماً.

ولقد كان القرن السابع قرن الفتوحات والاستيطان؛ ففي البداية أطاحت أسرة لي بدولة «سوي» الصينية، وقضت على منافسين لها اتسموا بالقدر ذاته من الطموح، ثم أخضعت الأتراك الشرقيين فيما يعرف الآن باسم منغوليا، وممالك كوجيوريو، وبخش فيما يعرف الآن باسمي كوريا، ومنشوريا، وأخيراً الأتراك الغربيين الذين فرضوا سلطانهم على دويلات –المدن في سيرنديا (أي تركستان الصينية). ولقد مكنت الحاميات الصينية في تلك المناطق من تدفق الصينيين وبضائعهم على التربة المقدسة. وعموماً كان القرن السابع قرن الأسعار الهابطة والاستقرار الاقتصادي، وكان ذلك نتيجة لتوزيع قطع الأراضي الزراعية على الفلاحين، وتطبيق نظام جديد وحازم للضرائب، وهو النظام الثلاثي الشهير لضريبة الغلال التي يدفعها كل ذكر بالغ، وضريبة الأسرة التي تسدد في هيئة أقمشة

حريرية أو كتانية من التي تنسجها نساء الأسر (مع نسبة من الخيوط الحريرية أو غزل القنب)، والكورفيه (فترة من الخدمة في الأشغال العامة يؤديها رجال الأسر)، كذلك فقد كان القرن السابع عصراً للحركة والانتقال والاستيطان حيث هاجر الناس بأعداد كبيرة واستقروا فيما هو الآن وسط الصين وجنوبها باعتبارها أماكن مبشرة بفرص جديدة وثراء محتمل، وأيضاً للهروب من التجنيد الإجباري، والفيضانات المدمرة، وغزوات البرابرة في تلك المناطق المتخلفة.

كذلك فقد كان عصراً اتسم بالتغييرات الاجتماعية وتقلد فيه سادة الأقاليم الجنوبية مناصب تنطوي على سلطة سياسية من خلال نظام الفحص الرسمي، وذلك على حساب أفراد الطبقة الأرستقراطية القديمة في شمال البلاد وارتباطها التقليدي بالثقافة التركية. ووصلت تلك الثورة ذروتها في عهد الإمبراطورة وُو وإمبراطوريتها الانتقالية «تشو» في العقود الأخيرة من القرن السابع.

كذلك فقد كان عصراً لتغلغل الثقافة الهندية متمثلة في الديانة البوذية وفلسفتها مصحوبة بالفنون الهندية في مجالات الفلك والرياضيات والطب وفقه اللغات، حتى وصلت هذه إلى أعلى مراتب الحياة الصينية. وأخيراً فقد كان عصراً شهد انتشار اشتهاء كل ما هو أجنبي من الكماليات والأشياء الغريبة، بدءاً من البلاط الملكي وحتى سكان المدن بصفة عامة.

أما القرن الثامن فقد شهد تانج في أوج مجدها، تانج إمبراطورية النقد الأدبي (وأقطابه توفو، لي بو، وانج وي)، وقد امتدت حتى حوالي عام 765 ، وكذلك الجزء الأعظم من «تانج الوسطى»، وهذه فترة شهدت انتعاشاً بطيئاً في أعقاب الكثير من الكوارث التي تواصلت حتى العقد الثاني من القرن التاسع، وانتهت بظهور نهضة أدبية كبرى (هان يو، بو تشو-آي، ليو تسونج -يوان). وبعد منتصف القرن حدثت تغيرات كبرى. ويمكن تقسيم ذلك القرن إلى نصفين متساويين: الأول هو

الأكثر روعة وعظمة، والثاني كان بمثابة فترة نقاهة، واتسم بكثير من الأمور الشاذة، والنصف الأول الذي شهد أوج أمجاد تانج يقابل عهد الأمجاد في ظل حكم هسوان تسونج، الذي امتد لفترة طويلة واتسم بالثراء والأمان وانخفاض الأسعار حيث «لم يكن هناك ما يمكن اعتباره شيئاً مُكلفاً على وجه الأرض»، وحيث يستطيع الفرد أن يزور تشنج أو هسيانج في الجنوب، أو يتوجه إلى تاي—يوان أو فان—يانج في الشمال، أو يذهب إلى سوزو—تشوان أو ليانج—فو في الغرب، وفي كل مكان كان هناك أسواق ومتاجر ينهل منها المسافرون من أجل التجارة. وعلى الرغم من أن التجار كانوا يسافرون لمسافات تتعدى آلافاً من اللّي (اللّي يساوي حوالي ثلث ميل/المترجم) فلم يكن يتعين عليهم حمل أي سلاح، حتى ولو كان مدية لا يزيد طولها عن بوصة واحدة. من ناحية أخرى توافرت الخيول والبغال للمسافرين على طول تلك الطرق الآمنة. وبالمثل كان هناك شبكة من القنوات المائية كان الغرض من إنشائها توفير وسيلة النقل المائي لحمل «حرير الضرائب» من عند مصب نهر يانجتسي إلى العاصمة، وقد تم تحسينها وتطويرها حتى يمكن استخدامها في نقل البضائع والكماليات الآتية من البلدان الأجنبية. ولقد أدى وجود طرق سريعة برية ومائية إلى دعم التجارة الخارجية. ويضاف إلى تلك العوامل ولع الإمبراطور الشاب بالواردات ذات القيمة العالية؛ فبعد أن أظهر احتقاره للكماليات الغالية في بداية حكمه حيث قام بإحراق كوم كبير منها في ساحة القصر (وكانت المحروقات تتضمن معادن نفيسة، وأحجاراً كريمة، ومنسوجات فاخرة) ارْتَدَّ تحت تأثير الروايات العديدة حول الثراء الآتي من الخارج والذي تراكم في كانتون، وبدأ يعشق الواردات الغالية ويهتم اهتمام الغيور لوضع التجارة الخارجية. وهكذا بدأ الاقتصاد القديم التقليدي يتهاوى تدريجياً حتى انهار تماماً، وفي ظله كانت أسعار قطع القماش الحريري (التافتاه) هي معيار القيمة المتعارف عليه، وكان يستخدم عند شراء أي شيء من البعير حتى هكتار من

الأرض، وحل محله في عام 731 اقتصاد قائم رسمياً على النقود، وكان ذلك التحول ناجماً عن الرخاء غير المسبوق، خاصة في المراكز التجارية مثل يانج-تشو، وكانتون. وهكذا أصبح النقد الأداة المحركة للتجارة، وجاء قبوله بمثابة منحة لطبقة التجارة الصاعدة. ولقد كان أمراً حتمياً إيقاف العمل بنظام الضرائب الذي ساد في القرن السابع، وفي عام 780 بدأ تطبيق نظام ضريبي مزدوج جديد، وتوقف تحصيل الضرائب العينية والعمالية وحلت محلها ضريبة نصف سنوية تدفع نقداً.

ولقد جاء هذا التحول أيضاً استجابة للاقتصاد النامي الجديد والقائم على النقود، وكان هذا الاقتصاد الجديد أكبر مشجع لطبقة التجار. وإذا كان عالم المال الجديد قد قفز بالتجار وأصحاب الأعمال والمشاريع إلى أعلى الدرجات فقد كان السبب المباشر في انهيار المزارعين المستقلين، واختفاء الحقول الصغيرة التي كانوا قد منحوا إياها عند بداية عهد الأسرة الحاكمة. وهكذا وبعد أن تجاوز القرن منتصفه أصبح عصراً للفلاحين الذين لا يملكون أرضاً والمستأجرين قليلي الحظ الذين حلوا محل الفلاحين الأحرار، مما أثار موجة عداء عارمة ضد ملاك الأراضي الأثرياء وأصحاب الإقطاعيات. ولقد كان كل ذلك راجعاً للحروب، ونظام الخدمة العامة الإلزامية، والعبء الثقيل المتمثل في الضرائب.

ولقد كان عهد هسوان تسونج انتصاراً هائلاً للطبقة الأدبية الجديدة والتي يمثلها أصدق تمثيل رجل الدولة البارز تشانج تشيو-لينج الذي كانت حياته العملية ظاهرة لافتةً حقاً. ولقد تحدَّر من الجنوب الاستوائي، وكان عدواً للعسكر والسياسيين الأرستقراطيين، وصديقاً لأهالي الجنوب والتجار. وخلال العهد ذاته تحقق النصر النهائي للطبقات المتميزة في عهد الدكتاتور لي لين-فو الذي حظي بدعم إمبراطوري، حيث كان العاهل يأمل في وجود إدارة قوية. وبعد وفاته تولى روخشان «المتألق» السلطة وناصب الحكومة الشعبية العداء وذلك بتشجيع من الأسرة ذات الدم الصيني البحت في هوبي، وقاد المحاربين القدماء الموالين له منطلقاً

من الحدود الشمالية الشرقية، واجتازوا وادي النهر الأصفر، وقاموا بنهب العاصمتين.

وهكذا فقد كان النصف الثاني من القرن الثامن عصراً مضمحلاً شهد كذلك موت الكثير من السكان، وانخفاضاً حاداً في التعداد العام. كذلك فقد شهد القرن الثامن تغيرات حدودية حيث قام المحاربون المنتمون لدولة نان–تشاو الجديدة (مقاطعة يُونّان لاحقاً) بقطع الطريق الغربي المباشر المؤدي إلى بورما والهند، وتشبثوا باستقلالهم. وفي الوقت نفسه آلت السلطة على الحدود الشمالية الغربية للأتراك الأجهوريين في منتصف القرن فكانوا بمثابة أصدقاء متغطرسين ومنافسين للصينيين. وفي منشوريا انقض الناس من جنس خيطان على الحاميات الصينية وجردوها من قوتها بعد أن ظلوا لا يشكلون أي خطر يذكر لمدة قرنين. وبالمثل بدأ أهالي التِّبتْ يهاجمون القوافل التجارية المتجهة غرباً، واستمروا في ذلك إلى أن أخمدهم القائد العظيم كاو هسن–تشيه (وهو من أصل كوري)، وفي عام 751 انهارت جيوش ذلك القائد تحت وطأة هجمات جيوش العباسيين وذلك بالقرب من نهر طالاس، وبعدها استولى المسلمون على آسيا الوسطى، وبدأوا يظهرون في كل مكان. ولقد قامت القوات العربية بمساعدة الحكومة في إخماد روخشان المتألق، وباتجاه معاكس تورط قراصنة من العرب في عمليات السلب والنهب التي تعرضت لها كانتون بعد ذلك بسنوات قليلة.

ومن ناحية أخرى كان القرن الثامن عصراً للتسامح العقائدي، خاصة مع الديانات الأجنبية، فقد أقامت كل طائفة شعائرها وطقوسها في أماكن العبادة الخاصة بكل منها تحت حماية الحكومة وفي كل مدن الصين: البوذيون من كل نوع، والنستوريون من ذوي الأصل السوري (الشامي)، والمانيشيون من ذوي الجنسية الأجهورية. ولقد دامت حركة النهضة الثقافية والاقتصادية التي أعقبت

غزو الشمال تحت لواء روخشان المحبوب بشدة طوال العقدين الأولين من القرن التاسع، وهو قرن يبدأ -من حيث أغراض كتابنا هذا- حوالي عام 820 وينتهي بزوال الأسرة الحاكمة في عام 917. ولقد أعقب تطبيق نظام الضريبة المزدوجة إلى فترة من الانكماش، وهذه بدورها أعقبتها فترة ارتفعت فيها الأسعار ارتفاعاً تدريجياً ابتداءً من العقد الثالث من هذا القرن التعيس، حيث تناقص المعروض من السلع الأساسية والواردات الثمينة على حد سواء بسبب سلسلة من الكوارث الطبيعية مثل الجفاف وانتشار الأوبئة والجراد وكوارث أخرى من صنع الإنسان نفسه، وهكذا كانت المعاناة عامة وشاملة. وكانت أخطر الكوارث من صنع الإنسان خلال ذلك القرن تمرد هوانج تشاو الذي اجتاح البلاد بأسرها خلال حقبتي السبعينيات والثمانينيات، ووصل أوج خطورته فيما عرف بمذبحة التجار الأجانب في كانتون عام 879، الأمر الذي ألحق ضرراً بالغاً بالتجارة وقطع الإيرادات المترتبة عليها. ولقد شهد ذلك القرن تراجعاً للسلطة الصينية على ما كان في السابق دولاً عميلة ورافدة، كما تميز بظهور منافسين جدد مثل قوم نان-تشاو الذين أغاروا على المحمية الصينية القديمة في فيتنام، وقوم قيرجيز الذين قهروا قوم الأجهوريين الأقوياء المحنكين، وأصبحت ديانة هؤلاء (المانوية) ضعيفة ولا تجد من يدافع عنها في الصين. وفي عام 845 تعرضت هي والديانة البوذية لحركة اضطهاد كبرى استهدفت الديانات والعقائد الأجنبية، وكان من أهداف تلك الحركة علمنة الطبقات الدينية لأغراض تتعلق بالضرائب وتحويل أعداد كبيرة من الأيقونات المقدسة إلى عملات نحاسية. لكن تلك الدوافع الاقتصادية لا تجدي إلا في عهد يسوده الرعب والخوف من الأجانب. وبالمثل فقد شهد ذلك القرن تضاؤلاً خطيراً في سلطة الدولة تحت ضغط قوى الطرد المركزي، الأمر الذي أدى في النهاية إلى تحول مقرّات أمراء الحرب الإقليميين العظام إلى بلاط ملكي مصغر، وبالتدريج اضمحلت سلطة الأسرة الحاكمة، وأخيراً اندثرت سلالة "لي" ودولتها تانج الكبرى في القرن العاشر.

وخلال تلك القرون الثلاثة، التي تميزت بالتباين والتغير والتبديل والتعديل، تدفق على تلك البلاد الرائعة أناس من كل دولة في آسيا، وبعض هؤلاء قد جاء بدافع الفضول، وبعض آخر يحدوه طموح غير محدود، وبعض ثالث بحثاً عن الرزق، وبعض رابع اضطر للمجيء اضطراراً.

وكان أهم الزوار الأجانب فئة السفراء والمبعوثين، ورجال الدين، والتجار؛ وهؤلاء كانوا يمثلون المصالح السياسية والدينية والتجارية على الترتيب، وكان أعظم المبعوثين بيروز نجل الملك يازدجارد الثالث، وسليل الساسانيد الذين كانوا أتباعاً فقراء للعاهل الصيني في القرن السابع. وكان هناك مبعوثون آخرون على شاكلة بيروز، جاؤوا باحثين عن مزايا لصالح الأسرة الحاكمة التي يمثلونها سواءً كانت هذه الأسر في صعود أو هبوط. كذلك فقد تواجد الهنود البوذيون بكثرة، ومعهم كهنة فرس من عقائد مختلفة: المجوس الذين من أجلهم أُعيد تشييد معبد مازدين في تشانج–آن عام 631، والنستوريون الذين كُرِّموا ببناء معبد لهم عام 638 والمانويون الذين عرضوا عقائدهم الغريبة على البلاط الإمبراطوري عام 694 وصغار الأمراء الأتراك الذين كانوا يقتفون أثر تجار الأحجار الكريمة واللؤلؤ القادمين من عُمَان، والحجاج اليابانيون الذين كانوا ينظرون بدهشة بالغة لمواكب السوجديين. وهكذا فقد تواجد على أرض تانج، وعلى الدوام، خليط عجيب من كل الأجناس وأصحاب المهن والحرف، وكان كل قادم إلى تانج يحمل معه أشياء وأدوات غريبة الشأن والشكل والغرض، إما لتقديمها كهدايا للإمبراطور، وإما لبيعها، أو لمجرد التباهي بها. وفي المقابل فقد حقق بعض الأجانب أمجاداً هناك، مثل ذلك التاجر السوجدي الذي عين حاكماً حامياً على آنّام. ولقد حقق بعضهم

ثروات هائلة مثل ذلك التاجر اليهودي الذي قَدِمَ من عُمان وعاد ومعه آنية من الخزف الأسود ذات غطاء ذهبي وبداخلها وجد «سمكة ذهبية ذات عيون ياقوتية وتنبعث منها رائحة مسك من أرقى الأنواع، وكانت محتويات الآنية تساوي خمسين ألف دينار». وأخيراً فقد كان بعض الناس يأتون لغرض متواضع وبسيط هو البحث عن الحكمة، ومن أمثال هؤلاء شباب التيبت الأرستقراطيين الذين كان آباؤهم يرسلونهم بحثاً عن تفسيرات جيدة يعتمد عليها للنصوص الصينية القديمة.

السفن والطرق البحرية

كان هناك طريقان إلى الصين: الطريق البري باستخدام القوافل، والطريق البحري باستخدام السفن التجارية الكبيرة. وكانت السفن العملاقة تجوب المحيط الهندي وبحار الصين، وعلى متنها الغربيون التواقون لسحر الشرق. وفي الشمال تركزت فنون التجارة والملاحة في أيدي الكوريين، خاصة بعد دمار مملكتي باخي، وكوجيريو على يد مملكة سيلاً خلال حقبة الستينيات من القرن السابع، حيث تدفق على البلاد السفراء والكهنة والتجار من الدولة المنتصرة، واللاجئون من المملكتين المقهورتين. وعادة كانت السفن الكورية تبحر بطول الحافة الشمالية للبحر الأصفر ثم ترسو في شبه جزيرة شانتونج. وكان ذلك أيضاً هو الطريق المعتاد بالنسبة للسفن اليابانية القادمة من هيزين، على الأقل حتى نهاية القرن السابع عندما دَبَّ العداء بين اليابان وسيلا. وفي القرن الثامن اضطر اليابانيون لعبور البحر المفتوح من عند ناجازاكي وذلك لتجنب المرور بالقرب من سيلا، متجهين صوب مصب نهر هوآي، أو مصب نهر يانجتسي، أو صوب خليج هانج–تشو. إلا أنه وفي القرن التاسع ازدادت تلك المسالك خطورة، الأمر الذي جعل الحجاج والسفراء اليابانيين يتجنبون تلك الرحلات فلجأوا لاستخدام السفن الكورية ذات القدرات

الملاحية الأفضل، يأتون عبر شانتونغ إلى مصب نهر هوآي، أو حتى المخاطرة باستخدام السفن الصينية التي كانت تتجه جنوباً إلى شيكيانغ وفوكين بدلاً من يانغ تشو. وعلى الرغم من سيطرة أساطيل سيلا على تلك المياه فقد استخدمتها السفن التجارية لدولة بو-هاي المنشورية، والتي كانت معتمدة ثقافياً على إمبراطورية تانغ، بل إن الحكومة كانت قد جهزت حانات خاصة لإقامة السفراء من دولة بو-هاي، وكذا من سيلا في منطقة تنج-تشو في شانتونغ. ولكن الكوريين كانوا أغلبية، وقد شكلوا بالفعل جالية أجنبية كبيرة على الأراضي الصينية، وكانوا يعيشون في أحياء كبيرة في مدن تشو-تشو، ولين-شوي على شبكة القنوات ما بين نهري يانجتسي والنهر الأصفر، وكانوا يتمتعون -شأنهم شأن الأجانب الآخرين- ببعض الحقوق والمزايا خارج نطاق القوانين الوطنية.

ويلاحظ أن الجزء الأعظم من تجارة الصين الخارجية كان ينتقل عبر بحر الصين الجنوبي والمحيط الهندي، كما كانت تحكمها التغيرات الدورية في الرياح الموسمية، إذ كانت السفن المغادرة لميناء كانتون تبحر قبل هبوب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، أي في أواخر الخريف أو في الشتاء. كذلك كانت تلك الرياح نفسها هي علامة الإبحار للسفن من الموانئ العظمى على الخليج الفارسي الواقعة على بعد آلاف الأميال إلى الغرب من الصين. فقبل مغادرة السفن التجارية ميناء كانتون كانت «سفن الإسلام» قد أبحرت بالفعل. فإذا كانت هذه الأخيرة قد غادرت البصرة أو صيراف في سبتمبر /أيلول أو أكتوبر/ تشرين أول فإنها تكون قد بارحت الخليج الفارسي في الوقت المناسب بحيث تستغل الرياح الموسمية الشتوية المواتية في رحلاتها عبر المحيط الهندي، ومن ثم فإن من المتوقع أن تواجه الرياح الموسمية الجنوبية الغربية العاتية في يونيو / حزيران في رحلاتها المتجهة شمالاً من الملايو وعبر بحر الصين الجنوبي إلى مقاصدها في جنوب الصين، وهكذا فقد كانت القاعدة بالنسبة للسفن المتجهة غرباً أو شرقاً على السواء هي «الإبحار في

اتجاه الجنوب شتاء، وفي اتجاه الشمال صيفاً».

ومن القرن السابع حتى القرن التاسع كان المحيط الهندي محيطاً آمناً ثرياً تجوبه السفن من كل الجنسيات. أما بحر العرب فقد كان تحت حماية القوة الإسلامية، وبعد انتقال عاصمتها من دمشق إلى بغداد في عهد الدولة العباسية ازدهرت تجارة الشرق بشكل واضح نظراً لموقع العاصمة الجديدة عند رأس الخليج الفارسي.

وكان أقرب ميناء لبغداد هو ميناء البصرة وإنْ لم تكن السفن الكبيرة قادرة على الوصول إليه. وإلى الجنوب من البصرة، وعلى رأس الخليج هناك ميناء قديم يحمل اسم «عبد الله» وكان تابعاً للإمبراطورية الفارسية. أما أهم الموانئ فقد كان صيراف الواقع على الجانب الفارسي من الخليج جنوبي شيراز، تلك المدينة التي دانت بكل ثرائها ورخائها لتجارة الشرق، وهيمنت على الخليج حتى تعرضت لزلزال مدمر عام 977. وكان غالبية سكانها من الفرس، وإن عاش بها أيضاً الغواصون العرب الذين كانوا يبحثون عن اللؤلؤ والتجّار المغامرون الذين كانوا يأتون من عُمان أو من العراق (أرض ما بين النهرين) بغرض استقلال السفن المتجهة إلى الهند والصين. ولقد تسبب اضمحلال صيراف في تدهور التجارة مع الشرق الأقصى، وذلك بعد أن تعرضت لضربة عنيفة جراء ما تعرضت له مدينتا البصرة وعبد الله من سلب ونهب على أيدي العبيد الأفارقة الثائرين في حقبة السبعينيات من القرن التاسع.

ومن هذه الموانئ كانت سفن مختلف الدول تبحر بقيادة أطقم يتحدث أفرادها باللغة الفارسية نظراً لأن تلك كانت اللغة السائدة في مناطق البحار الجنوبية، مثلما كانت اللغة السوجدية اللغة السائدة على طول طرق آسيا الوسطى. وكانت السفن تتوقف في مسقط بعُمان وهي تستعد للخروج إلى المحيط الهندي، وقد تغامر بالدخول إلى الموانئ الساحلية في السند والتي كانت عرضة لهجوم القراصنة، أو تتجه مباشرة إلى مالابار ومنها إلى سيلان (وكانت هذه تعرف أيضاً باسم «بارد

الأسود»، و «جزيرة الياقوت») حيث كانوا يشترون الجواهر والأحجار الكريمة الأخرى، ومن هنا يتجه الطريق شرقاً نحو نيكوبار حيث كانوا يقايضون –على الأرجح– السلع مع المتوحشين العرايا في زوارقهم الطويلة الرفيعة، ويحصلون على جوز الهند والعنبر. وبعد ذلك يتجهون نحو شبه جزيرة الملايو – ويستقرون قليلاً (في كيدا على ما يبدو)، ومنها كانوا يبحرون عبر مضيق مالاكا صوب أراضي الذهب – سوفارنا بومي، جزر الهند (الشرقية) الأسطورية. وأخيراً يتحولون شمالاً تحت وطأة رطوبة الصيف والرياح الموسمية حيث يشترون المناديل الحريرية من هانوي أو كانتون، أو حتى من أماكن بعيدة في الشمال.

ولقد انبهر الصينيون بضخامة السفن التجارية التي كانت تجوب موانئ الصين في عهد إمبراطورية تانج، وهم الذين أطلقوا عليها أسماءً عديدة مثل «أرجوزات البحار الجنوبية»، و«أرجوزات الأقاليم الغربية»، و«أرجوزات برابرة مان»، و«أرجوزات الملايو»، و«أرجوزات السنهال»، و«أرجوزات براهما»، وأخيراً الاسم الأكثر شيوعاً «الأرجوزات الفارسية». وليس هناك ما يؤكد أن السفن الصينية في ذلك العصر كانت تقوم بالرحلة الطويلة المحفوفة بالأخطار وصولاً إلى صيراف. ولم تظهر السفن الصينية الكبيرة التي جابت المحيطات إلا بعد ذلك بعدة قرون، في عهدي سونج، ويُوان، وأوائل عهد مينج. أما في عهد إمبراطورية تانج فقد استخدم الرحالة المتجهون غرباً سفناً أجنبية. وإذا كان الكتّاب العرب من القرنين التاسع والعاشر قد أشاروا إلى سفن صينية في موانئ الخليج الفارسي فإنهم كانوا يقصدون «السفن المستخدمة في التجارة الصينية». فإذا كان العرب والفرس قد تحدثوا عن «سفن الصين الشراعية»، و «السفن الشراعية الضخمة الشرقية»، فإن ماتحمله من بضائع إندونيسية مثل «القرْفَة»، أو «خشب الصندل» ستوصف على أنها «صينية» وذلك راجع إلى جلبها من بلاد قريبة من الصين، أو على ظهر سفن صينية. وبالمثل فإن ما يرد من إشارات في الكتب الصينية إلى «الأرجوزات

الفارسية» فلا بد أنهم قصدوا «السفن المستخدمة في التجارة مع الخليج الفارسي»، والتي غالباً ما كان يقود دفتها بحارة من الملايو والتاميل.

أما المصادر الصينية فتشير إلى أن السفن الكبيرة التي استخدمت في تلك التجارة المربحة قد أتت من سيلان، وكان طول الواحدة منها مائتي قدم، وتحمل ستمائة أو سبعمائة رجل. والكثير من تلك السفن استخدم الحمام الزاجل لنقل الرسائل، كما كان على جانبي كل منها قوارب للنجاة، أما السفن التي بنيت في الخليج الفارسي فقد كانت أصغر، وذات أشرعة مثلثة الشكل، وأبدانها كأبدان السفن الشراعية الصغيرة، أي بألواح خشبية ملتصقة، ليس بواسطة المسامير وإنما باستخدام ليف جوز الهند، ومطلية بزيت الحوت حتى لا يتسرب إليها الماء، أو بورنيش اللّك لصيني.

القوافل والطرق البرية

وكانت ثروات البلدان الشرقية تأتي عن طريق البر كذلك، من الشمال، ومن الشرق، ومن الشمال الغربي، ومن الجنوب الغربي، محملة على عربات، أو على ظهور الدواب (الجمال والخيول والبغال والحمير). وكانت منتجات شعوب منشوريا وكوريا تأتي عبر غابات وسهول لياو–يانج حيث عاشت قبائل تنجوزية ومنغولية أصلية، ونزولاً إلى ساحل خليج بو–هاي وحتى أهم المراكز عند نهاية سور الصين العظيم حيث يصل إلى ممر ضيق يفصل بين الجبال والبحر. وهنا كانت توجد مدينة اسمها «التنين الأسود» (لو لونج)، ومجرى مائي اسمه «يو» وإن كان قد تلاشى منذ عهد تانج، وحيث توجد قلعة حدودية ومحطة جمركية.

أما الطرق العظمى المسماة بطرق الحرير فكانت تبدأ من الحدود الشمالية الغربية للصين بطول حافة صحراء جوبي وتؤدي إلى سمرقند، وفارس، وبلاد الشام.

وفيما وراء «بوابة الياقوت» كانت هناك طرق بديلة، وإن لم يكن أي منها

جذابا. وأحياناً يمكن تحديد طرق القوافل من الهياكل العظمية للبشر ودواب الحمل، ومن بين هذه الطرق الطريق المرعب المباشر من تون هوانج إلى طرفان عبر تلال التنين الأبيض، وهي جزء من القشرة الملحية التي خلفتها بحيرة لوب–نور القديمة. وكانت تلك الصحراء المطلقة مسكونة بالعفاريت، ومن ثم كان قائدو القوافل يفضلون الطريق المار بـ آي–وُو (هامي)، وهكذا يصلون إلى طُرفان عن طريق تفريعة شمالية، ومن طُرفان يتجه المسافر غرباً عبر أراضي الأتراك الغربيين شمالي جبال السماء، أو يسلك اتجاه الجنوب الغربي المختصر صوب الجنوب من تلك الجبال ثم عبر كُوخَا وغيرها من المدن – الواحات في تركستان الصينية. ومن تلك المنطقة كان هناك طريق موازٍ من تون–هوانج وكان يعرف بالطريق الجنوبي، وكان يمتد بطول الحافة الشمالية لجبال كون–لون الغامضة، ومن ثم عبر خوطان حتى البامير. ويرجع الفضل في ارتياد القوافل لتلك الطرق إلى الخصائص الطيبة التي تميزت بها الإبل ذات السنامين، ومنها قدرتها على اشتمام عيون المياه الجوفية التي كانت تطفيء ظمأ التجار، وأيضاً قدرتها على التنبؤ بالعواصف الرملية المميتة. فعندما تقترب مثل تلك الرياح العاصفة، لا تحس بها إلاَّ الإبل المتقدمة في العمر، فتقف متشابكة وتدفن أفواهها في الرمال، فينتبه الناس لتلك الإشارة، ومن ثم يغطون أفواههم وأنوفهم باللبادات. وعلى الرغم من أن مثل تلك العواصف تمر سريعاً فإن الناس يتعرضون لخطر الموت المفاجيء إن لم يغطوا أفواههم وأنوفهم على هذا النحو.

وثمة طريق تجاري بري آخر أقدم كثيراً وإن قل استخدامه في عصور ما قبل إمبراطورية تانج، وكان يخترق شزوان مروراً بما يعرف الآن باسم مقاطعة يُونّان، وقد انقسم إلى طريقين خلال الصدعات المرعبة التي حدثت في إرّاوادي العليا في بورما، مما جعل الطريق يؤدي في ذلك الحين إلى البنغال. وكانت يُونّان عندئذ منطقة يسكنها البرابرة الذين حاولت حكومة تانج إخضاعهم مراراً ولكن دون

جدوى. وبقيام دولة نان -تشاو الجديدة في القرن الثامن أُحبطت تماماً محاولات إعادة فتح ذلك الطريق القديم المؤدي إلى بورما، وذلك لأن تلك الدولة كانت على علاقات صداقة مع أهالي التبت الذين دأبوا على الإغارة على الحدود، بينما كانت علاقاتها بالصينيين أقل حرارة. وبعد أن أقدمت نان-تشاو على غزو تونغ-كينج في عام 863 تمكن الصينيون في النهاية من كسر شوكتها العسكرية. وحوالي ذلك الوقت كانت التجارة الخارجية للصين قد بدأت تتراجع، الأمر الذي قلل كثيراً من قيمة ما غنمته. وكان واحد من طرق بورما هذه يمر بالقرب من مناجم الكهرمان في ميتكيانا، ليس بعيداً عن المكان الذي استخرج منه الجاديت في العصور الحديثة (الجاديت معدن أخضر اللون قوامه سليكات الصوديوم والألمونيوم/المترجم)، وكان هذا المعدن أيضاً يعاد إلى الطريق القديم عبر يُونَّان ومن ثم إلى ورش الصقل في بكين.

ومن ناحية أخرى كان الحجاج البوذيون يستخدمون في بعض الأحيان الطريق الوعر غير المباشر إلى الهند مروراً بالتبت، وعادة عن طريق نيبال.

المستوطنات الأجنبية في عهد تانج

والآن دعونا ننظر إلى مختلف المدن والبلدات الصينية التي تجمع فيها الأجانب، وإلى الطرق التي ارتادوها خلال تنقلهم داخل البلاد. ولنبدأ بالجنوب. فقبل عهد إمبراطورية تانج كان المسافرون بحراً يحطون عادة في ميناء تونج كنج في بحر الصين الجنوبي، قريباً من هانوي الحديثة. أمّا بعد قيام تلك الإمبراطورية تحول التجار العرب والهنود الشرقيون بسفنهم التجارية الكبرى إلى كانتون أو أبعد منها شمالاً. وفي ذلك الوقت كانت تشاو-تشو عاصمةً للمحمية الصينية في تونج كنج حيث عاش الأناميون الذين اشتهروا بمضغ التنبول (أوراق نبات متسلق/المترجم)، وكان للمحمية ميناء يعرف باسم «لونج-بين» . وعلى الرغم من انهيار التجارة

الخارجية لتشاو–تشو بعد صعود كانتون في القرن السابع فإنها لم تندثر كلية، بل إنها استعادت بعضاً من عافيتها بعد منتصف القرن الثامن. وخلال العقود الأخيرة من ذلك القرن، ونظراً لتعسف المسؤولين الجشعين والعملاء الطامعين في كانتون بات التجار الأجانب يفضلون الذهاب إلى تشاو–تشو.

والواقع أن أياً من المدن الكبرى أو الصغرى التي كان التجار الأجانب يتجمعون بها لم يصل إلى ما وصلت إليه كانتون وميناؤها من رخاء، والذي كان يسمى «خانفو العرب»، و«صين الهنود». وكانت كانتون حينذاك مدينة حدودية تقع على حافة برية استوائية يسكنها الوحوش، وتنتشر فيها الأمراض والأوبئة البغيضة، وإن أحاطت بها وبشكل رائع أشجار الأشنة والبرتقال والموز والتين البنغالي. وخلال حكم أباطرة تانغ المتعاقبين أصبحت كانتون مدينة صينية صِرْفَاً، على الرغم من أن جزءاً كبيراً من سكانها الذين بلغ تعدادهم 200,000 نسمة كانوا برابرة. وعلى الرغم من ثرائها فقد كانت تفتقر للنظافة والنظام والترتيب، حيث أحاط سورها الثلاثي ببيوت خشبية ذات أسقف من القش، وهذه كانت دائماً عرضة للزوال جراء الحرائق المدمرة، واستمر ذلك الحال حتى عام 806 عندما تولى مقاليد السلطة فيها حاكم ذكي أمر الناس بتبليط أسقف منازلهم. وفي مصب النهر القريب من تلك المدينة النابضة بالحياة، رست السفن التجارية الكبيرة القادمة من بلاد البراهما، وبلاد فارس، وجزر الملايو بأعداد لا تحصى، وكلها تحمل المواد العطرية، والعقاقير، والأشياء الثمينة والنادرة. وكانت حمولتها مرصوصة وكأنها التلال. وفي مقابل بضاعاتهم المؤلفة من الأخشاب الاستوائية ذات الرائحة الطيبة، والأدوية التي ترقى إلى مرتبة الأساطير، كان هؤلاء التجار ذوو البشرة السمراء يحصلون على بالات من الحرير، وصناديق من الأطباق والأكواب الصينية، وعبيد. ولقد أدى ذلك التبادل إلى إثراء رجال الأعمال الصينيين الذين كانوا على استعداد تام للتخلي عن مباهج الحياة في الشمال مؤثرين عليها الأرباح الطائلة من

وراء التجارة في الجنوب، الأمر الذي عزز من هيبة حاكم المدينة والإقليم «... الذي يحمل ستة من ذيول الياك (ثور التبت الضخم، طويل الذيل/ المترجم) ويرمز كل منها إلى جيش بأكمله، وبهذه الجلالة وتلك العظمة لا يمكن تمييزه عن ابن السماء» (الاسم الذي كان يطلق على أباطرة الصين).

ولقد استقر الكثير من هؤلاء الزوار في الحي الأجنبي في كانتون الذي كان قد نشأ منفصلاً (بقرار إمبراطوري) جنوبي النهر لتحقيق الراحة لكافة الناس من كافة الأجناس والجنسيات الذين يشاؤون البقاء في كانتون من أجل التجارة، أو انتظاراً لقدوم الرياح المواتية. وكان يحكم هؤلاء الناس شخصية محترمة، وكانوا يتمتعون بحقوق وامتيازات خاصة خارج نطاق القوانين الوطنية. وهنا كان المواطنون من الأمم المتحضرة (مثل العرب والسنهاليون) يعيشون جنباً إلى جنب مع التجار الأقل ثقافة مثل «برابرة مان البيض، وبرابرة مان الحمر». وهنا أيضاً تجد الأصوليين مثل البوذيين الهنود في أديرتهم الخاصة التي كانت تضم بِرَكاً مزينة بزهور اللوتس الزرقاء المعطرة، تجدهم قريباً من أصحاب المذاهب المنشقة مثل المسلمين الشيعة الذين فروا من خراسان بسبب ما تعرضوا له من اضطهاد، وأقاموا مسجدهم الخاص في الشرق الأقصى. وباختصار تجد هنا أجانب من كل لون وجنس، وصينيين من كل مقاطعة، وما أن يسمعوا قرع طبول الظهيرة حتى يهرعوا إلى السوق الكبير، يجوبون المتاجر والمخازن، ثم يتفرقون لدى سماع قرع طبول الغروب ويعود كل إلى الحي الذي يقطن فيه، أو يبقون لفترة يتساومون بلغاتهم ولهجاتهم الغريبة في الأسواق الليلية.

لكن ثمة بقع سوداء على تاريخ تلك المدينة المزدهرة: جرائم قتل، وإغارات للقراصنة وقطاع الطرق، وأعمال السلب والنهب من جانب المسؤولين الفاسدين، وهذه الشرور مرتبطة، بمعنى أن كلاً منها يؤدي للآخر. فعلى سبيل

المثال حدث في عام 684 أن قتل ربان سفينة شحن من الملايو الحاكم لو-يوان-جوي الذي كان قد استغل منصبه وحاول سرقة شحنة السفينة. وقامت الحكومة المركزية بتعيين رجل فاضل خلفاً للحاكم الصريع، ولكن حدث في السنوات التالية على ذلك الحدث أن قام بعض الشباب المرتدين أرواباً حريرية والذين طردوا من أماكن اللهو بالمدينة بتعويض أنفسهم عما خسروه من مزايا، ودأبوا على التعرض للتجار. ولهذا السبب ومثله، وحتى يعود النظام والانضباط للمدينة، ولضمان تدفق الكماليات والدخل على البلاط الإمبراطوري استحدثت الحكومة في بداية القرن الثامن منصب مأمور السفن التجارية (أو ممثل الحكومة المركزية) ليتولى مسؤولية حماية السفن التجارية، وبات ذلك منصباً مهماً وأحياناً يدر دخلاً كبيراً لشاغله. والمنصب على هذا النحو يعادل مسؤول الجمارك حالياً، وهو من الأهمية بمكان في مدينة صعبة المراس مثل كانتون. ومما دفع الحكومة لاستحداث ذلك المنصب أيضاً كثرة ما كانت تتلقاه من شكاوى، فقد بعث الكثير من الأجانب بشكاوى إلى الإمبراطور أشاروا فيها إلى تعرضهم للسلب والنهب والاعتداء. ولا بد أن نلاحظ هنا أن المجرمين لم يكونوا صينيين في كل الحالات، ففي عام 758 أغارت على المدينة مجموعات من العرب والفرس الذين أطاحوا بحاكمها، ونهبوا المخازن، وأحرقوا المساكن ثم لاذوا بالفرار عن طريق البحر، وربما اتجهوا إلى ملجأ آمن للقراصنة في جزيرة هينان. ولقد ترتب على تلك الكارثة زوال أهمية المدينة كميناء قرابة نصف قرن، وكانت السفن خلال تلك الفترة تتجه عوضاً إلى هانوي.

ومن المصائب التي حلت بتلك المدينة الحدودية الزاهية تلك الممارسة التي نشأت في النصف الثاني من القرن الثامن -ممارسة تعيين أغاوات من القصر الإمبراطوري في منصب مأمور السفن التجارية المشار إليه آنفاً، وهي ممارسة أدت إلى ذلك الشر المستطير الذي عرف باسم «أسواق القصور»، وهو اسم يشير فيما يشير إلى تدخل رجال البلاط الطامعين هؤلاء في شؤون التجارة. ففي عام 763 بلغ الأمر مداه

عندما تمرد أحدهم على العرش ذاته، وبصعوبة بالغة تم القضاء على ذلك التمرد. وفي الوقت نفسه وصلت التجارة إلى حالة أشبه بالركود. ولقد أشار الشاعر توفو في اثنتين من قصائده إلى توقف تدفق السلع الكمالية في اتجاه الشمال من كانتون في ذلك العصر، فقال فيما قال: «وفيما يتعلق بلآلئ البحار الجنوبية، فقد أصبح الموقف هادئاً منذ فترة طويلة»، وقَلَّتْ الموارد من حيوان وحيد القرن الحي، وحتى من ريش القاوند (طائر الرفراف الذي يسمى أيضاً مداعب ظله). وحتى الحكام الشرفاء والنزهاء من أمثال لي ماين الذي حكم الميناء لمدة ثلاث سنوات ابتداء من عام 769 و لم يحدث خلالها أن تعرض الأجانب للسلب أو النهب أو الاعتداء أو التهديد، وتضاعف حجم التجارة الخارجية عشر مرات —حتى هؤلاء لم يتمكنوا من كبح جماح المسؤولين الأقل رتبة والذين سيطر عليهم الجشع والطمع. ولقد تضاعفت أعداد السرقات الصغيرة آلاف المرات، ومن حين لآخر كان اللصوص الكبار من المسؤولين الرسميين، مثل وانج أو الذي تمكن في السنوات الأخيرة من القرن الثامن من جمع ضريبة عامة وخاصة، وأرسل صناديق لا تحصى ولا تعد إلى عائلته في الشمال مليئة بالعاج واللؤلؤ حتى فاقت ثروته الخاصة موارد الخزانة العامة.

ولقد أدت تلك الآفات المزمنة الحادة إلى تحول جزء من تجارة المدينة إلى تشاو- تشو في الجنوب وجزء آخر إلى هاي-يانج (ميناء تشاو-تشو الواقع إلى الشمال منها). لكن الظاهر أنه لم يكن ممكنا القضاء على المدينة ورخائها قضاءً كلياً أو دائماً. فمن حسن حظها أن وُلِّيَ أمرها لبعض من الحكام الأذكياء ذوي الرأي السديد في العقود الأولى من القرن التاسع، وسارت الأمور بشكل جيد إلى حد معقول حتى الربع الأخير منه عندما بدأت سكرات العنف الدموية تلم بالأسرة الحاكمة؛ ففي عام 879 اجتاح «أمير الثوار» هوانج تشاو المدينة، وقام بذبح التجار الأجانب، ودمر بساتين التوت التي كانت تغذي ديدان القز المنتجة للحرير الذي

هو أهم صادرات البلاد، وترتب على ذلك كله هبوط حاد في مكانة وثروة كانتون التي لم تعد إلى سابق عهدها أبداً على الرغم من فترة انتعاش قصيرة في نهاية القرن . وفي عهد إمبراطورية سونج ازداد تحول السفن التجارية الكبيرة القادمة عبر بحر الصين الجنوبي صوب موانئ فوكين، وتشيكيانج. وعلى الرغم من احتفاظ كانتون بأهميتها فقد انهار إلى الأبد وضعها الاحتكاري.

وبالنسبة لمن كان يرغب من الأجانب في السفر شمالاً من كانتون إلى عاصمة الصين الرائعة أو إلى غيرها من المدن العظيمة –راهب هندي، أو سفير ڃاڤاني، أو تاجر من تشام– فقد كان أمامه أحد طريقين لاجتياز الحاجز الجبلي الواقع إلى الشمال: الطريق الأول هو السفر في اتجاه الشمال على صفحة نهر تِشن (ويسمى الآن نهر الشمال) حتى يصل إلى شاو–تشو، ومن هناك يتحول إلى الشمال الشرقي ويجتاز «الممر الجبلي لشجر البرقوق»، ثم يهبط إلى وادي نهر كان، ومن هناك يتقدم بسهولة عبر ما يعرف الآن باسم «مقاطعة كيا نجسي مخترقاً هانج–تشو حيث كان يعيش كثير من الفرس، ثم على صفحة النهر الطويل (يانجتسي العظيم)، حيث يصل إلى مدينة يانج – تشو التجارية أو إلى أي مكان آخر في قلب الصين. لكن الطريق عبر الممر الجبلي لم يكن ليستوعب حركة المرور والتجارة المتزايدة في أوائل عهد إمبراطورية تانج، ومن ثم فقد أمر الوزير الأعظم تشانج تشيو–لينج، وهو من محدثي النعمة الجنوبيين، وكان متعاطفاً مع الطبقة البرجوازية –أمر بشق طريق جديد عبر الممر لتشجيع التجارة الخارجية، ولتحقيق مزيد من النمو والتطور لمدينة كانتون، وأنجز ذلك المشروع العظيم عام 716.

أما الطريق الآخر فقد كان الأقدم، ومع ذلك الأقل ارتياداً، وهو التحرك على صفحة نهر كوِي (كاسيا) في اتجاه الشمال الغربي عبر الجزء الشرقي مما هو الآن مقاطعة كوانجسي، وتتبع النهر حتى منبعه على ارتفاع يقل عن ألف قدم. وهنا أيضاً يوجد منبع نهر هسيانج العظيم، والذي يحمل المسافر شمالاً عبر تان–تشو

(تشانج-شا) في مقاطعة هونان،ثم الأراضي المنخفضة والتي تتراكم فيها المياه في أواسط الصين. وعند منبعه يسمى نهر هسيانج باسم نهر لي، وهو في الواقع متصل بمنبع نهر كِوي عن طريق قناة قديمة لم تكن تعرف على حقيقتها في عهد إمبراطورية تانج، إذ اعتقد الناس أن للنهرين منبعاً واحداً منه يتجه نهر كِوي شمالاً بينما ينساب نهر هسيانج جنوباً. وهكذا تسنّت للزوارق الصغيرة الحركة المتواصلة من كانتون إلى المجريين المائيين العظيمين في وسط الصين وشمالها، وحتى قطع الطريق كله نحو العاصمة.

ولقد وردت إشارة لهذين الطريقين في إطار قصيدة نظمها شاعر القرن التاسع لي تشون-يي:

«رسونا ذات مرة
على ضفاف النهر كاسيا
حيث الأمطار تنهمر أرتالاً
ثم إلى ممر البرقوق مراراً
حتى سُدّت بنا السبل
إلى ديارنا»

وأياً كان الطريق الذي سلكه المسافر فقد كان يتقدم بسهولة عبر البحيرات الكبرى جنوبي نهر يانجتسي، إما بالسفن الشراعية، وإما بالقوارب ذات المجاديف، وإما بالقوارب ذات الدفع، أو حتى بعجلة دولاب التجديف ابتداء من أواخر القرن الثامن، حتى يصل إلى الجهة التي يقصدها، وعادة ما كانت مدينة يانج تشو الرائعة. وكانت يانج- تشو هذه جوهرة الصين في القرن الثامن، وكان بعض الناس يتمنون أن تتوج حياتهم بالوفاة فيها. ولقد دانت تلك المدينة بثرائها وروعتها لموقعها عند تقاطع نهر يانجتسي (الذي كان يصرف مياهه في أواسط الصين كلها) مع القناة العظمى (وهذه كانت تسمى«نهر النقل») وعلى صفحتها

كانت تنقل منتجات العالم بأسره إلى المدن الكبرى في الشمال، ولذلك فقد اتخذ الوكيل الإمبراطوري المسؤول عن الإحتكار الوطني للملح منها مقراً لإدارته (وكان هذا المسؤول من الشخصيات الكبرى والمهمة)، كما كان التجار الآسيويون يتجمعون بها حيث كانت مركزاً لشبكة من الممرات المائية تستقبل الشحنات التي تأتي بها السفن الصينية والأجنبية، ويعاد شحنها باستخدام السفن الأصغر عبر القنوات المؤدية إلى الشمال. ولقد اغتنى مواطنو المدينة بفضل مركزها المهم في توزيع الملح (وهو سلعة يحتاجها كل فرد) ، والشاي (وكان قد أصبح مشروباً شعبياً في الشمال)، والأحجار الكريمة، والمواد العطرية، والعقاقير التي كانت تجلب من كانتون، والمناديل الحريرية غالية الثمن والمنسوجات المزدانة بالصور والرسوم والتي كانت تنقل بالسفن على صفحة نهر يانجتسي وهي آتية من شزوان. ويضاف إلى ذلك أن يانج–تشو كانت مركزاً مصرفياً وسوقاً للذهب حيث كان للممول الأهمية نفسها التي كانت للتاجر. وباختصار فقد كانت مدينة برجوازية عامرة بالحركة والنشاط تتدفق فيها الأموال بسهولة. كما كانت يانج – تشو مدينة صناعية اشتهرت بمشغولاتها المعدنية، خاصة المرايا ذات الأطر البرونزية، وقبعاتها اللبادية (وهذه كانت صرعة انتشرت بين شباب تشانج–آن)، ومنسوجاتها الحريرية، والأشغال المطرزة، والكتان الفاخر المصنوع من ألياف القنب، والسكر المكرر (وكانت صناعته قد بدأت هنا منذ القرن السابع بالطريقة المتبعة في ماجادا)، وبناء السفن، والأثاث المنزلي المتميز. وعلى صعيد آخر كانت يانج–تشو مدينة المرح والفرح، وتميز سكانها بحسن الهندام، ولقد توافر بها أفضل وسائل الترفيه والترويح، كما كان بها العديد من الحدائق والمتنزهات، وكثير من المجاري المائية المتقاطعة جعلتها تشبه مدينة البندقية، وفيها فاق عدد الزوارق عدد العربات. كذلك فقد كانت مدينة تنعم بضوء القمر والمصابيح؛ مدينة الغناء والرقص، مدينة يرتع فيها رجال البلاط. وكما تقول إحدى القصائد القصيرة:

«يانج أولاً، وآي ثانياً»، ويقصد الشاعر وضع تشنج-تو في شزوان بكل مباهجها ورخائها في مرتبة أدنى.

ولقد كان أمراً حتمياً أن يقوم التجار الأجانب بإقامة متاجرهم هنا، ونحن نعلم أنهم كانوا يعيشون في تلك المدينة بأعداد كبيرة، والدليل على ذلك أن المتمردين بزعامة تين شن-كونج قد قتلوا عدة آلاف من رجال الأعمال العرب والفرس عندما نهبوا المدينة في عام 760. وعلى الرغم من تلك الكارثة احتفظت المدينة بثرواتها ورونقها حتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عندما خربها القادة المتنازعون من أمثال بي شي-تو، وسون جو، وهما من العملاء الذين ساروا على نهج «النمر الأعظم» هوانج تشاو. وعادت بعض الأمجاد في عهد مملكة وُو الجديدة التي قامت على أنقاض إمبراطورية تانج في بداية القرن العاشر، وإن تعرضت للدمار مرة أخرى في منتصف القرن نفسه على يد مملكة تشو الشمالية التي غزت الدولة التي خلفت وُو (وهي تانج الجنوبية). وازداد الأمر سوءاً جراء السياسة التي انتهجها أباطرة الأسرة الحاكمة الجديدة الذين شجعوا التجارة، وطوروا وسائل النقل، وعززوا الموقف المالي لقرية تسمى يانج-تزو (التي سميت لاحقاً باسم تشن - تشو) والتي كانت تقع بالقرب من النهر الطويل، وأشرفوا بأنفسهم على نقل الصناعات إلى أماكن أخرى مما ألحق الخراب والدمار بمدينة يانج - تشو وذلك في بداية عهد سونج. وفي القرن الثاني عشر كتب هونج ماي مستغرباً ذلك الحماس الذي أبداه شعراء القرنين الثامن والتاسع لمدينة يانج-تشو، إذ أنها في زمانه كانت «مكاناً يزكم الأنوف» فحسب.

وتدين يانج-تشو، كما تدين القناة الكبرى بعظمتها لأباطرة سِوِي، وإن كان ازدهارهما الفعلي قد تحقق في القرن الثامن. ونظراً للزيادة الكبيرة في أعداد السكان، والثراء المادي في تلك الحقبة، لم تعد الأراضي الزراعية في حوض النهر الأصفر قادرة على تزويد العاصمتين وغيرهما من المدن الشمالية باحتياجاتها

الغذائية، الأمر الذي حتّم استيراد الغلال من منطقة يانجتسي، وترتب على هذه الاحتياجات الجديدة ضغط لم يكن في الحسبان على نظام القنوات. وفي عام 734 تم التوصل إلى علاج لتلك المشكلة حيث شيدت على طول الطريق من يانج—تشو إلى تشانج—آن، وعند النقاط المهمة صوامع لتخزين الغلال (الحنطة) تخزيناً سليماً حيثما يعجز النظام عن نقلها فيما وراء نقطة معينة. ولقد ترتب على ذلك منع حدوث تأخير في الإمدادات، أو توقفها، ومنع تعفن الغلال أو تعرضها للسرقة. كذلك فقد سمح ذلك الوضع الجديد بإعادة نقل الأرز والدُّخن في أي وقت باستخدام سفن ذات حجم مناسب، وبهذا انتظمت الإمدادات للشمال. ولقد ظهر عدد من الأعباء غير المتوقعة (أو التي لم تناقش بشكل مفتوح على أقل تقدير) بالنسبة للسفن والممرات المائية في ظل نظام التتابع الجديد الذي انطوى على تحويل كميات متزايدة من الكماليات من أقصى الجنوب: العاج، وأصداف السلاحف، وخشب الصندل، وهذه كانت تكدس على متن سفن كانت قد صممت أصلاً لنقل أجولة الغلال.

ولم يكن المسافر، ولا ربان الصندل على علم بتلك المشاكل الاقتصادية الخطيرة، وما لم يكن المسافر قد آثر السفر على ظهر حصان، أو في عربة تجرها الخيول فإنه يغادر يانج—تشو متجهاً شمالاً وغرباً على صفحة «نهر النقل»، ويلفت نظره بشدة أسراب كبيرة من البط والإوز تحوم حول الزوارق، ويشاهد صنادل تحمل صناديق الملح وهي تتحرك في الاتجاه المعاكس تتلألأ وكأنها الجليد في ضوء الشمس. وربما يتوقف المسافر في المدن المزهرة مثل سِوِي—يانج، وتشن—ليو (كان يعيش في كلتيهما أعداد هائلة من الأجانب الذين كونوا مستوطنات خاصة بهم فيها، خاصة الفرس)، وفي مدينة باين—تشو (كاي—فنج) التي يوجد بها معبد للنار المقدسة، وكان يسكنها أكثر من نصف مليون نسمة وتحققت أمجادها في عصر لاحق. وأخيراً يأتي المسافر إلى العاصمة الشرقية، مدينة لو—يانج العتيقة.

وكان الأجانب الذين زاروا الصين أو أقاموا بها يميلون للتجمع في المدن التجارية القوية في الجنوب، مثل كانتون، ويانج-تشو. أما في الشمال فكانوا يتجمعون في المدن ذات السمعة الطيبة، ومراكز السلطة السياسية، وموائل النبلاء حيث كان هواة جمع وقراءة الكتب، أو الجند البواسل لا يقلون أهمية عن التجار الناجحين. وكانت لو-يانج في المرتبة الثانية بين العاصمتين، كما كانت ثاني مدن الإمبراطورية من حيث عدد السكان (أكثر من مليون نسمة)، وكان لتلك المدينة تقاليد وطقوس دينية ترجع لألف سنة، وكان أهلها يتباهون بها. وكان المناخ الروحي السائد هناك أكثر اعتدالاً وسلاسة بالمقارنة بالمناخ السائد في المدن الغربية المنافسة، وهكذا فقد كانت «المدينة الإلهية» للإمبراطورة وُو، وكانت تسير حثيثاً على الطريق الذي منحها وضعها المتميز في القرن الحادي عشر حين أصبحت أجمل وأروع مدن الصين، حيث امتلأت بالقصور والمتنزهات، وعجت بالمسؤولين. ولقد اشتهرت بصفة خاصة بفواكهها وزهورها الطيبة الرائعة، وإنتاجها من المناديل الحريرية وسائر المنسوجات المصنوعة من الحرير، ومنتجاتها الخزفية من كل نوع، وكان للمدينة سوق كبير، وكان يعرف باسم «السوق الجنوبي» الذي احتل ساحتين متجاورتين (فانج)، وكان يضم مائة وعشرين بازاراً. كما اشتهرت المدينة كذلك بتخصص الشوارع في بيع نوع واحد من البضائع، وكذلك بوجود آلاف المحال والمخازن. وبالنسبة للأجانب الذين كانوا يتواجدون بالمدينة لدواعي العمل والتجارة فقد شيدت المعابد الخاصة بالآلهة الأجنبية، ومنها الأحرام الخاصة بالنار المقدسة، الأمر الذي دلَّ على وجود مستعمرة فارسية.

وفي 743 تم تشييد بركة لإعادة الشَّحن (بحيرة صناعية) شرقي تشانج-آن العاصمة الغربية. وفي ذلك العام أصبح ممكناً لأهل الشمال مشاهدة السفن من كل جزء من الإمبراطورية وقد رست في تلك البحيرة، وكان هؤلاء الشماليون قد اعتادوا القول الذي يشير بسخرية إلى «سفن في الجنوب، وخيول في الشمال»،

وكانت تلك السفن تحمل السلع التي تم جمعها كضرائب، كما كانت تحمل الجزية المحلية المتوجهة للقصر الإمبراطوري: أغطية قرمزية لسروج الخيل قادمة من الشمال، واليوسفي (ماندرين) ذا المذاق المر من الجنوب، ولبادات وردية اللون مختومة بنسيج حريري من الشرق، وأحجار الشَّبَه ذات اللون الأحمر من الغرب. وكانت هذه السلع تنقل إلى السفن الأصغر التي اشتهر بحارتها بوضع قبعات من الخوص على رؤوسهم لتجنب مياه الأمطار، والأسماق (أثواب خارجية فضفاضة ذات أكمام)، وأحذية مصنوعة من القش على غرار ملابس البحارة العاملين على السفن التي تتهادى على صفحة نهر يانجتسي. وكانت المدينة نقطة النهاية لمجرى مائي طويل يبدأ من كانتون.

وإذا كان عدد المقيمين دافعي الضرائب في تشانج-آن قد بلغ مليونين فإن تعدادها لا بد أن يكون عشرة أضعاف سكان كانتون على الطرف الآخر لتلك الشبكة من الأنهار والقنوات. كذلك فقد كان عدد السكان الأجانب كبيراً نسبياً، وإن اختلف تركيب ذلك العنصر السكاني الدولي عنه في الميناء الجنوبي، إذ كان يتألف أساساً من أفراد أتوا من الشمال ومن الغرب:

الأتراك، والأجهوريون، والتوشاريون، والسوجديون، مقابل التشاميون، والخمير، والجافانيون، والسنهاليون الذين اكتظت بهم كانتون. وفي كلا المكانين كان هناك الكثير من العرب والفرس والهندوس، ويفترض أن الفرس كانوا الأكثر أهمية.

وكانت حكومة تانج قد أنشأت مكتباً خاصاً لرعاية مصالح التجار الأجانب عرف باسم «سارتهافاك» ومعناه الحرفي «قائد القوافل».

وكان لمدينة تشانج-آن سوقان كبيران: السوق الشرقي، والسوق الغربي، وكان كل منهما يضم عشرات من البازارات، وكان السوق الشرقي أقل ازدحاماً، وأكثر هدوءاً، وأشد ثراءً نظراً لقرب موقعه من قصور النبلاء وكبار المسؤولين. أما السوق

الغربي فقد كان أكثر صخباً، واتسم بالشدة والعنف (وفيه كان يلحق العقاب بالمذنبين)، لكنه كان الأكثر جاذبية. وكان كل بازار يبيع سلعة واحدة، وله مخزن ملحق به، ورئيس للعاملين فيه (هانج تو). ووفقاً للقانون فقد تعين على كل بازار وضع علامة على واجهته تشير إلى تخصصه. وفي السوق الغربية كان التجار الأجانب يعرضون بضاعاتهم، وخلال تجول الفرد في ذلك السوق كان يرى على التوالي: محل الجزارة، ومحل الحدادة، ومحل المنسوجات، ومحل السروج، ومحل الحرير، ومحل العقاقير. وبعد منتصف القرن الثامن كان لتجار الشاي شعبية خاصة، إذ لم تقتصر الصرعة الجديدة (شرب الشاي) على الصينيين وحدهم.

ويحكى أن الزوار القادمين من أجوير كانوا يهرولون بخيولهم -أولاً وقبل أي شيء- صوب متاجر الشاي. ومن أبرز التجار الأجانب في السوق الغربي المرابون من أجوير الذين ارتبطوا دوماً بتجار الشاي، وهؤلاء كانوا يقرضون التجار ورجال الأعمال، والشباب السفهاء مقابل رهونات متنوعة مثل قطع الأرض، والأثاث، والعبيد، وحتى الأيقونات المقدسة. وفي أوائل القرن التاسع بدأ النظر إلى هؤلاء المرابين على أنهم إحدى آفات المجتمع حيث كانت الأسعار في ارتفاع مستمر، وبات كل فرد مديناً. وفي الواقع كانت غطرسة هؤلاء الأتراك بلا حدود، ولقد سُجن أحدهم لطعنه تاجراً جهاراً نهاراً، وأنقذه رئيسه دون أن تجري السلطات الصينية أي تحقيق في الحادث. وتصاعد الشعور الشعبي المضاد لهم إلى أن تم أخيراً تحريم التعامل الشخصي معهم في عام 836.

ولقد كانت الغطرسة المتزايدة للأجهوريين أحد العوامل المهمة في انفجار موجة عارمة معادية للأجانب في منتصف القرن، وتبعها اضطهاد الأديان الأجنبية.

ومع ذلك كان المواطن يُسَرِّي عن نفسه بمئات الطرق، وإن كان ذلك قد أدى إلى تراكم الديون عليه. فعلى سبيل المثال، قد يذهب إلى أي من الأماكن الترفيهية المتنوعة مثل المهرجانات أو الحفلات الراقصة أو التمثيليات التي كانت تقام في

المعابد البوذية المنتشرة في مختلف أرجاء المدينة، وقد تكون من بين هذه الترفيهات عروض جديدة نشأت أصلاً في البلدان البوذية: الهند، وتركستان، وهي عروض كان تثقيفية تنويرية بقدر ما كانت مسلية. وإذا كان المواطن وحيداً فقد يذهب إلى المواخير المنتشرة في حي بينج—كانج الواقع بين السوق الشرقي والقصر الإمبراطوري، وهناك يجد المومسات الشهيرات البارعات في العزف والرقص والرياء، ويدفع (1,600) نقداً (لزوجة أبيها) مقابل قضاء ليلة معها. وقد يقع في غرام واحدة من تلك النسوة شاب أرستقراطي يتمتع بصيت والده، أو طالب يسعى للنجاح في امتحاناته باعتباره مفتاحاً لتقلد منصب عام. وقد يقع في حبٍّ واحدة منهن أيضاً رجل ذو موهبة أدبية فيحيطها بهالة من العظمة في قصائده أو رواياته.

وبالمثل كانت هناك وسائل ترفيه أقل كلفة وأكثر غرابة وهي الحانات المنتشرة على الحافة الشرقية للمدينة جنوبي «بوابة سطوع الربيع»، وهذا مكان ملائم تماماً لوداع صديق مسافر إلى لو—يانج والشرق. وكان بوسع أصحاب مثل تلك الحانات تحسين دخولهم عن طريق توظيف فتاة غربية أنيقة، أو فتاة توشارية أو سُجدية لتقديم أنواع النبيذ النادرة في أكواب الكهرمان أو العقيق، كما كان بإمكانهم زيادة مبيعاتهم بتقديم عروض موسيقية راقصة خليعة تستخدم فيها المزامير والأبواق الغربية، وتقوم الفتيات الغربيات الفاتنات بإشارات بأيديهن البيضاء تحث الزبائن على احتساء الخمر الذي يقدم لهم في أكواب من ذهب. ولقد افتتن الشعراء بهاتيك الفتيات الجميلات أيما افتتان، وخاصة بعيونهن الخضراء، وشعرهن الذي كان بلون الذهب أحياناً، وهكذا فقد تركن بصمة واضحة على آداب ذلك العصر.

وكمثال نتحدث عنه إليكم هذه الكلمات من شعر لي بو:

«يعزف الموسيقيُّ على آلة القانون لحن «البولونيا
الأخضر عند بوابة التنين»»

والخمر الرائعة تقدم في كؤوس من الزمرد،

وأنا إذ أداعب الأوتار سوف أشرب معك يا صديقي،

ولسوف يبدو اللون القرمزي وكأنه العقيق الأخضر

عندما تبدأ وجوهنا في الاحمرار.

وهذه هي الحورية الغربية التي لها ملامح الزهور–

ها هي تقف بجوار مدفأ الخمر، وتضحك مع أنفاس الربيع،

تضحك مع أنفاس الربيع،

وترقص وهي ترتدي رداءً من شاش،

ترقص وهي ترتدي رداءً من شاش،

هل أنت ذاهب إلى مكان ما يا صديقي؟

هل تذهب الآن قبل أن تحل بك الثمالة؟؟»

والآن حان الوقت لكي نغادر تشانج–آن عند هذه النقطة الرائعة، وذلك حتى نتمكن من استعراض باقي المدن الصينية باختصار، المدن التي كان يَحلو للأجانب الالتقاء فيها. وبطبيعة الحال فقد تواجد التجار الأجانب في كل مكان يغري الربح بالتواجد فيه. وقد تجدهم يبحثون عن أقمشة التافتاه في وديان شيزوان العالية الغنية، أو في الأراضي المنخفضة الرطبة حول بحيرة تونج–تينج. ولكن من بين كافة المناطق غير المربوطة بالمدن الكبرى عن طريق المجاري المائية التي كان الأجانب يميلون للاستقرار فيها تلك المنطقة التي عرفت باسم «ممر القوافل» والتي تؤدي غرباً إلى تركستان. فهنا، وعلى هامش صحراء جوبي وجدت مدن صينية تباعد بينها مسافات منتظمة، وكلها كانت مهيأة لاستقبال القوافل وفي كل تلك المدن وجد عبدة النار الإيرانيون، وعازفو الموسيقا، وكانت لهم انتماءات مشكوك فيها: ففي عام ما تجد كبار المسؤولين الصينيين ينقلون الحكمة عن الحكماء، ويعلمون

الناس الفضائل، بينما في العام التالي تجد الأتراك وقد ركبوا الموجة ويلوحون بأسلحتهم وغالباً ما كان ولاؤهم لأسيادهم من أهل التيبت. ومن أوضح الأمثلة على تلك المواقع التي اختلطت فيها الألسن مدينة ليانج-تشو القديمة، والتي كانت يوماً تابعة لهسيونج-نو وخلفائهم من الرعاة. فهناك كان الحاكم الذي ينوب عن الإمبراطور (كو شو-هان) قد أمسك جيداً بزمام الأمور لفترة من الزمن، وكان يرفه عن ضيوفه بتمثيليات صامتة، وبرقصات السيوف، ويجعل الساقين ذوي الشفاه الحمراء يدورون حولهم بأكواب الشراب الفاخر.

وفي القرن الثامن كان يعيش بصفة دائمة في ليانج-تشو أكثر من مائة ألف نسمة اشتهر عنهم حدة الطبع والشدة، وذلك نظراً لأنهم عاشوا في ظل نفوذ «النمر الأبيض»، و«علامة المعدن». وبعض هؤلاء كانوا صينيين، وإن تحدَّر كثيرون من أصول هندية وحملوا لاحقاً أسماء على الطراز الصيني ووفقاً لأصولهم العرقية (مثل شندو)، وكان بوسع الكثيرين منهم التعرف على أصولهم في الأمم المتاخمة للأوكزوس والجاكسارت.

وهنا كانت توجد مراعٍ كبرى للخيول، خاصة على طول نهر لا يزال يحتفظ باسمه المنغولي القديم: «تومیجین»، وهي كلمة تعني حرفياً «نخاع العظام» في لغة هسين-بي. ولقد سمي هكذا نظراً لشدة خصوبة الأراضي من حوله. وهنا أيضاً كانت تنتج المناديل الحريرية الفاخرة، والحصائر، وجلود الأحصنة البرية، ناهيك عن دواء ناجع للصداع. وهكذا فقد كانت ليانج-تشو هذه بوتقة حقيقية تمثل بالنسبة للصينيين رمزاً لكل ما هو غريب وعجيب، مثلما تمثل هاواي للأمريكيين في القرن العشرين. فالموسيقا المهجنة التي كانت تسمع في تلك المدينة موسيقا أجنبية، لكنها مألوفة تماماً، وكانت تمثل صرعة شائعة في أوائل العصور الوسطى في الشرق الأقصى.

لم تتسم السياسات والاتجاهات الصينية فيما يتعلق بالأجانب بالبساطة، وحتى في أوج صرعة حب كل ما هو غريب وعجيب فقد كان أفضل السبل للأجنبي أن يتبنى العادات الصينية والسلوك الصيني، وهذا ما فعله الكثير منهم. ومع ذلك كانت الحكومة أحياناً تصعب ذلك الأمر، فعلى سبيل المثال صدر في عام 779 مرسوم يجبر الأجهوريين المقيمين في العاصمة على ارتداء أزيائهم الأصلية، ويحرم عليهم إغواء النسوة الصينيات لكي يصبحن زوجات أو محظيات لهم، أو انتحال صفة الصينيين بأي شكل على الإطلاق، وكان عدد هؤلاء حوالي ألف. ولربما كان ذلك القانون ناجماً عن الكراهية الشعبية الجارفة للمرابين الأجهوريين، وإن لم تكن غالبية القوانين المماثلة سوى تعبير عن رغبة حاكم أو آخر في الحفاظ على نقاء العادات الصينية، ومن أمثال هؤلاء لو تشون الذي أصبح حاكماً على كانتون في عام 836، وقد هاله أن يرى الصينيين والأجانب يعيشون معاً، بل ويتصاهرون بحرية، ومن ثم فقد أجبرهم على العيش منفصلين، وحرم أي تزاوج جديد بينهم، وذهب إلى أبعد من ذلك فحرم ملكية الأرض والمنازل على الأجانب. وكان لو تشون هذا يعتبر نفسه رجل المبادئ الصارمة، وأن مهمته هي إعادة الانضباط للميناء الذي عمه الفساد والفجور. وباختصار كان رجلاً متمسكاً بنقاء عرقه.

ومن ناحية أخرى لم تكن للصور النمطية المغلوطة التي قولب الصينيون بها الأجانبَ دور يذكر في السياسات الرسمية وإن كانت تتسم بالوحشية والسوقية من مثل: الفرس الأثرياء (وكانوا موضع حقد الصينيين)، وأهل الملايو السود (وقد وُصِمُوا بالقبح)، وأهل تشام العرايا (وقد اعتُبِرُوا بلا أخلاق). وأقل ما يمكن قوله أنه حتى المواقف الشعبية كانت غامضة، إذ تجد الشعراء أنفسهم، الذين كالوا

المديح للنادلات الإيرانيات الفاتنات اللاتي كن يقدمن الخمر في الحانات، قد سخروا من الدمى ذات القبعات والعيون الزرقاء والأنوف الشامخة التي كانت تمثل أهل الغرب المخمورين والتي كانوا يلهون بها في بيوت الدعارة. فعندما كانت الدمية المثيرة للضحك تسقط على الأرض تعين على الشخص الذي أشارت إليه أن يفرغ كأسه.

ولقد كان القرن الثامن عصراً اكتسب خلاله عازفو القيثارة والراقصون المنتمون لآسيا الوسطى شعبية جارفة في المدن الصينية. ولكنه كان أيضاً قرن المذابح بالنسبة لآلاف من التجار العرب والفرس والأثرياء (وإن كانوا ضعفاء ليس بوسعهم إلحاق الأذى بالناس) في يانج-تشو. وفي القرن التاسع، وعندما لم يعد من السهل الحصول على الأشياء الغريبة والعجيبة، ازدادت شعبية الأدب الغريب العجيب الحافل بالذكريات الرومانسية. ومن اللافت حقاً أن تلك الفترة، التي سادت خلالها روايات حول كرم وسخاء مليونيرات الغرب الأقصى، كانت في الوقت نفسه عصراً للارتياب والشك في الأجانب، ومن ثم لاضطهادهم. وفي العصر متضارب الاتجاهات هذا كان بوسع الأجانب تقلد المناصب الرفيعة في الحكومة التي نشأت جراء تطبيق نظام الامتحانات، خاصة إذا تحالفوا مع الطبقة العليا الجديدة ، ضد الأرستقراطيين بالوراثة. فعلى سبيل المثال هناك ذلك العربي الذي حصل على تقدير ممتاز مصحوباً بدرجة «سيد متقدم» (تشن-شي) في منتصف القرن التاسع. ولقد كانت هناك عدة عوامل وراء الفصل بين الصورة الذهنية للأجنبي «المثالي»، والصورة الحقيقية. ومن بين تلك العوامل ارتفاع الأسعار مصحوباً بكراهية للتجار والأثرياء، وازدياد السلطة السياسية ضَعفاً، الأمر الذي مكن الأجانب من الإغارة على الأراضي الصينية. وباختصار شديد فإن عدم الثقة في الأجانب، وكراهية الناس لهم لم يقفا حائلاً أمام عشق الصينيين للغرائب والعجائب. وتجلى ذلك العشق في الأيام الزاهرة من القرنين السابع والثامن،

وانعكس في أدب القرنين التاسع والعاشر حين عاد بالذاكرة إلى الأيام الجميلة الخالية عندما اعترف الأجانب عامة بتفوق الأسلحة والفنون الصينية، وعندما كان بوسع المواطن الصيني العادي التمتع بالسلع النادرة القادمة من بلاد بعيدة. وهذا الأمر شبيه بما يحدث في عصرنا الحالي عندما يتحسر جندي ألماني سابق على تلك الأيام الجميلة التي كان خلالها يستطيع احتساء الخمور الفرنسية بحرية دون أن يعترف بمساواة الفرنسيين مع الألمان؛ أو عندما يتذكر موظف إنجليزي سابق كنوز الهند (البربرية) حينما كانت الهند تحت حكم الإمبراطورية (البريطانية). أما الكماليات الأجنبية فقد كانت أعلى مما يستطيع الأجانب استيعابه.

وبالمثل كان هناك بعض الغموض في الاتجاهات الصينية نحو التجارة، فالتجارة لم تكن أبداً بعيدة عن الألاعيب والمناورات السياسية. وكلما ازدادت ضرورة البضائع من حيث الرفاهية العامة، أو كلما ازداد الطلب على بضائع معينة من جانب الطبقات العليا ازداد احتمال تدخل الدولة في توزيعها. ومن نماذج ذلك التدخل الاحتكارات الحكومية التقليدية لسلع محلية مثل الملح، والحديد، والعملات المعدنية، وأحياناً الخمور وغيرها من المنتجات الاستهلاكية العامة، وقد طبقت تلك النماذج على السلع الكمالية الواردة من الخارج. فالمكتب الخاص بمندوب الحكومة "مأمور السفن التجارية" المشرف على تفريغ وتحميل السفن التجارية، والذي نشأ أصلاً في كانتون في القرن الثامن هو امتداد لمكتب «مندوب الحكومة للإشراف على الملح والحديد». ولقد كان من اختصاصات المكتب استيراد السلع التي ترغب الحكومة في السيطرة عليها (خاصة تلك التي يزداد طلب البلاط الإمبراطوري عليها، وتلك التي تحتاجها المجموعات المقربة من البلاط). وكان من اختصاصاته كذلك مكافحة التهريب، وتطبيق نظم شبيهة بنظم الاحتكار الداخلي.

ولقد كان من الطبيعي أن يصاحب تلك الاتجاهات وقوع التجار في شباك

الدبلوماسية، حيث أصبحت الهدايا التي تقدمها البلدان الأجنبية للقصر الإمبراطوري (والتي كانت تتألف عادة من كميات كبيرة من السلع الثمينة، وتمثل رمزاً للخضوع لسلطة «ابن السماء») -أصبحت في الواقع جزءاً مهماً من التجارة الدولية. والقول بأن الدول التابعة كانت مجبرة على دفع الجزية في شكل أو آخر ليس سوى جزءٍ من الرواية فحسب. فقد كانت الدول الأجنبية القريبة من تانج والتي ترتعد منها تقدم الهدايا، وهذا أمر طبيعي، ولكن دولاً بعيدة مستقلة تماماً كانت تفعل الشيء ذاته من أجل مصالحها الخاصة، وكانت تتلقى بدورها هدايا من الصينيين، وبالتأكيد فقد عانى التجار الأجانب من هذا النظام، فهم في الواقع لم يكونوا يعملون لحسابهم الخاص، فقد كان متوقعاً منهم تقديم نسبة معينة من بضائعهم للعاصمة الإمبراطورية، أو إيداعها في المخازن الحكومية في ميناء الدخول. فإذا حاول التاجر العمل لحسابه تماماً فإن ذلك يعرضه للتدخل من جانب الحكومة، وقد يتعرض لكارثة حقيقية. فالمندوب الحكومي المحلي كان على الأرجح يبالغ في التفسير الصارم للقيود الحكومية، وإلا فإنه قد يدفع حياته ثمناً لأي اتجاه ليبرالي (تحرري). وحتى تلك السلع التي كان يسمح للتجار الأجانب ببيعها بحرية للناس كان يتعين عليهم عرضها وبيعها في أحد الأسواق الكبرى، وهذه كانت تحت رقابة مشددة من جانب الحكومة. ولقد كانت القيود أشد بالنسبة للسلع التي كان التجار الأجانب يودون نقلها لبلدانهم، فقد كانت عيون المسؤولين عليها خشية أن تفقد الحكومة نصيبها من الأرباح. ويمكن تحديد طبيعة مثل تلك السلع من خلال مرسوم صدر عام 714 وقضى بتحريم تصدير المنسوجات المزدانة بالرسوم والصور، والمناديل الحريرية المطرزة، والشاش، والأقمشة الكريب، والمنسوجات الكريب، والمنسوجات المطرزة وغيرها من الحرائر الرائعة، وذيول الياك (ثور التبت)، واللآلئ، والذهب والحديد، كما حظر المرسوم بيع هذه الأشياء للتجار الأجانب. وبخلاف ذلك فرضت الحكومة قيوداً غريبة على استيراد أصناف رات أنها تافهة، أو ضارة بالأخلاق الوطنية، وحرمت أيضاً بيعها

للصينيين، وهذه ربما كانت أكثر السلع دَرّاً للربح، ولقد ترتب على ذلك رواج السلع المقلَّدَة رواجاً شديداً، وهذه كانت تدر أرباحاً طائلة، لكنها إذا اكتشفت تعرض من يستوردها ويتداولها للسجن، وهذا ما حدث لكاهن فارسي سيئ الحظ في كانتون كان قد تخصص في صنع أشياء غريبة ونادرة يوردها للمتسفسطين من رجال ونساء البلاط الإمبراطوري. ومع ذلك فإن التاجر الذكي العاقل الأمين، والذي كان يعرف ما يمكن استيراده، وما يمكن تصديره، وشروط كلٍّ من العمليتين كان يستطيع تحقيق أرباح كبيرة، وهذا ما أكده وجود آلاف من التجار الأجانب على الأراضي الصينية في ذلك الحين. ومع ذلك كان أعقل التجار يواجه مخاطر أخرى منها فساد بعض الموظفين الرسميين وقيامهم بسلب ونهب بضائع التجار، أو الحصول على رشاوى لتسهيل دخول وخروج السلع تحت اسم الجمارك. وحتى لو كان مسؤولو الجمارك على درجة كافية من النزاهة كانت الإجراءات غاية في التعقيد. ولقد ذكر جغرافي عربي أنه قد تعين على رفاقه من التجار العرب التنازل عن ثلث ما حملوه من بضائع للمخازن الإمبراطورية لدى وصولهم إلى الصين.

لكن شيئاً من هذا لم يكن دائماً، كما لم يكن ممكناً التنبؤ به، فما كان مجرد نزوة في عام ما قد يصبح سياسة في العام التالي. ومن وقت لآخر كان الفرج يأتي في شكل أوامر من البلاط لتحسين أوضاع التجار، وبهذا كانت تزداد آمالهم في تحقيق المزيد من الأرباح. ومن أمثال تلك الأوامر المرسوم الذي أصدره وين تسونج عام 834 بمناسبة شفاء العاهل من مرض ألَمَّ به، وبمقتضاه تم العفو عن فئات مختلفة من المجرمين، وامتدت حماية الأجانب المشتغلين بالتجارة بشكل صريح في كل من كوانجتونج، وفوكين، ويانج-تشو حيث صدرت التعليمات للحكام المحليين بالسماح لهم بالاتجار في حرية تامة، ودون أعباء ضريبية لا يطيقونها، وذلك نظراً لأنهم قد وضعوا أنفسهم تحت الرعاية الكريمة للعاهل.

إلاً أنه ثمة مشاكل أخرى واجهها الأجانب المقيمون في الصين، منها القيود الاجتماعية والاقتصادية غير المرتبطة بالتجارة. فإذا توفي أجنبي على أرض الصين ولم يتم العثور بسهولة على زوجة أو وريث له تصادر بضائعه وممتلكاته الأخرى لحساب الدولة، ولم تكن عملية البحث عن وريث تستمر طويلاً. وفضلاً عن ذلك فإن الأجنبي المتزوج من صينية، أو الذي له محظية صينية كان لابد وأن يبقى في الصين، ولم يكن يسمح له بأي حال باصطحاب زوجته (أو محظيته) إلى وطنه. ولقد وردت تلك المحاذير في مرسوم صدر خصيصاً عام 628 بغرض حماية النساء الصينيات من الزيجات المؤقتة (من المبعوثين الأجانب وأفراد حاشيتهم، والذين كانوا يسعون للمتعة خلال غربتهم عن أوطانهم)، لكن تلك القاعدة لم تنطبق – بطبيعة الحال– على الهبات الإمبراطورية، فقد يهدي الإمبراطور إحدى الأميرات لزعيم إحدى القبائل المترحلة، وفي هذه الحالة كانت السيدة ترسل دون صخب طالما كان ولاء زوجها المقبل أمراً مهماً للسياسة الصينية، ومن تلك الحالات الأميرة التي أُرسلت لكي تصبح زوجة لخان (ملك/أمير) الأجهوريين في أوج مجدهم في أوائل القرن التاسع مقابل (على ما يبدو) الهدايا التي أتت مع المبعوث الذي جاء لاصطحابها: مخامل (نسيج آسيوي مصنوع من وبر الجمال)، وأقمشة مقصبة ومطرزة، وفراء السمور، وأحزمة مرصعة بالزمرد، وألف من الخيل، وخمسون من الإبل. وسواء كان خضوعاً للمرسوم المشار إليه، أو بكامل حريتهم فهناك روايات عن الكثير من الأجانب الذين عاشوا في الصين لأكثر من أربعين عاماً، وكان لكل منهم زوجة وأطفال. وكما ذكرنا آنفاً فقد كان الأجانب عرضة لقوانين الفصل العنصري التعسفية والتي خففتها جزئياً قوانين أخرى سمحت بقيام مستوطنات أجنبية في المدن الصينية، كما سمحت لتلك المستوطنات بانتخاب رؤسائها، وتسوية المنازعات والقضايا بين سكانها وفقاً للقوانين والعادات السائدة في بلادهم الأصلية.

ما أن يحصل التاجر الأجنبي على إذن رسمي بالعمل في الأسواق الصينية حتى يتخذ له مكاناً وسط مواطنيه ويباشر منه تجارته. أما المبعوث الذي يمثل دولة أجنبية والذي يهتم أساساً بالتجارة، أو على الأقل بالتبادل المربح للهدايا القيِّمة فقد كان عليه مواجهة المضايقات التي عانى منها كافة ممثلي الدول الخاضعة لدفع الجزية، فالدولة التي يمثلها المبعوث دولة تابعة، وإن كان المبعوث قادراً على تجاهل ذلك عندما يكون مع رفاقه. ولكن كانت هناك بعض الحالات الاستثنائية: لا يستطيع أحد أن يخمن الأصناف التي كانت ترد على سبيل الجزية، ولا أي رموز للخضوع كانت تقدم للإمبراطور الصيني بواسطة الأمير "بيروز" الطريد الساسانيدي آخر عنقود أسرته عندما أتى إلى تشانج-آن طالباً الحماية والمساعدة من تاي تسونج ضد العرب المنتصرين. لكن السفير العادي كان مجرد سياسي، أو أحد أقارب عاهل بلاده المقربين، أو كاهناً متميزاً، وربما تاجراً ثرياً، وبصفة عامة لم تكن هناك مشكلة من حيث تقديم فروض الولاء والطاعة والخضوع. وأحياناً كانت تلجأ الدولة البعيدة الحريصة على تشجيع التجارة إلى طلب تمثيل دبلوماسي من قِبل جارتها الصديقة دون أن ترسل هي سفيراً لها هناك. فعلى سبيل المثال بعثت مملكة بالي بسفير لها وحملته بمجموعة من منتجاتها المحلية إلى مقر لسفارة تشام طالبة نقلها إلى البلاط الصيني، وقد حدث ذلك في عام 630.

ولكي يحصل سفير على المزايا المقررة له لدى وصوله إلى العاصمة الصينية كان يتعين عليه تقديم أوراق اعتماده أولاً. وعندما كان ملك أجنبي يسعى للحصول على الحماية من تانج، أو على أي فضل آخر فإنه يرسل التماساً للحصول على حزام ذهبي ورداء الدولة ذي الألوان المتعددة، أو لإرسال مسؤول صيني يكون بمثابة مستشاراً مقيم له، أو يطلب نسخة من إحدى أمهات الكتب الصينية، أو كل هذه الأشياء معاً. وفي كل الحالات لم تخل المطالب من هدية عبارة عن محفظة أنيقة يضع

فيها سفيره علامته الرسمية. وعادة كانت تلك العلامة تتحور على شكل سمكة برونزية، أو نصف سمكة برونزية. وكانت قد خصصت لكل دولة لها علاقات دبلوماسية منتظمة مع تانج إثنتا عشرة سمكة (أو جزء من السمكة) ويحمل كل منها رقماً مسلسلاً، ونُقِشَ على كل منها اسم الدولة التي خصصت لها. وكان النصف الذكري من السمكة يحفظ في القصر الصيني، بينما يُرسل النصف الأنثوي إلى الدولة التابعة. وكان كل سفير لدى الصين يحمل داخل محفظته المطرزة الرمز الذي يتوافق رقمه مع رقم الشهر المقرر وصوله فيه إلى تشانج-آن. فإذا كان هذا الترتيب متوافقاً مع القطعة المودعة في العاصمة منح كافة الحقوق والمزايا المقررة له. ولم تكن تلك الامتيازات واحدة بالنسبة لكافة السفراء. فعلى سبيل المثال فإن مخصصاتهم من الطعام كانت تحدد على أساس بُعد بلادهم عن الصين، ومن ثم كان سفراء الجزيرة العربية، والهند، وفارس يحصلون على مخصصات لمدة ستة شهور، بينما يحصل سفراء كمبوديا، وسومطرة، وچاوا على مخصصات أربعة شهور، والسفراء من تشامبا (التي كان لها حدود مشتركة مع الصين) على مخصصات ثلاثة شهور فحسب. وبالمثل فقد تباينت أوضاع السفراء من حيث أولوية المثول وترتيب الدخول والجلوس في المناسبات المختلفة، وقد حدث في الحادي عشر من يونيو/ حزيران 758 أن وصل إلى البلاط في وقت واحد سفراء كلٍ من الأجهوريين والخلافة العباسية، وقد تصارعا على أولوية الدخول عند بوابة القصر. ومن هنا فقد طلب من العرش إصدار مرسوم خاص يحدد المراسم، وصدرت الأوامر سريعاً بدخول السفيرين في وقت واحد من بوابتين مختلفتين، إحداهما على يمين القصر والأخرى على يساره.

وبمجرد وصول السفير للعاصمة للمرة الأولى ينزل وحاشيته في أحد المساكن الخاصة الواقعة عند كلٍ من البوابات الأربع للمدينة والتي تواجه الجهات الأصلية. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً يرتب مسؤولون من مكتب هونج-لو كل نشاطات السفير، وكان هذا المكتب مسؤولاً عن ترتيبات جنازات أعضاء الأسرة

الإمبراطورية، واستقبال الضيوف الأجانب والترويح عنهم. وإلى جانب تلك المسئوليات الأساسية كان هذا المكتب المهم يقوم بدور المقاصة من حيث جمع المعلومات عن البلدان الأجنبية، وهذا أمر مهم جداً للدولة، وبصفة خاصة للاستراتيجيين في الجيش. وكانت إدارة الأسلحة ترسل مندوباً خاصاً لمقابلة السفير والتحدث معه فور وصوله، ومنه كان يحصل على معلومات حول جغرافية بلاده، وعاداتها وتقاليدها، ومن هذه المعلومات يتم رسم خريطة للبلد الذي أتى منه السفير. وكان على رأس ذلك المكتب الجغرافي الشهير تشاي تان، وشغل ذلك المنصب لفترة خلال النصف الثاني من القرن الثامن. ويحكى أن معلوماته الهائلة عن جغرافية العالم مستمدة أساساً من مقابلاته الشخصية مع الدبلوماسيين الزائرين.

وأعظم أيام السفير طوال مدة إقامته بالصين هو يوم استقبال الإمبراطور له، فهذه مناسبة كان البلاط يستغلها جيداً لكي يشعر المبعوث الجديد بمدى جلالة وعظمة حاكم تانج، وقوته وسلطانه. وإذا كان السفير على درجة رفيعة تؤهله لحضور حفل الاستقبال العظيم الذي يقام على شرف الأمراء التابعين في يوم انقلاب الشمس الشتوي فإنه يجد نفسه وجهاً لوجه مع اثني عشر صفاً من الحراس أمام القاعة التي سيجري فيها الاحتفال، ومن بين هؤلاء الحرس من يحمل السيف، والحربة، والقوس والسهم، والفؤوس ذات السهام، ويرتدي أفراد كل مجموعة أغطية رأس (كابات) فاخرة ذات ألوان مميزة، ولكلٍّ أيضاً علمها الخاص، وهذا قد يكون مكوناً من مجموعة من ريش الببغاء أو الطاووس، أو علماً مصنوعاً من قماش مطرز بصورة جحش بري أو فهد، أو أي رمز آخر للبسالة. وحتى السفراء الأقل مرتبة كانوا يشاهدون حرس القصر وهم يتحركون جيئة وذهاباً وقد انقسموا إلى خمس مجموعات ارتدى أفراد أربع منها قمصاناً وقبعات قرمزية، وعلى القبعات ريشات من ذيل الدُّرج المنشوري (طائر ذيال شبيه بالحجل/المترجم)، أما أفراد المجموعة الخامسة فكانوا يرتدون سترات مصنوعة من التافتاه القرمزي ومطرزة بأشكال

للخيول البرية. وكان جميع أفراد تلك القوة يحملون هراوات وسيوفاً يضعونها حول الخصر. ويقترب الوفد الأجنبي من القاعة الإمبراطورية وقد انبهروا بذلك المشهد، وبعد الركوع بالشكل والقدر المناسبين أمام الإمبراطور، يتم عرض الهدايا أمام الجمهور الحاضر، ثم يقترب كبير السفراء من العرش، وبناءً على النصيحة التي همس بها في أذنه المسؤول الصيني المرافق له ينحني أمام العاهل قائلاً: «خادمك الأمين (......)، القادم من دولة (......)، يود أن يقدم هذه القرابين من أراضيها». ويظل الإمبراطور جالساً على عرشه، ويقوم مسؤول المراسم بتلقي الهدايا باسمه، كما يتلقى من السفير هدايا أخرى لتوزيعها على مساعديه. وفي المقابل يحصل ملك البلد التابع وسفيره على ألقاب اسمية طنانة في إدارة تانج وفقاً للاعتقاد بأن هؤلاء خدم مخلصون لابن السماء، وكانوا يتلقون هدايا ثمينة وكأنها «رواتب». فعلى سبيل المثال فإنه عندما أرسل ملك سريبهوجا هدايا للتعبير عن ولائه للإمبراطور هسوان تسونج رد عليه الأخير بأن أنعم عليه برداء الدولة، ومنحه (من على البعد) لقب «القائد الأعظم لجيش حراس اليسار»، كما أنعم عليه بقفطان أرجواني، وحزام مرصع بالذهب. وبعد أن يتلقى السفير تلك المكارم باسم سيده يتم وداعه إلى خارج القاعة والقصر، وبعدها يتوقع مكافأة مريحة عن أعماله، مثلما حدث للسفير الياباني في أوائل القرن الثامن: «على الرغم من أن اليابان بعيدة عَنّا وتقع فيما وراء البحار فقد أرسلت مبعوثين لها لدينا. وحيث إن هؤلاء قد أبحروا وسط الأمواج العاتية، وحيث إنهم قدموا لنا هدايا من بلادهم فإنه جدير بهم أن يتجمعوا على وليمة تقام بمكتب الوثائق في بنتيراليا في اليوم السادس عشر من الشهر الحالي».

هكذا كان أسلوب استقبال الرجال الذين أحضروا معهم الأشياء الثمينة والنادرة التي كان يعشقها أفراد الطبقة الأرستقراطية ومن يحاكونهم. والواقع أن توق الصينيين لكل ما هو غريب وعجيب قد امتد لكل الطبقات الاجتماعية، وشمل كل جزء من الحياة اليومية، ففي كل بيت كانت تظهر أشياء وأدوات وأشكال من إيران وفارس، والهند، وتركستان. كذلك كانت هناك صرعة عامة متمثلة في ارتداء الملابس الأجنبية، وتناول الأطعمة الأجنبية، وسماع الموسيقا الأجنبية، خاصة خلال القرن الثامن، وإن لم يخل أي وقت من عهد إمبراطورية تانج منها. ولقد أبدى بعض الشعراء (مثل يوان تشن) أسفه إزاء تلك الظاهرة. وفيما يلي بعض مما قاله في هذا الصدد:

«منذ أن بدأ الخيالة الغربيون يثيرون الغبار والسناج امتلأت هِسين ولو بالفراء والصوف، والعفن والفساد. والنساء قد جعلن من أنفسهن عَميلات غربيات مولعات بمستحضرات التجميل الغربية؛ والفنانون يقدمون ألحاناً غربية تعبر عن ولعهم بالموسيقا الغربية».

وهِسن، ولو هما عاصمتا تشانج-آن (تحت الغطاء الاسمي لـ هسن-يانج سالفتها التي انقضت)، و لو-يانج حيث باتت تلك الصرعات الجديدة كالوباء.

وكان بعض الصينيين يجيدون لغة الأتراك، وتوفر للدارسين الجادين قاموس تركي-صيني. وتعكس بعض القصائد الصينية من عهد تانج تأثير الأغاني الشعبية التركية عليها. وبالمثل فقد تعلم الكثير من البوذيين المخلصين شيئاً من اللغة السنسكريتية، وإن لم يكن معروفاً إلى أي حد ذهبت دراسة هاتين اللغتين ومعهما اللغات الكورية والتوشارية، والتشامية، ولغة التبت.

وبالنسبة للأزياء فقد كان الاتجاه العام هو اتباع النمط التركي والإيراني الشرقي. ففي عهد تانج كان الرجال والنساء على حد سواء يضعون على رؤوسهم قبعات «بربرية» عندما كانوا يسافرون للخارج، وخاصة على ظهور الخيل. وفي أوائل القرن السابع كانت النساء من الطبقة الأرستقراطية يفضلن مزيجاً من القبعة والبرقع، ونوعاً من البرنس (رداء رأسه منه) كان يعرف باسم «مي—لي»، وكان هذا البرنس يغطي الوجه وغالبية الجسم، وكان يساعد النسوة على التخفي وتجنب نظرات العامة. وبعد منتصف القرن تداعى التواضع والحشمة عندما تخلت النسوة عن البرقع الطويل واستخدمن بدلاً منه «قبعة ساترة»، وهي قبعة ذات حواف عريضة وقلنسوة تتدلى حتى الكتف فحسب، وقد تكشف الوجه. وكانت هذه القبعة قد صممت أصلاً لحماية الرأس عند الخروج في رحلات طويلة متربة، وكان يرتديها الرجال والنساء، وإن كانت أقل جاذبية لدى النساء.

وفي عام 671 صدر مرسوم في محاولة لمنع النساء من ركوب الخيل سافرات على أن تنقلن في عربات مغطاة، ومع ذلك تجاهلن ذلك المرسوم، حتى إنه في أوائل القرن الثامن كانت النساء يتنقلن داخل المدينة على ظهور الدواب وهن يرتدين القبعات التركية، أو ربما سافرات تماماً، وكن يرتدين ملابس وأحذية الركوب التي يستخدمها الرجال. ومن الصرعات الأخرى في الأزياء في منتصف عهد إمبراطورية تانج القبعات المصنوعة من جلود الفهود والتي كان يرتديها الرجال، والقمصان ذات الأكمام الضيقة على الطريقة الإيرانية والتي كانت ترتديها النساء ومعها الجيبات (القطعة السفلية من لباس المرأة) المثنية، والأرواب الطويلة التي ترتفع لتغطي الرقبة، بل وتصفيفات للشعر ومستحضرات للتجميل لا تمت للهوية الصينية بصلة. أما سيدات البلاط في القرن الثامن فكن يصففن شعورهن على هيئة «كعكة أجهورية». ويقابل تلك الصرعات حماس المستعمرين الصينيين للحفاظ على عادات وتقاليد أوطانهم، الأمر الذي شجع أهالي تون—هوانج في القرن

التاسع على الاحتفاظ بأزيائهم الصينية رغم أنهم كانوا تحت حكم التبت، بينما تبنى مواطنو مدن مثل ليانج-تشو الأزياء الأجنبية والسلوك الأجنبي.

ولقد ساعد الحماس للعادات التركية بعض الأرستقراطيين على تحمل العيش في خيام، حتى ولو كان ذلك في وسط المدينة. ولقد أقام الشاعر بو تشو-آي خيمتين تركيتين من قماش أزرق سماوي في فناء منزله، وكان يستقبل ضيوفه فيهما، وكان فخوراً وهو يشرح لهم كيف أنها توفر الحماية ضد رياح الشتاء. ومن أشهر سكان الخيام من أهل الحضر ذلك الأمير التعيس المسمى لي تشنج تشاين، ابن تاي تسونج الأعظم، الذي دأب على تقليد الأتراك في كل شيء؛ فكان يفضل التحدث باللغة التركية، وأقام معسكراً تركياً كاملاً في ساحة القصر، وكان يرتدي ملابس الخان (الأمراء الأتراك)، وكان يجلس أمام الخيمة تحت الشعار الذي هو عبارة عن رأس ذئب، ويحيط به العبيد في أزياء تركية، وكان يقوم بتقطيع لحم الضأن المسلوق مستخدماً سيفه، وعلى الرغم من أنه كان لهذا الأمير كثير من مقلدوه فإن تناول الطعام على هذا النحو البربري لم يكن مألوفاً، وإن كانت أطعمة أجنبية كثيرة أخرى قد لاقت قبولاً، مثل الفطائر من مختلف الأنواع، خاصة تلك التي كانت تعد على البخار وينثر فوقها حبوب السمسم، والفطائر التي كانت تقلى في الزيت. وكان فن طهي مثل تلك الفطائر قد جاء من الغرب، وعلى الرغم من استمتاع الصينيين والأجانب بها على حد سواء فقد كان الغربيون هم الذين يقومون بإعدادها وبيعها. وثمة رواية شعبية تدور حول واحد من باعة الفطائر تلك زاره شاب عائداً لتوه من منزل عشيقته قبل الفجر، وكان ينتظر قرع طبول الصباح إعلاناً لفتح بوابة الحي:

«وعندما أتى إلى بوابة المجاورة(الحي) لم تكن قد فتحت بعد. وعلى جانبها كان هناك مسكن لغربي يبيع الفطائر، الذي شرع لتوه في إضاءة المصابيح وإشعال الموقد. وهناك جلس تشنج-تزو تحت ستارته ليستريح انتظاراً لقرع الطبول».

وعلى الطرف الآخر كان هناك الأطعمة الفاخرة التي كانت تعد لموائد الأثرياء والوجهاء، وبعضها كان يعد باستخدام مكونات مستوردة غالية، وإن لم يكن يُطهى -على الأرجح- وفقاً للوصفات الأجنبية.

ومن الأطباق ذات الشعبية تلك المطعمة بالنكهات العطرية والتوابل، وكانت غالية الثمن. ومن الواضح أن بعض الأطباق كانت تطهى وفقاً للوصفات الأجنبية الأصلية مثل عجينة القمح البراهامية، الخفيفة المختمرة ، المَعدّة على البخار.

ومقابل تلك التأثيرات الأجنبية في الأزياء، والمساكن، والأطعمة وغيرها من مظاهر الحياة اليومية تأثرت الفنون كذلك. فالأجانب الذين اكتظت بهم إمبراطورية تانج قد جذبوا انتباه الشعراء والرسامين على حدٍّ سواء. وبطبيعة الحال فإن لكل عصر فنانوه المفتونون بالغريب والعجيب، وذلك لأن الإنسان بطبيعته قد يميل للخروج من دائرته الثقافية المحلية. لكن عشق الغرائب والعجائب يزدهر في العصور التي تنطوي على صلات جديدة (أو إحياء صلات قديمة) بالشعوب الأجنبية، ومن ثم فإن تلك الظاهرة مرتبطة ارتباطاً قوياً بالفتوحات الاستعمارية، وبالتوسع التجاري. ويقوم الشاعر العاشق للغرائب والعجائب بتمجيد بلاده ولكنه دون أن يدري -أو قد يدري- يبوح بما في صدره المثقل بالقهر والاستغلال في الخارج ويقوم بتمجيد المقهورين والذين يتعرضون للاستغلال. فالصور التي تمثل الموريين، والسارسيين في لوحات جوزولي، وبلليني (شأنها شأن صور الجزائريين والتاهيتيين في لوحات ديلاكرويكس، وجوجوين) إنما تعبر عن حضارة إمبريالية توسعية، ولهذه ما يماثلها في تانج. وحتى الغرائب الدينية (مثل تلك التي تتمركز حول المجوس من فنون عصر النهضة الأوروبية) تجد لها مثيلاً في عقائد الأرهت، حيث تتجلى السِّمات الهندية في الفن البوذي في الشرق الأقصى.

ولم يَرَ بعض نقاد العصور الوسطى في الصور والرسومات الغريبة أي غرابة. فعلى سبيل المثال كتب الناقد الشهير كو جو-هسو عن فنون القرنين التاسع

والعاشر فصنّفَ اللوحات القديمة تحت عناوين بارزة مثل: «لمحات عن الفضيلة»، «البطولة»، «مناظر من الطبيعة»، «عادات شائعة وسلوك عام». لكنه لم يشر إلى الصور التي رسمها الأجانب وتابعوهم، وإن كان قد تعرض من حين لآخر للموضوعات الغريبة، مثل الأسلوب الملائم لتمثيل الآلهة ذات الأصل الهندي. فعلى سبيل المثال فإنه عند رسم إندرا «..... ينبغي على الرسام أن يظهر شيئاً جاداً صارماً.....».

ومن ناحية أخرى فقد آل إلينا مقال قصير حول الرسومات التي تظهر الأجانب، وذلك من خلال دليل مجهول المؤلف بعنوان «هسوان هو هوا بو»، ويتضمن عرضاً للوحات التي ضمتها مجموعة هوي تسونج، الخبير الناقد في عهد سونج (القرن الثاني عشر). ومن بين الأمثلة الواردة في ذلك الكتاب كبار الرسامين الذين صوروا برابرة تانج، ومنهم هو كوي، وهو تشاين، اللذان بقي كثير من أعمالهما خلال عصور سونج. ولقد اشتهر هؤلاء الرسامون بقدرتهم على «اصطياد المناظر من بلاد بعيدة»، وتصويرهم للحيوانات والطيور الغريبة مثل الجمال والخيول والصقور.

ويذكر صاحب الكتاب المجهول هذا أن القيمة الحقيقية لمثل تلك الصور هي تصويرها للمستوى المتدني للثقافة البربرية مقارنة بالثقافة الصينية. وبالتأكيد فقد كان ذلك الاتجاه الوطني التعليمي المتطرف أكثر شيوعاً في سونج عنه في أوائل عهد تانج. ففي تانج كانت اللوحات ذات الموضوعات الأجنبية تثير شعوراً بالتفوق والفَخَار، أما في سونج فقد أثارت الغطرسة والتخوف. ولنا أن نتأكد أنه في كل الحالات كان غالبية جامعي فنون سونج، وأيضاً غالبية عاشقي فنون تانج يطربون ويسعدون بتلك اللوحات نظراً لأسلوبها وألوانها المتميزة، بغض النظر عن رأيهم فيما يتعلق بقيمة موضوعها.

وعلى الرغم من ندرة التعميم فيما يتعلق بعشق الغرائب والعجائب وغيرها من

الصرعات في النقد الأدبي فإن بوسعنا رسم صورة مبسطة للاتجاهات والأساليب في الفنون، وذلك بتحليل ما كتبه النقاد حول الموضوعات التي أجاد الفنانون معالجتها. فإذا فعلنا ذلك فسوف نجد أن القرن السابع كان أعظم عصر من حيث عشق الغرائب والعجائب في تانج عندما وصلت القوة العسكرية لأباطرتها إلى ذروتها، وعندما تدفق «البرابرة» في رهبة تامة على بلاطها. فلقد جعَل الكبرياء الوطني للإمبراطورية المنتصرة، من الشعوب المقهورة مادة خصبة لفن الرسم. وعلى النقيض من ذلك نجد أن القرن التاسع كان العصر الذهبي للغرائب والعجائب بالنسبة للأدب في عهد تانج، عصر الذكريات. ومن أبرز رسامي الموضوعات الأجنبية ين لي-تي، شقيق ين لي-بن الذي لا يقل عنه شهرة، والذي كان له شرف رسم مُحَيّا تاي تسونج ذاته، ويحكى أنه ما من رسام للموضوعات الأجنبية في عصره أو في عصور سابقة استطاع أن يضاهيه. وفي عام 629 قَدَّمَ العَلاَّمَةْ ين شيه-كو أحد سكان الجبال النائية مما يعرف الآن باسم مقاطعة كوتيشو للبلاط الإمبراطوري، وكانت على رأسه قبعة مصنوعة من فراء الدب، وعلى جبهته إطار من ذهب، وملابسه الخارجية مصنوعة من الفراء، ونعليه من الجلد. وفي إشارة جامعة مانعة أورد شيه-كو أمثلة ملائمة من الماضي فقال: «واليوم يأتي إلى البلاط أناس متباينون من مختلف البلاد التي امتدت إليها فضائل الإمبراطورية، كلٌ في زيه الأصلي المزين بالحشائش والريش، ويلتقون معاً في أحياء البرابرة. وهذا في الحقيقة منظر جدير بالرسم لأنه يبين للناس جميعاً المدى البعيد الذي ذهبت إليه تلك الفضائل». وبناء على ذلك فقد طُلِب من ين لي-تي رسم المنظر المغري.

وغالباً ما كان يصعب التمييز بين صور البلاد الأجنبية والخرائط الاستراتيجية، وقد بنيت على النمط الاستفهامي ذاته. وفي عهد تانج ظلت الأغراض الجمالية منفصلة عن النتائج والجوانب العملية. ففي عام 643 طلب من ين لي-بن رسم مناظر نمطية للبلدان التي أرسلت بكل الخنوع سفراء لها لدى بلاط تاي تسونج.

ومن بين اللوحات التي رسمها واحدة بعنوان «المناطق الغربية». ومن ناحية أخرى رسم تشو فانج، وتشانج هسوان (وكلاهما قد اشتهر برسم النساء، وتركز نشاطهما في أواخر القرن الثامن، أي بعد أكثر من قرن من زمن الأخوين لي) صوراً للبلاد المدهشة: بروم (أو هروم ، أو روما ، والتي هي الآن فو—لين)، أي جزء من العالم البيزنطي. ولا يمكننا الآن تصور طابع تلك المناظر، وإن كانت ترقى للكنوز العظيمة لو قدر لها البقاء. وحتى الرسام العظيم وانج وِي قد رسم منظراً طبيعياً من «بلاد مجهولة»، وحقاً لم يستطع أحد تحديدها.

ولقد كان أمراً معتاداً أن يقوم الرسامون بتصوير سكان مثل تلك المناطق النائية في أزيائهم الوطنية مع التركيز على ملامحهم الغريبة. ومن بين كافة الأعمال الفنية التي تصور الأجانب، والتي يمكن تحديد تواريخ معظمها بدقة، أعمال الحرفيين من أهل تانج، والتي هي عبارة عن تماثيل صغيرة من الطين (يبدو عليها الأثر الهيليني "المتأغرق" واضحاً) للأجهوريين بقبعاتهم العالية وملامحهم المتغطرسة، وربما العرب بحواجبهم السوداء وأنوفهم التي تشبه الصقور، ولآخرين من ذوي الشعر المجعد والابتسامة العريضة، مهما اختلفت عروقهم. وعلى الرغم من أن الشعوب الغريبة كانت موضوعاً مفضلاً لدى كبار الرسامين وصناع الفخار في تانج فإن قليلاً من أعمالهم هو الذي تبقى، فلقد ضاعت لوحات ين لي—بن التي تصور دافعي الجزية وهم يقدمونها في خنوع وخضوع لإمبراطور الصين، وربما صورت إحداها تقديم أسد للإمبراطور رمزاً للعظمة والجاه والسلطان. وليس بإمكاننا مشاهدة لوحة لي تشاين وابنه لي تشونج—هو التي تصور رماة السهام البرابرة على صهوات خيولهم، ولا لوحة «ملك كوريا وهو يطوف حاملاً المبخرة» والتي رسمها تشانج نان—بن، ولا اللوحة التي رسمها تشو فانج بعنوان «امرأة من الهند»، أو لوحة تشانج هسوان بعنوان «فارسة يابانية». ولكن بوسعنا مشاهدة لوحات لرجال من العديد من دول آسيا الوسطى، رجال بوجوه غريبة وقبعات غير عادية،

وقصات شعر عجيبة في تون–هوانغ. وكان الجنود وموظفو الحكومة والحجاج المتعبون الذين يمرون بالمدن / الواحات في سيرنديا يرون كائنات أكثر غرابة مرسومة على جدران المعابد التي زاروها تحت حماية القوات الصينية المحلية: بوذيون يرتدون أزياء هيلنية، وعلمانيون إيرانيون، ونساء عاريات من واقع الملاحم الهندية الـمُتَّقدة.

وعلى القدر نفسه من الجاذبية كانت الحيوانات المتوحشة في البلاد الأجنبية، خاصة تلك التي كانت تأتي كهدايا للبلاط مع السفراء والمبعوثين، والحيوانات الأليفة، خاصة تلك التي كان يحبها ويعجب بها الصينيون: الصقور، وكلاب الصيد، والخيول الشهيرة.

وأخيراً فقد كان فنانو تانج يهوون إبراز آلهة وقديسي البلاد الأجنبية، خاصة تلك التي سادت فيها الديانة البوذية: كهنة هنود أصابهم الهزال وتشعَّثتْ حواجبهم، وكهنة بوذيون لهم طلعة الأمراء وتتدلى من أعناقهم عقود بها أحجار كريمة متعددة الألوان، والآلهة القديمة لكل من إندرا وبراهما، وقد صورت كحامية لقانون بوذا وأيضاً لبوابات القصور الصينية، وغيرهم من الحرس الإلهيين من وحي كل من الثقافة الشمالية للقبائل الرُّحَّلْ، والثقافة الصينية (مثل كوڤيرا حامي حِمَى الشمال ويظهر ملتحياً وله شنب ضخم ومرتدياً عُدَّةً عسكرية صينية).

وكانت هذه الصور الممتزجة أحياناً نتاجاً لاستخدام رسامي الموضوعات الغريبة للنموذج الصيني، كأن تظهر فتاة الجيشا التي تقوم على خدمة شخص ذي مركز رفيع وكأنها ديڤي (الإلهة الهندية) في منظر بوذي، مثلما فعلت المومسات الإيطاليات عندما كن يجلسن عاريات حتى يتم رسم لوحات لهن في عصر النهضة الأوروبية. ولابد أن يضم إلى صور الكائنات المهجنة تلك اللوحات الراقية لجنات البوذية التي تستعصي على الوصف، مثل بلاد الخيال البعيدة. ومن بين أبرز

رسامي الأيقونات البوذية في أوائل عهد تانج ذلك الأجنبي الخوتاني المسمى ڤيزا إراسانجا، والذي عرف في اللغة الصينية باسم يو–تش آي–سينج، وكان قد أتى إلى البلاط الصيني في حوالي منتصف القرن السابع بتوجيه من مليكه، وكان قد أحضر معه أسلوباً جديداً للرسم من أصل إيراني، وفيه تظهر الأشكال المظللة عديدة الألوان وكأنها أشكال بارزة، أو وكأنها تسبح بحرية في خلفيتها. ومن بين اللوحات التي لا تزال باقية تلك التي تصور ڤيڤارجيا وقد رسمها ذلك الفنان الأستاذ. ويقال إن الفنان العظيم وُو تاو–هوسان قد تأثر بذلك الأسلوب، كما يمكن ملاحظته في كهوف تون–هوانج. وينسب إليه أيضاً فضل المساعدة في إدخال الأسلوب الغربي الذي ينطوي على استخدام خط ثابت السمك لتحديد الأشكال، وهو ما يسمى بخط «السلك الحديدي» في المعابد البوذية بالمدن الكبرى في الصين. ولم يقتصر أمر ڤيزا هذا على الرسم بأسلوب غريب، بل إن موضوعاته ذاتها كانت غريبة كذلك، ولم يكن يخجل من رسم «فتاة كوتشا الراقصة».

أدب الغرائب

تخلفت ذروة الاهتمام بأدب الغرائب بنحو قرنين من الزمان عن مثيلتها بالنسبة للفنون التشكيلية. ولقد بدأ تطورٌ ذلك الاتجاه الجديد في أواخر القرن الثامن، وارتبط بحركة «الأسلوب القديم» في كتابة النثر، وكان هذا بمثابة رد فعل ضد «الجديد» (أي الذي لم يتجاوز عمره حفنة من القرون) من النثر الطباقي. أما الميل إلى الغرائب فيظهر جلياً في الشعر، وأيضاً في النثر في تلك الحقبة. فلقد انبهر شعراء القرن التاسع بالألوان الزاهية، والخيالات الشاردة، والصور الرومانسية. ولعل أفضل من يمثل شعراء ذلك العصر لي هو الذي اشتهر بصوره البلاغية الثرية، ونزعته للألوان المبهرة، كأن يستخدم لفظة «الكهرمان» للدلالة على الخمر، وعبارة «الأحمر البارد» للإشارة إلى «زهور الخريف». ولن نندهش إذا علمنا أن

ذلك الشاعر الشاب كان مولعاً بقراءة أمهات الكتب، وأنه قد مات مبكراً، وأن نقاد سونج قد تحدثوا عن «مواهبه الشيطانية». وكانت تأتيه النزعات الغريبة بشكل طبيعي، كما هو الحال في قصيدته «سفير من كورونج»، أو في وصفه لصبي بربري ذي شعر مُجَعَّد وعيون خضراء. وعلى شاكلته كان الشاعر تومو، وكان يشغل منصباً في الحكومة، وقد اشتهر كذلك بمقالته الحربية التي حثَّ فيها على شن الحرب على برابرة الشمال في بدايات الصيف عندما يكونون ساكنين وغير مستعدين للقتال. ومهما كانت مواهبه العملية فقد كان من شعراء المجموعة الرومانسية، وتسود ذكريات الماضي الجميل في أشعاره:

«فإذا رجعت بنظرك إلى تشانغ-آن فسوف تجد
كوماً مطرزاً؛

وألف بوابة وسط قمم الجبال تفتح كل منها في
موعد محدد.

وهذا خيال وحيد وسط الغبار الأحمر —
ويضحك المرافق الصغير

ولكن ما من أحد يعلم، إذا كان القادم ثمار
الليتشي».

ولقد كان الذي أوحى بكتابة تلك القصيدة منظر قصر مهجور عند ينابيع المياه الساخنة بالقرب من تشانغ-آن حيث كان هسوان تسونج ورفاقه يمضون شهور الشتاء قبل ذلك بوقت طويل. وهناك أيضاً الشاعر يوان تشن الذي كان يعشق الأنماط الكلاسيكية النقية لتصور الماضي. فعلى سبيل المثال نجده قد أعرب عن حزنه لتخلي القرن الثامن عن استخدام الأحجار التقليدية التي كانت تجلب من ضفاف نهر سزو، والتي اشتهرت في الأدب الأقدم كمادة لصنع حواف البراميل، وتفضيل نوع جديد من الأحجار عليها. كذلك فقد تَحَسَّرَ هذا الشاعر على عزوف الشباب عن الاستماع للموسيقا القديمة. وفي هذا الصدد يقول:«على

الرغم من حب هسوان تسونج للموسيقا فقد اقتصر حبه هذا على الجديد منها».
وبالمثل يبدي يوان تشن حسرته على تلك الصرعة المتمثلة في عشق الأشياء الغريبة العجيبة. وفي العديد من قصائده البيوريتانية (أي الداعية للنقاء) نجد أن الفاعلية تكمن في معالجة الشاعر لتلك الموضوعات الغريبة (مثل استيراد حيوان وحيد القرن والأفيال، والخيالة الأتراك، وفرق الموسيقا البورمية). وهكذا يمكن القول بأن ذلك الشاعر كان معادياً للغرائب بشكل غريب حقاً!!.

ولم يتم تدوين تاريخ الحركة الغرائبية في أشعار تانج بعد، أما النثر فهو معروف بدرجة أكبر، ويرجع ذلك إلى ما تضمنه من روايات العجائب متعددة الأنماط والأشكال والأساليب، وهذه كانت قد ازدهرت خلال العقدين الأول والأخير من القرن الثامن. ولقد انتشرت قصص الغرائب والعجائب والخيال الجامح خلال السنوات الأولى من القرن التاسع، ومن حسن الحظ أن كثيراً منها قد تبقى. ومن الأنماط القصصية الشائعة قصة جوهرة كانت قد أحضرت إلى الصين، أو سعى أجنبي غامض إلى إحضارها للصين، وكان لتلك الجوهرة القدرة على نزع الطين من المياه، والكشف عن الكنوز المدفونة، أو المجيء برياح مواتية للمسافرين بحراً، كما كان لها خصائص خارقة أخرى. ولقد انعكس ذلك الانبهار بالغرائب والعجائب في أواخر عهد تانج في لوحات المناظر الطبيعية الرائعة كما انعكس في الروايات التي دارت حول الأشياء الغريبة والنادرة التي كان يؤتى بها من الخارج، أو التي كانت تقدم في السنوات السابقة كهدايا للبلاط الإمبراطوري. ومن ثم فإننا نتعامل ليس مع سحر الواردات الأصلية وإنما مع روعة أشياء لم يكن لها وجود في أي مكان آخر على الأرض أو في البحار، وليس مع الهدايا الذهبية الحقيقية وإنما مع نسخها المقلدة – تلك التي كانت من صنع العقل ونسج الخيال.

ويلاحظ أن الهدايا الخيالية (التي تغذي الخيال بدورها) لا تتقدم في أدب تانج – بطبيعة الحال–على الهدايا الأصلية. ففي الزمن القديم هناك الهدايا التي قدمت لـ

مُو ابن السماء، ومنذ عصره، وفي كل عصر بعده، ظهرت روايات حول الهدايا الخرافية الواردة من الخارج. فعلى سبيل المثال تينك الفتاتان اللتان قدمهما «الغراب الأحمر» لـ مُو، ملك تشو بالحق الإلهي، الذي اتخذهما محظيتين وقد صورتا على أنهما فتاتان سوداوتان البشرة أرسلتا (هكذا تخبرنا المصادر العليمة من القرن الثالث عشر) ضمن الجزية المقدمة من ساحل الكوروماندل، وهي منطقة اشتهرت نساؤها الناريات بإعادة الشباب والحيوية لأضعف الرجال.

ولقد ساعد على انتشار وتعزيز سحر مثل تلك الروايات، الاعتقاد بأن السفر للخارج مليء بالمخاطر والمتاعب الجسمية والروحية، وأن على المسافر أن يتوقع مغامرات رهيبة في كل مكان يذهب إليه خارج الصين. وكان الناس يصدقون بسهولة ما يحكى من روايات: أشباح ووحوش تتربص في كل كهف أو وراء كل صخرة في الجبال، أو تختبئ وراء كل موجة استوائية. وبطبيعة الحال فقد كان الناس والأشياء في الخارج جزءًا من ذلك السحر المرعب. وحتى في أواخر عهد تانج ظلت هناك آلهة عجيبة غريبة ارتبطت بالسحر. وفي كل العصور (بما فيها عصرنا هذا نفسه) يميل الناس لتصديق الخرافات إذا ما كانت تتعلق ببلاد بعيدة. ومن هنا يمكن القول إن فكرة «الجزية الخيالية» لم تكن جديدة في القرن التاسع، وما كتب عنها آنذاك لم يكن سوى إحياءً لتقاليد وممارسات قديمة، وإن اكتسبت مادة خام جديدة من الأحداث التي وقعت في النصف الأول من عهد تانج الذي تميز بوفرة وتنوع العجائب والغرائب في الصين. ولقد ازدهرت العجائب والغرائب المادية والروحية في القرنين السابع والثامن حيث كان من المألوف مشاهدة الأجانب وما يحملونه على أجسادهم من زينات غريبة مثيرة للالتفات، وكانت الصرعات الأجنبية تنتشر كالنار في الهشيم في هذا العهد التوسعي الرائع حتى إن «ابن السماء» كان يضطر من حين إلى حين أن يضرب مثلاً لشعبه فيأمر بمنع تقديم الأشياء العجيبة والغريبة ضمن ما يقدم من جزية. ففي العام الأول من حكم مؤسس الأسرة صدر مرسوم من هذا النوع، وكان له –بالإضافة إلى إعطاء

مَثَل في البساطة– غرض آخر هو الإشارة الضمنية إلى استهتار نظام الحكم السابق، أي عهد سِوي، وجاء في نهاية ذلك المرسوم ما يلي: «..... يتعين وقف تقديم أشياء مثل الأقزام، والخيول الصغيرة ذات الأرجل القصيرة، والماشية القزم، والوحوش والحيوانات الغريبة، والطيور ذات الأشكال العجيبة، وكل شيء لا يمثل منفعة حقيقية. وليعلم القاصي والداني بهذا المرسوم، وليسمع ويفهم كل الناس». إلا أن ذلك المرسوم لم يكن نافذاً على الدوام، الأمر الذي جعل الأباطرة يكررونه من حين لآخر، فإذا لم يكن يستهدف الغرائب والعجائب مثل البركيت (ببغاء صغير هزيل) المجلوب من جاوا فقد استهدف التوافه من الأشياء مثل صقور الصيد البيضاء والتي كان يؤتى بها من منشوريا.

وبعد الاضطرابات التي وقعت في النصف الثاني من القرن الثامن تضاءل وجود نوادر البلاد الأجنبية في البلاد، وازداد تضآؤلاً بعد أعمال السلب والنهب في هوانج تشاو في القرن التاسع، وما صاحبها من مذابح للتجار الأجانب خلال اجتياح مدينة كانتون. ولقد شهد القرن نفسه اضطهاد الديانات الأجنبية، وهو اضطهاد لم يقتصر على اختفاء هذه الديانات وكهنتها وعبدتها عن أنظار الصينيين، بل أيضاً الكتب الأجنبية وصور وأياقين الآلهة الأجنبية.

من هنا فإنه ليس بمستغرب أنه باقتراب نهاية «العصر الدولي» –عصر الواردات، عصر الاختلاط والامتزاج، وباختصار شديد العصر الذهبي في بداية القرن التاسع لم يعد ممكناً مجاراة التعطش للأشياء الغريبة والعجيبة التي ترد من وراء البحار وعبر الجبال، سواء كانت تلك مخطوطات بوذية أو كتباً طبية، أقمشة مطرزة بالقصب أو خموراً نادرة، أو حتى إشباع الرغبة في مجرد مشاهدة الحواة المتجولين القادمين من تركستان. ومن هنا دبت حياة قوية جديدة في قصص العجائب والغرائب القديمة، ووفرت للخيال الجامح ما لم يمكن توفيره للعقل والواقع.

ولقد شهد القرن التاسع كتابة أكبر عدد من الروايات حول الواردات الخيالية

والجزية الأسطورية في عهد تانج بعد أن أصبحت العجائب والغرائب الأصيلة بعيدة المنال. وهكذا فقد تحول عشق الغرائب والعجائب الفعلية من عالم الواقع إلى عالم الأدب والخيال.

وعلى حد قول أحد النقاد:

«لم نعد نعيش في العالم الحقيقي؛
فنحن الآن في أرض الأحلام
التي تتأرجح فيها الروح كلهيب الشمعة في
مهب الريح.
فالمناظر الطبيعية قد تحولت إلى مناظر داخلية،
وأصبح العالم غارقاً في محيط من الظلام الذي لا
حدود له،
ولم يبق هناك سوى ظل عطرٍ».

وتزعم روايات كثيرة أنها تحكي عن عهد هسوان تسونج، ذلك الملك الأسطوري، أعظم الملوك في العصر العالمي، وكان نفسه خبيراً ناقداً فيما يتعلق بالغرائب والعجائب، كما كان رمزاً لكل ما هو رومانسي حتى آخر لحظة في حياته. ففي زمنه كانت تسمع موسيقا أعواد كوخا!! أما في القرن التالي فما كان للفرد إلا أن يحلم بسماعها.

وفيما يلي بعض من تلك الذكريات المبدعة: خاتمان أبيضان -هكذا تقول الرواية- كان قد قدمهما لإمبراطور الصين واحد من أتباعه ضمن «كنوز أخرى تؤكد مكانة الدولة». وكان هذان الخاتمان هما «الأم التي هي الملك في الغرب»، شكل معتم أشيب يرتبط بأحلام الخلود في الجبال التي تشكل قمة العالم. ويشبه الخاتمان خواتم سحرية أخرى معروفة في الأدب الشعبي، ويحق لمن يمتلكهما أن يتوقع خضوع كافة الدول المحيطة.

وهناك رواية أخرى حيث جاءت من تونج كنج قطعة من قرن الحيوان المسمى وحيد القرن، وكانت صفراء في لون الذهب، وقد وضعت في طبق من ذهب وحملها رسول موضحاً أنها ذات قدرة على القضاء على برودة الجو، وبالفعل كان يشع منها هواء دافئ ينتشر في كل مكان حولها. وبالمثل كانت هناك المئات من أعواد الفحم النباتي التي كانت تسمى «الفحوم ذات الفأل الحسن»، والتي يقال إنها كانت تأتي من ليانج الغربية، وهي دولة قديمة كانت قائمة في منطقة كانسو، وكانت هذه الأعواد في صلابة الحديد، وكانت تشتعل دون لهيب لمدة عشرة أيام، ولا يستطيع أحد الاقتراب منها لشدة ما ينبعث منها من حرارة.

ومن الهدايا الملكية التي وردت من كوخا وسادة نحتت من صخرة لامعة تشبه العقيق، وكان الرأس السعيدُ الذي يقدر له أن يوضع على تلك الوسادة يحلم برحلات في كل البلاد والبحار، ومنها ما لا يعرفه الناس. وتمضي الرواية لتخبرنا أن ذلك الرأس كان لرجل الدولة الصاعد يانج كو-تشونج، والذي كان سعيد الحظ كذلك لكونه ابن عم المرافق الإمبراطوري الشهير لهسوان تسونج.

ولعل الطلب الدائم على الزمرد الرائع والذي هو أجمل المعادن هو الذي يفسر القصة التالية: ففي منتصف عهد هسوان تسونج أبدى هذا الحاكم دهَشَه لعدم وجود أشياء مصنوعة من الزمرد الأسطوري ذي الألوان الخمسة وسط الكم الهائل من الهدايا التي وصلته من الغرب، وإن كان يحتفظ في خزانته بحزام مزين بقطع من ذلك الحجر الكريم، وكوب منحوت منه، وكان قد تلقاهما قبل وقت طويل، ومن ثم فقد أمر قادة جيشه بتأنيب البرابرة المقصرين (وهم مجهولون بطبيعة الحال) والمسؤولين عن ذلك النقص، وقد يكونون من أهالي خوطان مصدر الياقوت الذي لا ينضب، وقد اعتبر هؤلاء قوم متوحشين رغم موسيقاهم الساحرة ونسائهم الجميلات الرائعات. وأيا كانت هويتهم فقد تم تدارك الأمر وحُمِّلت إحدى السفن بشحنة من المصنوعات متعددة الألوان واتجه بها صوب تشانج-آن. إلا أنه

لسوء الحظ تعرضت القافلة للهجوم من جانب قوم بالور الصغرى وهم من الطوافين الغازين بحثاً عن الأسلاب، وكانوا يأتون من الوديان الضيقة شديدة البرودة على حافة باميرز الثلجية. وعندما وصلت تلك الأنباء السيئة للقصر المقدس اشتاط ابن السماء غضباً وأرسل جيشاً قوامه أربعون ألف رجل وعدد لا يحصى من البرابرة المستقلين لحصار عاصمة هؤلاء اللصوص واستعادة المشغولات الزمردية. وسرعان ما استسلم ملك بالور الصغرى، وسلم الشحنة المنهوبة، وبكل خنوع طلب السماح له بدفع جزية سنوية لتانج، ولكن طلبه قد رُفض، وأغارت القوات على عاصمته جلجيت وأعملت فيها السلب والنهب، ثم قفل القائد المنتصر عائداً إلى الوطن على رأس من نجا من جنوده، وكان عددهم ثلاثمائة ألف وحينئذ تبعته نبوءة جاء بها عراف بربري وتنطوي على مصير سيئ، وبالفعل دمرت عاصفة شديدة بمجمل القوات إلا جندياً صينياً واحداً، وبربرياً حليفاً واحداً، وهكذا— ولسوء حظ هسوان تسونج— لم يصل الكنز إلى العاصمة، فأرسل فريقاً للبحث عن بقايا جيشه فلم يجد سوى جيش من الأبدان الشفافة، والسجناء المجمدين، وجنود من جليد وقد ذابوا جميعاً على الفور ولم يشاهدهم أحد أبداً بعد ذلك.

تلك —إذَنْ— كانت السنوات السحرية وفيها لم يكن ثمة شيء مستحيلاً، وهي السنوات التي حاول كتاب الروايات الخيالية في القرن الثامن إحياءها في الخيال.

ومن أبرز النماذج الدالة على هذا الاتجاه في فن الرواية كتاب ظهر قرب نهاية القرن التاسع. وعلى عكس غالبية كتب العجائب والغرائب في عهد تانج، والتي تناولت كل أنواع الخيال فإن ذلك الكتاب مسخر بكامله تقريباً لموضوع الغرائب والعجائب واسم الكتاب «مختارات من أدب تو–يانج» ومؤلفه العلامة سو أو (876). وفيما يلي بعض النوادر التي يصفها:

جاءت حبّات الفول اللامعة السحرية من بلد يسمى «غابة الشمس»، ويمكن تفسير الاسم على أنه يعني «منبع الشمس» –أي اليابان. وهذا البلد الذي يقع بعيداً عبر بحار الشمال الشرقي قد اشتهر بصخرة لامعة كبرى عكست أحشاء رجل (مثلما تفعل أشعة x) حتى يتسنى لطبيبه فحص حالتها ومن ثم علاجه بشكل أسرع. وكانت حبات الفول ذاتها ذات لون وردي زاهٍ، وكانت تشع ضوءاً يمتد لعدة أقدام. فإذا طهيت مع أوراق نبات عشبة البِرك (التيفا) فإنها تنمو لتصبح في حجم بيض الإوز. ولقد تناول الإمبراطور بنفسه إحدى تلك الحبات الممتازة فوجدها طيبة المذاق إلى أبعد الحدود، ويضاف إلى ذلك أنها حررته من الجوع والعطش لعدة أيام.

وثمة طعام عجيب آخر أتى من بلد في البحار الجنوبية الغامضة التي أرسلت هي الأخرى وسادة من البلور يمكن مشاهدة منظر طبيعي بداخلها يتضمن مبانٍ وأشكال آدمية ، ومع الوسادة أرسل غطاء (مفرشاً) مطرزاً مصنوع من الحرير المستمد من «ديدان القز المائية» التي كانت تتمدد بالرطوبة وتنكمش بالحرارة.

وكان الطعام الذي أرسله ذلك البلد نوعاً من حبوب القمح ذا رائحة زكيّة، وكانت تجعل البدن خفيفاً بحيث يطير مع الريح، وبعض حبوب الأرز الأرجواني كان يعيد الشباب ويطيل العمر.

ومن الهدايا المفضلة الأخرى التنين (أرواح الماء)، وكان النحاتون والرسامون يبلورونها في أشكال مادية صغيرة. ومن أمثلتها «دبوس شعر قرن التنين»، «والخرز الذي يمشي على الماء»، وكان دبوس الشعر الرائع قد قدم كهدية مصاحبة للحبوب السحرية اللامعة، وكان يصنع من حجر شبيه بالياقوت، وكان ذا لون أرجواني داكن يميل للزرقة، وقد نحت في أشكال مختلفة تمثل التنين، وبمهارة لا يقدر عليها بشر. ولقد أهداه الإمبراطور تاي تسونغ بدوره لأحد تابعيه المفضلين –السيدة

الجميلة توكو. وفي ذات يوم، وعندما كان الاثنان يستقلان قارباً في بركة قارب التنين تشكلت سحابة أرجوانية فوق الدبوس، وأخذ العاهل الدبوس في راحة يده ورش عليه الماء، وفي الحال تجمد البخار مشكلاً تنينين قفزا إلى السماء وتلاشيا في اتجاه الشرق. أما الخرز الذي يمشي على الماء فقد كان خرزاً أسود مشرشر، وسطحه محرشف بشكل غريب، وكان بوسع حامله أن يخوض الماء دون أن يلحق به أي أذى. ولقد اختبره الإمبراطور بنفسه حيث ربطها بحبل ذي خمسة ألوان (وهذا ما كان يخافه التنين السام) في ذراع سباح ماهر، ومشى ذلك السباح على سطح الأمواج، ثم غطس تحت الماء ثم خرج منه جافاً تماماً. وفي وقت لاحق، وبينما كانت نساء القصر يلهين بالخرز في بركة تحول إلى تنين أسود.

ومن الهدايا المرغوبة في إطار الجزية الطيور الغريبة وأرواح الطيور، ومن أمثالها «العصفور الرافض للنار»، وهو طائر جاثم أسود كان قد أُرسِلَ للإمبراطور شون تسونج في مناسبة اعتلائه العرش، وكان هذا الطائر محصناً ضد النار، أي أنه كان باختصار عنقاء (فونكس) حقيقية (طائر خرافي زعم قدماء المصريين أنه يعمّر خمسة قرون / المترجم) ، وهو بخلاف الفنج—هوانج الشائع في الروايات الصينية والذي كان يسمى فونكس بالخطأ في الغرب، إذ كان في الحقيقة سمندل الهند (وقد زعم العرب أنه يوجد في بلاد واق—واق) والذي كان جلده يستعصي على النار. ولقد وضع ذلك الطائر في قفص بلّوري في غرفة نوم الإمبراطور، وعبثاً حاولت الخادمات حرقه بالشموع. ولقد أرسلت دولة أخرى راقصتين أطلق على إحداهما «الفونكس المضيء»، وعلى الأخرى «السِمُرغ الطائر» (والسمرغ طائر مُعمَّرٌ ذُكر في الأساطير الفارسية/ المترجم)، وهذان أكثر الطيور رقة، وعلى رؤوسها تيجان ذهبية مزينة بصور الطيور الخيالية التي سميت على أسمائها، أو التي كانت هي أرواحها. وكانت تتغذى على ثمار الليش، والتبر (تراب الذهب) والكافور (مخ التنين).

ومن المجموعات الخاصة وسائل التدفئة غير العادية. فالمرجل دائم الاشتعال كان يطهو الطعام دون نار. ولقد ورد وصف لتلك الآلة المفيدة في إطار سرد خيالي رائع مليء بالإشارات لبلدان أسطورية ذكرت في تاريخ هان قبل ذلك بألف عام. ويقال إنها قد جاءت كهدية من مملكة أسطورية. ويرتبط بها «الزمرد الناري» الذي كان ذا لون أحمر، ويمكن استخدامه كجمرة فحم لتسخين المراجل.

والعكس بالعكس؛ كانت مصادر التبريد على القدر نفسه من الغرابة والنفع. فهنالك «الثلج الذي لا يذوب» والذي كان يوجد على جبل هائل كانت أنهاره الجليدية تعود إلى ألف سنة خلت، ولم يكن ذلك الجليد يذوب حتى في أشد الأيام حرارة وسطوعاً للشمس. وكان هناك أيضاً «حجر رياح الصنوبر» نصف الشفاف وبداخله يمكن مشاهدة شجرة الصنوبر والتي ينبعث من أغصانها نسيم بارد. وكان العاهل يضعه بالقرب منه خلال الصيف.

ومن الهدايا المطلوبة بدرجة أقل، وإن اكتنفها القدر ذاته من العجب «العشب القادر على تغيير ضوء النهار»، وكان يشبه شجرة الموز، وكان محاطاً دائماً بمنطقة معتمة، ولكن هذه الظاهرة الخارقة لم تَرُقْ للإمبراطور.

ومن بين تلك العجائب الأدبية بعض ما كان يمكن بسهولة اعتباره حقيقياً، أو يمت للواقع بصلة على أقل تقدير. ومن بين هذا «السجادة ذات الألوان الخمسة» التي أهديث لإمبراطور تانج المسمى تاي تسونج، ومثلها كثير من إهداء مملكة سيلا الكورية. ولقد نسجت تلك السجادة ببراعة شديدة بحيث تظهر أشكال الراقصات والموسيقيين، والجبال والأنهار، وأنواع الطيور المختلفة، بل والحشرات التي كانت تحوم مع هبوب أقل نسمة على الغرفة.

ومن العجائب كذلك «جبل آلاف البوذيين»، وهو عبارة عن تركيب جواهري منحوت من خشب الألوس الهندو صيني بارتفاع عشرة أقدام، وكان قد جاء أيضاً

كهدية من مملكة سيلا. وعلى الجبل وضعت صور لكل أتباع بوذا، وشيد بعض المباني والحدائق الغناء، وقد تميزت بدقة التفاصيل من حيث الترصيع باللآلئ والأحجار الكريمة. وكان الإمبراطور (وهو بوذي تقي) قد أمر بوضعها كرمز كوني داخل حرم خاص. وبسط كذلك السجادة ذات الألوان الخمسة على أرضيته. ومن المؤكد أن هذه التحفة العجيبة لم تكن أمراً خيالياً كلية.

وأما طائر «تشو-لاي» فقد يكون قد وجد فعلاً في شكل أو آخر. وعلى الرغم من أن الإمبراطور تي تسونج كان يتلقى كهدايا حيوانات مدربة وطيور جارحة عجيبة الشأن والشكل فقد كان بصفة عامة يطلق سراحها وفقاً لقواعد الديانة البوذية، لكنه احتفظ لديه بطائر تشو-لاي الأنيق الرشيق الذي كان قد تلقاه من بلد جنوبي عام 781. وكان لهذا الطائر منقار أحمر، وذيل أرجواني-أزرق، وهو ذيل أطول من جسم الطائر نفسه. ولقد اتصف هذا الطائر بالمهارة وفهم الأوامر التي تصدر إليه من البشر. وكان صوته عالياً مدوياً. ولقد حظي هذا الطائر الذي يبدو أنه العقعق الاستوائي، بحب وإعجاب أهل البلاط الذين كانوا يقدمون له أشهى المأكولات. وكان يمضي لياليه في قفص من ذهب، ونهاره طائراً في أروقة القصر، «ولم تكن الجوارح مثل الصقور والنسور تجرؤ على الاقتراب منه»، وإن تمكن نسر ذات يوم من الإمساك به والفتك به... وياللحسرة!!. ولقد حزن القصر عليه حزناً شديداً، وقام خطاط ماهر بإعداد نسخة ورقية مذهبة من مرثية شهيرة وأهداها لروح الفقيد!!.

وكانت دولة مجهولة في البحار الجنوبية قد أرسلت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تسمى «فتاة الحواجب السوداء»، وكان من بين مهاراتها الغريبة موهبة تطريز لفات اللوتس سوترا السبع في أشكال دقيقة على قطعة من قماش التافتاه بطول قدم واحدة. وهذه أيضاً يمكن أن تكون حقيقية.

والعجائب التي أشرنا إليها مجرد عينات مما ورد في كتاب سو أو. وكما رأينا فإن بعضها منسوب لبلاد حقيقية مثل اليابان، وسيلا، وبعضاً إلى أمم قديمة لم يسمع عنها منذ فترة طويلة مضت، وبعضاً ثالثاً إلى بلاد أسطورية تماماً. ولكن في سجلات الجزية في الوثائق التي يعتمد عليها والخاصة بعهد تانج لن نجد إشارة إلى تلك الهدايا، ولا حتى تلك المنسوبة إلى بلدان حقيقية؛ فالفترة التي تغطيها روايات سو أو هي النصف الثاني من القرن الثامن، والنصف الأول من القرن التاسع، أي ترجع إلى حوالي قرن كامل قبل الفترة التي عاشها والتي تمثل فترة ما قبل غروب شمس إمبرطورية تانج وأمجادها. لكن الأيام الباردة غير المبهجة في عصر سو أو لم تكن قد حلت بعد، فخلال السنوات التي زعم أنه قد وصفها كانت هناك بالفعل خيول واردة من الأجهور، وراقصات من بو–هاي، وحيوان وحيد القرن من تشامبا، وموسيقيون من بورما، ولآلئ وكهرمان من بعض بقايا الإمبراطورية الفارسية. وكل ما فعله سو أو هو أنه قد ملأ الفراغات في سجل الواردات الحقيقية خلال سنوات الشَّفَق تلك بأشياء سحرية مبهجة. وباختصار فإن كتابه يتناول الأ راضي الخيالية للتجارة، وعوالم الدبلوماسية القديمة العجيبة.

ويكمن سحر هذا الكتاب فيما يتناوله من عجائب وغرائب قديمة رصعت بجواهر مشكوك فيها، وتحف منسية، وعلى الرغم من أن بعض تلك القصص قد نشأ من روايات فعلية نقلها السفراء والمبعوثون، وأثراها الخيال في عصر تراجع الأمجاد في أواخر القرن الثامن، فإنها مادة جيدة للشعراء، وليست حنطة تطحن في مطحن الاقتصاديين.

«..... بضائع من الذهب والفضة والحجر الكريم
واللؤلؤ والبزّ والأرجوان والحرير والقرمز
وكل عود يثنى وكل إناء من العاج وكل
إناء من أثمن الخشب والنحاس والحديد
والمرمر وقرفة وبخوراً طيبا ولباناً وخمراً
وزيتاً وسميذا وحنطة وبهائم وغنماً وخيلاً
ومركبات وأجساد ونفوس الناس......».

سفر الرؤيا 18:11 (1)



(1) آخر أسفار «العهد الجديد»، والترجمة منقولة عن طبعة «دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط(المترجم).

أسرى الحرب

كانت الأرواح البشرية من أبرز البضائع التي تجلب للصين في العصور الوسطى.

فقد كانت البلاد تستورد الرجال والنساء والأطفال بأعداد كبيرة من البلاد الأجنبية، المعروف منها والمجهول، وذلك لكي يقوموا بأعمال ليسوا مهيئين لها، وكانت تخصص لهم بمحض المصادفة أو وفقاً للنزوات الإمبراطورية تحت سماوات تانج.

وخلال القرن السابع، أي عندما اجتاح الصينيون جحافل البرابرة في كل مكان أُرسِلَ عدد كبير من الرجال إلى الصين كأسرى حرب. ومن بين هؤلاء شكل الأتراك أكبر مجموعة حيث تم أسرهم بالآلاف عند سهول منغوليا القاحلة وصحارى سيرنديا. كذلك فقد وقع في أيدي الصينيين أسرى كثيرون من كوريا ومنشوريا، وأرسل هؤلاء للعمل كسخرة لدى ابن السماء وأتباعه المقربين. و لم يقتصر الأمر على المحاربين، فقد وقع في الأسر أيضاً كثير من السكان المدنيين. فخلال الحملة الصينية على كوجيوريو عام 645 تم أسر أربعة عشر ألفاً من سكان مدينة لياو-تونج لأنهم تجرأوا على المقاومة، وأرسل عدة آلاف من هؤلاء التعساء إلى العاصمة حيث عرضوا على الناس في مشهد مثير لتأكيد انتصار الجيوش الإمبراطورية بالقرب من الحرم الأعظم (تاي مياو).

وفي مثل تلك المناسبات كان القائد المنتصر يرتدي زيه العسكري الكامل، ويحمل سلاحه ويتوجه بقواته إلى البوابة الشرقية للمدينة حيث يكون الحرس الإمبراطوري بأزيائه اللافتة قد اصطف لاستقباله. ويتقدم الموكب سريتان من الخيالة، وبإشارة من القائد يبدأ الموكب في التحرك على أنغام مختلف الآلات

الموسيقية، وقرع الطبول والأجراس، وصيحات وأناشيد المجموعات التي تتغنى بالنصر، وهي صيحات وأناشيد وضعت خصيصاً لتلك المناسبات. وهذه هي كلمات أنشودة النصر التي تزف التهاني، وتعرب عن البهجة والسرور خلال حفل استقبال خاص يقيمه الإمبراطور لتكريم قادته:

«يلف البحار الأربعة ريح مهيب،

ولآلاف السنين طهرتها تلك الفضيلة الباقية.

ولم تعد هناك حاجة لارتداء ملابس البرابرة،

فاليوم نعلن ما حققناه بقوتنا ومزايانا».

ولقد تم تلحين واحد على الأقل من تلك الأناشيد، وهو على الأرجح العرض الافتتاحي لقصيدة ورقصة النصر، والذي سُمّي «اقتحام خط المعركة»، وقد قدم عام 632 بواسطة مائة وثمانية وعشرين صبياً كانوا يرتدون عُدَّة عسكرية فضية. وكان الغرض من ذلك العرض الاحتفال بانتصار تاي تسونج. فبعد الجوقات والمنشدين يدخل الجنود السعداء، ويليهم قطار من الغنائم الحية –الأسرى، وسط صيحات الإعجاب والافتخار من جانب المواطنين. وكان الأسرى يسيرون في موكب يخترق شوارع المدينة وينتهي عند القصر. وما أن يصلوا لبوابة الحرم الأعظم حتى يترجل العازفون، وينتظر الحشد خارج الحرم حتى يفرغ العاهل من طقوس تقديم الشكر لأطياف الملوك الذين رحلوا للعالم الآخر. ثم يستأنف العزف، ويتقدم القائد المظفر وضباطه إلى مقدمة حصن حيث ينتظرهم هناك ابن السماء، وهناك يتم استقبالهم رسمياً، وتردد أنشودة النصر مرة أخرى. وأخيراً يبدأ طابور عرض الأسرى التعساء، وهذا يرمز إلى عقوبة التمرد والعناد والسلوك البربري، وليعلم المتمردون أي مصير ينتظرهم.

وبعد مرور طابور الأسرى التعساء أمام العاهل المهيب يتم تكريم كبار الضباط، كُلٌّ وفقاً لما يستحق، وعادة ما كانت تقام وليمة كبرى على شرفهم.

وبعد وفاة الفاتح الأعظم تاي تسونج ابتدع خليفته كاو تسونج احتفالاً جديداً بالنصر بعد استيلائه على أشينا هولو، يابجو الأتراك الغربيين، حيث قام بتقديم قربان أَوّلِيٍّ عبارة عن أمير أسير يهدى لروح تاي تسونج عند «التل الصناعي المشع»، الاسم الذي أطلق على الضريح المشيد للإمبراطور الراحل في منطقة شمال غرب المدينة. وبعد ذلك يتم الاحتفال على النحو التقليدي عند الحرم الأعظم أمام حشد من رجال البلاط وزعماء القبائل الخاضعة للإمبراطور. وهذا التجديد كان — على ما يبدو— إحياءً لعادة قديمة، ولم يفهم فهماً سليماً —عادة ذبح ملك مهزوم كنوع من الأضحية للأسماء الملوكية. إلا أن هولو كان قد نجا في المرة الأولى من ذلك المصير.

ومما عزز من تلك الممارسة (ذبح أمير أسير عند مقبرة إمبراطور سالف) الاعتقاد السياسي الذي ساد في ذلك الوقت بأن أي زعيم أجنبي كان بطبيعة الحال من أتباع العاهل الصيني، فإذا شن حرباً على الإمبراطور فإنه يكون قد خان سيده، ومن ثم يستحق الموت. وكانت تلك هي الجريمة، وكان ذلك مصير ملك طشقند الذي كان قد أسره القائد الكوري في الجيش الصيني كاو هسين—تشيه عام 750. إلا أن هذا المصير المأساوي قد امتد ليشمل غالبية الشخصيات الكبرى التي تقع في الأسر.

ومن أبرز الأمثلة حالة تومان (أحد زعماء الأتراك الغربيين) والذي كان قد أُسر على يد القائد سو تنج—فانج في عام 660، وأتوا به إلى العاصمة الشرقية. لكن القائد الصيني ذاته توسل إلى الإمبراطور للإبقاء على ذلك الأسير حياً، وقد استجاب الإمبراطور لذلك. بل أحياناً كان النبلاء الأسرى يتلقون تكريماً خاصاً، مثل ملك كوخا الذي كان قد أُحضر للعاصمة عام 649. فبعد أن تقرر ذبحه وإهداء روحه لأشباح الأباطرة الراحلين أُطلق سراحه ومنح لقب القائد المعظم للجيش —الحرس الإمبراطوري الذي يصطف على اليسار.

وبالمثل كان بعض الأسرى النبلاء يكرمون بعد وفاتهم وإن كان الغموض يكتنف تلك الممارسة. ويكمن الغموض في إمكانية مقارنة هؤلاء بالمجد الذي ناله حصان حربي متميز اعتمدت شهرته على التاريخ الشخصي للعاهل الذي كان يمتلكه. فعلى سبيل المثال فقد انتقم السفير الصيني الطموح النشط لدى الهند، وانج هسوان-تسي، من المساس بشرف أسرة تانج بتجنيد حشد من أهل التبت ونيبال من مختلف الفئات، واجتاح مدينة ماجادا الفاخرة، وأسر ألفين من الرجال والنساء، واستولى على العديد من قطعان الماشية والأغنام، ومن بين الأسرى ملك ماجادا «الغاصب» الذي أُرسل للصين عام 648 ، وبعد ذلك بعامين، ولدى وفاة تاي تسونج (والذي كان هسوان-تسي سفيره في الهند) نقشت صورة الهندي المتمرد على الحجر، ونصبت عند «التل الصناعي المشع» -ضريح الإمبراطور الراحل، ومن ثم نال الملك المتمرد شهرة خالدة وإن كانت في شكل رمزي فحسب.

أما الأسير العادي فكان يتوقع أحد مصيرين: الموت أو العبودية. وتحكي قصيدة بو تشو-آي «الأسير» التي كتبت عام 809. الرواية كلها (وكان آرثر والي قد ترجمها إلى اللغة الإنجليزية):

«التتار يساقون وهم تحت الأغلال!

التتار يساقون وهم تحت الأغلال.

آذانهم مخترمة، ووجوههم مخدوشة، ويساقون إلى أرض الصين.

ولقد أشفق عليهم ابن السماء، ولم يشأ أن يأمر بذبحهم.

ولقد أرسلهم إلى الجنوب الشرقي، إلى بلاد وُو، يويه.

وقام ضابط صغير بتدوين أسمائهم وأسماء
عائلاتهم».

وكان بعض أسرى الحرب يوزعون كعبيد بين كبار موظفي الدولة من مدنيين وعسكريين، وإن أصبح معظمهم «عبيداً للدولة» يقومون بأداء أي عمل يكلفهم به حكام البلاد. وفي ظروف معينة -كأن يكون الأسرى من الصينيين الذين أسروا خلال حرب أهلية- قد يطلق سراحهم بمقتضى مرسوم بالعفو. وكان لهذا العفو طقوسه (ليس في عهد تانج وإنما قبله إلى حد ما، أي في 545) حيث كان يصطف الأسرى ويتم تحطيم الأغلال، وكانوا يُزوَّجون بعد تحريرهم من الأرامل. أما البرابرة فلم يكونوا ليحلموا بمثل تلك النهاية السعيدة!!.

وسواء كانت العبودية خاصة أو عامة، فإن الذي كان يحدد عمل الأسير التعيس هو أصله العرقي. فالبدو من منغوليا وآسيا الوسطى عادة يعملون في سياسة وتربية الخيول وكتابعين لمواكب النبلاء. وقد يرفع ذكاء وثقافة سجين الدولة إلى مركز عالٍ في الصناعات (مثل النسيج أو الخزف)، أو حتى إلى موضع ثقة في القصر الإمبراطوري (كحارس أو مترجم، أو راقص). وأسوأ ما يمكن لأسير أن يتوقعه إرساله إلى الحدود الجنوبية للعمل في جو حار رطب خانق جنباً إلى جنب مع المواطنين الأصليين صائدي الرؤوس والتماسيح (وكان هذا هو الحال بالنسبة للأتراك الذين وصفهم بو تشو-آي)، أو إلى منطقة كانتون (مثلما كان الحال بالنسبة للأسرى من التيبت والأجهور عام 851). وكانت سلطات القرن التاسع تعاني من هوس التجسس، ولذا فقد اعتبرت مثل تلك المناطق الملوثة أنسب المواقع لوضع الأسرى (ذوي الأصول الشمالية) فيها للعمل. أما في القرن السابع فقد سادت ثقة في الحق الصيني والقوة الصينية، ومن ثم لم يكن هناك تخوف يذكر من أنشطة التجسس. وأحسن ما كان يمكن للأسير الأجنبي توقعه هو الحصول على مركز وثروة باستغلال المواهب واستخدام أسلوب الدسائس، سواءً كان أسيراً حكومياً،

أو أسيراً لدى أحد النبلاء. وفي الحقيقة أصبح بعض الأسرى العاملين بالمنازل، والذين كانت لهم قدرات قتالية شخصيات قوية ومهمة في البلاط، ومن بين هؤلاء وانج ماو–تشونج ابن أحد المتمردين الكوريين الذي وصل لأعلى مراتب السلطة، و لم يدمره سوى طموحه الزائد.

ومالم يكن أسرى الحرب على قدر من الحظ الذي يزج بهم للخدمة في بيوت النبلاء وكبار الشخصيات فإنهم يتحولون إلى مجرد عبيد لا شخصية لهم. وكان هذا هو المصير ذاته الذي ينتظر أفراد عائلة كل من يدان بتهمة الخيانة، والذين كانوا يجبرون على جمع وتكديس الأحجار لبناء الأسوار التي تحمي الأمة، أو السدود التي تحول دون تعرض المزارع للفيضانات إلى أن يتم تحريرهم إما بعفو عام، وإما بمكرمة خاصة من أسيادهم.

العبيد

«عبيد صينيون مسؤولون عن المال والأجران،
عبيد أجانب يرعون ماشيتي وأغنامي.
عبيد ذوو أرجل قوية يجرون وراء عربتي،
عبيد أقوياء يحرثون الأرض بقوة وعزيمة،
عبيد ذوو مظهر أنيق يعزفون القيثارة ويقدمون النبيذ،
عبيد ذوو خصور نحيفة يغنون لي ويرقصون؛
أقزام يحملون الشموع ويقفون على جوانب مائدتي».

ولقد وردت هذه الكلمات من خلال حلم لعريس شاب عينه على السلطة

والرفاهية معاً، وكان ينتمي لأسرة ثرية، وقد تمت ترجمتها عن مخطوطة لـ تون هوانج بواسطة آرثر والي إلى اللغة الإنجليزية.

وعلى الأرجح كان التجار يوردون العبيد للعمل في البيوت. وكانت أعمالهم تتراوح بين الوصيفات وحراس الطرائد (منع المتطفلين من صيد الطيور من ضياع النبلاء). وفي أواخر عهد تانج انبثق مصدر جديد للعبيد حين كان المدينون اليائسون والمستأجرون المتعثرون يبيعون أنفسهم أو أبناءهم لدائنيهم أو لأصحاب الأرض لفترات محدودة، أو مدى الحياة. ومع ذلك فإن العبد العادي في عهد تانج كان أجنبياً يدر بيعه ربحاً كبيراً للنخاس.

ولقد وصف الشاعر المتزمت يوان تشن (وكان مولعاً على الدوام بالغريب والعجيب من الأشياء والأمور)، وصف النخاس في قصيدة مطولة ركز فيها على قلبه الجامد وجشعه وحبه للربح فحسب، وتحركه حول العالم بدافع من النهم، والطمع والاستعداد لبيع أي شيء وكل شيء، حياً كان أو ميتاً:

«بحثاً عن اللآلئ يسخر البحر-
يجمع اللآلئ، ثم يتجه إلى تشنج، وهنج.
ومن الشمال يشتري خيول التبخوت،
ومن الغرب يصطاد ببغاوات التبت.
والقماش المغسول بالنار من قارة اللهب،
وسجاداً جيد النسيج من أرض شو؛
وجواري من يوويه، أجسادهن ملساء؛
وصبية للخدمة في المنازل عيونهم ساطعة».

وكان النخاسون العاقلون لا يتاجرون في عبيد من أصل صيني، فالعادات القديمة مدعومة بالقانون كانت تجعل من بيع الصينيين أمراً محفوفاً بالخطر. فإذا ثبت

أن العبد كان قد اختطف يتعرض النخاس لعقوبة الإعدام، ومع ذلك فقد كان بعض أرباب العائلات يضطر لبيع أبنائه أو نسائه تحت وطأة الضرورة، ولا يعترض الأبناء أو النساء على ذلك لأن رغبة رب الأسرة هي رغبة كل أفرادها. وعموماً كان النخاسون يؤثرون السلامة فيقصرون تجارتهم على الأجانب من العبيد، فهؤلاء من وجهة نظرهم ليسوا بشراً بالمعنى الكامل للكلمة، ومن ثم فإن أي أجنبي كان قابلاً للبيع ما لم يُنْجِهِ من ذلك قانون سارٍ.

وقد تكون البضاعة فُرساً أسرهم القرصان فنج جو–فانج ضمن غنائم أخرى واحتفظ بهم في قرى العبيد بالقرب من وان–آن في جزيرة هاينان؛ وقد تكون أتراكاً ليسوا بأسرى حرب وإنما سلعة بشرية تم تصديرها من ترانسوكسانيا بواسطة السامانيديين، أو رعاة مسالمين أو نسلهم اختطف وبيع عبر حدود الصين، وهذه ممارسة لم تكن إمبراطورية تانج تسمح بها عندما سادت حالة من السلم بينها وبين بلاد البدو الرحل المزعجين.

ومن الممكن القول إن بعض العبيد السلاڤونيين الذين كانت خوارزم تصدرهم قد وصلوا فيما وصلوا إلى الشرق الأقصى. وقد يكون العبيد كوريين، خاصة الإناث، تلكم اللآتي كن يجلبن من دول مثل سيلا، وكوجيوريو، وكان الطلب عليهن شديداً للعمل كوصيفات ومحظيات ومرفهات في بيوت الأثرياء. ولقد دعمت تلك التجارة (وهي كماليات بطبيعة الحال) من موقف العديد من القراصنة الذين كانوا يجوبون البحر الأصفر، الأمر الذي أثار من حين لآخر احتجاج الحكومات في شبه الجزيرة الكورية. ففي عام 692 طالب الحاكم الصيني لمنطقة شانتونج (حيث كان يهبط العبيد على شواطئها) بمنع تلك الجرائم التي تؤذي مملكة سيلاً الصديقة، وتم له ما أراد، وإن ترددت صيحات عدم الارتياح في بعض الأوساط نظراً لجمال الفتيات وفتنتهن، وذلك على الرغم من معاداة ذوي العقول الضيقة لتلك الممارسة. فعلى سبيل المثال حدث في عام 646 أن أرسلت كوجيوريو

بعثة إلى تاي تسونج لتقديم الشكر لإمبراطورية الصين على اللفتة الكريمة بالامتناع عن إعدام مواطني مدينة لياو–تونج المحاصرة في العام السابق. وفي إطار تقديم الشكر أحضر السفير معه امرأتين جميلتين، لكن العاهل تحدث إليه كما يلي:

«عد إلى بلادك وأخبر سيدك بأنه على الرغم من أن الرجال يحفلون كثيراً بالجمال وحسن المظهر، وعلى الرغم من الجمال الحقيقي المتمثل في الهدية فإنني أشفق على هاتين الفتاتين وقد فصلتا قسراً عن الأب والأم، والإخوة والأخوات صغيرهم وكبيرهم، وليس بوسعي أن أحتفظ بهما هنا وأنسى عائلة كل منهما». وبهذا أمر بإعادتهما إلى وطنهما.

وكانت أكبر مصادر العبيد غير الصينيين هي قبائل الجنوب، معاقل التايلانديين وغيرهم من السكان الأصليين وسط المتطفلين الصينيين الجدد الذين شكلوا أغلبية هناك في فوكين، وكوانجتونج، وكوانجسي، وكويتشو. فقد كان النخاسون ينقضون دون رحمة على «البرابرة» سيئي الحظ رغم صدور مرسوم تلو مرسوم يندد بذلك الشر المستطير ويأمر بمنعه، فلم يكن لتلك المراسيم أثر يذكر. ومن أبرز أمثلة تلك المراسيم ذلك الذي أصدره تي تسونج في أواخر القرن الثامن، وهو المرسوم الذي يوضح أنه حتى ذلك الوقت كان العبيد صغار السن يرسلون كجزء من الجزية السنوية الاعتيادية التي تأتي للبلاط من المدينة النائية يونج–فو التي لا تبعد كثيراً عن الحدود الآنامية الحالية، وجاء في المرسوم «إنه لعمل غير إنساني حقاً أن نكون السبب في انتزاع هؤلاء الناس من قراهم ومن أحضان آبائهم وأمهاتهم، وأن يحرموا ممن يحبون. لذلك لا بد أن يتوقف ذلك العمل». وإذا كان المرسوم قد أنهى استعباد السكان الأصليين أو كاد، فإنه لم يؤثر في التجارة الخاصة بالعبيد. وفي منتصف القرن التاسع صدر مرسوم ضد كل ألوان النخاسة في الجنوب الأقصى، وعلى لسان هسوان تسونج أنه قد سمع أنه نظراً لأن السكان الأصليين هناك ليسوا بأفضل من المتوحشين، و«أنهم يحرقون بالنار، ويغرقون بالماء، وأنهم

معوزون نهاراً وجوعى ليلاً» فهم مثقلون بالضرائب مما يضطرهم لبيع أبنائهم وبناتهم. وهكذا فإن الأشرار يستغلونهم ومن ثم -كما يقول الأمر الإمبراطوري «... فقد أصبح الرجال والنساء سلعة وثروة تماماً كالعاج والقرون». وهناك ما يشير إلى أن الطلب كان كبيراً على الجواري صغار السن سواء بين السكان الأصليين، أو بين الكوريين. ومن بين القوانين المبكرة التي سنها الحاكم المتميز كونج كِوي عندما تقلد منصبه في كانتون عام 817 ذلك القانون الذي حَرَّمَ الاتجار في النساء اللاتي كن يجلبن من قرى السكان الأصليين. ولقد وصف الشاعر المعاصر تشانج تشي واحدة من هؤلاء بالكلمات التالية:

«على الحدود الجنوبية، وبالقرب من الأعمدة البرونزية

حيث يأتي الينبوع بأعشاب سامة؛

في أي عدد من الأيام يصل المسافر إلى وحيد القرن الذهبي؟

أذناها يخترقهما حلقان من زمرد، هذه الفتاة من بيت أي رجلٍ أنت؟

-تعبث بأوتار العود داعية إله البحر».

ومن المصادر الكبرى الأخرى للعبيد بالنسبة لتانج جزر الهند الشرقية، وكان العبيد القادمون من تلك الجزر يُسَمَّون «عبيد كورونج»، نسبةً إلى بلاد كورونج بنام (وهي عبارة تعنى في اللغة الكمبودية القديمة «ملوك الجبال»)، وتساوي الكلمة السنسكريتية «سيلاراجا» التي تعبر عن الاجتياح الرمزي للخمير عبر الجبل الكوني المقدس، والذي يشبه اجتياح ملوك سيلندرا لجاوه، وسومطرة. وإلى الجنوب من تشامبا كما يذكر «كتاب تانج»، حيث يقول «ولهم جميعاً شعر مجعد، وأبدان سوداء، ويسمون إجمالاً كورونج». ولقد كان هؤلاء العبيد من أهالي الملايو بالمعنى الواسع للكلمة. فعلى أساس الشعر المجعد فقد كانوا غالباً من جنس الفيدويد، وإن

كان بينهم خمير كذلك وغيرهم من الشعوب ذات الشعر المموج، وربما دراڤيديون وغيرهم من سكان منطقة المحيط الهندي. وكانوا قد اشتهروا بتفوقهم في السباحة والغطس بعيون مفتوحة ومن ثم استرجاع الأشياء المفقودة في القاع. ويستدل من ذلك أن كثيراً منهم كانوا على الأرجح من صيادي اللؤلؤ.

وفيما يلي نبذة عن شعوب كُون-لُون كتبها الخطاط البوذي الشهير هُوِي-لُون الذي عاش في القرن الثامن وأوائل القرن التاسع:

«وهم أيضاً يسمون كورونج، وهم برابرة الجزر كبيرها وصغيرها-جزر البحار الجنوبية. وهم ذوو بشرة حالكة السواد ويعيشون عرايا، ولهم قدرة على استئناس الحيوانات المفترسة، بل وحلبها أيضاً (مثل وحيد القرن والفيلة وما شابهها). وأجناسهم كثيرة ومختلفة، ومجتمعاتهم متنوعة فهنالك الزانجي، والتورمي[؟]، والكوردانج[؟]، والخمير، وجميعهم بسطاء متواضعون، ويفتقرون للشكل الجيد والمسؤولية الاجتماعية، فهم يسرقون ويسطون للحصول على قوتهم، كما أنهم مغرمون بالتهام لحوم البشر، كما لو كانوا نوعاً من «الراكشاس» أو الأشباح الشريرة. واللغات التي يتحدثونها غير سليمة وتختلف عن لغات الأمم «المحصنة». ويمتازون عندما ينزلون إلى الماء حيث يبقون فيه اليوم كله ولا يموتون».

وتكشف هذه العبارات نماذج صارخة لتمركز الصينيين العرقي، خاصة في مواجهة ذوي البشرة السوداء (بل إنهم كانوا يشيرون إلى الفرس على أنهم من السود!!)، وكرههم للتعري النسبي، الأمر الذي كان غير مقبول منذ عصور هان، وهناك مصادر أخرى تصنف كافة الدول جنوبي الصين في فئة «الكورونج»، أو تجعل الكورونج مساوياً «للدڤياتتار» في الكتب السنسكريتية، وإن بدا أن ما ذكره هوِي-لِنّ يقصر استخدام المصطلح على الإندونيسيين الذين لم يجنوا ثمار التثاقف الهندي -أي السكان الأصليين للجزر والذين لم يخضعوا للتأثير الهندي.

وعندما تعرض لي تي-يو الأعظم للنفي إلى تشاو-تشو فقد مجموعته الفنية الثمينة في حادث تحطم السفينة فأمر خادمه الكورنجي بالغوص في الماء للبحث عنها واسترجاعها، لكن ذلك العبد فشل فيما كلفه به سيده نظراً لكثرة التماسيح في مكان تحطم تلك السفينة.

ولقد كان الهنود السواحليون وأهل الملايو العاشقون للبحار موضوعات مفضلة في القصص الشعبية ففي إحدى تلك القصص تمكن أحد العبيد المراوغين من ترتيب لقاء غرامي بين بطل القصة الشاب وامرأة جميلة في البلاط عن طريق تفسير الإشارات الغامضة التي كانت ترسلها السيدة بأصابعها. وفي وقت لاحق -وفقاً للرواية ذاتها- تمكن ذلك العبد من الهروب من كنف سيده، وضبط وهو يبيع المخدرات في سوق لو-يانج. وتلك قصة تشبه إلى حد كبير القصص الهندية والعربية، وإن اكتسبت خلفية صينية، وهي مثال جيد لأدب الغرائب والعجائب الذي ساد في الصين في أواخر عهد تانج.

ويبدو أن العبيد الزنوج كانوا شيئاً مألوفاً لدى مجموعة صغيرة من أفراد البلاط خلال فترة وجيزة من عهد تانج. وهؤلاء بشر كان الصينيون يسمونهم «الزانجيون»، وهي كلمة قريبة من كلمة «زنوج» الشائعة في الأرخبيل الملاوي، ولها أشكال أخرى مثل «زنجي»، و«يانجي».

ويشير ذلك الاسم إلى أهالي «زنجبار» بالمعنى الأقدم والأشمل، وليس بمجرد الجزيرة التي تحمل ذلك الاسم الآن، فهو اسم كان يشير في تلك العصور إلى منطقة شرقي إفريقيا (الاستوائية) بأكملها، والتي كانت محطة مهمة ومريحة للسفن القادمة من الخليج الفارسي في ظل الرياح الموسمية الشمالية الشرقية. وبتطبيق ذلك المفهوم الموسع فإن كل أسود كان زنجياً. وخلال السنوات الست من عام 813 حتى عام 818 أتت إلى بلاط هسين تسونج ثلاث بعثات من دولة كالينجا الجافانية (وكان ملكها يشرب الخمر المصنوعة من جوز الهند، وكانت تعرف أيضاً باسم

بلاد «النساء السامة» اللاتي تؤدي مضاجعتهن إلى الهلاك) -أتت وقدمت هدايا نادرة مثل حيوان وحيد القرن، والببغاء ذي الألوان الخمسة، وعدداً صغيراً من الصبية والفتيات الزانجي. والإشارة الوحيدة الأخرى هي لإرسال فتاة زنجية من سريڤيجايا (وهذه كانت مركزاً عالمياً للفكر السنسكريتي والعبادة البوذية) إلى ديڤا -بوترا في تانج عام 724. إلا أن الزنوج من الذكور والإناث لم يتركوا أي بصمة على الأدب، ولم يرد ذكرهم إلا باقتضاب شديد في كتب التاريخ والسِّير. وبالنسبة للبلاطات المثقفة في القرنين الثامن والتاسع لم يكن الزنوج سوى نزوة عابرة، ولم يصل هؤلاء أبداً إلى الوضع المثير الذي وصل إليه السمر صغار الحجم ذوو العمامات في عصر الركوكو في أوروبا. وليس معلوماً -في المقام الأول- كيف أتوا إلى ملك كالينجا، وإن كان الافتراض الشائع أنهم قد أتوا من إفريقيا. ويقال إن قراصنة هنوداً كانوا قد أغاروا على سفينة أرسلها حاكم سيلان إلى الخليفة في عام 712 وأسروا «عبيداً أحباش» كانوا على متنها. وفي تلك العصور كان يمكن شراء العبيد السود على طول شواطئ المحيط الهندي، ويفترض أنهم كانوا يجلبون إلى أماكن بعيدة، مثل جاوا. ومن المحتمل أن يكون النخاسون هم الذين أحضروا عملات تانج التي عثر عليها في زنجبار والساحل الصومالي. إلا أن الزنوج الذين أرسلوا من جاوا وسومطرة إلى الصين ربما يكون قد تم استعبادهم في جنوب شرقي آسيا حيث يوجد زنوج حتى يومنا هذا. وفي عهد تانج كان الصينيون على علم بوجود دولة «كات-كات زانجي»، وكانت هذه جزيرة قبالة الركن الشمالي الغربي لسومطرة، وكان الملاحون يخشونها تماماً نظراً لوحشية سكانها. وبحكم قرب تلك الجزيرة من كل من كالينجا، وسيريڤيجايا فإنها كانت على الأرجح موطن السود الصغار الذين أرسلوا إلى تشانج-آن.

الأقزام

كان الأقزام-محليين كانوا أو أجانب -على القدر ذاته من جذب الاهتمام لدى الصينيين في عهد تانج وغيرهم من شعوب العصور الوسطى. ويبدو أن الصرعة الخاصة باقتناء الأقزام لم تكن في عهد تانج أقوى مما كانت في عهود سابقة. وكان كونفوشيوس ذاته قد حدد متوسط طول القزم بنحو ثلاث أقدام وذلك في معرض حديثه عن أقزام تشاو-ياو، وهذا اسم يعني أيضاً «الصَّعْو» (طائر صغير جداً/ المترجم).

ووفقاً للروايات فقد عاش هؤلاء الأقزام في منطقة نائية في جنوب غربي الصين، وإن ذكر بعضهم أنهم كانوا يعيشون في جزيرة في البحر الجنوبي الشرقي. وفي قديم الزمان كانوا يرسلون الجزية المؤلفة من العاج، والجاموس الهندي، والدّرْباني (نوع من الأبقار على غاربِهِ سنام/ المترجم) إلى الصين، وكانوا يسكنون الكهوف ولهم قدرة هائلة على السباحة. وليس هناك ما يؤكد أن الصينيين في عهد كلٍّ من تشو، وهان قد شاهدوا الأقزام الاستوائيين، هؤلاء الذين كانوا إما زنوجاً آسيويين أو أنهم ذوي شعر مُجَعَّد مثل السينوي المحدثين. ولكن المؤكد أن البلاط كان يضم أقزاماً، وأن هؤلاء كانوا يقومون بالترفيه عن رجال ونساء البلاط وضيوفه بالرقص والعزف والغناء.

ولقد كان ذلك هو الحال أيضاً في عهد أباطرة تانج. فقد اشتهرت مدينة تاو-تشو، في الجزء الجنوبي مما يعرف حالياً بمقاطعة هونان، بوجود عدد من الأقزام كانوا قد ولدوا بها، وكانت المدينة مطالبة بإرسال «عينات» منهم للبلاط كل عام على سبيل الجزية. ولقد كتب عنهم بو تشو-آي في القرن التاسع فقال (والترجمة لآرثر والي):

«في أراضي تاو-تشو

كثير من الأقزام؛

و أطوالهم لا تنمو لأكثر من ثلاث أقدام.

و كانوا يباعون في الأسواق كعبيد، ويرسل عدد
منهم سنوياً للبلاط؛

و كانوا يوصفون بأنهم قربان من المنتجات
البشرية من أرض تاو-تشو.

ويا لـه مـن قربـان غـريب مـن مـنتـجـات
بشرية.....».

وبمبادرة شخصية من حاكم اتسم بالإنسانية هو يانج تشنج توقف تقديم هذا «المنتج غير العادي» على سبيل الجزية في نهاية القرن الثامن. وكان رد الفعل في العاصمة لتلك المبادرة طبيعياً ووفقاً لما يمكن توقعه، إذ حضر رسول ليستفسر عن السبب وراء عدم إرسال الأقزام للبلاط في إطار الجزية السنوية. ولقد كتب يانج تشنج رَدّاً رسمياً ربما استخدم فيه المهارة بأكثر مما استخدم الحقيقة، وأوضح أن كافة مواطني المنطقة قصار القامة بشكل غير عادي، ومن ثم فقد وقع في حيرة حول أي منهم يختاره لإرساله للعاصمة. وعلى أية حال فقد ألغيت تلك الممارسة رسمياً، ونال اسم يانج كل الاحترام والتقدير في كل أنحاء الريف.

والأكثر غرابة، وربما الأكثر إرضاء لأذواق نبلاء تانج هؤلاء الأقزام الذين كانوا يستوردون من الخارج، والذين كانوا يذكرونهم بأقزام الأزمنة الغابرة. ففي عام 724 أرسل سادة البحار السومطريون في سريفيجايا (سريبوجا كما كانت معروفة لدى العرب والصينيين) كومارا (وهي كلمة تعني ولي العهد، وربما كان كذلك بالفعل) إلى تشانج-آن وحملته هدايا نادرة إلى ابن السماء، وكان غالبها من البشر: موسيقيون، وفتاة زنجية (على النحو الذي أوضحناه آنفاً) وقزمان. وفي العام نفسه أرسلت سمرقند قزماً، وكانت سمرقند معروفة بخصوبة أرضها وغزارة إنتاجها من كل الأشياء. ومنذ العصور المبكرة كانوا يسمعون في الصين عن وجود جنس من البشر قصار القامة يعيش في أقصى الشمال الغربي من تلك المنطقة، وقيل إن

بلادهم غنية باللآلئ والجواهر الفسفورية. وفي رواية أخرى كان هؤلاء الناس يعيشون في سلام وأمان إلى الشمال حيث يوجد الأتراك في سيبيريا، وكان أعداءهم الوحيدين طيور ضخمة كانت تأكلهم إذا تمكنت منهم، وإن كان الأقزام قد حاربوها بضراوة مستخدمين السهم والقوس. وهؤلاء – بطبيعة الحال– أقزام العصور الإغريقية القديمة وإن حددت الرواية النابعة في الشرق الأقصى موطنهم بأوروبا الشرقية أو سيبريا، وليس في أعماق إفريقيا. ومع ذلك فقد وصلت إلى الصين الروايات الغربية أساساً والتي تجعل إفريقيا موطنهم الأصلي:

«ويعيش الأقزام إلى الجنوب من تشن العظمى (روما).

ولا يزيد طول الواحد منهم عن ثلاث أقدام. وفي موسم الحرث والزرع يخشون أن تأكلهم طيور الكركي. لكن تشن العظمي تزودهم بمن يقومون على حراستهم، ويدخر الأقزام من ثرواتهم حتى يتسنى لهم رد الجميل».

ويبقى السؤال قائماً: من أين جاء القزم الحقيقي الذي أرسله ملك سمرقند؟

الرهائن

ويلاحظ أن كثيراً من الغرباء (بخلاف العبيد) كانوا يجدون أنفسهم وقد أصبحوا تحت سيطرة سادة صينيين، وذلك دون إرادتهم. وكان الجنود العرب الذين استعان بهم القائد العسكري كو تزو–آي للقضاء على التمرد الأعظم في روخشان في القرن الثامن قد شكلوا إحدى المجموعات الكثيرة من التوابع من جنسيات مختلفة، وهؤلاء لم تكن حياتهم ملكاً خالصاً لهم، وكان منظرهم يثير انتباه عامة الناس في عهد تانج. و(باستثناء الوضع الاجتماعي) لم تختلف عن تلك

القوات الأجنبية كثيراً فئة الرهائن المحتجزين بالعاصمة لضمان ولاء أقاربهم من الملوك والنبلاء في الخارج. وعلى الرغم من أن التقاليد الصينية كانت تعارض نظام الرهائن فقد كانت أمور السياسة الدولية تتطلب أحياناً غض الطرف عن ذلك. والواقع أن الحجج المضادة لذلك النظام كانت تقوم على أسس عملية أكثر منها إنسانية، وكانت جذورها تكمن في الاتجاه المحافظ المعادي للأجانب: فقد ساد اعتقاد بأن البرابرة الذين يقيمون في الصين إما مشاغبون وإما جواسيس. وخلال سنوات المجد الاستعماري في القرن السابع كان من الأمور الطبيعية احتجاز أمير تركي أو كوري في قصر تشانج-آن طالما أن حكومة تانج ترى في ذلك مصلحة لها. وحتى الأمير الساساني نارس ذاته قد احتجز كرهينة، وإن عومل بكل الاحترام، وربما كان برضاه أيضاً بعد وفاة أبيه بيروز الذي كان قد لجأ إلى الصين. وقد تطول فترة الإقامة الجبرية تلك إلى حد لا يحتمل رغم كل ما ترتديه الرهينة من ملابس الشرف والاحترام، ورغم كل ما يحاط بها من أُبَّهَة وتكريم، وللتخفيف عن الرهائن «المهمين» من ذوي الأصل العريق كان ينعم عليهم بلقب شرفي أو رتبة شرفية في البلاط، وكان الأمر المعتاد أن يعين هؤلاء كضباط في حرس القصر، ولابد أنهم كانوا يبدون رائعين وهم يرتدون الأزياء الصينية المزركشة ذات الألوان الزاهية. وفي عهد هسوان تسونج صدرت التعليمات للسلطات بالإفراج عن الرهائن الذين دام احتجازهم لعقود طويلة وإعادتهم إلى أوطانهم. ومع ذلك فقد نظرت تلك الأوطان إلى المعاملة الكريمة في مظهرها نظرة مختلفة، فهي لم تكن في الواقع سوى إهانة وعبودية: «لقد تحول أبناء النبلاء الأتراك إلى عبيد لدى الصينيين، وتحولت بناتهم الطاهرات إلى جوار».

الجزية البشرية

كان الرجال والنساء الذين يرسلون لبلاط تانج كهدايا (أو على سبيل الجزية بالتفسير الصيني) في وضع أسوأ من الرهائن من حيث الاستقلال الذاتي، و لم تكن ثمة تفرقة بينهم وبين العبيد حيث كانت تفرض عليهم تأدية خدمات معينة. وبطبيعة الحال فإنه كلما ازدادت قدرات ومواهب هؤلاء كان أفضل.

ومنذ القدم اعتادت المدن الصينية على إرسال أشياء غريبة ضخمة ونادرة من كل نوع إلى البلاط الإمبراطوري، وقد يكون من بينها بشر، وبصفة خاصة النساء. ومن الأمثلة الصارخة تلك المرأة التي قدمتها إحدى مدن الشمال الغربي في بداية القرن الثامن والتي غُطّي جسدها بالكامل بصور وأشكال بارزة للمعابد ولبوذا.

ومن الهدايا البشرية الغريبة كذلك رجلان رأساهما أبيضان وجلودهما صفراء كالوَدَك (الشحم الحيواني) وهما من سكان الكهوف الذين لا يعرفون الحياة الاجتماعية، وكانا قد قُدّما كهدية من بنام كمبوديا. وعموماً كان البشر القادمون من بلاد بعيدة يثيرون قدراً كبيراً من الفضول بحكم بعد المسافة وبريق الشكل والمظهر. ومن هؤلاء أربعة من الكرلوك أتوا من منطقة بحيرة بلقاش، وكان الأجهوريون قد أرسلوهم إلى تشانج–آن في عام 822. وهنالك أيضاً الآنوس ذو اللحية الكثيفة والذي أحضرته بعثة يابانية في عام 669، والهدايا المؤلفة من نساء تركيات، أو فتيات من التبت على سبيل التهنئة في الأعياد القومية.

ولعل أعظم الهدايا البشرية تلك الحكماء القادمون من البلدان الأجنبية، وكان رجال البلاط أكثر ميلاً لتصديق نبوءاتهم نظراً لما يمثلونه من حكمة ومعرفة أجنبية وغريبة. ومن هؤلاء «موش الأعظم» الذي كان واحداً من خيرة الثنويين (عقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام أتى بها ماني الفارسي: 216–176م/ المترجم)، وكان على دراية كبيرة بعلوم التنجيم والفلك، وكان قد أرسله ملك توخارا مع

توصية خاصة في عام 719. ومن أمثالهم أيضاً ناريانا سفامين الذي كان يقوم بتحضير العقاقير، وكان وانج هسوان-تس قد جاء به من ماجادا في عام 648، وقد زعم ذلك الرجل أن عمره مئتا عام وأنه قادر على تحضير إكسير (شراب) الخلود.

ولقد اشتهر ذلك الحكيم بالروايات التي كان يقصها على أفراد بلاط تانج، فقد حكى لهم عن سائل عجيب لا يوجد إلاّ داخل جحر في أعماق جبال الهند، وأن ذلك السائل قادر على إذابة اللحوم والأخشاب والمعادن، ولا يمكن نقله من موضعه إلا في وعاء عبارة عن جمجمة جمل، ثم يوضع في وعاء آخر عبارة عن قرعة يابسة. وقال أيضاً إن شكلاً حجرياً يقوم على حراسة منبع ذلك السائل، وأن الموت مصير أي من ساكني الجبال يفشي سره لأي أجنبي. ولقد أحسن الإمبراطور الصيني استقبال هذا الراوي المبجل، وأنعم عليه بإقامة فاخرة في أحد المساكن الخاصة والتي يشرف عليها أحد كبار المسؤولين، وطلب منه بكل أدب أن يواصل تحضير العقاقير المطيلة للعمر. ولكن يبدو أن قواه بدأت تتراجع وقل نشاطه، وفشلت جهوده، ومن ثم فُصِل من الخدمة في البلاط، وأمضى بقية حياته في تشانج-آن وإن ظل له زبائن كثيرون. ومن أصحاب المعجزات الآخرين ذلك الكاهن الذي أرسلته دولة غربية في القرن السابع وكانت له قدرة على إحياء الموتى بتلاوة تعويذات معينة. ولقد وجد تاي تسونج «متطوعين» من بين حراسه لاختبار تلك القدرة المزعومة، وبالفعل أماتهم ذلك الأجنبي بسحره، ثم أحياهم بالطريقة ذاتها. وتقول إحدى الروايات إن أحد الوزراء الأفاضل أخبر العاهل بأن ذلك من فنون الشر، وأنه غير مؤذ لأي إنسان طيب (يقصد نفسه بطبيعة الحال)، وبالفعل سقط الحكيم الأجنبي ميتاً عندما قرأ تعاويذه على ذلك الوزير الفاضل. ولم يكن ذلك الرجل العجيب سوى منوم مغناطيسي حاذق، وإن تعرضت ملابسات وفاته لكثير من التعديل (والتنقيح) خلال نقلها من جيل لآخر، ومن مكان لآخر.

الموسيقيون والراقصون

ولقد نال الموسيقيون -العازفون، والمطربون، والراقصون- الذين كانوا يرسلون للصين-مكانة اجتماعية غامضة، وحظيت أنغامهم وعروضهم، بل وآلاتهم الغربية بإعجاب واهتمام الناس. وإذا كان أحد النصوص التاريخية قد ذكر أن اليابان قد أرسلت في عام 853 «موسيقا» لبلاط تانج فإنه لا بد أن يفهم من ذلك أن الكلمة قد تضمنت الألحان (النوت الموسيقية) والأدوات والآلات كذلك، وهذه كانت تعتبر ملكية فعلية وقابلة للنقل، وأيضاً المنشدون والعازفون. ولقرون عديدة كان لموسيقا الغرب معجبوها في الصين، وإن تحول ذلك الإعجاب إلى صرعة قوية في عهد أباطرة سِوِي، واستمرت في عهد تانج. وبإخضاع الدول الغربية لسلطان الصين خضعت أيضاً موسيقاهم، ومن ثم كان الصينيون يطالبون بها على سبيل الجزية. ولقد اشتمل موظفو البلاط على فرق موسيقية أجنبية بأكملها، وكانت تلك الفرق تقدم حفلات خاصة لكبار أفراد البلاط والنبلاء، أما الحفلات الرسمية فقد كانت تتطلب عزف الألحان التقليدية على الآلات الصينية القديمة، خاصة الأجراس، والدفوف المصنوعة من الحجر، والقانون.

ولقد انتشرت عادة الاستماع للأصوات الغربية، وشاعت طرق عديدة لإبداء استحسانها والحماسة لها من البلاط إلى الدوائر الأرستقراطية، ومنها إلى كافة طبقات المجتمع الحضري:

«وعلى قمة الجدار يغرد طائر الجبال كوك! كوك!
وفي لو-يانج، وفي بيت تلو الآخر، كانوا
يدرسون الموسيقا الغربية».

وهذه الكلمات التي قالها أحد الشعراء لا تغير من الأمر شيئاً، فقد نشأ الاتجاه ليبقى؛ بل لقد تأسست في تشانج-آن إدارتان رسميتان كان لدورهما أكبر الأثر في

انتشار الأنماط الموسيقية الخاصة بالطبقات العليا بين عامة الناس (وهما إدارتان تشبهان إدارتي جيون، وبنتوخو في كيوتو الحديثة). وكانت الإدارة الأولى متخصصة في الأغاني، والثانية في الرقص. وكانت الإدارتان مسئولتان عن تدريب العازفين والمطربين والراقصين الموهوبين والذين كان لهم وضع شبيه بوضع «المومسات الرسميات»، وفتيات الجيشا من أرقى المراتب. وكان التدريب يتركز على الموسيقا غير الرسمية لمتعة من يرضى عنهم ابن السماء. ومن هؤلاء انتقلت الموسيقا الجديدة إلى محظيات البلاط من الدرجات العليا، ثم إلى الطبقات الأدنى، فالأدنى ومنها تصب في نهر تانج الثقافي الأعظم. وكانت المطربات ذوات الشعبية الجارفة يدرسن أحدث الألحان، ويستبدلن الكلمات القديمة بأخرى حديثة أكثر حسناً وأشد جاذبية، ومن بين الأغاني الشهيرة في ذلك العصر أغنية «موسيقا لإطلاق سراح صقور الباز»، وأغنية «الإبحار في زورق التنين»، وأغنية «سحق برابرة الجنوب»، وأغنية «البطة ذات الرأس الأخضر»، وعشرات غيرها مما كان يثير إعجاب العالي والواطئ ما لم تكن هناك دواع لاحتقار تلك الفئة من الفنانين، مثلما حدث خلال فترات قصيرة وبشكل غير متوقع حين أعرب العاهل عن عزمه على الحد من مظاهر الترف والإسراف في دوائر البلاط فأصدر مرسوماً يحرم ممارسات مثل جمع اللؤلؤ والياقوت، وارتداء الأوشحة الغريبة، واستخدام النساء في العزف على الآلات الموسيقية. أما إذا لم يكن الحاكم متزمتاً فقد شجعت الفتيات على تأليف وتلحين وغناء الأغاني من أمثال «المنصات الثلاث للأتراك»، و«جنوب الهند»، و«موسيقا كوخا»، و«مشاهدة القمر في أراضي البراهما». ولقد أوحت بتلك الأغاني ألحان كان الأجانب يعزفونها، خاصة الموسيقيين الذين كانوا يأتون في إطار الجزية، وإن كانت قد عدلت بالشكل الملائم حتى لا تؤذي الذوق الشعبي العام. ولنا أن نتصور أن تلك كانت أغاني وألحاناً شبه أجنبية (أو قل أجنبية كاذبة) مثل أغاني عصرنا الحالي من نوع «أغنية الهند»، و«حيث ينساب

نهر جانجيز»، و«أغنية حب وثنية».

فالموسيقا غير المألوفة والتي امتزجت بمحتوى أو أسلوب غريب قد كانت من خصائص القرن السابع، أما في القرن الثامن تراجعت هذه وحلّت محلها الأغاني والألحان الأجنبية والغريبة الحقة، وباتت الموسيقا الشعبية الصينية وكأنها موسيقا دويلات المدن في أواسط آسيا. فأغنية «قميص من ريش بألوان قوس قزح»، وهي التي تذكرنا دوماً بهسوان تسونج (وهو من الأباطرة الذين عشقوا الموسيقا، ويقال إنه كان لديه ثلاثون ألف عازف)، لم تكن سوى نسخة منقحة من أغنية «البراهما» السيرندية. وهكذا فقد امتزجت الأساليب والأنماط الموسيقية الخاصة بكوخا، وكوكو، وكاشجار، وبخارى وسمرقند، والهند وكوريا بالموسيقا التقليدية برعاية رسمية. وفي القرن الثامن، وعندما شجع البلاط بمختلف دوائره الموسيقا القديمة الجادة انقطع سيل التأثيرات الأجنبية. وعلى الرغم من جلب موسيقا من الهند الصينية، وخاصة من بورما ومملكة نان–تشاو فلم يكن لها تأثير يذكر على موسيقا تانج.

وكان أعظم تأثير للثقافات الموسيقية السيرندية في موسيقا تانج ذلك الذي كان مصدره كوخا. فلقد كان الناس من كافة الأذواق يطربون لسماع ألحان «رقصات الطبول» التي كانت تعزفها الفرق الموسيقية الكوخية، وكذلك العازفون المحليون يفضلون استخدام الآلات الموسيقية الكوخية، وأهمها العود ذو الأوتار الأربع والرقبة المحنية الذي على أساسه وأسلوبه تم وضع الأشكال الثمانية والعشرين للموسيقا الشعبية في تانج وما انبثق عنها من ألحان. وكانت آلتا الناي، والمزمار من الآلات الموسيقية المهمة في كوخا، ومن ثم فقد كانت آلات معروفة في الصين. ومن أشهر الآلات في كوخا الطبول المصنوعة من جلد الكباش المدهون بالورنيش وكان لها صوت مثير، كما اشتهرت كذلك الأغاني التي كانت تنشد بلغة سنسيكريتية وإن كانت بنطق سيئ. وكان هسوان تسونج الأعظم ذاته –شأنه شأن

كثير من النبلاء– يجيد الأداء على الطبول.

ومن أنواع الموسيقا المعروفة جيداً موسيقا «ليانج الغربية» المهجنة، وهذه هي المدينة الحدودية التي عرفت أيضاً باسم ليانج–تشو في عهد تانج، وهي مزيج غريب من موسيقا كوخا والموسيقا الصينية التقليدية، وتضم متناقضات مثل آلة العود الكوخي والبوق الحجري، وقد ورد ذكرهما كثيراً في أشعار القرن الثامن وما بعده.

أما موسيقا جيران تانج إلى الشمال فقد اتسمت بالجدية والحزن، وكان لها هي الأخرى تأثيرات عديدة، وإن تركز معظم تأثيراتها على الموسيقا العسكرية بصفة أساسية. ولقد كان من أنسب أنواع الموسيقا لاحتفالات البلاط، والاحتفالات بالانتصارات الكبرى وغيرها من المناسبات الوطنية موسيقا الطبول وآلات النفخ، والأجراس القرصية.

ومن ناحية أخرى فقد أتت إلى الصين موسيقا من أصل هندي بخلاف ما أتاها عن طريق آسيا الوسطى:

موسيقا الهند الصينية، أي تشامبا، وكمبوديا، وبورما التي كانت ترسل فرقها الموسيقية وراقصيها لإقامة عروض ذات موضوعات مستمدة من الكتب البوذية المقدسة مثل «مُدراس بوذا»، و«انتصار الكبش المقاتل»، و«الملك الطاووس».

وبعض تلك الرقصات الصامتة كان يروق كثيراً لشعب تانج، ولا يزال موجوداً إلى الآن وإن كان في شكل مُعدّل، كما لا يزال يؤدى في البلاط الإمبراطوري الياباني المعاصر، كما يؤديها الهواة من عشاق الفنون الكلاسيكية في اليابان، وذلك على الرغم من اندثار فن الباليه في غالبية قارة آسيا. ولا بد أن الفرق الموسيقية المصاحبة لما بقي من تلك الرقصات اليابانية القديمة تشبه تلك التي كانت تعزف في عهد تانج شبهاً كبيراً، فهي تتألف من ثلاث مجموعات من الآلات: مجموعة آلات

النفخ الخشبية (بما في ذلك المزامير الأفقية والناي، «وآلات الفم») وهذه لإنتاج أعلى الأصوات وتدعمها الآلات الوترية، ثم مجموعة الآلات الإيقاعية(بما في ذلك الطبول بأنواعها، والأجراس القرصية، و«الطبول الكبرى» التي كانت تتدلى من إطار قرمزي متوج بشعلة ذهبية)، ومجموعة الآلات الوترية ذات طبقة الصوت المنخفضة (بما في ذلك العود والقانون). وكانت تلك الفرق الموسيقية تعزف ألحاناً ذات أجزاء منفصلة بشكل واضح، وعادة ما كانت هذه تتضمن تمهيداً حراً لتحديد الأدوار وفقاً للتدرج المطلوب في طبقات الصوت يليه مقطعاً لحنياً موسعاً ثم خاتمة سريعة. ومن بين المسرحيات الموسيقية من عهد تانج «كالافِنكا» التي حفظت في الكتب اليابانية ذات الأجزاء في القرن التاسع عشر، والتي لا تزال تعرض حتى اليوم، وقد سميت على اسم طائر مقدس من طيور جنة بوذا، ويقال إن الذي أوحى بتلك المسرحية للبشر مخلوق ملائكي. وبعد أن نشأت تلك المسرحية في الهند انتقلت إلى الصين، ربما عن طريق تشامبا، وأخيراً وصلت إلى اليابان حيث اكتسبت شعبية جارفة في القرن التاسع. ولقد عرضت عام 861 في إطار الاحتفالات بإهداء رأس جديد لصورة فيروكانا في معبد تودياج في نارا، وقد وضع ألحانها الراقصة قائد فرقة راقصة صيني مغترب، كما ضمت موسيقا جديدة بالأسلوب التشامي وضعها عازف المزمار الشهير وانيب أوتامارو. ويقوم بأداء الرقصة حالياً في اليابان أربعة من الصبية مثبتة على أجسامهم أجنحة، ويضعون تيجاناً من الزهور على رؤوسهم، ويضربون الصّنجات الصغيرة تقليداً للصوت السماوي المثير لطائر الكالافنكا. ومن التمثيليات الصامتة الأخرى في عهد تانج، والتي لا تزال تؤدى في اليابان، تلك التي تحمل اسم «بو—تو»، وفيها يظهر شاب بملابس عادية، وقد أرسل شعره وشرع يبحث عن الوحش الذي كان قد التهم أباه.

ولقد انتقلت تلك المسرحية أيضاً إلى اليابان من الصين وإن أصبحت هندية في النهاية. ومن المسرحيات الصامتة الأخرى «البربري يحتسي الخمر»، وهذه تصور زعيماً بربرياً سكيراً، ومسرحية «بيرافا يقتحم خطوط المعركة»، وهو عمل قام به الإله سيفا وهو في أفظع صورة، ومسرحية «موسيقا لضرب الكرة»، وفيها تمثيل حي للعبة البولو. ولعل أكثر المسرحيات إسعاداً للناس (في نسختها الأصلية) هي مسرحية «رش البربري بالماء وهو يستجدي في البرد»، وهذه كانت عبارة عن رقصة تعبر عن انقلاب الشمس الشتائي يؤديها شباب عراة (صينيون وأجانب) يقفزون هنا وهناك وقد ارتدوا أقنعة ذات شكل غريب، ويصاحبهم في الأداء قرع مُدوٍّ للطبول وعزف على العود والقيثارة، ويقوم كل راقص برش الماء البارد على الآخر، وعلى المارة كذلك.

لكن هذا العرض الفظ كان بمثابة «الفضيحة» من وجهة نظر المواطنين المتمسكين بالفضائل مما اضطر هسوان تسونج إلى وقفه تماماً وذلك عام 714.

وعلى صعيد آخر لم يكن ينظر لعروض الألعاب البهلوانية (الأكروبات) والحواة على أنها أقل شأناً من المسرحيات الموسيقية، وعادة ما كان يطلق عليها في مجملها عبارة «الموسيقا غير المصنفة» ومنها المناظر السحرية، والرقص على حبل مشدود، والتهام النار، والألعاب البهلوانية، ورقصات وألعاب وحيل الأقزام، وكان الكثير ممن يؤدون تلك «الفنون» يأتون إلى مدن تانج من تركستان والهند.

وبصفة منتظمة كانت تقدم داخل معابد أهورا مازدا في ليانج–تشو ، ولو–يانج عروض الوهم والخداع بما في ذلك تشويه الذات (أو بتر أحد أجزاء الجسم). وعلى الرغم من عدم اعتراض الأباطرة على تلك العروض، بل وتشجيعها أحياناً من جانب بعض أباطرة غير عاديين مثل هسوان تسونج، فقد منعها بعض آخر منهم. فعلى سبيل المثال فقد أمر كاو تسونج بإبعاد هندي عن البلاد لأنه كان يبهر

العامة بحيله وألاعيبه التي وصل بعدها إلى حد إيهامهم بأنه ينتزع أحشاءه من بطنه، أو يقطع أطرافه، كما أمر بحظر مجيء أمثاله إلى بلاط تانج.

ويقال إن عروض العرائس (الماريونيت) كانت قد دخلت إلى تشانج-آن من تركستان في القرن السابع، وإن كانت تمثيليات الظل والعرائس الورقية تشاهد في الصين منذ الأزمنة القديمة.

وعلى الرغم من أن الصينيين قد اجتهدوا قدر طاقتهم لتعلم الفنون الموسيقية الجديدة كان هناك ترحيب دائم بالأساتذة والخبراء الأجانب، خاصة الذين كانوا يأتون من ترانسوكسانيا وتركستان الشرقية، وإن تأثرت الكبرياء الصينية من الشعور بعدم القدرة على التفوق على المهارة الأجنبية في هذا المجال. فعلى الرغم من ضمان الفنانين الأجانب لفرصة عمل جيد في الشرق الأقصى -مُمثل من بخارى، أو عازف ناي من سمرقند، أو عازف مزمار من خوطان، أو راقص من طشقند، أو مؤلف أغان من كوخا- فقد كانوا (أي الصينيون) يتعلمون منهم بسرعة، ثم ينبرون لتقليدهم ببراعة تامة، وسرعان ما يخيب أمل الفنانين الأجانب فيغادرون البلاد.

«.... وعندما تعلم دول الغرب بذلك فإنها تبادر لإعلان خضوعها!!»

فتلك كانت عظمة تانج الثقافية.

وكان الكثير من هؤلاء الفنانين يأتون للصين كهدايا من ملوك بلاد بعيدة، وكانوا وأعمالهم يسجلون في حوليات تانج، ولكن كان هنالك أيضاً فنانون مستقلون ممن اكتسبوا شهرة واسعة في الصين. وعلى الرغم من أن موسيقاهم لم تضم إلى موسيقا البلاط الرسمية (مثل موسيقا كوخا وسمرقند) فقد كانت لها شعبية كبرى بين الناس. ومن بين تلك الحالات الموسيقيون المجهولون في كوماد أسفل الباميرز الذين

تجاهلت السجلات الرسمية فنهم، وموسيقيو كابودان (الذين كان الصينيون يسمونهم تساو) وغالبيتهم من عازفي العود، وكان عددهم يفوق عدد الموسيقيين من كافة الجنسيات الأجنبية الأخرى المقيمة في الصين. وعموماً علينا أن نتجاهل هؤلاء الفنانين المستقلين الرُّحَّلْ حتى نعود إلى موضوعنا الأصلي، وهو الموسيقيون الذين كانوا بمثابة عبيد لدى الملوك أو غيرهم من الناس.

كانت أقل الفئات عدداً بين هؤلاء العبيد الموهوبين فئة الصبية الذين حظوا باهتمام ورعاية أربابهم كعازفين على الناي المتقاطع، مثل ذلك الصبي الصغير (وكان يعرف بالكتكوت) الذي احتفظ به هسوان تسونج ضمن فنانيه الذين عرفوا بفريق «بستان الأجاص»:

«الصبي الغربي ذو الشعر الجعد والعيون الخضراء،

في البرج العالي، وفي هدوء الليل ينفخ في الناي».

ولكن أعظم العازفين كانوا أساتذة ناضجين، وكان الطلب عليهم كبيراً كعازفين ومعلمين للعزف على حدٍّ سواء. فبالنسبة للعزف على آلات معينة كان يتعين على المثقفين الاستعانة بمعلم أجنبي للإلمام بقواعد الفن وتفاصيله. ونقرأ في الروايات عن عازف بارع على العود في القرن الثامن كان قد سأله مستمع معجب السؤال التالي: «أليست هذه طريقة كوخا؟» فأجابه العازف قائلا: «حقاً لقد كان معلمي رجلاً من كوخا». ومن بين المعلمين البارزين الكوخي بو مينج-تا (وإن لم يكن معروفاً ما إذا كان عبداً أم حُرّاً)، وهو الذي ألف ألحان الباليه ذائع الصيت «أغنية شادي الربيع»، والذي كان شديد التأثر بالأسلوب الكوخي، وقد أشاد به يوان تشن في أشعاره، ولا يزال ذلك الباليه يقدم في اليابان إلى اليوم.

ولطالما أُرسِلتَ فتيات جميلات (دربن جيداً على العزف والرقص والغناء) على سبيل الهدية من حاكم أو نبيل لآخر منذ أقدم العصور في الصين، وإن اعتبرهن أتباع كونفوشيوس المتزمتون أتفه الهدايا وأكثرها إفساداً للأخلاق. ومع ذلك كان قد قبلها كثير من حكام تانج، وحتى ولو كان مصدرها أمراء أقل مرتبة، وبصفة خاصة من شعوب تركستان المهندوة. ومن بين هؤلاء «الفنانين الهدايا» العازفات اللاتي أرسلهن ملك خوطال عام 733 (وهذه بلاد في جبال أعالي أكزوس، وكانت غنية بالخيول، والفهود الحمراء، ومناجم الملح الأسود).

ومن بين الراقصين الذين نالوا أكبر قسط من الإعجاب الصبية والفتيات الذين «استوردوا» من آسيا الوسطى، وكانت عروضهم تقسم بشكل تقليدي إلى قسمين: «الرقصات المرنة»، و«الرقصات القوية»، ومن الأمثلة الواضحة للقسم الأول «أغنية شادي الربيع» لـ بو مينج–تا والتي أشرنا إليها آنفاً. أما القسم الثاني فكان الأكثر شعبية ومن ثم الأكثر وروداً في أشعار عهد تانج، ومن بين الأعمال في هذا القسم ثلاثة معروفة تماماً: «رقصة التبختر الغربية» والتي يؤديها عادة صبية من طشقند يرتدون قمصاناً إيرانية ذات أكمام ضيقة، وعلى رؤوسهم قبعات عالية مثبت عليها خرز متلألئ، ويلفون حول خصورهم أحزمة طويلة ذات نهايات حرة وطافية تستجيب لحركاتهم ودورانهم وقفزهم على أنغام العود والناي السريعة. وهناك أيضاً «رقصة تشاش» المسماة باسم البلد الذي نشأت فيه والذي يقع بالقرب من طشقند الحديثة. وكانت تلك الرقصة تؤدى بواسطة فتاتين صغيرتين ترتديان قفاطين من شاش مطرز متعدد الألوان ، وتمتشقان أحزمة من فضة. كذلك كانتا ترتديان السترات ذات الأكمام الضيقة التي اشتهرت بها منطقة الغرب الأقصى، وقبعات طويلة ذات أجراس ذهبية، وأحذية حمراء مقصبة. وحينما تظهران أمام الجمهور للمرة الأولى في العرض تنبثقان من أوراق زهر لوتس اصطناعية، وترقصان على إيقاع الطبول السريع. ولقد كانت هذه رقصة حب

حيث كانت الفتاتان ترمقان الجمهور بنظرات الحب، وفي النهاية تخلعان ستراتهما وتكشفان عن أكتافهما:

«انتشرت الفتاتان المتشابهتان -وفردت الحصائر المقصبة؛

وتعاقب دقات الطبول المصبوغة بألوان زاهية.

وتؤخذ الشموع الحمراء بعيداً، وتنبثق أوراق أشجار الدرق،

وتتحرك القمصان الأرجوانية، ثم تظهر راقصات تشاش!!

وتتهاوى الأحزمة من حول الأفخاذ، وتظهر الخصور وقد غطّت بالزهور،

وتلتف القبعات فتحدث الأجراس المعلقة بها رنيناً، وتتحول الوجوه التي هي في بياض الجليد.

وأمعن النظر، وسرعان ما ينتهي اللحن، ولكنهما لن تبقيا طويلاً،

تلفان وتدوران وسط سحب، يرافقهما المطر، ثم تنطلقا إلى شرفة الشمس».

وهذه القصيدة التي نظمها بو تشو-آي حول موضوع «جيشا تشاش» مثال جيد للغرائب والعجائب في أوائل القرن التاسع، فهي تكشف في البيت الأخير عن موضوعها الحسي، ذلك أن ما ورد بها من رموز قديمة: «السحب والأمطار»، و«شرفة الشمس» تربط بين تلك المخلوقات التي تشبه الجنيات الجميلات (الراقصتان) بأسطورة إلهة الخصوبة، ومن ثم فهي تلمح للاتصال الجنسي، ويبدو أن أوراق شجرة الدراق التي تظهر بشكل غريب كانت نوعاً من الألعاب النارية.

ومن الراقصين والراقصات صغيري السن هؤلاء الآتيات من الغرب الأقصى

هناك «فتيات الغرب الدوارات» وكانت الكثيرات منهن يأتين كهدايا من حكام كوماد وكيش، وميمارغ، وبصفة خاصة من سمرقند، وذلك خلال عهد هسوان تسونج، أي في النصف الأول من القرن الثامن وكانت تلك الفتيات السوجدانيات يرتدين أرواباً قرمزية ذات أكمام مقصبة، وسراويل خضراء، وأحذية مصنوعة من جلود الغزلان، وكن يقفزن ويدُرْنَ ويتدحرجن على قمم كرات متحركة على المسرح، وكان ذلك العرض يدخل البهجة والسرور والانبهار على قلوب النبلاء والأثرياء. وكان هسوان تسونج نفسه مولعاً بتلك الرقصة، وأقبلت السيدة يانج وروخشان على تعلمها وأدائها. إلا أن بعض الدوائر اعتبرتها مفسدة للسلوك.

ولقد جاء عدد (أقل كثيراً) من الموسيقيين والراقصين من بلدان أخرى من آسيا. فقد أرسلت نان–تشاو الواقعة على الحدود الجنوبية الغربية فرقة موسيقية لتعزف أمام الإمبراطور الصيني عام800. وحتى هذه الفرقة ذاتها كانت على الأرجح ذات تكوين مختلط، ذلك أن سفير صيني لدى نان–تشاو قد أفاد بأنه شاهد قبل ذلك بعدة سنوات عازفين كوخيين كانوا قد أرسلوا إلى نان–تشاو قبل ذلك بوقت طويل عن طريق هسوان تسونج، وكانوا لا يزالون أعضاء بالفرقة. وبعد أن أصبح الطريق إلى تانج سالكاً في نهاية القرن الثامن إثر فتح الصين لنان–تشاو، قدم بيو البورمي فرقة موسيقية مؤلفة من خمسة وثلاثين عازفاً، وكان ذلك في عام 802. وعزفت تلك الفرقة مقطوعات قائمة على النصوص الدينية البوذية، وكانت معهم أصداف كبيرة وطبول برونزية جميلة الشكل مثل تلك التي كان يملكها «البرابرة» الأغنياء في جنوب الصين. كذلك فقد أرسلت سريبهوجا السومطرية فرقة موسيقية إلى بلاط هسوان تسونج في عام 724، وكذلك جاءت إلى الصين من كالينجا في النصف الثاني من القرن التاسع فرقة موسيقية مؤلفة من عازفات جافانيات.

وبالمثل فقد أرسلت مملكة بو–هاي للبلاط الصيني إحدى عشرة راقصة يابانية، وفي مناسبة أخرى أحضرت السفارة اليابانية قروناً مقدسة ذات أصداف على سبيل الهدية.

وبهزيمة كوجيوريو، وباخي في القرن السابع، أصبحت موسيقا هاتين الدولتين الكوريتين قيد «الأسر»، حيث نقلت إلى الصين على سبيل الغنائم فرقٌ كاملة بأدواتها ونصوصها، وظل العازفون والراقصون الذين أحضروا من كوجيوريو، ومن بعدهم ذرياتهم، يعملون بإخلاص في البلاط الصيني لفترة زادت عن قرن من الزمان، وإن فقدوا أزياءهم الأصلية، وتراجعت عروضهم، فبعد أن كان هناك خمسة وعشرون عرضاً في نهاية القرن السابع لم يقدم قرب نهاية القرن الثامن سوى عرض واحد فقط، إذ لم يعد الباقون في الذاكرة. أما الفرق الفنية الباخية فقد تلاشت سريعاً في بداية القرن الثامن، ومات أفرادها تباعاً، ولم يكن هناك حرص على استمرار عروضها. ويُعزى استمرار الكوريين الشماليين (أي فنانو كوجيوريو) إلى حقيقة أنه كان قد تم نقل مجموعتين منهم بكل أدواتهما إلى الصين عبر سيلا التي كانوا قد أصبحوا رعايا لها بعد الفتح الصيني لبلادهم، وقد حدث ذلك في عام 818 وأدى إلى تقوية هؤلاء "الغرباء الضعفاء" . وكانت سيلا هذه دولة صاعدة في شبه الجزيرة الكورية، وكانت على علاقة طيبة مع تانج، وقد أرسلت في عام 631 إلى تاي تسونج فتاتان يتساوى جمالهما مع مواهبهما الموسيقية. ولقد علق العاهل على تلك الهدية تعليقاً مختصراً مفيداً حيث قال: «لقد سمعنا أن مباهج الصوت واللون لا تقارن بحب الفضيلة»، ثم واصل حديثه للسفير الصابر موضحاً كيف أنه سبق وقد أعاد لتشامبا الهدية الملكية التي أرسلتها إليه، والتي كانت عبارة عن كوكاتو مولوكي (ببغاء ذو عرف)، واختتم حديثه قائلاً إن هاتين الفتاتين الجميلتين لأجدر بالشفقة من ذلك الببغاء غريب الشكل، ومن ثم يتعين إعادتهما إلى سيلا.

دوفين :

وذلك الحصان الطائر - بيجاسوس

أمتطي صهوته.. فأحلق كالباز

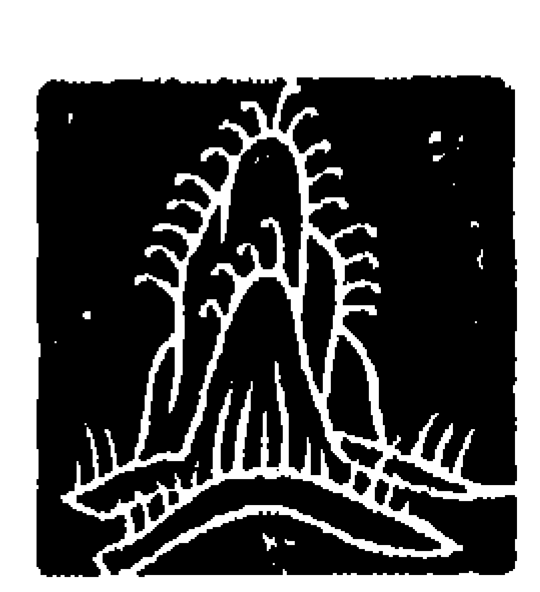
يسبح في الفضاء.. يلامس الأرض .. فتغني

بانتشاء..

لحوافره وقع.. أحلى من هيرميز والناي

وليم شكسبير، «الملك هنري الثامن»،

الفصل الثالث - المنظر السابع



الفصل الثالث

الحيوانات الأليفة

كانت للخيول أهمية كبرى لدى حكام تانغ، فهم قد دانوا لها بالكثير مما وصلوا إليه من مكانة رفيعة، وعظمة وجلال بين شعوب آسيا كلها، فالخيول كانت وسيلة رئيسية لحمل الجنود والمؤن في إطار مواجهة أعداء يتميزون بخفة الحركة، خاصة الشعوب الرُّحل التي كانت أشد منافسيهم. ولقد وردت في «كتاب تانغ» إشارة واضحة للاعتماد بشكل كبير على توافر عدد هائل من خيول الحرب. ففي معرض الحديث عن نفوق 180,000 من خيول الحكومة بعد تفشي الأمراض بينها يقول الكتاب: «الخيول قوام الاستعداد العسكري للدولة، فإذا شاءت السماء أن تحرم الدولة من ذلك الاستعداد فسوف تهتز ثم تنهار». وعندما قامت أسرة تانغ لتحكم الصين في أوائل القرن السابع لم يكن لدى المنتصرين سوى خمسة آلاف حصان، وكانت هذه ترعى في مراعي لونغ-يو التي هي كانسو حالياً. ومن بين هذه الخيول ثلاثة آلاف تم الاستيلاء عليها من أسرة سو (التي كانت تحكم البلاد) بعد الإطاحة بها على يد أسرة تانغ، والباقي كان غنائم حرب انتزعت من الأتراك. وبفضل الرعاية الشاملة والخدمات التي قدمها المسؤولون عن سياسة الحكومة فيما يتعلق بالخيول أصبح لدي الصين 706,000 حصان في منتصف القرن ذاته، وقد وزعت على المراعي الكبرى الثماني شمالي نهر وِي، أي في المناطق الريفية في أعالي العاصمة الغربية. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً بذل كل مجهود ممكن للحفاظ على تعداد الخيول عند هذا المستوى العالي. ولقد وقع أهم التغيرات بعد عهد هسوان تسونغ في منتصف القرن الثامن عندما دمرت الحروب الكثير من المناطق الريفية. وبعد تلك الكوارث التي صاحبها انهيار في السلطة المركزية، انتزع كبار النبلاء والمسؤولين المحليين ذوي المستوى الرفيع ملكية قطعان هائلة من الماشية والخيول حتى إن ما أصبح تحت أيديهم منها قد فاق ما كان لدى الحكومة الإمبراطورية.

ورغم الحاجة الملحة للخيول لم يكن الإمبراطور تحت أي ضغط لقبول الهدايا المؤلفة منها، فقد كان يرفض –عن اقتناع أو لأي اعتبارات أخرى– أي هدية ثمينة، سواء كانت هذه فتاة راقصة أو حصاناً راقصاً، حيث رأى أن مثل تلك الهدايا لا تتناسب مع حكمه النزيه الشريف، وهذا ما فعله أول ثلاثة حكام في عهد تانج. وعلى النقيض من ذلك فقد ترسل الدول الأجنبية التي كانت تسعى إلى تحالفات عائلية مع تانج خلال القرن السابع قطعاناً من خيولها الممتازة التي كانت مرغوبة تماماً في الصين لتعزيز طلب الزواج من أميرات صينيات. وهكذا فقد كان قبول العاهل الصيني لهدية ما إعلاناً لسياسة خارجية. فعلى سبيل المثال اختلف التعامل مع حكومتين تركيتين، إذ أرسل الطولو ثلاثة آلاف حصان في عام 642 طالبين المصاهرة الملكية، ولكن بعد جدل مطول رفضت تانج تقديم أي تنازلات مهينة. وفي العام التالي مباشرة عقد تحالف مع أتراك سير–تاردوش الذين كانوا قد أرسلوا أحد أمرائهم ومعه خمسون ألفاً من الخيول الرمادية ذات الرؤوس السوداء، وعدد كبير من الثيران والإبل والماعز.

ولقد ارتبط بفكرة الخيل كأداة دبلوماسية وحربية مفهوم الفروسية كامتياز أرستقراطي، وهو امتياز سعت الحكومة لتأكيده وتعزيزه حين أصدرت في عام 667 مرسوماً مجحفاً يحرم ركوب الخيل على الحرفيين والتجار.

ويدين ذلك الحيوان المتميز بوضعه الفريد لاعتبارات أخرى غير منافعه بالنسبة لسيد الأرض، فقد خلعت عليه الروايات والتقاليد العتيقة صفات قدسية، وما نسبته إليه من قدرات خارقة لتأكيد أصله المقدس. وهناك أسطورة تحظى بالاحترام جعلت الحصان من أقرباء التنين، إشارة إلى القوة الغامضة للماء. والواقع أن كل الخيول الممتازة –مثل الجواد المطهم الذي كان يمتطيه هسوان–تسانج التقي الورع، والذي جاء في الأساطير اللاحقة أنه حمل النصوص المقدسة من الهند– كلها كانت تجسيداً للتنين، وكان أطول الخيول التي امتلكها الصينيون في الأزمنة الغابرة

يسمونه «تنيناً» –هكذا بكل بساطة!!

ومن الخيول القديمة التي نالت أكبر قدر من التكريم تلك التي كانت لدى مو، ابن السماء، وكانت تسمى «البايارد‌ات الثماني»، والبايارد كلمة في اللغة الصينية تشير إلى أي حصان رائع نقي السلالة، وطالما حملت دلالة الأصل الذي يفوق الطبيعة ، أو الانتساب إلى الخيول المقدسة في الغرب، أو–على سبيل الكناية– البطل البشري.

ولقد سادت الفن الخيالي الصيني في العصور الوسطى موضوعات تتعلق بتمثيل أو تصوير تلك الحيوانات غير العادية والملائكية التي صاحبت الملك الأعظم خلال جولاته عبر أراضي كون–لُون المقدسة. وكان الخبراء الناقدون في عهد تانج قد ثمنوا الصور التي رسمت لتلك الحيوانات في القرن الخامس، وأوضحوا أن مظهرها الغريب يرجع إلى حقيقة أن حكماء العصور القديمة –بمن فيهم كونفوشيوس ذاته– لم يكونوا كالبشر العاديين. فالمخلوقات المقدسة، سواءً كانت بشرية أو على شاكلة الخيول لا بد أن تكون غريبة الشكل والمظهر، وكأنها جاءت من عالم آخر.

وفي الغرب الأقصى عاشت «خيول السماء» العظمى، التي لها عظام التنين، أي عظام قادرة على حمل أجنحة البايارد الغربي الأصيل، والتي هي نذير بوجود تنين، أو تدعوه للحضور. وفيما يلي الوصف الذي أورده لي بو لتلك الخيول:

«خيول السماء تأتي من عرائن كوشاناس،
وعلى ظهورها علامات كخطوط النمور،
وعظامها تشبه أجنحة التنين».

ويرجع الاعتقاد في الخيول –التنينية إلى القرن الثاني قبل العهد المسيحي عندما سعى وُو تي ملك هان لضمان قدسيته الخاصة وخلوده (سواءً بالأطعمة السحرية التي كان يعدها له الصيادلة، أو بالطقوس المطولة المجودة والتي كانت سائدة في

الماضي السحيق) وكان في غاية الشوق لامتلاك خيول مطعمة ليست من نتاج هذا العالم لتجر عربته إلى السماء.

وكانت أسطورة الجياد التي تولد في المياه معروفة في أجزاء مختلفة من تركستان. ففي كوخا -على سبيل المثال- عندما زارها هسوان-تسانج في القرن السابع كانت هناك بحيرة تعيش فيها جموع من التنين وتقع في مواجهة معبد المدينة، وهناك «كان التنين يغير من شكله ويتزاوج مع الفرس، وينتج عن ذلك نوع من الخيول البرية (الحصان-التنين)، وهي مخلوقات يصعب استئناسها، ومن ثم فقد احتفظت بطبيعتها الوحشية. لكن نسل الحصان-التنين هذا قد أصبح مستأنساً». ومن المؤكد أن تلك القصة قد نشأت في الغرب البعيد، أي في الأراضي الايرانية حيث كانت الجياد ذات الأجنحة أمراً مألوفاً في الفن والأساطير. وحتى الخيول ذات الأرجل الطويلة والبطون الصغيرة التي كانت لدى الطاجيك (أي ذات الأصل العربي) يقال إنها نتاج لتزاوج التنين مع الفرس على شواطئ «البحر الغربي». وبحلول عهد وُو تي حُدِّد أصل الخيول المقدسة في فارخانا على الجاكارتيز، وهذه من أبناء عمومة خيول النيسان التي كانت تربى في ميديا من أجل ملوك فارس، «الخيول التي كان عَرَقُها دماً» والمشهورة في كل من الشرق والغرب. ومن المرجح أن المبعوث الذي فتح باب الغرب على مصراعيه للتغلغل الصيني في القرن الثاني قبل العهد المسيحي -وهو تشانج تشاين الشهير- كان في الواقع مبعوثاً شخصياً للإمبراطور، وكان قد كُلِّفَ بمهمة العثور على تلك الخيول العجيبة التي يمكن أن تطلق «عصر التنين» لشعب هان.

وعلى الرغم من أن من أحضر تلك الخيول قد يكون شخصاً آخر غير تشانج تشاين هذا فإن الصينيين بحلول القرن الثاني الميلادي كانوا قد حصلوا على نوع رائع وجميل من الخيول أتوا به من الغرب، وشبهوه بالحصان التنين الأسطوري. وحتى إذا لم تكن لتلك الخيول أجنحة، فقد كانت لها «ضلوع مثل تلك التي

تشكل قوام أجنحة التنين». وعلى الرغم من أن هذه الخيول كانت أكبر من الفرس المنغولي القزم (السيسي) وأنواعه المحلية المستأنسة والمألوفة في الصين فإنها لم تكن –على ما يبدو– خيول حرب جيدة، وإنما حيوانات تتم رعايتها بكل الحرص والاهتمام ويحتفظ بها لأغراض تتعلق بالطقوس. ولا تزال الهوية الحيوانية لتلك الجياد الغربية العجيبة أمراً غير مؤكد. ولقد وصفهما أحد العلماء الموثوقين بأنها «جياد آرية»، وهذه فصيلة من الخيول تتميز بضخامة الحجم والسرعة معاً، وكانت مألوفة في القدم في منطقة حوض بحر قزوين، وقد تميز نسلها في الحصان التركي الحديث: «التركمان، أو التركي، وهو حصان يستمد اسمه من موطنه الأصلي: تركستان، وإن كان قد انتشر في فارس، وأرمينيا، وآسيا الصغرى. وهناك سلالات عديدة يعيش أشهرها في البلاد الواقعة جنوبي بحيرة آرال، وسيرداريا أو أوكزوس. ويصل ارتفاعه إلى ما بين خمسة عشر وستة عشر ذراعاً، وله قدرة كبيرة على التحمل. ولهذه الجياد رؤوس كبيرة وأنوف رومانية، ورقاب النعاج، وأجسادها نحيلة وأرجلها طويلة. وعلى الرغم من أن لونها عادة رمادي أو كستنائي فإن بعضها أسود بأرجل بيضاء. وترجع سرعة تلك الجياد وجمالها إلى أصلها العربي والذي بلا شك يشبه التارباني المنغولي إلى حد كبير...».

ويتضح العنصر العربي في العمود الفقري المزدوج، الأمر الذي لاحظه الصينيون في عهد هان، وهو عبارة عن سلسلتين من العضلات على جانبي العمود الفقري مما يجعل الركوب على ظهر الحصان مريحاً ومن دون استخدام السرج، وهذه كانت ميزة كبيرة في الأزمنة الغابرة في الغرب. أما «علامات النمور» التي أشار إليها لي بو في قصيدته فهي تكشف –من الناحية الأخرى– عن عنصر التأسُّل "الرُّجعَى" (أي العودة إلى صفات الأسلاف والتي ابتعدت عنها الأنسال السابقة)، فهذه العلامات التي هي عبارة عن خطوط داكنة في مؤخرة الظهر كانت من خواص كثير من الخيول البدائية مثل الكُمَيت النرويجي، والحمار الوحشي

الآسيوي.

وكان الصينيون في عهد تانج يعتقدون أن الخيول التي استوردوها من سمرقند ذات المياه الوفيرة لتهجين خيول الحرب لديهم كانت من سلالة البايارد الأصلية في فرخانا، وكانوا قد سمعوا عن «خيول التنين» الموجودة في وادي كشمير الثلجي الذي لا يتعرض للرياح. ففي إحدى الروايات التي شاعت خلال الجزء الأول من القرن الحادي عشر قيل إن ستة من الخيول التي كان عرقها دماً حقيقية كانت قد أرسلت من فرخانا إلى بلاط هسوان تسونج في منتصف القرن الثامن، وقد أطلقت أسماء كثيرة على تلك الخيول منها «الخيول الحمراء»، و«الخيول الأرجوانية»، و«الخيول القرمزية»، و«الخيول الصفراء»، و«خيول القرنفل العطرية» و«خيول زهرة الدراق»، وكانوا يستخدمون كلمة «شيرباد»، وهي في اللغة السوجدانية تعني «ذوات الأربع» أي الحيوانات ذات الأرجل الأربع. ولقد تلقى العاهل تلك الخيول بسرور كبير، وخلع عليها أسماءً جديدة أقل وحشية، وأمر برسم صور لها على جدران إحدى القاعات الكبرى في قصره. وهناك ما يغري على نسب تلك الرواية الجميلة إلى خيال مؤلفها الجامح تشين تساي-سزو، وهو أديب عاش في عصر جاء بعد ثلاثة قرون من الواقعة المزعومة. فعلى سبيل المثال نجده قد استخدم الاسم الوهمي القديم تا-يوان للإشارة إلى موطن تلك الخيول الملونة. ومع ذلك ليس بوسعنا رفض قصته رفضاً كلياً نظراً لأن الصينيين كانوا يعشقون استخدام الأسماء القديمة للبلدان الأجنبية، وأيضاً لأن هناك بالفعل واقعة حقيقية ومسجلة حول وصول هدية من الخيول من فارخانا إلى بلاط هسوان تسونج (وإن لم يرد وصف تلك الخيول أو تحديد نوعها أو أسمائها). ويضاف إلى ذلك أن «الخيول الحمراء» اسم قد تردد أكثر من مرة في أدب القرن الثامن، وكان في الواقع يطلق على نوع فريد من القطط الصينية كانت تربى في لينج-وُو في كانسو. والواقع أنني شخصياً أميل للاعتقاد بأمر تلك الخيول التي كان عرقها دماً، وأيضاً في أمر

اللوحات الجدارية التي تعكس مختلف جوانب الفروسية في عهد هسوان تسونج. وسواء كانت حقيقية أو لا فإن الخيول من هذا النوع كانت ذات طابع غريب مما يراودنا في الأحلام.

والحصان الذي كان مألوفاً لدى الصينيين في القِدَم كان الحصان القزم ذو الرأس الكبير والغرة المنتصبة، والشعر الكثيف في الشتاء، وكان هذا الحصان قد ارتاد غالبية مناطق آسيا الشمالية، وأوروبا، وكان مألوفاً لدى إنسان العصر الحجري في فرنسا وأسبانيا. وهو أيضاً الحصان الوحشي الذي عاش في سهوب آسيا (الوديان والسهول الخالية من الشجر) والذي اكتشفت عظامه في الرواسب التي ترجع إلى العصر البلستوسيني (العصر الحديث الأقرب) في شمال الصين، والذي يقتصر وجوده الآن على (زونجاريا)، وهو على وشك الانقراض. ولهذا النوع من الخيول أقارب منتشرون حول العالم، وبعض هؤلاء أصيل نسبياً (مثل الكُميت النرويجي)، وبعضها مُهَجّن مُعدَّل بدخول دماء الخيول العربية فيه. والحصان المنغولي القزم الذي يعتمد عليه الصينيون اعتماداً كبيراً هو أساساً التاربان، وإن كانت له غُرة طويلة منسابة، وناصية، وذيل كثيف، مرة أخرى هناك احتمال أن تلك الصفات من نواتج التهجين مع الخيول العربية. ومن هذه السلالة الأساسية، وربما بمعاونة سلالات أخرى غير معروفة ظهرت أنواع متعددة اللون والشكل في العصور القديمة، مثل الحصان الأبيض ذي الغرة السوداء والذي ارتبط تدريجياً وتقليدياً بـ هساي، والحصان الأسود ذي الرأس الأبيض الذي عرف في شانج، والحصان الأصفر ذي الغرة الحمراء الذي كان مألوفاً في تشو. والواقع أن ثراء المفردات الخاصة بأنواع الخيول حتى في عهد تشو، وهان إنما يدل على تقدم كبير فيما يتعلق بفن التهجين في الصين القديمة.

وعلى الرغم من إجماع الناس في عهد تانج فيما يتعلق باقتناء الخيول العربية ذات الحجم الكبير فإنه يبدو أنهم قد احتفظوا ببعض الإعجاب للخيول القرمزية البرية.

ففي عام 654 أرسل أهل التبت هدية -اعتبروها مناسبة- لابن السماء كانت عبارة عن مئة من ذلك النوع من خيول التاربان البرية. ومن ذلك النوع البدائي نفسه، وإن كان بقدر أو آخر من التهجين مع السلالات السائدة في الغرب الأقصى، جاءت أنواع مميزة من الخيول مثل «الحصان الأبيض ذي الغرة القرمزية» والذي كان يربى في شنسي في عهد تانج، وربما كان هذا من البقية المتبقية من سلالة حصان تشو القديم، وحصان شزوان القزم الذي اتسم بالقوة رغم نحالته، وهو من سلالة تخصصت سِوِي-تشو في تربيتها في عهد تانج، وإن كانت قد عرفت قبل ذلك بقرون كثيرة في الدول الواقعة إلى الغرب من الصين. ومن ناحية أخرى كان الكثير من «خيول الحكومة» (أي تلك التي تستخدم في القتال وفي نقل البريد والسلع وما شابه ذلك من استخدامات) من سلالات مختلطة من التاربان والخيول العربية، وبعضها كان عربياً أساساً. وأحياناً كان رصيد الحكومة من تلك الخيول يتراجع، ومن ثم كانت تسعى لسد العجز عن طريق الاستيراد من الخارج، وهو ما فعله هسوان تسونج في أوائل القرن الثامن حين أصدر مرسوماً يبيح التجارة في الخيول مع «ست من القبائل البربرية الغربية». لكن السلالات العربية من الخيول لم تكن في موقع متقدم في الصين، وكان من الصعب انتشارها إزاء ذلك الفيضان من الخيول المنغولية القزمة والتي كانت في متناول يد الصينيين. وبانقضاء عهد تانج بدأت السلالات ذات الأصل الغربي في الاختفاء، وتلاشت تماماً في أوائل العصور الحديثة نظراً لتدفق الخيول القزمة خلال عهدي يوان، ومينج.

ولقد تدفق على الصين خلال عهد إمبراطورية تانج خيول أجنبية من نوعين: الخيول القزمة الشمالية، والخيول الغربية، ومعهما الكثير من السلالات والأنواع الوسطى، وكان الصينيون يحبونها ويعجبون بها. ويرجع عشق الصينيين للخيول -فيما يرجح- إلى الروايات التي تتحدث عن الحصان-التنين في الغرب، كما يرجع إلى صلات الحكام بالأتراك والشعوب الرحل التي تعيش في المناطق النائية.

ومما شجع على استيراد الخيول الأجنبية عدم توفر الخيول المحلية للوفاء باحتياجات إمبراطورية عظمى من ناحية، ومتطلبات الطبقة الأرستقراطية عاشقة الفروسية ورياضة البولو من ناحية أخرى.

وكان الناس في عهد تانج يحبون سماع الروايات التي تحكي عن الخيول الممتازة لدى الدول البعيدة، سواءً كانت تلك روايات يمكن تصديقها أو تكاد لا تصدق. فعلى سبيل المثال سمعوا عن «بلاد الخيول المرقطة» (بوماكو) التي تقع بعيداً إلى الشمال حيث كان الجليد يتكدس عالياً على الأرض. ويبدو أن الاسم الصيني لتلك البلاد عبارة عن ترجمة لاسم قبيلة تركية: ألا-يوندلو (أي بلاد الناس الذين لديهم خيول مرقطة). ولا نعرف ما إذا كانت هذه الحيوانات المرقطة قد جاءت إلى الصين في عهد تانج، علماً بأنها في بلادها الأصلية كانت عرضة لسوء المعاملة، وكانوا يستخدمونها في جر المحاريث. وكانت بلاد العرب أكثر بعداً، وكانت خيولها الرائعة قادرة على فهم لغة البشر. وكان سفراء بلاد الإسلام يجلبون بعضاً من أنقى السلالات إلى الصين، مثلما حدث في عام 703، لكننا لانعلم شيئاً عن التطورات والمغامرات اللاحقة في هذا الصدد.

وكانت أكثر إمدادات الخيول التي يعتمد عليها تأتي بانتظام من الشمال الشرقي، أي من الشعوب المنغولية والتنجوزية، مثل مو-هو، و بو-هاي التي كانت تجوب المناطق جنوبي الآمور؛ وشي-وِي التي كانت تسكن إلى الغرب من شعب مو-هو؛ وهِسي التي كانت تعيش في منشوريا الجنوبية، وكانت قد أرسلت هدية لإمبراطور الصين في عام 816 قوامها عدد من خيولها الرشيقة، وجزية سنوية منتظمة بعد ذلك العام، والخيطان (في منشوريا أيضاً)؛ وفاتحي الصين الشمالية الذين أرسلوا العديد من البعثات ومعها الخيول الصغيرة الماهرة فيما يتعلق باختراق الغابات، وكان ذلك في القرنين السابع والثامن.

وإلى الشمال كانت هناك الشعوب التركية-المصدر الرئيسي للخيول في عهد

تانج، وكانت قد أمدت الصين بسلالات متنوعة تقترب من سلالة التاربان القديمة التي كانت تتسم بالقوة وتحمل مشاق الرحلات الطويلة، والشجاعة خلال رحلات الصيد. وكانت هذه السلالات قد استؤنست قبل زمن طويل على يد السكان الأصليين للسهول الخاوية -قوم هيسونج-نو. ولقد كانت الخيول التركية على قدر كبير من الأهمية لدى الصينيين الفخورين حتى إنهم كانوا يضطرون للتنازل عن بعض من كبريائهم بشكل أو آخر من أجل الحصول على تلك الخيول التي كانوا بحاجة ماسة إليها. ففي إحدى المناسبات في السنوات المبكرة من عهد أسرة تانج حَقَّر أمير صيني نفسه بأن ذهب بشخصه إلى الأمير التركي في معسكره النائي، واستقبل هناك بغطرسة وسلوك مشين إلى أن أبرز ما معه من هدايا (أثواب من الحرير، وقوارير من النبيذ، وأشياء أخرى)، وفي الحال تبدل الموقف ونال ما يستحقه من احترام وترحيب، وبعدها جاءت بعثة إلى بلاط تانج ومعها قطيع من الخيول. وثمة خدمات أخرى كانت تقدم للأتراك (مقابل توريد الخيول)، فالهدايا المادية لم تكن على الدوام المقابل المطلوب للحصول على الخيول ذات السلالة الجيدة. ففي شتاء 731—732 أرسل الملك المعظم بلجا كواخان خمسين حصاناً من النوع الجيد إلى عاصمة تانج على سبيل الشكر لما قدمه الصينيون من خدمة عندما توفى الشقيق الأصغر لـ كواخان هذا فأرسل عاهل الصين فريقاً مؤلفاً من ستة من الرسامين الصينيين إلى مدينة الخيام الواقعة في السهل الخاوي لرسم صورة شبيهة بالأمير الراحل، الأمر الذي أثار مشاعر الملك المعظم فانهمرت الدموع من عينيه. وعاد الرسامون إلى تانج يصحبهم قطيع من الخيول. من هذا يتضح أن القبائل التركية الشمالية، سواءً كانت سير—تاردوش، أو توكوز—أوجوز— القبائل التسع، أو غيرها من المجموعات— كانت قد دأبت على إرسال الخيول بأعداد كبيرة (تصل أحياناً إلى خمسة آلاف في المرة الواحدة) إلى الإسطبلات الإمبراطورية. وكان الأتراك الأجهوريون أكبر موردي الخيول وأشدهم غطرسة، وقد سيطروا تماماً على سوق الخيول بعد منتصف القرن الثامن حين ترتب على الحروب المتعاقبة

(داخلياً وخارجياً) ازدياد الطلب بشكل كبير على الخيول، بينما كان نجم إمبراطورية تانغ قد بدأ في الأفول. وكان الأجهوريون وأهالي التبت قد أصبحوا العدو الرئيسي لتانغ، واستغلت الصين التنافس الطبيعي بينهما، ووسائلها الدبلوماسية الخاصة في الوقيعة بينهما. فبعد أن استولى التبتيون على آلاف الخيول التي كانت في المراعي الحكومية في لونغ-يو، بل على مدينة تشانغ-آن العاصمة، قام الأتراك المتغطرسون الذين كانوا قد طردوا سكان المناطق العليا بإخضاع الصينيين وإجبارهم على تقديم تنازلات عديدة. وعلى الرغم من كثرة الشكاوى من سلوك الأجهوريين المتغطرس، والذي تمادوا فيه إلى حد الهجوم على الصينيين في أراضيهم، ظفر الأجانب باحتكار تجارة الخيول المربحة. وهكذا توقف السفراء الأتراك البغيضون عن تقديم هدايا من سلالات الخيول لتشانغ-آن كما كانوا يفعلون من قبل سعياً وراء إرضاء سادة الشرق. أما الآن فقد أصبحت الخيول تجارة تتسم بالتنافس الشديد، وقواعد الربح والخسارة والحسابات الدقيقة، وما كان على الصينيين الذين يحتاجونها إلا أن يدفعوا الثمن الذي يطلبه التجار. وفي العقود الأخيرة من القرن الثامن كان سعر الجواد الأجهوري العادي أربعين ثوباً من الحرير الصيني وهو ثمن غالٍ حقاً. وفي الجزء الأول من القرن التاسع لم يكن غريباً أن تدفع الدولة الممزقة مليون ثوب من التافتاه في العام الواحد مقابل مائة ألف فرس هَرِمٍ شبه عاجز عن الحركة، حثالة المستنقعات الشمالية. ونادراً ما كان الإمبراطور الصيني يحاول الحد من تلك التجارة التي تستنفد موارد البلاد. ففي عام 773 أرسل الأجهوريون ممثلاً خاصاً لهم ومعه عشرة آلاف من الخيل لبيعها في الصين، وكان إجمالي ثمنها أكبر من الدخل السنوي للحكومة من الضرائب، «لذا فقد أمر تاي تسونغ- وكان رجلاً عاقلاً- السلطات بوضع ميزانية للواردات حتى لا تتفاقم متاعب الناس، ومن ثم فقد سمح بشراء ستة آلاف حصان فحسب».

وعلى الحواف الشمالية للأراضي التركية كان يحوم القيرغيزون بشكل خطير،

وكان هؤلاء شوكة في ظهر الأجهوريين خلال القرن التاسع، وقد وصفوا بأنهم عمالقة، وجوههم شاحبة، وعيونهم خضراء، وشعرهم أحمر، وكانوا قادرين على استخدام الخيول في اقتحام الأقاليم المعادية وصولاً إلى حدود الصين في النصف الثاني من القرن السابع، والنصف الأول من القرن الثامن. وعبر آسيا الوسطى كلها من بوابة الياقوت في الصين وحتى بحر الآرال انتشر الأتراك الغربيون ورعاياهم الآريان، وهؤلاء أيضاً كانوا يرسلون الخيول للإسطبلات الكبرى في عهد تانج.

ومن السهول الشاسعة والمدن الغنية في ترانسكسونيا والجبال القريبة منها كانت ترد الخيول الغنية بالدماء العربية، خاصة في القرن الثامن خلال عهد هسوان تسونج اللامع: من سمرقند، وبخارى، وفارخانا، وتوكهارا، وتشاش، وكيش، وكابودان، وميمارخ، وخُطّال.

ومن عند حدود التبت أرسل أهل تو-يو-هون المنغولية (الذين تقلص سلطانهم السابق كثيراً) هدية من الخيول عام 652، كما أرسل التبتيون أنفسهم مائة بعد ذلك بعامين، وإن كان هؤلاء لم يصبحوا مصدراً مهماً للخيول حتى العقود المبكرة من القرن التاسع، بعد أن خضعوا لسلطان الأجهوريين، وحتى حينئذٍ كانوا يوردون أعداداً قليلة بالمقارنة بما كان يورده الأتراك المتغطرسون.

كذلك كانت دويلات - مدن سيرنديا ترسل عينات من الخيول الجيدة للصين، وكوخا في عدة مناسبات، كما أرسلت خوطان خيولاً هي الأخرى في مناسبة واحدة على الأقل. وبالمثل فعل العرب المنتصرون حيث جاءت خيولهم الرشيقة إلى الصين في وقت لاحق من القرن السابع، ومرة واحدة في أوائل القرن الثامن، كما أشرنا آنفاً، ومرات عديدة خلال عهد هسوان تسونج الذهبي. وحتى البلاد النائية مثل كابيسا (قندهار القديمة) -وهذه بلاد حارة منتجة للأرز وتقع على الحدود الشمالية الغربية للهند، وهي غنية بالأفيال، وتنتشر فيها البوذية وإن

حكمها الأتراك- قد أرسلت هي الأخرى خيولاً للصين في عام 637 عندما كان تاي تسونج، وتانجري قوهان يسيطران على العالم. وأخيراً، أرسلت دولة نان- تشاو الصاعدة في الجنوب الغربي هدية قوامها ستون حصاناً من سلالة غير معروفة إلى الصين في عام 795.

ولقد خضعت تجارة الخيول مع قبائل الشمال المرتحلة لنظم معينة نظراً لما كانت تمثله من أهمية. ففي عام 727 صدر مرسوم يسمح بقيام «سوق للتبادل» (هوشيه) تحت إشراف الحكومة على الحدود في منطقة أُردوس، وكان الغرض من ذلك زيادة عدد الخيول المستوردة، وتحسين نوعية الخيول المحلية عن طريق التهجين المختلط مع السلالات الأجنبية ذات الصفات المرغوبة. وكانت المناسبة التي تقرر من خلالها إنشاء ذلك السوق هي تلقي هدية من ثلاثين جواداً فاخراً من الصديق بلجا قواهان، ومعها خطاب كان قد وصله من التبتيين يحثونه فيه على المشاركة في الغارات التي يشنونها على الأراضي الصينية، وتم تسليم ذلك الخطاب لهسوان تسونج عن طريق المبعوث التركي. ولقد سُرَّ العاهل كثيراً بهذه اللمحات التي تعبر عن الصداقة، وحُمِّل المبعوث بهدايا ثمينة، كما «... سمح بإقامة سوق للتبادل في المدينة ذات الأسوار لاستقبال الغنائم في الغرب تحت إشراف الجيش الذي يتخذ من بوريل مقراً لقيادته. وهنا كان يتم إيداع العشرات من أثواب التافتاه وغيرها من أنواع الحرير كل عام...».

ولقد أصبحت تلك نقطة وصول خيول القبائل الشمالية إلى الصين، ومن ثم نقرأ في كتب التاريخ الصينية العبارات التي كانت تلحق بمذكرات تقديم الهدايا من الخيول، مثل تلك التي وردت لدى تقديم أربعة وستين جواداً بواسطة التوكوز- أوجوز، وقيرجزيا، وشيه-وِي في عام 748، وتقول تلك العبارة: «لقد صدرت الأوامر للخبير في المدينة ذات الأسوار بتلقي الهدية، ووضع العلامات على الخيول وإدخالها الإسطبلات الحكومية». وفي عام 729 تمت إقامة نقطة تجارية مماثلة على

الحدود مع التبت عند ممر الجبل الأحمر.

ومع ذلك ازدهرت التجارة الخاصة، وأثرت من خلالها على وجه الخصوص مستوطنات التانغوت المنتشرة بطول المستنقعات الشمالية الغربية. ففي أوائل القرن التاسع «... كان التجار المتجولون من المناطق القريبة والبعيدة على السواء يجلبون الحرائر وغيرها من السلع إلى تلك المستوطنات، ويحصلون على الخيل والماعز بدلاً عنها». إلا أن الرخاء لم يكن مضموناً. ففي العقد الثالث من القرن نفسه تعرضت المستوطنات للفقر جراء جشع المسؤولين الصينيين الذين كانوا يجبرون التانغوت على بيع ماشيتهم وخيولهم بأسعار متدنية للغاية، الأمر الذي أدى إلى تفشي السرقة على طول الطرق عند الحافة الجنوبية للأوردوس.

وعند مراكز التجارة الحكومية الكبرى كان يتم تلقي الإبل، والحمير، والأغنام، والخيول، وكانت هذه تفحص بواسطة المشرف الإمبراطوري، ثم ترسل للمراعي المناسبة، أو إلى الإسطبلات الإمبراطورية. وخلال الرحلة كانت الخيول تقاد في مجموعات يتألف كل منها من عشرة ويشرف على كل مجموعة سائس واحد. وما أن تصل الخيول إلـى المكان المقرر لها حتى تصبح تحت رعاية الدولة، ويتم اتخاذ كافة الإجراءات التي تضمن صحتها وسلامتها، وعدم تعرضها للإيذاء أو السرقة أو الشرود. وكان الشخص الذي يكلف برعاية حصان ما مسؤولاً عن سلامته وصحته، فإذا نفق الحصان يُجرى تحقيق في ظروف نفوقه وتحديد مدى مسؤولية السائس أو من يستخدمه، وحددت اللوائح تفاصيل ذلك بكل دقائقه. فعلى سبيل المثال فإنه إذا كان الجواد قد استخدم في رحلة طويلة (بخلاف رحلات البريد) ونفق على الطريق يباع لحمه ويعاد جلده إلى مخازن الحكومة. أما إذا نفق في الصحراء حيث لا يتوافر مشترٍ أو مخزن قريب تعين على الراكب أن يعيد القطعة من جلده التي تحمل ختم الحكومة كدليل على النفوق (هذا إن تمكن الراكب أصلاً من العودة).

وما أن يصل الحصان الأجنبي إلى المراعي الإمبراطورية حتى يلحق بقطيع (تشون) يتألف عادة من مائة وعشرين حيواناً في أحد التفاتيش الكبرى، والتي كان يضم الواحد منها ما يقرب من خمسة آلاف جواد. وهناك يرعى الحيوان لحين طلبه للخدمة في أي من الجهات الحكومية، إما كحصان للقتال، وإما كحصان للبريد، وإما كمطية لعدد من أفراد الأسرة الحاكمة أو رجال البلاط المفضلين. وتوضع علامات على مواضع كثيرة من جسم الحصان تحدد ملكيته، وعمره ونوعه، وحالته، وقيمته. وعلى كافة خيول الدولة كانت توضع علامة كوان (بمعنى رسمي أو حكومي) على الأكتاف اليمنى، واسم التفتيش التابع له بالقرب من الذيل. كذلك كانت هناك علامات تبين دولة المنشأ، وأخرى تبين مدى رشاقة الجواد وقدرته على التحمل منها علامات «طائر»، و«تنين» ، و«ريح» وعلامات لبيان نوع العمل الذي يمكن أن يقوم به (مثل علامة «مُرسَل» التي كانت توضع على الخد الأيمن لخيول الجيش والبريد في أثناء قيامها بالعمل، أو علامة «مخصص» التي كانت توضع على الخيول الرسمية التي تعطى لأشخاص غير رسميين).

وكان السائسون والموظفون الذين يقومون على رعاية خيول الحكومة مطالبين بزيادة عددها بالقدر الكافي، بل وبما يزيد عنه، وكانت هناك عقوبات مشددة على من يثبت تقاعسه في هذا الصدد: ثلاثون جلدة بالعصا عن كل حصان يقل عن المطلوب.

فإذا لفت حصان مستورد نظر المسؤولين الذين كانوا يقومون على رعاية خيول القصر فإنه ينقل من المزرعة إلى العاصمة، ويلحق بإحدى الزرائب أو الإسطبلات الملحقة بالقصر ذاته، ويوضع مع الخيول من نفس نوعه أو صفاته، حيث كان قد خصص إسطبل لكل نوع مثل «إسطبل الخيول الطائرة الصفراء»، و«إسطبل الخيول الواعدة جيدة السلالة»، و«إسطبل خيول التنين» و«إسطبل السماء»...

وهكذا. كذلك فقد خصصت خمسة إسطبلات لخيول الماضي النبيلة التي ورد ذكرها في الأدب والأساطير، وكان «إسطبل السماء» الاسم الشعري لإسطبل ابن السماء حيث كان يرعى خيول التنين. ومن هذه الإسطبلات كانت الخيول الغربية تسحب ليستخدمها العسكريون، وأيضاً لاستخدامها في رحلات الصيد الإمبراطورية، وفي رياضة البولو الأرستقراطية، وفي المواكب الرسمية، أو لأغراض أخرى خاصة بحياة الترف التي كان يحياها النبلاء.

وكانت رياضة البولو قد دخلت الصين من إيران عن طريق سيرنديا في بداية عهد تانج أو قبل ذلك بقليل، ومن الصين انتقلت إلى كوريا واليابان، وكانت تسمى ببساطة «كرة المضرب»، وكانت تلعب بمضارب مقوسة نهاياتها على شكل الهلال، وأكياس شبكية تمثل المرمى. ولقد استهوت تلك اللعبة الأباطرة، ورجال ونساء البلاط وحتى العلماء، وكان بالقصر ملعب لتلك الرياضة. ولا نعلم أي نوع من الخيول كان الأفضل بالنسبة للبلاط في عهد تانج، وإن كانت السجلات توضح أن زوجاً من الخيول القزمة كان قد جاء إلى الصين على سبيل الهدية من مدينة خوطان في عام 717. ولنا أن نفترض أن الخيول القزمة الجيدة قد أتت من بلاد انتشرت فيها لعبة البولو، مثل تركستان وإيران. ويذكر أن أهل التبت كانوا يلعبونها بمهارة، وإن تمكن الصينيون من تحديهم في هذا المجال:

«وفي عهد السلف الأوسط (تشونج تسونج) أقيمت وليمة كبرى للتبتيين في قصر البازيلكا (قصر مستطيل في أحد طرفيه نتوء دائري/المترجم) ، وقدم خلاله عرض للخيول القافزة، وكانت كل تلك الخيول مزينة بخيوط من الحرير المصبوغ بخمسة ألوان، ووضعت على أجسادها زخارف من ذهب، وعلى قمة السروج وضعت رؤوس لحيوان وحيد القرن وأجنحة العنقاء (الفونكس)، وبمجرد بدء العزف الموسيقي استجابت له الخيول بسلاسة تامة، وفي منتصف العرض أعطى العازفون الخيول نبيذاً لتشربه، وأخذت هذه الأكواب إلى أفواهها، ثم رقدت على الأرض،

ثم قامت مرة أخرى، الأمر الذي أدهش التبتيين كثيرا».

والأهم من خيول تشونج تسونج التي كانت تمرح على وقع الموسيقا في بداية القرن الثامن هناك الخيول الراقصة الخاصة بهسوان تسونج والتي كانت عروضها تقدم بعد الأولى بعدة عقود. ولقد وصل عدد الخيول الراقصة تلك إلى مائة، وقد تم اختيارها من بين أفضل خيول الجزية الواردة من الخارج. وكان الصينيون يُلبسون تلك الخيول أفخم الملابس المطرزة والمرصعة بالذهب والفضة، وكانوا يلصقون بغرة كل حصان عدداً من الأحجار الكريمة. وفي عروض الخيول الراقصة كانت الخيول تقسم إلى مجموعتين وتقوم كل مجموعة بحركات راقصة أشبه بالمناورات، وكانت الخيول تحرك رؤوسها يميناً ويساراً، وإلى أعلى وأسفل، وتهز ذيولها على إيقاع موسيقا «أغنية الكأس المقلوبة» والتي كانت تؤديها فرقتان مؤلفتان من موسيقيين صغار السن يتسمون بالأناقة ويرتدون قمصاناً صفراء، وأحزمة مرصعة بالياقوت. وكانت الخيول قادرة على الرقص من على طاولات لكل منها ثلاث أرجل فقط، وكانت تقف ساكنة تماماً عندما يرفع الرياضيون تلك الطاولات ويضعونها على أكتافهم. ولقد أصبح من التقاليد السنوية تقديم تلك الخيول الراقصة في «برج الإدارة المتحمسة» في اليوم الخامس من الشهر الثامن احتفالاً بعيد ميلاد العاهل، وهي فترة إجازة في البلاد، وكانت تسمى «فترة الألف خريف».

وكانت الخيول تشارك برقصاتها في المناسبات السارة، وكانت تلك الرقصات تمثل قمة الأداء مقارنةً بالعروض الأخرى التي كانت تقدمها كتائب من الحرس في عدتها الحربية الذهبية، والفرق الموسيقية الشهيرة، والدجالون البرابرة، والأفيال الراقصة، ووحيد القرن البهلواني، وحشد كبير من فتيات القصر في أزياء فاخرة مطرزة تطريزاً ثميناً، وكن يقرعن «الطبول الرعدية» ذات الوجوه الثمانية.

وعندما خُلع هسوان تسونج عن العرش اختفت الخيول الراقصة الشهيرة، حيث

أرسل روكشان بعضها إلى الحدود الشمالية الشرقية، كما خصص عدداً قليلاً منها للواجبات العسكرية هناك، وظلت متميزة عن سائر خيول الحرب لأنها كانت تبدأ الرقص بمجرد سماع الموسيقا العسكرية في المعسكر.

ولقد كتب شاعر الزهد لوكوي–مينج في القرن التاسع عن تلك الخيول رابطاً إياها بخيول التنين شبه الأسطورية في فاراخانا:

«أحفاد التنين من عرائن القمر، أربعمائة حافر،

تقفز بفخار، خفيفة الحركة، وتستجيب لطبول
الحرب الذهبية:

فعندما يعزف النغم فإنها تبدو وقد اشتد بها
الحنين لسيدها،

وتنظر وراءها إلى البرج الأحمر لكنها لا تجرؤ
على الصهيل».

«وعرائن القمر» لدى لو كوي–مينج هي نفسها «عرائن الكوشان» لدى لي بو في تركستان الغربية، وتنتمي تلك الخيول الراقصة إلى عجائب وغرائب منتصف عهد تانج.

ومن المواضيع المتكررة للمراسيم المتزمتة التي كانت تصدر من حين لآخر خلال عهد تانج (خاصة في ظل حكم الأباطرة الجادين المتمسكين بالفضائل والميالين للقتال) تحريم قبول الهدايا القادمة للبلاط والمؤلفة من أشياء صغيرة مبهجة حيث اعتبرت هذه أشياء تافهة ولا تخدم الدولة في شيء. ومن بين الأشياء التي شملها ذلك الحظر الخيول الصغيرة، خاصة في العام الأول من حكم الأسرة حيث كانت ترفض وتفضل عليها الخيول القوية الكبيرة. ومع ذلك وبعد صدور ذلك المرسوم بثلاث سنوات فقط عاد الإمبراطور الذي أصدره (كاو تسو) وقبل هدايا مؤلفة من خيول قزمة جاءته من باخشي الواقعة في الجزء الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة

الكورية، وهكذا يبدو أن البلاط قد نسي أو تناسى لفتته الأولية التي عبر بها عن حزمه ونزاهته وحرصه على مصالح البلاد. وبعد أن انقضت عهود الحكام المتزمتين في القرن السابع وأفسحت الطريق أمام عهود معتدلة أكثر ثقافة وأشد اهتماماً بالكماليات ، أي عهد هسوان تسونغ في القرن الثامن، عادت الخيول وغيرها من الأشياء النادرة والغريبة إلى سابق عهدها في البلاط. وكانت مملكة سيلا التي يغلب عليها النفوذ الكوري هي المصدر الرئيسي للخيول التي ترد إلى الصين، ولكنها كانت على الأرجح من جنس خيول بخشي، تلك السلالة من التاربان القزم الذي نشأ في جزيرة كويلبارت في المضيق الكوري، والشبيهة بخيولنا القزمة المعروفة باسم «شتلاند»، و«الخيول القزمة الجميلة» المنتمية لأولاند. وكان الصينيون على دراية بخيول صغيرة بهذا الاسم منذ القرن الأول قبل الميلاد، عندما كانت تجر عربة تقل إمبراطورة أرملة. وفي القرن الثاني الميلادي كانت مملكة وِي الكورية الوسطى ترسل تلك الخيول للصين، وإن كانت الروايات اللاحقة قد حددتها بخيول البطل تشو مونغ، ضارب السهام الأسطوري الذي أسس مملكة كوجيوريو. والقول بأن كل تلك الخيول القزمة قد جاء من بيئة كويلبارت القاحلة مجرد تخمين. ففي عهد تانغ كان اسمها يكتب بحروف (أشكال) صينية تعني حرفياً «تحت شجرة فاكهة»، والتفسير الذي ساد لذلك الاسم حينذاك هو أنه يمكن ركوبها والمرور بها تحت أخفض أغصان شجر الفاكهة دون أذى. لكن الاسم لابد وأنه كان أصلاً كلمة من لغة ما من لغات الشمال الشرقي نسي معناها، ومن ثم لجأ الصينيون إلى ذلك التفسير المنطقي. وفي القرن الثاني عشر كان بالإمكان إطلاق الاسم على الخيول الصغيرة الواردة من الجنوب الاستوائي للإمبراطورية. كذلك فقد كان أمراً معتاداً في عهد تانغ القول بأن الخيول الكورية كانت ذات ارتفاع ثلاث أقدام، ولكن لا بد أن ذلك كان مجرد تقدير رمزي يشير إلى كافة أنواع تلك المخلوقات المصغرة، وكان قد نسب إلى الأقزام من البشر منذ أقدم العصور. من هنا لا نستطيع تحديد حجم تلك الحيوانات الصغيرة بدقة تامة.

ومن السهل التخمين بأنها قد استخدمت في عهد تانج بمثل استخدامها في عهد هان –جر عربات سيدات القصر، وتشريف المواكب الرسمية، ولتحسين صورة ومظهر شباب الطبقة الأرستقراطية. ومن المحتمل أن تكون هذه هي الخيول القزمة التي كانوا يحرصون على تزيينها وإلباسها ملابس فاخرة مطرزة ومرصعة، وكان يمتطيها شباب البلاط والنبلاء لتحملهم إلى حفلات الشراب في حدائق العاصمة في ذروة الربيع وخروج الناس لمشاهدة الزهور.

ومن أشهر الخيول الغريبة العجيبة في عهد تانج «الخيول الست» التي كانت تحمل تاي تسونج خلال حملاته الخطيرة ضد المطالبين بعرش الصين، ولقد علمنا بأمرها من خلال الأدب والفنون فحسب. ومن شدة إعجابه بها فقد كتب العاهل نفسه نثراً وصف به كلاً من تلك الخيول الست (أو قل صوراً أو أشكالاً لها)، كما نظم قصيدة لامتداح كل منها كذلك، ومن أمثلة ما كتبه في النثر:

«الحصان الأحمر: لونه أحمر صافٍ،
وقد امتطيته في وقت الحملة لإخماد [وانج]
شي–تشونج و[تو] تشي–تي،
ولقد أصيب بأربعة سهام في مقدمته،
وبسهم في مؤخرته».

أما القصيدة فتقول:

«حينما كان تشان وتشاين لايزالان متمردين.
وهناك شهرا الأسلحة ضد جلالتي؛
عرق قرمزي أقدام قوية!!
أعلام زرقاء وعودة مظفرة!!»

ولقد خلد الشعر وفن النحت ذلك الفرس المقاتل، وإن كان هناك حصان آخر امتطاه تاي تسونج خلال تلك الحملة ذاتها وكانوا يسمونه «الفرس الأصفر

الأغبر»، ولقد كان لهذا الأخير دور مختلف في الفنون. فبعد نفوقه في الحرب الكورية أمر تاي تسونج بوضع موسيقا لتكريمه، وعرفت باسم «أغنية الفرس الأصفر المزدوجة»، وهذه على الأرجح كانت تقليداً للحن قديم من عهد هان.

وتشير عبارة «العرق القرمزي» في تلك القصيدة إلى ربط ذلك الفرس (في الخيال على أقل تقدير) بخيول فارخانا التي كانت تعرق دَماً. وعلى الرغم من أن خيول الإمبراطور الست كانت تجري في عروقها جميعاً دماء غربية فإن من المؤكد -في ضوء بعض الأسماء التي أطلقت عليها مثل «فرس تيجن»- أن الإمبراطور كان قد تلقاها من الأتراك. والأشكال التي أمر الإمبراطور بنحتها على الحجر لتلك الخيول الشهيرة في شتاء 636–637 قامت على أساس رسوم للفنان الأعظم ين لي-بن. وبعد قضاء تاي تسونج وضعت تلك الأشكال المنحوتة بجوار قبره «الضريح المشع» في شنسي، وإن كانت قد نقلت لاحقاً إلى المتاحف. ولقد حُلقت أعراف تلك الخيول الحجرية، أو ربطت في حزم مثل مزاغل الحصون، وهو أسلوب قديم ساد في آسيا الوسطى وسيبيريا، وربما كان من أصل إيراني، ولكنه تلاشى في الصين منذ عهد أباطرة هان. ويؤكد ظهورها الأصل التركي لخيول تاي تسونج، كما يؤكد نبل كل من الخيول وراكبيها. لكن النسب المثالي للخيول الست يرجع إلى ما هو أبعد من خيول هان الشهيرة -إلى خيول الملك مو (في تشو) الثماني التي احتفظ بملامحها العجيبة، والتي كانت نموذجاً للملوك البرابرة الفاتحين كما تصورهم لوحة قديمة تعتبر كنزاً من كنوز تانج الوطنية.

وبالمثل هناك «الخيول العشر» لتاي تسونج، وهذه إن لم تكن في شهرة الخيول الست فقد كانت أعجوبة عصرها. وكانت هذه الخيول الجميلة النادرة قد أهديت للإمبراطور في أواخر حياته، ومن ثم فإنه لم يرتبط بها بمثل الارتباط الذي منح الخيول الست شهرتها ومجدها ووضعها الخاص جداً. وكان الإمبراطور قد اختار تلك الخيول الجديدة بنفسه من بين مائة جواد أرسلتها له دولة قويرقان التركية في

عام 647. ولقد كلف سائسون مهرة برعاية تلك الخيول، وهم أصلاً من سكان منطقة مليئة بزهور الزنبق شمالي بحيرة بيكال، وقد حرصوا على تربيتها بشكل يجعل منها خيولاً قوية شديدة التحمل مثل خيول ڤيرقيزيا ثم كانوا يقومون بإرسالها إلى حكام الصين العظماء دون وسمها وإن أحدثوا بتراً في آذانها أو ندوباً في أنوفها. وكان تاي تسونج نفسه هو الذي اختار أسماءها: «الحصان الأبيض الراقص على الصقيع»، و«الحصان اللامع الراقص على الجليد»، و«حصان الندى المتجمد»، و«حصان النور المعلق»، و«الفرس الغاطس في الأمواج»، و«الحصان الطائر وقت الغروب»، و«الحصان الأحمر الذي يتحدى البرق»، و«الحصان السابح الأصفر كالذهب»، و«الحصان القرمزي الذي يشبه وحيد القرن الآخذ في الارتفاع»، و«الحصان السريع الأحمر».

وإذا كنا نتصور أن خيول قويرقان قد رسمها أحد فناني القرن السابع الكبار لكي يسر أعين مالكها فإنه ليس ثمة دليل تاريخي على ذلك، فقد تم رسم تلك الخيول في زمن سابق على عصر أبرز رسامي الخيول الصينيين، هان كان، الذي عاش في القرن التالي، أي خلال عهد هسوان تسونج الذي كان هو نفسه من عشاق الخيول الغربية. وكان هان-كان يفخر بأن رسوماته النابضة بالحيوية تقوم مباشرة على الطبيعة، وليس على الصور التقليدية للخيول الملكية. وعلى ضوء ما نقرأه حول الصور القديمة للخيول فإن الأسلوب المفضل قبل عهد تانج كان الأسلوب الرمزي الخيالي والذي يظهر بوضوح النسب الإلهي للخيول الملكية من خلال الخطوط والألوان الغريبة. ويبدو أن هان-كان هذا كان أول الرسامين العظام الذين تبنوا مبدأ الواقعية البحتة في رسم الخيول، وهذا في حد ذاته يمثل تحولاً كبيراً. فسيادة الخيول على سائر الحيوانات الأليفة الأجنبية كانت ترجع ليس إلى دورها في الأمن القومي فحسب، وإنما وبالقدر نفسه إلى ارتباطها بمخلوقات أسطورية وخارقة من الماضي المجيد.

وهكذا فإن هان-كان قد هبط بها إلى الأرض إلى الأبد، ومن ثم فإن صينيي القرن الثامن كانوا آخر من شاهد الحصان-التنين، حصان السماء باعتباره حيواناً يمكن التصديق بوجوده. وهكذا أيضاً انتصرت الغرائب الطبيعية على الرمزية المبجلّة، وإلى الأبد كذلك.

الإبل

في بداية عهد تانج كان الشكل الأليف للجمل ذي السنامين معروفاً لدى الصينيين الشماليين الذين استخدموه لمدة لا تقل عن ألف سنة. وفي عهد هان استخدمت الجمـــال بالآلاف في الحملات التجارية والحربية التي اخترقت أراضي سيرنديا بعد إخضاعها. وفي تلك الأزمنة الغابرة اعتمد الصينيون على أقوام رعوية مثل هسيونج-نو لإمدادهم باحتياجاتهم من الإبل، تلك الحيوانات ذات القيمة، والتي تتميز بقدرتها على التحمل، ومن ثم يعتمد عليها في نقل الناس والبضائع عبر صحارى جوبي، وتاريم القاحلتين. واستمر ذلك الوضع في عهد تانج عندما امتدت الإمبراطورية -مرة أخرى- عبر آسيا الوسطى وازدادت الحاجة للإبل، وهي كالخيول كان يتعين استيرادها من الخارج. وكانت الإبل تأتي كهدايا للعرش، وأيضاً على سبيل الجزية، وضمن غنائم الحرب، وكذلك من خلال التجارة. ولقد أرسل التبتيون والأجهوريون الإبل إلى تانج؛ وأتت مع بعثة من تشومول الواقعة على نهر ماناس؛ ومن تورجاش، وخوطان (والإبل الواردة منهما كانت من النوع «البري السريع»).

وبصفة عامة كانت الإبل بالنسبة للقبائل التركية تُعَدُّ من الأشياء الثمينة شأنها شأن الذهب والفضة، والعذارى والعبيد، وكان لها ظهور واضح في الأدب الشعبي باعتبارها حيوانات نافعة ونبيلة. وكان يمكن الحصول على الإبل من

دويلات المدن في تاريم، وعلى طول طرق القوافل القديمة.

وكان كاو هسين-تشن قد استولى على أعداد كبيرة من الإبل (وكنوز أخرى) في تشاش. من ناحية أخرى كانت إبل الحرب إحدى الفقرات الأساسية في مهرجانات كوخا. وفي قيرقيزيا أيضاً استخدمت الإبل في العديد من المهرجانات الرياضية.

وكانت الحكومة الصينية قد عينت أعداداً كبيرة من الموظفين للإشراف على قطعانها الهائلة من الإبل والتي كانت في تزايد مستمر نظراً لما يأتيها من المصادر الخارجية، وهو الشيء نفسه الذي كان متبعاً بالنسبة لخيول البلاط الإمبراطوري. وكان كل موظف مسؤولاً عن سبعين جملاً فقط (بينما كانت النسبة في حالة الخيول موظفاً لكل مائة وعشرين حصاناً). وكانت الإبل ترعى جنباً إلى جنب مع الحيوانات الأليفة الأخرى في المقاطعات الغنية بالحشائش (كوان ني، ولونج يو - وهما حالياً شنسي وكانسو على الترتيب). ولا أحد يعلم الحجم الحقيقي للقطعان الإمبراطورية وإن قدرت في عام 754 بنحو 279,900 من الماشية والأغنام والإبل في المراعي الرسمية في لونج-يو. كذلك فقد كان الوجهاء يحتفظون لديهم بأعداد من الإبل لأغراض الركوب والحمل. ومن المحتمل أن غالبية موظفي المراعي والحظائر، والمدربين وسائسي الإبل (في الخدمة العامة والخاصة على السواء) كانوا من الأجانب الآتين من منغوليا، وآسيا الوسطى، والتبت، وذلك وفقاً لما ذكره توفو من أن «للصبية الغربيين القدرة على سياسة الإبل».

وكانت الإبل السريعة والتي يعتمد عليها، خاصة الإبل البيضاء، تخصص للمسؤولين الذين يحملون لقب «مبعوثو الإبل اللامعة»، وكانوا يستخدمونها في المهام الطارئة الخاصة بالدولة، وبصفة خاصة نقل الأنباء حول الأزمات التي تقع على الحدود. ومع ذلك كان يمكن تحويلها لأداء مهام أقل شأناً كما تحكي رواية نقلاً عن يانج-كوي-في، مرافق هسوان تسونج. وتقول تلك الرواية إن العاهل قد

أنعم على السيدة يانج بعشر قطع الكافور الوارد من بورنيو كان قد تلقاها على سبيل الجزية من تشاو–تشي الهندو – صينية. وقامت السيدة يانج سراً بإرسالها عن طريق «مبعوث الجمال الساطعة» إلى عشيقها روخشان (هكذا يبدو من ثنايا الرواية)، وفي رحلة خطيرة إلى بلاد نائية.

كذلك فقد كان هناك في الإسطبلات الإمبراطورية «إبل التنين الطائر»، وفي أواخر القرن الثامن لم يكن غريباً استخدام تلك الحيوانات في نقل الأرز إلى العاصمة عندما يشح مخزونها من الحبوب التي كانت تستخدم في تحضير النبيذ لابن السماء. وهكذا فقد كان قدر الإبل أن تستخدم لأغراض متنوعة، وأحياناً متناقضة في الصين.

ومن ناحية أخرى فإن ارتباط الإبل بالقوم الرُّحل المتوحشين عبر الحدود الشمالية كان يجعلها تبدو حيوانات فظيعة. ففي أوائل القرن الثامن تظهر في أغنية شعبية شاعت في العاصمة باعتبارها «الإبل الذهبية القادمة من شمال الجبال»، وتصور الأغنية الجوالين المنغولين الباحثين عن الأسلاب ومعهم دواب الحمل (الإبل عادة) وقد حملوها بما نهبوه وسلبوه من تانج، وفي أواخر القرن ذاته أصبحت الإبل رمزاً خاصاً بالمتمردين البرابرة الذين كانوا يتبعون روخشان: «لقد عاثوا في العاصمتين فساداً، ودأبوا على تحميل إبلهم بالأشياء النادرة والكنوز التي نهبوها من «المستودعات المحرمة»، وكدسوها في فان–يانج». ولقد جاء هذا الوصف القديم لهذا الموقف تجاه قادة الشمال والإبل التي استخدموها كوسيلة للنقل –جاء في قصيدة نظمها توفو بعنوان «مرثية لأحد أحفاد الملك» التي تصور أميراً من آل هسوان تسونج كان يأمل في النجاة من الموت على يد رجال روخشان، ويخبره الشاعر باعتلاء سو تسونج للعرش، وهو الذي قادته حكمته إلى طلب العون من الأتراك الأجهوريين ضد المتمردين. ويؤكد الشاعر أن الصدور (البعث) المقدس من قبور السلف الإمبراطوري تمنح أملاً دائماً في الحفاظ على كل من

الأسرة الحاكمة والأمير على حد سواء:

«وعلى قمة سور تشانغ-آن غراب أبيض الرأس،

يطير ليلاً إلى بوابة دعوة الخريف، ويقف عندها ويصيح؛

ومنها يذهب إلى بيوت الناس، وينقر أسطح منازل العظماء؛

ومن هذه الأسطح يهرول المسؤولون الناجون للهرب من الغزاة.

وقد تحطمت أو تمزقت أسواطهم الذهبية، ونفقت مجموعات خيولهم؛

والعظام لا تنتظر لحم الأسرة، ولكنها تسرع بعيداً بعيداً،

ويتدلى من صدورها سوارات ثمينة مصنوعة من المرجان الأزرق،

لهفي على حفيد الملك الذي يبكي على جانب الطريق.

وعندما أسأله فلا ينطق باسمه أو اسم عشيرته،

ويتحدث فقط عن الحسرة والعذاب ويتوسل إليّ أن أتخذه عبداً.

لقد أمضى حتى الآن مائة يوم يتسلل عبر الأشواك والعلائق،

ويكاد لم يتبق له جلد أو لحم،

لكن أبناء وأحفاد العظماء مثله قد تلقوا أفضل تعليم-

وهكذا فإن بذرة التنين تميز هذا الأمير عن عامة الناس.

والآن تنتشر في المدينة الكلاب الضارية والذئاب بينما التنين في البرية،

ويحسن هذا الحفيد صنعاً لو أنه حافظ على جسده المكون من ألف قطعة من المعدن

ولا أجرأ على الحديث طويلاً هنا قريبا من مفترق الطرق،

ولكن من أجل حفيد الملك أقف ولو لهذه اللحظة فحسب:

ففي ليلة الأمس هبت ريح من الشرق حملت إليها رائحة دم كريهة،

وغصّت المدينة القديمة بالإبل القادمة من الشرق

وشبابنا الشهوانيون القادمون من الحي الشمالي بأجسادهم وأيديهم الرائعة،

كانوا يوماً بواسل، ولكن ما أسخفهم الآن!!

وعلى حد علمي فقد ذهب العرش إلى الوريث الأكبر؛

وبحكمته وهو في الشمال تمكن من إخضاع خان الجنوب،

ويخرج رجاله –رجال بوابة الزهور– وجوههم ويطلبون تطهيرنا من عارنا لتصبح وجوهنا بيضاء من غير سوء!!

واحذر أن يخرج شيئ من هذا من فمك، فالأعداء حولنا.

واحسرتاه على حفيد الملك، احرص على ألا تجعله يذهب فلن يتوقف الوحي الممتاز القادم من التلال الخمسة!!».

وإلى جانب قيمته كدابة للحمل فقد أسهم الجمل في الحياة المتحضرة. فمن وبره كانوا يصنعون قماشاً فاخراً ناعم الملمس غالباً، وهو ما أثار إعجاب ماركو بولو في وقت لاحق. وفي عهد تانج كانت المنسوجات الوبرية تصنع في هِوي—تشو في كانسو وفي فنج—تشو بعيداً في الأُردوس وكلاهما على الحدود الشمالية الغربية، وهي المورد الأساسي للمواد الخام، وكانت ترسل بانتظام للبلاط الإمبراطوري.

ويضاف إلى ذلك أن الإبل مصدر للحوم، وسنامها على وجه الخصوص من المأكولات الشهية. ولقد كتب توفو عن «سنام الجمل الأرجواني الذي ينبثق من مرجل أزرق»، كما كتب تسن تسان عن احتفال أقيم في محطة تشيو—تشوان الحدودية فقال:

«تتمزج هنا أهازيج الصبية التبتيون والصبية الغربيون،
ويشوون الثور كاملاً، ويطبخون لحوم الإبل البرية».

ولا يمكن أن يكون لحم الجمال المشوي أو المسلوق طبقاً عادياً في شمال الصين في ذلك الوقت، إلا حيثما كان كل من الإبل والأنماط الأجنبية أمراً شائعاً.

الماشية

لم يكن للماشية أهمية كبيرة في إطار قائمة السلع الغريبة التي كان الصينيون بحاجة إليها في عهد تانج. فمنذ القدم توافرت لديهم أنواع عديدة من الثيران، بما في ذلك السلالات الغريبة العجيبة ذات الجلود متعددة الألوان التي كانت تربى بغرض تقديمها كقرابين للآلهة القديمة، و لم يكن لغالبيتها ذكر في عهد تانج.

وفي ظل ذلك التعدد اتسمت ثلاثة أنواع كبرى من الثيران ببساطة نسبية، وكانت تلك الأنواع البدائية الثلاثة تعرف في عهد تانج بما تعرف به الآن، وقد

أسماها الصيدلي الأعظم للقرن الثامن تشن شيانج-تشي «البقرة الصفراء»، و«البقرة السوداء أو السحماء»، و«بقرة الماء»، والأخيرة كانت الجاموس الهندي أو «جاموس الماء». ويعتقد أن البقرة الصفراء هجين من البقرة الأوروبية والدرباني الهندي (حيوان ثديي من الفصيلة البقرية على غاربه سنام/ المترجم»، وهي من أصل جنوبي ولا تزال من خصائص الجنوب وإن كانت قد انتشرت في كافة أرجاء الصين. وكانت تستخدم في تدوير السواقي وجر المحاريث في الأراضي المنبسطة، بينما كان الجاموس يستخدم في عملية تقليب التربة الطينية في مزارع الأرز. وفي عهد تانج كان للبقرة الصفراء أهمية أكبر في جزيرة هينان، وحينئذٍ كانت أراضي موحشة ودخلت حديثاً في زمام الإدارة الصينية، ولم يكن بها حمير أو خيول، ومن ثم فقد استخدمها الناس كوسيلة انتقال ووضعوا على ظهورها السروج المزينة مثلما يحدث للخيول في أماكن أخرى.

أما الثور الأسود الشمالي فهو حيوان يكتنفه الغموض إلى حدٍّ ما، وقد يكون من أقرباء إحدى سلالات الثيران البرية التي توطنت في الشرق الأقصى، مثل الجور، والبانتنج. وعموماً كان يوجد في كل مناطق إمبراطورية تانج ماشية من نوع أو آخر.

كذلك فقد كانت لدى الصينيين سلالات من الأبقار القزمة والتي تقارن بالماشية الخرافية التي اشتهرت بها كورڤو في الآزور منذ عهود ضاربة في القدم. فثيران الميليه، وثيران جيو التي اشتهرت بها مملكة تشو يفترض أنها كانت حيوانات مصغرة تقدم كقرابين. كذلك فقد أنتج في كاو-ليانج جنوب غربي كانتون ومنذ العصور المبكرة نوع آخر من الأبقار صغيرة الحجم كانت تسمى «ماشية-بي»، أو «الماشية التي يمكنها السير تحت أشجار الفواكه»، أسوة بالجياد الخيالية الصغيرة التي كانت في كوريا وفي كوانجتونج. وربما كان المرسوم الذي أصدره تانج كاوتسو عام 618 والذي حرَّمَ إهداء الأبقار القزمة وغيرها من الحيوانات المصغرة للعرش، ربما

كان يهدف إلى وقف تلك الممارسة تماماً، بما في ذلك إهداء السلالات الأجنبية كذلك مثل الحيوانات الصغيرة الجميلة التي كانت ترد من البنغال.

ولقد انتشرت بين الناس في عهد تانج قصص حول ثيران البلدان الأجنبية، وبعضها نابض بالحيوية، وبعضها من دروب الخيال. فقد كانوا على دراية بأنّ قوم قيرقيزيا ذوي الشعر الأحمر والوجوه البيضاء قد سعوا جاهدين لنفي نسبهم إلى الذئاب (وهذا شيء نسب إلى الأتراك أيضاً) فزعموا أنهم نتاج لتزاوج إله مع بقرة في كهف جبلي. ولكن لا يتوافر أي دليل تاريخي حول نوعية ذلك الحيوان الذي هو السلف الطوطمي، أو حول ما إذا كانت الماشية المحلية التي تربى في قيرقيزيا تشبهه أم لا. كذلك فقد كان الصينيون على علم بأن قوم كوخا كانوا يقيمون حفلات لمصارعة الثيران (وأيضاً الخيول والإبل) خلال احتفالهم بالسنة الجديدة. وكانت حصيلة تلك المعارك الطقوسية بمثابة مؤشر على الزيادة أو النقص في أعداد قطعانهم من الماشية في العام التالي. لكن أحداً لم ينتبه إلى تلك الماشية «الباسلة» في الصين. وبالمثل ليس هناك ما يفيد بمشاهدة أي مسافر صيني لتلك الثيران البرية العملاقة التي كانت تشتهر بها آسيا الوسطى، الثيران ذات الشعر الأبيض، والتي لها ذيول تشبه ذيول الغزلان، ويفصل بين طرفي قرني كل منها عشرة أقدام، وإن كان قد ورد ذكرها في السجلات الرسمية.

وحتى بالنسبة لشكل الماشية العادية والتي كانت جزءاً من حياة الناس اليومية لا يمكن إبداء أي معلومات يعتمد عليها، ومن بين هذه آلاف الرؤوس التي أرسلها حاكم تركي لتانج عام 628. أما بالنسبة لقطعان الماشية التي كان يقدمها حكام تو يو-هون، والتبتيون فإنه يبدو أنها كانت الياك (ثيران التبت الضخمة ذات الصوف الطويل)، وهي الماشية الوحيدة التي توافرت عنها معلومات من هذا العصر. ولكي نكون أكثر دقة فقد كانت هذه هي الزوبو، أي الهجين الناتج عن تزاوج ذكور الياك وإناث الدرباني. ولا تزدهر ثيران الياك البرية كبيرة الحجم ذات اللون الأسود المائل

إلى البني، وشقيقها نصف المستأنس الذي يشبهها وإن كان ذا حجم أصغر، لا تزدهر إلاّ في الجو شديد البرودة في الجبال الشاهقة، ولا تستطيع تحمل البيئة القاسية في الأراضي المنخفضة سوى الزوبو المهجن ذي الحجم الأصغر والشعر الخشن.

ومن موطن تو–يو–هون الغني بالببغاوات والمعادن النافعة، والذي يقع حول بحيرة كوكونور الزرقاء العظمى أتت جزية مؤلفة من ثيران الياك والتي سميت باسم غامض بداية من القرن السادس، كما أتت هدايا مؤلفة من المهور الشهيرة رمادية اللون. وكان التبتيون قد اعتادوا على دعوة ضيوفهم إلى رمي ثيرانهم بالحراب والسهام قبل الولائم الكبرى، وقد أرسلوا هم أيضاً عينات من تلك الثيران للبلاط الصيني في أوائل القرن الثامن وفي اعتقادي فإن تلك الحيوانات الفريدة لم تكن الزوبو القابل للترويض والتعليم، بل أنواع سالفة عليه كانت ترسل للمتسفسطين من أهل العاصمة الذين كانوا معجبين بها.

ويلاحظ أن صورة ثور الياك في الأدب الصيني لا تعكس الطبيعة الخطرة للنوع البري منه . فقد كتب تو فو يقول:

«كان الحشيش الأخضر المائل للزرقة وفيراً كثيفاً- لكنه مات وانتهى؛

وخيول السماء ذات الأرجل المتاقلة تتبع ماشية الياك.

وهكذا ومنذ القدم كان النبلاء والشرفاء منا يعاملون بغلظة بحكم مصيرهم،

بينما الديوك الصغيرة والشباب المرح يختالون كالأسياد».

ففي تلك الأبيات يصور الشاعر الخيول النبيلة ذات الدم الإلهي وقد ضربها الجفاف والمجاعة (وهذا رمز إلى سوء الرعاية الروحية التي يلقاها طيبو القلوب في

ذلك الزمن العصيب)، مما يجعلها ترعى جنباً إلى جنب مع حيوانات الزوبو المتواضعة والتي تصور على أنها حيوانات كئيبة المنظر وحقيرة (وهذا رمزاً للناس ذوي الأمزجة الحادة).

ومنذ العصور القديمة، وعندما كان البرابرة يلوحون بصولجانات مزينة بذيول ثيران الياك وهم يرفهون عن ضيوف الملك، أصبحت ذيول ذلك الثور صرعة عارمة في الأراضي الصينية المنخفضة حيث كانت تستخدم كرايات وشعارات، وأيضاً كزينة للقبعات وعربات النبلاء. وفي عهد حكام تانج كانت تلك الذيول ترسل للبلاط ضمن الجزية السنوية التي تقدمها مدن شزوان في الغرب الأقصى حيث توجد الجبال العظمى وتتلاحم مع التبت. وكانت هذه ذيول الزوبو الملتفة والتي كانت تسلم في عهد تانج للمشرف على العربات الخاصة بسيدات البلاط الإمبراطوري، ومن ثم على الحيوانات التي تجرها: «... كان مسؤولاً عن العربات، والهوادج، والمظلات، والمراوح، وأشياء كثيرة للزينة، وريش الطيور، وذيول ثيران الياك، وكان عليه أن يعرضها للشمس في الفصل المناسب».

الأغنام والماعز

اشتهرت الصين في عهد تانج بالعديد من أنواع الأغنام الغريبة (أو قد تكون الماعز، حيث إن الصينيين قد صنفوا الماعز والأغنام في فئة واحدة، وهو أمر معقول تماماً). وربما كان أغربها وأكثرها دهشة النوع الذي عرف باسم «الأغنام ذات المولد الأرضي» –أغنام روما:

«تولد حملان أنواع معينة من الأغنام من باطن الأرض. فالناس في تلك البلاد ينتظرون اقتراب تبرعمها ثم يشيدون جداراً للإحاطة بها ولمنع التهام الحيوانات المفترسة لها. لكن سُرَر تلك الحملان مربوطة بالأرض وإذا قطعت فإنها تنفق. أما إذا رمحت الخيول حولها وعلى صهواتها رجال يرتدون العدة الحربية ويقرعون

الطبول فإنها تصاب بالذعر وتصيح في فزع وحينئذ تنفصل السُّرر وتنطلق الحملان سعياً وراء الماء والأعشاب».

وكان أحد العلماء قد سعى لإيجاد صلة بين الرواية وأسطورة «ملاحو الآرجو (الرجال المسلحون) والصوف الذهبي» لكنها (أي الرواية) قد تداخلت مع زعانف بلح البحر (نوع من الرخويات/ المترجم) بحيث يرمز الرجال المرتدون عدة حربية إلى القشريات التي تهاجم الرخويات وتقطع حبال الحياة. ولسوف نعرف ما هو أكثر عن بلح البحر لاحقاً. وما الحملان التي تولد من باطن الأرض إلا قصة «الأغنام المزروعة» ولو جزئياً، قصة نبات القطن الذي ينتج الصوف النباتي.

كذلك فقد قيل إن بالصين نوع من الأغنام ذيولها كبيرة وثقيلة ويزن الواحد منها حوالي عشرة كاتي (والكاتي وحدة وزن في الصين وجنوب شرقي آسيا تساوي رطلاً إنجليزياً وثلث رطل/ المترجم)، وكانت هذه تربى في سمرقند، وهذه ليست أسطورة وإنما الخراف ذات الذيل المليء بالدهن (اللِّية) الذي انتشر في سهول بخارى وقيرقيزيا القاحلة، وحملانها كانت مصدراً لفراء الإستراخان الشهير (صوف جَعْدٌ كثيف/ المترجم). ولقد انتشرت تلك الحيوانات من ذلك المركز عبر بلاد فارس وبلاد الشام (سوريا) في وقت مبكر جداً.

ومن كابيسا هناك إشارات إلى وجود نوعاً من الأغنام البرية يميل لونها للأزرق الباهت، ولها ذيول بلون طائر الرفراف (مداعب ظله)، ولا بد أن هذه كانت سلالة من سلالات البهرال الأعظم أو «الأغنام الزرقاء» ذات القرون الملتوية بشكل غريب. ولقد انتشر ذلك الحيوان الرائع والذي يساعده لونه الأزرق على التمويه أثناء تنقله بين صخور الجبال الشاهقة –انتشر من بالتستان عبر جبال كُون–لُون على ارتفاعات تزيد عن عشرة آلاف قدم، ومنها إلى داخل الصين.

وليس من السهل التعرف على الأغنام الضخمة التي أشار إليها الرحالة الشهير

هسوان-تسانج وقال إنها تربى بواسطة أهالي القرى الواقعة في أعالي البامير الجليدية.

وكان أحد الأمراء الأتراك قد أهدى إمبراطور الصين في عام 626 عشرة آلاف رأس من الأغنام ومعها قطيع هائل من الخيول، إلا أن الهدية قد رفضت لأسباب سياسية، وأيضاً نظراً لأن الصين في ذلك العصر لم تكن بحاجة ماسة للأغنام الأجنبية فكانت تستورد قليلاً جداً منها. أما الماعز فقد عرفها الصينيون منذ أقدم العصور، وإن كانت الأغنام هي الأنسب للبدو الرُّحَّل ذوي الرائحة الكريهة. وبوسعنا أن نفترض أن هدية الأغنام المرفوضة تلك كانت من سلالة ستيتوبايجوس ذات الآذان المتدلية، وكانت منتشرة في آسيا الوسطى وسيبيريا، كما كانت معروفة جيداً لدى الصينيين.

الحمير، والبغال، والحمير الوحشية

الحمار-شأنه شأن البعير- ظهر في الأفق الصيني في وقت متأخر من العصور القديمة، أي بالقرب من نهاية عهد أسرة تشو الحاكمة، بعد أن انتقل بدرجات بطيئة من موطنه في شمال أفريقيا.

وبالنسبة للناس في عهد تانج بعد ذلك بألف عام كان الحمار حيواناً أليفاً محلياً لا يثير أي عجب، ولم يكن على ما يبدو ضمن قائمة الواردات. باستثناء ما كان يصل ارتفاعه إلى خمسين قدماً، مثل النوع الذي ورد ذكره في مصدر موثوق على أنه قد جاء من التبت عام 654 على سبيل الهدية، ومعه مائة من الجياد. ومع ذلك يبدو أن ذلك الحمار العملاق نتاج شائعة مثيرة للغاية، أو قلم كاتب جامح الخيال ما لم تكن الأسطورة قد اختلطت بشكل أو آخر بواقعة حقيقية. فلقد تحدث الصيدلاني تشن تشانج-تشي عن «حمير البحر»، وأيضاً عن خيول وماشية البحر التي ينتصب شعرها كلما تعرضت لنسيم البحر. ولكننا لا نعرف أي الروايات قد سمعها هذا

الرجل، ومن أي رحالة . ولا بد أن مخلوقات البحر التي أشار إليها كانت من البحار البعيدة، و لم يكن شعرها يبتل بالماء، مثل فيل البحر والقُضاعة (ثعلب الماء).

أما البغال فقد أدخلت إلى الصين في عهد ما بعد القديم، بل إنها كانت شيئاً غريباً في عهد هان. أما بحلول عهد تانغ فقد كانت حيوانات مألوفة تماماً، وكان من الممكن تحميل جيش بأكمله على ظهورها في المقاطعات التي كانت تفتقر للخيول.

ومن أبناء عمومة كل من الحمار والبغل حيوان من الفصيلة الخيلية عرفه الصينيون من خلال عينات جاءتهم على سبيل الجزية في القرن الثامن من الغرب الأقصى. وقد أطلقوا على تلك الحيوانات الغريبة اسم «لو»، وهو من الناحية اللغوية مزج بين كلمة (Lu) التي كانت اسم الحمار، وكلمة (Lo) اسم البغل. ولقد وقع علماء اللغة الصينية في حيرة إزاء تصنيف تلك المخلوقات التي كانت قد جاءتهم من طورخارستان في عام 720, ومن بلاد فارس في 734 وقيل إن الأخيرة كانت بلاداً تكثر فيها البغال. ويذهب بعضهم إلى أن البغل نوع من الخيل، وبعض آخر إلى أنه نوع من الحمير، ولكن المؤكد أنه من سلالة الحمير الوحشية والتي لم يتمكن العلماء من تحديد أصلها ومسيرتها التاريخية، ومن ثم فقد سميت بالخطأ وعلى سبيل التسهيل فحسب «الحمير الوحشية»، وحدد موطنها الأصلي بتركستان، وفارس، والشرق الأدنى، وربط بينها وبين حمار شيجاتي في آسيا الوسطى ومنغوليا، وأيضاً بحمار التبت الوحشي.

الكلاب

ساد اعتقاد بأن كافة أنواع الكلاب المحلية قد تحدّرت من خمسة أنواع قديمة. وبعض هذه الأسلاف البدائية كانت ذات أصول صينية . فعلى سبيل المثال يتحدّر الـ «تشو) من نوع من الإستبيتز (كلب صغير طويل الشعر مستدق الخطم/ المترجم)، والذي كانت له هو الآخر أنسال كثيرة لدى شعوب السامويد،

والتانجوس، وحتى في المناطق الاستوائية في أندونيسيا.

أما الكلاب السلوقية (من كلاب الصيد الشهيرة/ المترجم) فهي نوع قديم جداً من الكلاب، وتظهر في اللوحات الجدارية من عهد أسرة هان الحاكمة، ولا بد أن أجداده قد جاؤوا من مصر في العهود الغابرة المنسية. وكان أكثر هذا النوع من الكلاب شعبية في الصين القديمة الدِّرواس أفطس الأنف (كلب ضخم من كلاب الحراسة/ المترجم)، ويلتوي ذيله على ظهره (على غرار سلالة ذئب التبت)، وكان التبتيون يربون الكلاب السلوقية الآشورية، والرومانية، والنوع المسمى حالياً سان برنارد، والنوع الذي يوجد في نيو فوند لاند، والبولدج (كلب قوي جريء ضخم الرأس، قصير الشعر/ المترجم)، وخاصة السلالات المصغرة منه والتي انتشرت في الصين، والتي تعرف باسم البَجّ. وحتى عظماء الرسامين (مثل ين لي – بن) لم يخجلوا من رسم لوحات تظهر الدرواس الذي كان يأتي للبلاد ضمن الجزية في القرن السابع، وربما كهدايا من التبت، الموطن الأصلي لتلك السلالة.

كذلك كانت أقوام تركستان ترسل كلاباً للصين:

سمرقند في 713، ومرة أخرى في 724؛ وكوخا في 721. ويعتقد أن تلك كانت كلاب صيد، وكان الطلب عليها كبيراً من أفراد البلاط الصيني، وإن كنا نفتقر إلى معلومات محددة عنها. ويمكن القول بأنها قد جاءت إلى وِجارها الإمبراطورية بالقصر في تشانج–آن، جنباً إلى جنب مع سلالات أخرى عديمة النفع مثل الكلب ذي الرأسين، وهذا مخلوق مسْخ ورد إلى بلاط الإمبراطورة وُو في عام 697.

وهنالك أيضاً سلالة الكلب المرقط الذي أتى من بلاد فارس ومن ثم أسماه الصينيون ببساطة «الكلب الفارسي»، ويظل نسبه غامضاً. فالكلب الذي عرف بتلك الصفة في القرن السادس كان حيواناً ضخماً شرساً وقادراً على قتل والتهام البشر، ويمكن افتراض أن الكلاب الفارسية المرقطة من عهد تانج كانت من هذا النوع.

ومن الكلاب الأخرى التي كان يتم استيرادها من غربي آسيا إبان عهد تانج الكلب الروماني (هروم) والذي كان قد ظهر في أوائل القرن السابع حيث جاء كهدية من ملك كاو-تشانج، أو كوكو. وهذه هي القصة:

«... قدّم الملكُ الكلابَ، ذكوراً وإناثاً، واحداً من كل نوع، وكان طول الكلب ست بوصات وقدم واحدة، أو نحو ذلك، وكانت على درجة عالية من المهارة حيث كانت قادرة على السيطرة على الخيول وتوجيهها باستخدام اللجام، وكانت أيضاً قادرة على حمل الشموع بأفواهها، ويقال إن أصلها بلاد هروم (روما)».

وليس بوسعنا طرح معلومات مؤكدة حول ظهور تلك الحيوانات الصغيرة، وإن ذهب بعضهم إلى أنها لم تكن سوى «كلاب الأحضان» الصغيرة القديمة من السلالة المالطية العتيقة، وقد تكون كذلك حقاً. ولقد كانت تلك الحيوانات الذكية ذات الشعر الخشن والخطم المدبب والتي أساساً من عائلة الإستبيتز - بمثابة دُمى تلهو بها المحظيات والعقيلات على حد سواء. ويلاحظ أن هذه السلالة كانت من النوع المحافظ تماماً، وهذا شيء مدهش في حد ذاته، ولا يزال نوع أبيض منها موجوداً حتى الآن، وقد يكون هو الكلب الذي نشاهده في إحدى اللوحات من عهد أسرة سونج الحاكمة، وإن لم يكن هناك ما يؤكد ذلك، بل ليس هناك ما يؤكد أن زوج الكلاب الصغيرة الذي كانت قد أرسلته كوكو قد خَلّفَ نسلاً وراءه في الصين على الإطلاق، وإن كان من المحتمل أن أزواجاً أخرى كانت ترسل على سبيل سد النقص في الشرق الأقصى. وهنا تجدر الإشارة إلى قصة هسوان تسونج ومحبوبته:

«في أحد أيام الصيف كان سموه يلعب (الشطرنج) مع أحد «أمراء الدم»، وكان قد أمر هو هُواي-تشيه أن يعزف لحناً منفرداً على العود. ووقف المرافق أمام طاولة اللعب يراقبهما. وعندما كاد سموه يفقد كثيراً من قطعه أطلق المرافق من بين المقاعد كلباً صغيراً كان قد جيء به من بلاد سمرقند ، وقفز الكلب إلى رقعة

الشطرنج وبعثر القطع، الأمر الذي أدخل البهجة في قلب سموه».

وربما كان بطل تلك الحيلة كلباً رومانياً، ويظهر لنا مرة أخرى (دون ذكر سلالته) في كلمات أغنية لشاعر مجهول من عهد تانج كانت تؤدى على لحن «اللورد الثمِلْ»، وتعكس القصيدة نور الحب، وربما إحدى نساء البلاط تنتظر محبوبها الشاب:

«وخارج البوابة تنبح الكلاب الصغيرة–
وأنا أعرف أن السيد هساو موجود ها هنا.
وأخلع شرابي وأنزل على الدرج المعطر،
لكن ظالمي العزيز ثمِلٌ الليلة».

وكلمة «صغيرة» التي وصفت بها الكلاب في تلك القصيدة ترتبط بكلمة «قزم» في اللغة الصينية، ومن ثم فإنها لا تدلنا أبداً على الأصل الجغرافي لتلك المخلوقات. لكن الأصل السمرقندي للكلب الذي بعثر قطع الشطرنج يشير إلى روما، ومن ثم إلى مالطة. لكننا لا نستطيع أن نكون على هذا القدر من الجزم بالنسبة إلى كلاب الأحضان التي أعلنت السيد هساو، وإن كان بعض المصادر الوثيقة يرى أن كافة الكلاب المسماة بـ«الكلاب القزمة» كانت كلاباً رومانية الأصل. وعلى أية حال فإن الكلاب الصغيرة ذات الأنوف الفطساء، والتي توجد حالياً بالصين لا تحمل دماءً مالطية، وربما آثاراً قليلة باقيةً منه. وسواءً كانت محلية أو غير ذلك فقد كانت موضوعاً مفضلاً لدى الشعراء والرسامين من عهد تانج وحتى القرن السابع عشر.

«لله أدعو . .

أن يأتينا بكائنات جديدة إلى هذه الجزيرة..

لله أدعو . .

بنعامات سالزبري السهلية..

وقنادس مدواي الفرائية..

وأسماك التايمز الفضية..»

كرستوفر سمارت، «بهجة الحمل».



الفصل الرابع

الحيوانات البرية

الأفيال

لم يكن الفيل دوماً حيواناً غريباً بالنسبة للصينيين. ففي العصر البرونزي، وعندما كان ملوك شانج يحكمون في وادي النهر الأصفر كان الفيل من الحيوانات البرية المعروفة، ومن الواضح أن الصينيين كانوا يأسرونه ويروضونه ويستأنسونه لاستخدامه في أغراض مختلفة. وبتزايد السكان وتراجع الغابات في الصين الشمالية ارتدت الأفيال صوب الجنوب، وخلال عصور التاريخ كانت توجد في جيوب في الأجزاء النائية من مستجمعات الأمطار التي تغذي نهر اليانجتسي، وإلى الجنوب منها. كذلك فقد وجدت بكثرة في الأجزاء الجبلية من كوانجتونج في القرن التاسع، وعلى السواحل الدافئة من تلك المقاطعة ذاتها في القرن العاشر. ففي أحد المعابد متعددة الطوابق في تونج-كوان شرقي كانتون عثر على نقوش تعود لعام 962 تصف دهس الفيلة لمحاصيل الفلاحين. وقد اشتهرت أفيال كانتون تلك بأنيابها وردية اللون، وكانت هذه ملائمة تماماً لصنع ألواح الكتابة، وطعم خراطيمها اللذيذ الذي كان يقدره الطهاة المحليون. كذلك كان هناك نوع من الفيلة السوداء يثير الانتباه بدرجة أكبر نظراً لما اكتنفها من غموض، وأحياناً كانت توصف بأنها ذات لون أسود مائل للزرقة، وتعيش في وادي نهر اليانجتسي، وهناك سميت باسم مهين هو «خنازير النهر».

وخلال القرون من سقوط أسرة شانج وحتى قيام أسرة سونج كان الفيل (الذي لم يكن سوى حيوان تطيب للناس مشاهدته للتسلية في الشمال) حيواناً نافعاً أحياناً في الجنوب، وإن اقتصر نفعه على استخدامه في القتال، وكان ذلك نادراً ما يحدث. وكان محاربو تشو قد أطلقوا الأفيال ضد أعدائهم في عام 506 قبل الميلاد.

كذلك فقد استخدمها الناس في دولة ليانج الجنوبية بعد أن سلحوها بالسيوف وذلك في عام 554 واستخدمتها دولة هان الجنوبية الثرية في المعارك الكبرى في عامي948 ،971.

لكن هذه الحالات الاستثنائية لا تخفي صورة الفيل كحيوان متوحش يثير العجب، ويوجد موطنه الأصلي على الجانب الأبعد من حدود الصين الجنوبية. ففي عهد هان قيل إن القوم الذين كانوا يعيشون على الساحل الآنّامي يركبون الأفيال ويخوضون بها البحار بحثاً عن الكنوز في الأعماق، وبصفة خاصة اللآلئ الجميلة التي كانت دموع أقوام القرش.

وفي عهد تانج كانوا لا يزالون ينظرون للأفيال على أنها حيوانات جنوبية في المقام الأول، وترمز إلى البلاد الهندو – صينية الحارة. وحول ذلك كتب الشاعر تشانج تشي يقول:

«بلاد البحر، حيث يمتطون الأفيال في المعارك،

بلاد الجزر حيث يستخدمون الفضة في الأسواق».

ومن هذا النظم يتضح الربط بين الأفيال والفضة، فكلاهما كان متوافراً في الهند – الصينية بقدر ما كان غير عادي في الصين، التي واصلت اعتمادها على خيول الحرب والعملات النقدية النحاسية. وكانت تشاو–تشو (تونجكنج حالياً) – وهي محمية آنذاك– أقرب «بلاد البحر» تلك إلى الصين. ولقد نظم شاعر القرن التاسع تو هسون–تشيوه أشعاراً ملؤها صور بلاغية غريبة عجيبة من الجنوب مثل: «أوراق الزهور التي تردد صدى الأغاني»؛ «حيث تختلف أسماء كافة الزهور والطيور»؛ «والرياح التي تعصف بأشجار الموز الأحمر»؛ و«هفيف ورقة على ورقة». ولقد ذكر الفيل في أحد تصوراته لآنّام التي رأى فيها مجر د منفى حيث:

«تُحَمَّلُ السفن التجارية الكبرى بالعبيد، وتأن

الآذان من ثقل الحلقان؛
وعلى ظهور الأفيال نساء لففن أجسادهن
بالأثواب».

وفيما وراء المستعمرات الصينية كانت هناك مملكة تشامبا التي كان للأفيال دور أكبر فيها، إذ كان يمتطيها الحرس الملكي الذي كان قوامه خمسة آلاف رجل بعدتهم الحربية الكاملة وأقواسهم وسهامهم المصنوعة من البوص، وكانوا يتوجهون بها إلى ميادين القتال. كذلك فقد استخدمت الأفيال كوسيلة لإعدام المجرمين بالسير فوق أجسادهم وسحقها. ويضاف إلى ذلك أنه عندما كان الملك يظهر أمام الجماهير كانت الفيلة تحيط به من كل جانب، فقد كانت بأبدانها الضخمة تضفي عليه مزيداً من القوة والسلطان. وثمة نقوش سنسيكريتية تعود لعام 909 تتحدث عن الملك باهد راڤارمان الثالث فتقول:

«وهو (أي ملك تشامبا)-شأنه شأن أبناء الباندو- يسطع بعظمته في ميدان القتال... في المناطق الأربع حيث غطت زمجرة الأفيال الضخمة الجميلة على دقات طبول الحرب- بعد أن امتطى فيلاً أحاطت به القوات من الأمام ومن الخلف، وسطع بجلالته، بينما ظللتْ المظلات المصنوعة من ريش الطاووس والمرفوعة فوق رأسه -ظللت على فخامته مثلما تحجب أشعة الشمس وحرارتها».

وفي كمبوديا أيضاً كان للفيل وضع ملكي، فهذا ملك بنام (دولة كمبوديا الجنوبية في الأزمنة القديمة) وقد امتطى فيلاً، وبالمثل فقد كان لدى ابن عمه ملك شنراب (الدولة الشمالية) فيلقاً من خمسة آلاف من أفيال الحرب، وكان هذا الملك سلفاً لأسر آنجكور التي حكمت البلاد لاحقاً. وكان يوضع هودج خشبي على ظهر الفيل، ويجلس على كل هودج أربعة من الرماة. وكان الأفضل من بين أفيال الحرب تلك ينعم بوجبات تتضمن اللحم بدلاً من الغذاء النباتي العادي. وكان الملك الفاضل جايا ڤارمان الثالث- والذي اتخذ من هاريها رالايا عاصمة له في

منتصف القرن التاسع -كان صياداً ماهراً تخصص في صيد الأفيال، وهو ما يليق بملك كمبودي.

كذلك فقد اشتهرت دولة بان-بان المندثرة والتي كانت ذات يوم من أقوى ممالك شبه جزيرة الملايو -اشتهرت عند الصينيين في عهد تانج بجيشها المعتمد على الأفيال، والذي تم تشكيله وتنظيمه على مدى قرنين من الزمان، وكان على كل هودج أربعة جنود (كما هو الحال في كمبوديا) مسلحين بالسهام والحراب. كذلك فقد كانت شعوب تايلاند وبورما في الجنوب الغربي تستخدم الأفيال. ولقد أعرب ليو هسون، مؤلف «لينج بياو لوآي» عن دهشته خلال قيامه بمهمة رسمية إلى يُونَّان إزاء امتلاك أفراد الطبقة الأرستقراطية للأفيال حيث استخدموها كدواب للحمل والجر مثلما كان الناس في عهد تانج يستخدمون الخيول والماشية.

وكان هناك الفيل الأبيض ذو الأنياب الأربعة، والذي يحكى أنه عاش في بلاد تسمى كاجا، ونسب إليه تخصيب أي أرض يدوسها بأقدامه، ومن ثم فقد اقترح بعضهم على إمبراطور تانج (كاو تسونج) إرسال قوات لأسره، لكن الإمبراطور رفض الاقتراح باعتباره غير ملائم من جانب حاكم التزم بسياسة للتقشف، إضافة إلى قوله: «لسنا بحاجة إلى تلك الأفيال الغريبة».

وجنباً إلى جنب مع هالة الغرابة والعجب التي أحاطت بالأفيال في الصين كان هناك الكثير من القصص والروايات التي تدور حولها، والتي يفترض أن الصيادين وتجار العاج أتوا بها، وإن كان من المستحيل تحديد درجة تصديق الناس لها. ومن هذه الروايات أن الفيلة لا تحب نباح الكلاب، ومن ثم كان الصيادون الجنوبيون يرهبونها إلى حد شل حركتها بتقليد نباح الكلاب، ومن ثم يسهل عليهم قتلها بطعنها خلف الأذن. وثمة رواية أخرى تفيد بأن للأفيال ذاكرة جيدة، وأنها تبكي إذا شاهدت جلد أحد صغارها. وهناك رواية ثالثة تقول إن مرارة الفيل متحركة وتنتقل من قدم إلى أخرى في كل فصل من فصول السنة.

وعلى الرغم من أن الفلاحين الجنوبيين سيئي الحظ كانوا يشاهدون الأفيال البرية، وأن التجار كانوا يوردون أنيابها للحرفيين في مختلف مدن الصين، فإن الأفيال الأليفة كانت تأتي أساساً مع البعثات القادمة من بلدان الهند الصينية، ومن تشامبا على وجه الخصوص حيث كانت هذه ترسل الأفيال المدربة لبلاط تشانج–آن في المناسبات المختلفة خلال حقبة الخمسينيات من القرن السابع، في أثناء الحكم الأول لكاو تسونج، وخلال حقبتي الثمانينيات والتسعينيات من القرن ذاته في عهد الإمبراطورة وو، وفي النصف الأول من القرن الثامن تحت حكم تشونج تسونج، وهسوان تسونج. ولقد تميزت تلك الفترة الأخيرة بهديتين من ملوك تشام، وهي عبارة عن مجموعات من الأفيال البيضاء الشهيرة (في عامي 709، 735)، وبعدها ليس هناك ذكر لأفيال أتت من تشامبا صوب الشمال بالطريقة المعتادة. وفي أوائل القرن التاسع تمكن القائد الصيني تشانج تشو من استرداد مدينتين آنّاميتين على الحدود كان قد استولى عليهما التشام، وأزاح ثلاثين ألفاً من سكانهما، واستولى فيما استولى على أعداد كبيرة من العُدَدْ الحربية، وأسر عدداً من الأمراء، وجلب معه بعضاً من أفيال الحرب التشامية.

ومن حين لآخر كانت الأفيال المدربة تأتي من بلدان أخرى: من كمبوديا في عامي 651، 771؛ ومن بلد آخر مجهول بالغرب من كمبوديا ويسمى زيام–باك في 657؛ ومن جامبي السومطرية في 853 ، وحتى من بلد غير محتمل مثل فارس في 746 ، وعلى الأرجح من المدن الإنفصالية في خراسان، وترانسوكسونيا. وكانت الأفيال المهداة أو التي ترسل في إطار الجزية توضع في الإسطبلات الإمبراطورية، وكان يصرف لها غذاء يومي يتألف من الأرز والفول، وكانت تغطى شتاءً بجلود الأغنام والبطاطين المصنوعة من اللباد.

ومن الطبيعي أن نتوقع أن تكون الأفيال قد لعبت دوراً بارزاً في المواكب الإمبراطورية؛ ففي القرنين الرابع والخامس كانت الأفيال الواردة من ڤيتنام تظهر

في تلك المواكب يقودها فيالون محليون، وتجر العربات التي تحمل عازفي الموسيقا. ولقد تم إحياء تلك العادة في عهد سونج، أي بعد القرن العاشر. وعلى الرغم من توافر عدد كبير جداً من الأفيال الأليفة في عهد تانج (حيث كانت الصين تتلقاها من جيرانها الجنوبيين) فليس هناك ما يدل على استخدامها على ذلك النحو، بل الحقيقة أنها لم تكن تستخدم في أي غرض على الإطلاق، فكما أوردنا سالفاً كانت تنتاب عواهل تانج من حين لآخر نزعات تقشفية تطهيرية دفعتهم إلى التخلص من كثير من «الطيور المكلفة والحيوانات الغريبة» التي كان يحضرها السفراء الأجانب. وعندما اعتلى تي تسونج العرش في 780 أعلن سياسة التقشف، وفي إطار تنفيذها سُرِّح اثنان وثلاثون فيلاً كمبودياً، إلى جانب عدد من الصقور وكلاب الصيد، وما يزيد عن مائة من حريم القصر. وأرسلت الأفيال إلى «ذلك الجانب من جبل تشنج المواجه للشمس»، أي البيئة التي عاش فيها الفيل الصيني الأسود في منطقة أواسط حوض نهر يانجتسي، وربما لتحسين السلالة المحلية.

ولقد كان دور الأفيال التي استوردتها تانج دوراً تافهاً نسبياً، وهو المشاركة في العروض الملكية لفنون القتال والرقص، وكان تشونج تسونج نفسه يشاهد مصارعة الأفيال عند بوابة لو يانج الجنوبية في عام 705. غير أن عهد هسوان تسونج هو الأشهر من حيث عروض الأفيال: ففي احتفالات القصر الكبرى كانت الأفيال ترقص وتنحني لدى سماع ألحان معينة، جنباً إلى جنب مع عروض الخيول الراقصة والعروض الرياضية والبهلوانية. لكن هذه الحيوانات الملكية انتهت نهاية وحشية، فبعد أن استولى روكشان على لو-يانج أقام وليمة لحلفائه من زعماء القبائل وتفاخر بأنه سوف يثبت لهم كيف أن كافة الحيوانات بما فيها الأفيال الأجنبية سوف تقوم بتحية ابن السماء الجديد الحقيقي (أي ذاته)، وأمر بإدخال الأفيال الراقصة التي كان يملكها هسوان تسونج، لكنها رفضت الرقص فما كان من المتمرد الذي تملكه الغضب إلا أن أمر بوضعها جميعاً في حفرة وإعدامها حرقاً مع رميها بسلاح

الفأس والحربة، ويقال إن مدربي الصقور وعازفي الموسيقا العاملين في ذلك البلاط الوحشي لم يتمكنوا من كبح مشاعرهم فظلوا يبكون علناً.

أما بالنسبة إلى الناس في عهد تانج كان الفيل أكثر من مجرد رمز للدول العظمى في المنطقة الاستوائية، وجبهاتها القتالية المحمومة، والتي أخضعتها الصين وفرضت عليها أسلوب الحياة الصينية. ولعل هذه هي الصورة العلمانية التي تمثلها لوحة من لوحات الرسام ين لي-بن، والتي تظهر كاهناً بربرياً يحك جسم فيل بفرشاة كبيرة «وهذا أمر بالغ الغرابة». وعلى الدرجة ذاتها من الوضوح كانت الصورة الروحانية للفيل، وتتجلى كذلك في أدب تانج الديني. فالجاجاباتي «سيد الأفيال» يرمز إلى الحارس الكوني للجنوب ، والجاجاراجا «ملك الأفيال» يرمز إلى بوذا يطل جلاله، وبودهيساتفا الذي كان سعيداً بعبارة «الفيل العطري»، وكل هذه مجرد أمثلة، ولا بد أنها قد تمثلت في فن الرسم بمثل ما ظهرت في النثر الديني. والواقع أننا بالجاجاراجا هذا نسد الفجوة بين «المستنير» (بوذا)، والشخصيات القوية التي فرضت نفسها بين ملوك الهند الصينية.

الكَركَدَّنْ

الكركدن -شأنه شأن الفيل- كان حيواناً مألوفاً في شمال الصين في عصور ما قبل التاريخ، وربما عصور التاريخ المبكرة، ولكنه كان قد أصبح حيواناً نادراً بحلول العصور التي ألقت الكتب الضوء عليها. ومن المحتمل أن اثنين من السلالات الثلاث للكركدن الآسيوية كانت معروفة في الأزمنة القديمة في الصين، إذ يُوجد تمثالان حجريان صغيران لذلك الحيوان، أحدهما لحيوان ذي قرن واحد، والآخر لحيوان ذي قرنين، ويرجع التمثالان إلى عهود شانج، وتشو، وهان،وهما على الأرجح للكركدن الجاوي (السوندا)، والكركدن السومطري على الترتيب، وكلاهما قد انتشر في العصور السالفة في الصين والجزر التي حولها، وإن اقتصر

وجودهما الآن على أجزاء من إندونيسيا، وهما على وشك الانقراض.

وفي الصين في عهد تانج انحصر الكركدن في منطقة واسعة إلى حدّ ما جنوبي نهر اليانجتسي، وتضم غالبية هونان، الغربية والجنوبية والأركان الملاصقة من المقاطعات المجاورة. كذلك فقد حافظ الكركدن ثنائي القرن على وجوده في أجزاء نائية من لينجنان المتاخمة للسلسلة ذاتها في الهند – الصينية.

وعلى الأرجح فإن الصينيين لم يتعودوا أسر تلك الحيوانات الشثنية (حيوانات ثديية ذات حوافر غير مُجترّة، وتتميز عادة بجلدها الصفيق/ المترجم) من أجل تدريبها، ولذا فإن الكركدن الراقص –شأنه شأن الفيل الراقص– كان من الغرائب والعجائب. ولقد كتب توان تشينج–شيه، وهو من كبار جامعي العجائب والغرائب، كتب بدهشة بالغة عن الشراك الخشبية التي كانت تستخدم لأسر الكركدن في موطن أحد ربابنة السفن الذي وصفها لطبيب من كانتون نقلها بدوره لتشينج–شيه هذا.

وهكذا فإن الكركدن المستأنس كان يأتي كهدايا غريبة للبلاط من البلاد العظمى الواقعة جنوبي الصين، مثل الذي أرسله «رجل الجنوب» إلى إمبراطور تانج في عام 854، والذي أعيد في الحال. وليس بمستغرب أن تكون تشامبا أهم مصادر الكركدن، فقد أرسل التشاميون كركدن مستأنساً إلى تشانج–آن في أوائل القرن السابع، ثم أحد عشر من النوع المسمى «المتصل بالسماء» (وربما كان ذلك الكركدن الهندي وحيد القرن) في عام 640، وغيرها في عام 793، والأخير عرض في الحرم الأعظم لإدخال السرور على الأباطرة الراحلين، والذين هم على قيد الحياة كذلك. وبالمثل كان هناك كركدنات مدربة من زيام–باك (وهذه دولة مجهولة بالنسبة لنا) في القرن السابع؛ ومن مملكة شنراب الخميرية في القرن الثامن؛ ومن كالينجا (مصحوبة بالفتيات السوداوات الشهيرات) في القرن التاسع. وكان الأقل توقعاً وصول هدايا تتألف من الكركدن من دولة غربية لا تزال تسمي نفسها

«فارس» في أوائل القرن الثامن، وجاء أحدها مع أمير ملكي، كما جاء كركدن آخر من التبت مصحوباً بحيوانات برية أخرى في عام 824.

ولم يكن المناخ في شمال الصين ملائماً دائماً لتلك الحيوانات الاستوائية، فقد نفق أحدها كان قد نقل للعاصمة في عام 796 بسبب شدة البرودة في المنتزه الإمبراطوري في الشتاء التالي لكن بعضاً منها تمكن من التأقلم ومن ثم البقاء، وكانت تشارك مع الأفيال في عروض الترفيه الكبرى التي كانت تقام في قصر هسوان تسونج. وربما كان واحداً من تلك الحيوانات النموذج الذي رسم على ظهر مرآة مرصعة بعرق اللؤلؤ في شوزوين ويصور الكركدن السومطري ذي القرنين.

لكن الكركدن كان قليل الأهمية كصورة غريبة عجيبة —فقد كان في الواقع رمزاً لقدَم الصين باعتباره قد تمكن من البقاء وسط البرابرة. ولقد كان لقرونه وفضائلها السحرية دور بارز في تاريخ الغرائب والعجائب كما سنتبين لاحقاً.

الأُسود

ينطوي تاريخ الأسد الآسيوي على تراجع مؤسف، فلقد كانت «السنوريات الكبرى» مألوفة في الهند، وفارس، وبابل، وآشور، وآسيا الصغرى، بل وكانت توجد أيضاً في مقدونيا، وثيسالي في الأزمنة القديمة. ومنذ ذلك الحين ظل عددها وانتشارها يتناقص، وإن ظلت متواجدة في القرن التاسع عشر في أجزاء من بلاد ما بين النهرين (العراق)، وفي فارس جنوبي شيراز، وفي الجوجيرات واختفت تماماً من كل تلك الأماكن عدا الأخير. ولايزال هناك القليل منها في شبه جزيرة كاثيوار وإن كان بشكل غير مستقر.

وفي كل من العصور القديمة والعصور الوسطى جاءت إلى الصين عينات من ذلك الحيوان المهيب. ولقد تبعت مجيء الأسود إلى الصين كلمتان تشيران إليها،

الأولى كلمة تنطق «سوانجي»، وهي كلمة غير مستعملة وإن أعيد استخدامها في عهد تانج بشكل متعمد، وكانت قد أتت إلى الصين من الهند قبل العهد المسيحي. أما الكلمة الثانية فتنطق «سيساك» وكانت قد أتت من إيران بعد الأولى بعدة قرون، والاسم الثاني هو الذي شاع في العصور الوسطى للإشارة إلى ذلك الحيوان. ومن اللافت حقاً أن الاسم الثاني قد ورد كثيراً في أدب العصور الوسطى باعتباره اسماً للدولة التي عرفت في العصور الحديثة باسم «سيلان»، وهي جزيرة (لم يكن يسكنها بشر فيما سبق، وسكنتها الأشباح فحسب)، وقد عرفت أيضاً بأنها «ممتلئ بالجواهر النادرة»، وأن بها جبلاً من الماس واليرغن (معدن عديم اللون، أو أصفر شاحب، أو بلون الدخان/ المترجم). ولقد أدت شهرة تلك الجزيرة في الماضي البعيد إلى خلع اسم هندي عليها هو «راتنادڤيبا»- جزيرة الجواهر، وفي القرن التاسع سماها العرب «جزيرة الياقوت». وفي الصين، وعلى الرغم من اشتهار الجزيرة بالأحجار الكريمة، لم يظهر اسم لسيلان على النحو الهندي أو العربي المشار إليهما، وإن كان هنالك اسم محلي قديم هو «سينهالا» (مُقام الأسد)، ويبدو أن بحارة الخليج الفارسي قد حرفوا ذلك الاسم ليصبح سرنديب». أما الاسم الصيني لسيلان فقد كان «بلاد الأسود»، ولا بد أنه قد تحدّر مباشرة من الاسم السنهالي ذاته، أو من أسطورة ما قام على أساسها، مثل الأسطورة التي تقول إن «..... ابنة ملك ڤانجا قد عاشرت أسداً في الغابة»، ذلك لأن الأسود لم تكن معروفة بالجزيرة.

ولقد ترك الأسد بصمة واضحة على الخيال الصيني باعتباره أقوى الحيوانات و وأشدها رعباً. ففي عام 635 تلقى الإمبراطور تاي تسونج أسداً من سمرقند، وأمر يو تشي–نان أن يكتب قصيدة على شرفه، وبالفعل أنتج هذا الأديب – العلاّمة قصيدة ذات زخارف لفظية رائعة تعبر عن الرهبة التي أحس بها الصينيون إزاء ملك الحيوانات:

«تبرق عينيه – فيلمع البرق،
يزأر فيتردد صوت الرعد.
يعد النمور،
ويلتهم الدببة،
ويحطم الكركدن،
ويشق الفيل،
ويسحق الثور الهندي القوي بين فكيه،
ويطوي الثعبان (الأصلة) بين إصبعه وراحة
قدمه...».

وثمة قصيدة أخرى حول ذلك الأسد ذاته نظمها نيو شانج–شيه بعد ذلك بوقت طويل، لكن هذا الشاعر عرف الأسد من خلال ما كتبت عنه البعثة التي جلبته، وكانت حدثاً مجيداً من أحداث الماضي.

وفي ثلاث مناسبات مختلفة أرسل التوشاريون أسوداً إلى تانج واحدة في القرن السابع، وفي مناسبتين في القرن الثامن. فالبعثة التي أتت للصين في 719 تنطوي على معلومات مثيرة، حيث قام أحد النبلاء التوشاريين بتقديم أسدين نيابة عن روما، وبعد ذلك بشهور قليلة أتى كاهن «روماني صاحب فضيلة كبرى» واستقبل في تشانج–آن. وفي ذلك الوقت كان ليو الأيكونوكلاستي (محطم التماثيل الدينية ومقاوم المعتقدات والمؤسسات التقليدية/ المترجم) هو الذي يحكم القسطنطينية، ولكن ليس لدينا ما يؤكد أن تلك الأسود قد جاءت من عنده، وذلك لأن روما «روم» كانت تضم بلاد الشام (سوريا)، وهذه خضعت لاحقاً للعرب.

ولقد جاءت أسود أخرى في إطار الجزية من مرمرة، ومن فارس (جزء من خراسان المضطربة على الأرجح)، ومن العرب، وكلها في النصف الأول من القرن الثامن —عصر الازدهار والرخاء. ولقد كان الأسد العربي هذا فرصة للإمبراطور

تشونج سونج لإعطاء درس في الأخلاق والسلوك حيث كان قد أبدى بالفعل اهتماماً بالمحافظة على الحياة من وازع ديني ووفقاً لتعاليم بوذا، ومن ثم فقد حرم الصيد بالصقور وصيد الحيوانات عموماً. والتزاماً بتلك السياسة فقد رفض الهدية، خاصة وأن أحد وزرائه قد أخبره بالتكاليف الباهظة لإطعام ذلك الحيوان.

فبالنسبة للصينيين في عهد تانج كان الأسد حيواناً غريباً، ومن دون شك فقد شارك النمر -الذي هو رمز الغرب- في الجوهر الروحي. وفي الواقع. وكما تبين قصيدة يوشي-نان، فقد كان الأسد أكثر توحشاً من النمر، ولا بد أن ما ارتبط به من مهابة وجلال يرجع فيما يرجع إلى عنصري المسافة والندرة، ومن ثم فقد بالغ الصينيون في تصوير قدراته الروحانية بحيث تفوق على النمر في هذا الصدد. بل إننا قد نرى في تلك الصورة القوية انعكاساً لافتاً للإله الأسد عند العرب في الجاهلية والذي كان يسمى ياجوث، وإن كان ذلك الربط بعيد جداً، وغير مباشر على أقل تقدير، إذ من المشكوك فيه أن الصينيين كانوا يعرفون شيئاً عن ذلك الإله. وتصور الحكاية التالية القدرات الروحانية التي نسبت إلى لأسد:

«في نهاية العهد أهدتنا دولة غربية أسداً، وعندما أتوا به إلى الطريق الغربي في تشانج-آن ربطوه إلى شجرة عند محطة البريد، وكان بالقرب من الشجرة بئر، وزأر الأسد زئيراً مرعباً كما لو كان قد أزعجه شيء، وفجأة هبت رياح عاتية مصحوبة برعد شديد، وخرج تنين من البئر ثم اتجه بعيداً».

ومن الواضح أن الأسد وهو ذات مغايرة لنمر الغرب، كان يمتلك قوى غير طبيعية متناغمة مع قوى تنين الشرق الذي يناظره.

ولقد تجلت قوى الأسد، الرهيبة-الجسمانية والروحانية على السواء- في مظاهر أخرى، وأهمها أن بعض أجزاء من ذلك الحيوان كانت تفرز رائحة كريهة، ومن ثم فلم يكن الذباب والبعوض يجروءان على الوقوف على منفضة مصنوعة من

ذيل الأسد لأنها تقضي عليهما في الحال. وإذا داعب موسيقي عوداً مصنوعاً من أوتار مصنوعة من أعصاب الأسد تتحطم أوتار آلات الفرقة الموسيقية كلها. وواضح أن هذا الكلام مرتبط بزئير الأسد المرعب. وبالمثل فقد كان هناك اعتقاد بأن فضلات الأسد كانت من العقاقير القوية، وفي إحدى الروايات كانت في مثل قوة الميعة (شجرة ذات صمغ/ المترجم)، وإن جاء في عهد تانغ الصيدلاني تشن تسانغ-تشي ليصحح ذلك الاعتقاد الخاطئ. فالمادة الأصلية (ولا بد أنها كانت نادرة تماماً) هي التي كانت قادرة على تفتيت الجلطات الدموية (بغرض انتزاعها من الداخل)، كما كانت لها القدرة على التحكم في الزواحف، وكانت تحرق لطرد الأرواح والكائنات الشريرة.

وحتى اللوحات التي رسمت للأسود كانت تبعث الرهبة هي الأخرى. وكان رسام البلاط وِي وُو-تاين الذي عاش في القرن الثامن قد تميز بقدرته على رسم الحيوانات الغريبة، و:

«... عندما كانت البلاد الأجنبية تهدي البلاط أسُوداً كان يقوم برسمها، وكانت لوحاته تنبض بالحياة وكانت الأسود تعاد لاحقاً لمواطنها الأصلية، ولا يحتفظ إلاّ بصورها في البلاط، وكلما كانت تفرد اللوحات يفرُّ أي حيوان يشاهدها من فرط الذُّعر».

وكان الطلب كبيراً على أعمال ذلك الفنان من جانب هواة جمع التحف في القرن التاسع، ويبدو أن الأسود التي كان البلاط يتلقاها على سبيل الجزية كانت موضوعاً مفضلاً لدى فناني عهد تانغ. فنحن على علم بتلك اللوحة التي رسمها لي بو-شيه لأسد كان قد جاء من خوطان. والأكثر شهرة أسود الجزية التي صورها سيد فن الرسم ين لي-بن، وعلى ما يبدو فقد رسم أكثر من لوحة، ونقرأ في الكتب عن واحد منها يظهر الأسد فيها «شبيهاً بالدب، ذا شعر يشبه شعر القرود، وذيل طويل، ولونه أسود»، وهو ما يؤيده توان تشنج-شيه الذي قال إن هناك في الغرب

سلالة من الأسود ذات اللون الأسود. كذلك فقد رسم ين لي-بن لوحة لمجموعة من الأسود في حضرة ملك بربري يجلس على العرش وسط مجموعة من محظيات بلاطه ممسكات بآلات موسيقية، وكان لتلك الحيوانات «رؤوس تشبه رأس النمر، وأجسام تشبه أجسام الدببة، وذات لون بني مصفر، ويشع منها لون مقدس....» والذي كتب تلك الأوصاف هو تشومي الذي أوضح أن الأسود التي تظهر في تلك اللوحات لم تكن من النوع المعتاد في لوحات أخرى رسمت في عصره، أي في القرن الثالث عشر، وإن أضاف مشيراً إلى الأسد الأَسْوَدْ قائلاً: «لقد سمعت بأن الأسود التي أرسلت مؤخراً على سبيل الجزية كانت من ذلك النوع!!». فإذا كان تشومي قد وصف لوحات أصيلة رسمها ين لي-بن فإننا لا بد وأن نفترض أن الأسد الذي شاع في لوحات سونج الجنوبية، ويوان كان من نوع خيالي، أو نوع مُختلف، على النقيض الصارخ من ذلك الذي يظهر في لوحات ين لي-بن المستمدة من الواقع.

كذلك فقد كان للأسد رمزية دينية، فشأنه شأن الفيل كان يثير صوراً للهند وللديانة البوذية، فزئيره كان استعارة متداولة عن صوت بوذا وهو يعلم قانونه للناس والكائنات من كافة الأكوان. وكما كان بوذا أسداً بين الناس فقد سمي كل مكان يجلس فيه بـ «مقعد الأسد»، وهي صورة امتدت لاحقاً لتشمل كبار الكهنة البوذيين، ثم تحولت الصورة إلى واقع عندما بنى الصناع عروشاً لهؤلاء الكهنة الكبار. وفي إشارة لتكريم صديق كهنوتي كتب لي بو مشيراً إلى «الأسد ذو اللون الأصفر الذهبي يحتل مقعدك العالي». وأخيراً هناك أيقونات تمثل مانجوسري ذاته- وهو شخصية محبوبة في الفنون الدينية- وقد امتطى صهوة الأسد.

الفهود والفهود الصيادة

كان الفهد الآسيوي بأشكاله المختلفة حيواناً مألوفاً لدى الصينيين منذ أقدم العصور، ولعب دوراً مهماً في منظومة الرموز التقليدية. فلقد كان رمزاً للبسالة

ونبل المحاربين، ومن ثم كانت يرسم على الأهداف التي يصوب إليها العظماء سهامهم خلال مسابقات الرمي التي كانت لها طقوسها الخاصة. وهناك مَثَلٌ قديم شَبَّه النبلاء بالفهود من حيث تقلبها، وإن كان المدلول العام لذلك المثل أن النبيل حقاً إنسان متواضع قادر على التكيف مع الظروف ومستعد لتقديم التنازلات عند الضرورة . أما المعنى الأقدم لـ «شبيه الفهد» فربما كان المكر والدهاء، خاصة في القتال. وهذه الصورة التي تخلو من الفن تذكرنا بالحيوانات التجريدية في الأدب الرمزي الذي ساد في العصور الوسطى، والذي يرمز إلى الفضائل المسيحية، مثل الأيل الذي اتخذ رمزاً للروح المتعطشة للتعميد (التغطيس في الماء المقدس رمزاً للتطهير والدخول في كنف الكنيسة، وهو من الطقوس المسيحية الأساسية/ المترجم)، وإن ظل المدلول الخاص بالروح القتالية العالية قائماً على أية حال، ومن ثم فقد حدث في عهد تانج أن تغير اسم فرقة معينة من الجنود من «الخيالة البواسل» إلى «خيالة الفهود»، كما تغير اسم فرقة للحرس من «الحرس الرهيب» إلى «الحرس الفهود المسلحون بالخناجر» (وكان هذا الاسم الأخير عنواناً لكتاب متداول حول الاستراتيجية). وشأنها شأن صورة الأسد كان لصورة الفهد القدرة على السيطرة على الأرواح الشريرة، وهي ميزة جعلت إحدى أميرات تانج تصنع لنفسها مخدة على هيئة رأس فهد.

وخلال النصف الأول من القرن الثامن أرسل كثير من المناطق الغربية فهوداً على سبيل الهدية والجزية معاً: من جنوبي الهند، ومن مرمرة، ومن كيش، ومن قندهار، ومن الأخيرة جاءت الفهود الحمراء، ومن بخارى، ومن سمرقند، ومن فارس، وأيضاً من الخلافة (الإسلامية). وباختصار فإن الفهود على الرغم من تاريخها المحترم في الشرق الأقصى كانت من الحيوانات غريبة الشأن والشكل.

ومما يفسر شعبية تلك العينات الأجنبية من حيوان مألوف –ليس نادراً مثل الكركدن، وأقل كثيراً من الأسد– ما جاء ضمن الجزية المرسلة من سمرقند في عام

713, والتي وصفت بأنها قد تضمنت «حيوانات تشبه الكلاب والفهود» .مما يفيد أن النوعين كانا متشابهان إلى حد كبير، وإن كان وجه الشبه الوحيد بينهما أنهما مدربان على صيد الحيوانات. ونصادف العبارة ذاتها في نص آخر: «في عام 762 أصدر الإمبراطور سو تسونج مرسوماً يقضي «بوقف إرسال صقور الباز، والباشق (طائر من الجوارح)، والكلاب والفهود على سبيل الجزية». كذلك فقد حدد البلاط النظم والقواعد الخاصة بقيمة المكافآت التي تمنح للأجانب مقابل ما يقدمونه من هدايا تتألف من «صقور الباز، والعُقَابْ، والكلاب، والفهود». وكانت تلك الطيور مألوفة لدى الصينيين باعتبارها طيوراً تستخدم في الصيد، وبوسعنا أن نستنتج أن ذلك قد انطبق أيضاً على الفهود.

ومنذ زمن طويل دأب الإنسان على استئناس وتدريب الفهود على صيد الظباء، وقد استخدمها السومريون لهذا الغرض. أما الحطيون الأكثر جرأة فقد استأنسوا النمور الحقيقية واستخدموها في الصيد. وتظهر فهود الصيد تلك في الفنون المصرية من عهد الأسرتين الثامنة عشرة، والتاسعة عشرة، وحول رقابها عناقات ثمينة. كذلك فقد استخدمت الفهود الصيادة في الهند، وفارس، وأرمينيا، والحبشة، وشمال أفريقيا، وألمانيا في القرن السابع عشر، وفي فرنسا في القرن الثامن عشر. وهناك روايات عن أمراء المغول الذين كان الواحد منهم يصطحب معه ألف فهد في رحلات الصيد الكبرى.

تلك كانت شعبية ذلك الحيوان في غربي وجنوبي آسيا، ومن ثم لا بد أن عرفه الصينيون في عهد تانج رغم ندرة الإشارة إليه ولو رمزاً في النصوص التي ترجع إلى ذلك العصر، الأمر الذي قد يعني أن استخدامه قد اقتصر على دوائر البلاط، ولمدة قصيرة جداً. وهكذا يتعين علينا عدم ضم الفهد الحقيقي إلى قائمة العجائب والغرائب في الشرق الأقصى، على أن يحل محله الفهد الصياد.

السَّمُّور والقاقوم

تفيد سجلات الجزية في عهد تانج بورود هدايا من منشوريا في أوائل القرن السابع عبارة عن حيوان عرف باسم «فنج تياو»، أولاً من خلال رسالتين من الخيطانيين، ثم من خلال رسالة من جيرانهم إلى الشمال على نهر كيرولن والذين كان الصينيون يسمونهم «سايت–جي» (شيه ويه حالياً). ومن سوء الحظ لم يرد اسم ذلك الحيوان إلا نادراً في أدب تانج، وإن كان مألوفاً إلى حد ما في نصوص القرنين الخامس والسادس، خاصة في الأشعار حيث وردت إشارات مجازية إلى الذيل اللامع الجميل لحيوان يشبه الدَّلق. ووفقاً للعادات القديمة كانت هذه الذيول (ومعها زيز الحصاد) تستخدم في تزيين القبعات الرسمية أو الاحتفالية، خاصة تلك التي كان ضباط الجيش يرتدونها، ويبدو أن هذه الصرعة قد انتشرت تحت تأثير البدو الرحل الشماليين.

ولقد التصقت الصفة «فنج» بالحيوان الذي كان مصدراً لتلك الذيول الثمينة والمرغوبة، ومعناها في اللغة الصينية «أملس، وناعم، وممتلئ، ولامع»، ومن ثم «مفضل». أما الاسم «تياو» فقد خلع على الدَّلق، والعرسة (ابن عرس)، والقاقوم (من فصيلة ابن عرس كذلك)، وما شابههما، وإن خُلع الاسم في شمال الصين بشكل عام على الدَّلق الحجري. وكان من بين الحيوانات التي تقدم على سبيل الجزية حينذاك الدَّلق، وابن عرس، وهذه حيوانات من منشوريا وسيبيريا وكانت تنتج أهم ملحقات القبعات الخاصة بنبلاء وزعماء الشمال، وكانت على الأرجح السمور، وربما القاقوم. ويظهر كل من «التياو الأسود»، و«التياو الأبيض» (أي السمور والقاقوم) بشكل متكرر في أدب العصور الوسطى.

وربما كانت العينات التي أتت في إطار الجزية (ويفترض أنها كائنات حية) لمجرد العرض والتسلية في الحدائق الإمبراطورية، أو ربما لغرض التناسل والتكاثر لتوفير الذيول. ولدينا المزيد حول الذيول والجلود وسوف نطرحه لاحقاً.

الغزلان، أو الشّمواه

لقد سبقت الإشارة إلى سفارة «روما» الغامضة لدى تانج، من خلال وكالة الوسطاء التوشاريين، وذلك في إطار الحديث عن الهدية التي قدمتها والتي تألفت من زوج من الأسود. ولقد أتت السفارة ذاتها بزوج من الحيوانات التي أسماها الصينيون «ماعز لينج». ومما يُصَعِّب التعرف على الماعز حقيقة أن الاسم (في المضمون الصيني) واضح تماماً: فكلمة «لينج» تعني «مقدس، خارق للطبيعة»، كما أن جورال تعني «الماعز الجبلي». أما في العالم الغربي فإن الماعز وأقاربها (ربما في ذلك الشمواه الأوروبي، والماعز الجبلي الأمريكي) يُشار إليها مجتمعة بـ «الظبي الماعز»، وذلك نظراً لأنها تشبه كليهما. لكن الجورال غير معروف في غربي آسيا وأوروبا حيث تعيش في الأجزاء الجبلية في الصين، في الشمال وفي الجنوب وكان لحمها يشكل طعاماً للشماليين والجنوبيين على حد سواء في عهد تانج، واستخدمها الجنوبيون بصفة خاصة كترياق لمعالجة لدغة الثعبان. كذلك فقد كانت لقرونها أهمية خاصة كمادة طبية، ومن ثم كانت ترسل للبلاط في إطار الجزية القادمة من المدن الجبلية في جنوبي شنسي وشمالي شزوان، وكانت القرون تسحق ويخلط المسحوق بعسل النحل، وكان ذلك دواءً يشفي من كافة أنواع الحمى الشديدة. ولقد كانت لقرون ماعز لينج خصائص أخرى، وهناك رواية قديمة تفيد بأنها كانت من القوة بحيث تقطع الماسات الكمبودية ذات اللون الأرجواني. وفيما يلي نص آخر للرواية ذاتها ويرجع إلى القرن السابع:

«وخلال عهد (الناظر المبجل) كان هناك راهب براهمي متسول زعم أنه قد حصل على إحدى أسنان بوذا، وأنه ما من شيء جامد يستعصي عليها كسره. ولما وصل ذلك النبأ إلى فو الأول قال لابنه: هذه ليست من أسنان بوذا، فلقد سمعت عن حجر جامد هو أقوى من الجوامد، ولا يباريه شيء سوى قرن ماعز لينج، وسوف يسحق السن المزعومة. اذهب بحثاً عن ذلك القرن وجرِّبهُ بنفسك!!

وكان الراهب المتسول قد احتفظ بالسن في مكان خفي، لكن الشاب توسل إليه بعناد، وبعد فترة طويلة كشف الراهب المتسول عن السن، وأخرج الشاب القرن وطعنها به فتحطمت تماماً على يديه».

فهل كان هذا قرن جورال؟ وهل كان لدى الراهب المتسول إحدى أسنان بوذا بالفعل، أو أنه كان مجرد ماسة، أو لا هذه ولا تلك؟ الواقع أن مغامرة ابن فو الأول ونزعته التجريبية المندفعة تلك لا تجيب عن أي من تلك الأسئلة. فما هي حقيقة «ماعز لينج» التي أتت من روما؟ لن يكون أمراً عجيباً أو غريباً إن كانت هذه هي حيوانات الشمواه التي تعيش في القوقاز أو الكارباث، وهي من أقارب من درجة بعيدة لحيوانات السيرو والجورال. وقد تكون أيضاً نوعاً جذاباً آخر من الحيوانات الغريبة التي تحمل شبهاً ما بالجورال، مثل الغزال الفارسي، والغزال العربي، أو الغزال السوري الصغير الجميل الذي جعلته إلفته وقابليته للتدريب وطبيعته الرقيقة من الحيوانات المدللة في الشرق الأدنى.

ذوات الحوافر الغامضة

يحتمل أن تكون «الماعز التي لها حوافر كحوافر الخيل» والتي قدمها التبتيون والأتراك كهدية مشتركة لبلاط تانغ في عام 647 —يحتمل أنها كانت نوعاً غريباً من الظباء. وفي العام ذاته قدم أسير—تاردوش هدية عبارة عن حيوان يشبه الآيل وله قرون تشبه قرون الثور، ويحمل اسم «بارلان»، أو «بالاّن»، وهو اسم قد ينطوي على ارتباط ما بـ «بولان»، وحيد القرن الذي عرفه أتراك العصور الوسطى، والذي «كان قرنه مكاناً لتجمع الأمطار والجليد». بل قد يكون هو نفسه وحيد القرن آكل اللحم والذي صرعه (في أسطورة لاحقة) البطل الأجهوري أوجوز كواخان. وربما كان جوران التانجوس والمغول—ذلك الظبي القبيح ذو الأنف الكبير (ظبي سيجا)، وأخيراً ربما كان الباهارال!.

آكل اللحم الغامض

كانت بلاد اسمها «جاڤياب» (ربما ارتبط الاسم بكلمة «جاڤيا» السنسكريتية والتي تعني «ملائم للماشية»)، وهي بلاد لا يمكن تحديد ماهيتها الراهنة –كانت قد أرسلت للإمبراطور كاو تسونغ عند اعتلائه العرش دُبّاً مخيفاً يعرف باسم «تيان تيت» (ربما تنتر أو نحو ذلك)، وكان يفترس الأفيال البيضاء والأسود، وبذا لا يمكن تصور وجود من هو أشرس منه. وفي القرن السادس عشر بلغ تأثُّر لي شيه–تشن به حداً جعله يكتب عنه فقال: «مهما كانت وحشية الأسد فهناك من يستطيع السيطرة عليه!!». وبالكاد كان ذلك المخلوق الرهيب دُبّاً بني اللون، فهذا الدب رغم ضخامته حيوان نباتي أساساً. أما الدب الأسود الذي يعيش في جبال الهمالايا فهو أصغر نسبياً، وإن كان نهِماً من حيث أكل اللحم، ويمكن القول بأن هذا الأخير هو الذي اكتسب الشهرة بصفته آكلاً للأسد.

المرموط

قد لا يكون ملائماً أن نضع مرموط جبال الهمالايا ضمن الحيوانات المثيرة للدهشة والعجب، وإن كان يعيش على ارتفاع خمسة عشر ألف قدم تقريباً على حواف التبت، وداخل حدود مقاطعات شزوان، ويونّان الصينيتين. ولقد سمى الناس في عهد تانج ذلك الحيوان باسمه المنغولي: «تارباجا»، وهو اسم ينطبق بشكل أكثر دقة على ابن عمه المنغولي الرائع. وفي اللغة الإنجليزية أيضاً يعرف الأخير باسم «تارباجان». وكان أهل التبت في عهد تانج يهوون إزاحة تلك القوارض الصغيرة من جحورها الصخرية ويأكلونها. ولقد وصف تشن تسانج–تشي وجبة التارباجان المغلي غلياً بطيئاً، والتي كانت تقدم كعلاج للمرضى الذين يعانون من داء الملوك (سُلّ الغدد الليمفاوية وبخاصة في العنق/ المترجم)، ولنا أن نفترض أنها كانت تستورد من التبت لذلك الغرض. وعلى أية حال فقد كان

المرموط يأتي إلى البلاط في إطار «الجزية المحلية» مع المسك ورقاقات الذهب من مدينة لان–تشو في مقاطعة لونج–يو (كانسو حالياً) التي تقع بين مواطن المرموط بين منغوليا والتبت، الأمر الذي لا يجعلنا قادرين على تحديد مصدر «جرذان التارباجا» تلك.

النموس

يقول نص يعود لعام 642:

«وفي ذلك العام أرسلت بلاد كابيسا بعثة لتقديم فأر نودي، وكان ذا خطم حاد وذيل أحمر، وكان قادراً على التهام الأفاعي. فإذا تعرض إنسان للدغة من ثعبان سام فإن ذلك الفأر يشتم رائحتها دون خطأ ويتبول عليها ويلتئم الجرح من فوره».

وبعد ذلك بعشر سنوات أرسلت البلاد ذاتها إلى تانج حيوانات «موهوبة» أخرى، وبالتأكيد كانت هذه هي نموس الهند وجاوه والتي كان اسمها في اللغة السنسكريتية «ناكولا»، وتسمى «نيوال»، و«نيولا»، و«ناياوول» وما شابه ذلك في اللهجات الهندية. ولقد كان لدى جنوب الصين نوع من النموس يتغذى على سرطان البحر، ولكن لا يبدو ثمة ارتباط بينه وبين أقرانه الأجانب المتوحشين. ولا نعرف ما إذا كانت النموس الهندية لدى بلاط تانج قد أثبتت جدارتها التي اشتهرت بها، أو ما إذا كانت قد تناسلت هناك:

«هناك أشخاص يحبون ذلك الحيوان ويجعلونه ينام معهم وذلك على الرغم من حدة طبعه، فهم يفضلون عضة النمس على لدغة الثعبان».

وتلك فكرة فلسفية هندية، وربما لم يأخذ الصينيون بها.

ابن عرس، أو ابن مِقرض

«قدمت بلاد فارس جارنودجاً يشبه الفأر الكبير وإن كان لونه يميل للأزرق، وطول جسمه سبع أو ثماني بوصات، وكان قادراً على النفاذ إلى الجحور لاصطياد الجرذان».

وقد ينطبق ذلك الوصف على ابن مِقرض الذي كان يستخدم في الأزمنة البعيدة لاصطياد الفئران والأرانب بعد أن استأنسه الإغريق والرومان، وحتى جانكيز خان بكل قوته وجلالته لم يكن يخجل من الصيد باستخدام ابن مقرض هذا. ومن ناحية أخرى كان الناس يحتفظون بابن عرس (العِرسة) في منازلهم باعتباره صائداً ماهراً للفئران، بل كان بمثابة حيوان مدلل لدى السيدات في العالم القديم.

فأي هدية أنسب من ذلك الحيوان كان يمكن للفرس تقديمها؟ سؤال ليس بوسعي الإجابة عليه.

أنت الطيور .. ذهبية وفضية..

أنت بوهج أجنحتها الومضية..

هكذا تراءت لي في السماء..

كسرب بلا أسماء..

تغرد بترانيمها..

أغنية الأغاني..

كريستيانا روزتي «طيور الجنة»



الفصل الخامس

الطيور



الطيور

كان الصينيون في عهد تانج يربون الطيور ويدربونها على القيام بمهام نافعة (الصقور من أجل الصيد؛ والحمام لنقل الرسائل)، كما كانوا يأكلون لحومها ويستخدمونها في صنع الأدوية والعقاقير، وفوق هذا وذاك كانوا معجبين بها. وبطبيعة الحال فقد نالت الطيور الأكبر حجماً والأكثر جمالاً الاهتمام الأكبر، كما حظيت الطيور التي جلبت من بلدان نائية بأشد الإعجاب، ومن ثم تظهر في الأدب كما سنتبين لاحقاً، وكذا في الفنون الأخرى. فعلى سبيل المثال هنالك لوحة ين لي-بن بعنوان «عجائب الطيور في متنزه الربيع»، وهي لوحة لم يكتب لها البقاء للأسف الشديد.

وكانت الحدائق والمتنزهات في عهد تانج تمتلئ بطيور عجيبة وجذابة، وكان بوسع هواة جمع الطيور في البلاط الإمبراطوري اقتناء أعداد كبيرة منها، بل كانوا يقتنون الطيور الأغلى ثمناً لمجرد المتعة. ومن أمثلة هؤلاء هسوان تسونج الموهوب المتهور الذي أرسل أغاواته في عام 716 إلى المنطقة الواقعة جنوبي نهر يانجتسي:

«.... لكي يجلبوا طيور البلشون (مالك الحزين)، والبط ذا العنقود لوضعها في المتنزه الإمبراطوري، وحيثما ذهب هذان المبعوثان كان هناك لغط ومتاعب. وبعد أن شقّ ني جو-شوي طريقه عبر باين-تشو قال لجلالة الإمبراطور: على الرغم من أن المزارع والبساتين قد أصبحت في حالة حرجة الآن فإنهم يصطادون الطيور بالشباك لتوريدها للحدائق والبرك، وهذا من الكماليات بطبيعة الحال، ومن المناطق التي تبعد كثيراً عن النهر، وعبر الممرات الجبلية تنقل الطيور تحت الحراسة براً أو نهراً، ويقدمون لها الحبوب أو اللحم كغذاء، الأمر الذي يوحي للمارة أن جلالتكم تقدرون الطيور بقدر ما تحتقرون الإنسان!! وبالنسبة لجلالتكم فإن

العنقاء لا بد أن يكون طائراً عادياً، والكركدن وحيد القرن حيواناً عادياً كذلك فما هو تقدير جلالتكم للبلشون والبط ذي العنقود!! وما هي مبررات احترامهما؟ وعليه فقد أصدر جلالته تعميماً كتبه بيده عبر فيه عن شكره لـ جو-شوي وأنعم عليه بأربعين قطعة من القماش الثمين، وأطلق سراح تلك الطيور حتى تتجه إلى حيث تشاء».

ولعلّ ني جو-شوي هذا قد كان من رعاة الفضيلة، وما ذكره يعبر بقوة عن الاتجاه المحافظ الذي ظهر في الصين في العصور الوسطى. ويبدو أن حملات صيد الطيور تلك كانت تسبب متاعب حقيقية، وكان من سمات هسوان تسونج -رغم عشقه للكماليات- تلك الحساسية الفائقة التي كانت تجعله سريع الاستجابة لأي التماس إنساني.

الصقور

كان الصيد بالصقور (القنص) فناً مألوفاً في الصيد منذ القرن الثالث قبل الميلاد. ويقال إن كبير الوزراء لي سزو قد تحدث عن صقره الرمادي المفضل عندما حانت ساعة تنفيذ حكم الإعدام فيه (أي كبير الوزراء). ولاحقاً حظيت تلك الرياضة باهتمام كبير في شمال الصين، خاصة تحت حكم التتار في القرنين الخامس والسادس عندما أُثريت الثقافة الصينية بعادات وفنون السهول القاحلة والغابات الشمالية. وينطبق هذا بصفة خاصة على دولة تشي الشمالية في القرن السادس.

وواصلت الرياضة شعبيتها تحت حكم أباطرة تانج، خاصة عندما كان حاكم قوي مثل تاي تسونج، أو هسوان تسونج يضرب مثالاً حماسياً في هذا الصدد. ولكن الأمر قد اختلف تماماً في ظل الحكام الذين تأثروا بشدة بمبادئ الأخلاق التقليدية المتزمتة والتي في ضوئها اعتبرت رياضة الصيد بالصقور أمراً تافهاً. فعلى

سبيل المثال وضع كاو تسونغ (في القرن السابع) حَدّاً لجلب الصقور والعقاب في إطار الجزية، وهذا هو تي تسونغ (في القرن الثامن) الذي أمر بتفريغ الأقفاص الكبرى الموجودة في حدائق القصر وتفكيك المسرح الإمبراطوري. وفي القرن التاسع استهل هسي تسونغ حكمه بأن حذا حذو كاو تسونغ.

وفي الأقفاص الكبرى بالقصر، وإلى جانب الجزء المخصص لكلاب الصيد كانت هناك أربعة أنواع من صقور الصيد، وكانت النسور، خاصة النسور الذهبية أندرها وأنبلها وأروعها. كذلك العُقَاب ذو العيون السوداء والأجنحة الطويلة أكثرها رشاقة «وأرستقراطية» يستخدم في صيد مالك الحزين وغيره من الطيور الطريدة الكبيرة، والباز (الجوال) في صيد البط وغيره من الطيور المائية. ومن الجوارح ذات القيمة الخاصة الصقر اللولبي (السنقور الأبيض)، وكان تاي تسونغ نفسه قد اقتنى واحداً من هذا النوع وأطلق عليه اسم «قائد الجيش». وكان من أفضل الطيور من هذا النوع «الصقر المصقوع» الذي كان يستورد من منشوريا:

«يتبختر على ماء البحر - ذلك الباز الغريب،
يعبر الأراضي الخاوية - ذلك الصقر المصقوع».

وفي المرتبة الثانية أتى الباشق، وهو نوع من الصقور صغيرة الحجم نسبياً وقصير الأجنحة، وكانوا يفضلونه لصيد السُّمَّان وغيره من الطيور الطريدة الصغيرة في المناطق ذات الأشجار الكثيفة. وأخيراً هناك النوع الأكثر شعبية بين صقور الصيد كلها -الصقر ذو العيون الصفراء، وهو من أقرباء الباشق (الأكبر حجماً)، والذي كان يستخدم كذلك في الصين في الغابات -صيد الأرانب البرية، والدّرج (طائر ذيال شبيه بالحجل/ المترجم)، إلى جانب الطيور الطريدة التقليدية. ومن الأنواع التي حظيت بقيمة عالية ذلك الباز الذي أتوا به من منشوريا وكان ذا ريش أبيض، وإن لم يقلل هذا من قيمة الباز الأسود، وفي هذا الصدد كتب توفو قصيدتين وهذه هي القصيدة الثانية:

«لايمكن أن تعثر على الباز الأسود بين البشر؛

فهو يطير فوق البحار، كما لو كان قد أتى من القطب الشمالي؛

يضرب الريح بريشه وهو يعبر الأراضي الحدودية الأرجوانية،

وعند بداية الشتاء ظل عدة ليالٍ عند الشرفة الشمسية.

ولقد نصب الصيادون الشباك له في كل مكان، ولكن عبثاً حاولوا،

وينظر إليه إوز الربيع بعين الخوف والحذر.

ووسط الأراضي الخاوية، وتحت البرد الشديد يطير يوماً كاملاً؛

لكن هذه المآقي الذهبية، وتلك المخالب الزمردية ليست من النوع العادي».

وكان لدى أحد أمراء هسوان تسونج باز أحمر اللون، وقد اقتناه على سبيل المنافسة مع أمير آخر كان لديه باز أصفر اللون، وقد أطلق المسؤول عن الصقور بالقصر على كليهما اسم «مقتحم السحاب».

ومما لا شك فيه أن أعداداً كبيرة من صقور الصيد في عهد تانج كانت قد جاءتها من بلاد أخرى، وأن غالبية هذه أتت على سبيل الجزية. ففي عام 866 أرسل تشانج آي–تشاو، حاكم تون–هوانج المستقل أربعة بازات خضراء إضافة إلى عدد من النساء التبتيات، وزوج من الخيول. وفي عام 715 أرسل زعيم منشوري زوجاً من البازات البيضاء. وخلال القرن الثامن أرسلت بو–هاي الواقعة عند رأس شبه الجزيرة الكورية عدداً كبيراً من الصقور والنسور. ولقد وصف الشاعر تو كونج طائر صيد نادراً كان قد جاء من سيلا (في كوريا كذلك) فقال:

«امتطى الحاكم المستبد صهوة جواده، والوقت.

هو الخريف في متنزه تابون،
وأتى الباز الذي بحوزته من الرأس الشرقي
للبحر.
وعندما يفرغ جلالة إمبراطور هان من أعماله،
يجد وقتاً للصين،
ويحمل الباز على ذراعه، والباز تواق
للانطلاق».

وكانت كوريا ومنشوريا المصدر الأساسي للصقور والنسور المتميزة، وفي المقام الثاني أتت منغوليا وتركستان. ومع ذلك لا يمكن إغفال صقور شمال الصين، وتلك التي كانت ترد من شمال تايلاند فيما يعرف الآن باسم شانسي، فهذه بصفة خاصة كانت تعتبر من «الطيور النبيلة».

وأفضل تلك الطيور الصقور السوداء والبواشق التي كانت تأتي من هوا—تشو بالقرب من التقاء نهر وي بالنهر الأصفر فيما هو الآن شانسي الشرقية، وكان الحكام يطالبون بها في إطار الجزية.

ولدينا معرفة كبيرة بالأسلوب الذي كان متبعاً في تانج لتصنيف الصقور، وذلك من خلال مقالة حول رياضة الصيد بالصقور، وهي أقدم ما آل إلينا من كتابات تلك العصور القديمة، وقد كتبها مؤلف من القرن التاسع هو توان تشنج—شيه، وهو نفسه من هواة الطيور، ويدين له كتابي هذا بالكثير. فقد وصف هذا الكاتب أنواع الباز الصينية العديدة، وأعطى لكل نوع اسماً، واعتمد في ذلك أساساً على ألوان الطيور، وإن أشار بعض الأسماء إلى مواطنها كذلك. ومن بين هذه «الباز الصائد للأرانب البيضاء»، وهو من طيور الصيد الممتازة، و«الصقر الأصفر»، و«الصقر ذو البقع الحمراء»، و«الصقر الأبيض» من الصحارى الرملية شمالي شانسي، و«صقر فانج – شان الأبيض» الذي موطنه غابات الحور في شمال غربي هوبي،

«الصقر الأصفر الترابي» الذي موطنه غابات البلوط في الشمال، و« الصقر الأبيض/ الأسود» الذي يعيش في المناطق التي تكثر فيها شجرة الحياة (الأشجار دائمة الخضرة).

ولقد عرف صينيو العصور الوسطى فن صيد وتدريب الصقور لأغراض الصيد، ولذا لم يكونوا بحاجة لخبراء أجانب في ذلك المجال. فعندما كانت الصقور الصغيرة تطير فوق رؤوسهم يقومون بصيدها بالاستعانة بالحمام كجواسيس، والشباك الخداعية المصبوغة بالفلودندرون، وسائل البلوط على سبيل التمويه والحماية ضد الحشرات. وثمة وسيلة أخرى وهي انتزاع الفراخ الصغيرة من أعشاشها على أشجار البلوط والحَوْر. ولقد دأب الصينيون على وضع أجراس من الياقوت والذهب وغيرها من المعادن المرصعة في ذيول الصقور، كما كانوا يزينون ذيول البواشق بعناقيد مطرزة. وكانت كافة طيور الصيد تزود بأحزمة صغيرة مصنوعة من الجلد أو الحرير الأخضر، وأطواق ذات مراود زمردية، ومجاثم مذهبة،كما كانت توضع في أقفاص كبيرة منحوتة ومصبوغة.

ولقد كانت الصقور –المحلي منها والأجنبي على السواء –مادة مفضلة لدى رسامي عهد تانج. ولقد قيل إن لي يوان–تشانج، شقيق تاي تسونج، كان رساماً للطيور فاق كلاً من ين لي–بن، وين لي–تي. وفي عهد هسوان تسونج الذهبي كان هناك العديد من رسامي الطيور، وكان أفضلهم تشيانج تشاو (الذي كان مقرباً من الإمبراطور الرياضي)، وقد ألهمت لوحته (الباز ذو القرن) الشاعر توفو، الذي نظم قصيدة حولها. ويبدو أن هذا الباز كان نسراً، أو نسراً ذا عرف، وهو «الباز الملكي» الذي يرد في كتب الصقور الفارسية.

وتظهر الصقور والنسور والبازات بشكل واضح في أشعار تانج، وفي شكل رمزي غالباً. «.... في تشبيه أو استعارة: العين الوامضة؛ والانقضاض الخاطف؛ والضربة التي تصيب بالشلل، كلها كانت مألوفة في الشعر الصيني بقدر ما كانت

كذلك في الشعر الغربي، كذلك فإن صورتها كجوارح ضارية، جعلتها مادة دسمة في المعالجة الشعرية للفضائل.».

فهذا هو الشاعر تشانج هسياو–بياو يرى في الصقر المدرب شعاراً للجرأة والروح المتحررة وقد أصبح قيد الأسر:

«يرصد السهل المستوي البعيد حيث ترتع
الأرانب البرية؛

ويلف منقاره المسنون ألف مرة– ويهز معطفه
الريشي؛

دعه ينطلق، حرره من الحبل الحريري الذي
يربطه...!!

فهو لن يجرؤ على الطيران من دون إذن من
إنسان».

ويضاف إلى ذلك ارتباط تقليدي بين صقور الصيد والاتجاهات الرئيسية، والغرب بصفة خاصة، وإن كان هذا ارتباطاً تقليدياً مصطنعاً. «كان الغرب هو اتجاه الخريف، وفي ذلك الفصل تترك الصقور أوكارها الشمالية وتهاجر في اتجاه الجنوب فوق سهول الصين». وكان ارتباطها بالشمال أكثر واقعية نظراً لكونه موطنها الطبيعي، وموئل البرابرة الذين أحضروها للصين:

«الطائر الڤيتنامي يأتي من الجنوب،
لكن صقر هو يأتي من الشمال....».

وتلك كلمات للشاعر لي بو. وفيما يلي رباعية صغيرة حول جندي شاب نظمها هسويه فنج، وفيها يبدو الـ «هو» (البربري من الشمال أو من الغرب) وكأنه الباز ذو العيون المائلة للون الأخضر (معذرة ها هنا: فعيون الباز كانت تميل للون الأصفر، بينما عيون الصقر سوداء)، وهي إشارة إلى عيون البرابرة الزرقاء أو

الخضراء والتي تنم عن الجرأة والشجاعة:

«هذا هو ذو عيون خضراء كالصقر، ويضع قفازه المقصب؛

ويعتطي جواداً رمادياً مزيناً بخمس زهور وعلى ظهره فرو القاقوم،

ويروح ويجيء في الأسواق الثلاثة، لكنه لا يعرف أحداً؛

ويلقي بسوطه ذي المقبض الذهبي، ويصعد إلى برج النبيذ».

وبالأسلوب نفسه كانت الصقور الأجهورية «صقوراً دَوّارة»، ومثلما كان الفهد الشقيق الأصغر للنمر، كان الباز الشقيق الأكبر للباشق، وكان الموظف الصارم جديراً بلقب «النسر الأسود».

ولقد كانت الجوارح تلك رمزاً للبسالة، وقد اعتاد قادة سرايا حرس الإمبراطورة وُو على ارتداء قمصان قرمزية اللون وقد رُسمت عليها صور للأسد، أو النمر، أو الفهد، أو الصقر، أو الباز. وثمة شكل أكثر بدائية للمضمون ذاته يفسر استخدام الباز في الطب في عهد تانج: فقد كان لحمه يؤكل للقضاء على نوبات «الثعلب البري»، «العفاريت المفسدة» حيث كانت المخالب تنزع وتحرق حتى تصبح رماداً، ثم توضع في الماء (وأيضاً لعلاج البواسير). وحتى برازها كان يلتقط ويحرق ثم يخلط مع ملعقة من النبيذ لعلاج تأثير الأرواح الشريرة (ولم يكن المريض ليعلم شيئاً عن تركيبة الدواء)، وبهذا ينقل الجوهر الوحشي نصف الأجنبي من الصقر الذي يشكل رعباً في المملكة الحيوانية إلى المريض لمنحه القوة التي يتغلب بها على الأشباح والأرواح الشريرة.

في الأزمنة الغابرة، أي قبل عهد أسرة هان، كان الطاووس الهندي هو النوع الوحيد من الطاووس عرفه الصينيون. وتقول إحدى الروايات إن عينة من ذلك الطائر الأنيق قد جاءت من بلد غربي (لم تحدده الرواية) إلى ثاني ملوك تشو، وكان ذلك -تقريباً- حوالي بداية الألفية الأولى قبل الميلاد. وقد لا نصدق تلك الرواية، أو نشك في صحتها على الأقل، ولكن الذي لا شك فيه هو أن الصينيين في عهد هان كانوا يعتبرون الطاووس طائراً غربياً في المقام الأول، وأن موطنه كشمير وبعض المناطق التابعة للملوك البارثيين.

وفي ذلك الحين عرف ذلك الطائر عن طريق أحاديث الرحالة ووصفهم له، وهذا في الوقت الذي كان يربى هناك على الطرف الآخر من العالم -في إيطاليا- الطاووس الهندي في جزر صغيرة غرست فيها أشجار، وكان يشكل طعاماً للأثرياء. وسرعان ما انفتحت الأراضي الجديدة، والتي أصبحت لاحقاً جنوب الصين الاستوائي، وهناك وجد الصينيون طاووس الهند الصينية الأخضر. وبحلول القرن الثالث جلبت عينات من ذلك الطائر الجميل في أقفاص معدنية، ذهبية وخضراء من تخوم تشامبا، ومعها جلبت البخور واللآلئ والعاج والببغاوات ومن وقتها ازداد الطلب بسرعة على تلك الطيور العجيبة. وفي عام 262 أرسلت مملكة وُو الجنوبية أحد ضباطها إلى تونجكنج لجباية ضريبة عبارة عن ثلاثة آلاف طاووس. ولقد أدى ذلك الإجراء وأمثاله من جانب الحكام المتمركزين وسط الفيتناميين (إن صح وصفهم هكذا في ذلك العهد المبكر) أدى إلى انتفاضة شهدت مصرع جابي الضرائب في العام التالي.

وعندما أصبح ساحل لينجنان الاستوائي مألوفاً للمستوطنين الصينيين فقد اتضح أن تلك الطيور المطلوبة بشدة موجودة بكثرة فعلاً على الأراضي الصينية، وبصفة

خاصة في منطقة الهند الصينية. وفي عهد تانج كانت ترسل إلى تشانج–آن على سبيل الجزية السنوية من جانب لو–تشو، لي–تشو في شبه جزيرة لويتشو، مصحوبة بالنسانيس غريبة الشكل، والببغاوات، والفضة. وبالنسبة للصينيين عرف الطاووس باسم «الطائر الڤيتنامي». وكان ذلك رمزاً عاماً لكل ما هو جنوبي حتى إن عاشق الطيور لي فانج (وقد عاش في القرن العاشر) قد أسماه «الزائر القادم من الجنوب» والذي كان يمشي مختالاً بريشه الزاهي في حدائق الشمال:

«يتحرك فيهز ذيله الذهبي،
يطير – فيرقص في ظل بحيرة الياقوت».

والواقع أن عبارة «الطائر الڤيتنامي» تلك وصف رمزي أدبي أكثر منه اسماً شائعاً. فقد اعتاد الناس على تسمية الطاووس بـ «طائر كونج»، وهو اسم غامض بقدر ما هو غريب. ويذكرنا ذلك بالإغريق الذين سموا النعامة «العصفور الليبي»، و«العصفور العربي»، والأغرب منهما «البعير العصفور»، كما أن اللاتينيين قد أسموها «عصفور ما وراء البحار». والواقع أن تلك الأسماء تُحَوِّلُ أحاديث الناس وقفشاتهم إلى لغة جادة. ففي اللغة الصينية القديمة كانت كلمة «كونج» تعني «عظيم»، ولكن ليس هناك ما يؤكد صحة تلك الجوانب اللغوية. فإذا كان الاسم الذي أطلقوه على الطاووس يعني «العصفور العظيم» فإن ذلك يبدو مضحكاً وغير مناسب لمثل ذلك الطائر الرائع.

وثمة خلاصة وافية شافية حول طاووس تانج، وقد وردت في دراسة حول جغرافية جنوب الصين وتاريخه الطبيعي قام بها فانج تشاين–لي في القرن التاسع، وهي بعنوان «نان فانج آي وُو تشيه»، وللأسف الشديد فقد فقدت وإن بقيت منها مقتطفات فى صورة استشهادات فى كتب أخرى:

«تكثر عصافير كونج في تشاو–تشيه، وفي لي، وأيضا في لو–تشو، وتعيش في أكثر الأشجار طولا في الجبال العالية، ، وهي في حجم الإوز، وعندما يصل طولها إلى ثلاث أو أربع أقدام لا تكون أقل من الكركي. ولهذه الطيور أعناق رفيعة وظهور مقوسة، وعلى الرأس ثلاث ريشات طول كل منها بوصة أو نحو ذلك. وتطير في أسراب، كل منها مؤلف من عدة عشرات، وتحوم حول سلاسل الجبال والروابي والهضاب. وعند مطلع النهار تختلط أصواتها، وصيحتها هي "توجهو". وللإناث ذيل قصير وتفتقر للونين الذهبي والأزرق. وحتى عمر ثلاث سنوات يظل ذيل الذكور قصيراً لكنه عند عمر خمس سنوات يصبح بطول قدمين أو ثلاث أقدام. وفي الصيف يخلع إهابه القديم وينمو الريش الجديد بحلول الربيع. وفيما بين الظهر والذيل علامات مستديرة خماسية اللون، وتتداخل دوائر زرقاء وذهبية وكأنها عملات. ويعشق ذلك الطير ذيله، وعندما يجثم على الجبال فإنه يختار المكان المناسب الذى يمكنه وضع ذيله عليه. وعندما تهطل الأمطار يبتل الذيل ويصبح ثقيلاً مما لا يمكنه من الطيران عالياً، ومن ثم يسهل على الناس فى الجنوب الإمساك به. وأحياناً يختبئون حتى يمر من أمامهم وعندها يقطعون ذيله حياً، فهذا أحد منتجاتهم المحلية. وأحيانا يقوم سكان الجبال بنزع الفراخ من أعشاشها ويقومون بتربيتها بطريقتهم الخاصة، وأحيانا يأخذون البيض ويجعلون الدجاجات ترقد عليه حتى يفقس، وتغذي الفراخ على أحشاء الخنازير، والخضروات الطازجة وما شابهها. وإذا سمعت تلك الطيور إنساناً يصفق أو يغني أو يرقص فإنها ترقص كذلك. وتتسم تلك الطيور بالغيرة، فإذا رأت شخصاً مرتدياً ملابس ذات ألوان زاهية فإنها تهاجمه بمنقارها».

وكان الصيادون ينشرون طاووساً خداعياً ويربطونه بحبال من رجليه، وعندما تنقض عليه الجوارح يلقون بشباكهم عليها. وكان هؤلاء الجنوبيون يستخدمون الطيور لأغراض أخرى، سواء كانت برية أو مستأنسة (بخلاف التجارة في

الريش)، فقد كانت طعاماً للأبيقوريين الرومان (وإن لم ينظروا إليه كطعام نادر فاخر)، وكانوا يقدمون لحومها للناس ليسدوا به رمقهم، أو يذبحونها لصنع لحوم محفوظة أو لصنع القديد. وكانت للحم تلك الطيور ميزة مهمة كمضاد للسموم النباتية والحيوانية، كما كان دم الطاووس ترياقاً للسم الخبيث شبه السحري المسمى "كو".

ومما أثار انتباه الجنوبيين بشدة الحياة الجنسية لتلك الطيور اللامعة، فهي لا تتزاوج ويحدث الحمل لمجرد اقتران الصوت أو الظل وفقاً لما كتبه دارس من عهد تانج تخصص في شؤون الجنوب. ويبدو أن حركة الأثير كانت مؤثرة بصفة خاصة بحيث إذا طارت الأنثى في اتجاه الريح، وطار الذكر في اتجاه معاكس للريح يحدث التلقيح (هكذا قيل). ووفقاً لتوان تشنج شيه نقلاً عن مصادر بوذية موثوق بها فإن إناث الطاووس تحمل جراء صوت الرعد، وزعم أن الطاووس يتسافد (يتحد بالاتصال الجنسي) مع الثعبان .

ولقد أشرنا لتونا إلى ما ذكره فانج تشاين–لي من أن الطاووس يتمايل مع الموسيقا الراقصة، وهذه كانت موضوعاً سائداً في أدب العصور الوسطى. فمنذ القرن الثالث ونحن نسمع عن طاووس أرسلته دولة أو منطقة غربية كان يفهم لغة البشر، ويرقص لمجرد طقطقة الأصابع. وتذهب إحدى الروايات إلى أن الدّرج (طائر طويل الذيل)، وربما العنقاء (فهما كبيرا الشبه) يرقص إذا شاهد صورته في المرآة، ولعل هذا ما يفسر وجود صور لهذه الطيور على ظهور المرايا في عهد تانج. وبالمثل فإن الطاووس الراقص يفسر شيئاً من الاختيال الذي اشتهر به ذلك الطائر. وكان ملوك سيلا يقدمون الطاووس كهدية في نهاية القرن الثامن.

ولقد نقل رسام الطبيعة الكبير بيان لوان رقصة الهز تلك، وقد رسم الكثير من الصور للطاووس قدر لها البقاء حتى عهد سونج حيث سجل الدليل الفني الخاص بالإمبراطور هوي تسونج لوحتيه «الموز والطاووس»، «والخيول القزمة

والطاووس»، وغيرهما. وكان هذا الفنان قد هجر البلاط لينضم لمجموعة الرسامين البوهميين.

ولقد أثرى الأدب البوذي الصور البلاغية المتعلقة بالطاووس، خاصة الرواية الخاصة بحمل الملك الطاووس، والتي تقول إن «الحاج» هسوان- تسانج قد روى قصة بوذا وقد تمثل في هيئة طاووس وكان يجلب ماءً شافياً من إحدى الصخور وبشكل إعجازي. كذلك هناك رقصة بورمية (انتقلت لاحقاً إلى تانج) تمجد الملك الطاووس المقدس. ومن الآلهة الأخرى التي كانت على هيئة الطاووس «ماها ما يوري ڤيدياراجي»، وكانت إلهة مفضلة لدى المؤمنين.بما ورد في النصوص الهندية والبوذية حول الممارسات السحرية. وفي الصين اشتهرت تلك الإلهة بالقدرة على جلب الأمطار وقهر الأرواح الشريرة المسببة للأمراض، وأحياناً كانت تتحول إلى ذكر، وصورت تلك الروح القوية جالسة على زهرة لوتس على ظهر طاووس. وهناك الكثير من الترجمات الصينية للحكم التي تدور حولها، منها واحدة من عهد تانج: آي- تشنج الشهيرة، وأخرى لأموجها ڤاجرا. كذلك هناك لوحات لذلك «الأمير اللامع» رسمها فنانون بارزون من أمثال ين لي-بن، وو تاو- هسوان.

الببغاوات

كان لدى الصينيين القدماء أسرابهم الخاصة من الببغاوات المحلية والتي كانت تعيش في جبال لونج بالقرب من طريق القوافل القديم وعلى طول ما يعرف الآن بمنطقة شنسي-كانسو الحدودية. وكانت هذه الطيور القديمة تسمى أحياناً «الطيور المقدسة في المناطق الغربية» نظراً لقدرتها على الكلام، وهي على الأرجح نوع من البركيت (ببغاء صغير هزيل) الأخضر ذي الصدر البنفسجي والمسمى

«بركيت ديربيان»، وهو الآن من طيور شزوان ويونّان وشرقي التبت ولكن لا يعرفه أحد شمالي خط عرض 30 شمالاً. ولسوء الحظ وقعت غارات متتالية على المستعمرات الأصلية في جبال لونج في العصور الوسطى بغية اقتناء طيور للزينة، الأمر الذي أدى إلى انقراض ذلك النوع من الببغاوات.

وفي القرن التاسع كتب بي جيه–هسيو مشفقاً على رجال لونج الذين كانوا مضطرين للمغامرة بحياتهم من أجل صيد الببغاوات حية لتقديمها على سبيل «الجزية المحلية» لكي توضع في الشرفة الذهبية بالبلاط الإمبراطوري، حيث قال:

«هناك في جبال لونج التي ترتفع لعدة آلاف من الأقدام–

تبني الببغاوات أعشاشها على القمم.

وحتى وإن حاولوا اكتشاف أخطار تلك الجبال

فإنها سوف تظل غاضبة.

يالغباء قوم لونغ أولئك،

يدقون الممرات في الجبال وكأنهم سوف يصعدون للسماء.

فإذا تجسسوا على تلك الأعشاش في الخواء،

فسوف يقاتلون بصخب لكي يستولوا على ما بها.

ولا يحصلون على طائر واحد من كل مئة.

ومن بين كل عشرة رجال يموت تسعة عندها.

ويصطف المجندون عند مجرى لونج؛

وهؤلاء ليسوا بعاطلين كذلك:

فوفقاً لما كلفوا به يتعين عليهم حمل الأقفاص المنحوتة،

والعودة بها مليئة إلى واجهة الشرفة المذهبة.
لكن ليست لذلك الريش قيمة في حد ذاته،
فذلك اللسان لا ينطق معبراً عن ذاته.
فإلى أي مدى يتواصل تلك الاستهتار بمصير الإنسان،
لمجرد المتعة والتسلية يحدث كل هذا؟
لقد سمعت عن ملك قديم قد ضرب مثلاً،
لقد امر بإطلاق سراح كل طيوره الثمينة،
لكن الآن يتعين على مثل قوم لونغ هؤلاء
البكاء والنحيب كل عام».

ومنذ حوالي القرن الثاني بدأت تظهر في الشمال سلالات جديدة من الببغاوات– الطيور الجنوبية التي ارتبطت رمزياً بالطاووس– وكانت هذه تأتي من بلاد قد خضعت لسلطان الصين: لينجنان، وفيتنام. وفي عهد تانغ ذاته تواجدت طيور البركيت ذات الدوائر الوردية، وذات الصدر الأحمر، وذات الرأس الأزرق أو الرأس الزهري– وكلها طيور جذابة بقدر جاذبية أسمائها– تواجدت في شبه جزيرة لويتشو، وبالقرب من أجزاء من كوانجتونج الغربية. وشأنها شأن الطاووس فقد كانت تلك الطيور الصغيرة ذات الشكل اللافت تمثل طعاماً لأهالي تلك المناطق، ولكن ذلك راجع أساساً إلى كثرتها، وإن كان ذلك دافعاً تافهاً لالتهام مخلوقات متوهجة كتلك، ويمكن مقارنة ذلك بمصير الببغاوات في الهند حيث كان يأكلها البراهمة باعتبارها طعاماً نبيلاً مقدساً، أو تلك التي كانت ترسل لروما حيث كانت تؤكل مع طائر البشروس المحمر (خاصة في الموائد الفاخرة لإمبراطور روما إلاجابالوس). وكان بعضها يرسل للخارج لكي يتنافس مع ببغاوات لونغ في أقفاص وحدائق هواة الطيور الشماليين. ولا بد أن هذه الطيور كانت متوافرة بكثرة، فحتى القرن العاشر كانت الببغاوات المحتفظ بها في حدائق لي فانغ تسمى

«زُوّار من لونج».

واعتباراً من القرن الثالث كان لبركيت الشمال الغربي والجنوبي منافسون خطيرون سرعان ما سلبوا منها مكانتها لدى الخبراء الذين كانوا على درجة من الثراء تمكنهم من اقتنائها. وتلك كانت ببغاوات الهند الصينية وإندونيسيا الرائعة، والتي كانت ترسل كهدايا من كبار القوم في تلك المناطق الاستوائية إلى الإمبراطور الصيني، أو التي كانت تجلب من أواخر الدنيا (فقد كان للببغاوات وجود في كل أنحاء العالم، وفي كافة العصور) بواسطة البحارة الذين يخرجون لرحلات طويلة، والتجار، الأمر الذي يثبت أن العوالم البعيدة تحمل صبغة تختلف كثيراً عن التلال المحلية:

«والآن يرفع الستار الشرقي؛
والآن تسطع عظمة من نوع آخر،
والآن يظهر الماكاو ذو الذيل الأرجواني،
وينزلق على الجداول الفضية».

والأشعار السالفة مأخوذة من أغنية أفريقية بعنوان «تشارتون» تناولت المجد الخالد للأماكن الغريبة، لكن الماكاو طائر أمريكي وليس أفريقياً، ولم يكن معروفاً في العالم القديم حتى العصور الحديثة. ولقد كانت الببغاوات التي جاءت إلى تانج مع البحارة والرحالة والدبلوماسيين أنواعاً جديدة من البركيت، والكوكاتو، واللُّور.

ولقد كان أكثر تلك الطيور شهرة البركيت واللُّور التي كانت تسمى في الصين «الببغاوات ذات الألوان الخمسة»، وكانت تحمل الاسم ذاته في الهند خلال العصور الوسطى، وللسبب ذاته فقد كانت تشع بكافة ألوان الطيف، بل ربما كانت التسمية الصينية ترجمة حرفية للاسم الهندي..

«عنقاري الملتوي،وعيني التي تشع بالفرح،
وريشي منتعش كالحشائش الخضراء،
وحول عنقي دائرة تشبه الياقوت الثمين،
وأرجلي الصغيرة، وأقدامي نظيفة،
فأنا المحبوب الجدير بخدمة الملكة....».

فهكذا كانت الشخصية الأساسية في قصيدة جون سكيليتون «انطق أيها البيغاء»، وهكذا فقد تكون هي البركيت العجيب الغريب في الصين. وقد وصلت إلى الصين كذلك «ببغاوات حمراء»، وتلك كانت بالتأكيد اللُّور القرمزي، والكوكاتو الوردي وموطنهما في أستراليشيا، شرقي خط والاس الذي يفصل بين مجموعتي الحيوانات العظيمتين في الأوقيانوس. أما «الببغاوات البيضاء» المشار إليها في الأدب الصيني فهي بوضوح تام كوكاتو من تلك البلاد البعيدة.

ولم يتبق من عهد تانج أي دليل حول ما كان يصل إلى البلاد من «ببغاوات حمراء» على سبيل الهدية، وإن كان من الثابت أنها كانت تستورد في السابق لكن «الدولة الهندية الجنوبية» كانت قد أرسلت ببغاءً خماسي اللون ومن النوع الذي يتكلم، وذلك مع بعثة أتت في عام 720 وهي بعثة شهيرة نظراً لأنها جاءت لتطلب جيشاً صينياً لتأديب العرب والتبتيين لقيامهم بالتمرد عدة مرات، وكان السفير الهندي ماهراً حاذقاً حين أوضح أن الأرواب والأحزمة كانت العلامات الأكيدة على النفوذ الصيني بين «البرابرة»، ومن ثم فقد منحه هسوان تسونج قفطاناً مُقَصَّباً وحزاماً مصنوعاً من الجلد المذهب. وفي القرن السابق على تلك الواقعة، قدمت تشامبا ببغاءً خماسي اللون أثار دهشة تاي تسونج الذي أمر بوضع أنشودة خاصة لتكريمه وامتداحه. لكن ذلك الببغاء وآخر أبيض اللون كان قد جاء معه اشتكيا مراراً من شدة البرد، فأصدر الإمبراطور مرسوماً خاصاً لإعادة تلك الطيور الذكية إلى موطنها الأصلي. كذلك فقد أرسلت دولة جبلية من شبه جزيرة الملايو (وكانت

غنية بالأفيال) ببغاءً خماسي اللون في عام 655. وفي القرن الثامن أتت الببغاوات من سريفيجايا، ومن طوخارستان (أحضرها السيد الأعظم «راما» نيابة عن كابيسا المجاورة)، ومرتين من كالينجا أوائل القرن التاسع. ولقد ظل أحد تلك الببغاوات متعددة الألوان والذي كانت له القدرة على الكلام؛ الطائر المدلل لدى هسوان تسونج الأعظم، فقد قالوا له إنه ربما كان الطائر المعجزة ذا الفأل الحسن الذي كان يعرف باسم «مسرة ابن البحر» والذي كان قد ظهر في كتاب مصور قديم ووصف بأنه ذو «رأس أحمر زاهٍ، وصدر وردي، وعرف قرمزي، وأجنحة خضراء».

وبالنسبة للـ (كوكاتو) الأبيض فقد أشرنا لتونا إلى ذلك الذي أرسلته تشامبا (وإن لم يكن أصلاً من طيور تلك البلاد، والذي من المؤكد أنه كان صيد في الجزء الأقصى من أندونيسيا)، وهذا هو الطائر الذي وصف على النحو التالي «ذو قدرة عالية على الفهم، ويتمتع بالذكاء والقدرة على التمييز، ويمتاز بالرد على الأسئلة».

ومن شدة إشفاقه عليه أمر تاي تسونج بإعادته إلى موطنه الأصلي في الغابات. ولقد قام الفنان ين لي–بن برسم الببغاءين الأبيض ورفيقه ذا الألوان الخمسة، وزعم الكاتب والناقد في عهد سونج، تشومي، أنه كان يمتلك تلك الصورة:

«ولقد احتفظت في بيتي منذ زمن طويل بصورة لبروم إيراب وهو يقدم الببغاوات.

ولابد أن هذا قد حدث في عهد الناظر المبجل في تانج. ونظراً لما راودها من حنين للعودة إلى مواطنها الأصلية فقد أطلقها تاي تسونج وسمح لها بالعودة مصحوبة بامرأتين. من هنا فإن تلك اللوحات الحقيقية من رسم ين لي–بن»

ومن طيور الكوكاتو البيضاء الشهيرة ذلك الذي يظهر في لوحة عنوانها «الفتاة المكسُوّة بالجليد»، وكان هذا هو الطائر المفضل لدى يانج كِوي في. وفقاً لرواية

منتشرة ومتكررة فإن ذلك هو الطائر الذي أطلقه مرافق الإمبراطور ليعثر قطع الشطرنج عندما كان الإمبراطور على وشك الانهزام، وبهذا أنقذ الكبرياء الإمبراطوري. ولقد سجل تشو فانج ذلك المنظر المؤثر (الذي هو شكل آخر لقصة الكلب المدلل الذي كان قد جيء به من سمرقند).

والأكثر لفتاً للأنظار كان ذلك الكوكاتو ذو الريشات العشر الطوال على عرفه، ولابد أنه كان الكوكاتو الرشيق ذا العرف الوردي والذي كان قد جاء من سيرام وأمبوانا على سبيل الهدية من سكان جزيرة بعيدة عبر البحار، وتبعد عن كانتون بما مقداره رحلة تستغرق خمسة شهور، وربما كانت إحدى جزر المولوك. ولقد جاء الرسل من تلك البلاد البعيدة ومعهم -إلى جانب ذلك الببغاء- الكافور، وطلبوا مقابلها الحصول على خيول وأجراس برونزية، وتقرر لهم ما طلبوا.

وبالنسبة لصورة الببغاء في المعتقدات عامة فقد قيل إن من يضرب الببغاء يصاب بداء مميت، داء سيتاكوزيس الذي تنتقل جراثيمه إلى الرئة عن طريق التراب الملوث ببراز الببغاء. وهناك أيضاً روايات معروفة تماماً، وغالبيتها من أصل هندي—حول الببغاء كجاسوس على خدم المنازل والزوجات الخائنات. وأخيراً فقد كان الببغاء رمزاً «للذكاء المسجون»، ويثير المبدأ القائل بأن الحكمة تؤذي صاحبها «.... قد يكون فقدان الحرية أمراً اختيارياً أو من أجل الغير، مثلما يصبح الببغاء رمزاً للعروس التي تتنازل عن حريتها لزوجها، أو الخادم الذي يضحي بمصالحه الخاصة في سبيل مصالح سيده.

وبالمثل هذه هي الرياش الزاهية التي يزهو بها أصحابها من الطيور تؤدي بها إلى الأسر والحبس والأسى».

النّعام

على الرغم من أنه ما من حيوان أو طائر قد أثار العجب والدهشة في الصين بمثل ما فعل النَّعام فإنه لم يأت إليها في عهد تانغ في القرن السابع سوى نعامتين. ولقد عرف الصينيون النعام من شهرته، حيث كان البارثينيون قد أرسلوا نعامة على سبيل الهدية قرابة عام 101. ومن المؤكد أن النعامتين اللتين جيء بهما إلى الصين كانتا عينتين من تلك السلالة التوشارية التي تشبه النعام الذي وجد في بلاد الشام، وصحارى الجزيرة العربية (حتى انقراضه عام 1941). وكان رأس ورقبة النعام البالغ أحمر أو وردياً، أما الريش فكان أسود لامعاً، مع وجود بعض الريش الأبيض على الذيل والأجنحة. وهذا هو الطائر الذي أسماه الفرس «آشتور ميرغ» «أي الطائر الجمل»، وهو الاسم الذي ترجم إلى اللغة الصينية وأصبح الاسم السائد لذلك الطائر في العصور الوسطى في الشرق الأقصى، وحل بذلك محل الاسم القديم «العصفور الأكبر في تياو–تشي»، والأخير يذكرنا باسم الطائر في اللغتين اليونانية واللاتينية. لكن الاسم القديم لم يتلاش تماماً، إذ ذكر تقرير حول بعثة أرسلها خان (أمير) الأتراك الغربيين في عام 620 أن المبعوثين قد قدموا «طائراً عملاقاً من تياو تشي». والأكثر شهرة ذلك «الطائر الجمل» الذي قدمته طوخارى في عام 650، وزُعِم أنه كان قادراً على الجري لمسافة تصل إلى 300 ميل صيني في اليوم الواحد ضارباً بأجنحته وهو يجري، وأنه كان قادراً على هضم الحديد والنحاس، ولعل تلك القدرة الأخيرة هي التي أدت إلى استخدام روث النعام كمادة طبية، إذ كانوا ينصحون من ابتلع (عن طريق الإهمال أو المصادفة) قطعة من حديد أو حجر أن يتجرع بعضاً من ذلك الدواء الغريب والذي سيقوم بإذابتها.

ولقد أهدى كاو تسونج ذلك الطائر التوشاري الأنيق لروح سلفه العظيم تاي تسونج، وذلك عند ضريحه، كما أن تمثالاً حجرياً للنعامة لا يزال يقف عند ضريح كاو تسونج إلى اليوم. وبالمثل يقف تمثال لنعامة (من أصل مجهول وإن شابهت

الواقع) عن قبر جِوِي تسونج.

ومن الألغاز المطلقة نعامة لي بو:

«الطائر الجمل المزركش يقف عند مصب النهر في الخريف—
وهو نادر على الأرض.يمثل ندرته في السماء:
ويقف طائر الجبل في خجل أمام الماء الشفاف؛
ولا يجرؤ على مشاهدة معطفه الريشي كما
تعكسه صفحة الماء».

وكما هو معروف فإن الطاووس وقليلاً من الطيور الأخرى تزهو بصورتها المنعكسة، لكن —وفقاً للرباعية الشعرية هذه فإن النعام يخجل من ذلك رغم ألوان ريشه الزاهية. فالزركشة أساساً هي من الصفات التي خلعت على الطاووس وأمثاله،فالطاووس الذهبي يسمى أحياناً «طائر الجبال»، وأحياناً «الطائر المزركش» نظراً لتعدد ألوان ريشه. فهل كان لي بو يتحدث عن نعامة شاهدها، أم عن نعامة سمع عنها؟.

الكالا فينكا

ترد في الأدب البوذي إشارات كثيرة لطائر الكالافينكا وصوته العذب، ولا يرد هذا المُغَرِّد العجيب من أجل ذاته؛ بل لأنه إحدى صور بوذا وصوته الذي كان يُعلِّمُ به كافة الكائنات الحقائق الكبرى حول طبيعة المعاناة، وعدم خلود العالم المادي. وعن الطائر ذاته كتب المعجمي البوذي هوِي-لن يقول: «هذا الطائر من الطيور الأصلية في الجبال المغطاة بالجليد، وهو قادر على التغريد وهو لا يزال داخل البيضة، وصوته متناغم ورائع، ولا يشبع الإنسان من سماعه».

وتتضمن فنون الشرق الأقصى الدينية إشارات غامضة إلى ذلك الطائر المقدس، وكثيراً ما خُلط بينه وبين الكينارا، الذي هو مخلوق مختلف حقاً. ولقد تجسد الكالاڤينكا هذا في باليه صيني من أصل هندي، وهو بعنوان «كالاڤينكا (وقد سبق أن أشرنا إليه)، ولا يزال العرض يقدم في اليابان، ويقوم بالرقص صبية ثبتت على أكتافهم أجنحة.

وقد يذهب البعض إلى أن مخلوقاً يقتصر وجوده كاملاً على الاستعارات الدينية وصناعة الأيقونات لن يكون له أثر في عالم الواقع. لكن ذلك –على ما يبدو– افتراض خاطئ. ففي أوائل القرن التاسع أتت إلى بلاط تانج بعثة من مملكة كالينجا، وقَدَّمت فيما قَدَّمت للعرش طائر الكالاڤينكا. فما هي ماهية ذلك الطائر الإندونيسي؟ إذا حاولنا التعرف عليه فإنه يتعين أن نجد طائراً يعيش بشكل طبيعي في كل من إندونيسيا والهند، ويتمتع بصوت واضح عذب، وهذا شرط يمكن الوفاء به بسهولة، ذلك أنه رغم بعض الاختلافات النوعية المحددة فإن بالمنطقتين الطيور ذاتها، وبعضها –في الواقع– من الطيور المغردة. لكن تشانج بانج–تشي، وهو كاتب صيني من القرن الثاني عشر، قد ضيق المجال بما كتبه عن معبد بوذي في تشيكيانج حيث قال:

«وعلى الطرف الدائري النائي للمعبد بني طائران من نوع الكالاڤينكا عشاً فيما بين الأعمدة والرافدة (أعلى السقف)، وكانا في حجم الدرنجو الأسود، وريشهما أزرق داكن، ولهما روعة الرفراف (مداعب ظله). وكان صوتهما عذباً واضحاً مثل الياقوت عند ضربه. وفي كل عام كانا يتكاثران وإن كانا قد حرصا على حمل صغارهما إلى مكان بعيد – أين؟ لا أحد يعرف».

وهكذا فإن ذلك الطائر الغامض يقارن بطائر الدرنجو الصيني، وهو مثله يحمل ريشاً معدني اللون وإن كان أزرق داكن وليس أسود، وصوته عالٍ ومُدَوٍّ بشكل ملحوظ. فهل عاش ذلك الطائر في كل من إندونيسيا (الجزر)، والهند؟ نعم، فهو

«درنجو الجنة»، والذي كان يعرفه العامة باسم «الدرنجو ذو الذيل الشبيه بالمضرب». وهناك سلالة جاوية من ذلك الطائر ريشها أرجواني لامع يميل للسواد، وذيولها زاحفة طويلة وتتميز بـ «سلسلة من الصفير المتناغم، وقدرة هائلة على التقليد». وبالنسبة للسلالة الهندية فقد وصفت بأنها «ربما كانت أفضل الطيور المغردة في الشرق».

وهكذا فقد تحققت كل الشروط: ففي الهند أصبح الطائر رمزاً للصوت الذي يملي القوانين –صوت المستنير (أي بوذا)، بكل ما للطائر من جمال وروعة وجرأة وصوت عذب يرن عبر تلال الغابات. وإلى تشيكيانج أتى زوج من نوع فرعي من الطائر ذاته (هندي –صيني، أو يوناني) في القرن الثاني عشر مما أدهش تشانج بانج–تشي. كذلك فقد أرسل ملك كالينجا طائر «درنجو الجنة» إلى تشانج–آن باعتباره من عجائب وغرائب الطبيعة، وشعاراً للعقيدة.

«كانت ذات شكل جميل .. وألوان باهرة..
ذات بقع قرمزية وذهبية..
ذات رقط خضراء وزرقاء..
وخطوط الحمار الوحشية..
مرقطة كالنمور..
وعيون كعيون الطاووس..
تمتلئ بشرائط قرمزية..
وتكتظ بأقمار فضية..
يزداد بريقها بعذب أنفاسها..
ويتجلى قوس قزح..
ليلامس مآسي البشر..
فتظهر من فورها كجنية..
عشيقةً لشيطان ما..
أو هي الشيطان ذاته..»
جون كيتس، «لاميا»

الفصل السادس
الفراء والريش

الفراء والريش

منذ نشأته والإنسان يميل إلى ارتداء جلود الحيوان وأرياش الطيور بعد انتزاعها من أجسام أصحابها، ولا يزال ذلك قائماً حتى اليوم. ففي البداية –على أية حال– كان ذلك يمثل طريقة سهلة لاقتناء «ملابس جاهزة» تكسب من يرتديها جمالاً وقوة سحرية، وتنعم عليه بالدفء والراحة، فهو –إلى حدٍّ ما– يصبح دُبّاً أو نمراً، أو بجعة، ويشارك تلك المخلوقات سماتها المدهشة.

وفي الصين القديمة كان الفراء الذي يوضع على الأكتاف يعطي مرتديه عظمة خاصة، وكان «الفراء العظيم» من امتيازات ابن السماء، الذي كان يرتديه مع التاج عند عبادة الآلهة العالية. ويقال إن سترته المقدسة كانت مصنوعة من جلد الحملان، وإنها قد زينت بأشكال وصور رمزية للكواكب والجبال والمخلوقات الأرضية.

وبمرور القرون أصبح الفراء علامة تدل على البدو الرحل، وأيضاً على المقاتل الصيني، وربما كان أيضاً الزي الشتوي لأهالي الشمال، وفي عهد تانج كانت هناك تشكيلة مُحيِّرة من الملابس المصنوعة من الفراء: ملابس من فرو الثعلب الأبيض، ومن فرو الدَّلق، وفرو السَّمُّور الأسود، وفرو النمر، «وفراء يساوي ألف قطعة من العملة المعدنية»، و«فراء الغابات الأرجواني»، و«الفراء الرمادي» وحتى «الفراء الكتاني الأبيض»، و«فراء النسيج»، و«الفراء القطني»، و«الفراء الصوفي الأحمر الضارب للرمادي»، وربما تكون بعض تلك الأسماء متضاربة مع ذاتها، كما يبدو أنها (أو بعضها) يشير إلى أردية بلا أكمام توضع على الكتف (أو الكتفين معاً) أو إلى معاطف تصنع جزئياً من المنسوجات وتُبطَّن أو تُكْسى بجلد الحيوانات. وأخيراً فإنها قد تشير بكل بساطة إلى أي قماش سميك يمكن أن يكون بديلاً

للفراء.

وفي عهد تانج كانت مقاطعة لونج-يو (وهي بشكل عام ما يقابل كانسو حالياً) أكبر إقليم منتج للفراء. وتشير السجلات الرسمية للجزية إلى أن تلك المقاطعة كانت ترسل (إلى جانب الذهب، وأحجار الشَّحْذ، والشموع، والمسك، والقطن) «قرون الحيوانات، والريش، والجلود المدبوغة وغير المدبوغة»، وليس هناك في السجلات ما يشير إلى منافسة أي مقاطعة أخرى لها في هذا الصدد. ومع ذلك كان أفراد البلاط يجلبون الفراء من اليابان وبلاد بعيدة أخرى. وعموماً فقد كان للفراء المستورد أصل شمالي، وإن جاء بعضه من الغرب الأقصى أيضاً، وكلها كان يحمل الطابع البربري (الأجنبي).

جلود الغزلان

اشتهرت بلاد خوارزم البعيدة بكونها مُصَدِّرة للفراء: «فرو السمُّور، والفرو المرقط، وفرو القاقوم وفرو ثعلب البراري والثعالب الأخرى، وفرو الدّلق، وفرو القنادس، وفرو الأرانب البرية، وفرو الماعز.....» وعلى الرغم من عدم توافر ما يفيد بأنه كان لترانسكسونيا أي تجارة تذكر مع تانج في الفراء فإن سفراء من خوارزم قد أحضروا إلى تشانج-آن بالفعل جلود الغزلان المصبوغة باللون الأرجواني في عام 753، كما أن الحرفيين العاملين بالقصر قد تلقوا جلود غزلان قرمزية لتصنيعها في ورشهم، وكانت قد أتت من بلاد فارس (إيران) عبر سيرنديا ثم إلى حدود إمبراطورية تانج. وكان الصينيون يسمون الغزال الإيراني «تشنج»، وإن كان «جلد التشنج» منتجاً صينياً محلياً كذلك، وكان من الخامات المفضلة في صنع الأحذية الطويلة.

وللأحذية الطويلة (ذات الرقبة) تاريخ طويل في الصين. فلقد أخذ الصينيون فكرتها عن البدو الرحل في الأزمنة الغابرة، واستخدمت أساساً كجزء من الزي العسكري، وظل طابعها الأجنبي ملازماً لها على الدوام. وحتى في عهد تانج نقرأ عن ابنة لأحد رجال بلاط تشانج-شا التي أدت رقصة التشاتش وبعدها:

«خلعت حذائها البربري الطويل

وأزاحت حجابها القرمزي» .

وحتى وقت اختراع الحذاء الطويل ذي العنق اللبادي المزين، في النصف الأول من القرن السابع، كان ارتداء الأحذية الطويلة مُحَرَّماً داخل الدوائر المقدسة — النتوء الدائري في طرف القصر (البازيلكا).

وكانت أفضل الأحذية الطويلة تصنع من جلد غزال تشنج (وكان يعيش بكثرة في كوي-تشو فيما هو الآن كوانجسي الشمالية). وكانت تلك الأحذية ضمن السلع التي تقدم للبلاط في عهد تانج في إطار الجزية المحلية. لكننا نعلم كذلك أنها كانت تصنع في فوكين (938). ويبدو أن تشنج هذا (ذو الجلد الناعم كان مألوفاً تماماً لدى صناع الأحذية في عهد تانج)، لم يكن سوى الغزال ذي الخصلة، والذي يشبه المنجق، وله أنياب طويلة، وقرون تكاد لا تُرى. ويعيش هذا الحيوان الجميل على طول الساحل الصيني جنوبي نهر اليانجتسي، وفي المرتفعات في الجنوب الغربي. ومع ذلك لا يمكن تحديد هوية الحيوان الذي أسموه «تشنج»، فالأدلة محيرة، ولكن المؤكد أن التشنج الايراني الذي يعيش في آسيا الوسطى ليس بالغزال ذي الخصلة.

وعلى أية حال فقد أصبحت الأحذية الطويلة المصنوعة من جلد الغزال المصبوغ باللون الأحمر صرعة خلال عهد تانج، وما زال أقرباء بعيدون لها موجودين في اليابان. ففي متحف شزوين يوجد زوج من الأحذية الاحتفالية ذات الرقبة

مصنوعة من جلد قرمزي اللون ومزينة بشريط ذهبي، وزهور فضية، بل ولآلئ وخرز ملون، ويقال إنه كان يخص الإمبراطور شومو، وفي عهد تاي تسونغ في أواخر القرن الثامن كانت نساء القصر يرتدين أحذية عالية مقصبة بخيوط قرمزية، ولا بد أن أخريات قد قلّدنهن بصنع أحذية من جلد الغزال الخوارزمي (أو ما شابهه) المصبوغ باللّك الكمبودي (مادة صمغية راتنجية تفرزها بعض الحشرات/ المترجم).

جلود الخيل

ومن ممر كانسو، والأوردوس والمستنقعات المنغولية التي كانت تحت سيطرة تانج أتت جلود الخيل بانتظام إلى العاصمة في إطار الجزية الرمزية التي ترسلها مدن الأقاليم. ومنذ العصور المبكرة كان لهذه المادة أهمية خاصة بالنسبة لصنع القوارب والزوارق الصغيرة التي كانت تستخدم لعبور الأنهار الشمالية، وأيضاً لصنع السروج. وسوف نتبين لاحقاً أن الأدوات الحربية المصنوعة من جلود الخيل كانت تستورد من البلاد التركية، ويرجح أن الصينيين في عهد تانج كانوا لا يزالون يستخدمون جلود الخيل في صنع الدروع، فقد كان ذلك من الممارسات الصينية القديمة.

جلود الفقمة

تجوب الفقمات الشريطية التي أسماها الصينيون «فهود البحار» – تجوب بحر أوخوتسك، وخلال العهد الأول من عهدي هسوان تسونغ كانت ممالك بو–هاي

مو-هو، وسيلا ترسل جلودها إلى الصين.

جلود الدّلَق وما شابهه

لقد أشرنا من قبل إلى تواصل عادة ربط الملابس (خاصة القبعات) بذيل الدّلق وأشباهه في عهد تانج، خاصة ملابس المحاربين. كذلك فقد كان يستخدمها وللغرض نفسه بعض كبار المسؤولين المدنيين كعلامة على تميزهم ومكانتهم الرفيعة.

كذلك فقد كانت العلامة المميزة لهؤلاء الشبان الشجعان الذين جرأوا على الخروج لملاقاة التتار عند الحدود:

«يرتدون الدروع الذهبية
ويغطون آذانهم بجلود الدّلق».

ومثل هذه العبارات شائعة فى أشعار تانج، وذلك لأن لجلود الدّلق والقاقوم مدلولاً روحانياً ينبثق أولا من الدفء الذى تبعثه، وثانياً من حقيقة أنها تذكّر من يرتديها بأصحابها الأصليين وطبيعتهم الدموية، وتشير دوماً نحو الشمال حيث البرد والبرابرة الذين يشربون اللبن، ومخاطر الحروب الحدودية، ويرد كل ذلك فى «أغنية أسفل الحدود»، وهي من أشعار لي تشي:

«سحب صفراء تغطي بوابة الإوز في كانتون-
حيث تغرب الشمس وراء الريح والرمال؛
ويظهر ألف خيّال يرتدون فراء السمّور الأسود-
وكلهم يسمون «أولاد غابة الريش».
وتنطلق موسيقى المزمار مخترقة الجليد الشمالي،

وتصهل الخيول الحديدية بالقرب من المياه
العكرة؛
وتحت الخيام يشربون عصير الكروم–
وذاك هو قلب حياتهم الذي لا يزيد طوله عن
بوصة».

وسواء كان الفراء فراء الدَّلق أو فراء القاقوم أو السمور فقد كانت قطع الفراء الصغيرة تستورد بكميات كبيرة لاستخدامها لدى مؤسسة تانج العسكرية، وحتى المقاطعات الحدودية الصينية ذاتها كانت ترسل الفراء بانتظام لورشة السروج الإمبراطورية لتصنع منها أدوات للخيالة. وكان قوم أولاغون يرسلون الفراء الناعم الدافىء (وهؤلاء عاشوا غربي مو– هو) إلى الشرق من الأتراك، وإلى الشمال من الخيطانيين فى القرن السابع، وأيضا وعلى كل وجه التحديد جاء الفراء من قبائل مو – هو التنجوزية في سونجاري وآمور في القرن الثامن، وأحياناً كان يبلغ عدد القطع فى الرسالة الواحدة ألف قطعة.

جلود الفهود

فى عام 720 قدمت الهند الجنوبية (بالاڤاس؟) جلد فهد إلى بلاط تانج، وبعد ذلك بأربع سنوات قدمت مملكة سيلا هدية مماثلة، والأخيرة لا بد أنها كانت جلد فهد سيبيري ذي شعر طويل. وكان كل من يملك قطعة من الفراء المرقط يتذكر قول الشاعر :«البرد سعيد بالملابس المصنوعة من فراء الفهود». وإذا كان الدفء مطلوباً فإنه قد يكون خطيراً، ذلك أن شراسة الفهد قد تؤثر تأثيراً سيئاً في من يرتدي فروته.ولقد نبه الصيدلاني تشن تسانج تشي إلى ذلك عندما حذر من«النوم على فراش مصنوع من جلد الفهد لأن ذلك سوف يخيف روحه». وبالإضافة إلى ذلك فإنه إذا دخل الشعر أو الوبر إلى قرحة أو جرح يصاب الإنسان بالتسمم. ولقد تجاهل بعضهم تلك النصيحة، مثلما فعل الناسك تشانج تشيه–هو، فعلى الطريقة

الطاوية (أحد أديان الصين الثلاثة/ المترجم) «جلس على فراش من جلد الفهد، والتحف بنسيج من اللّيف، وألقى بسنارته من دون طُعْم، إذ لم يكن السمك كل طموحه».

ولقد كان لجلد الفهد استخدام أكاديمي يومي كذلك، فكما كان ينبغي على أهل العلم والمعرفة تغطية قوارير الحبر بقطعة من القماش لحجبها عن التراب يتعين عليهم أيضاً وضع الأقلام في حقيبة مصنوعة من جلد الفهد للمحافظة عليها من الرطوبة.

جلود الأُسُود

«في الشهر الرابع أرسل يابغو قاهان (أمير) الأتراك الغربيين مبعوثين عرضوا جلد أسد». والعام الذي حدث فيه ذلك كان عام 622، وكان ذلك الجلد تذكاراً جديراً بالنمرود أو بهرقل.

جلود أخرى

يزعم أنه كان لدى هسوان تسونج فراء حيوان يعني اسمه البربري «الأزرق والعطِر»، وكان قد جاءه كهدية من بلاد بعيدة في عهد تاي تسونج. وقيل إن ذلك الحيوان هجين من الفهد وحيوان خرافي آخر عاش في الصين القديمة ويسمى «تِسي–نِجي»، وكان جلده أشد زرقة من مثيله الفارسي، ويمكن اشتمام رائحته الطيبة من على مسافة تبلغ أميالاً كثيرة. وتزداد صعوبة التعرف على هوية ذلك الحيوان في ضوء عدم معرفتنا بهوية واحد على الأقل من أبويه، وإن اقترح بعضهم أنه الباندا، وإنه كان ذلك الحيوان غير خرافي بالمرة. من هنا يقفز للأذهان «الدب

الأزرق» الذي يعيش في التبت.

وأخيراً، وفي القرن الثامن، أرسل مو–هو حاكم منشوريا العليا جلود الأرانب البيضاء التي تعكس الغابات الجليدية التي تعيش فيها، ومعها أيضاً جلود الدّلق الذي يعيش في المنطقة ذاتها.

جلود القرش

كانت جلود أسماك القرش منتجاً شائعاً على طول ساحل الصين جنوبي مصب نهر يانجتسي. وإذا كنا نوردها هنا كمنتج غريب أو عجيب فإن ذلك يرجع إلى أنها كانت أيضاً من منتجات تونجكنج، تلك المحمية الصينية. وتقول الروايات القديمة إن بشراً على هيئة القرش كانوا يعيشون تحت البحر قبالة ساحل تشامبا؛ وكان لديهم الكثير من اللآلئ (التي كانت دموعهم)، وكانوا ينسجون نوعاً غريباً من الإسفنج. لكن جلود القرش كانت مجرد سلعة مفيدة، ولا يبدو أنها قد حظيت بأي وضع خاص أو متميز على الرغم من غرائق الماء (مخلوقات خرافية لها جسد إنسان وذيل سمكة) التي ربما تكون قد ارتدته. وكان نوع من الدروع قد صنع في السابق من جلد القرش، كما صُنعت منه كواشط مفيدة. أما في عهد تانج فقد استخدم أساساً كغطاء وزينة لمقابض السيوف نظراً لأن سطحها اللؤلؤي لا ينزلق في اليد بسهولة. ويمكن مشاهدة السيوف من عهد تانج في نارا باليابان، وهي سيوف مزينة بأشياء ثمينة مثل الذهب والفضة وقرون الكركدن المرقطة.

ذيول الحيوانات

يلاحظ في استخدام ذيول الحيوانات للزينة أنها تعبر عن الحيوان بأكمله،

وتتضمن صفاته وجوهره، تماماً كما يعبر السيف عن سلطة الملك، أو فروة رأس العدو (أو جزء منها) عن هزيمته روحانياً (وكان الهنود ينتزعون جزءاً من فروة رأس العدو تأكيداً للانتصار عليه/ المترجم). وبطبيعة الحال كان بعض الذيول علامات دالة على الشرف والمكانة الرفيعة، أو لمجرد تكريم الأشخاص. ومن هذه ذيول الياك التي كانت تستورد من التبت أو من البلاد الخاضعة لتانج والمتاخمة للتبت في الغرب (شزوان وكانسو حالياً)، أو حتى من المحمية الصينية في منغوليا في الشمال. وربما كانت ذيول الخيول التي كانت تجلب من الشمال الغربي، وذيول الثعالب من الغرب–ربما كانت ذات قوة روحانية أشد، وإن لم يكن هناك أدنى شك حول قوة ذيل الفهد، فقد كان مشحوناً بالطاقة العليا.

ولقد كان لدى مدرسة ين–يانج الدينية إله سموه «إله ذيل الفهد»، وكانت ذيول الفهود جزءاً من الهالة الاحتفالية التي أحاطت بابن السماء. ومن ناحية أخرى كان ذيل الفهد أداة حربية قديمة أصبحت في عهد هان وسيلة لتعريف حدود أي موكب مقدس، وهي مثل حرم القصر ذاته لا يجوز تدنيسها. وفي عهد أباطرة تانج أصبحت ذيول الفهود عنصراً مهماً في الرموز الإمبراطورية حيث تتدلى من قطب قرمزي مطلي بالورنيش، ويحملها في عربة خاصة ضابط يضع على رأسه تاجاً عسكرياً ويرتدي بذلة قرمزية وحزاماً جلدياً، ويحدث ذلك في كافة المواكب الاحتفالية. وبالمثل أصبح ذيل الفهد رمزاً للحكمة والقوة نظراً لدوره في طرد الأرواح الشريرة، وإن اختفى بعد ذلك بوقت طويل (أي في عهد سونج) ليحل محله العلم القماشي الأصفر الرمزي المزين برقط مرسومة.

الريش

أن تكون مثل الطير فهذا أفضل بكثير من أن تشارك حيواناً صفاته. فحرية الجسم المطلقة متمثلة في الطيران –طيران الروح، وجموح الخيال أفكار تتساوى

في القِدَمْ والأهمية معاً، وكانت كذلك في عهد تانج، وعلى الرغم من أن تلك الصور كانت قد رسمت بشكل مفصل ورائع في العبادة التي نسميها الطاوية (وقد سبقت الإشارة إليها/ المترجم). والتي فيها الإنسان المثالي إنسان ذو أجنحة (ريش) هوائي وملائكي، فقد كانت جزءاً من حلم كل صيني، وبالتالي كان ممكناً استخدام ريش الطيور– مثلما استخدمت جلود الحيوانات– للزينة، وفي الوقت نفسه لتحويل –أو على أقل تقدير– لتجميل الإنسان في صين العصور الوسطى، وإضافة إلى هذا وذاك لإطلاق العنان للخيال والتصور.

وبطبيعة الحال فقد اختار الإنسان أجمل الريش وأروعه وأزهاه لوناً. وهكذا، ومثلما فعل الحرفيون الملكيون في هاواي عندما سلبوا الطيور آكلة الرحيق، فإن أقرانهم في تشانج–آن كانوا يرغبون في اقتناء أزهى وأفخر أنواع الريش: ريش الصّافر الأصفر المجيد، وريش الرفراف (مداعب ظله) الفيروزي (الأزرق المخضر). وكان ريش الرفراف هو الأهم على الإطلاق، واستخدم منذ أقدم العصور في صناعة الجواهر وأفخر أنواع الزينة سواء للأشخاص أو للمساكن. ويكتظ أدب تانج بإشارات إلى العديد من الأشياء التي كانت تزين بريش الرفراف، وهذه تراوحت بين الخيام والقباب ضخامة، والخواتم وغيرها من حُليّ النساء ضآلة:

«التصق الطين بحذائها المرصع بالجواهر؛

وبللت الأمطار دبابيس شعرها المصنوعة من

ريش القاوند».

وكان بعض من أثمن الريش المنتزع من تلك الطيور الملونة يأتي من مكان قَصِّي من لنجنان، وإن كانت غالبيته من منتجات آنّام حيث كانت إحدى المحميات المضطربة في عهد تانج.

كذلك فقد استخدم ريش الطيور في فن الرسم (وإن كان من غير الممكن تحديد أي طيور كانت). فاللوحة المجسمة التي تظهر سيدة من قصر الإمبراطور الياباني

شومو تقف تحت شجرة، واللوحة التي تحمل حِكماً مخطوطة (وكلتاهما قد نُفِّذت بالريش، وتوجدان حالياً في شزوان) من وحي صيني، إن لم تكونا من صنع صيني كذلك.

ثم هنالك ريش البلشون الأبيض (ابن الماء) الذي اشتهرت به أنّام، والذي استخدم منذ القدم في صنع العصي التي استخدمها الراقصون والراقصات في تشو، والتي تستخدم حالياً في صنع الشارات (العلامات المميزة) الحربية، مثل الشارات التي يحملها جنود الرّتل السابع (وهؤلاء كانوا يرتدون سترات صفراء ويعتمرون قبعات مزدانة بالشارات والزهور ويحملون رماحاً صغيرة) من حرس الشرف الذي يصطف عند استقبال الأمراء الأجانب، وقد صنعت من ريش الببغاوات الرائعة ذات الألوان الخمسة، والتي كانت تستورد من الهند.

ومن أفضل أنواع الريش للاستخدامات العسكرية ريش السلالات الجميلة من الدّرج (الذيال) وما شابهه من الطيور التي تكاثرت بشدة في الصين، خاصة في الغرب والجنوب، وفي أماكن مجاورة من شرقي آسيا. ولقد توافرت أنواع عجيبة من تلك الطيور: «الدّرج الذي يحمل دماء داوود» في جبال تشنج-لنج بذيله القرمزي؛ والدّرج الآسيوي (تراجوبان ثيمنك) في غربي الصين بعرفه وريشه الأبيض المُرَقَّط، ووجهه الأزرق؛ والدّرج الفضي في لنجنان بعرفه الأزرق-الأسود، وخدوده الحمراء وذيله الأبيض الطويل، والدّرج ذو الأذن الزرقاء في كانسو، وكوكونور بعرفه الأبيض وخدوده الحمراء، وريشه الرمادي الضارب للزرقة المختلط بريش أخضر وأرجواني لامع ومُتَقزِّح؛ والدّرج الذهبي في الغرب والشمال الغربي بعرفه الذهبي وظهره الأخضر والأصفر وبطنه القرمزي، وأخيراً وليس آخراً الأروع والأجمل «درج السيدة آمهرست» في التبت وجنوب غربي الصين والذي له لون أحمر متوهج مختلط بالأبيض والأصفر والأزرق والأسود، والأخضر اللامع بصفة خاصة. وكان هناك الكثير غيرها. فأي من هذه الطيور

المتوهجة ذهب ريشه إلى الصناع الرسميين في تانج؟ لا أحد يعرف على وجه الدقة. لكن المؤكد أن أشهر الريش وفقاً للروايات القديمة كان ريش الدّرج المعروف باسم «درج ريڤيز»، وهذا طائر أنيق صغير ذو لون بني –ذهبي عليه خطوط ورقط بيضاء وسوداء، وله رأس أبيض شبه مُقَنَّع، وذيل طويل للغاية، وهو من الطيور الأصلية في شمال الصين، ومنذ أقدم العصور وأمجدها كان يهدى ريشه المتموج لفناني الاحتفالات والفنانين العسكريين ليصنعوا منه قبعات وصولجانات وعلامات مميزة وغيرها من الأشياء.وفي عهد تانج كان الطلب كبيراً على ذلك الطائر من جانب إدارة الإسطبلات والعدد الحربية بالقصر الإمبراطوري، ومن دون شك لأغراض صنع الشارات والعلامات، وكذا لصنع (المراوح الملكية)، والمظلات الخفيفة الأنيقة.

وهنا أيضاً لانزال عند حافة عالم الغرائب والعجائب.

ذيول الطاووس

مهما كثر الطلب على ريش ذيول بعض الطيور ظل ريش ذيل الطاووس على رأس القائمة، وكان يتم استيراده مع أشياء ثمينة أخرى مثل الحرائر، واللّك المُصفّى من مدن آنّام. وكان الأهالي يجمعون الأرياش «الذهبية والزرقاء القزحية» ليصنعوا منها المراوح (المهفات) ومنافض ذرات الغبار، وكانوا يميلون لقطع الذيل كاملاً في الطائر الحي لأن هذا –من وجهة نظرهم–كان يحول دون بهوت الألوان.

وكان من بين مسؤوليات الضابط المنوط بالإشراف على العربات الإمبراطورية ترتيب وضع مائة وست وخمسين مروحة مصنوعة من ذيول الطاووس خلال حفلات الاستقبال الرسمية الكبرى، وقد كانت في عهد تانج شيئاً جديداً (وإن لم يكن شيئاً غير مسبوق) حيث استبدلوا المراوح التقليدية المصنوعة من ذيول «تدرج ريفيز» بأخرى مصنوعة من ذيول الطاووس. وعلى سبيل التقشف في البلاط في

أوائل القرن الثامن استخدمت مراوح مطرزة على هيئة ذيل الطاووس. وفي مواكب الإمبراطور كانت ترافقه مجموعتان من حملة المراوح المصنوعة من ذيل الطاووس، الأولى مؤلفة من أربعة، والثانية مؤلفة من ثمانية، وذلك مع مجموعات أخرى من حملة الأعلام والرايات والشعارات والمراوح المستديرة القرمزية المرسومة. ويبدو أن المراوح المصنوعة من ريش الطاووس كانت مربعة الشكل، ويستدل على ذلك من لوحة تصور إمبراطوراً من عهد تانج زُعِمَ أنها من أعمال وُو تاو-تزو، فهي تشير إلى «... مهفة مربعة من ريش عصفور كونج، وقد وضعت أفقياً بين الكوعين». ولقد استخدمت تلك المهفات في كافة المناسبات الكبرى ذات الجلال الخاص، سواء كانت سياسية أو دينية. ومن أمثلة ذلك الإنعام بلقب على إمبراطور راحل. وثمة قصيدة تدور حول ذلك الموضوع نظمت في القرن التاسع: تكريم إمبراطورين راحلين في وقت واحد أمام إحدى القاعات الملكية الكبرى (أو عند النتوء الدائري) بساحة القصر:

«وتدخل المراوح المصنوعة من ريش عصفور
كونج ثم تنتشر،

وتظهر مائدة البخور؛

ويتحرك القادة في ملابسهم الرسمية، ثم يأتي
المغلف الذي به اللقب».

وتظهر المراوح الرائعة بشكل متكرر في الشعر، خاصة في أشعار وين تنج-يون ، كرموز وعلامات على الجلال الإمبراطوري، أو لمجرد الجمال والفخامة، ومن أمثلة ذلك:

«وعلى السِّياجات المقوسة تنظر أشجار
الصفصاف كل منها للأخرى،

وتنتشر المهفات المصنوعة من ريش العصافير في
كل مكان وتغطي الياقوت ذا العبير».

وأيضاً:

«ويدخل رجال البلاط بملابسهم المطرزة من ألف باب؛

ويدخل الأمراء على صهوات الجياد ذات السروج الذهبية من أكثر من بوابة؛

وتغطي سحب كثيفة المهفات المصنوعة من ريش العصافير،

ويتجرأ الجليد الخفيف على السقوط على فراء السمور».

ولسنا بحاجة إلى توضيح أن كلمة «العصفور» هنا تشير إلى «عصفور كنج»، أي الطاووس.

الثياب المصنوعة من الريش

من الواضح أن الأرواب المصنوعة من ريش الماريبو، وكذا الملابس بلا أكمام التي تطرح على الكتفين والمصنوعة من ريش النعام ملابس بلا وظيفة، وربما كانت عقيمة، ولكن القوة السحرية للريش، وتوافرها بكثرة دفعا بعض الناس في الأزمنة القديمة إلى صنع ملابسهم بالكامل منها: معطف أو حُلّة من الريش، وكانت هذه تقرب الإنسان من روح الطير، أو الطيور في هيئتها الروحية، أو من الطيور التي اعتبرت الشكل النموذجي لأي نوع من الزينة الريشية. ومن الصعب أن نتصور ما إذا كان البشر –الطيور في الأدب الشعبي بشراً يرتدون معاطف الطير، أو طيوراً ذات أجنحة قابلة للنزع والتركيب!! وقد تبدو تلك مسألة سطحية تافهة، ولكن موضوع الفتاة التي كانت على هيئة بجعة وأخواتها موضوع واسع الانتشار، وفي المقابل نجد أن قصة (أو قصص) المخلوقات السامية التي تستطيع بإرادتها أن تتحول إما إلى امرأة جميلة، وإما إلى طيور تضرب السحاب بأجنحتها ليست إلا تعبيراً

واحداً عن الصورة العالمية للطائر كروح. ونجد تلك القصة أو القصص في شكلها الجسدي المألوف في روايات «ألف ليلة وليلة»، حيث تصادفنا الفتيات اللاتي على هيئة الطير في «قصة جانشاه»، وفي «رواية حسن البصري». ثم هنالك القصة الفارسية حول بهرام –إي–جور الذي استولى على معطف بيري المصنوع من ريش اليمام، وهي الأسطورة التي يوجد نظير لها في الهند. ومن المواضيع الشائعة في الثقافة الصينية المبكرة «المرأة –الطائر وحلفاؤها من الجنيات اللاتي يرتدين ملابس مصنوعة من الريش»، والسِّلف (كائن خرافي يعيش في السماء/ المترجم) في العقيدة الطاوية، وغيرها من الكائنات المماثلة. وفيما يلي مثال من عهد تانج:

«يطلق على النسوة اللاتي يَحُمن بالليل اسم بنات الملك الإله الذي في السماء، كما يسمين أيضاً: صائدات النجوم. وهن يطرن بالليل ويختفين بالنهار كالأشباح والأرواح، ويرتدين ثياباً مصنوعة من ريش الطيور حتى يتحولن إلى طيور تحلق في السماء، ثم يخلعن تلك الأردية ليعدن نسوة مرة أخرى. وليس لهن أطفال وإن كن يجدن لذّة في الاستيلاء على أطفال الرجال. وعلى مقدمة ثدي كل منهن حلمات. وعندما يعطي البشر العاديون حلوى لأطفالهم الصغار ينبغي ألا يفعلوا ذلك في مكان مكشوف، كما ينبغي عدم تعريض ملابس الأطفال الصغار لضوء الشمس لأنه لو سقط ريش تلك المخلوقات عليها فإنه من المحتمل أن ينتج عن ذلك شيطانٌ طائرٌ.

وأحياناً يصقن دماً على تلك الملابس، فتلك إحدى علاماتهن. ويقول بعضهم إنهن مخلوقات تحولت من النسوة اللاتي قضين أثناء الولادة».

ولقد امتد تأثير الأساطير القديمة من عالم الخيال إلى عوالم أخرى. فهذا هو هسوان–تسانج «الحاج» من تانج وقد عَلّقَ على الشيفا (إله هندوسي عرف باسم «المدمر») قائلاً: «بالإضافة إلى العرايا منهم، وهؤلاء الذين ارتدوا عقوداً مصنوعة

من الجماجم، كان هناك زُهَّادٌ يرتدون ريش وذيول الطاووس»، لكنه لا يشير إلى المصدر الذى أوحى بمثل تلك الملابس. والواقع أن تلك الغرائب تكاد لا تثير الدهشة، وإن كنا أقل استعداداً لتقبل حقيقة الملابس المصنوعة من الريش فى الصين. وعلى الرغم من أننا نعلم أن «يو آي»—أي «ذو الملابس المصنوعة من الريش» مجرد كناية عن «الطاوي الناضج»، خاصة من تحوَّل إلى حالته الأثيرية الجديدة، فإن من المدهش أن نعلم أن أساتذة العقيدة الطاوية لا يزالون يرتدون الملابس المصنوعة من الريش حتى وقتنا هذا. والأكثر غرابة أن أناساً علمانيتين محترمين لا ناقة لهم ولاجمل فى تلك العقيدة قد ارتدوها أيضا حتى وقت ليس ببعيد.

وفى القرن الثاني قبل الميلاد، وعندما انبهر وُو تي حاكم هان بالأفعال الخارقة التي كان يأتي بها الطاويون لم يعد مصطلح «الرجال المرتدون ملابس ريشية» مجرد استعارة. فعلى سبيل المثال فقد تسلم الكيميائي لوان تا ختماً من الزمرد (دلالة على علمه ومحبته) من مبعوث إمبراطوري كان يرتدي ملابس ريشية، كما قيل عن لوان تا هذا إنه «كان يقف في الليل على الحشائش البيضاء اللامعة مرتدياً ثياباً مصنوعة من الريش». وتعليقاً على ذلك كتب العالم ين شي – كو قائلا: «إنه إذ استخدم ريش الطيور كرداء فقد كان يؤكد المفهوم الخاص بالإله الطائر، أو الروح الطائرة».

ولكن ما قولنا حول تشاو كانج، ذلك الأرستقراطي من عهد هان المتأخر، والذي أتى إلى وليمة وبصحبته مائة من تابعيه وكلهم «... قد تقلد سيفاً، وارتدى ملابس مصنوعة من الريش»؟ وماذا أيضاً عن ذلك الأمير الإمبراطوري من أواخر القرن الخامس في دولة تشي الجنوبية، والذي كان يمتلك مهارات عديدة في حرف دقيقة والذي حاك «قطعة من الريش»– يُفترض أنها رداء بلا أكمام يطرح على

الكتفين – مصنوع من ريش الطاووس، وكان «بألوانه الزاهية الذهبية والزرقاء يفوق رأس التدّرج ذاته».

وثمة قصة تقول إنه في أواخر القرن السابع أهدت بلدية كانتون للإمبراطورة وُو (وكانت تعرف بلقب «مثيلة السماء») قطعة من ريش القاوند «... نادرة ورائعة وتختلف عن الأنواع العادية». ولقد أهدتها الإمبراطورة بدورها لإحدى وصيفاتها المفضلات، وهذه قد بادلتها برداء حريري أرجواني كان لدى وصيفة أخرى، وعبثاً حاولت «مثيلة السماء» أن توضح لها أن الرداء المصنوع من الريش أعلى قيمة من الرداء المصنوع من الحرير، الأمر الذي أغضب صاحبته الأصلية التي أكدت أن الرداء الرائع لوصيفةٍ في البلاط لا يجوز مقارنته برداء إقطاعي مهما كانت مكانته. وقد نستشف من تلك الرواية مدى غطرسة أفراد البلاط تجاه أشخاص كانوا يُفَضَّلُون لأسباب غير مزاياهم الشخصية، وكذلك نستشف شيئاً من الاحتقار اللاديني للكتبة المحترمين الملتزمين بما تعلموه من الكتب والذين أدركوا الوهج «الخرافي» الذي كان يحيط بمعطف مصنوع من ريش الطيور، وهو الرداء القديم للطاويين الباحثين عن السماء، تماماً كالبيوريتاني (التطهري، أي من أتباع مذهب بروتستانتي متزمت زاهد /المترجم) وقد وقف مشدوها إذْ رأى التاج والصولجان والأردية الفاخرة وغيرها من دلالات البابوية .

ومن مصادر نصوصية أكثر حُجّةً نعرف أن أميرة ماهرة من تانج قد حاكت تنورتين من رياش طيور مختلفة وهذه ؛كانت ثياباً «... ينظر لأحد ألوانها بشكل مباشر، وينظر للآخر من زاوية مائلة، ولها لون تحت الشمس بخلاف لونها في الظل، كما يمكن تمييز أشكال مائة من الطيور التي صنعت تلك الملابس من ريشها». كذلك فقد صنعت الأميرة ذاتها قماشاً للسروج بالدرجة ذاتها من المهارة والتعقيد من جلود وفراء «مئات الحيوانات» (وتلك أرقام رسمية تماماً).

وعلى الرغم من أن الاتجاهات المحافظة قد وصمت تلك الملابس والمنسوجات بأنها «ملابس وحشية» فقد كان لها معجبوها «... ولقد قلدها غالبية النبلاء التابعين والأثرياء، حتى باتت الحيوانات والطيور الفريدة معرضة للانقراض في مواطنها في الجبال وأحواض الأنهار من كثرة الطلب على جلودها وريشها».

أما قصة القماش المقصب «الريش الذهبي للعنقاء» المصنوع من ريش ناعم ذهبي قيل إنه كان قد وصل إلى هسوان تسونغ على سبيل الجزية، فهي ترجع إلى تاريخ لاحق تماماً، وقد تكون غير صحيحة بتاتاً: «... كانوا يعشقون كثيراً من الأردية في القصر، وفي الليل كانت تشع ضوءًا ساطعاً. وكان الوحيد الذي أُهْدى كمية تكفي لصنع رداء وستارة مشعة كضوء الشمس هو يانغ كوي–في»

ولقد كان من الطبيعي أن تترك الروايات المتعلقة بالملابس الريشية دوياً حول بلاط هسوان تسونغ الطاوي وحاشيته التي تبدو وكأنها من نسج الخيال. فالموسيقا المصاحبة للأغنية المشهورة «قميص قوس قزح، والإزار الريشي»، والتي رقصت على إيقاعها السيدة يانغ للترفيه عن سيدها، كانت موسيقا تثير الخيال، ومن ثم فإن المناسبة كانت جديرة بملابس ريشية. وعلى الرغم مما قيل من أن الإمبراطور قد شاهد العرض الأصلي (الأول) لتلك الرقصة التي أُدِّيت بواسطة فتيات قمريات في حديقة القصر وفي الليل، وأنه هو الذي خلع عليها اسمها من وحي الملابس التي ارتدتها الراقصات، فإن الأغنية في الواقع ليست سوى لحن البراهمان القديم والذي عرف في آسيا الوسطى، وكل ما هنالك أن الإمبراطور قد أحيا اللحن وأعطاه اسماً جديداً. ولقد أفاد العالم شن كوا في القرن الحادي عشر بأن في أيامه كان يمكن مشاهدة نص دُوِّنَ على عتبة مقصورة عالية :«... بالنص الأفقي الذي يشبه الحروف الهندية، ويتحدث عن رجل من تانج». وعلى الرغم من أن أحداً لم يتمكن من فك شفرة تلك الحروف فإن الروايات تقول إنها نص الأغنية المصاحبة لرقصة قميص قوس قزح . فإذا صحت تلك الروايات فإن ذلك النص هو نص

«البراهمان»، الأغنية الأصلية مدوناً بلغة سيرندية. ومع ذلك يبقى الأمر محيراً. وعلى أية حال فإن كلاً من الأغنية والرقصة شيء من الماضي البعيد ولا وجود له الآن، وإن ظل اسمهما بكل ما يوحي به من ارتباطات: فتيات القمر، والمخلوقات الطائرة، وهسوان تسونج، ويانج ناصحه الأمين. وهي باقية ليس في الصين وحدها وإنما في اليابان، وفيما يسمى بـ «هاجورومو» أيضاً. فقصة هذه المسرحية الراقصة تشبه إلى حد ما الرواية العالمية القديمة للإنسان (الفاني) الذي سرق معطف الملاك الريشي (وهذه نسخة تانج من قصة الفتاة البجعة، حيث البطلة عبارة عن كركي أبيض، بينما يستبدل المعطف الريشي برداء من الحرير الأبيض عندما يتخذ المخلوق هيئة البشر). كذلك فإن المسرحية الشعرية اليابانية تضم شكلاً ما من الأغنية الصينية الراقصة «قميص قوس قزح، والإزار الريشي» والتي ترجع إلى العصور الوسطى، فالملاك الياباني يرقص أمام الساذج مقابل استرداد ريشه. ولقد ترجم آرثر والي ذلك النُّو (دراما يابانية كلاسيكية راقصة ذات موضوع بطولي / المترجم) على النحو التالي:

«معطف ريشي سماوي يرفرف ويرفرف،
فوق غابات الصنوبر في ميو،
ويمر فوق الجزر الطافية، ويطير مخترقاً السحاب،
ويطير فوق جبال آشيتاكا، وقمة فوجي العالية،
ويمتزج بضباب السماء،
الآن قد اختفى عن الأنظار»

وقد تكون مناسبةً مشاهدة تلك الرقصة الأثيرية في عرض حي هنا، ولكن مرة أخرى لسنا متأكدين مما إذا كانت رقصة «قميص قوس قزح» في شكلها الياباني نسخة أصلية، أم مجرد تقليد سارٍ لها.

وإلى جانب العاج والزمرد وقواقع السلاحف احتاج الحرفيون العاملون فى البلاط إلى مواد ثمينة أخرى لتزيين الملابس وأدوات المطبخ الخاصة بعملائهم المتغطرسين. ومن بين هذه الجنيحات الغمدية نوع من الخنافس يسمى «الحشرة الخضراء الزرقاء»، والتي كانت تجمع فى لنجنان، وآنّام، وكانت أحياناً تسمى «حشرة الزمرد»، وأحياناً أخرى «السلحفاة الذهبية الصغيرة». وقد ارتبطت تلك الحشرة ذات اللونين الذهبي والأزرق السماوي بمدن كوانجسي، شمالي النهر الغربي الأعظم. وفي تلك المنطقة خلعت تلك الحشرة جمالها وألوانها القزحية المتعددة على زينة ملابس السيدات وشعورهن، مثلما فعل طائر الرفراف والطاووس. والأهم من سحرها السطحي ما تمتعت به من قدرة على لم شمل الأحباب. فهذه المخلوقات «... تحب أن تخفي نفسها داخل زهور الآليثا ذات اللون الذهبي حيث تتسافد (تتحد بالاتصال الجنسي)».

وبالسحر العاطفي تنتقل حرارة تلك الحشرة للسيدات الرومانسيات في كل أنحاء الصين، وهذا ما تدلنا عليه قصيدة نظمها لي هو:

«في غرف تشبه الكهوف، لم يعد لخواطرها
حدود
فهن يفعلن مثلما تفعل صغار النحل في قلب
الزهور،
ويزداد الرماد دفئاً بتهادي الفتيل المعطر،
ويزداد الشعر برودة جراء الدبابيس المأخوذة من
الحشرة الخضراء الزرقاء
وانقضى الليل، وتبددت شعلة المصباح،
ويلح النوم كلما ازدادت الستارة الصغيرة عمقاً؛

وما أجمل أن يتحقق حلم تزاوج البط –
ولكن عند السور الجنوبي توقف عن طرق تلك
الكتلة!!»

ولقد لعبت تلك الجنيحات الغمدية الساطعة دوراً مشابهاً في كل من كوريا واليابان (حيث تسمى «الحشرة الجوهرة»)، وامتد نفعها فيما وراء الزينة، فكلنا يعرف «الحرم التاماموشي» فى نارا الذي زين بها، وكلنا يعرف الخنجر المحتفظ به في متحف شزوان، وقد صنع مقبضه من العاج واللحاء المجدول، وزين غمده الخشبي بالجنيحات الغمدية ذات اللون الأخضر– الذهبي.

ولم تكن تلك الحشرة هي الوحيدة التي وهبت جمالها لفن صنع الجواهر، وإن كانت أكثرها شيوعاً. فثمة «حشرة ذهبية» أخرى ذات لون ذهبي – أخضر كذلك، وإن كانت أشبه بالنحلة، وقد استخدمتها النساء الريفيات لتزيين السوارات والخلاخيل، وأيضا لتزيين الشعر– وبالمثل ثمة أنواع مرقطة من الجُنْدُب (جراد صغير، ويعرف أيضا بالقَبُّوط /المترجم) أو الجراد، وكان يعتقد أنها ذات سحر جنسي قوي عندما تجمع فى اليوم الخامس من الشهر الخامس (أي وقت تزاوجها غير المعقول مع ديدان الأرض)، وقد أصبحت هذه جواهر على ملابس الفتيات.

ولكننا قد انسقنا بعيداً عن الغرائب والعجائب الساحرة، ودخلنا فيما هو مألوف وساحر في الوقت نفسه.

«بســاتين تـقـطـر أشـجـارهـا.. بـلـسـمـاً عـطـراً
وأصماغاً..

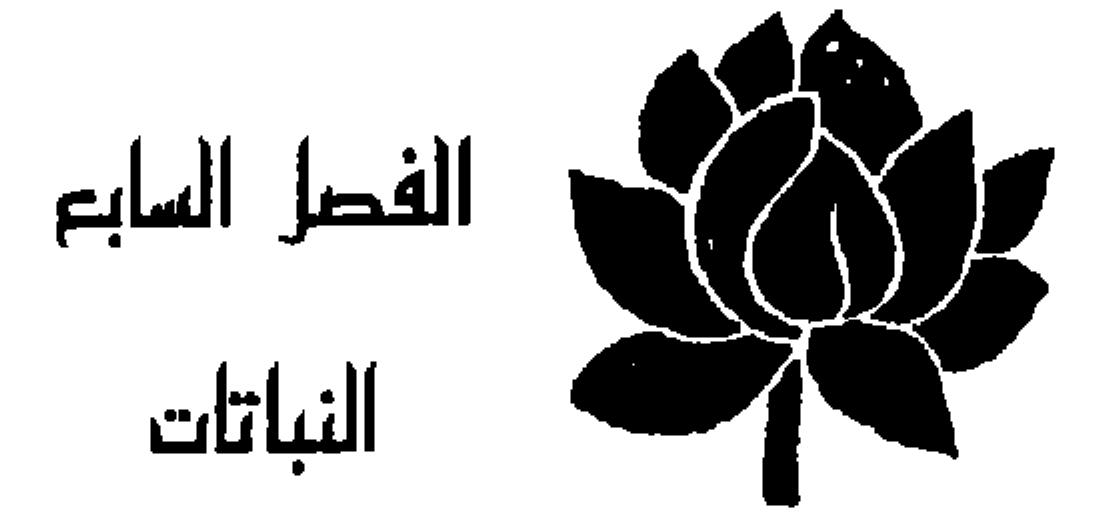
وتزخر بأخرى تتدلى بِبريق لحائها الذهبي ثماراً

أسطورة غياضين التفاح الذهبي تتحقق..

وإن تجسدت.. فعلى هذه الأرض وحدها..

ويالطيب مذاقها»

جون ملتون، «الفردوس المفقود»، الجزء الرابع





لقد جعلت من الدُّرّاق الذهبي الذي كانت تتلقاه الصين في عهد تانغ في القرن السابع من سمرقند نائباً، وممثلاً لغرائب وعجائب كافة السلع التي عرفت في صين العصور الوسطى.

فلقد أتى من مملكة بعيدة دانت اسمياً بالجزية. وكان لون الدُّرّاق الذهبي قد جعله مقبولاً لزرعه في البساتين الإمبراطورية. وقد يكون ملائماً اعتبار تلك الفاكهة الرائعة ممثلاً عن كافة النباتات الأجنبية صغيرها وكبيرها، والتي أدخلت إلى الصين في ذلك العصر ثم فرضت نفسها على الحدائق والبساتين إما إلى الأبد، وإما إلى أجل محدود . وليس هناك ما يفيد بانتشار الدُّراق الذهبي فيما وراء أسوار المتنزه المقدس في تشانغ-آن، أو استمراره في ذلك المكان نفسه بعد القرن السابع. ومع ذلك فإنه لمن المثير حقّاً أن الدُّراق الذهبي كان يزرع في الصين، ربما لمحاكاة زراعته في سمرقند، وربما زرعه بستاني أميّ بطريق المصادفة أو بشكل مستقل. ولقد زعم أنه يمكن تربية أشجار الدُّرّاق الذهبي بتطعيم شجرة البرسيمون بغصن من شجرة الدّراق. والأغرب من ذلك أن فن إنتاج الدراق الذهبي عن طريق التطعيم كان معروفاً لدى أكثر البستانيين الصينيين شهرة، وهو «كاميل كو» أحدب تشانغ- آن الذي جلبت له مهارته الرعاية من جانب كافة الأثرياء والنبلاء في العاصمة كما تخبرنا قصيدة رمزية رائعة نظمها ليو تسونغ- يُوان.

ولقد ورد حديث عن الدُّرّاق الذي يحمل لون ثمار البرسيمون في كتاب بعنوان «كتاب غرس الأشجار»، ويحمل اسم «كاميل تو» كمؤلف. ومهما يكن السرور الذي ينطوي على نسب ذلك الكتاب لمؤلفه المزعوم فإن الدراسة الدقيقة لما فيه من نصوص تبين أنه من إنتاج عهد أسرة يُوان الحاكمة. وحتى إذا ما كان ثمة نموذج حي مماثل لكاميل كو الوهمي هذا، فإننا لا نثق في أنه كان قادراً على إنتاج الدُّرّاق

الذهبي لينافس به النوع السُجدي الرائع. وسواءً كان كاميل كو هو المؤلف فعلاً، أو خلاف ذلك فقد ازداد الكتاب شهرة وانتشاراً بفضل ارتباطه باسم ليو تسونج-يوان، وتبنى اسم البستاني الشهير. ولسوف نعود مراراً إلى ذلك الأحدب في معرض حديثنا عن نبات غريب آخر.

ربما غرست شجرة دراق ملكي خارج حدود ساحات وحدائق القصر، وربما يكون مثل هذا البستاني قد عمل على نشرها أو نسخها. فالنباتات الغريبة كانت تقدم كهدايا للبلاط، وتأتي من خارج البلاد، ولكنها كانت تنتشر لاحقاً بطريقة أو أخرى. وفى إحدى المناسبات الشهيرة، وفي عام 647 كانت الصين تطلب من بلدان الجزية إرسال الخضروات وبشكل مباشر، ومن ثم أتت إلى البلاد أنواع كثيرة من النباتات الصالحة للأكل وغيرها. وفي العاصمة كان يتم تسجيل أسمائها وأوصافها ودرجة جودتها في السجلات الرسمية. ولقد تمكن الكثير من تلك الأنواع من البقاء والانتشار حتى أصبحت جزءاً من الحياة النباتية في الصين. وبالإضافة إلى تلك الواردات الملكية فلابد أن موارد الكثير من الوجهاء قد مكّنتهم من شراء عينات من النباتات الغريبة العجيبة، وقد قُدِّرَ لبعضها أن يبقى وينتشر على التربة الصينية مشكلاً أجناساً جديدة. وهناك أبيات من الشعر نظمها تشانج تشي في القرن التاسع تقريباً لوداع صديق كان يستعد للسفر إلى كانتون لتقليد منصب مهم، وتتضمن إشارة إلى شيوع تلك الممارسة في المدن الجنوبية حيث كثرت فرص إدخال أنواع نباتية جديدة، خاصة الزهور والثمار الاستوائية الجذابة والتي كانت على مايبدو الأكثر وفرة:

«وهناك لديهم زهور أتت من وراء البحار،
وأعشاب تنمو طوال الشتاء-

وأينما ذهبت لن ترى منزلاً دون حديقة مليئة بها».

كذلك كان الأجانب الذين يعيشون تحت حماية تانج يزرعون نباتات الحدائق، سواءً في الجنوب أو في تشانج-آن، ولا بد أنهم وجدوا أنه يستحيل عليهم العيش من دون نباتاتهم المفضلة، تماماً كما وجد المهاجرون الأوروبيون الذين تدفقوا على أمريكا أنه يستحيل عليهم الاستغناء عن زهور القرنفل، وزهور الربيع، وزهور الزنبق. وعلى الرغم من أنه يصعب حالياً تتبع النباتات التي أدخلت على هذا النحو، والتعرف على آثارها، فإنه يمكن القول بأن التأثير قد امتد في عهد تانج ليشمل طرق تصميم الحدائق. ومن حسن الحظ فقد أسهمت الروايات العديدة حول النباتات الأجنبية الغريبة في خلق مناخ تذوقي يحبذ قبولها. ومنذ عهد هان، إن لم يكن قبله كذلك (كما تدلنا قصائد سزو-ما هسيانج-جو الرائعة) كانت الحدائق الإمبراطورية تصمم بحيث تبدو أشكالاً سحرية، وكانت حقول الخضروات تمثل حدوداً طبيعية لها وكأنها تضم العالم بأكمله تحت المظلة الروحانية لابن السماء. وعلى الرغم من تحرر حدائق المتعة من القيود الدينية- كما كان الحال في قرون ما بعد هان- فإن المتنزهات الإمبراطورية الكبرى لم تفقد طابعها السحري كلية، كما أن حدائق عامة الناس كانت تقليداً (على نطاق مصغر) لتلك الأمثلة العظمى التي تنطوي على الكثير من العجائب والغرائب.

ولقد أوضح جيوفري جريجسون كيف أن الشعر الإنجليزي قد استغل النباتات المحلية ليعكس ويحرك المشاعر الإنسانية الأكثر عمقاً، بينما النباتات الغريبة العجيبة تفتقر إلى أي علاقة حميمة مع الشعب الإنجليزي، ومن ثم فإن فائدتها بالنسبة إلى الشاعر لا تزيد عن تمكينه من «رش» بعض العناصر الزاهية والمثيرة على أشعاره. وكان هذا هو الحال في الصين. فأشجار البرقوق تعبر عن ربيع واعد، وتجدد الحيوية، والأمل، أما أشجار الخوخ فإنها تجسد الخصوبة والخلود في المعرفة وفي الأساطير، ويطرح هذان المثالان العديد من الأشياء القديمة المعتادة المليئة بالتداعيات الإنسانية. لكن ذلك الكلام لا ينطبق على الليشي (نبات من الفصيلة القرنفلية)

على سبيل المثال، على الرغم من أنه كان معروفاً في الشمال منذ عهد هان، بل إن شعر تانج قد عامله معاملة النباتات الغريبة، زاه ومثير رومانسياً، ولكنه يعبر تعبيراً باهتاً عن الأحلام والعواطف العادية. والأقل من ذلك النبات إلهاماً للشعراء تلك الثمار والزهور المستحدثة، بداية من الدُّرّاق الذهبي الذي هو موضوع هذا الفصل .

وعلى الرغم من إثرائه لنا ثانوياً بثقافة وفن الغرائب (من حيث إنه قد جاءنا من صين العصور الوسطى فإن دوره الحقيقي في خيال تانج كان كدور الخبّازى (نبات يسمى أيضا الخُبيزة) في خيالات البحار الجنوبية، ولكنه لا يقارن بالورد والسوسن مهما بلغا من شهرة محلية ومجد في موطنهما.

المحافظة على النباتات وانتشارها

كما هو معلوم تماماً فإن السيدة يانج، قرينة هسوان تسونج، كانت تعشق ثمار الليشي الطازجة، وكانت تحصل عليها رغم أنه كان يتعين نقلها بخيول البريد من لنجنان وبطول الصين كلها، ومع ذلك كانت تصلها في حالة جيدة تماماً على الرغم من أن هذا النوع من الثمار الرقيقة يفقد لونه الأصلي بعد يوم من قطعه، كما يفقد شذاه ونكهته بعد يومين. فكيف تحقق لها ذلك؟.

سوف نحكي بعد قليل عن «عنب حلمة الفرس» الذي كان ينقل دون أن يتلف من كوكو عبر حواف صحراء جوبي إلى تشانج-آن. فإذا سألنا كيف كان ذلك ممكناً فلن نجد إجابة جاهزة من خلال أدب تانج، وإن كنا نجد إشارات مفيدة خارج نطاقه. فعلى سبيل المثال كان البطيخ الذي تصدره خوارزم في القرن التاسع يعبأ في حاويات رصاصية ويغطى بالجليد. من هنا يصح الافتراض أن كروم سيرنديا كانت

توضع في عبوات مماثلة يوضع فيها بها الجليد والثلج كذلك (وكانوا يجلبونهما من جبال السماء القريبة). لكن ذلك لا يفسر المحافظة على ثمار الليشي التي كانت تأتي من منطقة الحدود الجنوبية للصين (وهي منطقة استوائية). وهكذا لابد أنه كانت هناك وسيلة أخرى للتبريد (وإن لم يمكن معرفتها). كذلك لا يمكن أن نحدد بدقة الوسيلة (أو الوسائل) التي استخدمت للمحافظة على النباتات القادمة من بلاد بعيدة (وذلك بافتراض أنها لم تأت في صورة بذور) حتى وصولها إلى داخل الصين. ومن دون أن نأمل في إيجاد إجابات محددة لتلك الأسئلة دعونا نلقي نظرة سريعة على بعض بقايا أو آثار العادات التي سادت في عهد تانج فيما يختص بالتبريد والمحافظة على النباتات.

فهذا هو الشاعر هونج هس–وين من النصف الأول من القرن الرابع عشر، وقد شاهد لوحة تبين هسوان تسونج والسيدة يانج وهما يستريحان فى يوم شديد الحرارة، وقد أوحت إليه برباعية يصف بها المنظر، ونظمها تحت عنوان «صورة المستنير الساطع والسيدة الكبرى الصادقة وهما يهربان من الحر ببساطة وسرور»:

«شطرت بطيخة ذهبية فى حوض من الثلج،

والماء شبه المجمد يدور ويختلط– ويجريان الشاي البارد.

ولا تشعر حوريات القصر بأن السيد الأعظم قد استبدّ به الحب والشوق،

فما زلن يحملن الجرار الزرقاء لسحب الزهور من البئر».

وباختصار فإن المعنى هو أن الوصيفات لم يكن على درجة من الذكاء أو الفطنة يدركن بها أن العاهل يود أن يختلي بقرينته. ومن سوء الحظ أننا لا نعرف اسم الفنان الذى رسم تلك اللوحة، ولا تاريخها أو تاريخه هو، فقد تكون من الأعمال الفنية لسونج، أو يوان ومن ثم فلا قيمة لها كدليل على البطيخ المثلج والشاي المبرد

بالجليد في القرن الثامن. ومع ذلك فإنه من حسن الحظ– مهما يكن أمر الشاي المثلج بالجليد– أن هناك أدلة كثيرة على استخدام الثلج لتبريد الأطعمة في الصيف في عهد تانج. والواقع أن تلك الممارسة ترجع إلى عهد أسرة تشو الحاكمة. بل إنهم كانوا أحياناً يأكلون الثلج في فصل الصيف، وقد نبه تشن تسانج– تشيه إلى خطورة ذلك لما تسببه تلك الممارسة من أمراض. فالثلج– على حد قوله– ينبغي أن يستخدم في تبريد الطعام والشراب فحسب، ولا ينبغي ابتلاعه. وبالتأكيد كانوا يحفظون البطيخ في الثلج في عهد تانج، وكانوا يحتفظون به أوليا في مخازن مثلجة أو حفر مثلجة، ولهذه الممارسة أصل ضارب فى القِدَمْ، وثانوياً فى جرار أو أوان مليئة بالثلج (أي ثلاجات)، ولقد وردت إشارات عديدة فى شعر تانج للبطيخ (وقد كان فاكهة شعبية في فصل الصيف في تشانج –آن)، والجرار أو الأواني المليئة بالثلج، وكانت هذه تصنع من الأحجار الكريمة أحياناً. وفي الحقيقة فإن التشبيه الشائع «واضح كالثلج في وعاء من ياقوت» يرجع إلى ما قبل عهد تانج، ويعبر عن النقاء الشفاف للإنسان الطيب فعلاً. ولقد استخدم في تلك العصور نوع من الثلاجات(والبرادات) حيث ذكر كيميائي بارز أن الحجر الجيري المستمد من الرواسب الكلسية المدلاة من سقف المغاور يصلح لصنع «صناديق الثلج»، ويفترض أن هذه كانت تصنع لحفظ المواد الكيماوية القابلة للتلف (مثل الكواشف) والتي كانت تستخدم في التجارب بالمختبرات.

أما فيما يتعلق بمخازن وحفر التبريد فإن أياً منها لم يكن ليقارن بمثيلاته فى القصر الإمبراطوري، وكان المسؤول عنها «مكتب غابة جلالته»، أي المكتب المسؤول عن المتنزهات والحدائق والبساتين الإمبراطورية. وكان العاملون بذلك المكتب يجمعون فى كل شتاء ألف قالب من الثلج بحجم تسع أقدام مكعبة (أي بطول ثلاث أقدام وعرض ثلاث أقدام وسمك قدم واحدة)، وكانوا يقطعونها من الوديان الجبلية الباردة ويرسلونها إلى العاصمة تحت إشراف الحكام المحليين. فإذا أخذنا في الاعتبار توافر مثل هذه الإمكانيات لراحة وبهجة البلاط فإن لنا أن

نفترض وبكل الثقة أنه كانت هناك ترتيبات على القدر نفسه من الكفاية لضمان سلامة الفواكه والزهور والبذور خلال رحلتها من مصادرها البعيدة في أقاليم كانت تخضع لسلطان تانج. ولقد تلقى سوِي يانج تي ثمار المندرين من شزوان وقد حفظت بالسيقان التي كانت عليها في الشمع. وفي القرن الحادي عشر كانت الفاوانيا (أو عود الصليب، وهي نباتات ذات زهرات كبيرة حمراء أو قرنفلية أو بيضاء/ المترجم) تعد لرحلة طويلة من موطنها لو – يانج إلى عاصمة سونج في كاي– فينج بالطريقة ذاتها، إذ يخبرنا أو–يانج هسيو :« كنا نعبئها في سلال صغيرة مصنوعة من البوص، وتغطى بطبقات من أوراق نباتية خضراء (خضروات) حتى لا تتحرك أو تهتز جراء حركة الحصان، ونختم سيقان الزهور بالشمع حتى لا تسقط بعد عدة أيام. ولنا أن نتأكد أن تلك ممارسة قد شاعت في عهد تانج أيضا. ويضاف إلى ذلك أن ثمار المندرين كانت تغلف –عند نقلها – في أوراق في بداية القرن التاسع، ويمكن القول بأن منتجات نباتية أخرى (خاصة الخضروات) كانت تحفظ بالطريقة ذاتها، وما أن تصل الثمار والنباتات الغريبة والعجيبة إلى تشانج–آن حتى توضع تحت رعاية قائد حرس غابات جلالته في انتظار تلبية احتياجات سموه، سواء للولائم الخاصة، أو للاحتفالات العامة، أو لتقديمها كقرابين. «ثم صدر مرسوم إمبراطوري: بغرس أشجار الدُّراق الذهبي والفضي السمرقندي في حدائقنا ومزارعنا».

ويقع «المتنزه المحرم» إلى الشمال من القصر الداخلي الأعظم، ويتاخم بحيرة وي شمالاً، وينحدر شرقاً عند مجرى تشن، وينتهي غرباً عند سور المدينة القديمة (هان). ويبلغ محيطه مائة وعشرين لي (قرابة أربعين ميلاً /المترجم)، وما من حيوان أو طير، خضروات أو فواكه إلا ويزرع بداخله. ولقد كان ذلك المشتل– المتنزه يستمد ثرواته من حدائق العالم كله، وكان في الوقت نفسه مصدراً للشتلات المختلفة بالنسبة للإمبراطورية كلها. ففي عام 740 وخلال حملة خاصة لتجميل

المدن الكبرى في شمال الصين أمر هسوان تسونغ بغرس أشجار الفواكه على طول الطرق بالعاصمتين، وفي المتنزهات الواقعة داخل أسوار المدن. ومن المرجح أن تلك الأشجار قد جاءت من غابة جلالته.

وثمة بساتين وحدائق خاصة كثيرة، وإن كانت لا تقارن بالمتنزه الإمبراطوري. ولابد أن هذه كانت شاسعة وغنية بنباتات التوابل وغيرها من النباتات والأشجار الغريبة العجيبة. وترد لمحة عن تلك المصادر الخاصة في وصف للتجديد الذي أتى به شباب بيت يانغ كو–تشونغ، شقيق السيدة يانغ، فقد بنوا حديقة متنقلة حمّلوها على عجلات خشبية وعليها زرعوا «الزهور الشهيرة والأشجار الغريبة». وكانت عربة الزهور تلك تعرض على الجماهير في الربيع، وكانت تدور على محور أثناء الحركة حتى يتمكن الجميع من مشاهدة كل العجائب والغرائب التي كانت تحملها ومن كل الجوانب.

وأخيراً هناك حديقة الأعشاب الإمبراطورية لتي كانت مصدراً آخراً للنباتات التي جيء بها من الخارج، وكان يديرها المسؤول عن «الحديقة الطبية»، وهو من تابعي «قائد مكتب كبير الأطباء». وكانت تلك المؤسسة تتخذ من العاصمة مقراً لها، وكانت مسؤولة عن زرع وحصد النباتات التي كانت تصنع منها عقاقير مفيدة. وهنا كان بعض الشباب (من سن السادسة عشر حتى العشرين) يتلقون العلوم الطبية والصيدلانية في بيئة عملية تحت إشراف «أستاذ طب كاثوليكي» (وكان ملماً بمختلف فروع الطب وليس فقط بتحضير التراكيب الطبية)، حيث كانوا يدرسون نظرية ين–يانغ وتطبيقها على العقاقير، والتوزيع الجغرافي للأعشاب (الطبية)، وأنسب الفصول لجمعها، وخواص مختلف أجزاء النباتات، والأعشاب السامة وغير السامة، وتركيب الأدوية، وغيرها من الموضوعات. ولابد من أن تلك الحديقة المتخصصة كانت مركزاً مهماً لتوزيع عدد كبير من الأعشاب المفيدة التي كان يحتاجها شعب تانغ.

نخيل التمر

و لم يكن الدراق الذهبي والفضي الفاكهة الوحيدة التي أدخلت إلى الصين من الغرب خلال عهد تانج، فهناك نخيل التمر ذو التاريخ الطويل كمنتج فارسي، والذي كانت تانج تستورد ثماره (التمور) الهشة التي تتميز بمحتوى عالٍ من السكر. ولقد ورد في القرن التاسع وصف جيد وشامل للتمور الفارسية التي كانت ترد إلى كانتون، كما أشادت بها كتب الأدوية في القرن الثامن باعتبارها مفيدة للبشرة، وللصحة بشكل عام.

ولقد عرفت التمور تحت العديد من الأسماء، أكثرها شيوعاً على مايبدو «العناب الفارسي»، وإن شاع اسمان مستعاران بقدر أو آخر، الأول «جورمانج» أو «خورمانج» وهو اسم من أصل فارسي، والثاني «ميو–لو» وهو أكثر غموضاً وإن رَجّحَ أحد العلماء أنه قريب من كلمة بُونُّو في اللغة المصرية، وربما من الاسم الإغريقي لنخيل التمر وهو «فونيكس». فأشجار «العُنّاب التي تعيش ألف عام» والتي جلبها إلى تانج في عام 746 مبعوثو ملك طابارستان، تلك البلاد الدافئة الخصبة والواقعة على بحر قزوين، لم تكن سوى نخيل التمر. وعلى الرغم من أن مناخ تشانج–آن لم يكن بأية حال ملائماً لازدهار نخيل التمر فإن مصادر وثيقة قد أفادت بأنه قد غرس في ضواحي كانتون في القرن التاسع.

أشجار التين

والأقل حداثة من نخيل التمر كانت أشجار بوذا، أشجار التين الهندي المقدسة، ومن هذا الوصف يتضح أنها كانت ذات مغزى ديني. ففي عام 641 أرسل ملك هندي إحدى هذه الأشجار لإمبراطور الصين، كما أتت أخرى من ماجادا في عام 647. و لم يكن ذلك غريباً على ماجادا نظراً لأنها قد اشتهرت بكونها موطناً للأشجار العجيبة، ولقد وصفها ساشڤريل ستويل قائلاً: «لم يكن كافياً أن تنشر

نباتات الشنبق ذات الزهور الزرقاء عبيرها في الجو، فهذه جنة الأشجار المزهرة، فالتفاح الوردي وشجرة الورد الكبرى قد جعلا منها مدينة للزهور، وهي كالأنوار التي تتلألأ في الجو الصافي».

وحول شجرة بوذا التي أتت من ماجادا فقد لاحظت مصادر صينية أن أوراقها تشبه أوراق شجرة «الحَوَر الأبيض»، وأنه قد قيل إن اسمها «بالا»، وهو اختصار لكلمة «بيبالا» في اللغة السنسكريتية، وتعني «التين». ولقد سماها البوذيون «شجرة الاستنارة» نظراً لأن بوذا قد تلقى الحكمة تحت إحداها. والشجرة الأصلية (التي هي الآن مزار يحج إليه البوذيون/ المترجم) كانت في بود-جايا في بيهار، ووفقاً لقصة سائدة فقد أحرقها الأسوكا الأعظم قبل تحوله (إلى الديانة البوذية) لكنها انبثقت بشكل إعجازي مرة أخرى من بين رمادها. ولقد حلّت بتلك الشجرة المقدسة كوارث أخرى ومع ذلك لم تندثر وواصلت انتشارها وتكاثرها عن طريق الفسائل القابلة للغرس -هكذا يقال- حتى يومنا هذا.

ومن أشهر خلفائها الشجرة المقدسة في آرنورا دابورا في سيلان، والتي يقال إنها أقدم شجرة ذات نسب موثق في العالم كله، وأصبحت رمزاً عالمياً لشجرة الحكمة، ولها أسماء أخرى في الهند مثل «بونداريكا»، «آسفاثا».

أما في البوذية فإن شجرة الحكمة ليست بالضرورة شجرة التين، فقد تظهر كشيء منير -من الذهب أو البلّور أو الأحجار الكريمة. ونظراً لاهتمام توان تشنج-تشيه الدائم بالبوذية وما كتب عنها فقد أعد نبذة حول التاريخ الإعجازي لأعظم أشجار التين، وبين كيف أنها أسقطت أوراقها عندما دخل بوذا إلى نيرڤانا، وكيف أضرم فيها أسوكا النيران، وكيف عادت إلى الحياة، وكيف حاول الملك ساسانكا تدميرها في القرن السادس، كما بين أسماءها المختلفة وأموراً أخرى تتعلق بها. ويقول أيضاً:

«وترتفع تلك الشجرة عن سطح الأرض بمقدار أربعمائة قدم، ويوجد تحتها قبة فضية، وقد التفت حولها وانتشرت في كل الاتجاهات. ويقوم الناس في ذلك البلد بحرق البخور ونثر الزهور حول موقع الشجرة وعلى مدار الفصول الأربعة، ويطوفون حولها تبجيلاً.

وخلال عهد «الناظر المبجل» في تانج كنا نرسل مراراً مبعوثين إلى هناك لتقديم القرابين في مكتب المعبد، وأيضاً لتوزيع الكاسايا (الهبات). وفي السنة الخامسة من حكمه السديد أقمنا جداراً تذكارياً في مكتب المعبد تخليداً لفضائلها المقدسة».

وكانت شجرة التين قد أدخلت إلى الصين قبل عهد تانج، وغالباً ما كانت تغرس في الحدائق الملحقة بالمعابد حيث كانت تُبَجَّل باعتبارها رمزاً لبوذا والحكمة التي طرحها على الناس كافة. ويضاف إلى ذلك أن الاسم الصيني «شجرة بوذا» قد خلع على أنواع أخرى من الأشجار، وخاصة الزيزفون. ولا أحد يعلم ما إذا كان أي من أشجار التين المقدسة كان في الحقيقة مستلاً من شجرة الحكمة الأصلية في جايا. فإذا كانت مملكة ماجادا قد أرسلت تلك الفسيلة العجيبة فإنهم لابد قد دونوا في كتبهم وسجلاتهم السمات الخاصة التي انفردت بها، لكن لا يوجد شيء من هذا القبيل. من هنا يمكن افتراض أن التين الصيني المقدس لم يكن سوى تين عادي، وأن «شجرة بوذا» اسم امتد ليشمل كافة الأشجار من النوع ذاته في ضوء انتشار الديانة البوذية إلى أماكن بعيدة عن الهند. ولقد ترك لنا الشاعر بي جيه–هسيو رباعية «في هيئة تشي، وليانج» وتشير إلى تلك الأشجار المهاجرة التي حظيت بالاحترام في المعبد الرئيسي الخاص بمذهب تيان–تاي في تشيكيانج، وهو المعبد الذي سمي «كوتشنج» الذي يعني «البلاد قد تطهرت»، أو «الأمة طاهرة نقية»:

«مسافة عشرة أميال تفصلنا عن بوابة الأرز –
الطريق إلى الأمة التي تطهرت؛
وعالياً وعلى منصة شخص يطعم القردة – قريباً
من شجرة بوذا.
وبأعجوبة يأتي الضباب وتهطل الأمطار من
سماء صافية –
ولكن في النهاية فإن نسيم البحر هو الذي يطيح
بذلك النسيج الهش».

أشجار صول

يستمد خشب الصول اسمه من كلمة هندية هي «سال»، وهو خشب من نوع «شوريا روبستا»، وهي شجرة طيبة ذات زهور صفراء تنتج أخشاباً ثقيلة وكثيفة وداكنة يفضلونها كثيراً في الهند، خاصة عندما تنمو غاباتها على حواف سهول البنغال. ولتلك الشجرة أقارب من الدرجة الأولى في الهند الصينية وإندونيسيا (وهذه تعرف الآن بأسماء مضللة مثل «الماهوجني»، و«أرز بورنيو»، و«أرز سنغافورة» وما إلى ذلك)، وهؤلاء الأقارب أرقى من حيث العمر من الأنواع الهندية الأكثر شيوعاً. وعلى الرغم من أن هذه الشجرة قد أدخلت إلى الصين في العصور الوسطى، وأنها قد غرست على نطاق واسع بها فليس ثمة دليل على استخدام أخشابها –في عهد تانج على أقل تقدير. ولقد أعجب الصينيون بها لمجرد مصدرها البعيد الغريب، وزهورها الجميلة وتداعياتها الدينية، حيث إنها –مثل شجرة بوذا– قد دخلت في نطاق ممارسات الجوتاما (اسم العائلة لبوذا/ المترجم) ذاته. فلقد مر السيد الأعظم (بوذا) إلى نيرفانا في سالافانا التي هي عبارة عن بستان من أشجار السال، وتقع بالقرب من كوسيناجارا، ونال صفة «سالندرا–راجا»، أي «ملك أشجار السال» مثلما نالها والدآفالو كتسفارا (كوان–ين)، سبها فيوفا.

وبطريقة سحرية انتقل هسوان تسونغ الأعظم إلى قصور القمر البلّورية، وهناك رأى شجرة سال تخترق عنان السماء، و«كان لون أوراقها في لون الفضة، وكانت أزهارها في لون السحاب». فهذه الشجرة المقدسة كانت على ما يبدو قد دخلت إلى الصين كشيء مبارك قبل عهد تانغ، وكانت أجزاء منها (فسائل) قد قبلت على سبيل الهدية القيّمة. وهكذا فقد أرسل ملك بنام (تلك البلاد الملاوية على خليج سيام) مبعوثيه إلى ليانغ في عام 519 حاملين هدايا من أشجار ونباتات عطرية مختلفة، وشجرة صندل، وأوراق من شجر السالا. وحتى وقت متأخر من القرن الثامن كانت لا تزال غير شائعة ومن ثم اعتبرت غريبة. وفي عام 723 سجل لي يونغ وصفاً تذكارياً لشجرة سال من هُواي–ين–هسين في تشو–تشو، وكانت قد اكتسبت شهرتها من جلوس «الحاج» آي–تشينج إلى جانبها في طريق عودته من الغرب قرب نهاية القرن السابع. ويقول الشاعر إن «...شجرة السال هذه لا تنتمي بأية حال إلى هساي الوسطى» –أي الصين.

وبعد ذلك بعقود قليلة، وفي وقت مبكر من حكم هسوان تسونغ (الذي لقب بكنز السماء) أرسل الممثل الإمبراطوري في الغرب الأقصى مائتي فسيلة من أشجار الصول إلى تشانغ آن كان قد جمعها من فارخانا موضحاً في مذكرة مرافقة أن تلك الشجرة «لا يمكن أن تقارن بأي أشجار أو أعشاب أخرى، فهي لا توفر مجثماً لطيور الشر، وجذعها المستقيم لا يقل عن مثيله في أشجار الصنوبر أو أشجار التوجا (أشجار الحياة)، ويباري ظلها ظل أشجار الخوخ والبرقوق». وبعد ذلك ببضع سنوات، وفي ظل حكم تاي تسونغ أرسل المزيد من تلك الأشجار من الغرب بواسطة السلطات الصينية هناك، وتم نشر عينة جيدة في معبد الشفقة والرحمة البوذي الكبير (تزو إن سزو) في العاصمة حيث وضعت تحت ملاحظة توان تشينج شي في القرن التالي. ومن كثرة الإشارات إلى شجرة الصول في أدب سونغ يستدل على أن كثيراً من فسائلها قد عرف طريقه إلى التربة الصينية، وأن استزراعها

بنجاح وكفاءة يرجع إلى منتصف القرن الثامن.

الزعفران الأصفر

كان الزعفران الأصفر واحداً من أندر الزهور وأثمنها وأكثرها أرستقراطية، ويبدو أن بلاد فارس وشمال غربي الهند كانت موطنها الأصلي حيث كانت تزرع على نطاق واسع. وتتميز تلك الزهور العطرة بلونها الأرجواني وتفتح براعمها في الخريف، وكانت تُنتج من مباسمها ذات اللون البرتقالي الداكن صبغة عطرية كانت مادة ذات أهمية كبيرة في التجارة في لأزمنة القديمة. وكان الزعفران الأصفر يزرع في اليونان وصقلية في زمن بليني، واستخدمه الرومان لإعطاء نكهة للنبيذ الحلو، كما كانوا ينثرون خلاصته لتعطير المسارح. وبالمثل كانت السيدات في روما يفضلنه كصبغة للشعر، وكان طبيعياً أن يرفضه آباء الكنيسة. وتم إدخال ذلك النبات إلى الصين في العصور الوسطى، وكان مسحوق زهوره يلقى طلباً كبيراً في عهد تانغ كدواء لعلاج السموم الداخلية، وكعطر، وإن لم يكن من المؤكد أنه قد استخدم كصبغة.

ولقد أسماه الصينيون «عطر يو الذهبي»، بمعنى كونه مادة ذهبية ذات رائحة طيبة مثل رائحة نبات يو المستخدم في صنع النبيذ القرباني في الأزمنة الغابرة. ولسوء الحظ فإن هذا الاسم نفسه كان قد خلع على الكركم المستورد (وهذا نبات من الفصيلة الزنجبيلية/ المترجم)، وإن لم تُضف إلى الاسم صفة «عطري»، ومع ذلك فقد شاع الخلط بينهما، ليس في الصين وحدها وإنما في أنحاء أخرى من العالم حيث عرفا في شكلهما المسحوق التجاري فحسب. وبالمثل فقد كانوا يخلطون بين الزعفران والقِرطِم (العُصفُر) الذي طالما استخدم لغش الزعفران، وكان قدأُدخِل إلى الصين في وقت سابق بكثير. كذلك كان هناك خلط بين الزعفران والجَدوار، وهو نبات عشبي جذري من الهند وإندونيسيا، وهو قريب

جداً من الكركم، وكانت له أهمية خاصة في تجارة العطور. (وهنا تجدر ملاحظة أنه لم يكن ثمة تمييز واضح بين العقاقير، والعطور، والبخور في العصور الوسطى، وإني إذ أضع نباتاً ما تحت عنوان ما فإني أفرض التمييز الراهن على ثقافة العصور الوسطى. لذا فقد رأيت أنه من الأفضل عدم تصنيف الزعفران الأصفر ضمن «العقاقير»، ولا ضمن «المواد العطرية»، ووضعته في هذا الفصل الخاص بالنباتات الغريبة للتأكيد على أن تلك الزهرة الحية كانت معروفة لدى قوم تانج».

ولقد أرسلت الهند الزعفران إلى تانج عام 641 وبخارى في عام 734. ولكننا لا نعلم ما إذا كان قد أُرسل في هيئة مباسم أو كنباتات كاملة. ولدينا سجل أفضل حول هذا الموضوع يرجع إلى عام 647.

«قدمت بلاد كابي [كابيسا؟] عطر يو الذهبي. وتشبه أوراق ذلك النبات أوراق الكراث الأسود، وتتفتح زهوره في الشهر التاسع وهي تشبه زهور اللوتس (فهي على هيئة كأس)، ولونها أزرق داكن ضارب للأرجواني ، ويمكن استنشاق شذاها من على بعد خطوات كثيرة. وإذا كان هذا النبات مزهراً فهو بلا ثمار، وإذا أردت زراعته فلابد أن تنتزع الجذور».

وعليه فقد كان هذا النبات يرسل كاملاً إلى الصين. وعلى أية حال كان الزعفران المُحَضَّر -سواء كان مستورداً أو مستزرعاً محلياً -يستخدم لتعطير الملابس والشماعات. وحول هذا الأمر كتب الشاعر لو تشاو-لين والذي اشتهر خلال النصف الثاني من القرن السابع يقول:

«الأزواج من العصافير، تطير متلاحقة وتحوم
حول الأعمدة المرسومة،

وفي الستائر الشبكية والأغطية الزرقاء نثر عطر
يو الذهبي».

وهذا شاعر آخر من القرن التاسع هو تشن تاو كتب يقول:

«وفي ظُلّة الضوء دخان طيب الرائحة –عطر يو
الذهبي».

ويوحي ذلك المثال الأخير إلى نوع من البخور، أو إلى مادة ضبابية منثورة (بالرش). ولقد توافر في بداية القرن العاشر (على أقل تقدير) زيت الزعفران المعطر، ونعلم عن فريق من فتيات الجيشا ازدادت جاذبيتهن باستخدام أثمن المواد، ومن بينها عطر خشب الألوة المركز الذي كان قد تخلل ملابسهن، وزيت الزعفران الذي دَهَنّ به خصلات شعرهن المنسدلة على آذانهن.

ومثلما كان يفعل الرومان فقد كانوا في عهد تانج يمزجون النبيذ بقليل من الزعفران لإكسابه نكهة ورائحة. ولقد وصف الشاعر لي بو شراباً معطراً كهذا فقال:

«أفضل النبيذ في لان–لينج، معطر بعطر يو
الذهبي–
يأتيك في كؤوس مملوءة عن آخرها مصنوعة من
الزمرد والكهرمان الساطع».

وكان لشعراء القرن التاسع وَلَعٌ بالصور البلاغية اللونية، وكانوا يميلون للتجديد في هذا الصدد، وإن كانوا أحياناً قد وجدوا ضالتهم في أشعار السالفين. فالنبيذ الذي هو في لون الكهرمان (كما في قصيدة لي بو) التي أشرنا إليها لِتَوِّنا هو الذي أوحى بالاستعارة الخاصة بالعنبر في قصيدة لي هو، وهي هنا تشير إلى النبيذ. وهناك قصيدة أخرى نظمها لي بو تعكس استعارة سائدة في القرن التاسع: استعارة الزعفران، حيث يقول:

«أشجار الصفصاف الواهنة على سد النهر،
وأغصانها من ذهب يو».

وهذه رؤية لأوراق نباتية صفراء–حمراء كما تقول معاجمنا، وتحدد اللون بأنه

«زعفراني أصفر»، «ضارب إلى الصفار، وأصفر ضارب للحمرة»، زاه وعلى درجة عالية من التشبع، وباختصار لون أصفر برتقالي داكن ورائع. وبعد ذلك بقرن كتب وين تينج-يون عن «أشجار الربيع ذات اللون الأحمر المشابه لذهب يو» وهي كناية أقل جرأة من الصورة التي رسمها لي بو. وفي القرن ذاته تخيل لي شانج-ين حديقة مليئة بالفاوانيا (عود الصليب، وهو نبات ذو زهرات كبيرة حمراء، أو قرنفلية، أو بيضاء/ المترجم) على هيئة فتيات راقصات وتشكل أوراق الزهور ملابسهن السفلية، فكتب يقول:

«يثنين خصورهن، ويرقصن وكأنهن يتنافسن
ويرتدين ملابس مصنوعة من ذهب يو»

وهكذا فإن «ذهب يو»- أو «الزعفران» لم يوح بروائح غريبة أو عجيبة، بل كان ينم عن لون جميل محبب. ويبقى سؤال فني وهو: «هل كانت الصبغة التي أوحت بذلك المجاز كله هي الزعفران بالفعل، أم كانت الكركم؟». ولسوء الحظ فهو سؤال بلا جواب حتى الآن.

زهور الناجا

ثم كانت هنالك زهرة الناجا، والاسم على ما يبدو ترجمة لكلمة «ناجا بوشبا». ويقول توان تشنج-شيه إن «زهرة الثعبان الهندية تلك نبات من دون أوراق، وزهراته بيضاء ذات قلوب صفراء، ولكل زهرة ست بتلات (تويجات)، وكانت تأتينا عن طريق السفن التجارية الكبيرة». لكن «ناجابوشبا» اسم يقال للعديد من الزهور الهندية، ولا نعرف أيها هو الذي أشار إليه توان الذي كان قارئاً نهماً يهوى الاطلاع على كل ما يصادفه من كتب ومواد، كما كان من هواة دراسة الكتب البوذية، وعليماً بالأدب البوذي ومن ثم فإن الأرجح أنه قد استمد جزءاً

كبيراً من معلوماته حول النباتات الغريبة من القراءة بأكثر مما استمدها من الملاحظة المباشرة. ومع ذلك فقد يتمكن أي خبير بالشؤون الهندية القديمة من تحديد الزهرة من ثنايا الوصف الذي طرحه توان.

«ورقة نبات من بلاد بوذا»

ومن النباتات الهندية ذات الهوية غير المحددة «ورقة نبات من بلاد بوذا»، وكانت قندهار قد أرسلت عينات منها إلى تانغ عام 647. ويوصف ذلك النبات على النحو التالي: «خمس أوراق على الساق، وزهرة حمراء وإن كان قلبها أصفر تماماً، بينما السداة (العضو الذكري في الزهرة) ذات لون أرجواني». والاسم الصيني لهذا النبات ترجمة لكلمة سنسيكريتية هي: «بوذاكسترا»، وهي كلمة فسرت تفسيرات شتى لدى مختلف المذاهب البوذية، كما فسرها أيضاً الماهينيون المؤمنون بالبعث والحساب تفسيرات مختلفة، وهي على العموم تعني بلاداً تعترف بسلطة بوذا، وتتبع تعاليمه، ولكنها تعني أيضاً أمة مقدسة صوفية النزعة حيث يسود قانونه (أي قانون بوذا) في النهاية– «مدينة الإله» باستخدام مصطلحاتنا نحن، بل وأحياناً جنة يتطلع إليها المؤمن، خاصة جنة آميتابا الغربية. فهل كانت الأوراق الخمس لذلك النبات المقدس تمثل بلاد أو جنات بوذا الخمس؟ أم كان الطريق المقدس قد رسم بشكل غامض على كل ورقة؟.

النرجس

كان النرجس أصلاً نباتاً رومانياً، وقد عرفه الصينيون في العصور الوسطى. لكن الاسم الصيني له «ناي–جي»، شأنه شأن الاسم الإغريقي «ناركيسوس» قد جاء

على ما يبدو من الاسم الفارسي «نرجس». وكان لنوع النرجس الذي وصفه توان تشنج شيه زهرة وردية ذات قلب برتقالي. ويضيف الباحث الذي لم يكَلّ و لم يَمَلّ قائلاً: «...إنهم يأخذون تلك الزهور ويعصرونها للحصول على زيتها يدهنون به أجسادهم لطرد الأرياح، والهواء». وكان ملك بلاد روما ونبلاؤها يستخدمونه. كذلك يستخدم للتدفئة عندما يشتد الصقيع، وهذه كانت من المتاعب الصحية التي صنفها الصينيون تحت بند «أمراض الريح». ولكن في الحقيقة لا يتوافر أي دليل على مشاهدة توان تشنج-شيه هذا للزهرة أو لزيتها، وقد يكون رحالة ما قد عرض عليه عينة من أي منهما/ أو من كليهما)، ويبقى هو مصدر المعلومات الوحيد في هذا الصدد.

اللوتس

خلع الفيلسوف السُّونجي تشو تون-آي في مقالته الشعرية في امتداح اللوتس -خلع على الأقحوان (زهرة الذهب) صفة «الناسك الورع من بين كل الزهور»، وهي زهرة تعرضت للإهمال في العصور الحديثة، على عكس الفاوانيا (عود الصليب) التي كانت الزهرة المفضلة والشعبية في عهد تانج، وأقبل عليها العظماء وعامة الناس على حدٍّ سواء. فهو وحده -على حد زعمه- الذي أعطى اللوتس -أميرة الزهور- الإعجاب الذي تستحقه. وإذا كان لهذا الحكم عدالته ووجاهته فإن زهرة اللوتس في عهد تانج لم تفتقر للمعجبين، على الرغم من أنها لم تمتدح بشكل عام وعارم مثلما امتدحت الفاوانيا. وتنعكس قيمة اللوتس فيما آل إلينا من قصائد عديدة تدور حولها، وبصفة خاصة تلك الأغاني التي تصور جمعها باستخدام القوارب. وكان تاي تسونج الأعظم نفسه قد نظم شعراً حول ذلك الموضوع، كما أن السجل التاريخي لحكمه يبين أنه قد زار حديقة اللوتس. وهذا

هو الشاعر بو تشو–آي يصور جامعي اللوتس:

«على الشواطئ الصغيرة تقف قوارب اللوتس
الصغيرة،

نصفهم يجمع زهور اللوتس الوردية، والنصف
الآخر يجمع البيضاء؛

ولا خطر من هبوب رياح الشر أو الأمواج من
جنوبي كيانغ

هنا عند بركة نيلومبو عند الأريكة التي أرقد
عليها».

وكان طبيعياً في أشعار حول موضوع كهذا أن يصور الشعراء الزهور الكبرى وهي تقطف بأيدي فتيات جميلات من بلاد البحيرة الجنوبية، حيث كانت بشرتهن الوردية والبيضاء تفرض مقارنة حتمية مع زهور اللوتس –الأبيض منها والوردي، فهذه وتلك تمثلان إغراءً للنبلاء ورجال البلاط كما جاء في الأشعار الصينية. وعلى الرغم من حقيقة أن زهور اللوتس "الهندية" كانت معروفة في الصين من قبل عهد تانغ بزمن طويل فقد احتفظت بطابعها الغرائبي ونكهتها المدهشة. وفي كتابه عن الأدوية وتراكيبها كتب تشن تسيانغ–تشيه عن زهرة اللوتس فقال:«... تعيش في البلدان الغربية، ويأتي بها الغربيون إلى هنا»، ومن ثم فليس بمستغرب أن شعراء أواخر عهد تانغ الذين كانوا يحبذون الموضوعات الرومانسية والغريبة قد نظموا الكثير من القصائد حول اللوتس، ومن أبرزهم وين تينج–يون، ولو كِوي–مينج. كذلك فقد ألهمت الرسامين في أواخر عهد تانغ الذين وجدوا فيها شيئاً متلائماً مع طبيعتهم وميولهم – رجالاً مثل تياو كوانج الذي رسم اللوتس والخيزران على جدران المعابد البوذية في شزوان، وبقيت لوحته «اللوتس والبط ذو العنقود» حتى عهد سونج. وهناك أيضاً الفنان تشو هوانج الذي ينتمي لأواخر عهد تانغ والذي رسم لوحتين للموضوع ذاته، وثالثة تجمع بين

اللوتس وطيور أخرى.

ولقد أدى استمرار تدفق الصور البلاغية البوذية من الهند إلى استمرار الهالة الغرائبية التي أحاطت باللوتس، فقد كانت تلك الزهرة (باعتبارها رمزاً للكيان الذي خلق نفسه) شيئاً أصيلاً في ديانة ما قبل البوذية في الهند، فهي -كصورة للبراهما وقد تحول إلى بوذا- قد مثلت كائناً نقياً يرتفع من الطين دون أن يتسخ به، كما أنها في عقيدة آميتابا كانت ترمز إلى الميلاد الطاهر الجديد في الجنة الغربية. وبصفة خاصة فإن «البودستافا» والذي تشير ترجمته إلى الصينية إلى «زهرة اللوتس التي هي يد بودستافا» يجسد تغلغل الصور البلاغية لزهرة اللوتس في البوذية الماهيانية، وليس أدل على ذلك من وجود مذهب بوذي يعرف باسم «مذهب اللوتس» في تيان-تاي، والذي يحمل الكتاب المقدس الخاص به اسماً تعني ترجمته إلى اللغة الصينية «القانون الإعجازي وحكمة زهرة اللوتس»، وقد كان لذلك المذهب نفوذ هائل في عهد تانج، ويفترض أن مؤسسه هو الراهب المتسول هوي-يوان، وأنه قد بشر به في أواخر القرن الرابع عند «بركة زهور اللوتس البيضاء»، وإن كانت الزهرة المعنية -على الأرجح- هي زهرة السوسن (الزنبقة المائية) وسواء كانت اللوتس أو السوسن فقد كانت زهرة اللوتس الصينية البيضاء معروفة تماماً في عهد تانج، وكانوا يتفاءلون بأنواعها الغريبة، وامتدحوها في الكثير من قصائدهم. ومن بين ما لفت أنظارهم وجود زهرتين على عود واحد، وزهور متعددة التويجات وما شابه ذلك من غرائب جديرة بالإشادة. ولقد ألهمت الرسامين بالقدر ذاته، خاصة زهور اللوتس وردية اللون، تليها زهور اللوتس البيضاء. ومن أبرز معالم إحدى البرك في قصر هسوان تسونج تلك التي كانت تضم زهور اللوتس «ذات اللون الأبيض المزدوج»، وزهور اللوتس البيضاء «ذات الألف تويجة» كما كانت تسمى في عهد تانج، وإن يبدو أن أحداً لم يشاهدها خارج أسوار القصر على الرغم من وفرة الإشارة إليها في الأدب (ربما

يرجع ذلك إلى الخلط بينها وبين زنبقة الماء -السوسن)، كما يبدو أنها لم تكن تزرع في شمال الصين. ويخبرنا أستاذ من القرن الثاني عشر بأنه لم يكن ثمة زهور لوتس بيضاء في لو-يانج قبل القرن التاسع حين جلبها البستاني الشاعر بو تشو-آي لأول مرة من تشيكيانج، وغرسها هناك (أي في لو-يانج). والواقع أن بو قد نظم العديد من الأشعار حول زهرة اللوتس البيضاء. ولقد تفاخر معاصره الشاعر لي تي-يو بأنه قد كتب أول قصيدة حول موضوع زهرة اللوتس البيضاء، وقال إن «الناس في الماضي قد نظموا الشعر حول زهور اللوتس وردية اللون فحسب، و لم يكتب أحد شعراً عن هذه -أي اللوتس البيضاء...» وباختصار فقد ظلت زهور اللوتس البيضاء شيئاً غريباً حتى في القرن التاسع، وحتى حينئذٍ لم يلتفت إليها سوى هواة الحدائق والزهور من أمثال بو تشو-آي، ولي تي-يو. وفي قصيدته القصيرة بعنوان «زهرة اللوتس البيضاء» استخدم بي جي-هسيو غرائب هندية، وفيما يلي محاولة لترجمتها:

«وحتى الزبدة لا تباري نقاوتها؛

وكل ما أستطيع قوله أن التشامباكا رائعة روعة أريجها،

فهي شبه مندلية، ومسحوقها كالذهب-إني أعرف كيف تبدو:

فتاة هادئة مطيعة تتكئ على سيل يعكس صفار جبهتها».

فالتراب الأصفر الذي كان جبين الفتاة في ذلك التشبيه كان من مستحضرات التجميل الشائعة، وكان يلون بالماسيكوت (أول أكسيد الرصاص)، وربما بالرّهج الأصفر (كبريتوز الزرنيخ الأصفر).

أما زهور اللوتس وردية اللون فقد كانت مألوفة (على عكس البيضاء والتي لم

تكن من الزهور التي تستخدم كل يوم). كذلك فقد كانت زهور اللوتس الزرقاء والصفراء من الزهور النادرة تماماً. والواقع أن اللون الأصفر لم يكن بين ألوان اللوتس الشائعة في العالم القديم، إن كانت هناك زهور لوتس أمريكية صفراء. ولقد عرف قوم تانج زهور اللوتس الصفراء- إذا كانوا قد عرفوها على الإطلاق- من خلال الفنون الدينية أساساً. فعلى سبيل المثال هنالك لوحة عثر عليها في تون- هوانج تظهر بوديستافا أنثى- ربما كانت تارا، أو آفالوكيتسفارا مؤنثة- وقد ارتدت إزاراً وردي اللون، ومنديل عنق بنياً مائلاً للأصفر يتدلى على صدرها، وحزاماً رمادياً وروباً (ثوباً فضفاضاً). والمخلوق المقدّس يُرى جالساً، «.... وقد وضع قدماً فوق أخرى» على زهرة لوتس صفراء، في لوحة من منتجات التبجيل على الطريقة الهندية. وعلى الرغم من أن زهور اللوتس الصفراء كانت معروفة جيداً في أوساط هواة الزهور في سونج فإنها نادراً ما شوهدت في تانج. ففي قصيدة نظمها تشاو كو في منتصف القرن التاسع بعنوان «أشاهد زهور اللوتس الصفراء في يوم من أيام الخريف في وُو-تشونج» يبين كيف وجدها في بحيرة مليئة بزهور اللوتس الحمراء، وقد «تراكمت طبقة فوق أخرى». فهل كانت هذه انحرافاً عن سمات النوع الأحمر؟ أم كانت من صنع بستانيّي تشيكيانج المهرة، وما أكثرهم في تلك المنطقة حيث كانت رعاية الحدائق فنّاً شعبياً؟ الاحتمال الثاني هو الأرجح. وثمة إشارت إلى زهور اللوتس الصفراء حتى قبل عهد تانج. فعلى سبيل المثال جاء في أحد كتب العجائب القديمة (ويرجع إلى حوالي القرن الرابع) أن ثمة زهور لوتس صفراء في المجاري المائية الجبلية في هونان. ومع ذلك فإن هذه -على الأرجح- لم تكن زهور لوتس على الإطلاق، وإنما واحدة من أقربائها الأقل درجة ومنزلة - زهور الزنبق المائية أو السوسن، أو زهور النوفاز.

وهكذا فقد كانت زهور اللوتس الصفراء مجرد أشياء نادرة ومن غرائب الطبيعة. أما الزرقاء فقد كانت مفعمة بما هو فوق الطبيعة، ويبدو أنها كانت موجودة بالفعل

في عهد تانج ولكن كمنتجات للفنون السحرية فحسب، وإن كان لا ينبغي لذلك أن يجعلنا نرفضها باعتبارها شيئاً غير حقيقي. فغالبية زهور اللوتس تظهر في رسومات في الكتاب الديني الذي عثر عليه في تون–هوانج على هيئة عروش مقدسة وصفات إلهية هي من النوع الأبيض،أو الوردي، أو القرمزي، وقليل منها كان أزرق اللون. فهناك رسم لأفالوكيتسفارا «في مظهر تبتي خالص»، ولحمه مذهب ويمسك في يديه أغصاناً تحمل زهور لوتس زرقاء. وهناك أيضاً تصوير لمانجوسري يرتدي ملابس في لون الطماطم الحمراء وغيره من الألوان الزاهية، جالساً على مقعد على هيئة زهرة لوتس زرقاء، وهذه بدورها «...مرفوعة فوق قاعدة على صهوة أسد ذي عرف وذقن وذيل لونها أخضر». ولقد كان لزهور اللوتس الزرقاء استخدام أكثر تواضعاً، فهي تظهر على مقدمة أحذية «وصيفتين» في لوحة صلصالية ملونة، وتحمل الوصيفتان في دوائر شعرهن الكعكية المزدوجة بعض الزهور، وترتديان سترات ذات أكمام طويلة لها «ياقات ميديسية» (نسبة إلى عائلة مديسي الايطالية التي حكمت فلورنسا في القرن الخامس عشر ووصل أربعة من أعضائها إلى منصب البابا، واشتهرت بما كان يرتديه أفرادها من ملابس أنيقة/ المترجم).

ولا توجد زهور لوتس زرقاء في الطبيعة، ورغم ذلك ثمة مزاعم ملحة في أدب كلٍّ من تانج وسونج أنه كان بوسع الناس زراعتها. فهذه دائرة معارف مبكرة من عهد سونج تكرر قصة (بلا مصدر وإن افترض أنها تعود لعهد تانج) عائلة من الصباغين في هو–تشوكان بوسعهم صنع زهور اللوتس الزرقاء (وقد نكون على استعداد لقبول تلك الرواية نظراً لأن هو–تشو هذا قد عاش في تشيكيانج الشمالية، مركز البساتين في الصين). وتقول القصة إن كبير المسؤولين المحليين قد أرسل كمية من بذور زهور اللوتس الزرقاء إلى العاصمة حيث غرست في برك القصر، ولكن بعضها أنتج تويجات وردية اللون:

«ولهذا فقد تعجبوا من أمرها، فطلبوا استفساراً من الصباغ الذي رد قائلاً: في منزلي رجل هو وصي بحكم الوراثة على قِدر (جَرّة) النيلة (صبغة نباتية زرقاء)، ومن ممارساته نقع بذور اللوتس في قاع ذلك القدر (أو الجرَّة) النيلة (صبغة نباتية زرقاء) ، ومن ممارساته نقع بذور اللوتس في قاع ذلك القدر (أو الجرة) ثم يتركها هكذا لمدة إثنتي عشرة سنة، ثم يقوم بغرسها، فإذا بها تنتج زهوراً وردية اللون، إذ يبدو أنها تعود إلى أصلها، وليس في هذا الأمر أية غرابة».

وبتلك الطريقة كانت «زهور الجنان» تتحقق في ««الحدائق العلمانية»»، وحتى ذلك البستاني الأحدب كاميل كو (وقد أشرنا إليه آنفاً) قد نسب إليه فن إنتاج زهور لوتس ذات زرقة داكنة بنقع البذور في صبغة زرقاء. فهل يمكن القول بأن ذلك الرجل ضئيل الحجم لم يكن أسطورة– قبل وبعد كل شيء؟.

والأغرب من ذلك قصة أحد أقرباء هان وي المزعجين والذي كان خبيراً ماهراً في الفنون الطاوية، وكان قد عرف في آداب الأجيال اللاحقة باسم هان هسيانج– تزو أحد ««الخالدين الثمانية»»، وراعي العرافين، وقد صور في الأياقين وهو يحمل طبلاً مصنوعاً من البوص ومصفقات خشبية، أو وهو يحمل سلة من الزهور أو دراق الخلود، أو يعزف على الناي. وكما أفاد توان تشنج–شيه في القرن التاسع فإن هذا الساحر الشاب كان يعالج جذور الفاوانيا بمواد كيماوية مثل اللُّك، والكالوميل لإنتاج (بعد عدة أسابيع) زهور زرقاء، أو صفراء، أو أرجوانية، أو حمراء حسب الطلب. ويزعم أن بعض التويجات قد تحولٌ إلى زهور فاوانيا كاملة ذات لون أرجواني. وقد يكون كثيراً من قراء كتابنا هذا قد حولوا كؤوس أزهارهم إلى اللون الأزرق بتخصيب التربة حول الجذور بأملاح الحديد باستخدام الطريقة البسيطة التي تنطوي على دفن المسامير أو علب الصفيح القديمة بالقرب منها، ومن ثم فإنهم لن يستغربوا طريقة هان تلك التي مكنته من إنتاج زهور ملونة تلويناً

اصطناعياً. وربما لن يكون هؤلاء القراء قد علموا بطريقة رومانية وصفها بليني على النحو التالي:

«ولقد اخترع أيضاً طريقة لتلوين زهور الزنبق (السوسن) ... حيث تنقع السيقان في براميل النبيذ الأسود أو النبيذ الإغريقي حتى تكتسب لونه، ثم تغرس في حفر صغيرة ويصب حولها مقدار من ذلك النبيذ، ومن ثم يمكن الحصول على زهور سوسن أرجوانية اللون...».

وواضح أن المترجمين الجادين الذين قاموا بترجمة ذلك النص قد تأثروا بما اشتهر به بليني هذا من أنه كان على استعداد تام لتقبل «الكلام الفارغ» دون التشكيك. ففي حاشية على النص قالوا: «ولقد لاحظ أن الإجراءات المكلفة التي وصفها بليني بجدية تثير السخرية، ولا تتيح مجالاً لأية مناقشة». ولعل نقاد بليني في تناقص، ذلك أنه بانتشار الخيال العلمي والعلم الخيالي باتت حدود الممكن مفتوحة.

وعلى أية حال يبدو أن الزهور الزرقاء عموماً قد أثارت الشكوك على الدوام. فهذا هو روبرت فورتشن، وهو من أكبر جامعي النباتات الصينية، قد أشار في خطاب إلى چون لندلي، أمين الجمعية البستانية في لندن، إلى «الفاوانيا ذات أزهار زرقاء، وإن كان وجودها مشكوكاً فيه». وقد تكون الفاوانيا الزرقاء قد بقيت في الصين كمجرد ذكرى شعبية لبراعة هان الطاوي. ولكننا قد نقرأ الآن عن السورنجان، ذلك العقار السام الذي يستخرج من نبات يرتبط بزعفران المراعي، والزعفران الأصفر (زعفران الخريف) والذي يسبب حدوث طفرات في نباتات أخرى مثل الأنواع متعددة التويجات والواقع أن أسرار الطاويين قد باتت في خطر من أن تصبح أموراً عادية.

وزنبق الماء (النيلوفر) —من الناحية الأخرى– زهور عادية تماماً، وإن بدت غريبة وعجيبة بالنسبة للصينيين. فهذا تقرير يعود لعام 647 يقول:

«قدمت كشمير زهور نيلا أوتبالا، وهي ذات تويجات تشبه تويجات اللوتس، وهي على هيئة (دوائر متداخلة، ولونها أزرق داكن بينما كانت السداة صفراء اللون، ويمتد عبيرها إلى عشرات الخطوات حولها».

وأحياناً كانت زنبقة الماء الهندية تسمى باسم «اللوتس الزرقاء» (والواقع أن الخلط بينهما شائع في كل أنحاء الدنيا– فهناك أيضاً زهور اللوتس الزرقاء المصرية)، وقد رسمت تلك الزهرة في لوحة تظهر مانجوسري ممسكاً بها، واسمها العالمي الحقيقي هو «نمفيا كاريوليا».

وفي العام ذاته أرسلت مملكة كابيسا (التي عُرفت بأنها موطن الأبطال المتوحشين الملتحفين بالصوف) «مبعوثين يحملون زهور الكيومودا ذات اللون القرمزي المختلط باللون الأبيض، وكان يمكن اشتمام شذاها من على مسافة بعيدة». وبتتبع اسم تلك الزهرة الغريبة في اللغة السنسكريتية نجد أنها لم تكن سوى «النمفيا اسكيولنتا»، وهي نوع من زنبقة الماء البيضاء (وربما كانت ن.آلبا)، ولكننا نستنتج من لونها المرقط أنها مجرد طفرة حدثت للنوع الأصلي. وفي الأدب الديني نجد زنبقة الماء البيضاء وقد أصبحت عربة تقل الإلهة لاكشمي، وأيضاً آفالوكتسفارا، ويظهر الأخير في رسم على الحرير (يرجع إلى القرن العاشر، وكان قد عثر عليه في تون–هوانج) جالساً على زنبقة مائية بيضاء. والواقع أنه كان لتلك الزهرة الجميلة ما هو أكثر مما خلع عليها من قدسية. فقد كانت الصورة المرئية لأحد الآلهة —ديفا إله القمر، أو «كاندرا» كما كان يسمى أحياناً، أو «سيد زهرة الزنبق البيضاء». ولا بد أن نذكر أنفسنا دوماً بأنه لم يكن هناك تمييز واضح بين تلك

الزهرة وزهرة اللوتس البيضاء الأكبر حجماً في كل من الأدب، وفن صناعة الأياقين.

من هنا لا بد أن توضع في مرتبة زهرة اللوتس المصرية القديمة. وعلى الرغم من أنها كانت مألوفة لدى قوم تانج من خلال الفن البوذي، فليس هناك ما يؤكد أن زنبقة الماء الهندية –زرقاء كانت أو بيضاء– كانت معروفة جيداً في صين العصور الوسطى، وكانت لها مكانتها الخاصة، ومن ثم يمكن وصفها بأنها من الغرائب «غير العادية» حتى في يومنا هذا.

ويلاحظ أن لدى الصين نسختها الخاصة من زنبقة الماء، ولكنها محصورة في أقصى الجنوب، ولم تكن في عهد تانج أكثر من مجرد زهرة كثرت حولها الأقاويل والشائعات، ويحيط بأصلها الغموض. ولقد سموها «اللوتس النائمة» في اللغة الصينية، ولكنها في الحقيقة «زنبقة الماء القزمة» (ن.تيراجونا)، ،تظهر فيها زهرة بيضاء صغيرة، وينبثق اسمها من حقيقة أنها:

«... تتفتح في أيام الصيف، لكنها تنكمش ليلاً وتغطس في الماء، ثم تخرج منه نهاراً. أما الزهرة التي يسمونها "عشب الأحلام" فتدخل الأرض نهاراً ثم تنبثق مرة أخرى في الليل–فالعكس بالعكس، لكن لون عشب الأحلام أحمر، وهي الزهرة التي قدمها فانج–شو إلى وُو تي».

وهكذا فحتى هذه الزهرة المحلية ذاتها قد شبهت بمخلوقات من العالم الآخر.

«سيدي يحتقر بساتين بلاده..

ويعشق كل أجنبي من أزياء وأشجار..

تباً له!

حين يلوذ بمائدة من خشب اللوز..

ولكن كلا!

فالماهوجني الأحمر يسري في دمي..

ويشهد على كل دولاب وكرسي في حجرتي..

شحن عبر بحار خطيرة..

من بلاد بعيدة..»

توماس وارتون، «عن الكماليات»



الفصل الثامن

الأخشاب

كان لدى قوم تانج تشكيلة رائعة من الأخشاب التي وفرت لهم المصنوعات المفيدة التي كانوا بحاجة إليها والتي تعودوا عليها: خشب الورد لصناعة مقابض البُلَط، وخشب العُنّاب المر المتين ذو الحبوب الدقيقة لصنع محاور (دواليب) العربات والملاعق وعصي تناول الطعام، وخشب الكافور (من جنوبي نهر اليانجتسي) لصنع القوارب، وخشب البولوفينا (من شزوان) لصنع القانون (آلة موسيقية وترية وكانوا يزودونها بِحلوى من اليشم وأوتار من الحرير يأتون به من تشكيانج)، والقيثارات الجميلة التي اشتهرت بها صين العصور الوسطى. ومن حسن الحظ أن آلت إلينا قيثارة «منقرضة» من عهد تانج تم ترميمها بكل دقة وحذر وتوجد في متحف الشزوين، وهي مصنوعة من خشب البالوفينا ومرصعة بأشكال الطيور وأزهار مصنوعة من «أم اللآلئ»، ولها ثلاثة وعشرون وَتَراً مصنوعة من عظام الغزلان، وهي على هذا النحو مثال رائع لتميز المصنوعات الخشبية في عهد تانج.

وكانت المنتجات الخشبية المصنوعة في أقصى جنوب الإمبراطورية تلقى طلباً هائلاً حيث تركز ما تبقى لها من غابات هناك بأكثر مما تركز في الشمال، كما أن تلك المنطقة شبه الاستوائية كانت غنية بالأخشاب المتينة. وكان الكثير من الأشجار المنتجة للأخشاب يوجد في الهند – الصينية بمثل وجوده في الصين، ومن ثم فإن الأخشاب كانت سلعاً «نصف غريبة»، ومنها الشجرة المعروفة باسم «نخلة الريش» والتي كانت تعرف باسم «جوموتي» في لنجنان والهند – الصينية، وكانت توفر خشباً جيداً ذا لون أسود– أرجواني كان الأكثر تفضيلاً في صناعة رقعات الألعاب (مثل الشطرنج)، إلى جانب ما كانت توفره من ليف لربط ألواح

السفن، وطحين الساجو (دقيق يعد من نخيل هندي وماليزي) الذي كان يستخدمه صناع الفطائر. ومن تلك المنطقة نصف الصينية ذاتها أتى نوع من أكثر أنواع الأخشاب نفعاً وهو الخيزران الذي كان يستخدم في صنع العديد من أدوات المطبخ. وكانت أنواع عديدة منه تنمو في وسط وجنوب الصين. وكانت الأشياء المصنوعة من «الخيزران المرقط» هي الأكثر قيمة لدى البيوت الثرية والأرستقراطية. ولهذا النوع بقع ضاربة للأرجواني على الساق، ويستخدم في كافة أغراض الزينة، وإن شاع استخدامه بصفة خاصة في صنع مقابض فرش الكتابة الفاخرة، وتوجد نماذج منها في متحف الشزوين، وهي مطعّمة بالعاج أو الذهب أوالفضة أو خشب الصندل الأحمر.

وكان الخيزران المرقط يستورد من هوان-تشو في تونجكنج، ومن علو مكانته كانوا أحياناً يلجأون إلى تقليده، إذ توجد ضمن مقتنيات متحف الشزوين قطع مصنوعة من البامبو المرقط المقلد (ولم تعرف بعد المادة التي صنع منها)، ومن أمثالها صندوق من خشب البرسيمون الأسود لحفظ أدوات الكتابة بالأحبار.

وفي أوائل القرن الثامن وصل بناء القصور وتأثيثها إلى أعلى درجات الفخامة، سواء لأعضاء الأسرة الإمبراطورية أو لكبار الأرستقراطيين، أو للمنشآت البوذية. وهكذا كان الطلب على الأخشاب كبيراً، وأُنفقت أموال طائلة على تجريد جبال بأكملها من أجل الحصول عليها، الأمر الذي جعل الإنتاج المحلي غير كافٍ، ومن ثم تم اللجوء للاستيراد من الخارج، خاصة بالنسبة للأخشاب الملونة والعطرية. ولقد سادت صرعة بين الطبقات الأرستقراطية لصنع الأشياء والأدوات ذات الاستخدام اليومي من تلك الأخشاب الأجنبية الثمينة، بحيث كانت منازل العظماء تفوح بتلك الروائح الاستوائية. وكمثال على ذلك الوصف الذي طرحه لي هو لرحلة قامت بها إحدى الأميرات، فقد صورها هي ووصيفاتها وقد ارتدين ملابس تغطي أجسادهن بالكامل وكأنهن ذاهبات للحرب، كما صور جواريها

وقد امتطين صهوات الجياد وارتدين عدة حربية (دروعاً) من سلاسل متصلة مصنوعة من البرونز اللامع، ويحملن رايات مصنوعة من الشاش الفاخر وتتدلى من أعمدة مصنوعة من خشب عطري، ومزينة بالذهب. ولكي يتسنى للصناع العاملين بالقصور توفير كل تلك المستلزمات الفاخرة، وأيضاً تلبية متطلبات الاحتفالات الرسمية الجادة فقد كانوا بحاجة إلى كميات كبيرة من أخشاب جزر الهند (الشرقية) النادرة، ومن ثم فقد كانت هذه تتدفق على البلاد في عهد تانج عن طريق المحمية الآنامية وميناء كانتون الكبير. ومن أهم تلك الواردات خشب الساندرز والذي كان يعرف في تانج باسم «خشب الورد الأرجواني»، و«خشب الورد الزهري»، وكذلك خشب الصندل الذي كان يسمى «خشب الصندل الأبيض»، أو «خشب الورد العطري».

خشب الساندرز (خشب الصندل الأرجواني)

«يأتي خشب الكاندانا الأرجواني من وديان كوورونج، وبان-بان، وعلى الرغم من أن أشجاره لا تنمو في هساي الوسطى فقد كان متوافراً في كل مكان هناك». هذا ما قاله الصيدلاني التانجي سو كونج في معرض حديثه عن شيوع خشب الساندرز الأحمر في عهد تانج، وقد اسماه باسم هندي جزئياً «الكاندانا الأرجواني»، أي «خشب الصندل الأرجواني» حيث أن هذا الخشب الممتاز والمفضل في صنع الدواليب (الخزائن) كان يربط بينه وبين خشب الصندل من ناحية، وخشب الورد من ناحية أخرى في صين العصور الوسطى. ولقد تبع الارتباط في المعنى ارتباط آخر في اللغة حيث كانت كلمة كاندانا تمثل بحرف صيني قديم كان يرمز لخشب الورد. وكان ساندرز الملايو هو الأكثر شيوعاً في الصين، وكان لونه ضارباً إلى الصفار أو يميل إلى اللون الأحمر، وله رائحة مثل رائحة الورد. وربما جاء إلى صين العصور الوسطى بعض من أقاربه البعيدين مثل خشب أنداماان بادوك الجيد، والساندرز الهندي الذي لا رائحة له والذي يستخدم

في المعمار ويستخلص منه مسحوق ملون كان يستخدم في تمييز الطبقات الاجتماعية.

ويشتهر الساندرز بكونه صبغة بقدر شهرته كخشب، وكانت تلك الصبغة تستخدم في العصور الوسطى في أوروبا لتلوين الصلصات، كما استخدمت صبغة الساندرز الماليزي في صبغ المنسوجات في عهد تانج. كذلك فقد كان «خشب الورد الأرجواني» مادة مفضلة في صناعة الآلات الموسيقية الوترية، والعود على وجه الخصوص. ويغص شعر تانج بإشارات وتلميحات إلى الأعواد المصنوعة من خشب الساندرز. فعلى سبيل المثال كتب مينج هاو-جان يصف إحداها وكان مزيناً بالتبر. وفي نارا، وفي متحف الشزوين على وجه التحديد يمكن إلى الآن مشاهدة أعواد أنيقة مزينة من أنواع مختلفة، مثل عود تانج ذي الأوتار الخمسة (وهو الوحيد من نوعه) وقد صنع من خشب الساندرز المرصع بأشكال لزهور من اللؤلؤ وقواقع السلاحف والكهرمان. وفي المتحف أيضاً يمكن مشاهدة «الجنكان الياباني» أو «عود تشن» المسمى على اسم واحد من «حكماء بستان الخيزران السبع»، وهو أيضاً مصنوع من خشب الساندرز ومرصع بأشكال لببغاوات وغيرها من المواد النفيسة الثلاث ذاتها.

كذلك فقد استخدم خشب الساندرز الرائع في إنتاج العديد من الأشياء الصغيرة الأخرى، ومن حسن الحظ فقد آلت إلينا نماذج كثيرة منها. ففي متحف الشزوين يوجد صندوق مستطيل لتلقي الهبات المقدمة لبوذا، وهو مرصع بالذهب ترصيعاً متوافقاً مع حبيبات الخشب المصنوع منها، كما توجد صفائح من بلّورات صخرية على لوحات الزهور الملونة؛ ومسند للذراع استخدمه الإمبراطور شومو ومزين بالذهب وخشب الكافور والعاج المرقط؛ ورقعة شطرنج مرصعة بأشكال حيوانية من العاج المشكل على هيئة ورود؛ ورقعة اللعبة «الستة المزدوجة» بأشكال الزهور والمرصعة برقاقات الذهب والفضة؛ ومبخرة ذات مقبض طويل عليها أشكال

لزهور وطيور وفراشات مصنوعة من الذهب، والبلور الصخري، والزجاج الأخضر -وكل هذه العجائب مصنوعة من خشب الساندرز الأحمر. ويزودنا الأدب بأوصاف العديد من الأشياء الثمينة الأخرى: مجموعة من المناضد نصف كل منها من الكافور والنصف الآخر من الساندرز كان يملكها أحد الوجهاء من القرن التاسع؛ وطبق رنان من «الياقوت الأبيض» يتدلى من إطار مصنوع من الساندرز وكان ملكاً لسيدة جميلة في البلاط في القرن ذاته وكانت قد ضربته بمطرقة مصنوعة من قرون الكركدن. وكان الراهب ذو الميول الشعرية كوان- هسيو (الذي عاش ثمانين عاماً في القرنين التاسع والعاشر/ المترجم) قد كتب عن باغودا (هيكل أو معبد متعدد الأدوار كما في الهند والصين/ المترجم) يرجح أنه مصغر بني من «كاندانا أحمر». كذلك فقد احتفظ الإمبراطور تاي تسونغ (وكان من أشد المعجبين بالخطاط وانج هسي-تشي) بنماذج من كتابات ذلك الخطاط ووضعها في هيئة كتاب مطوي مربوط إلى شبكة من الشاش الأرجواني، وضع على لفاف من خشب الصندل له مقبضان من الساندرز الأحمر.

خشب الورد

يقصد بـ «خشب الورد» بالمعنى الدقيق كافة الأفراد في عائلة «دالبرجيا» التي يقدرها صناع الأثاث في كل أنحاء العالم للونها الداكن الرائع، وأنماط ترقيشها الجذابة. والواقع أن الاسم يشير إلى رائحة ذلك النوع من الأخشاب، وليس إلى لونه. ويوجد أنواع من الدالبرجيا في آسيا وأفريقيا وأمريكا الاستوائية (وإن كان بعضهم هناك يسميه «الخشب الأسود» نظراً للونه البني الداكن) ومن أبرز أنواع خشب الورد «دالبرجيا سيسويدز» من (جاوه)، و«د.لاتيفوليا»، «د. سيسو»، وكلاهما من الهند.

وكان الطلب على النوع الأخير كبيراً في بلاد فارس القديمة عندما كانت تحت حكم أسرة الآشمند، وكان يستخدم في صوصا- على سبيل المثال- جنبا إلى

جنب مع خشب الأرز والسَّرْو لصنع المقاعد الفاخرة وهياكل الأسِرَّة.

وكان صناع الدواليب (الخزائن) يستخدمون بعض أنواع خشب الورد في عهد تانج، والكثير من تلك الأخشاب لا بد قد كان من النوع "د.هينانسيس" الذي يسمى «خشب لي المزُهرّ»، وكما يوحي الاسم فقد كان يأتي من جزيرة هينان إلى ميناء كانتون. وربما استخدموا أيضاً بعض أنواع من خشب الورد المنتج في الهند الصينية. ولقد كتب تشن تسانج تشي في القرن الثامن يقول: "يأتي من أنّام، ونان-هاي، ويستخدم في صنع الأرائك والدفوف، ويشبه خشب الصندل الأرجواني وإن كان لونه أحمر، وهو خشب جامد وجيد" كذلك فقد كان لخشب الورد ذي التجزيعات الرائعة استخدمات طبية :فالوسائد التي تصنع منه تشفي من الصداع.

خشب الصندل

خشب الصندل هو اللُّب الأبيض أو الضارب للصفرة لشجرة طفيلية صغيرة تنمو في الهند، وجاوه، وأرخبيل سوندا، وهو يشبه – على حد قول تشن تسانج-تشي- "خشب الورد الذي لدينا"، بمعنى أنه يمكن مقارنته بالخشب من نوع دلبرجيا الصيني. وعلى الرغم من كثرة استخدام صفة "أبيض" فإن الأصفر هو اللون الطبيعي لذلك الخشب ذو الرائحة الطيبة، والذي يرغبه الناس لرائحته من ناحية، ولأن الحبيبات التي يحفظها زيته الخاص تصلح تماماً لصنع منحوتات ذات قيمة دينية كبيرة مثل الصور الصغيرة والصناديق الخاصة بحفظ الجواهر، وغيرها من الكنوز الصغيرة. ولقد كان للتطبيقات الدينية تلك الأهمية الكبرى، فالدور الذي يلعبه خشب الصندل في جنوبي وشرقي آسيا شبيه بدور خشب الأرز في الشرق الأدنى القديم حيث كانت أخشاب معبد سليمان، وتوابيت المومياءات المصرية رمزاً لخلود الروح.

ولا يمكن على وجه الدقة تحديد المصادر الأساسية لخشب الصندل في عهد تانج،

فالخشب الخام، والمصنوعات معاً كانا يأتيان من الهند وجزر الهند (الشرقية)، ولكن تبقى المصادر المؤكدة والمقادير النسبية الموردة لغزاً محيراً. وكانت إحدى البلاد الإندونيسية المسماه "داباتانج" (وهي ربما كانت ما هو سومطرة الآن) قد أرسلت خشب الصندل للبلاط في عام 647 وعدا ذلك يبدو أن الواردات منه كانت تخفى تحت بند الجزية والهدايا من المواد العطرية النادرة في السجلات الرسمية، أو تحت بنود مجمعة أخرى.

ولقد كانت لخشب الصندل مكانة بارزة في الطب الشرقي. ويذكر تشن تسيانج تشي أنه كان يُستخدم للقضاء على «الأبخرة الشيطانية»، «وقتل المخلوقات الزاحفة». ولقد فسرت الفضيلة الأولى على أنها «طرد الغازات (الأرياح) من المعدة والأمعاء». وكان العرب في العصور الوسطى يستخدمون خشب الصندل لعلاج المغص المعوي، وبالتأكيد فإن تلك كانت ممارسة هندية الأصل، مثلما كانت عادة استخدام مسحوق الصندل كمستحضر للتجميل، وكانت قد انتشرت بين الشعوب "المهندوة" في إندونيسيا. لكن الأدوية ومستحضرات التجميل لم تكونا شيئين منفصلين في عالم العصور الوسطى، وكما جاء في الترجمة الصينية التي أعدها باراميتي للكتاب «سورانجاما—سوترا» في عام 705 فثمة نصيحة طبية تقول: "ضع لصقة من الكاندانا الأبيض على الجسم وسوف تتخلص من الحمى والكرب كله" فالرائحة الطيبة التي تنبعث من خشب الصندل رائحة مقدسة تكشف للأحاسيس الخاصية المضادة للشياطين الكامنة داخل جسمه شبه الإلهي ولذا كان خشب الصندل أنسب المواد التي تنحت منها الأجساد العطرة للآلهة، مثل الصورة المنحوتة منه للأفالوكيتسفارا التي شاهدها هسوان تسانج. وكانت تماثيل أخرى منحوتة من خشب الصندل بأحجام مختلفة تقدس وتبجل في الشرق. ولقد امتدت الصورة لتجعل من خشب الصندل نعتا لإله حي، كما كان الحال في بوذا الجنوب، واحد من الأرواح العشرة للاتجاهات، والذي لقب باسم «الساطع بالصندل واللؤلؤ».

فخشب الصندل وما ارتبط به من مشاعر وصور بلاغية كان قد جاء إلى الصين بتأثير من البوذية الهندية قبل عدة قرون من عهد تانج، وظهرت كلمة "كاندانا" أي «الصندل» في الصين في عام 357 وإن كانت آنذاك تشير إلى "بلد من جزر الهند"، ثم كاسم لشجرة في عام 454، وفي البداية كانت تلك الكلمة تكتب بحروف صينية توحي في مجملها بالمنطوق "كاندانا"، وفسرت على أنها تعني "خشب الورد الأحمر"، و"خشب الورد الحقيقي". وهذا شيء محتمل تماماً لأن خشب الورد الصيني كان يعرف باسم "دان"، وبسهولة، وبشكل طبيعي تماماً ظهر الاسم الناضج "خشب الورد العطري". وفي عهد تانج، وحين وصل النفوذ الثقافي البوذي إلى ذروته أنتج عدد لا حصر له من الصور المنحوتة، وكان غالبيتها من خشب الصندل. ومن أمثلة ذلك رؤيا الجمعيات التسع للمخلوقات الإلهية، والتي جاء وصفها في "بودهافا تام ساكا- سوترا"والتي حفرت على قطعة من خشب الصندل بمعرفة نحات أجنبي (مجهول للأسف) بمساعدة ستين من الصناع، وقد زينت بالجواهر. ولقد وضعت تلك التحفة في معبد كاي-يوان في كانتون بمعرفة هسوان تسونج، وهناك شاهدها "الحاج" تشاين- تشن. ويتحدث "حاج" آخر هو الياباني إنِّين عن صورة لـ "شاكاميوني" ارتفاعها ثلاث أقدام ومنحوتة من خشب الصندل بأمر من المسؤول القوي لي تي-يو، وقد وضعت في معبد كاي-يوان في يانج-تشو. وزعم إنِّين هذا أنه قد احتسى الشاي مع الرجل الأعظم (الذي يجلس على كرسي) في "قاعة الصور المباركة"، وهي التي كان قد تم ترميمها بمساهمات من جاليات التجار الفرس والتشاميين.

والأقل توقعاً من هذا كله قصة الراهب البوذي بو-كونج الذي قام بناء على طلب من هسوان تسونج "... بحرق تنين عطري مصنوع من خشب الصندل الأبيض" بينما كان يصلي من أجل المطر. وهكذا فقد تمكن ذلك الراهب البوذي من تحوير عادة صينية للاستخدام في إطار هندي- عادة صينية مبجلة هي حرق روح

الأمطار (سواء كانت في هيئة بديل بشري للإله، كما كان الحال في الأزمنة الغابرة، أو في هيئة صورة كما في حالتنا هذه).

ولقد تراوحت الأدوات والأشياء ذات المنفعة والمصنوعة من خشب الصندل ما بين الصغيرة مثل الصناديق ذات الفلقات الثماني (مثل الموجودة في متحف الشوزوين)، والكبيرة مثل ما تضمنته «قاعة كاندانا» في قصيدة لي بو- فقد كان خشب الصندل خشب الرفاهية، وخشبا له صلات بالدين. فعندما شيد هسوان تسونج بيتاً فخماً لروخشان في تشانج -آي في عام 751 فقد جهزه بأفخر وأثمن الأشياء مثل أواني وأدوات المطبخ المصنوعة من الذهب والفضة، والأثاثات الفخمة التي تضمنت أريكتين طول كل منهما عشر أقدام وعرضها ست، وقد زخرفتا بخشب الصندل. والأروع من ذلك المقاعد العالية التي أهداها لرهبان معبد آن-كو الإمبراطور آي تسونج في عام 871 لكي يستخدمها المحاضرون الذين يتناولون حكم ومحاورات بوذا. وكان ارتفاع كل من تلك المقاعد عشرين قدماً وكانت أطرها مصنوعة من خشب الصندل وخشب الألوس. وعلى القدر ذاته من الروعة والفخامة كانت منصة التأمل في دير تيان- تاي على جبل وُو-تاي (القرن التاسع) وقد غطيت بقشرة من خشب الصندل حتى ينتشر أريجه إلى مسافة بعيدة بفعل النسيم.

ولقد ألهم خشب الصندل الشعراء مانحاً إياهم صورة طيعة، عادية وغريبة في الوقت نفسه، ومن خير الأمثله على ذلك الامتزاج صور مثل "على شاكلة الكاندانا العَطِرة"، "مطبوع على أوراق الباترا" (والصورة الأخيرة تخص أوراق نخيل بالميرا، وهي من الناحية الأدبية تنطوي على إطناب وتكرار)، وهي صور تعطي من فورها صورة لبيئة هندية أو "مهندوة". ومن الاستعارات الأكثر ندرة "فم الصندل"، وقد وردت في أشعار الماجن الموهوب تشاو لوان-لوان، وتعني بوضوح "ثغرها الذي يفوح برائحة طيبة مثل خشب الصندل".

الأبنوس

هناك الكثير من الأشجار من عائلة "دايوسبيروس"، أقارب البرسيمون، والتي موطنها الهند وفي الهند (الشرقية)، وتنتج الأخشاب الجيدة المتينة والتي تسمى في مجملها "الأبنوس" . وكانت السفن التجارية الفارسية الكبيرة قد حملت إلى الصين بعض أنواع من خشب الأبنوس هذا تحت مسمى "الخشب الأسود" في وقت مبكر يرجع إلى أوائل القرن الرابع. ومرة أخرى نسمع عن استيراد الأبنوس في القرن الثاني عشر، وقد وصفه أحد الكتاب– على سبيل المثال– بأنه "ذلك الخشب ذو السطح الأسود اللامع والذي يصنع منه القانون القديم"، وآخر قال عنه إنه "الخشب الأسود الذي تجلبه السفن التجارية الأجنبية لأغراض التجارة". وليس ثمة دليل مباشر على استيراد خشب الأبنوس في عهد تانغ الذي يقع تاريخياً بين القرنين المذكورين آنفاً. ومن المنطقي أن نتوقع وجود أشياء مصنوعة من الأبنوس في متحف الشوزوين، إذا كان الأبنوس فعلاً من بين الأخشاب الغريبة التي استخدمت في الصين في القرن الثامن. وتشير أدلة ذلك المتحف بشكل متكرر إلى منتجات خشبية رائعة– حامل سداسي الشكل، ودولاب له أبواب بمفاصل– على سبيل المثال لا الحصر، وكلها مصنوعة من "البرسيمون الأسود". لكن هذا لا يبدو أنه الأبنوس الحقيقي، بل نوع آخر من الدايوسبيروس، شاحب اللون وملطخ بعصارة النُّسْغ (السائل الذي يجري في أعواد النباتات / المترجم). وتبقى المسألة مفتوحة...

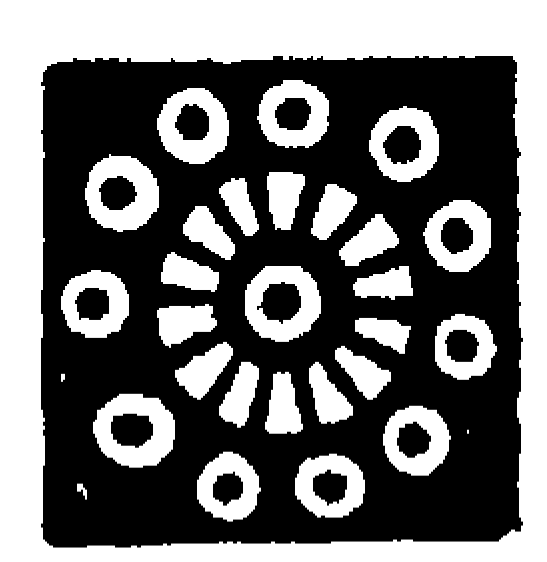
«والمَنُّ والتمر ينُقلان،،

بالسفن التجارية من فزان،،

والأطعمة المتبلة وكل إنسان،،

ومن حرير سمرقند حتى أرز لبنان،،،»

جون كيتس، «ليلة القديس آجنس»



الفصل التاسع

الأطعمة

تماماً كما يتعذر رسم خط فاصل بين العقاقير ومستحضرات التجميل في حضارة الشرق الأقصى في العصور الوسطى، فإن أية محاولة للفصل بين العقاقير والأطعمة، أو بين التوابل والعطور سوف تؤدي إلى تفسيرات خاطئة ومحبطة بالنسبة للدور الحقيقي للمأكولات في ثقافة تانج، فقد كان حقا دوراً معقداً حيث كانت لكل طعام خصائص طبية خضعت لدراسة متعمقة بواسطة أطباء من ذوي العلم والمعرفة، وبواسطة الطاويين بصفة خاصة الذين كان النظام الغذائي عندهم يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع ضد الزمن، والذين كان هدفهم إطالة فترة الشباب والقوة والحيوية. وكانت للتوابل مكانة خاصة– والغريب العجيب منها على وجه التحديد نظراً لرائحتها النفاذة، وقدراتها الخارقة. فالتوابل لم تكن عناصر تكسب الطعام مذاقاً ورائحة فحسب، بل عقاقير نافعة أيضاً. ومع ذلك فإن تلك العبارة تبسط الصورة الحقيقية بشكل مبالغ فيه، إذ كان للتوابل والعطور دور في الدين وفي الطب، وأيضاً في الحياة اليومية حيث كانت تستخدم في حفظ الطعام، وطرد الحشرات المزعجة، وتطهير الجو وتعطيره، ولتنظيف الجسم وتجميل الجلد، وإثارة مشاعر الحب لدى الطرف الآخر غير المبالي، ولتحسين الوضع الاجتماعي، وغيرها من الأغراض. فأساس تجارة التوابل العظمى في العصور الوسطى يتمثل في أن تلك المواد لم تكن من الكماليات التي يستخدمها الأثرياء والوجهاء وحدهم، بل كانت سلعة عامة يستخدمها الناس جميعاً. فقد كانت التوابل دواءً عاماً شاملاً بقدر ما كانت تكسب الطعام رائحة وطعماً خاصاً، الأمر الذى يجعل من الصعب تصنيفها تصنيفاً منطقياً من واقع أنها كانت "المأكولات العطرية"، أو"العطريات الصالحة للأكل"، ومن ثم فسوف أتناولها ها هنا على أساس أهميتها للطعام، والعطور والبخور، والدواء على الترتيب. وقد يبدو ذلك التبويب غريباً أحياناً ليس لأنه تعسفي ومن جانب واحد، ولكن لأنه يتحدى الاستخدامات والعقائد

الحديثة. والقرنفل وجوزة الطيب خير أمثلة على ذلك، وسوف أتناولهما في الفصل التالي وهو الخاص بالمواد العطرية مفضلاً ذلك على ضمهما إلى الفصل الحالي والذي هو مخصص للأطعمة، فليس ثمة دليل على شيوع استخدامهما في الطهي في عهد تانج. وعلى العكس هناك أدلة كثيرة على أهميتهما في صناعة العطور والعقاقير.

ولقد ذكر الرحالة المترهبن آي-تشنج (وكان له باعُ في فن الطهي في كل من إندونيسيا والهند) معلومات كثيرة عن السلع الثمينة المتوافرة في تلك البلاد مقارنة بما كان متوفراً في بلاده، وقال فيما قال: "... وتتناول الناس في الصين في العصر الحالي اللحوم والأسماك دون طهي غالباً، أما في الهند فإنهم لا يفعلون ذلك، فكافة الخضروات تطهى، ولا تؤكل إلا بعد خلطها بالحلتيت (مادة راتنجية تستخرج من جذور بعض النباتات/ المترجم) والزبد المُصَفّى، أو الزيت، أو أي نوع من التوابل". ومصداقية ذلك الكلام تنبع من أنه صادر عن خبير ناقد قوي الملاحظة، لكنه يتناقض مع الآراء المعاصرة حول الطهي الصيني، خاصة في جنوب البلاد. فما قاله آي-تشنج هذا يجعل الطهي الصيني مشابهاً للطهي الياباني الحديث- طعاماً عادياً، طازجاً أحياناً (أي بدون طهي أو إضافات، أو بالقليل جداً من مكسبات الطعم والرائحة أو الصلصات). وإذا صح ذلك فإن فن الطهي الصيني الحديث حديث جداً بالفعل، وإن طابعه الثري قد بدأ في الظهور في عهد تانج، ومن دون شك تحت تأثير الأذواق والعادات الغذائية الأجنبية، خاصة الهندي منها و"المهنود".

وللحقيقة فإننا لا نعلم سوى القليل جداً عن العادات الغذائية في عهد تانج. وفي الجمل التالية مجرد محاولة للافتراض عن طريق طرح الأمثلة أساساً لأنواع الأطعمة التي كانوا يأكلونها عادة (أو أحياناً)، ولن يتضمن الجزء التالي أي معلومات عن كيفية إعدادها- فهذا عمل مهم ينتظر مؤرخي المستقبل.

فنحن نعلم أن ثمة مواد غذائية أساسية كانت تستخدم على نطاق واسع: الدُّخن، والأرُز، ولحم الخنزير، والفول، والدجاج، والبرقوق، والبصل، وأعواد البوص. وقد نقرأ أيضاً عن أطعمة محلية خاصة، ونفترض تبعاً لذلك أن الذَّوَاقة في عهد تانج أخذوا عينات من تلك الأطباق القروية خلال أسفارهم (سواءً للتجارة أو للمتعة) مثل الضفادع التي كانت طعاماً مفضلاً في كوي-يانج في أقصى الجنوب (ويقال إن الشماليين المسفسطين كانوا يسخرون من أهل الجنوب بسبب ذلك). وكان هناك أيضاً كعك الساغو (فطائر تعد من نوع من النشا يعد بدوره من لب نخل الساغو الهندي والماليزي) الذي اشتهرت به كوانجتونج، والمحار المجفف الذي كان يصاحبه النبيذ في المنطقة ذاتها، و«البندق الأرضي» الذي كان من علامات تشيكيانج. وعندما يعجب طعام أو غذاءٌ عِلْيَة القوم في البلاط أو في العاصمة عموماً فقد كان يضاف إلى قوائم السلع التي تقدم على سبيل الجزية، ومن ثم كانت المطابخ الإمبراطورية تتلقى إمدادات منتظمة منه: الثوم الصيفي من شنسي الجنوبية، ولسان الغزال من كانسو الشمالية؛ وبطلينوس ڤينوس (أسماك صدفية) من سواحل شانتونج؛ و«التفاح البري» من حوض نهر يانجتسي؛ وفرس البحر (سمك صغير ذو رأس كرأس الفرس) من تشاو-تشو في كوانجتونج، والشبوط الأبيض (سمك نهري كثير الحسك) المنقوع في رواسب النبيذ من آنهوي الشمالية؛ واللحم المجفف «لثعبان الزهور الأبيض» من جنوبي هوبيه، والبطيخ المخلل في هريس الأُرز من جنوبي شنسي وشرقي هوبيه، والزنجبيل المجفف من تشكيانج، والبشملة والكرز من جنوبي شنسي، والبرسيمون من هونان الوسطى، و«الليمون الشوكي» من وادي يانجتسي.

وإزاء التوسع الإمبريالي في عهد تانج وضم أراض جديدة ذات ثقافات متنوعة كان من الطبيعي أن يحدث توسع مماثل في قوائم المأكولات المطلوبة في تشانج-آن (وفي كل مكان آخر بالتأكيد لأن البلاط كان المثال الذي يحتذى به في كافة المقاطعات)، وضمت تلك القوائم أصنافاً جديدة وغريبة مثل القُنَّاب العطري

الذي كان يأتي من هامي؛ و«عسل الشوك» الذي كان يستخلص من نبات صحراوي عديم الأوراق وكان يأتي من كوكو، واللوز الذي كان يأتي من كوخا، والموز وثمار الفوفل (نوع من النخيل) من آنّام. ولقد شكلت تلك الأطعمة وغيرها مجموعة انتقالية من «أشباه الغرائب»، بمعنى أنها كانت أجنبية ثقافياً، وصينية سياسياً، وبمرور الوقت أصبحت صينية ثقافياً كذلك، وتليها كانت الأطعمة الغريبة العجيبة حقاً.

ولقد خضع استيراد الطعام لمثل ما خضع له استيراد العقاقير من إشراف حكومي دقيق، ولدى دخول أي أجنبي حدود البلاد يقوم الضباط المسؤولون بفحص أمتعته والتعرف على محتوياتها لإبلاغ مسؤولي البلاط بها من ناحية، وسلطات الأسواق من ناحية أخرى، وذلك للمساعدة في تقدير قيمتها، ثم توضع أختام على الأمتعة بمعرفة كبير المسؤولين عند النقطة الحدودية المعنية، وكان التركيز دوماً على الأطعمة والأدوية. وكان أفضل تلك الأطعمة يذهب إلى الموائد الإمبراطورية تحت إشراف مسؤول كبير كان يسمى «مدير الأغذية» (شانج شيه)، والذي كان يساعده ثمانية خبراء في التغذية، وستة عشر من مشرفي الولائم. وكان هذا المسؤول يوفر الاحتياجات الخاصة للأعياد والصوم والتي كان يحتفل بها ابن السماء، وذلك وفقاً للقواعد الخاصة بكل موسم أو مناسبة، ووفقاً للأعراف الخاصة بالولائم الرسمية، والاحتفالات غير الرسمية وما إليها. وعندما يقدم الطعام كان مجبراً أن يكون أول من يتذوقه، كما كان عليه أن يميز بين أسماء الأطعمة ومقاديرها، ويعرف الكميات التي أتت من مختلف المقاطعات، كما كان عليه حفظها وتوريدها بالشكل السليم.

وبانتشار المعرفة بتلك الأطعمة النادرة والغريبة خارج القصر ازداد الطلب عليها، ومن ثم ازدهرت التجارة فيها. والآن دعونا ننظر إلى بعضها.

الكروم ونبيذ الكروم

كان الصينيون -شأنهم شأن كافة شعوب الأرض الأخرى- منذ أن عرفوا زراعة الحبوب على دراية بالمشروبات التي تعد بطريقة التخمير والتي تصنع أساساً من تلك الحبوب. فقد عرفوا صناعة البيرة (أو النبيذ إن شئت)، وكانوا يشربونها مع تناول الخبز، وكانوا يصنعونها من الأرز أو الشعير أو الدُّخن. وكانت البيرة(النبيذ) على هذا النحو شراباً للاستخدام اليومي. كذلك فقد صنعوا مشروبات أخرى من الفواكه، وشراب الكومس من لبن الفرس المخمر. كذلك فقد عرفوا خمرة الزنجبيل والميد (مزيج من العسل والدُّخن والخميرة)، وأنواعاً متعددة من الهيبوكراس (خمر ممزوج بالتوابل) المعطر والذي كان يهدى للآلهة. وفي عهد تانج كان بعض من تلك المشروبات المخمرة القديمة لا يزال شائعاً، واختفى بعض آخر. وعموماً أصبح الأُرز المصدر الأساسي للمشروبات الكحولية.

ولقد عرف الناس في عهد تانج العديد من المشروبات الغريبة العجيبة (ولو كان ذلك بمجرد الشهرة). فقد قيل إن التشاميين كانوا يصنعون نبيذاً من عصارة نبات الفوفل؛ وأن التودية (عصارة مخمرة) كانت تصنع في كالينجا من العصارة المستخلصة من زهرة نخيل جوز الهند؛ وأن التانجوت كانوا يصنعون البيرة من الأرز الذي كانوا يستوردونه لذلك الغرض. ولكن ليس ثمة دليل على أن أياً من المشروبات المبهجة الأجنبية كان يشرب في الصين، باستثناء نبيذ الكروم الغربي.

وكان الرحالة البطولي تشانج تشاين الذي عاش في أوائل عهد تانج هو الذي أدخل بذور الكروم إلى الصين حيث غرست في العاصمة على نطاق ضيق لإنتاج العنب كفاكهة فحسب. ووفقاً لإحدى الروايات من عهد تانج فقد كانت تلك الكروم من أنواع ثلاثة: الأصفر، والأبيض، والأسود، وقيل إن زراعتها كانت ناجحة في المنطقة المجاورة لتون هوانج في القرن الخامس. لكن الكروم لم تكن

محصولاً مهماً، ولذا فقد ظل النبيذ المصنوع منها شراباً نادراً وغريباً.

وفي بداية عهد تانج، وبسبب التوسع السريع داخل الأراضي الإيرانية والتركية في الغرب شاعت الكروم والنبيذ الذي يصنع منها في كل أنحاء الصين، ومع ذلك ظلت تلك الفاكهة محتفظة «بارتباطها الروحاني» بالغرب: فقد استخدمت صور لعناقيد العنب لتزيين المنسوجات متعددة الألوان لقرون عديدة، كما كانت توضع على ظهور المرايا نماذج هيلينية للكروم. ويضاف إلى ذلك أن الرومان والعرب والأتراك الأجهوريين في سيرنديا كانوا من كبار زراع الكروم وشاربي النبيذ. وبعد الفتح التانجي لسيرنديا فقدت الكروم وعصيرها جزءًا من نكهتها الغريبة، مثلما حدث لثمار اللوز والفوفل التي أصبحت على مر الزمان «شبه غريبة». وكان على كوكو تلبية الطلب على أنواع عديدة من الكروم ومنتجاتها على سبيل الجزية السنوية: مجفف (زبيب)، أو أغصان وعناقيد كاملة، أو شبه مجفف. كذلك فقد كانوا يستوردون عصائر الكروم، والنبيذ بطبيعة الحال.

والأهم من تلك الأنواع نوع جديد من كروم النبيذ كان قد ورد إلى الصين ومعه معرفة بفن صنع النبيذ من الكروم، ومن ثم أسس صناعة جديدة، وهذا هو العنب الشهير باسم «حلمة الفرس». وتوضح أول إشارة مؤرخة لذلك النوع أنه قد أتى كهدية من الحاكم التركي للإمبراطور في عام 647 وهو عبارة عن أعناب طويلة أرجوانية. ويشير الاسم إلى استطالة الحبّة وتميزها عن مثيلاتها في الأنواع الأخرى مثل «خرز أو لآلئ التنين» المحيطية الشكل، وقد حاكاها شاعر البلاط التشانجاني تشاو لوان–لوان في واحدة من قصائده الخمس التي وصف فيها أكثر الأجزاء فتنة في جسد المرأة. وهذه القصائد هي: «كرات الشعر الضبابية»، «جبين الصفصاف»، «الفم الصندل» (وقد سبقت الإشارة إلى تلك القصيدة في الفصل السابق في الجزء الخاص بخشب الصندل/المترجم)، «الأنامل الكمبريكية»، «صدور من القشدة» وفي الأخيرة تظهر حلمات الثدي وقد أشير إليها مجازياً

«بحبات العنب الأرجوانية». ويفرض علينا الحياء أن نرى في نوع ما آخر من الكروم الصورة الأصلية وراء الكناية ذات المذاق الطيب، أصفر وأفضل تناسباً من كلمة ثدي الفرس.

وبعد فتح كوكو في عام 640 جُلبت إلى الصين شتلات من عنب «حلمة الفرس» الغربية تلك، وإن لم يكن التاريخ الدقيق لذلك الحدث معلوماً، وتمت زراعتها بنجاح في البستان الإمبراطوري، وكان يمكن تبين سلالتها في اثنين من «بساتين الكروم» في «المتنزه المحرم» في تشانغ – آن قرب نهاية القرن السابع. وبمرور الوقت انتشرت خارج النطاق المقدس، ويرد ذكرها في قصيدة نظمها هان يو حيث يؤنب صاحب بستان كروم ساءت حالته:

«لم تظهر التويجات الجديدة بعد، ونصفها لا
يزال هزيلا؛
والتعريشات الطويلة قد تفككت، هنا قد انقلبت
وهناك ترتفع:
فإذا أردت طبقاً كاملاً من «حلمات الفرس»،
فلا ترفض إضافة بعض البوص، وبعضاً من
«خرز التنين»».

ولا نعلم أين كان البستان المتهاوي المشار إليه في تلك الأشعار، ولكننا نعرف أن بساتين الكروم كانت منتشرة في كانسو، وسوف نتحدث لاحقاً عن نبيذ ليانغ الغربية في تلك المقاطعة. أما كبرى المناطق الأخرى المنتجة للكروم في عهد تانغ فهي تاي–يُوان في شمالي شانسي «حيث يقدم عبدة ين أقداحاً من عصير الكروم». وفي تلك البساتين التي نالت شهرة واحتراماً تم استنباط أنواع محلية. فبالإضافة إلى كروم النبيذ نقرأ عن كروم هو–تونغ (شانسي) الصالحة للأكل (في القرن العاشر)، وهي كروم رقيقة لدرجة أنها كانت تصبح بلا قيمة عند نقلها إلى العاصمة.

وفي القرن السابع كانت الكروم معروفة بدرجة كافية بحيث استحقت اهتمام خبراء التغذية بها. فهذا هو مينج شن الذي أوضح أن الإسراف في تناولها يسبب أعراض القلق وسواد العيون، وأن عصير العنب مفيداً في خفض الجنين الضاغط على القلب.

ومع ذلك لم تكن الكروم فاكهة مألوفة تماماً. فحتى في القرن الثامن وبعد ان ثبتت نفسها على التربة الصينية وظّفها توفو في سلسلة من الصور البلاغية التي رسمها لبلد غريب غير صيني، حيث مزج بين «نضوج العنب» ، و«وفرة حشائش الفالفا» (وكلاهما من الأشياء القديمة نوعاً حيث كان تشانج تشاين قد أدخلهما في القرن الثاني قبل الميلاد) وبدوره ربط بينهما و«نساء التبت» و«الصبية الغربيون». وربما كان توفو هذا يكتب عن مدينة حدودية مثل ليانج-تشو، وهي مدينة محاطة بأراض أجنبية (مثل تشاينا تاون في سان فرانسيسكو) وقد اشتهرت بنبيذها الرائع النادر ذي الارتباطات والتداعيات الجميلة. وحتى في تون-هوانج بعيداً على طريق الإبل كان نبيذ الكروم إضافة باهظة التكاليف في أي احتفال مهم، مثلما هو الحال بالنسبة للشامبانيا في مهرجاناتنا الحديثة. وفي حياتها الخاصة كانت رفيقة يانج غير الرسمية تشرب نبيذ الكروم الذي كان يأتي كهدية من مدينة ليانج-تشو، وكانت تحتسيه من كأس زجاجية مزينة بـ«الجواهر السبع»، وكانت كأس من هذا النبيذ الرائع قد قدمت للإمبراطور مو تسونج في أوائل القرن التاسع وعلق عليها قائلاً: «عندما أشرب هذا أحس من فوري بالانسجام يسري في أطرافي الأربعة -فهو يأتيك بالسكينة العظمى»، ويوحي هذا النبيذ بأسماء فظيعة مثل «لاو تزو»، كما يبدو كأنه يردد الفكرة الإغريقية بأن النبيذ هو الإله.

وللإعجاب بنبيذ الغرب تاريخ محترم، فبعضه كان يستورد (خلال فترة هان تانج الفاصلة)، وتقول دائرة المعارف القديمة «بو وُو تشيه» -وهي مليئة بعجائب وغرائب القرنين الثالث والرابع- تقول:

«لدى المناطق الغربية نوع من نبيذ الكروم لا يتأثر بمرور السنين، وتقول إحدى الروايات الشائعة هناك إنه يمكن شربه حتى عشر سنوات بعد إنتاجه، ولكن عندئذ يصبح شاربه ثملاً تماماً طوال شهر كامل، ولا يفيق إلا بجرعة أخرى منه».

وفي عهد تانج كان هناك نوع غريب من النبيذ يصنع من الإهليلج الفارسي، وكان متوافراً في حانات تشانج-آن، كما كان هناك النبيذ المسمى «دهن التنين» والذي كان في مثل سواد اللُّك (نوع من الورنيش) كانوا يجلبونه من الإسكندرية(!!) في بداية القرن التاسع، وإن كان هذا في الغالب من نواتج الخيال الخصب الجامح الذي تمتع به الروماني سو أو. فالنبيذ المصنوع من الكروم على الطريقة الإيرانية لا بد أنه قد جاء من تشاش في القرن الثامن عندما كانت تقنية صنع نبيذ الكروم قد ثبتت أقدامها فعلاً في الصين.

فعندما حضر ملك كوكو أسيراً أمام تاي تسونج في أوائل عام 641 (وبصحبته غنائم أخرى مثل أفضل ما كان لديه من موسيقيين) أقيم احتفالٌ كبيرٌ استمر ثلاثة أيام ظلت أكواب النبيذ خلالها تمر على المحتفلين. وكان طابع الاحتفال متلائماً مع المناسبة، فمن بلاد كوكو التابعة تلك أتى فن صناعة نبيذ الكروم إلى تانج، وأصبح ذلك الشراب العطري ذو الرائحة النفاذة «بألوانه الثمانية» معروفاً للناس في شمال الصين. ويبدو أن عنب «حلمة الفرس» كان عنصراً مهماً في تلك الصناعة الجديدة، وشيدت مصانع النبيذ داخل بساتين الكروم في تاي-يُوان التي كانت تزوِّد البلاط الإمبراطوري سنوياً بكميات من ذلك الشراب اللذيذ. وتظهر شهرة تاي-يُوان تلك من حيث إنتاج عنب «حلمة الفرس» والنبيذ الذي يصنع منها في قصيدة نظمها ليويوهسي وترجمها ثيوس سامبسون ببراعة إلى الإنجليزية في عام 1869 وهي بعنوان «أغنية الكروم»، وفيها يشير إلى «رجال تسن» أي قوم تاي-يُوان في شانسي:

«أشجار الكروم في بلاد لم يطأها أحد،
أغصانها ملتوية في مجموعات متشابكة،
أحضروها إلى البستان ليعجبوا بجمالها،
كانت خضراء، والآن قد استقامت على عيدانها،
فالأغصان تتسلق سريعاً سريعاً،
وتحدث منحنيات رائعة، تتباعد وتتباعد؛
هنا تنتشر وتزدوج، وهناك تضعف وتميل،
والآن تصل إلى قمة الجدار؛
ثم تزهو بلونها الأخضر الجميل،
تسر الناظرين،
ووراء سقف القصر يحاولون،
كما لو كانوا يحيون بإرادة واعية.
والآن يحصدون الكروم،
ويتسلقون الإطار الخشبي،
والظلال الشبكية تمتزج بالأخضر الجميل،
وتشكل ستارة مبهجة على الشرفة.
وبقشر الأرزُّ المبلل تُغطّى الجذور،
فترطب كل الفسائل ذات الأوراق،
وتتفجر الزهور كالهدّاب الحريري،
وتتدلى الثمار وكأنها عناقيد من اللآلئ.
ويظهر عنب حلمة الفرس وكأنه الصقيع
ويسطع خرز التنين كأشعة الصباح.
وذات يوم أتى إلى هنا زائر رحّال؛

ونقدم من مضيفه مذهو لاً،
وبينما كان يتجول صادف
الثمار معلقة على الأشجار:
قال المضيف: نحن قوم تسن نرى فيها شيئاً
رائعاً،
ونزرعها وكأنها الجواهر الأكثر ندرة،
ومنها نصنع النبيذ اللذيذ
الذي لا يظمأ الناس منه أبداً.
جرب هذا النبيذ،
وسوف تصبح حاكماً على لياغ تشو»

ولقد امتد الفن الجديد –صناعة النبيذ من الكروم– ليشمل نوعاً صغيراً برياً من الفاكهة لونه أسود ضارب للأرجواني، ولا يزال ينمو في شانتونغ، ويعرف باسم ينج–يو. ويروي عشابو تانغ عن نبيذ كان يصنع من تلك الفاكهة، تماماً كما كان يصنع من كروم كانسو وشانسي الغربية، وربما كانت هذه الفاكهة هي الأعناب التي أشار إليها توان تشينج شيه في قصته حول «وادي الكروم» (وإن كان قد استخدم الكلمة المستوردة الدالة على الكروم). والوادي المذكور هو شانتونغ على الأرجح حيث كانت تلك الفاكهة تلتقط بحرية، لكن آكلها كان معرضاً لأن يضل الطريق. ولقد عرفت تلك الفاكهة باسم «أعناب الأم الملكية»، وبهذا فقد ربطوا بينها وبين فاكهة الخلود على جبل العالم. وفي منتصف القرن الثامن تمكن راهب بوذي من تحويل جزء من شجرة الكروم تلك إلى عصا مؤقتة وغرسها في معبده، وسرعان ما نمت وازدهرت وأنتجت عريشاً مليئاً بفاكهة أرجوانية اللون، وأطلق عليها بعد ذلك اسم «قبة لآلئ التنين النباتي».

الإهليلج

في عام 746 أتت بعثة مشتركة من طورجاش وتشاش، وكيش، وميمراغ، وكابيسا إلى بلاط تانج تحمل فيما تحمل هدية من الإهليلج. وعادة ما كانت تلك الفاكهة تأتي عبر الطرق البحرية الجنوبية، وعلى متن السفن الفارسية خاصة.

وكان يطلق على أنواع الإهليلج الهندية القديمة مجتمعة اسم «ترايفالا» أي «الفواكه الثلاث» في اللغة السنسيكريتية. أما في اللغة الصينية فكانت تسمى -إلى جانب ذلك الاسم نفسه- باسم «ثلاث راكات»، والراك هو المقطع الأخير من اسم كل من الفواكه الثلاث باللغة التوشارية، وهي من اللغات الهندية الأوروبية المهمة الخاصة بآسيا الوسطى. ويبدو أن الصينيين قد استمدوا أسماءها من ذلك الطريق. والأنواع الثلاثة هي: الإهليلج الإمبيلي، والإهليلج البلليري، والإهليج الشبيولي، وهي في اللغة السنسيكريتية: «آمالاكي»، «ڤيبيتاكي»، «هاريتاكي» على الترتيب.

ولقد نسب التبتيون والهنود وغيرهم من الشعوب التي خضعت للنفوذ الهندي -نسبوا إلى تلك الفواكه القابضة أعجب الصفات، إذ يصفها مُجتمعةً نصٌ تِبتي باعتبارها إكسيراً للحياة، ويقول عن الإهليلج الشبيولي (الذي ينمو على الجبل المعطر للإله إندرا، واستحوذ على القدر الأكبر من الإعجاب) إنه «... عندما يكون ناضجاً يصبح له ستة طعوم وثمانية تأثيرات، ويتبقى منه ثلاثة (طعوم) عند إتمام الهضم، وبه المزايا السبعة عشر، ويشفي مختلف أنواع الأمراض». أما النوع البلليري فإنهم في الهند كانوا يعتقدون أنه مسكون بالشياطين. وعموماً كانت للأنواع الثلاثة قيمة أصيلة في دباغة الجلود، وفي الطب، خاصة كمطهرات عندما تكون ناضجة، وكدواءٍ للإسهال عندما تكون نيئة.

ولقد ذكر صيدلانيو تانج، وعلى رأسهم المراجع الرسمي لتراكيب العقاقير، سوكونج، أن هذه النباتات الطبية المهمة جميعها كانت تنمو في آنام، وكانت حينذاك خاضعة للسيطرة الصينية، كما ذكروا أن النوعين الإمبيلي والبلليري كانا ينموان في لنجنان كذلك. ويقول الصيدلاني السونجي سوسونج أنه في زمانه (القرن الحادي عشر) كان الإهليلج الشبيولي ينمو أيضاً في جنوب الصين، وخاصة حول كانتون. ويبدو من المحتمل أنه على الرغم من أن الأنواع الثلاثة القديمة من «الفواكه الثلاث» كانت تأتي على متن السفن الهندية التي كانت تقوم برحلات إلى فارس، فإن أنواعاً أخرى كانت تأتي من الهند الصينية، وكان لها الصفات الأساسية ذاتها. ومع ذلك يبدو أنه يتعين علينا قبول ما ذهب إليه العالم سو كونج من أن «الفواكه الثلاث» كانت تزرع في محيط ميناء كانتون في الجنوب كذلك. وكان الراهب تشاين تشن الذي جاب البحار قد أفاد كذلك بأنه شاهد شجرة «هاريتاكي» عليها ثمار بحجم ثمار العُنّاب في المكتب الملحق بمعبد السحاب الأعظم في كانتون، ويبدو أنه كان على حق فيما وصف. ولكن الأرجح أن أنواعاً شبيهة في بلاد قريبة كانت تخلط بالأنواع الأصلية، سواء كانت هذه في هيئة ثمار محفوظة، أو نباتات منقولة.

ومهما يكن مصدرها فإن الصفات الطبيعية لتلك الثمار ومجمل المعتقدات في شأنها مما جاء من الهند مع الديانة البوذية قد جعلت منها مادة مهمة في الطب الصيني. ولا نستغرب إذ نجدها ضمن الكنوز الطبية التي آلت من القرن الثامن والمحفوظة في متحف الشوزوين في نارا، وإن كان قد أصابها كثير من الذبول. ومن قدرات الإهليلج الإمبيلي أنه يُسَوِّد الشعر، على حد قول طبيب من أوائل القرن السابع هو تشن تشوان، وكان ذلك دليلاً واضحاً على خاصية استعادة الشباب. ولقد قال سوكونج إن الأجانب كانوا يحضرون سائلاً ساخناً من ثمار الإهليلج البلليري التي تشبه الخوخ (الدُّرَّاق)، وقد يشير بذلك إلى شراب (كحولي على

الأرجح) حيث أن تلك الثمار كانت تصنف مع الكروم، وكانت لهذا الشراب شعبية في شمال الصين، ويقال إن الصينيين قد تعلموا صناعته من الفرس. ومن الأسماء الظريفة التي أطلقت على الإهليلج الشبيولي في أوائل القرن العاشر «العجوز القابض»– وكلمة «عجوز» لا بد قد أشارت إلى التجاعيد الظاهرة على قشرة المنتج التجاري، وربما كان ذلك الاسم أيضاً إشارة إلى الشيخوخة الناضجة. ويذكر أنه عندما مرض شاعر القرن الثامن باو تشي تناول ورقة من تلك الشجرة فحسب كهدية من صديق عطوف، ولما شُفي بادر لنظم بعض الأبيات ممتدحاً الصفات الإلهية لذلك النبات الذي يداوي «الشيخوخة والمرض».

الخضروات

في عهد تانج دخل إلى الصينيين عدد من الخضروات المورقة وغيرها، وكان بعضها قد جُلب بغرض غرسه وزراعته، بينما جلب بعض آخر بغرض الاستهلاك فحسب. وكانت السبانخ واحدة من الخضروات النادرة التي نقلت بغرض زراعتها، وجاءت أول شحنة منها من ملك نيبال في عام 647، وكان القوم في عهد تانج يعرفون نيبال تلك بأنها «بلاد باردة يسكنها قوم سمتهم الغدر» ويبدو أن ذلك النبات كان من أصل فارسي، بل إن الطاويين كانوا يسمونه «العشب الفارسي» وإن لم يكن ذلك قد حدث بعد عهد تانج. ويبدو أن الطاويين كانوا قد أبدوا اهتماماً خاصاً بذلك النبات الجديد إذ يقول إختصاصي التغذية ومشاكلها مينج شن إنه «... يطرد سموم الخمر، ويحسن الناس الذين يتجرعون الزّنجفر (كبريتيد الزئبقيك) صنعاً لو أكلوه»، وهذا يعني أن الطاويين المتزمتين الذين كانوا يحاولون تخليد أنفسهم بتناول الزنجفر كانوا يعانون من مضاعفاته السيئة، ولكن تناول السبانخ كان يقضي على تلك المضاعفات. وعلى أية حال فإن كتب التاريخ تقول

إن طعم السبانخ يتحسن بالطهي. والاسم الذي خلعه الصينيون على تلك الخضروات الجديدة يسجل -على ما يبدو- اسماً أجنبياً مثل «بالينجا»، ويقول «كتاب غرس الأشجار» (وهو تقليد لكتاب كو-توتو) إن ذلك اسم لأحد البلدان.

ثم هناك الكرنب الساقي (أبو ركبة)، وهو نوع من الكرنب أسماه تشن تسانج تشي باسمين هما: «النِّيلة الحلوة»، «النيلة من الأراضي الغربية»، فقد ذكرته أوراقه المفلطحة بنبات النيلة الصيني، وقد أوصى باستخدامه كمقوٍّ عام. والكرنب الساقي نبات أوروبي الأصل، ومن الواضح أنه قد أتى إلى الصين عن طريق سيرنديا والتبت وممر كانسو.

ومن النباتات الجديدة التي جاءت من نيبال في القرن السابع نبات أبيض أسموه «شبيه البصل» (وربما كان الكُرَّاث أو القفلوط «الكراث الأندلسي»)، وهو من الخضروات ذات الأوراق المُرَّة، ويشبه الخس؛ ونبات مفلطح الأوراق سمي «الخضروات التي لأوراقها طعم الخل اللاذع»، و«الكرفس الغربي» وهو نبات عطري. لكن أياً من هذه لم يكن نباتاً نيبالياً، إذ من الواضح أنها كانت جميعها من الغرائب التي أرسلها ملك نيبال لابن عمومته البعيد في تانج.

أما «الرُّوطان (أَسَلُ الهند) والذي كان يساوي ألف قطعة من المعدن»، والذي أتت به بعثة مشتركة من تورجاش وبلاد أخرى في عام 746 فهو لغز لم يجد له حلاً بعد، خاصة وأن تشن تسانج تشيه يخبرنا بوجود عدد من النباتات الصينية عرفت بالاسم ذاته.

ويعتقد أحد العلماء المحدثين أن البنجر قد يكون قد أدخل إلى الصين تحت اسم فارسي في عهد تانج «..... وربما عن طريق العرب».

ولكن أحداً من الشعراء لم يلتفت إلى تلك السلة من الخضروات المفيدة.

أطعمة شهية مترفة

اعتاد الصينيون على استيراد البذور الكبيرة العطرية للصنوبر الكوري، والتي كانت تسمى «بذور صنوبر البحر» أو «بذور صنوبر سيلا»، وكانوا يقشرونها قبل تناولها.

أما الفستق، وقد كان من المكسرات المفضلة في سوجديانا، وخُراسان، وفارس (حيث تنمو عدة أنواع منه) فقد كان هو الآخر يستورد منذ قرابة القرن التاسع، وكان يزرع في لينجنان، وكانوا يسمونه «بندق الغربيين» في عهد تانغ، وإن أعطي أحياناً أسماءً إيرانية عديدة. ولم تقتصر مزاياه على طعمه اللذيذ، فقد اشتهر بأنه مُقوٍّ جنسي، ومفيد للصحة بصفة عامة.

ومن نان-تشاو في الجنوب الغربي أتى نوع من الجوز «الزاحف» الذي كان طعمه قريباً من طعم البندق، وكانوا يسمونه «بذرة الروطان». أما الجوز الحقيقي فكان يسمى «دراق الغربيين».

وأما الزيتون فقد عرف في الصين -على الأقل بالسمعة- تحت اسم فارسي هو «زيتون»، ووصفوه بأنه ثمار من بلاد فارس وروما حيث كانوا يستخرجون منه زيتاً نافعاً لأغراض الطهي، ولكن ليس ثمة دليل على جلب أي من الثمار أو زيتها في عهد تانغ. والذي يسمى «الزيتون الصيني» هو -بطبيعة الحال-ليس بزيتون على الإطلاق، ولكنه ثمار شجرتين محليتين، وتنتج عصارة أحداهما سائلاً أسود كان يستخدم في صنع الورنيش، وأيضاً في سد خروز السفن.

ومن سومطرة أتى نوع من البذور العطرية والحريفة، وهو الشّبت فيما يبدو، وكان يعرف في تانج باسم «جيلا» وهو مستمد إما من اللغة السنسيكريتية «جيرا»، وإما من الفارسية الوسطى «زيرا». وهناك -على حد قول الصيدلاني لي هسون- ذكر لذلك النبات في كتاب قديم حَدَّدَ مصدره ببلاد فارس، وإن كان ذلك عادة وصفاً التصق ببعض الأشياء التي كانت ترد على السفن الفارسية. وذكر لي هسون أن بذور الشبت تكسب الطعام نكهة طيبة، فهي تحسن المذاق، ومن ثم تفتح الشهية، ولكنه حذر من أنه «... لا ينبغي أن يؤكل مع الحلتيت في وقت واحد، لأن الأخير سوف يلغي نكهة الأول».

ولقد بعث زعيم قبيلة تسانج-كو (التي كانت تقطن فيما هو الآن كويتشو، وهي منطقة كانت حينئذٍ برية جبلية)-بعث بهدية عبارة عن لحم مخلل. ونظراً لقلة المعلومات عن ذلك الصنف من الطعام فقد آثرت وضعه هنا ضمن «الأطعمة الشهية المترفة».

الأطعمة البحرية

عرف صينيو العصور الوسطى سمك البوري المخطط (أبوشنب) الذي كان يعيش في الأنهار والبحار، وكان الطعام المفضل للقضاعة (ثعلب الماء)، وكانوا يحبونه كطعام، وفي عهد تانج كانوا يصطادونه بالشباك من قبالة الشواطئ، ومع ذلك لا بد من اعتباره ضمن الأطعمة الغريبة في عهد تانج. فقد أرسل البو-هاي-مو-هو من منشوريا في عام 729 هدية من هذا النوع من الأسماك للإمبراطور. وكان صينيو الجنوب يصنعون من سمك البوري المخطط هذا نوعاً من الصلصة أو المشهيات حمل اسماً غريباً هو «صلصة السمكة القافزة» (تياو تينج). وكانت أسماك البوري المملحة «ترش بالخل وتنقع في النبيذ»، وبذلك كانوا يعدون طبقاً

شهياً. ومن الأسباب التي طرحت لتفسير ذلك الاسم أن أسماك البوري تتحرك في أفواج كبيرة، «... كالسحب المتراصة وكأنها صفوف جنود في المعركة»، وهكذا لم يكن ضرورياً نصب الشباك لصيدها حيث كانت الأسماك تقفز إلى داخل قوارب الصيد بأعداد كبيرة حتى إنها كانت تعرض القوارب للخطر من ثقل وزنها.

وبعد ذلك بعدة سنوات أرسل المنشوريون (وكانوا يحترفون صيد الأسماك) مائة سمكة بلطي مخطط مجففة. ويحيط باسم تلك السمكة حلقة أسطورية، فهي تظهر في ملحمة «لي ساو»، وهي التي تتناول موضوع «هروب الروح»: «يركب السلحفاة البيضاء، آه!!، ويتعقب سمك البلوط المخطط!». ونجدها أيضاً في أوائل القرن الثالث في قصيدة تساو تشيه «قصيدة حول إلهة لو»:

«وثمة أسراب من أسماك البلطي المخططة تحذر
من أنها تسير قريباً،
وثمة نداء من طيور السمرغ الياقوتي التي تطير
معاً».

(والسمرغ طائر ورد ذكره في الأساطير الفارسية ووصف بأنه طائر مُعَمَّر/المترجم)، والمقصود بالسمرغ الزمردي هنا جرس الإنذار أو التحذير). ومع ذلك فإن الربط بين تلك السابحات القديمة والأسماك المحفوظة المجهولة التي بعث بها برابرة الشمال الشرقي ربط من نسج الخيال.

وأخيراً فقد عرف المشتغلون بالطب والدواء كيف يحصلون على نوع من الرخويات الكورية ذات صدفتين من سيلا حيث كانت من المأكولات ذات الأثر الصحي والطبي المحدد. فها هو تشن تسانج-تشيه ينصح بحساء مصنوع من تلك الرخويات وعشب بحري صالح للأكل عرف باسم «كومبو» كعلاج لضيق التنفس، وهذه بالتأكيد وصفة طبية كورية، ولكننا لا نعلم ما إذا كانوا قد تجرعوها

بأمر الطبيب فحسب. واسم تلك القوقعة هو «تام-لا»، ومن الواضح أنه الاسم القديم لجزيرة كويلبارت، أو «تشيجو» (أي تامنا) وقد اشتهرت بأسماكها الصدفية، وواضح أن الصينيين قد حوروا اسم مكان المنشأ الخاص بتلك الرخويات ذاتها.

البهارات والتوابل

قبل أن يحصل الصينيون على الفلفل الأسود كان لديهم بالفعل نوع من البهار ذو الرائحة النافذة هو الفاجارا، وتحل أنواع كثيرة منه محل الفلفل الأسود الحقيقي في الهند والصين واليابان حيث تستخدم قشرة الثمرة (ومعها البذور أحياناً) لأغراض الطهي وصنع الأدوية. وكان للنوع القديم منها «فاجارا تشن» عدد من التطبيقات في طب العصور الوسطى. فعلى سبيل المثال فإنه كان يساعد في تأخير الدورة الشهرية (الحيض)، ويشفي بعض أنواع الدوسنتاريا، وينمي الشعر. ويقول توان تشنج-تشيه إن لذلك النبات قدرة على اجتذاب الزئبق، لكنه لا يذكر كيف تم استغلال تلك القدرة -ربما كان قد استخدم في الكشف عن المعادن. ولقد ارتبط به بشدة نوع آخر اسمه «فاجارا شو»، أو «فاجارا شزوان» الذي كان ينمو بعيداً في الشمال وحتى تشينج-لينج جنوبي العاصمة، وإن كان أحد المصادر العليمة قد أفاد بأن أحسن الأنواع منه كان يأتي من «المناطق الغربية».

وشأنه شأن الأعشاب العطرية الأخرى، فقد أضيف ذلك التابل إلى نبيذ ولحوم القرابين، لحفظها من ناحية، ولجعلها جذابة بالنسبة للآلهة من ناحية أخرى، وعلى وجه الخصوص كان ثمة رحيق (نكتار) مخلوط بالفاجارا يمثل شراباً ملائماً لطقوس السنة الجديدة في العصور الوسطى. وبالتدريج تمت «علمنة» المشروبات

والمأكولات المضاف إليها الفاجارا وغيره من العطريات فانتقلت من «مذابح الآلهة» إلى موائد الأرستقراطيين، ومن ثم إلى موائد عامة الناس. ويقال إن الإمبراطور تي تسونج (في أواخر القرن الثامن) كان يضع الفاجارا والخثارة في الشاي الذي يتناوله. كذلك فقد وصف شاعر القرن الثامن الغامض هان شان (وهو بوذي) بسخرية الأطعمة الفاخرة التي تقدم على موائد النهمين فقال:

«لحوم صغار الخنازير المُدخنّة وقد غمست في
صلصة الثوم،
والبط المُشَوْحْ المحشو بالفاجارا وقد نثر عليه
الملح».

وهذا كلام يعني الكثير بالنسبة لنا، نحن الذين تعودنا على الملح والفلفل معاً. وربما كان الجمع بين الملح والفلفل من سمات الطهي في الجنوب، وهو أصل الإعداد الفاخر للطعام والذي نسميه الآن «الطريقة الكانتونية». وعندما تذوق هان يو الطعام الجنوبي هذا للمرة الأولى كتب يقول:

«عندما أتيت إلى هنا أبعدت العفاريت عني
حتى أتمكن من تذوق الطعام الجنوبي-
وهو مخلوط بالملح اللاذع،
ومخلوط بالفاجارا والبرتقال كذلك».

ولم يكن الفلفل الأسود شيئاً جديداً تماماً، فالاسم الذي خلع عليه يؤكد وضعه الإنابي: «فاجارا الغربيين». وفي الوقت نفسه، وبمثل ما اعتبر «فاجارا شو» (في مواجهة فاجارا تشن المحلية) نوعاً ممتازاً، فقد كان «فاجارا هو» يعتبر الأفضل، وإن استخدمت الأنواع كلها للأغراض ذاتها. لكن النوع الجديد قد أطلق على الأرجح أطباقاً جديدة. فعن الفلفل تقرأ -على سبيل المثال- ما يلي: «... الذي يأتي من بلاد ماجادا حيث يسمونه ماريخا... وبذوره على شكل بذور الفاجارا

المعروفة في هان، لكنه لاذع ونافذ إلى حد كبير. ويتم جمعه في الشهر السادس، ويستخدمه الناس في عصرنا هذا عندما يعدون أطباق اللحوم على الطريقة الغربية. فالوصفات الأجنبية كانت تتطلب توابل أجنبية».

ويعد الفلفل الأسود من الحبيبات التي توجد على عيدان نوع من النبات يسمى «بايبرنيجرام»، «... ويكدس في أكوام من أجل التخمير، وخلال تلك الفترة يتحول لونه إلى أسود، ثم يفرش على حصائر حتى يتسنى تجفيفه». ويؤخذ الفلفل الأبيض من الحبيبات ذاتها، وتفصل الحبيبات الأكبر والأحسن وتنقع في الماء حتى تنفصل القشرة. وموطن نبات الفلفل هو بورما وآسام، وقد أُدخل إلى الهند والهند الصينية وإندونيسيا، ومن الهند دخل إلى فارس حيث كانت تحمله السفن الفارسية فيما تحمل من سلع أخرى مثل خشب الصندل والعقاقير إلى أجزاء من آسيا العصور الوسطى. ويقول الدليل الصيدلاني التانجي إنه ينمو في المناطق الغربية الخارجية، أي بلاد البرابرة، و إن كنا قد لاحظنا من قبل ارتباطه الخاص بماجادا، والواقع أن ماجادا نعت استخدم لوصف الفلفل في اللغة السنسيكريتية، ولذا يمكن أن نفترض أن المنطقة كانت من مراكز إنتاجه الكبرى. ومن حقائق التاريخ المألوفة تماماً في عصرنا هذا القيمة العالية للفلفل الأسود في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث، وما جلبته تجارته من ثراء لمحتكريها. ويبدو أن الفلفل الأسود كان غالي الثمن في القرن الثامن أيضاً، فعند جرد الممتلكات التي صودرت من الوزير يوان تساي (الذي خرج من البلاط يحيط به الخزي والعار في عام 777) تبين أنها تضمنت مائة بيكول (حوالي 133 رطلاً إنجليزياً) من الفلفل الأسود الأصلي، وهي كمية هائلة وتعكس حجم ثرواته التي اشتملت فيما اشتملت على خمسمائة أوقية من الستالاكتايت (الهابط، وهذا رواسب كلسية تتدلّى من سقوف المغاور) الذي كان ذا قيمة طبية خاصة.

وعموماً فإن القيمة الطبية للفلفل الأسود كانت في الماضي تتساوى مع قيمته

كتابل، واعتمدت على تأثيره المُهَيِّج الذي ينشط إفراز الغدد ويساعد على الهضم، وقد أوصى منج شن بتجرعه مع نبيذ نقي لعلاج «البرودة، وآلام القلب والبطن». لكن كانت للفلفل الأسود مساوئه كذلك، فوفقاً لما ذكره خبير آخر فإنه «... إذا تم تناوله بكمية زائدة عن الحد فإنه يتلف الرئة، ويسبب البصاق الدموي».

ولقد عرف صينيو تانج نوعاً آخر من الفلفل هو «الفلفل الطويل»، وسموه باسمه السنسيكريتي وهو «بيبالي» أو الاسم الأكثر شيوعاً بعد اختصاره إلى «بيبال» (وبإساءة النطق أصبح «بتبات» أو بيِّبات). ويأتي اسمه باللغة الإنجليزية من المصدر ذاته. ولقد انتشر الفلفل الطويل عبر آسيا الجنوبية حتى قبل ظهور الفلفل الأسود العادي، وفي روما وفي عهد بليني كان أكبر قيمة منه. ويحدثنا توان تشنج—شيه بأنه كان يزرع في ماجادا، شأنه شأن الفلفل الأسود، وإن كان سو كونج يرى أنه منتج إيراني نظراً لما تمتع به من أهمية في تجارة بلاد فارس. ويضيف قائلاً: «... كان الغربيون يجلبونه لنا، ونستخدمه في طهي الطعام نظراً لنكهته». ويبدو أن الفلفل الطويل هذا لم يكن يزرع في الصين في عهد تانج، كما أنه غائب تماماً في شِعره. لكنه كان يزرع في لنجنان في القرن الحادي عشر، ولقد أشار إليه الشاعر السونجي العظيم سوشيه نظراً لرائحته النفاذة. والواقع أن الفلفل الأبيض مادة حريفة أشد من فلفل الفوفل الذي يشبهه، ومن ثم فقد اعتبر دواءً أشد فاعلية من أنواع الفلفل الأخرى. ولقد وصفه الأطباء كمقوٍّ للخاصر والأرجل، وكمساعد على الهضم، وللقضاء على نزلات البرد في المعدة، وما إلى ذلك. وبعد أن جربه تاي نفسه حين عاني من آلام بالأمعاء، وبعد أن جرب وَصَفَاتْ الأطباء دون جدوى أشار عليه أحد ضباط حرسه أن يتجرع الفلفل الطويل المنقوع في اللبن، وتحقق له الشفاء.

وفي جنوب شرقي آسيا تنتشر عادة مضغ أوراق فلفل (الفوفل) وعادة ما يكون ذلك مع شريحة من بذرة نخيل الفوفل كمنشط معتدل ومسهل للتنفس. وكان

المنتج التجاري يسمى أحياناً في عهد تانج «صلصة الفوفل»، وفي ذلك الاسم إشارة إلى الطريقة التي كان يُحَضَّرُ بها في لنجنان حيث كان مضغ الفوفل عادة قديمة. ولكنه كان يسمى أحياناً «فلفل الأرض»، وكان يوضع في النبيذ والطعام كتابل أو بهار كما يوصف كعلاج لاضطرابات المعدة، شأنه شأن أنواع الفلفل الأخرى. ولقد أوضح سوكونج أنه كان ينمو في شزوان كذلك، وأن الأجانب من البلدان الغربية كانوا يجلبونه أحياناً.

ومن أنواع الفلفل الأخرى التي عرفها قوم تانج ذلك الذي كان يسمى «الكبابة» (حب العروس)، وموطنه الأصلي جزر الهند (الشرقية). وفي عهد تانج كان هذا النوع يأتي من سريڤيجايا، ومن إندونيسيا كان التجار العرب في العصور الوسطى يحصلون عليه. وفي الهند عرف باسم «كباب تشيني»، أي «الكبابة الصينية»، وربما كان ذلك راجعاً إلى الدور الصيني في تجارته، والأرجح إلى الأهمية في التجارة الصينية بصفة عامة. كذلك فقد استخدمت الكبابة كتابل في أوائل العصور الوسطى في أوروبا. وفي الصين كان هذا النوع من الفلفل يسمى باسمين، الأول «ڤايلنجا» (وربما كان ذلك اسماً لنوع من الفلفل الأسود المقلد، وبلهجة هندية وقد خلع على ذلك النبات الملاوي)، والثاني «ڤيدانيجا» والكلمة المرادفة في اللغة السنسيكريتية. ويعتقد لي هسون أنه كان ينمو على شجيرات الفلفل الأسود ذاتها. وعلى أية حال فقد كان أطباء تانج يصفونه كفاتح للشهية ولشفاء «الأبخرة الشيطانية»، ولتسويد الشعر، ولتعطير الجسد. وليس ثمة دليل على استخدامه كتابل أو بهار، ومع ذلك فقد فضلت ضمه إلى هذا الجزء من الكتاب ليكون مع أنواع الفلفل الأخرى.

ولدى الصينيين نوع من الخردل (المسطردة) خاص بهم، ولكنهم في عهد تانج كانوا يجلبون نوعاً غربياً منه عن طريق التجار الأجانب، وهو نوع شديد الارتباط بالكرنب واللفت، وهذا النوع هو «الخردل الأبيض» وعرفوه بهذا الاسم، وإن

أسموه أيضاً «خردل الغربيين»، وموطنه الأصلي حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان يزرع في شانسي بحلول القرن الثامن، وكانت حبوبه الكبيرة البيضاء ذات الرائحة النافذة توصف كعلاج لاضطرابات التنفس. وشأنه شأن الكبابة فإن دوره في الطهي غير معروف.

السكر

كان الناس في عهد تانج يحبون الحلويات، وعادة ما كان العسل يستخدم في صنعها. وكانت شانسي الجنوبية تنتج أعواد البوص العسلية. كذلك فقد كانوا يصنعون الزنجبيل المُعَسّلْ في كلٍّ من يانج تشو، وهانج–تشو بالقرب من مصب نهر يانجتسي. وكان يعتقد أن تناول جرعة من العسل والماء بانتظام ولمدة طويلة يعطي الوجه وهجاً وردياً رائعاً. ومع كلا قدمه وشعبيته في الصين كان القوم في عهد تانج يستوردون نوعاً أرقى منه من بلاد التبت.

وكانت النباتات الحبية (الغلال) مصدراً آخر للسكر في الصين، فقد كان القدماء يحصلون على شراب حلو المذاق من حبوب مثل الشعير والدخن الجلاتيني (الغَرَوِي)، وكان سكر الشعير يصنع ابتداءً من القرن الثاني قبل الميلاد على أقل تقدير. وبحلول عهد تانج كان يبدو أن تلك الأنواع من السكر كانت بلا طعم إلى حدٍّ ما، ومن ثم باتت منتجات دنيا، والدليل على ذلك أنه لم يرد ذكر لها في سجلات وقوائم الجزية، ومن أهم أسباب ذلك التحول دخول صناعة استخراج العصارة والبلّورات من قصب السكر في الصين، وما لقيته من تشجيع وترحيب.

وقصب السكر أشهر أنواع النباتات السكرية، وإن احتفظ سكر البنجر، وسكر السرغوم وسكر التمر بمحبيه. وينمو العديد من أنواع قصب السكر في آسيا

الاستوائية وأوشيانا. ومن تلك المنطقة الشاسعة انتقل النبات غرباً حتى وصل إلى بلاد فارس بحلول القرن الخامس (على ما يبدو)، وإلى مصر بحلول القرن السابع، وإلى أسبانيا بحلول القرن الثامن. وكان السكر يستخلص من القصب بعدة طرق، أبسطها مضغه أو سحقه (عصره) للحصول على شراب طيب. وعلى مستوى أكثر تطوراً يمكن غلي العصارة بحيث تتحول إلى مادة صلبة تصلح لتحلية الأطعمة. وأخيراً تنزع الشوائب بعملية التكرير وذلك لمنع المنتج من الفساد أو التدهور. وكل من هذه الطرق الثلاث مسجل في تاريخ الصين الثقافي.

ولقد عرف الناس بقصب السكر في أواخر عهد تشو، وهان باعتباره من منتجات الأجزاء الأكثر دفئاً في الجنوب، وآنام بصفة خاصة. بل إن «الشراب السكري» الذي أشار إليه سزو–ما هسيانج–جو ربما كان شراباً مخمراً صنعه الجنوبيون منه. وعلى أية حال فقد أحب الصينيون عصارته، وبمرور الوقت تعلموا زراعته، حتى أنه بحلول عهد تانج كان ينمو بشكل جيد في شزوان الوسطى، وشمالي هيوبيه، وتشكيانج الساحلية. ومع ذلك لم يكن نباتاً من الأنواع ذات الاستخدام اليومي، وظلت أعواد قصب السكر سلعة غالية في الشمال، واستمر الحال كذلك حتى وقت متأخر من القرن الثامن. وقد نقرأ الآن فيما نقرأ عن تاي تسونج الذي أهدى عشرين عوداً من القصب لأحد رعاياه، وكانت تلك هدية نادرة وثمينة. ويضاف إلى ذلك أن قصب السكر –شأنه شأن الطاووس وزهرة اللوتس– كان واحداً من كثير من الأشياء الطبيعية التي أوحت بصور بلاغية معقدة أطاحت ببوذا: فقد أضيف للشاكياموني لقب «قصب السكر» حيث زُعِمَ أن أحد أسلافه قد وُلِدَ من ذلك النبات، وأن وِي كاو، قاهر القبائل التبتية –البورمية على حدود بورما قد أرسل إلى بلاط تانج رقصة «ملك قصب السكر» مع رقصات نان–تشاو أخرى، «الأمر الذي يعني أن تعليم بوذا للناس له مذاق مثل مذاق قصب السكر، ويسعد الجميع بلذته».

ومن أشكال إعداد السكر للاستهلاك اليومي الأرغفة أو الكعكات، وكانت تسمى «أحجار العسل»، وكانت تصنع في تونجكنج ابتداءً من القرن الثالث من السكر المنتج عن طريق تجفيف عصارة القصب تحت الشمس. وأحياناً كانوا يشكلون العصارة المجففة على هيئة بشر، أو نمور، أو أفيال وما إلى ذلك. ومن أمثلة ذلك كتل السكر التي كانت على هيئة أُسُودْ في أواخر عهد هان، وإن لم يكن مؤكداً أن السكر الذي احتوته تلك الأشكال قد استخرج من القصب الجنوبي. وفي عهد تانج كانت «أحجار العسل» تلك تنتج في العديد من المدن؛ فكعكات السكر المخصصة للبلاط كانت تأتي من لو-تشو في جنوب شرقي شانسي، وكانت ترسلها شمالاً مع المنسوجات الكتانية والأحبار والجنسة (عشبة صينية)، كما كانت تأتي أيضاً من يوه-تشو في شمالي تشيكيانج مع الخزف والمنسوجات المطرزة، والزنجفر، ومن يونج-تشو في جنوبي هونان مصحوبة بمقابض الأسهم، والكودزو والقطع الأحفورية المذهلة.

وعلى الرغم من أن مصدر السكر في تلك المستحضرات قد اختلف من مكان إلى آخر، فقد كان الحليب من المكونات الأساسية. وكان ثمة نوع جيد يعيش طويلاً وقد صنع من العسل واللبن بالقرب من العاصمة، وفي بعض الأماكن كان يصنع بغلي مسحوق الأرز في لبن الجاموس، وكان المنتج كعكات ثقيلة ويابسة. لكن أفضل الأنواع ذلك الذي كان ينتج من قصب السكر والحليب، وهي عملية انفردت بها شزوان والفرس، ولا بد أن الفرس المشار إليهم هنا كانوا من الإيرانيين الشرقيين بصفة عامة؛ حيث كانت هناك هدايا من «أحجار العسل» تأتي للإمبراطور من بخارى، وخوارزم في القرن الثامن. ومن النص التالي يستدل على أن سمرقند كانت تنتجه أيضا:

« الناس يدمنون النبيذ، ويهوون الرقص والغناء في الشوارع. ولملكهم قبعة من اللباد يزنها الذهب والجواهر. وتصفف النساء شعورهن على هيئة كعكة تتدلى

خلف الرأس ويغطينها بمنديل أسود محاك به رقائق من ذهب. وعندما تلد إحداهن فإنها تغذي وليدها بأحجار العسل، وتضع صمغاً في راحة يده على أمل أن يتحدث بأحلى الكلام عندما يكبر».

فالنوعية الأرقى لـ«أحجار العسل» الوارد من الغرب الأقصى جعلت تاي تسونج يرسل مبعوثين إلى ماجادا للتعرف على سرها، وكان واضحاً أنها تعتمد على مكونات من درجة أرقى، وتم نقل فن صناعتها إلى صناع السكر في يانج-تشو الذين أعدوا السكر بغلي عصارة القصب التي كانت «... من حيث اللون والطعم متخلفة كثيراً عن مثيلاتها في المناطق الغربية»، وكان ذلك السكر يسمى «شا تانج» أي «السكر الرملي» (الحبيبي)، ويبدو أن ذلك لم يكن سوى نوع جيد إلى حد ما من «السكر البني»، وهو إن كان حبيبياً فإنه غير مكرر. فكعكات السكر المصنوعة من السكر البني غير المكرر تحتوي على ما هو أكثر من السكروز، وتتحول إلى مادة لزجة سريعاً نسبياً. أما السكر البلوري الأبيض فإن صنعه ينطوي على نزع الريم باستمرار وبكفاءة من السائل أثناء غليانه. ولا يبدو أنهم كانوا يفعلون ذلك في عهد تانج، حتى ولو بالطرق التي استوردوها من ماجادا. وفي اللغة الصينية عرف السكر البلوري المكرر باسم «تانج شوانج» (أي الصقيع السكري)، ويبدو أنه كان من المستجدات في عهد سونج. ولكن الروايات تقول إن رجلاً قد عرف الطريقة في عهد تانج، وقد يكون هو أبو صناعة تكرير السكر في عهود سونج، ففي الستينيات والسبعينيات من القرن الثامن جاء راهب يدعى تسو ليعيش في جبل المظلة، شمالي مدينة هسياو-تشي (السيل الأصفر) في شزوان الوسطى، وكان يعرف فن صنع «الصقيع السكري»، ونقله إلى فلاح يدعى هوانج، وبمرور الوقت أصبح هناك العديد من مكرري السكر يعملون في مزارع القصب الواقعة حول الجبل.

«من ذا الذي يخرج من البرية،،

كأعمدة دخانية،،

ينضح بشذا المر،،

ويعبق ببخور فرانكِ،،

وبكل مساحيق التجار العطرية،،

"أغنية سليمان": 3–6



الفصل العاشر

المواد العطرية

جدير بنا أن نكرر هنا أنه لم يكن ثمة تمييز واضح في الشرق الأقصى في العصور الوسطى بين العقاقير، والعطور، والبخور-أي بين المواد التي تغذي الروح وتنعشها، وتلك التي تجذب الأحباب، وتلك التي تقوي الصلة بالآلهة. وفي هذا الفصل من الكتاب نتناول المواد التي كانت رائحتها أهم سماتها، سواءً كانت هذه الرائحة تسر الإنسان أو الآلهة.

ففي عهد تانج كان الرجال والنساء من الطبقة العليا يعيشون وسط ضباب العطور وسحب البخور، فكانوا يعطرون أجسادهم، ويبخّرون حمّاماتهم، ويعلقون ملابسهم ويطلقون البخور من تحتها بحيث يتخلل الأنسجة. وكانت المنازل تفوح بالروائح الزكية، كان للمكاتب شذى رائع، ناهيك عن المعابد التي تنبعث منها الروائح الطيبة لنحو ألف من المواد العطرية. وهكذا لم يكن ثمة قرين مثالي لهذا الجو العام سوى ما نسمع عنه من جنات، وبلاد العجائب والغرائب الواردة في القصص الشعبي وفي الشعر، خاصة تلك التي أوحت بها الطاوية (علماً بأن الأسطورة البوذية ذاتها بالغة التعطير كذلك). فأراضي الأحلام تلك تصور دائما أماكن مفعمة بالروائح الزكية التي كانوا يعتقدون أنها غذاء الروح، ومن ثم فإنها تطهر البشر وتسمو بهم، وتهيىء روحانية الحياة وامتداد القدرات العليا.

وهكذا فقد اكتسب الجو المقدس الذي استثمر الطقوس الكونفوشيوسية قوة كبرى من الاستخدام السخي لمواد عطرية مثل الأصماغ والراتنجات الأخرى ذات الرائحة الطيبة، والعطور المركبة. وكان مركز تلك العقيدة هو «الإمبراطور» والذي كان يعتبر بحق الملك المقدس الذي يربط بين القوى الروحية المنبثقة من

السماء، والمسؤول عن رفاهية كافة المخلوقات. ومن الأمثلة الدالة على ذلك أنه "في عام 775 قام أحد أتباع روخشان السابقين (وكان من أمراء الحرب) بإطلاق سراح مبعوثي لي تشنج – تشي من السجن وأرسل إليه هدايا ثمينة عندما تيقن أن غريم روخشان لي تشنج–تشي هذا من القادة العسكريين الكوريين في خدمة الإمبراطور الصيني، ولإظهار مزيد من الولاء أمر بصنع دمية على هيئة تشنج تشي وقام بتحيتها بحرق البخور حولها، الأمر الذي ابتهج له تشنج تشي"، ويعني ذلك باختصار أن أمير الحرب قد أنعم على الكوري المحظوظ بشرف مقدس، فالبخور كان علامة على تواجد الوحي الملكي، وعلى انطلاق الحكمة الخارقة من خلال عالمي الطبيعة والشؤون البشرية. كذلك فإن البخور يمثل الأنفاس المُطَهِّرة التي تخرج من الآلهة وتنتشر فوق الشؤون التي يديرها الإمبراطور بصفته ظل الآلهة على الأرض ونائباً عنها. وفي عام 847 وبعد أن اعتلى هسوان تسونج الثاني العرش أراد إعادة الانضباط والسلوك القديم في البلاط، وطبق عدة إصلاحات، وأصدر عدة مراسيم من بينها واحد يخصه هو: ألا ينظر في المظالم والأمور المرفوعة إليه إلا بعد أن يغسل يديه ويطلق البخور.

ويتجلى الدور الرمزي المهم للبخور في البلاط المقدس في حقيقة أنه خلال جلسات الاستقبال الملكية الكبرى وبعد طرح الأرواب التقليدية العتيقة وبسط الحصائر الاحتفالية، في الجزء الدائري الناتئ من القصر، تفرش "طاولة المواد العطرية" أمام ابن السماء، ثم يصطف كبار الموظفين أمامها، وبعد أن يتخلل شذى تلك المواد السحري أجسامهم يتقدمون نحو الإمبراطور ليعرض كل منهم ما لديه من أمور. وعلى مستوى أدنى فإنه عندما يأتي وقت مقابلة المرشحين للحصول على لقب "سيد متقدم" كان كبير الممتحنين والمرشحين على السواء يحيي كل منهم الآخر عند "طاولة المواد العطرية" الموضوعة في مدخل قاعة الاختبارات. وفي تلك الحالة أيضاً نجد أن تلك الطاولة كانت تبين تواجد النعمة الإلهية والملكية.

وكان العاهل يظهر رضاه عن تابعيه بإهدائهم هدايا عطرية، ولا تزال باقية – على سبيل المثال– رسائل الشكر والعرفان التي كان يبعث بها كبار أفراد البلاط للإمبراطور عندما كان يهديهم عقاقير معطرة، أو مراهم عطرية، أو عطوراً نادرة. وعلى سبيل المثال هناك رسالة بعث بها تشانج تشيو– لينج يشكر فيها الإمبراطور هسوان تسونج لإنعامه عليه بعقاقير عطرية ومراهم للوجه. وثمة رسالة مشابهة بعث بها مسؤول آخر بمناسبة الأضحية التي تقدم للآلهة المائة بعد وقت قصير من حدوث انقلاب الشمس الشتوي، وتشير فيما تشير إلى الهدايا الإمبراطورية "... عقاقير عطرية في علبتين من الفضة المطعمة بالذهب، ومرهم للوجه، وكيسان من المواد التي تعطر بها الملابس، وكيس به بقول للغسل" كذلك فقد لعب البخور دوراً بارزاً في عبادة الآلهة غير المادية، أي التي لا تظهر على عرش أرضي. وهذه هي قصة زُعِمَ أن روخشان قد رواها لعاهله عندما استقبله في البلاط في أوائل عام 743:

«خلال العام الماضي التهمت الحشرات براعم القمح في ينْج–تشو، فقام ممثل جلالتكم بحرق مواد عطرية وتوسل إلى السماء قائلاً: إذا كان قلب ممثل جلالتكم قد تصرف بشكل غير صحيح، وإذا لم يكن مخلصاً لجلالتكم فلتأكل الحشرات ذلك القلب، أما إذا لم يكن قد أدار ظهره للآلهة، الأرضي منها والسماوي، فلتنصرف الحشرات. عندئذ أتى سرب من الطيور من جهة الشمال والتهم الحشرات عن آخرها في لحظة. ونطلب أن يدرج ذلك في السجلات الرسمية».

وقد تحقق له ما أراد.

ومهما تكن صحة، أو عدم صحة تلك الواقعة فإنها توضح أن حرق البخور كان أمراً مألوفاً، كما كان جزءاً من عبادة الآلهة الصينية، وتدفع صوت المظلوم والملتمس في اتجاه السماء.

ولقد جاء مع البوذية والثقافة الهندية عدد من الروائح الجديدة عرف طريقه إلى

المعابد الصينية، ومعه أيضاً جاءت مجموعة كبيرة وثرية من العادات والمعتقدات الخاصة بالبخور والعطور، الأمر الذي أدى إلى ترسيخ وامتداد التقاليد القديمة. ولكن تلك العادات والاتجاهات الجديدة لم يكن لها في الصين –في الواقع– التأثير الساحق الذي كان لها في الهند الصينية والتي كانت بحكم ثقافتها المحلية الأبسط تستطيع استيعاب الكثير؛ فعلى سبيل المثال كان أفراد الطبقات العليا «المهندوين» في «البلاد الحمراء» في الملايو (وربما كانوا الراختا مرتيكا فيما هي حالياً مقاطعة وليزلي، وقد تم التعرف عليهم من خلال نقوش تعود إلى القرن الخامس) –كانوا يدهنون أجسادهم بالزيوت العطرية، كما أن ملوك تان–تان كانوا يضعون المساحيق العطرية على أبدانهم. لكن الأمور لم تذهب إلى هذا الحد في تانج. ولقد كان ذلك العصر يمثل البوذية في ذروتها في الصين، ومن ثم فقد لعب البخور دوراً كبيراً ليس في الطقوس الدينية فحسب، بل في الأدب وعالم الخيال كذلك؛ فالكتب البوذية مليئة بالصور البلاغية التي تدور حول العطريات حتى إن الكلمة التي تعني «عطري» في اللغة السنسيكريتية (غاندا) غالباً ما كانت تعني –وبكل بساطة– «كل ما يتعلق ببوذا»؛ فالمعبد كان يسمى «غانداكوتي» (أي بيت البخور)، والمحرقة التي أحرقت فيها جثة بوذا أصبحت «البرج العَطِرة»، وكانت عبارتا «الملك العطر»، و«الفيل العطر» من الصفات التي خلعت على البودستافا، وفي جبل غاندا مادانا (جبل البخور) كان يسكن الغاندارافا (آلهة الشذى والموسيقا).

وكل هذه التعبيرات والكثير من مثلها قد ترجم إلى اللغة الصينية مما أدى إلى إثراء فكر تانج ومفردات لغتها.

ولقد تغلغلت الروائح الزكية الحياة العلمانية كذلك، خاصة الحياة الاجتماعية لعلية القوم. فهذا أمير مترف من القرن الثامن لم يكن يتحدث إلى ضيوفه إلا وفي فمه مسك وقطعة من خشب الألوس، «... وعندما كان يفتح فاهه ويبدأ بالحديث

تنتشر أنفاسه العطرية على الحصيرة». ولا بد أن رجلاً كهذا كان قد استحم بماء ساخن معطر قبل أن يجيء إلى مجلسه. ولقد كان الرجال يتنافسون فيما بينهم بما يستخدمونه من عطور (مثلما تفعل النساء الآن بالنسبة لما يصنعنه من فطائر وحلوى)، ففي حفلة فاخرة أقيمت في عهد تشونغ تسونغ عرضت أحسن العطريات في البلاد التابعة له، ونال الجائزة نوع من معجون الفاجارا. ووصلت الأناقة والفخامة ذروتهما في عهد هان هسي-تساي، وهو من مترفي القرن العاشر، وكان قد أمر برش الزهور في حديقته بالروائح الزكية، كل وفقاً لما كان يراه ملائماً -الكافور مع الأوزمانثوس، والألوس مع العليق، و«الاستثناءات الأربعة»» مع الأوركيد (السحلبية)، والمسك مع الماغنوليا، والصندل مع الميشيليا، وكهذا.

وفي هذا الإطار ذاته كانت العطور والمواد العطرية تستخدم لجذب الأحباب، والوصول بمباهج الحب إلى أعلى الدرجات. ولقد شاع استخدام العطورات كمثيرات جنسية بين أفراد البلاط في عهد تانغ. وثمة قصة عن فاتنة قبرصية من القرن الثامن عاشت في تشانغ-آن وأطلقت على نفسها اسم «عطر اللوتس»، وكانت تعطر نفسها بطريقة رائعة حتى إنها عندما كانت تخرج من منزلها «يتبعها النحل والفراشات التي كانت -كما يبدو- تعشق تلك الروائح الطيبة». وثمة قصة أخرى حول إحدى نساء البلاط كانت تحت حماية كبير الوزراء يوان تساي (الذي شملت ممتلكاته المصادرة كميات كبيرة من الفلفل كما أشرنا من قبل)، وكانت كالمخلوقات التي نسمع عنها في الأساطير، ولم تكن بحاجة إلى المستحضرات التي كانت تستخدمها رفيقاتها، ذلك لأن والدتها كانت بعيدة النظر تماماً عندما غذتها على العطور في طفولتها، ومن ثم نما جسمها وقد أصبح عطرياً بشكل طبيعي كما لو كانت حقاً جنّية خالدة.

وياللحسرة! فهذه الرؤية الجنسية للجسد البشري المعطر بما تنطوي عليه من نغمة طاوية عالية قد وردت في «متنوعات تو-يانغ» التي كتبها سو أو، وهي

صورة يمكن اعتبارها المثل الأعلى الذي تسعى السيدات الراقيات للوصول إليه دون جدوى.

ولقد كان طبيعياً أن يكون للعطريات دور مباشر في الطب الجنسي وفقاً لأهميتها بين العقاقير عموماً. فعندما افتتن هسوان تسونج بالسيدة يانج (وكان قد تعدى مرحلة الشباب)، أرسل إليه روخشان هدية عبارة عن مائة حبّة منشطة جنسياً، وكانت ذات لون أحمر، ولا يزيد حجم كل منها عن حبة الأرز، وكانت قد صنعت من «زهور المحبة العطرية»، وكان العاهل يتناول حبة واحدة منها قبل أن يتوجه إلى فراش رفيقته، «.... مما كان يساعده على الاستثارة ويمنحه القوة».

لكن الصينيين كانوا ينتجون أعداداً كبيرة من العطور والبخور من نباتاتهم وحيواناتهم المحلية، حيث كانوا يستخلصون القرفة، والكافور، والكهرمان السائل (أو الخُباز الوردي) من الأشجار الصينية. ومن عصارة حشائش صينية كانوا يحصلون على خلاصات الريحان، وقد تركز إنتاجها حول يونج-تشو في هونان الجنوبية؛ وخلاصات الأترجية التي كانت تستخدم مع تويجات الدُّراق لتعطير الحمامات الساخنة (وإن قيل إن مثيلاتها المستوردة كانت أرقى كثيراً). ومن بين العطريات الصينية ذات الأصل الحيواني الزبّاد الذي شاع استخدامه كدواء لتهدئة الروح وطرد الكوابيس، والمسك الذي كان ينتزع من الغزلان وكان حيواناً منتشراً في شمال الصين وغربها. ولكن استخدام المسك قد تلون قليلاً بهالة من الغرائب والعجائب حيث كانت ترد للبلاط هدايا من هذا العطر القوي من بلاد البرابرة في يونّان في القرن الثامن، ومن المنشوري هسي الذي كان قد استقر في چاو-لي، وكان معروفاً أن شعوباً بعيدة مثل الفرس كانت قد اعتادت على دهن اللحية والحواجب بالمسك أثناء طقوس عبادتها لـ «أهورا مازدا».

وعلى الرغم من تميز هذه المنتجات المحلية فإنه لا يمكن إنكار المكانة العالية التي احتلتها تلك العطور والعطريات العديدة المستوردة من بلاد بعيدة، خاصة

الأصماغ والراتنجات الصمغية: خشب الصندل وخشب الألوس، وكافور بورنيو، والبتشول، واللبان الجاوي (الميعة)، والميعة الجامدة، وبخور فرانك، والمر. وعلى الرغم من أن تلك الكنوز قد أتت إلى تانج من كل أنحاء العالم فإن أكثرها كان يصل على متن السفن التي تجوب بحر الصين الجنوبي، مثل شحنة «العطريات الغريبة» التي أرسلتها كالينجا في عام 815 وكانت حركة الملاحة تلك قد جعلت من كانتون واحداً من أكبر أسواق العطور في العالم، وتأتي في الترتيب بعد يانج-تشو مباشرة. ولا بد أن الكميات المستوردة كانت هائلة نظراً لإسراف الطبقات الأرستقراطية في استهلاكها حيث امتد ليشمل العمارة العطرية.

ولقد ظهرت فكرة أن ثمة نوعاً من الأشجار كان يحمل كافة العطريات المهمة معاً، وهي فكرة لا بد قد نشأت تحت تأثير تفوق العطريات الواردة من الهند الصينية تفوقاً ملحوظاً على عطريات الصين التي وصفت بأنها «بخور الشحاذين»، وأيضاً تحت تأثير المصادر التي لا تنضب للعطور والبخور في «البساتين التي كانت أشجارها تبكي فتنهمر منها أصماغ طيبة وبَلْسَان عطر»، وكانت جذورها جذور الصندل، وأغصانها أغصان الألوس، وزهورها زهور القرنفل، وأوراقها أوراق البتشول، وصمغها صمغ بخور فرانك». وفي أحد أشكال تلك الرواية نجدها على جبل تشي-لاين، ذلك الجبل القديم في آسيا الوسطى وسميت باسم السُّلْف (كائن خرافي يعيش في السماء)، الأمر الذي يربط بينها وبين الجنة الطاوية. ولقد علق صيدلاني القرن الحادي عشر سوسونج على تلك العقيدة التي ابتدعها وصدقها «الأقدمون» قائلاً إن الفكرة قد أتت في الأصل من قوم بنام، تلك المملكة قبل الكمبودية الواقعة على خليج سيام، لكن هذا يضع الشجرة المقدسة في جنات عدن أخرى على جبل كوني آخر، فملوك بنام كانوا ملوك الجبل بلا منازع.

وكان قدماء المصريين يعبدون إله الشمس «رع» عند غروبه (من جهة الغرب)

«... بنوع من الحلوى معقدة الإعداد كانوا يسمونها كوبهي، وكانت تصنع من عدد من المكونات لا يقل عن ستة عشر، من بينها العسل والنبيذ والراتنجات والمر والوج الحلو. وكانت العطريات المختلطة شيئاً مألوفاً في الشرق الأدنى القديم، وأيضاً في صين العصور الوسطى. وفي الواقع فإن الروائح البسيطة غير المخلوطة هي -على ما يبدو- تفضيل حديث نسبياً. ويكمن الاختلاف بين مخاليط الشرق ومخاليط الغرب في المكونات التي كانت متوافرة بسهولة: ففي الغرب كانت تلك أساساً هي بخور فرانك والمر والحلبينة (صمغ راتنجي)، والأونيشا. أما في الشرق فكانت أساساً هي خشب الألوس، وبخور فرانك، والصندل، والقرنفل، والمسك، والأونيشا، وهذا ما ذكره مصدر عليم حديث، على الرغم من أن دليل الأدوية التانجي الرسمي قد أوضح أن الخلاصات الست التي اعتمد عليها خالطو العطريات هي خشب الألوس، وعطر فرانك، والقرنفل، والبتشول، والإليمي، والكهرمان السائل.

ومن أمثلة بخور تانج الممزوج الذي كان يعد لاستخدامه في الهوا تو سزو (وهي مؤسسة بوذية شمال غربي تشانج-آن، بالقرب من المعبد النستوري، والذي لا يزال باقياً) ذلك الذي كان يركب على النحو التالي: أوقية ونصف أوقية من خشب الألوس، وخمس أوقيات من خشب الصندل، أوقية من الميعة الجامدة، وأوقية من الأونيشا، ونصف أوقية من كافور بورنيو، ونصف أوقية من المسك، وكانت هذه المقادير تطحن جيداً، وتنخل من خلال قماش من شاش ثم تخلط بالعسل للحصول على معجون. ويظهر مثل ذلك المزيج العطري بشكل متكرر في الشعر تحت اسم «العطريات ذات المئة مكون»، وهو اسم أقدم كثيراً من عهد تانج. فهذا هو تو فو يتحدث عن «شذى خليط الزهور الذي يشبه العطريات ذات المئة مكون»، وهذا هو تشوان تي-يو (وهو من شعراء أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع) يصف فتاة جميلة في غرفة لبسها فقال:

«عند النافذة الخضراء ذات الستائر اللؤلؤية
المطرزة بأشكال البط
تبدأ الجارية أولاً بحرق العطر ذي المائة مكون».

كذلك فقد كانت مخاليط البخور المعجونة المصنوعة في تانج تلقى الإعجاب في اليابان، وكان المنتج المُصَدَّر يحتوي على خشب الألوس، والسكر، ولبٌ ثمار البرقوق.

ويبدو أن ثمة خليطاً مماثلاً كان يأتي إلى تانج بالاستيراد: فقد أرسلت طوخارا مبعوثين لها في عام 724 حاملين هدية مؤلفة من مائتي «جاندافالا» من العقاقير الغربية. والجاندافالا كلمة تعني «الثمار ذات الشذى»، وهذا اسم أطلق في الهند على عدد من الأشجار المختلفة ذات الثمار طيبة الرائحة. وإذا صحت قراءتي للتسجيل الصيني لنطق تلك الكلمة السنسيكريتية فإننا في نصوصنا هذه نكون إزاء أقراص أو كتل من العقاقير العطرية المخلوطة وقد شكلت على هيئة ثمار.

وما أن تصل تلك المواد الغربية إلى الأراضي الصينية حتى يتم استخدامها في أغراض مختلفة وفقاً لطبيعة كلٍّ منها واحتياجات أصحابها. ولقد كان المترفون يحولون الصناديق المصنوعة من الأخشاب الفاخرة والتي عبئت فيها تلك المواد إلى النجارين وصناع الأثاث. ومن أمثلة ذلك الترف تلك الشرفة التي بناها يانج كو-تشونج، أحد وزراء هسوان تسونج، من خشب الألوس وعلى أعمدة من خشب الصندل، وجدران طليت بالمسك وبخور فرانك المخلوط بالتراب. وكان من عادة ضيوف ذلك الوزير الوجهاء الذهاب إلى تلك الشرفة العطرة في الربيع لمشاهدة نباتات الفاوانيا (عود الصليب) في أوج تفتحها.

لكن الثراء الهائل كان وحده السبيل للحصول على المواد اللازمة لذلك الترف، خاصة بعد أن ارتفعت أسعارها بسبب تعاظم الطلب عليها وانتشارها بين الناس.

فلقد كان أمراً مبهجاً أن يُشعل الفرد شمعة عطرية في غرفة النوم أو المَخَادع الخاصة، وكثيراً ما تصادفنا في أشعار تانج إشارات إلى ذلك.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك تلك الشموع ذات الشذى التي كان يشعلها الإمبراطور آي تسونج، والتي وإن لم يزد طول كل منها عن بوصتين فقد كانت تشتعل طوال الليل ناشرة رائحة طيبة حولها. ومن الأنواع الخاصة جداً من تلك الشموع النوع المتدرج الذي كان يدل على الوقت خلال الليل، وقد يكون الرهبان البوذيون أول من استخدم تلك الوسيلة في سهرهم ويقظتهم، وقد عرفت قبل عهد تانج بوقت طويل، الأمر الذي يستدل عليه من هذه الأبيات من شعر يو تشاين–وُو (وهو من شعراء القرن السادس):

«ومع احتراق البخور نعرف الساعة من الليل،

وبالشمعة المتدرجة نتأكد من دقة الساعات».

وإلى جانب الشموع التي تعلن عن الوقت كانت هناك «ساعات البخور» كما نسميها الآن، والمشار إليها في أبيات الشعر سالفة الذكر، وهذه كانت عبارة عن زخارف دقيقة من مسحوق البخور على سطح مسطح حُفِرت عليه حروف أو أشكال تمثل تقسيمات الوقت، وكان يستدل على الوقت والنار تشق طريقها عبر ممر البخور الضيق والذي كان يؤدى من علامة إلى أخرى. وكانت هذه الساعات تعرف بصفة عامة باسم «الأختام العطرية»، حيث إن الأشكال العتيقة المحفورة في البخور كانت تشبه تلك المحفورة على أختام علِيّة القوم. ولقد جعل الشاعر الريفي وانج تشاين واحدة من تلك الساعات رمزاً للحارس (الديدبان) الذي يقف وحيداً فقال:

«أجلس على راحتي، أشعل خاتماً من البخور؛

يملأ المدخل برائحة الأرز وشجرة الحياة.

والشعلة تتهاوى من كل الجوانب –وتتضح

الحروف على ذلك العمود الذي تكسوه
الطحالب الزرقاء».

(فالساعة قد احترقت حتى آخرها، وأتى الفجر وأصبح بوسع الشاعر قراءة النقوش التي هي على العمود الحجري في حديقته). والقاعدة التي كان يُصب المسحوق عليها ويحرق كانت من الخشب عادة، الأمر الذي نستدل عليه من مصدر يعود للقرن العاشر يصف تعديلاً طريفاً: «عندما تستخدم قالباً خشبياً صُبَّتْ عليه أجزاء البخور على هيئة حروف عليك بقلبه سريعاً، وهذا يحدث نهراً متعرجاً من البخور». وكانت بعض قواعد تلك الساعات تصنع من الحجر، ويمكن مشاهدة نماذج لتلك في متحف الشزوين، وإحداها قطعة مستديرة من الحجر وضعت داخل زهرة لوتس خشبية محفورة بكل دقة، وتويجاتها مذهبة وقد رُسِمَتْ عليها أشكال من الأساطير». ولقد نحتت تلك التحفة بحروف ديڤاناجاري، وليس بحروف الأختام الصينية، ويبدو أن ذلك كان أمراً معتاداً، ومن ثم فقد استخدمت ساعة البخور تلك في بيئة بوذية، وربما كانت اختراعاً هندياً كذلك. وفيما يلي وصف شعري لواحدة منها من نظم توان تشنج-شيه:

«ولقد ترجمت الجاتا الغربية وبانت واضحة؛
ويحترق ميزان البخور الذي صنع في هيئة
حروف سنسيكريتية».

أما في المنازل وفي الطقوس العادية فقد كان البخور يحرق في مباخر، وأحياناً كانت تصنع المباخر من مواد ثمينة، مثل تلك المصنوعة من الأحجار الكريمة في قصيدة لي هُو «أوتار الإله»، وهي تحكي عن فتاة شامانية تعزف على العود بريشة مصنوعة من الخشب الذي كان يعرف باسم «أفكر فيك»، وتدعو أحد الآلهة لأن يمتلكها:

«تصب الفتاة -الشامانا النبيذ- وتملأ السحب
الفراغ؛

ومن مبخرة مرصعة بالجواهر يتصاعد دخان البخور مع أنغام العود.

ويأتي إلى المكان آلهة البحر وشياطين الجبال،

وتصطك العملات وتصطك بجلجلة في الريح الدوّارة.

وبخشب يسمى «أفكر فيك»، مرصع بأشكال السمرغ الذهبية،

يتهامس الجميع، وتتشابك الخطوط؛

وتُناجى النجوم، وتُستدعى الشياطين-

وعند ميعاد طعام عفاريت الجبال يرتعد الناس من البرد.

وعند الحد الجنوبي للجبال ترسم الشمس قوساً في الفضاء-

يظهر الإله. ترى كم مكث هنا ظاهراً أو مخفياً؟

وعندما يغضب أو يفرح تغير رفيقته وجهها-

ثم تصاحب الإله وتعود معه إلى الجبال الزرقاء».

وكانت المباخر ذات النوع التقليدي تأخذ شكل «جبال الكون» التي كانوا يعتقدون في تلك العصور أن أشكالاً مقدسة تسكنها. وكان وانج يوان-بو -وهو من أشد عاشقي الترف- يصنع واحدة من تلك المباخر أمام سريره، كما كان لديه قاعة أعمدتها مصنوعة من خشب الألوس، وبها مبخرة تحملها أشكال منحوتة لصبيين قزمين، وقد رصعت تلك المبخرة بالجواهر السبع، وفيها يحرق البخور من غروب الشمس حتى شروقها.

لكن هذه لم تكن شيئاً بالمقارنة بالمبخرة المرصعة بمائة جوهرة والتي وجدت في معبد بوذي في لو-يانج، وكانت مهداة من إحدى الأميرات الملكيات، وارتفاعها

ثلاث أقدام، وكان لها أربع فوهات، ومزينة باللآلئ والكهرمان والمرجان والعقيق الأحمر وكل نوع من الأحجار الكريمة، ومزينة كذلك بأشكال لطيور وحيوانات وآلهة وشياطين، وكائنات ملائكية وموسيقيين مقدسين، وكل أنواع المخلوقات الخرافية (الأسطورية). ولقد تكلف إنتاج تلك التحفة الفنية الرائعة ثلاثين ألف قطعة عملة، واستنزفت الكثير من مخزون خاماتها الثمينة.

وكان ثمة نوع من المباخر الشعبية تلك تتحور على هيئة طائر أو حيوان، حقيقي أو خرافي -أسد، أو كركدن وما إلى ذلك، وأحياناً يجعلون الدخان يخرج من أفواهها. كذلك كانت الأفيال والبط من الأشكال الشائعة على وجه الخصوص. واستدلالاً من قصيدة نظمها لي شانج ين فقد كان لبعض المباخر شبابيك مصنوعة من الميكا.

استخدم الصينيون مباخر ذات مقابض طويلة منذ عهد هان، وكانوا يزينون تلك المقابض بأشكال للأسد، وهذه كانت مألوفة في آسيا الوسطى وقندهار في العصور الوسطى، وربما كانت هذه من ابتكارات قدماء المصريين. وكانت المباخر تصدر إلى اليابان، ولا يزال متحف الشزوين يحتفظ بنماذج رائعة منها، كما يوجد عدد منها في معبد توشوداجي في نارا، وهي عادة مصنوعة من النحاس المخلوط بمعادن أخرى -الذهب والأنتيمون على سبيل المثال، وإن كان ثمة مثال لمبخرة مصنوعة من خشب الساندرز ومحلاة بزينات من الذهب والفضة والأحجار الكريمة.

أما «سلال البخور» فقد كانت أشكالاً للكرة الأرضية مصنوعة من المعدن الأجوف وتنتشر عليها أشكال لزهور وحيوانات، وداخل الكرة الأرضية توضع كأس حديدية تتدلى من جمبلات (وسيلة لإبقاء شيء ما في وضع أفقي)، وهذه كانت تضم البخور المحترق. وكانت هذه المباخر تستخدم لتعطير الملابس والمفارش، وحتى لقتل الحشرات، ويضم متحف الشزوين نماذج منها مصنوعة من الفضة والبرونز، وقد نقرأ عنها في أشعار وانج تشاين الغنائية التي تدور حول الحياة

في البلاط، مثل قوله: «وفي قاع سلة البخور تتقلب الجمرات ككرات الجليد».
لكن تلك لم تكن الوسيلة الوحيدة لتعطير الملابس بالبخور، فقد ابتدعت زوجة الوزير يوان تساي الطريقة التالية: «كانت تأخذ أربعين حبلاً من الحرير الأرجواني والأزرق، طول كلٍّ منها عشر أقدام، وتضع عليها جميعاً ملابسها المطرزة المصنوعة من منسوجات فاخرة وتحت كل حبل نشرت العديد من المباخر الذهبية والفضية، وعبأت كل مبخرة بأفخر المواد العطرية الأجنبية، وهكذا كانت الروائح الزكية تتخلل ملابسها.

والواقع أن تعليق أكياس العطور في خزائن الملابس عادة ترجع إلى أقدم العصور في الصين، مثلها مثل عادة تعطير عربات الأرستقراطيين، واستمرت تلك التقاليد في عهد تانج حيث كان الريحان العنصر الأساسي في تعطير الملابس. وكانت نساء القصر بصفة خاصة يحرصن على التعطير، بل وكن يبالغن فيه، وتقول مصادر حديثة إن الرائحة الزكية التي كانت تنبعث من المواكب الملكية تنتشر لعدة أميال وكانت كالبشير (أو النذير) باقتراب مثل تلك المواكب —وفيما يلي صورة رسمها أحد الرهبان «لسيدات تانج المعطرات» بعطر «الجبل البارد» (هان—شان):

«جئت بنفسي إلى سفح الجبل،
ودلفت إلى المدينة عبر أسوارها.
وتصادف أن رأيت ثُلةً من الفتيات،
جميلات رشيقات أنيقات،
وعلى رأسهن زهور على طريقة شو،
وقد ظهرت وجوههن لامعة وخدودهن حمراء،
وفي أيديهن أساور من ذهب مطعم،
وملابسهن وردية وأرجوانية؛
وشكلهن شكل الآلهات والجنيات،

وتنبعث من أحزمتهن المعطرة روائح طيبة.
ولقد لفتن نظر الرجال، فالرجال رجال على كل حال،
وصهرن قلوبهم وذهبن بعقولهم،
والكلمات التي خرجت من أفواههن لا مثيل لها!!
وقد تبعهن الرجال كظللهن وأرواحهن.
وظلوا كالكلاب الجائعة حول قطعة من عظم
يمصمصون شفاههم ويلعقون ريقهم،
لا يعلمون كيف يعودون إلى صوابهم.
فما الفرق بينهم وبين الماشية؟
فبعد حين قد يصبحن كالعجوز الشمطاء،
وقد يصبح شكلهن قبيحاً كالأشباح والعفاريت،
فهن مدفوعات من البداية للنهاية بقلوب حقيرة،
وبهذا لن يقفزن أبداً إلى أرض الخلاص والحرية».

لم يكن تعطير الرجال لأنفسهم ليقلل من رجولتهم، فهذه قصيدة من القرن التاسع تحكي عن جندي شاب كان يستعد لليلة مبهجة مع فتيات أجنبيات في العاصمة وقد امتطى صهوة جواد أبيض، وارتدى قميصاً على هيئة العنقاء (طائر فونكس الخرافي) «وتنبعث من أكمامه روائح العطور الشهيرة الغريبة الواردة من بلاد عجيبة». وحتى الإمبراطور ذاته كان يضع على ملابسه أكياساً من العطور، خاصة عند الاحتفال بانقلاب الشمس الشتوي، حيث كان ذلك تقليداً قديماً.

ومن أشهر أكياس العطور ذلك الذي دفن مع يانج كوي–في. فبعد عودته من شزوان أرسل هسوان تسونج مبعوثاً لانتزاع جثتها سراً من القبر الذي دفنت فيه

على جانب أحد الطرق في ماي ويه، ولقد وجد ذلك المبعوث الكيس هناك، وأحضره إلى الإمبراطور الذي ما أن شاهده حتى انخرط في البكاء.

وكانت هذه الأكياس تصنع عادة من مواد ملونة أو مزهرة، وخاصة من القماش الفاخر. ويوجد في متحف الشزوين العديد من أكياس العطور الصغيرة المصنوعة من الشاش الفاخر والكتان. وأخيراً كانت هناك الكريات العطرية التي وردت إشارات إليها في الشعر، وكانت الراقصات يتقاذفنها بمهارة ورشاقة في عهد تانج.

خشب الألوس

«آجارو» هو الاسم السنسيكريتي للمادة العطرية المفضلة في عهد تانج، ولها العديد من المرادفات في اللغة الإنجليزية فمن «جاهرو» في لغة الملايو، و«آهالوث» في اللغة العبرية، و«آجويلا» في اللغة البرتغالية وغيرها –اشتقت كلمة «جارو» (في لغة التجارة)، و«ألوس»، «خشب النسر»، وحتى «آجالوش». وتمثل تلك الكلمات وأقاربها منتجاً لعدة أشجار من نوع «آكويلاريا»، وموطنه الأصلي جنوب شرقي آسيا. وخشب الألوسي المشهور في تجارة البخور خشب ثقيل ومصاب، وداكن اللون عما حوله من الأشجار الأخف والأكثر ليونة، وهو مشبع بالراتنجات، ومعطر بدرجة عالية، وأحياناً تكون تلك الراتنجات ذات الرائحة الطيبة على شكل أشخاص وحيوانات، الأمر الذي يرفع قيمتها في السوق إلى أعلى الحدود.

وكان الاسم الصيني لأحسن أنواع ذلك الخشب الثمين هو «العطريات الغاطسة»، وذلك نظراً لأنه كان أثقل من الماء (ومن ثم لا يَطْفُ فوقه). ويروي لنا أحد كتاب تانج كيف كان التشاميون يحصلون عليه: «يقطعونه من الأشجار، ثم يكدسونه لعدة سنوات. وبعد أن يتعفن ويتحلل بحيث لا يتبقى منه سوى القلب والعُقد يضعونه في الماء وفيه يغوص، ومن ثم كانت التسمية «العطريات الغاطسة»

ويضيف كاتب آخر قائلاً: «أما إذا طفا وأصبح لنمط لبّه عروق سوداء فإنه يكون تسيان -أي بلا قيمة. ومن بين تلك العطريات عديمة القيمة (في الطب) «عظام الدجاجة»، و«حوافر الحصان»، ولا تنفع إلا في تعطير الملابس وطرد الروائح الكريهة».

وفي الغرب اشتهرت الصين بأنها مصدر خشب الألوس. فنحن نسمع -على سبيل المثال- عن تاجر من عُمان كان قد أتى إلى الصين في القرن الثامن لشراء ذلك الخشب. وعلى الرغم من حقيقة أن مدينة كانتون ترسل الجارو بانتظام إلى تشانغ -آن على سبيل الجزية المحلية جنباً إلى جنب مع الفضة، والسحلبيات، والأشنة، واللبلاب فإنه يكاد يكون من المؤكد أنهم كانوا يحصلون على خشب الألوس من مستنقعات آنّام. «فصين المسلمين» لم تكن مجرد مُنتِج أساسي، بل سوقاً كبرى، ولربما كانت غالبية خشب الألوس المستخدم في الصين يستورد من الخارج، وخاصة من تشامبا التي كان ملوكها يرسلونه إلى تشانغ-آن خلال القرن الثامن، ومنه هدية احتوت على ثلاثين كاتي (والكاتي وحدة وزن صينية تساوي نحو رطل وثلث رطل إنجليزي/ المترجم) من الليجنالوس «الأسود». ويبدو محتملاً أن التشاميين المتحضرين قد اعتمدوا اعتماداً كبيراً على السكان الأصليين في الجبال للعثور على «الأشجار المريضة» في السابق كما هو الآن. ففي القرن التاسع عشر كان الجاهالو (كما يسميه التشاميون) يجمع وسط طقوس واحتفالات بواسطة قرية واحدة من المسلمين التشاميين في مقاطعة بينه-ثُوان بالتعاون الوثيق مع «رجال الغابات» (أورانج جلاي). وحتى عهد حديث نسبياً كهذا كان خشب الألوس هذا عنصراً مهماً في طقوس كل من تشام وآنّام.

كذلك فقد كانت لخشب الألوس أهمية كبرى في الطب الصيني حيث كان يستخدم لتخفيف كافة أنواع الآلام الباطنية، وطرد الأرواح الشريرة، وتطهير الروح. ولهذا الغرض فقد كانوا يغلونه في النبيذ، كما كان يضاف للمراهم لعلاج

القروح والجروح السطحية. وكان انتشار خشب الألوس في بخور وعطريات تانج دليلاً على اعتقاد ساد في كل من الهند والصين بأن للدخان المنبعث منه عند حرقه أثراً مفيداً في علاج القروح والجروح. ولا أملك من العلم والمعرفة ما يجعلني أحكم بصحة، أو عدم صحة ما ذكره أبو زيد الصيرفي في أوائل القرن العاشر من أن ملوك الصين كانوا يدفنون في مستحضرات الألوس والكافور.

وعلى أية حال فقد كانت لخشب الألوس أهمية كبرى في حياة الصينيين في العصور الوسطى سواءً في الأغراض الخاصة، أو لأغراض الطقوس، والرباعية الشعرية التالية والتي نظمها لي هَو خير دليل على ذلك وهي تظهر اللورد الشاب وهو ينتظر بزوغ الفجر في غرفته وحيداً:

«يلتوي ويتصاعد في حلقات-دخان ذلك «الغاطس في الماء»
ويصبح غراب- منظر ليل قارب على الانتهاء،
وبركة متعرجة -تتموج حول زهور اللوتس.
والجواهر الباردة التي ترصع حزام الخصر».

ويقال إن مياهاً معطرة تحضر من الجارو كانت تستخدم في «صبغ» ملابس بعض من أفراد البلاط، ربما لجذب انتباه السيدات. لكن الأكثر ترفاً من ذلك كله استخدام ذلك الخشب الثمين لتعطير المباني، حيث كانوا يضغطونه محولين إياه إلى مسحوق ثم يضعونه في الجزء المطلوب تعطيره -وعلى سبيل المثال كان يوضع على جدران القصور كما في حالة قصر تسونج تشو-كو، وذلك لأسر انتباه الزائر بمجرد دخوله من الباب. لكن لم يتبق شيء من تلك البنايات المعطرة، وإن يوجد بمتحف الشزوين حالياً صندوق طويل سداسي الشكل يحتوي على نصوص دينية بوذية، ومبطن بمسحوق خشب الألوس، ومزين بالقرنفل وبذور «الغرام الحمراء»، المأخوذة من «عرق السوس البري»، وياله من وعاء مناسب لكلمات بوذا ذات الشذى!!

ولقد كان طبيعياً أن تصنع أشياء صغيرة وثمينة من الجارو، ومن أمثلة ذلك ريشة الكتابة المصنوعة من الألوس والخيزران المرقط، وقد ربطا معاً بشرائط من لحاء شجر القضبان (البتولا)، وهي من مقتنيات متحف الشزوين. ويبدو أنه كان من غير المعقول توافر قطع كبيرة منه تكفي للبناية بأكملها، لكن هذا ما تخبرنا به مصادر القرن التاسع الموثوق بها. فقد أهدى تاجر -بحار فارسي الإمبراطور الجديد تشنج تسونج- وقد كان شاباً ذا مزاج مترف تماماً- كميةً من خشب الألوس تكفي لبناء كشك، وكانت تلك حماقة أنبه عليها بشدة واحد من ضباطه. ولذلك الكشك (الجناح) مثيله الذي كان قد شيد لهسوان تسونج قبل ذلك بقرن، والذي زرع أمامه المجموعة الإمبراطورية من أشجار عود الفاوانيا الحمراء، والأرجوانية، والوردية والبيضاء، وإن قيل إن كشك تانج كو-تشونج المصنوع من خشب الألوس كذلك كان الأفخم والأجمل. والخشب من نوع الأكويلاريا غير المريض يكون ذا رائحة عطرة عند قطعه، بل ويمكن استخدام الأجزاء المحملة جزئياً بالراتنجات كبخور، وإن لم يكن هذا هو «العطر الغاطس» حقيقة، وربما استخدمت ألواح من هذا النوع الأحسن صحة والأقل عطراً في بناء منازل الأثرياء.

خشب اللاكا

ومن المواد الخشبية العطرية الأخرى التي استخدمت كبخور في عهد تانج الكايو لاكا، أو خشب اللاكا، وهو لب نوع متسلق من خشب الورد كان يتم استيراده من إندونيسيا. ولقد كتب عنه الصيدلاني لي هسون فقال: «رائحته تشبه رائحة خشب السابان، ولكنه ليس عطرياً تماماً عند بدء إشعال النار فيه، ولكن إذا ما خلط مع أنواع أخرى من العطريات فإن روعته تزداد بشكل ملحوظ تماماً. وفي عهد تانج كانوا يسمونه «النبات العطري الأرجواني المتسلق» (وإن كان الاسم نفسه قد أطلق على نبات الوستارية). وعلى كل حال فقد كان النبات «العطري هو الذي

يأتي بالنوع الحقيقي»، و«النوع الحقيقي» هذا هو السّلف الذي تحدثت عنه العقيدة الطاوية، والذي كان يتغذى على الندى والهواء، ولذا فإن الاسم يعكس الأهمية الخاصة لهذا العطر في المعابد الطاوية. وفي قصيدة ذات موضوع طاوي ساوَى تساو تانج بين جرعة إطالة العمر والبخور الذي يأتي بالآلهة حيث قال:

«والندى الضارب للاحمرار يمنحني صورة
النبيذ الذي يطيل العمر،
والدخان الضارب إلى الأبيض يجعلني أميل
لحرق ذلك العطر
الذي يأتي بالنوع الحقيقي.»

ومن الصعب التمييز بين استخدامات خشب اللاكا في الأغراض الطبية وفي أغراض السحر من ناحية، والأغراض الدينية من ناحية أخرى، فقد كان يحرق للتخلص من كل ما هو «غريب وشؤم فى البيوت»، ولذا فقد كانوا يصنعون منه أحجبة يلصقونها بالصغار لإبعاد الأبخرة الشريرة.

خشب الإليمي

ولقد عرف صينيو العصور الوسطى أكثر من نوع من الراتنجات الزيتية التي تنتجها الأشجار الاستوائية من النوع المسمى «كاناريوم»، ومنها الراتنجات الزيتية المعروفة باسم «الزيتون الصيني»، ومواطنها في كوانجتنج، وكان يستخدم كورنيش لسد الفواصل في عهد تانج، ونظراً لتركيبه فقد سمّي «سكر الكاناري». وكان لدى الصينيين كذلك نوع آخر من خشب الإليمي يسمى «عطر سكر ترام»، وهو من المنتجات التي كانت ترسلها المنطقة الحضرية المحيطة بكانتون، وكلمة «ترام» هذه تعنى «كاناري» في اللغة الآنامية (أي شجرة الكاناريوم)، وكانت تنمو في عهد تانج في بعض أجزاء من لينجنان، ويفترض أن ذلك كان بالقرب من الحدود الآنامية لكن تونجكنج كانت مركز الإنتاج الرئيسي. وهذا الخشب مادة حبيبية

ضاربة إلى اللون الأبيض تفوح برائحة الليمون، وزيت التربنتينة (زيت الصنوبر)، وإن كان البخور أسود اللون عادة نظراً لخلطه بالكربون. ولقد كتب سوكونج يصفه فقال: «يشبه اليوسفي ذا القشرة المرة، وتُغْلَى الفروع لصنع المادة العطرية التي تشبه السكر الحبيبي وإن كانت سوداء اللون، وكانت تأتي من كوانج، وتشياو، وجنوبي كليهما، ولا بد أنها قد استخدمت في تشانج- آن بمثل ما استخدمت في تونجكنج للاحتراق على مذابح الآلهة.

الكافور

الكافور الصيني (أو الياباني) هو «الكافور اللولبي»، وهو مادة بلورية تؤخذ من خشب شجرة كبيرة تنمو في الصين واليابان، وأيضا في تونجكنج. أما كافور بورنيو (أو «سومطرة») فهو منتج مماثل يستخلص من شجرة إندونيسية وملاوية طويلة، والأخير هو الذي يزداد الطلب عليه في الصين، وكان نوع الكافور الذي يدخل ضمن قوائم السلع في التجارة مع الغرب من العصور الوسطى حتى العصور الحديثة.

وكان لكافور بورنيو اسمان في صين العصور الوسطى، وكان أولهما ينطق على النحو التالي: «كابور باروس» (أي كافور باروس) كما كان ينطقه التجار المالاويون، وأحياناً كان يسمى ببساطة «مرهم باروس». وباروس هذه كانت مستوطنة على الساحل الغربي لسومطرة، وكانت يوماً مركزاً رئيسياً لتصدير الكافور. أما الاسم الثاني فكان «عطر مخ التنين»، وعادة ما كان الناس يربطون في مخيلاتهم وبسهولة بين الأشياء الغريبة والثمينة التي ترد من وراء البحار وبين التنين الذي يحكم البحار، ومن ثم فقد سمي العنبر «لعاب التنين». ولقد بذلت محاولات في عهد تانج للتمييز بين «مرهم باروس»، و«مخ التنين» ولكن دون نجاح يذكر. وذهب بعضهم إلى أن أحدهما كان يأتي من الأشجار السمينة، بينما الآخر

يستخلص من الأشجار الرفيعة، وإن لم يتأكد أحد من هذا أو ذاك. وذهب آخرون إلى أن الباروس كان العصارة الرائقة لشجرة، بينما «مخ التنين» كان المنتج المجفف. والواقع أن كلمة «مرهم» التي ارتبطت عادة بباروس توحي بأنه كان يُسَوَّقُ كمنتج دهني أو زيتي متميز عن «مخ التنين» البلّوري. وإلى جانب ذلك كانت إمبراطورية سريڤيجايا تنتج «زيت مخ التنين».

ولم يكن الناس في عهد تانج يعرفون موطن كافور بورنيو. فهل كان باروس أم بالي؟. ويلاحظ أن هذين الاسمين كانا كاسم واحد في المنطوق الصيني. وبعد ذلك قيل إن الفرس هم الذين كانوا ينتجونه– ولكن ذلك راجع إلى الاتجاه السائد في تلك العصور لاعتبار المنتجات التي تأتي على السفن الفارسية منتجات فارسية. ولقد ذكر الراهب الطيب هسوان تسانج أن الكافور كان ينتج في مكان يسمى مالاكوتا على ساحل الملابار :«... وهو من حيث الشكل يشبه السحابة– الأم (الميكا)، ومن حيث اللون فهو كالثلج أو الجليد». وعلى الأرجح فإن شجرة الكافور كانت قد زرعت هناك بنجاح ولقد قيل أيضاً إنه في مملكة كالينجا في الشرق كانوا يحشون أفواه الموتى بالذهب ثم يحرقونها في محرقة مليئة بخشب الكافور.

وبالنسبة للواردات المعروفة فقد كان ملك داجون (إحدى البلاد التابعة لدڤازاڤاتي) يرسل هدايا من مرهم الباروس في القرن السابع. كذلك كانت بلاد أوديانا العظمى ترسل «مخ التنين» في القرن نفسه (وهي بلاد غنية بالذهب والحديد والزعفران، وفي مقابل ذلك كانت تتلقى خطاب شكر امبراطوري. وحتى العرب– رغم بعدهم عن مصادر الإمداد– كانوا يرسلونه كذلك وإن حدث ذلك في القرن الثامن. وعموماً فإن الكافور كان يأتي برائحة الجنوب الزكية الدافئة.

وفي أواخر العصور الوسطى كان الكافور يعبأ للتصدير في أقفاص من البوص

مما جعل الرحالة ابن بطوطة يعتقد أنه كان ينمو بتلك الطريقة. ومن المحتمل أن يكون الكافور التجاري الذي كان يأتي إلى تانج كان يعالج بالطريقة ذاتها، وما أن يصل إلى الصين حتى يخزن في خليط من الأرز الجلاتيني والفحم النباتي «وحبوب الغرام» الحمراء.

وفي عهد تانج كان الإعجاب شديداً برائحة الكافور، وكان يدخل في تركيب العديد من الروائح وأنواع البخور، وكان أشهر أنواعه «مخ التنين الميمون» (هكذا كان يسمى في القصر) الذي كان يأتي إلى هسوان تسونج على سبيل الجزية من تونجحكنج.

وكان ذلك الكافور شديد العطرية يصب في قوالب على هيئة زيز (زيز الحصاد) وديدان القز، كما كان يعبأ على هيئة تمائم تلصق أو تحاك بالملابس، وكان الإمبراطور قد أعطى عشر تمائم منها لرفيقته المفضلة السيدة يانج. وهنا يمكننا أن نستكمل القصة التي بدأناها في فصل سابق حول مباراة الشطرنج التي كان العاهل أحد طرفيها والتي كان يلعبها على أنغام العود التي يعزفها هو هواي تشيه، وقد أفسدها كلب مدلل:

«وفي تلك اللحظة عصفت ريح بمنديل كانت تلفه السيدة الثمينة حول عنقها وسقط على قمة منديل هو هواي–تشيه. وبعد برهة، سقط على الأرض عندما أدار جسمه. وعندما عاد هو هواي–تشيه إلى بيته تبين أن جسمه قد امتلأ بمادة عطرية شديدة العبير. فأزاح غطاء رأسه ووضعه داخل كيس مطرز. وعندما عاد جلالته إلى «بوابات القصر» (من المنفى) كان قد استبد به الشوق إلى رفيقته، فقدم له هواي تشيه غطاء الرأس وشرح له القصة كلها، وفتح جلالته الكيس، وقال وهو يبكي: هذا هو عطر مخ التنين الميمون!»

وثمة رواية أخرى تبين كيف كان الناس يفضلون عطر الكافور لتعطير

ملابسهم. فقد كان الإمبراطور الصبي تشينج تسونج يسلي نفسه برمي محظيّاته بسهام من ورق تحتوي على مسحوق المسك والبرنيول ومن ثم كانت المحظية التي يصيبها سهم تفوح برائحة طيبة نافذة.

ووفقا للدليل الدوائي الرسمي (الفارماكوبيا) فإن الكافور كان يشفي من الأرياح الشريرة في القلب والبطن، وكانوا بصفة خاصة يستخدمونه لشفاء متاعب العيون بما فيها المياه البيضاء (إعتام عدسة العين). وطبقاً لما ذكره خيميائي القرن الثامن تشانج كاو فإنه كان يُخلط بالمسك (يبدو أنه مزيج متجانس) لعلاج «الأرياح» التي استقرت في نخاع العظام. وبدخول الكافور إلى الصين في عهد تانج تبعته الوصفات الطبية الهندية التي تنطوي على استخدامه. وجاءت في النص الصيني لإحدى حكم بوذا التي تكرم البوديساتفا أفالو كيتسفارا نصيحة لمن لدغته حشرة سامة أن يخلط كميتين متساويتين من كافور بورنيو والجوجول في ماء نقي ثم «... ينشد الداراني عشر مرات أمام صورة الأفالوكيتسفارا، وما أن يتم ذلك حتى يشفى المصاب». ولقد كان لهذا الدواء المفيد استخدام عملي بدرجة أكبر. فهذا هو وانج ين–بن، ابن شقيق أمير الحرب الذي أسس فيما بعد «إمبراطورية مين» في فوكين والذي كان كبير رجال الإدارة في زايتون في أوائل القرن العاشر، قد شجع التجارة مع السفن الكبيرة التي كانت تأتي من البحار الجنوبية، الأمر الذي أضاف الكثير لرخاء مدينته ومقاطعته، ومن ثم لا بد من النظر إليه كواحد من مؤسسي شهرة زايتون وأُسَرِهَا الحاكمة اللاحقة، وكان من عاشقي الجمال ومحبي الحياة، وكان لديه دواءٌ يتغلب على آثار الإفراط في الشرب، حيث كان يصب عدة قوارير من السائل على جسمه في نهاية الحفل، ثم يغطٌ في نوم عميق حتى الظهيرة. وكذلك كان الكافور يستخدم في الطعام. فمن بين الأطباق المفضلة لدى الإمبراطور الشاب تشينج تسونج (عام825) واحد كان يسمى«أرز الريح الرائق»، وهو عبارة عن خليط سلس من «الأرز البلّوري»، و«مسحوق عين التنين»، و«أجزاء من مخ التنين»، وحليب البقر. وكان ذلك الخليط يوضع في

أحواض معدنية تتدلى[1] في «وعاء للثلج»، وبعد أن يبرد تماماً ينقل من الثلاجة حسب طلب العاهل في أشد الأيام حرارة. ولا بد أن ثمة معنى سحرياً ما وراء اختيار هذه المادة العطرية وغيرها، فقشور الكافور تبدو وكأنها «ثلج وجليد» ومن ثم فهي ذات تأثير مُبرِّد.

ولقد أشرنا آنفاً إلى قوالب الكافور التي كانت على شكل حشرات، والتي كانت تأتي من آنام. لكن عادة صنع مثل تلك الأشكال كانت معروفة في الصين أيضاً في عهد تانغ أو بعده بقليل. ففي القرن العاشر كتب تاو كو (مؤلف تشنج آي لو) قائلاً إنه على الرغم من معرفته بصور بوذية مصنوعة من الكافور فإنه لم ير قط صورة ملونة، وإن كانت هذه الصور النادرة موجودة في متحف كاي–فينج، ومن بينها صورة لصبي منحوته بمنتهى البراعة وملونة بألوان طبيعية.

المَيَعَةُ الجامدة

كانت الصين منذ العصور القديمة تستورد الميعة الجامدة من روما وبارثيا، وكان لونها أرجوانياً داكناً، وقال بعضهم إنها «روث الأسد» ذلك العَقار المخيف. ويبدو أن تلك الراتنجات العطرة كانت معروفة تماماً قبل عهد تانغ، ولعلها كانت في ذهن الشاعر تشن بياو عندما كتب عن ملك قديم يتفقد مدينته:

«بوابات قصر ملك تشن، تغطيها سحب الربيع،
وأغصان لشجرة اللآلىء، تناطح السماء.
وتفوح من الحاكم المستبد روائح طيبة تكشف الميعة،
ويتحرك الضوء طافياً من خلال ستائره،
وقد عطر ملابسه المصنوعة من أفخر الحرير،
ويتبعه خدمه وقد فرشوا الحصائر المرصعة بالجواهر.

ومن تلك البقعة إلى قومدان—لفتة واحدة برأسه—
تظهر ألوان الخريف عند الغروب».

ويمكن مقارنة مكان ذلك الراتنج الغربي في الصين بمكان راتنج آخر هو المر، وإن كان الأخير أقل الراتنجات الغربية حظاً. ولكن عندما نأتي إلى عهد تانج نجد أن المادة التي اعتبرت الميعة لم تكن سوى البلسم الملاوي، والذي كان يستخدم في صنع العطور، وقد سمي باسم خيالي في القرن العاشر هو:«ودك الإله» (أي شحم الإله). ومثله مثل العطور الأخرى كان الناس يحملونه معهم، وغالباً ما كانت قواريره تتدلى من الأحزمة، والدليل على ذلك ما قاله الشاعر لي توان:

«شباب تفوح منهم رائحة عطرة،
من كريات بها الميعة، والمغنيات الشابات
يحملن المراوح المصنوعة من جريد النخل»

جوجول الصمغ والميعة (اللبان الجاوي)

وتحت اسم «عطر الأرساسيد»— أي العطر البارثي— عرف الصينيون أكثر من مادة ففي عصور ما قبل تانج أعطى ذلك الاسم لصمغ الجو جول أو للمُقل (مادة ورد ذكرها في التوراه واختلف في ماهيتها، إذ يقول بعضهم إنها نوع من الصمغ، ويقول بعض آخر إنها حجر كريم، وإذا كانت صمغاً فهي من الراتنجات الشبيهة بالمر/المترجم) . وكان المقل واسع الانتشار كبديل لبخور فرانك. وابتداء من القرن التاسع انتقل الاسم نفسه إلى الميعة (اللبان الجاوي) وهو من الراتنجات العطرية في إندونيسيا والهند — الصينية. ويشير ذلك التغيير، والتغيير اللاحق فى معنى الميعة إلى الأهمية المتزايدة لمنتجات جزر الهند (الشرقية) في اقتصاد صين العصور الوسطى على حساب اقتصاد كل من بلاد الشام (سوريا)، وإيران. ولقد ترتب على ذلك كثرة الغموض الذي يشوب المصادر المتعلقة بعهد تانج حيث كان الاسم يشير إلى عطريات غربية وجنوبية معاً، ويبدو أن الفئتين كانتا تستخدمان للأغراض

ذاتها.

ففي القرن الرابع استخدم الكاهن فو-تو الذي اشتهر بمعجزاته «عطر الأرساسيد» في الطقوس الخاصة بترجي هطول الأمطار، وهذه هي أول إشارة إلى ذلك العطر في الصين. وفي القرنين الخامس والسادس كان يرد من بلاد تركستان البوذية، وارتبط بصفة خاصة بجاندارا التي كانت بالنسبة للصينيين من أكبر مصادر كل من العقيدة البوذية والعطور الغربية، وإن كانت قد زودتهم بالمواد العطرية كمجرد وسيط أو جاذب في تجارة مربحة، و لم يكن بوسعها أن تزعم أنها منتجات محلية. ويضاف إلى ذلك أن الاسم «جاندارا» نفسه كان يفسر بمعنى «بلاد العطريات»، ومن ثم فإن صمغاً عطرياً كان يأتي من تلك البلاد (وقد كانت يوماً تابعة لبارثيا) قد اكتسب اسم الأسرة التي كانت تحكمها.

وفي منتصف عهد تانج كانت الميعة السومطرية (عرفها العرب باسم لبان جاوه، أو اللبان الجاوي)، أو «عطر فرانك الجاوي» تأتي إلى تانج كبديل للمُقْل، وتقبلها الناس تحت الاسم الصيني ذاته، مما دفع لي هسون إلى القول بأن ذلك «العطر الأرساسيدي» كان ينتج في كل من منطقة البحار الجنوبية وبلاد فارس. ولقد كان الخلط سهلاً وطبيعياً، فكلتا المادتين كانت تعامل على أنها بخور فرانك، وكلتاهما كانت تأتي عن طريق السفن التجارية (وبعضها سفن فارسية أو ذات أصل فارسي على الأقل) عبر بحر الصين الجنوبي.

ولقد انتقلت صفات صمغ جوجول إلى الميعة. فعندما أشار توان تشنج شيه إلى شجرة فارسية تنتج «مادة عطرية أرساسيدية» وتسمى فيما تسمى «الشجرة التي تطرد الكائنات الضارة» فقد كان يعني صمغ الجوجول، البخور البارثي الأصيل. ولقد أكد الكتاب المتخصصون في العقاقير في عهد تانج أن «المواد العطرية الأرساسيدية» تقهر الشياطين داخل الجسم، وأنه إذا تعرضت المرأة لكابوس الحضون (روح شريرة تلم بالنيام وتجامع النساء ليلاً- هكذا اعتقدوا/المترجم) فما

عليها إلا أن تُطهِّر أعضاءها التناسلية بدخانها وسوف تبرأ من فورها وإلى الأبد. وعلى الرغم من أنهم قد أشاروا إلى الخصائص الدوائية للجوجول فإن الدواء الذي وصفوه لم يكن في بعض الحالات سوى الميعة الإندونيسية.

بخور فرانك

بخور فرانك (أو اللبان كما كان يسميه بعضهم) صمغ راتنجي تنبته شجرة في جنوبي الجزيرة العربية، وشجرة قريبة لها في الصومال. ولقد عرفه الصينيون تحت اسمين، يعود أولهما إلى القرن الثالث قبل الميلاد وهو (وفقاً للمنطوق السنسيكريتي) «كوندوروكا» (أي بخور فرانك)، والثاني عبارة وصفية «جوهسيانج»، أي «عطر الحلمة»، فقد كان يُحَضَّرُ على هيئة حلمات كالتي وصفها بليني بقوله:«أما البخور ذو القيمة الأعلى فكان ذلك الذي على هيئة حلمات الثدي، وينتج عندما تتعثر قطرة منه فتلتصق بها التي تليها وتتحد معها وتأخذ الاثنتان شكل الحلمة». أما الاسم القبلاني (الصوفي) فهو «الشحم الطافي من الزهرة المقدسة»، وهو ربما كان الاسم الذي استخدمه الكيمائيون.

ويبدو أن قوم تانج لم يربطوا بين بخور فرانك هذا وأيٍّ من موطنيه: حضرموت «حيث كانت تحرسه أفاعٍ ذات أجنحة»، والصومال (بَنْتْ) التي كانت الملكة المصرية حتشبسوت وغيرها من حكام مصر يرسلون حملاتهم إليها. ويشير سوكونج إلى نوع أبيض كان يرد من الهند، وإلى نوع ذي عطرية ضعيفة داخله أخضر وكان يأتي من منغوليا، وكان لي هسون قد أشار إلى أنه كان يرد من بلاد فارس (كعادته بالنسبة لكثير من الأصناف التجارية). وفي بعض الحالات كانت قطع من بخور فرانك الأصلي تُتَداولُ على نطاق واسع في أسواق آسيا وغيرها من الأسواق، ومن المؤكد أنها كانت تغش بإضافة روائح نفاذة.

وجنباً إلى جنب مع الميعة، والأونيشا، والحلبينة كانت بخور فرانك أحد مكونات البخور المقدس الذي استخدم في الطقوس العبرية القديمة، كما شق طريقه إلى الطقوس المسيحية كذلك. وفي عهد تانج استخدم أساسا كبخور، وإن كان على نطاق أضيق كثيراً. ويلاحظ أنه كان باهظ الثمن. ويقال إن القرصان الهاياني فينج جو-فانج الذي عاش عيشة كلها بذخ وترف وسط عبيده الفرس كان يحرق بخور فرانك كمصدر للضوء في حفلاته- وهو إسراف وسفه لا محل لهما. وكبادرة لإظهار احتقاره للثروة الدنيوية قام ثري يدعى تساو مو-كوانج بحرق عشرة كاتي (أربعة عشر رطلاً إنجليزياً تقريباً) من البخور الثمين في حوض قائلاً: «يسهل الحصول على الثروة، ولكن يصعب الوصول إلى بوذا».

وكان «عطر الحلمات» قد احتل مكاناً في الطب، حيث كان يوصف كعلاج للقروح السطحية والمتاعب المعوية- المعدية، وكان الأطباء الطاويون يصفونه كذلك كعقار يطيل العمر بديل للحبوب. ومن الاستخدامات الغريبة تلك التي ابتدعها مؤلف كتاب يؤرخ لفن الرسم، وهو تشانج ين-يوان الذي كان يخلط مسحوق بخور فرانك بمعجون استخدمه فى لصق الرسومات على أدراجها، وزعم أنها كانت تحافظ على الألواح ثابتة وتبعد العِثّة.

المُرّ

المر-شأنه شأن بخور فرانك صمغ راتنجي مصدره أفريقيا والجزيرة العربية، وله سمعة مقدسة في الشرق الأدنى القديم. ولعل من أخص ما يذكرنا به أنه كان إحدى المواد التي استخدمها قدماء المصريين في تحنيط جثث موتاهم، وهو تقليد استمر طويلاً حيث استخدمه نيكوديموس للحفاظ على جثة يسوع ولكن تلك المادة العطرية الحمراء الداكنة لم تكن معروفة على نطاق واسع في عهد تانج، واقتصر استخدامه حينذاك على صناع العقاقير الذين كانوا يقدمونها في النبيذ

للمصابين بجروح جراء تعرضهم لنصال معدنية، أو السقوط من على صهوات الجياد، وكان بمثابة مسكن على الأرجح. كذلك فقد كان يقدم للنساء في حالة الإجهاض وبعد الولادة مباشرة لتخفيف الآلام. ولقد سُمّي في عهد تانج باسمه السامي «المر» بعد اختصاره إلى الحد الأدنى، ولكن حدث في القرن العاشر أن سُمّي في دليل العقاقير ذات الأسماء الغريبة باسم «دماء من لسان تنين مان». ولم أشاهد أي تسجيل حول استخدامه كبخور أو عطر، وباستثناء ما توحي به شهرته كان ينبغي تناوله في الفصل التالي المخصص للعقاقير.

القرنفل

قد يقول بعضهم إنه من الأفضل تناول القرنفل في الفصل المخصص للأغذية، أو ذلك الذي يبحث في العقاقير، خاصة وأن لذلك التابل استخدامات متنوعة في الصين كما في الغرب. لكن طابعه العطري قد تفوق على كافة الاعتبارات الأخرى، خاصة وأنه كان غالباً ما يدخل في تركيبة البخور وما شابهها.

وكان الاسم الأقدم للقرنفل هو «عطر لسان الدجاج»، وينطوي على إشارة إلى شكل براعم الزهرة غير الناضجة والجافة، ثم جاء بعده اسم «عطر المسمار»، وفيه كذلك إشارة للشكل، تماماً كما في كلمة قرنفل بالإنجليزية (كلوڤ) وهي مشتقة من لفظة لاتينية (كلاڤيس) عبر اللغة الفرنسية حيث «كُلو» بمعنى «مسمار» لكن الاسم «عطر المسمار» كان في الأصل اسماً أطلق على زهور اللايلاج الصينية نظراً لشكل زهراتها الصغيرة، وكانت الكلمة تشير في أشعار تانج في الغالب إلى «عبير اللايلاج» وليس إلى التابل المستورد. وعلى العكس من ذلك فإن «عطر لسان الدجاج» والذي يعني «القرنفل» عندنا كان شكلاً مختصراً ظهر في قصائد شعراء أواخر عهد تانج– من أمثال لي شانج –ين، وهوانج تاو– الذين كانوا مهتمين بالحواس عامة، والروائح خاصة.

وكان القرنفل يستورد من إندونسيا، ويشير لي هسون إلى «البحر الشرقي»، وهو على الأرجح يقصد موطنها الأصلي في الملوكاس. ومن ناحية أخرى فإن سوكونج يؤكد أن القرنفل كان ينتج في آنّام كذلك، الأمر الذي يفهم منه أن تلك الشجرة النافعة قد أدخلت هناك.

ومن المنافع القديمة والمحترمة للقرنفل، والتي تعود إلى عهد هان «تحلية الأنفاس» حتى إن كبار الضباط كانوا مطالبين بوضع عدد من القرنفلات في أفواههم عندما يقدمون التقارير لابن السماء. كذلك فقد كان القرنفل يستخدم في صنع البخور والعطور المركبة، ويقول مصدر موثوق به إنهم كانوا يخمرون زهور الشجرة المذكرة (الفحل) ليحصلوا على خلاصة عطرية.

وعلى الرغم من أن القرنفل لم يكن– على ما يبدو– يستخدم في طهي الطعام في عهد تانج كما هو الحال الآن في الغرب– فثمة ما يشير إلى «شرائح رقيقة من اللحم منقوعة في عطر المسمار»، أي منقوعة في شراب أضيف إليه القرنفل لإكسابه نكهته، كذلك فقد كان شاربو الخمور يستخدمون القرنفل، إذ اعتقدوا أن مضغ القرنفل يزيد من القدرة على الاحتساء، ويبعد حالة الثمل لأجل غير محدد.

وأخيراً فقد استخدم القرنفل في العديد من الأغراض الطبية، بما فيها «إبادة الحشرات، وطرد الشرور، والتخلص من الأشياء السافلة»، ناهيك عن علاج البواسير . كذلك فقد كان يستخدم لتحويل اللحية البيضاء إلى لحية سوداء تماماً بعد إضافة خلاصة الخل إليه والأهم من هذا وذاك أن القرنفل كان أهم مسكن لآلام الأسنان، وهو أمر كان معروفاً تماماً في الأزمنة الماضية بمثل ما هو معروف في العصور الحديثة فاليوجينول – وهو المادة الفاعلة في زيت القرنفل– موجود في لحاء ذلك النبات الذي وصفه لي هسون لعلاج آلام الأسنان.

البوتشوك

البوتشوك (أو جذور كوستوس) نبات يستخلص منه زيتٌ طيار يعطي رائحة البنفسج الفريدة، وهو من المواد المهمة في صنع العطور، ويسمى في اللغة الصينية «الخشب العطري». ولقد تنبهوا إليه قديماً في الصين نظراً لشذاه القوي، واستخدموه في وقت مبكر يرجع إلى بداية العصر المسيحي. وكان يعتبر أساساً من منتجات كشمير، وإن اعتبروه في عهد تانغ من منتجات قابودان، وسيلان. لكنه ليس على «قوائم الجزية» التي كانت ترسلها كشمير، وربما جاء متخفياً تحت بند «عقاقير غربية» كانت ترسلها كشمير في أوائل القرن الثامن. ومع ذلك فإن الكتاب الرسمي للمواد الطبية يوضح أن النوع الذي كان يأتي على السفن عن طريق جزر الهند(الشرقية) كان الأفضل من حيث النوعية، بينما كان النوع الذي يرد عن طريق البر رديئاً. وعلى ما يبدو فإن دور جذور كوستوس تلك في مزج العطور والعطريات كان ضئيلاً، وقد استخدم كذلك في الطب، وبصفة خاصة لتخفيف الآلام حول القلب: «فإذا عانت إمرأة من اضطراب في التنفس أو الدورة الدموية ولا تتحمل الآلام الناتجة أعطها جرعة منه بعد سحقه ونقعه في النبيذ».

البتشول

ثمة نوع من النعناع الملاوي ينتج ذلك الزيت أسود اللون حلو الرائحة والذي كان يسمى «مالاباثرون»، أو «فيللون إنديكون» (أي الورق الهندي) في الغرب القديم. واسمه السنسيكريتي هو «تامالا-باترا»، وإن كنا نعرفه باسم مشتق من كلمة «باسيليا» التاميلية والتي تعني «الورقة الخضراء». وفي اللغة الصينية كان البتشول يسمى «ورقة الفول العطرية» وذلك بالنظر إلى مظهرها.

وكان البتشول من منتجات تيناسيرم في عهد تانج، ولكن بحلول القرن الحادي عشر كان ينمو فى منطقة كانتون، ويوجد بها حتى الآن.

ولقد عرف في الصين من المصدر الملاوي ذاته منذ حوالي القرن الثالث، وكان يستخدم لتعطير الملابس، وتم إدخاله إلى الهند بكل حماسة حيث كان يستخدم أيضاً كعطر لشعر السيدات. والواقع أن البتشول كان وثيق الارتباط بالشال الهندي خلال الإمبراطورية الثانية والعصر الفيكتوري الأوسط حيث كان الأوربيون يصرون على اقتناء تلك الرائحة الطيبة، بل واستخدموها كمعيار للتعرف على قيمة وأصالة الشالات الهندية. وغالباً ما يشار إلى تلك المادة العطرية باسمها السنسيكريتي في ترجمات النصوص الدينية البوذية إلى اللغة الصينية (ومنها على سبيل المثال «السورانجاما سوترا» التنترية والتي ترجمت عام 705)، وهو اسم لمادة من مكونات «حمامات التطهير»، وفي الماء المقدس المستخدم في غسل صور وتماثيل بوذا بصفة خاصة. ويفترض أن كهنة ورهبان تانج قد اتبعوا تلك العقائد.

زيت الياسمين

لقد عرف الناس في عهد تانج نوعين غريبين من الياسمين، أحدهما باسمه الفارسي «ياسامانا»، والآخر باسمه الهندي «ماليكا».

وكلاهما كان قد نقل إلى منطقة كانتون. وكانت تلك الزهور العطرية قد ارتبطت ببلاد فارس والجزيرة العربية، وروما، واتخذت رمزاً للحب والجمال، وبصفة خاصة للفاتنات من النساء.

وفي الصين عرف الناس منذ منتصف القرن الثامن أن بلاد الإسلام كانت تعصر زهور الياسمين لتستخلص منها زيتاً سلساً طيب الرائحة، وهذا في الواقع من أشهر المنتجات الفارسية، وكان في وقت من الأوقات يصنع في دارا بيجيرد، وصبور،

وشيراز. ولكن على الرغم من أن ذلك الزيت كان يجلب إلى ميناء كانتون في عهد سونج، فإنه ليس مؤكداً أنه كان يجلب إلى تانج كذلك.

ماء الورد

قيل إن نيرو كانت لديه نوافير تنثر ماء الورد، كما قيل إن إلجابالوس كان يستحم في نبيذ الورد، لكن لم يعرف شيء عن ماء الورد في الصين قبل عام 958 عندما أرسل الملك سِري إندرافارمان ملك تشامبا مبعوثاً يدعى أبا حسن إلى بلاط تشو يحمل هدايا الجزية والتي اشتملت فيما اشتملت على خمس عشرة قنينة من ماء الورد، مؤكداً أن ذلك العطر قد أتى من «المناطق الغربية»، وأن الغرض منه نثره (رشّه) على الملابس. ولقد نالت تلك البعثة قدراً من الشهرة في التاريخ، وإن كانت هناك تقارير أفادت بوجود ماء الورد في الصين في عصور أقدم، فقبل عشرين أو ثلاثين عاماً من تلك البعثة التشامية كان لدى أباطرة أواخر عهد تانج حديقة اصطناعية رائعة إلى درجة الخيال، وقد وضعت داخل إحدى القاعات الملكية الكبرى. ولقد صنعت جبال وتلال من خشب الألوس، وأنهار وبحيرات من ماء الورد والميعة، وأشجار من القرنفل وعطر آخر غير معلوم، وجدران ومزاغل من بخور فرانك، ومبانٍ من خشب الورد والساندرز، ومنحوتات من خشب الصندل لأشكال بشرية، وكل هذه جعلت من المكان مدينة مصغرة وضعت على بوابتها الرئيسية لافتة كُتب عليها: «بلاد الروائح السحرية». ولقد سرت إشاعة بأن تلك الحديقة العطرة كانت من بين غنائم الحرب التي تم الحصول عليها من دولة شو في شزوان.

ولكن ماء الورد وجد في صين القرن التاسع كذلك. فعندما تلقى ليو تسونج-يُوان قصيدة من هان يو كان احترامه من الشدة بحيث لم يشأ أن يقرأها قبل أن

يغسل يديه بندى الورد. وحتى يومنا هذا يصنع ندى الورد في الصين ليكون أحد مكونات شراب مُبرِّد. وهكذا فقد كان هناك على ما يبدو فن صيني لصناعة ماء الورد كان قد ثبت نفسه قبل أول ظهور لـ «جولاب فارس» الشهير في الشرق الأقصى، ما لم يكن ذلك الفن قد دخل إلى الصين قبل بعثة تشام المشار إليها بوقت طويل. وعلى أية حال فإن أياً من ذلك لم يكن «ماء الورد» الشهير الذي هو زيت يعتقد أنه صنع أول ما صنع في الهند بعد ذلك بقرون كثيرة.

العنبر

العنبر إفراز مرضي في أمعاء حوت يسمى «حوت العنبر» أو «الحوت ذو الأسنان»، وهو ذو لون رمادي، ومادته خفيفة وقيمته بالنسبة لصانعي العطور أنه يجعل روائح الزهور دائمة. واسمه في اللغة الإنجليزية يعني «العنبر الرمادي»، وقبل ذلك كان الاسم العربي المبسط هو السائد «عنبر». ولقد وصلت تلك الكلمة إلى الصين بحلول القرن التاسع، وترد في كتاب توان تشنج شيه.

وكان العرب أكبر تجار العنبر في العصور الوسطى، ويقول ابن خوردابية إن التجار العرب كانوا يعطون الحديد لسكان جزر نيكوبار مقابل العنبر.

لكن توان تشنج شيه يجعل الصومال مصدره الأساس:

«تقع بلاد بربيرا وسط البحر الذي يقع إلى الجنوب الغربي منا. وهم لا يعرفون الحبوب الخمسة، وإن اعتادوا ثقب عروق ماشيتهم المحلية ويأخذون دماءها ويخلطونها بالحليب ثم يشربونها هكذا. وليس لهم ملابس أو أزياء، ويسترون عوراتهم بجلود الأغنام. ونساؤهم بيض بياضاً نقياً وأجسامهن مستقيمة...».

ومضى ليقول إن المنتج التجاري الأساس لهؤلاء القوم هو العنبر، بالإضافة إلى

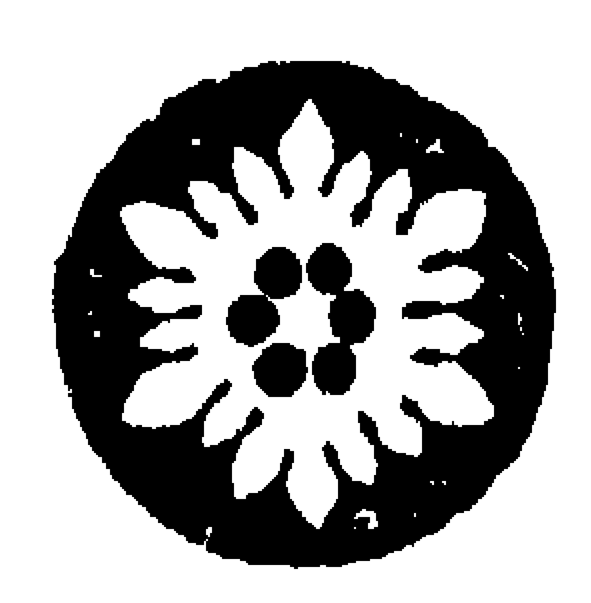
العاج، ويبيعونهما للتجار الفرس...

وهكذا لم يكن المصدر الحقيقي للعنبر معروفاً تماماً في عالم العصور الوسطى. ويذهب بعض العلماء الفرس والعرب إلى أنهم «... رأوا فيه انسياباً تلقائياً من ينبوع تحت سطح البحر»، وذهب بعض آخر إلى أنه «ندى ينبعث من الصخور ثم ينساب إلى البحر ويتخثر (يتجلط) هناك». وقال بعض ثالث إنه «إفراز لحيوان ما». ويبدو أن تلك مسألة لم تشغل فكر الصينيين حتى نهاية عهد تانج. وفي حوالي القرن العاشر أو الحادي عشر بدأ العنبر يحمل اسم «بصاق التنين»، وهو اسم كان قد ورد بالفعل في أشعار تانج وإن كان ذلك للإشارة إلى الزَّبدْ (الرغاوي) الذي يوجد على سطح المياه في الأماكن التي يكثر فيها التنين. وعلى الأرجح فقد تداخل الاستخدام الجديد مع بداية استيراد المادة ذاتها إلى الصين بدلاً من مجرد الروايات حوله، وكان ذلك حوالي بداية عهد سونج. وكانت الحيتان تشبه بالتنين، فكلاهما يتسم بكونه من أرواح البحر الكبرى، ويرتبط بالماكارا الهندي والذي كان له جوهرة في رأسه، وربما ساد اعتقاد بأن العنبر لعاب التنين نظراً للخلط بينه وبين المادة العنبرية التي تستخرج من رأس الحوت. وعلى أية حال فقد انضم العنبر لعائلة السلع النادرة والغريبة مثل «كافور مخ التنين»، و«عطر حراشف التنين»، و«عيون التنين» (ثمار تشبه الليشة)، وحشائش «ذقن التنين») وغيرها من الأشياء التي تحمل اسم جزء أو آخر من أجزاء جسم التنين الأخرى والتي أثرت العالم الصيني. ولكن شأنه شأن الياسمين ظل العنبر بالنسبة لقوم تانج مجرد «شائعة غريبة عجيبة».

الأونيشا

الأونيشا مادة عطرية تستخرج من الغطاء الواقي لخياشيم نوع من الرخويات بطنية الأقدام توجد على شواطئ الصين جنوبي نهر اليانجتسي، وكانت المدن الساحلية (ومن بينها لو-تشو في آنّام) ترسلها في إطار الجزية، ومن ثم يجوز اعتبارها مادة «شبه غريبة». كذلك فإن أصداف ذلك النوع من الرخويات تحتوي على تكوين لحمي عصاري كان الجنوبيون يأكلونه. وفي اللغة الصينية كانت الأونيشا تسمى «عطر الصفائح»، وفي ذلك إشارة واضحة لشكل غطاء الخياشيم. كذلك فقد كانوا يخلطونها بخشب الألوس، والمسك، وما إلى ذلك لتصبح أحد مكونات بخور شعبي عرف باسم «مستخلص الصفائح» والذي تقول الروايات إنه كان يستخدم كما يستخدم الحطب العادي في فناء القصر في عهد سوي يانج تي الذي اشتهر بترفه الشديد. ومن الأونيشا أيضاً كانوا يصنعون مرهماً لشفاه السيدات بعد خلطها بالشمع ورماد الزهور والثمار ذات الرائحة الطيبة.

«أرني ألفاً من عقاقير طيبة،،
عجيبة في التأثير،،
ناجعةً وقوية،،،»
جون ملتون، «كوموس»



الفصل الحادي عشر
العقاقير

الصَّيدلة

ذكر أبو زيد في القرن التاسع أن من عادات الحياة في الصين إقامة لوحة حجرية في مكان عام منقوش عليها أسماء مختلف الأمراض والمتاعب الصحية التي يتعرض لها البشر، ووصف مختصر لطريقة علاج كل منها، وبهذا يحصل الناس جميعاً على المشورة الطبية. وإذا كان المريض فقيراً كان بوسعه الحصول على ثمن الدواء من خزينة الدولة. وحتى الآن لا يتوافر نص صيني معاصر لرواية أبي زيد تلك، وإن وجدت لوحات التثقيف الصحي الجماهيري المنقوشة على الحجر على النحو الذي أشار إليه. كذلك هناك شواهد على الاهتمام الشديد بالجمعيات الخيرية، خاصة في المستشفيات في عهد أباطرة تانج. ويرجع الفضل في تلك الأنشطة والاهتمامات الإنسانية إلى البوذية. فهذه الديانة «الأجنبية» قد باتت صينية تماماً في حوالي القرن السادس، ومنذ تلك الفترة أصبحت الصدقات العامة جزءاً منتظماً وليس هامشياً من الممارسة البوذية في الصين، حيث كان الطعام (وغيره من الصدقات) يوزع على المحتاجين بمعرفة كهنة المعابد، كما أسست الصيدليات لتزويد الفقراء باحتياجاتهم من الأدوية. ولقد شكلت الجمعيات الخيرية تلك جزءاً مهماً من «حقل الرحمة» الذي صار واحداً من حقلي الحياة الدينية، والآخر هو «حقل العبادة»، ويتعلق الأخير بالصلاة والطقوس وما إلى ذلك. وفي القرنين السابع والثامن- وهما العصر الذهبي للبوذية في الشرق الأقصى في العصور الوسطى- شاع تأسيس المستشفيات وغيرها من المؤسسات الخيرية لإغاثة الفقراء في المدن الكبرى، وغالباً ما كان ذلك يتم بأوامر من العاهل. ويذكر أن الإمبراطورة وُو- وكانت بوذية مخلصة- قد عينت مندوبين عنها للإشراف على

الأنشطة الخيرية التي كانت تعنى بالفقراء والمرضى والمسنين واليتامى. كذلك فقد أسس «الحاج» تشاين–تشن العديد من المؤسسات الخيرية في مدينة يانج–تشو التجارية في منتصف القرن الثامن. وحتى هسوان تسونج– وهو أحد أتباع الطاوية– قد سار على النهج البوذي، وفي أوائل عام 735 أصدر مرسوماً يقضي بإنشاء مستشفيات عامة وأضاف إلى تلك المستشفيات مهمة تخليص العاصمة من الشحاذين. وبعد حركة الاضطهاد في عام 845 انتزعت إدارة تلك المستشفيات من المعابد البوذية، وعُينتْ لها إدارات علمانية بإيعاز من الوزير لي تي –يو، وإن أعيد الزمام للمؤسسات الدينية فيما بعد.

وكان قانون العقوبات التانجي يفرض على الأطباء اتباع الوصفات القديمة والالتزام بشدة بالأعشاب المعترف بها رسمياً، وجعل جزاء وفاة مريض بسبب سوء خلط الأعشاب الخدمة لمدة سنتين ونصف سنة لدى الدولة، وعقوبة الإعدام شنقاً إذا كان المريض هو الإمبراطور ذاته. ولقد ترتب على ذلك التشدد الرسمي استدامة الوصفات الطبية القديمة، وضمها لأحدث الأدلة الدوائية، الأمر الذي أفاد المؤرخين كثيراً، إذ أنه بخلاف ذلك لم يكن ممكناً الحفاظ على غالبية أقدم تلك الوصفات. لكن الأثر السلبي لذلك التشدد قد تجلى في الإحجام عن التجريب والتجديد في طرق العلاج وإعداد العقاقير، لذلك يبدو غريباً ظهور وانتشار أساليب جديدة في الممارسات الطبية، والتي كان الباعث الأساسي للأطباء فيها هو تخفيف آلام الناس ومعاناتهم، وذلك تحت تأثير الأخلاقيات البوذية في اتجاهات وعادات الأطباء.

ومن أمثلة أفضل أطباء صين العصور الوسطى الذين كرسوا أنفسهم بكل بطولة لمبدأ الرحمة والتراحم سون سزو–مياو، وهو من العلماء الطاويين الذين نالوا أكبر الاحترام، وكان قد رفض دعوة للمثول أمام بلاط سوي ، وإن كان قد لبى دعوة مماثلة للمثول أمام بلاط تانج، وكان ذلك بعد أن تقدم به العمر، لكنه لم يقبل أبداً

أيٍّ منصب رسمي. ولقد كتب عدة تعليقات على «لاوتزو، و«تشوانج تزو»، وعلى مجموعة مؤلفة من ثلاثمئة صفحة حول الأدوية والعلاج وعرفت باسم «تشاين تشن فانج»، «أي وصفات تساوي ألف قطعة من العملة »، ووضع أول دراسة صينية حول أمراض العيون، وكان من دعاة استخدام العقاقير المعدنية، وبهذا فقد سبق الأوروبيين. ولقد ترك وصية أكد فيها بساطة جنازته، وعدم ذبح أضاحي أمام التماثيل أو الصور، وفي النهاية صار مُؤلّهاً في معابد الطب.

ولقد نال أحد تلاميذ سون سزو–مياو، وهو مِنْجْ شن، شهرة واسعة، لكنه على عكس أستاذه تقلد مناصب رسمية عديدة، خاصة في ظل حكم الإمبراطورة وُو، وفي نهاية عهدها تقاعد واعتكف بالجبال لدراسة الكيمياء والصيدلية، ومات وعمره ثلاثة وتسعون عاماً في عهد هسوان تسونج، ونال كل ما يتمناه الإنسان من تكريم تاركاً وراءه عدداً من الكتب المهمة التي ضمت الكثير من الوصفات الطبية.

وعند الحديث عن أحوال الطب، والصيدلية بصفة خاصة، إبان عهد تانج، فإنه يستحيل تجاهل تشن تسانج تشي الذي كان لملاحظاته حول جوانب كثيرة من ثقافة تانج المادية غير المرتبطة بشكل مباشر بالعقاقير قيمة عظمى بالنسبة لي شخصياً. فقد ألف كتابه العظيم «بن تساو شيه آي» الذي يوحي عنوانه بأنه استكمال للقوائم الرسمية للعقاقير والدراسات الدوائية. ولقد انتقد في بحوثه حول عهد تانج انتشار الكثير من المواد غير الأصلية. ومع ذلك فإن للكتاب أهمية خاصة من حيث أنه يلقي الضوء على عقاقير جديدة كانت تأتي للبلاد في أوائل العصور الوسطى. ولعل عدم ظهور سيرته في المجموعة الوطنية كان بمناسبة عقاب له على تخليه عن الوسائل والأساليب والمواد التقليدية؛ فالكتب التي تؤرخ لعهد تانج لم ترحمه لأنه زعم أن لحوم البشر تتآكل بسبب «المرض المُستَنفِد» (السل؟)، وأن أبناء وبنات الآباء والأمهات المصابين بذلك المرض كانوا أحياناً يقدمون شرائح من أجسادهم لهم.

وأخيراً ليس بوسعنا أن نغض الطرف عن كتاب مكرس بأكمله للعقاقير الغربية ذات الأصل الفارسي، والتي كانت تسمى في الصين «لي–ذلك الدواء السري الشافي». وكان لي هذا أحد أفراد بعثه تاجينو مابيتو هيروناري، وكان واحداً من العديد من الأفراد من مختلف الأصول القومية الذين كانوا وراء النهضة الثقافية الكبرى في حقبة نارا هنالك.

ولقد توافرت لصناع العقاقير في عهد تانج ثروة هائلة من الأدبيات الصيدلانية – قديمها وحديثها. وتضمنت المكتبة الأساسية حول المواد الطبية على الأقل ما يلي:

(1) كتاب «الأعشاب الرئيسية لدى شن ننج» وقد سمي على اسم إله النباتات والحيوانات الأليفة، ومن شدة احترام الناس له أضيف إلى اسمه لقب «تشنج» (أي الموثوق بصحته). ومن المحتمل أن يكون تجميع مادة ذلك الكتاب قد تم في عهد هان، وإن كان قد تضمن مواد تعود إلى أقدم من ذلك بكثير، وظلت الأجيال تتناقله إلى أن وصل إلى عهد تانج في الطبعة التي أعدها تاو هونج تشنج في أواخر القرن الخامس بعد أن أضاف إليه ذلك الحكيم ملحوظاته. وكان الكتاب الأصلي يقع في ثلاثة أجزاء وكلها تكشف عن التأثير الطاوي:

(أ) عقاقير الدرجة الأولى، وهذه تخفف الوزن وتطيل العمر مثل الزنجفر، والآزورايت، والميكا، والفطر المقدس، والمسك، والجِنْسَةْ (عشبة دوائية صينية)، والمحار وما إلى ذلك.

(ب) عقاقير وسطى: وهذه مقوية وتساعد على مقاومة الأمراض، مثل الرّهج الأصفر، ورهج الغار، والكبريت، والزنجبيل، وقرون الكركدن، وجلد الغزال.

(ج) عقاقير دنيا: بعض البذور السامة والمُنَضِّبة لعلاج الإعياء ، مثل المَغرة،

والمينيوم، والإسبيداج، والتين وبذر الدراق.

(2) «نبذة منفصلة عن مشاهير الأطباء»، وهو من أهم الكتب الصيدلانية في عهود الأسر الست وهو من إعداد تاو هونج تشنج، وقد جمعت مادته بواسطة السلطات الكنسية لشن ننج، إلى جانب السلطات الرسمية لما بعد عهد هان.

(3) «الأعشاب الأساسية التي تم جمعها مؤخراً»، وهو الكتاب التانجي الرسمي، وقد جمعت مادته في عام 659 بواسطة مجلس رأسه لي تشي، وإن عرفه الناس أكثر من خلال طبعته التالية التي جاءت بعنوان «حواشٍ على كتاب أعشاب تانج الأساسية»، ولقد تضمن ذلك المؤلَّفُ العظيم معلومات جديدة تم اكتسابها منذ أيام تاو هونج تِشينج، خاصة فيما يتعلق بالنباتات الجنوبية، وربما كان أول كتاب مصور عن الأعشاب. ولا بد أنه قد تم رسم العقاقير الغريبة حقاً وجنباً إلى جنب مع العقاقير الجنوبية في المخطوطات التانجية ذات الرسومات اليدوية، والدليل على ذلك أن اسم أحد الرسامين الطبيين معروف وهو: وانج تينج الذي عاش في القرن السابع، وهو الذي رسم «صور حول استخدام الأعشاب الأساسية»

(4) ولقد أشرنا إلى كتب صن سزو—مياو، ولا بد أن نضيف إليها كتاباً آخر له يتضمن وصفات غذائية «وقدرت قيمته بألف قطعة معدنيةَ».

(5) كتاب مينج شن «وصفات غذائية إضافية (ويرجع إلى أوائل القرن الثامن).

(6) كتاب «أعشاب أساسية تؤكل للشفاء من الأمراض » وقد وصفه شانج تنج، وهو عبارة عن توسع في الكتاب السابق، وكان له أثر كبير في عهود ما بعد تانج.

(7) كتاب «الأعشاب الأساسية في عقاقير بلاد ما وراء البحار» وقد وضعه لي هسون (منتصف القرن الثامن).

(8) كتاب «مكونات سرية في الأدوية الأجنبية» وقد ألفه وانج تاو (القرن الثامن).

ودائما– وبطبيعة الحال– كان أفضل تلك الموارد البشرية والأدبية متوافراً لابن السماء، ومن ثم فإن غالبية معلوماتنا تُستمدُّ من الصيدلية الإمبراطورية. كذلك فقد خصصت مساحة شاسعة في العاصمة لحدائق الأعشاب الإمبراطورية، وهذه كانت تحت إشراف أحد «الأساتذة» الخمسة الذين كانوا يعملون بقيادة «كبير الأطباء» ، وهؤلاء كانوا يشرفون على الشؤون الطبية العامة، والعلاج بالإبر، والتدليك، والسحر، والعقاقير على التوالي. وكان لهذا الأستاذ عدد من المساعدين صغار السن (ما بين السادسة عشرة والعشرين من العمر) يلقنهم الحرفة، ويعدهم للمستقبل، فكانوا يتعلمون خصائص العقاقير، وموطن كل منها في الامبراطورية، والأسلوب الصحيح لزرعها ورعايتها، وأفضل فصول السنة من حيث جمعها، وطرق تخزينها، وما إلى ذلك. ومن تلك الحدائق كانت الأعشاب ترسل إلى القصر، وعند الحاجة إلى أي منها ترسل الكميات المطلوبة إلى مديري الصيدلية الإمبراطورية، وكانا يعرفان بلقب «مُوَرِّدْ الأدوية للإمبراطور»، و«رئيس دائرة العقاقير». وكان هذان الصيدليان مسؤولين عن التشخيص وتحديد العلاج وتركيب الدواء. وكانت الأدوية تُعَدُّ وفقاً لقواعد ثابتة: يتعين أن يشتمل كل دواء على عقار من الدرجة الأعلى، وأن يكون لائقاً بمقام العاهل، وحبذا لو كان سماوياً، وأن يكون من تلك العقاقير التي تطيل العمر، وثلاثة من العقاقير الوسطى من صنع البشر لتقوية أجهزة الجسم، وتسعة من العقاقير الدنيا الأرضية لعلاج الإعياء. ويضاف إلى ذلك أنه كان يتعين على صيادلة القصر مراعاة أن يكون للأدوية مذاق مستساغ وفقا لارتباطها بأجهزة الجسم الخمسة، وغير ذلك من الاعتبارات المعقدة، مثل القاعدة التي تفرض في حالات أمراض المعدة و(الحجاب الحاجز) أن يتناول المريض الملكي الطعام أولاً ثم يتجرع الدواء، أما في حالات أمراض القلب والبطن فيحدث العكس. وكان الدواء يُعَدُّ تحت سمع وبصر أعلى

موظفي البلاط، وإشراف مباشر من جانب قائد الحرس، ويقوم كبير الصيادلة بتذوقه (هو ورئيسه كبير المرافقين، وولي العهد (والأخير ربما يكون في عجلة من أمره من حيث طموحه للجلوس على العرش)، وذلك قبل تقديمة للعاهل.

وعلى الجانب الآخر فلا نعرف سوى القدر اليسير عن كيفية حصول عامة الناس على الأدوية (بخلاف الصيدليات البوذية ودورها المهم في هذا الصدد)، ونكاد لا نعرف شيئاً عن نظام تركيب وصرف الأدوية في عهد تانج. ومن الحالات الاستثنائية (بخلاف ما يمكن تخمينه بالنسبة لأسواق كانتون الكبرى، وكذا أسواق يانج -تشو، وتشانج-آن) حالة مدينة تزو-تشو في سهول شزوان. فمنذ منتصف القرن التاسع كان تجار العقاقير من كل أنحاء البلاد يتجمعون في تلك المدينة في مطلع الشهر التاسع من كل عام (أكتوبر / تشرين أول في الغرب) حيث يقيمون معرضاً كبيراً للأدوية يستمر لمدة ثمانية أيام بلياليها.

ومن ناحية أخرى لدينا معلومات أفضل حول أنواع العقاقير التي كان يمكن جلبها، فقد استغل الصيادلة كافة المصادر النباتية والحيوانية والمعدنية، بما في ذلك الخامل منها والسام، بل والمقزز، فلكل مصدر دوره في علاج وشفاء المرضى. ويكفي أن نسوق عدداً قليلاً من الأمثلة من قوائم طويلة للغاية لكي نوضح مدى تنوع العقاقير الأساسية في عهد تانج: الأقونيتين (البيش، وهو عشب سام) من تشكيانج، وشزوان؛ ولحاء وبراعم السّنا (نبات من الفصيلة القرنية) من كوانجسي الشمالية، وكيانجسي الجنوبية؛ والرّاوند (عشب من الفصيلة البطاطية) من الشمال الغربي؛ والجنسنج (عشبة صينية) من الشمال، ومن منشوريا؛ وجذور اللوتس من مصب نهر يانجتسي؛ والفليترالي (نبات من الفصيلة الليلكية، ويعرف أيضاً باسم «رأس الثعبان»، وله زهور جَرَسية الشكل/ المترجم) من هوبيه، وشزوان؛ وعود الوُجْ (قصب الذُّرَيْرَة) من جنوبي شزوان؛ وعرق السوس من الشمال ومن منغوليا؛ والتاكاهو من شنسي؛ والأُخيضر (الذباب الهندي) والمُحرِقة (خنفساء

تفرز أرجلها سائلاً زيتياً /المترجم) من شنسي؛ وعظام التنين من جبال شانسي، وقرون الجوران من جبال شزوان والمسك من منطقة شاسعة (حزام) يمتد من يونّان الشمالية عبر شزوان وسفوح جبال التبت حتى شمال الصين، ومنغوليا، ومنشوريا؛ والترياق (حصى في أمعاء الحيوانات، خاصة المجتر منها مثل الثيران، كان يظن أن لها خصائص سرية، وأنها ترياق ضد السموم/ المترجم) من شزوان، وشانتونج؛ وقرون الكركدن من هونان الجنوبية؛ وجلد الأصلة (الثعبان الكبير) من لينجنان؛ وحصى أمعاء الخنزير البري من الأوردوس؛ والزرنيخ من تاي-يوان في شانسي؛ والهوابط (ستالاكتايت: رواسب كلسية مُدَلاّة من سقوف المغاور) من شانتونج، وهوبيه، وكوانجتونج؛ والجبس من شنسي، وكانسو وأماكن أخرى؛ وملح جلوبر من شمالي شزوان؛ والنترات من شانسي الوسطى؛ والميكا من شانتونج وشمالي آنهوي؛ والملح الصخري من كانسو؛ وملح أبسوم (سلفات المانيزيا) من حوض نهر اليانجتسي؛ ومسحوق الكودزو من الصين الوسطى، ومن كيانج بصفة خاصة.

ومن حسن الحظ يوجد بمتحف الشزوين في نارا بعض الأمثلة الفعلية لعقاقير القرن الثامن، وقد حفظت في القسم الذي يضم الأسلحة، والألعاب، والأثاث المنزلي، والآلات الموسيقية وغيرها من الأشياء، وغالبيتها كان قد أُهْدِي للإمبراطور شومو بواسطة الزوار الأجانب، وبعد موته في عام 756 أهدت أرملته الإمبراطورة كوميو كل تلك الأشياء (ومن بينها حوالي ستين عقاراً طبياً إلى معبد توداجي البوذي الأعظم، والذي تحول مخزنه لاحقاً إلى متحف الشزوين). وعدد كبير جداً من تلك العقاقير من أصل صيني، وبعضها جاء من أماكن بعيدة من آسيا، مثل القرفة، والقرنفل، والحفصة الجوزية، والمرتك (أول أكسيد الرصاص) من إيران؛ والفلفل وقرون الكركدن من الهند؛ وحشيش الدّرّاح (الأخيضر)؛ وبقايا «عظام التنين»، وغيرها من المواد لا تبدو لنا كعقاقير أبداً مثل خشب الألوس، والسابان

والزنجفر، ومسحوق الفضة. ويلاحظ أن الدراسة العلمية المنهجية لتلك العقاقير لم تبدأ إلا في عام 1948 ، ومن بين النتائج المهمة لتلك الدراسة تحديد هوية بعض عقاقير العصور الوسطى للمرة الأولى. فعلى سبيل المثال لم يكن معلوماً من قبل أن «النترات الشوكية» كانت اسماً لأملاح إبسوم، كما لم يكن معلوماً أن أملاح إبسوم تلك كانت تستخدم طبياً في الصين في العصور الوسطى.

وحتى إذا اعتمدنا على أفضل المصادر المنشورة فحسب فإن ثمة آلافاً من العقاقير كانت تُحضّر، وبطبيعة الحال فقد كانت توصف لعلاج كافة الأمراض المعروفة آنذاك. ولقد أصبحت القيمة الحقيقية لكثير من تلك العقاقير القديمة محل اهتمام العلماء والأساتذة مؤخراً، ولا بد أن أغلبنا قد قرأ أو سمع عن دواء حديث سبق للطب الصيني في العصور الوسطى إعداده واستخدامه. ومن أمثلة ذلك استخدام الأطباء في عهد تانج لدواء اسمه «بولاستيلا سينينسيس» لعلاج الدوزنتاريا الأميبية؛ واستخدام الكالوميل لعلاج الأمراض التناسلية؛ ومزج النبيذ بالقرع (اليقطين) لعلاج البري بري (الهزال الناجم عن نقص ڤيتامين «ب» في الغذاء/ المترجم). ولكننا لن نقتنع في الغالب بشأن فعالية أفضل بقايا التنين (حتى لو أُعدّتْ في ألوان كثيرة) كعلاج لمرض «الحَضُون» أو مرض «السقوبي» (والأول شيطان يجامع النساء ليلاً، والثاني شيطانة تجامع الرجال أثناء نومهم/ المترجم)، كما أنه ليس من المحتمل أن نقبل بقضيب الفرس المجفف مع العسل والنبيذ كعلاج للعجز الجنسي عند الرجال. فبعض ألوان العلاج في صين العصور الوسطى تبدو لنا ضرباً من ضروب السحر أكثر مما تبدو كعلاج طبي، مثل غلي طلسم مدون على قطعة من خشب الدراق المقدس، ثم تناولها لطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى (حالات الصرع والجنون على ما يبدو/ المترجم). لكن التقييم الحقيقي لواقع الطب والدواء في عهد تانج لا يمكن أن يتم إلا إذا طرحنا جانباً معارفنا «العلمية» و«الجمالية»، ونظرنا إليها نظرة مجردة، وتعاملنا معهما كما هي:

حقيقية أو كاذبة؛ جميلة أو قبيحة، باعتبارها جزءاً من حياة العصور الوسطى. وقد يُفيد في هذا الصدد أن نذكر بعض الأمثلة: إذا شرب الزوج والزوجة من مياه الأمطار قبل الذهاب إلى فراشهما في اليوم الأول من أيام الربيع فسوف تحمل الزوجة بالتأكيد؛ والندى الذي يجمع من الزهور مفيد تماماً للبشرة؛ والمرهم المصنوع من المَلْغَم (مزيج من الزئبق والفضة والقصدير) مهدئ في حالة القلق الشديد؛ والكالوميل دواء أكيد لالتهابات الأنف؛ ورهج الغار ترياق لكل السموم؛ والماجنيتايت (إكسير عبارة عن حجر مغناطيسي زعموا أنه منشط جنسي) يقوي الخصيتين والأعضاء التناسلية بصفة عامة بحكم قواه الجاذبة؛ والنترات تُدِرٌ البول وتعالج متاعب الحيض، وعِرق السوس أفضل الأعشاب جميعاً ويمكن خلطه بأي دواء (لجعله مستساغاً/ المترجم) خاصة لعلاج أمراض ومتاعب البطن؛ وأوراق الورْتْ (عشب قديم كان يستخدم في طقوس الرش بالماء المقدس) تخلط بالزيت وتستخدم كمقو لشعر النساء؛ ونبات الخُبّاز يلطف الأمعاء؛ وجذور الراوند (عشب من الفصيلة البطاطية) مقوٍّ للأحشاء؛ والكُرّات المطبوخ فاتح للشهية؛ وعصارة الكرات دواء موضعي لعلاج عضة الكلاب المسعورة ولدغات الزواحف والحشرات السامة؛ والقفلوط (الكرات الأندلسي) يسهل الولادة؛ والزنجبيل الجاف يفتح كافة قنوات وممرات الجسم الداخلية؛ والسّرخَسْ مُنوِّم ومُخدِّر؛ واليام (نوع من البطاطا) مُسَكِّن للآلام؛ والمشمش المجفف مفيد لمرضى القلب، بينما الدُّرّاق المجفف مفيد لمرضى الرئة؛ والسهم المخبأ تحت فراش امرأة وَضَعَتْ مؤخراً سوف يشفيها من أي قرح في الأحشاء؛ وإذا ضربت عضلة مشدودة بملعقة ثلاث ضربات فسوف تنبسط؛ وعصارة العناكب المسحوقة تفيد في علاج لدغة الأفاعي؛ ولتسهيل الولادة (الوضع) تمسك المرأة في يدها بفرس البحر (سمكة صغيرة ذات رأس كرأس الفرس) أو تربط في جسدها، والمحار يفيد في علاج الاضطرابات الجنسية؛ ولحم الحمير المسلوق مع التوابل والبهار يساعد في علاج الجنون والانقباض (السوداء)؛ ويساعد لحم النمر في

التخلص من كافة أنواع الأرواح الشريرة ويحصن المسافرين ضد النمور؛ ودهن الخنزير البري (الممزوج بالنبيذ) يدر لبن الأم المرضع بحيث تستطيع إرضاع ثلاثة أو أربعة أطفال.

ومن الفروع المهمة في الأدبيات الطبية ذلك الذي يتعلق بالتقاليد والتجارب الطاوية، وهذه تؤكد استخدام مواد معدنية في تحضير العقاقير التي تبتلع (وأهمها الزنجفر الذي يطيل العمر). والواقع أن الطب في عهد تانغ قد تأثر بشدة بآراء الكيميائيين الخياليين، والتقدميين منهم والمحافظين، وهذا ما يفسر حقيقة أن الكتب الخاصة بالمواد الطبية كانت عادة تلون بأحلام وردية تتعلق بتجدد الشباب، والحوريات والقدرات الخارقة. ويلاحظ في هذا الصدد أن الوصفات الطبية الطاوية لم تكن مقبولة قبولاً عاماً. فعلى سبيل المثال فقد حذر كلٌّ من تشن تشوان، وتشانغ كاو من الطابع السام للزنجفر. ومع ذلك فقد كان المناخ مهيأً لقبول مزاعم الطاويين، وكان السُّذّج من أتباعهم يأملون في الدواء الشامل الذي يعالج كافة الأمراض، إن لم يكن من مختبرات العلماء الطاويين فمن بلاد نائية ارتبطت في أذهانهم بأنها بلاد تشبه الجنة موطن الخالدين. وهكذا فقد كان طبيعياً أن يزداد الطلب في عهد تانغ على العقاقير الأجنبية، على النقيض من حقبة «الأسر الست» التي سبقته مباشرة حيث احتلت السلع الدينية (مثل الأياقين والصور البوذية، والبخور) مكاناً بارزاً في التجارة عبر البحار. فإلى جانب العقاقير الأجنبية أتى للبلاد في عهد تانغ صيادلة أجانب، وبطبيعة الحال فقد كانوا أكثر من صيادلة: صناع معجزات من الهند، علماء متخصصون في اليوجا، وسَحَرة متمرسون. وهكذا أصبح هناك فئات مثيلة للكيميائيين وأكلة الزنجفر المحليين، وهو ما أشبع الرغبات التي انتشرت في ذلك العصر، والتي كانت لها سوابق ابتداءً من عهد هان.

وعلى ذلك الأساس تعاظم أثر الطب الهندي في الصين، وتمت ترجمة العديد

من الكتب الطبية الهندية -خاصة البوذية- إلى اللغة الصينية. ومن أمثلة تلك الكتب في القرن السابع كتاب «آفالو -كتسفاراكرتا -سيكتسا -باهاسياجا - سوترا» الذي تضمن وصفات طبية وتراكيب سحرية كذلك (داراني). ويبدو أن أمراض العيون هي التي كانت الأكثر تأثراً بالطب الهندي، وهناك رواية تقول إن الراهب المتجول تشاين-تشن كان قد لجأ لاختصاصي أجنبي يعيش في شاو-تشو بالقرب من كانتون لعلاج عينيه، وذلك عندما جاء إلى كوانجتونج في عام 748. ولقد أشرنا آنفاً إلى المقالة الرائدة حول ذلك الموضوع والتي كتبها سون سزو-مياو، وربما قد أوحى إليه به عمل بوذي سابق.

أما الطاويون الكاذبون من الهنود فنادراً ما تَقَبَّل كبار الناس حيلهم وبدعهم ومزاعمهم التي يصعب تصديقها، بل إن هؤلاء السادة ذهبوا إلى حد اتهامهم بسوء الممارسة. وكما هو معروف فإن الكثير من أباطرة تانج كانوا يتناولون الأكاسير الطاوية التي تطيل العمر، وتذهب بعض الآراء إلى أن موت بعضهم جراء أمراض لم يمكن تشخيصها كان في الحقيقة بسبب التسمم جراء تناول مثل تلك العقاقير السامة، ولقد أشارت أصابع الاتهام إلى الأطباء الهنود والصينيين على حد سواء. فمن المعلوم أن كلاً من تاي تسونج، وكاو تسونج قد استدعى أطباءً هنوداً لكي يحضروا لهما عقاقير تطيل العمر. ويحكى أن أحد رجال بلاط كاو تسونج قد أنّب سيده «لتناوله مثل ذلك المستحضر البربري، مذكراً إياه بأنه لم يكن مجدياً مع سلفه»، وبالفعل فقد سرتْ إشاعة بأن موت تاي تسونج لم يَخْلُ من علاقة ما بذلك المستحضر. وبالمثل فإنه عندما سأل هسيان تسونج وزراءه في عام 810 عن آرائهم بالنسبة لإكسيرات الخلود تلك رد أحدهم موضحاً أن تاريخ التقاليد الكيميائية يثبت عدم جدواها، وأشار إلى حالة الإمبراطور الراحل تي تسونج الذي كان قد دعا كاهناً هندياً ليحضر إكسيراً له، ولما تناوله مرض مرضاً شديداً، وعندما كان على فراش الموت رغب رجال البلاط في الفتك بذلك الأجنبي الذي اعتبروه مسؤولاً عن المرض المميت الذي أصيب به العاهل، لكنهم تراجعوا في اللحظة

الأخيرة «... خشية أن يسخر منهم البرابرة (الأجانب)». ولكن يبدو أن هسيان تسونج لم يأخذ تفسير وفاة جده مأخذ الجد، ذلك أنه هو نفسه قد عاني من تناول «الزنجفر والذهب»، ويعتقد أن أكثر من واحد من خلفائه قد مات نتيجة للإعتقاد بفاعلية الأكاسير المعدنية تلك. لكن الإيمان بتلك العقاقير الهندية -الطاوية قد استمر طويلاً، وجاب مبعوثون صينيون كل أرجاء الدنيا بحثاً عن الجديد منها؛ ففي عام 716 تحدث رجل غربي إلى هسوان تسونج عن ثروات بلاد ما وراء البحار، وعن «... أرباح السفن التجارية». وأضاف أنه «يود الذهاب إلى بلاد الأسود (سيلان) للحصول على أدوية ناجعة، وأيضاً على عجوز شمطاء ماهرة في الطب وتسكينها في أحد أجنحة القصر». وفي تلك الحالة هَبَّ المسؤول الذي كان قد كلف بمرافقة ذلك الغريب الغامض، وكتب مذكرة للإمبراطور أوضح فيها أن التجارة عمل لا يليق بالملوك؛ وأن فاعلية العقاقير الأجنبية مشكوك فيها؛ وأنه من غير اللائق وضع سيدة أجنبية مع الحريم (نساء القصر)؛ وأن أياً من تلك الأمور لا يسمو بالفضائل الحقيقية، ومن ثم فقد طلب إعادة النظر في الأمر، وتخلى هسوان تسونج في النهاية عن الفكرة برمتها. ولقد كان تجنب تلك المغريات الأجنبية السخيفة لدواعي الفضيلة والورع من سمات السادة المحافظين فحسب في تلك العصور، ومن ثم فإن رفض الفكرة لم يكن متماشياً مع روح العصر، حيث استمر تدفق العقاقير الغريبة على الصين، وكانت تتكدس في المعابد البوذية.

وقد يكون الأمر مدهشاً أن ذلك الأمر قد استمر حتى القرن التاسع حين اضطربت التجارة الخارجية ولم تعد كما كانت في القرن السابق. ومع ذلك فقد أشار أحد شعراء القرن التاسع، وهو هسو تانج إلى وفرة العقاقير الأجنبية في أحد الأديرة البوذية، كما روَى بي جي-هسيو عن راهب يدعى يوان-تا كان عمره يزيد عن ثمانين عاماً، وكانت لديه حديقة يزرع فيها الأعشاب الطبية النادرة. ولقد لعبت الحدائق الملحقة بالأديرة دوراً مهماً في نشر العقاقير التي كانت تأتي إلى الصين، كما لعب «الحجاج» دوراً لا يقل أهمية في جلب الأعشاب الطبية.

ولقد كان الكثير من جامعي الأعشاب الأتقياء هؤلاء يعملون في خدمة الحاكم الصيني، ومنهم على سبيل المثال ناندي (من آسيا الوسطى) الذي كان كثير الترحال في جنوبي آسيا قبل أن يأتي إلى الصين بحراً، وكان قد وصل إلى العاصمة في عام 655 وحمل معه مجموعة كبيرة من المخطوطات السنسيكريتية. وفي العام التالي أُرْسِلَ إلى جزر الهند (الشرقية) لإحضار عقاقير غريبة عجيبة، لكنه لم يذهب إلى أبعد من كانتون.

وفي عام 663 توجه إلى كمبوديا للغرض ذاته، ولا نعلم شيئاً عن نشاطه بعد ذلك. وفي سِيَرٍ كتلك نصادف صفات بطولية من حين لآخر -فقد كان المبعوثون حريصين على إنجاز ما كلفوا به من مهام مهما بلغت درجة صعوبتها، وفي بعض الحالات ماتوا في سبيل البحث عن أدوية للصينيين.

وكانت العقاقير تأتي إلى الصين من خلال طرق التجارة العادية، وأيضاً وبطبيعة الحال من خلال البعثات الدبلوماسية شبه التجارية التي كانت تحمل «جزية» رمزية من أُمَراء بعيدين إلى تشانج-آن. وكان يتم التفتيش بدقة على تلك السلع المستوردة بمجرد وصولها إلى حدود البلاد، ويتم هناك تحديد أسعار بيعها وفقاً لقيمتها ومقتضيات السياسة الصينية.

وعلى الرغم من عدم قدرتنا على تحديد محتوى تلك الشحنات فإنه يفترض أنها كانت تضم أفضل وأنجع المنتجات الدوائية الآسيوية، خاصة خلال النصف الأول من القرن الثامن، عندما بدا وكأن أنظار العالم كله تتجه صوب تانج. فمن طوخارى أتت «عقاقير غريبة» عدة مرات؛ ومن بلاد فارس أتى أحد الأمراء بنفسه ومعه «عقاقير عطرية»؛ أما كشمير فقد أرسلت «عقاقير غربية»، ومن كابيسا جاءت «وصفات طبية وأدوية عجيبة». وفي القرن التاسع، وبعد حدوث عدة تبديلات في قنوات التجارة، أرسل أهل التبت تشكيلة من العقاقير.

وما أن استوعب صيدليو تانج تلك العقاقير الجديدة حتى بادروا إلى ضم نتائج دراساتهم لها إلى الأدلة الدوائية المنشورة، وبهذا عرف بها الأطباء الممارسون فازداد الطلب عليها، ومن ثم بدأ الصينيون استزراع النباتات التي تصنع منها في التربة الصينية. وفي الحقيقة فقد توافرت الكتب المخصصة تماماً لتلك المكونات الممتازة والفاعلة، ولقد أشرنا آنفاً إلى واحد منها هو «هاي ياو بن تساو» الذي ألفه لي هسون. وعلى الرغم من فقدان النص الكامل لهذا الكتاب فقد نُقلت أجزاءٌ كثيرة منه -لحسن الحظ- من خلال الكتب الطبية التي وضعت في عهد تانج والعهود اللاحقة وللأسف الشديد فإن ذلك لم يحدث بالنسبة لكتاب مهم آخر هو «هو بن تساو» لمؤلفه تشنج تشاين (وترجمة عنوان ذلك الكتاب كما يلي: «الأعشاب الأساسية لدى الغربيين»)، وهو مكرس على الأرجح للأدوية الإيرانية الرئيسة»، وقد اختفى هو الآخر بعد انقضاء عهد تانج، وليس من السهل العثور على مقتطفات منه.

ستراجاندا

ومن بين الأدوية السحرية ذات الأصل الهندي دواء كان يعرف باسم «ستراجاندا»، وكانت له روائح متعددة، وكان قد بعث به إلى تشانج-آن ملك بوذي كان يحكم شمال الهند، ثم جاء المزيد منه من طوخارى، ومع بعثة مشتركة من كل من طورجاش، وتشاتش، وكيش، ومياماراغ، وكابيسا. ولقد احتوى ذلك المستحضر على طرفاء المَنّ، وراتنجات الصنوبر، وعرق السوس، وجذر الريمانيا و«الدم الحار»، وكان- وفقا لما كتب تشن تسانج- تشيه «يذاب في النبيذ لعلاج الجروح والنزف مثل تلك المصاحبة للولادة عادة). ولقد كانت لدى الأجانب طرقهم الخاصة لاختبار فاعلية ذلك الدواء حيث كانوا «يأخذون طفلاً صغيراً ويبترون إحدى قدميه، ثم يضعون الدواء في فمه ثم يجعلونه يتخطى تلك القدم المبتورة، فإذا قدر على المشي في تلك اللحظة ذاتها يكون الدواء فعالاً.

ثرياكا (الترياق)

في عام 667 قدم السفراء القادمون من روما إلى إمبراطور تانج الثرياكا (الترياق)، وهو عبارة عن برشامة (كبسولة دواء) زعم بليني أنها كانت تضم ما لا يقل عن ستمئة مكون مختلف. وقد لاحظ الصينيون أنها ضمت فيما ضمّت مرارة الخنزير، وأن لونها أحمر داكن، وأن الأجانب يحملون احتراماً كبيراً لها، كما سجل سوكونج أنها قد أثبتت فائدتها في علاج «المائة مرض». ولا نعلم ما إذا كانت تلك البرشامة الشافية (لكل الأمراض) قد احتوت فيما احتوت على المكونات التي شاعت في الطب الإسلامي في العصور الوسطى مثل المر، والأفيون، والقنب.

الهَال (الكاردامومِ، أوحَبُّ الهال، أو الهيل)

على الرغم من وجود أنواع صينية من الهال، فقد ساد اعتقاد بأن إنتاج البلاد الاستوائية من تلك المادة أرقى وأفضل، ومن ثم كان يتم استيرادها بكميات كبيرة. ففي لنجنان والهند الصينية كان الهال يزرع ويجمع، وكان ذلك هو النوع المسمى ب«الهال الأسود»، أو «الهال المر» في اللغة الصينية، ولهذا يمكن اعتباره «نصف غريب»، وكان يسمى أيضا «حبوب زيادة الحكمة» وكان يوصف لإذكاء المخ (العقل) وهذا ما يفسر ذلك الاسم الأخير من أسمائه. ولتناوله كان يوضع في كريات من مادة جيلاتينية دخنية، أو يُخلط بالأرز والعسل. ومن فوائده الأخرى علاج ضيق التنفس، وتثبيت الروح، وعلاج مختلف جوانب القصور والعجز «خاصة إذا ما تناوله الإنسان بعد تحميصه في الملح، حيث يساعد في علاج احتباس البول».

ومن تونكنج أتى «الهال الحقيقي»، وهو عبارة عن الثمار المجففة التي كانت الهند تبادلها بسلع أخرى مع اليونان من القرن الرابع قبل الميلاد، وكانت معروفة في روما. ولقد ذكر لي هسون أن الأوراق المجففة (كانت ذات مذاق مر–حلو في

وقت واحد) كانت تستخدم في الطب تماماً كالثمار والقشور. كذلك كان يتم استيراد «الهال الخشن» الذى له نكهة الكافور وكان موطنه الهند الصينية، وكان يستخدم في علاج الاضطرابات التنفسية. أما «الهال المستدير» أو «الهال العنقودي» الجاوي فقد كان يأتي إلى الصين من مكان يسمى قاقولا، وهو الأرجح يقع على الساحل الغربي لشبه جزيرة الملايو، واسم تلك البلاد هو نفسه اسم ذلك الدواء في اللغة العربية «قاقوله»، ويبدو أن النبات قد جلب من جاوه وزرع تجارياً في شبه الجزيرة، وأصبح مألوفاً في كوانجتونج مع مطلع القرن الحادي عشر، وقد أطلق الصينيون عليه اسم «الهال الأبيض» لأن– وفقاً لما ذكره توان تشنج– شيه– «بذوره تتجمع في صورة عنقود مثل العنب، ولأنها ضاربة قليلا إلى اللون الأزرق عند أول ظهور لها، وتتحول إلى اللون الأبيض عند نضوجها، ويتم جمعها في الشهر السابع». ولقد كان لذلك النوع من الهال عدة استخدامات طبية منها تخفيف حدة النزلات الشعبية والرئوية.

ولقد وردت كلمة «الهال» كثيراً في أشعار القرنين التاسع والعاشر، خاصة في أشعار وُو جونج، ولي هُو، وتومو، وهان وُو: فقد كان ذلك عصراً انبهر فيه الشعراء بالأذواق الأجنبية، والغرائب من الألوان والروائح.

جوزة الطيب

كان تشن تسانج تشي أول صيني يصف جوزة الطيب التي أسماها «الهال اللحميّ». ويخبرنا بأن ذلك التابل (والذي يبدو أنه لم يستخدم كتابل حينذاك) كان يجلب إلى تانج بواسطة السفن التجارية الكبرى، وأن موطنه كان قاقولا مثل الهال. ووفقاً لما ذكره لي هسون فهو من منتجات «كورونج، وروما»، وهذه عبارة لا تفيدنا كثيراً في تحديد المناطق التي كانت جوزة الطيب تزرع بها، وإن دلتنا كثيراً على اتساع نطاق تجارتها. فجوزة الطيب الهندية الشرقية كانت معروفة في أوروبا في القرن السادس. وفي عهد تانج كان يوصف نوع من الحساء المصنوع من جوزة

الطيب الأرضية لعلاج الإسهال ومختلف الاضطرابات الهضمية، ويبدو أن الناس قد تقبلوا النبات ووصفاته الطبية بالترحاب، خاصة بعد أن بدأوا زراعته في لينجنان في أوائل عهد سونج .

الكُرْكمْ، والجدوار

ينتج الكركم من عدد من الجذرومات (السيقان الأرضية الشبيهة بالجذور) صبغية ذات درجات عطرية متفاوتة، وهو من فصيلة «الكركم». وفي أضيق المعاني هو نوع نباتي ذو رائحة نفاذة إلى حد بسيط، وغالباً ما يستخدم كصبغة، ويعتقد أن موطنه الأصلي جنوب غربي الصين. ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً نوع شديد العطرية ينمو في الهند والهند الصينية، وهو الجدوار، وهذا يستخدم أساساً كمصدر عطري. وهناك أنواع كثيرة أخرى في إندونيسيا والهند الصينية تستخدم للتلوين وفي الطب، وفي إعداد الكاري (بهار هندي) وفي المستحضرات العطرية. والاسم الصيني المجمع لكافة تلك الأنواع كان «ذهب يو»، وهو اسم خلع كذلك على الزعفران كما ذكرنا آنفاً، وإن كان الزعفران قد وصف بتحديد أوضح بأنه «ذهب يو العطري». وعلى أية حال، فقد شاع الخلط بين أنواع الكركم المختلفة في التجارة، وفي الاستخدام على السواء. وفي المضامين التي تركز على الجانب العطري يمكن أن نفترض أننا إما بإزاء الزعفران وإما الجدوار، وفيما عدا ذلك فإننا بصدد الكركم الحقيقي.

ووفقا لما ورد في تاريخ تانج فإن الهند كانت تنتج الماس، وخشب الصندل، والكركم (أو الجدوار؟)، وكانت تصدر تلك المواد إلى كل من روما، وكمبوديا، وآنام. أم تُرىَ أن المقصود هنا هو الزعفران ؟ أغلب الظن أنها كانت تنتج وتصدر الزعفران، والكركم، والجدوار. وبالمثل فإنه في عهد تانج كان «ذهب يو» من منتجات كل من بالور العظمى، وچاجودا، وأوديانا، وكشمير، وكلها تقع إلى الشمال الغربي من الهند، وفي حالة الدول الثلاث الأولى فإن الزعفران هو

الاحتمال الأقرب، بينما في حالة كشمير، وهي الموطن الأصلي للزعفران، نجده أمراً مؤكداً.

أما الفرس، فقد نسبوا الجدوار للصين، ومما يفسر ذلك وجود نوع من الكركم في الصين عرف باسم «الزنجبيل الأصفر»، وكان يستورد من الغرب كذلك. ويقول سوكونج إن البرابرة الغربيين كانوا يسمونه «دزيوت»، شيء قريب من "جد" أو "جت"، ويضيف أنه في أماكن أخرى كان الكركم المألوف يسمى «دزيوت الخيل» لأنه كان يستخدم في علاج الخيول. وقد يكون هنا التسجيل نطقاً للمقطع الأول من كلمة «زيدوري» (الجدوار) في لغة شرقية ما، فهي في اللغة العربية «الجدوار».

وفي الطب التانجي استخدم الكركم أساساً لعلاج تجلط الدم والنزف. وليس مؤكداً ما إذا كان «ذهب يو» (الذي كان يستخدم لصبغ شعر النساء، وفي الوقت نفسه لإضفاء رائحة طيبة خفيفة) الكركم أو الزعفران (علماً بأن الزعفران كان يستخدم قديماً كصبغة كذلك).

أما المسحوق الذي كان يفرش (هو والكافور) على الممرات قبل أن تطأها أقدام ابن السماء فقد كان إما الزعفران وإما الجدوار (قارن ذلك بنبأ من بروكسل في عام 1960 يقول: «سوف يتم رش الشارع الجديد (وهو أكثر شوارع وسط مدينة بروكسل التجارية حركة) بالعطور بمناسبة زفاف الملك بودوان والدونا فابيولا دي مورا آراجون يوم الخامس عشر من ديسمبر/ كانون أول). وفي عهد تانج أمر هسوان تسونج الثاني بإلغاء تلك العادة في منتصف القرن التاسع لأسباب اقتصادية.

التاكاماك (الحور البلسمي)

كانت كلمة «تونج» تستخدم في اللغة الصينية للإشارة إلى عدد من الأشجار المهمة رغم أنه لم يكن ثمة علاقة بينها، وفي الأساس يشير الاسم إلى البولفينية (شجر عطر الزهور)، ولعل زهورها الأرجوانية الأنيقة هي السبب في امتداد الاسم ليشمل أشجاراً أخرى. ومن الناحية اللغوية فقد صنفت أشجار النخيل مع تلك الأشجار في فئة واحدة ضمت أيضاً «أشجار الخشب والزيت»، و«أشجار المرجان»، و«أشجار بلسم الحور». وتسمى راتنجات ذلك النوع الأخير بالتاكاماك، وهو الاسم نفسه الذي يطلق على مثيلاتها في أمريكا الشمالية، كما يطلق على مادة عطرية تنتجها شجرة هند–صينية ليست حَوَّراً على الإطلاق. فراتنجات ما يسمى «تونج الغربي»، والتي كانت تستورد في عهد تانج كانت تأتي من شجرة حوّر هي في الوقت نفسه مصدر لأخشاب مفيدة في صنع أواني وأدوات المطبخ، وتوجد في شمال غربي الصين، وفي صحراء جوبي، وغرباً حتى أوروبا. ولقد استمدت تلك الشجرة اسمها الصيني من تشابهها مع شجرة النخيل، وليس مع شجر البولفينية. ولقد ظهرت الراتنجات ذاتها في الأسواق الصينية تحت اسم «لعاب تونج الغربية»، أو «دموع تونج الغربية». وتعتقد بعض المصادر العلمية أن عصارة تلك الأشجار تتدفق بمجرد تعرضها للدغات الحشرات، وكانت تأتي ممزوجة بشظايا خشبية وطين قلوي من كانسو، ومن هامي، ومن مناطق مختلفة من تركستان وإيران.

ولقد استخدم الأطباء الحور البلسمي هذا في علاج حالات الحمى الناجمة عن التسمم، وانتفاخات البطن، وللحث على القيء. وربما كان الاستخدام الأهم له في مجال صنع المجوهرات، خاصة في الورش الإمبراطورية لصهر ولحام الذهب والفضة.

المَنّ

كان تشن تسانج–تشيه هو الصيدلاني التانجي الوحيد الذي وصف «عسل الشوك» الذي كان يأتي من ياركهوتو في سيرنديا. فقد ذكر أنه إفراز لنبات شَعْرِي صحراوي، وطرح تسجيلاً لنطق الاسم الأصلي له، والذي فسر لاحقاً بأنه «شوكة الحمل»، مما يذكرنا «بشوكة البعير» في شبه الجزيرة العربية. ولقد قام تشن بدراسة الإفراز حلو المذاق، ومن ثم فقد وصفه لعلاج عدد من الأمراض منها الإسهال الشديد، والإسهال المصحوب بالدماء.

وثمة مادة سكرية مشابهة، وربما كانت من المصدر ذاته وكانت تأتي من منطقة نائية غربي «با» (شزوان) وأسماها تشن تسانج–تشيه «عسل الندى الحلو»، رابطاً إياها بالندى الحلو الإعجازي السماوي في الروايات الصينية القديمة، وأوصى به كعلاج للحميات، ولتلميع العيون، وتقليل العطش.

بلسم جِلْعَاد

بلسم جِلْعَاد هو عصارة نبات عربي يسمى أيضاً «بلسم مكة»، ويقال إن ملكة سبأ قد أدخلته إلى فلسطين. ولقد علم توان تشنج–تشيه بهذا الصمغ العطري الضارب إلى اللون الأخضر في القرن التاسع، وذكر أنه علاج ناجع للجرب القرادي، ويضيف: «... وهذا الزيت ثمين للغاية، وتساوي قيمته ضعف قيمة الذهب». وينسب إنتاجه إلى روما، وفي الحقيقة فقد عرفه الرومان، ذلك أن شجرة البلسم التي تنتجه كانت قد عرضت خلال الاحتفالات بانتصارات بومبي، وڤسباسيان. ولقد سجل توان شكلاً سُريانياً لاسمه هو «آبورساما»، وهو المصدر

الذي أتى منه الاسم الإغريقي «بالسامون». وليس ثمة دليل على أنه قد أتى إلى الصين في أي وقت من الأوقات.

الجلبينة

الجلبينة صمغ راتنجي حلو المذاق، وهو عصارة شجرة تمتُّ لتلك التي تنتج الحلتيت (صمغ راتنجي آخر) بصلة. ولقد كان تو ان تشنج–شيه على دراية بتلك المادة أيضاً، وسجل لها اسماً فارسياً هو «برزاي»، واسماً سامياً قريباً من الاسم الأرامي «الخلبانيتا»، الذي هو اسم أحد المكونات الأربعة للعطر المقدس لدى اليهود. كذلك فقد كان بليني وغيره من الكتاب الرومان على علم به. ولقد نسب تو ان إنتاجه لبلاد فارس، وروما (والمقصود هنا كما في السابق آسيا الرومانية)، وأفاد بأنه قد استخدم في تحضير العديد من الأدوية. وهنا أيضاً ليس ثمة ما يؤكد أن ذلك البلسم قد شوهد أبداً في عهد تانج.

الحلتيت

الحلتيت –على النقيض من الجلبينة– كان معروفاً تماماً في عهد تانج كعقار، ونكهة، وكان يعرف باسم سيرندي قريب من الاسم التوشاري «آنكوا». أما اسمه السنسيكريتي فهو «هنجو»، وكان شائعاً أيضاً. وكان الحلتيت يستورد في هيئة كعكات صمغية تم تجفيفها تحت الشمس، أو في هيئة جذور تم تقطيعها إلى شرائح، وكان الشكل الثاني يعتبر ذا قيمة أدنى. وكان ذلك العقار القيم يأتي إلى الصين من بلدان آسيوية كثيرة، أبرزها جاجودا، وبلاد فارس، وبعض بلدان غير محددة من جنوبي ووسط آسيا. وكان يقدم فيما يقدم من سلع على سبيل الجزية المنتظمة التي

ترسلها الحامية الصينية في بشبالك على حافة زونجاريا، كما كان يأتي على متن السفن التجارية عبر بحر الصين الجنوبي.

والحلتيت منشط للأعصاب، ويساعد في الهضم، وإن كانت خاصيته الأكثر أهمية والأكثر استغلالاً هي تبديد الروائح الكريهة، وإن كان هو نفسه ذا رائحة نفاذة. كذلك فقد كان دواءً مضاداً للديدان الطفيلية، كما كان يُغلى مع العُنّاب في لبن البقر، أو مع خلاصة اللحم كمضاد للشياطين (الأرواح الشريرة).

وكان يتم تجرع الحلتيت مع الشاي، وهو ما يستدل عليه من قصيدة بعنوان «استراحة بالقرب من نهر تونج» نظمها الراهب الشاعر والرسام الموهوب كوان–هسيو الذي عاش ثمانين عاماً في القرنين التاسع والعاشر:

«في الغرفة الهادئة، أشعل ختماً من الصندل؛
وفي الكانون العميق أسخن قارورة حديدية.
والشاي الممزوج بالآنكوا يغلي،
وتنبعث من النار رائحة طيبة، فوقودها جذور شجرة الحياة.
وأتى محلقاً عدد قليل من طيور الكركي فرادى،
وتتم قراءة الكثير من حِكَم بوذا؛
فما الذي يمنعني من التسلل بعيداً مثل تشن–تون–
ومن ركوب جواد يذهب بي بعيداً في الظلام الأزرق».

وختم الصندل المشار إليه ها هنا هو بطبيعة الحال الساعة البخورية. ولقد كان تشي–تون المشار إليه راهباً ناسكاً من القرن الرابع، وكان يعشق الخيول.

ولقد أشرت من حين لآخر إلى أن كتابات توان تشنج–شيه تقوم على قراءاته

الواسعة وبلغات كثيرة بأكثر مما تقوم على الملاحظة المباشرة، ومن ثم لا نستطيع أن نقول إن مجرد الإشارة إلى نبات أو حيوان في كتابه يعني أن هذا النبات أو ذاك الحيوان قد شوهد في الصين بالفعل. ولكن يبدو أن معلومات ذلك الرجل المثير كانت مستمدة مما هو أكثر من الكتب. ففي روايته الأكثر تفصيلاً عن الحلتيت يشير إلى معلومات متضاربة حصل عليها من اثنين من الكهنة، أحدهما «روماني» واسمه وان، والآخر اسمه «ديفا» وهو من ماجادا. ووجود وان هذا –وهو أناضولي أو سوري على الأرجح– يوحي بأن توان قد اعتمد على أجانب آخرين (لا يمكن تحديد أسمائهم) في سعيه للحصول على معلومات عن الأمور والأشياء الغريبة والعجيبة.

بذر الخروع

كانت الصين في عهد تانج تزرع الخروع وتستورد بذوره في الوقت نفسه، وذلك من أجل زيتها ويقول سو كونج أنها سميت بـ«نبتة القرادة» لأن بذورها تشبه قرادة الماشية. ويعتقد أن المصريين القدماء كانوا أول من «استأنس» ذلك النبات حيث استخدموا زيته في الإضاءة. أما في الصين فقد استخدمت بذور الخروع والزيت المستخلص منها في الطب.

القِرفَة المُطَهِّرة

كان «السيتيسوس الهندي»، أو «الدش الذهبي»، أو «القرفة المطهرة» بالنسبة إلى الهنود «ذهبية اللون»، أو «شجرة الملك»، وبالنسبة إلى العرب «الخروب الهندي» أو «خيار القلادات». ولشجرة ذلك النبات زهور جميلة، وبذور حمراء

لامعة داخل أغلفة (مثل الفول والبازلاء)، وموطنها الأصلي في الهند، وإن كانت قد استزرعت في كافة البلدان الاستوائية منذ زمن بعيد نظراً لشيوع استخدام اللب الأسود المحيط بالبذور كعلاج للإمساك. وفي عهد تانج كان بذر الخروع يسمى «الغلاف الأسود البراهمي»، وأيضاً «الغلاف الأسود الفارسي» نظراً لأنه كان يشبه جراد العسل الصيني أو «شجرة البذور الصابونية»، كما عرف أيضاً باسم «الغلاف الأسود بلون الحبر». أما الاسم الهندي فكان «آرجفادا»، وكان مألوفاً كذلك لدى أطباء تانج الذين كانوا يصفونه لعلاج عدد من الأمراض الباطنية.

أعشاب البحر

لم تكن أعشاب وطحالب البحر الصالحة كغذاء آدمي مجهولة في الصين. فعلى سبيل المثال كان هناك اللاڤر الأحمر الذي يصنع منه حساءً جيد، وكان من المنتجات المألوفة للمياه الساحلية في وسط الصين وجنوبها، وأحياناً كان يجلب من اليابان. وكان هنالك أيضاً اللاڤر الأخضر أو «خس البحر» الذي كانوا يحصلون عليه من المياه الضحلة في البحار الجنوبية، وكان يعرف في عهد تانج باسم «خباز مياه الصخور». ولقد استخدم ذلك العشب كدواء مُدِر للبول، وكان مسجلاً في كتب المواد الطبية لدى «الغربيين» ولطالما نسخ الجزء الخاص به.

والتّنجل الحلو، وهو طحلب بني اللون غني باليود والبوتاسيوم والسكر، وكان على قوائم السلع التي يتم استيرادها بانتظام (تحت اسم «كومبو») من سيلا في شبه الجزيرة الكورية، وكان يأتي على سبيل الجزية من القبيلة التنجوسية التي عرفت باسم «مو–هو». ولقد قيل إنه كان طعاماً مفضلاً لدى «سكان الجزر» الذين كانوا يعتقدون أنه يحافظ على صحة الإنسان وسلامته، لكنه كان «يصيب أهل الشمال

بالأمراض»، وكان يوصف لعلاج مختلف الأورام، ويفترض أن تضخم الغدة الدرقية كان واحداً منها.

الجنسنج (الجِنسة)

كانت جذور الجنسنج (والتي تشبه الإنسان) هي الإكسير النباتي الحقيقي في الطب الصيني التقليدي، وكانت تُعرف بأسماء عديدة: «العشب المقدس»، و«الزنجفر العائد بوجه تكسوه التجاعيد» (وهذا اسم كيميائي كاذب يوحي بفاعلية العشب)، وكان ينمو على جبل العنقود الأرجواني في سلسلة جبال تاي-هانج في شانسي، لكن أجود الأنواع كانت تلك التي تأتي من الممالك الكورية مثل كوريو، وبخش، وسيلا ، ومن مختلف البلاد المنشورية. وحول هذا العشب يقول لي هسون: «... ذلك الذي كان يقدم على سبيل الجزية القادمة من سيلا، وله أياد وأقدام، وشكله على هيئة الجسم البشري، ويزيد طوله عن قدم، وتجده مثبتاً بين قطع من خشب كاننجهاميا، وتزينه شرائط من خيوط حريرية حمراء».

وكان من العادات الشائعة تقديم هذا العشب كهدية للأصدقاء، فهو البلسم الشامل الشافي، مثلما تهدى اللوحات أو القصائد أو الأحجار الكريمة. ولا تزال لدينا قصائد ترجع إلى عهد تانج تعبر عن الشكر إزاء تلقي مثل تلك الهدية. فعلى سبيل المثال زعم بي جي-هسيو في أشعار ذات كلمات مبالغة أن الجِنْسة تلك تطيل العمر بأفضل مما يفعل الكيميائيون الطاويون، فهي -على حد قول الصيادلة- تسيطر على الأوجاع الخمسة والأمراض العشرة، وتقوي أداء أجهزة الجسم الخمسة والأحشاء الست....» ولها منافع كثيرة أخرى. ولا تبدو تلك المزاعم غريبة أو خيالية في ضوء التنافس الشديد بين هذا البلسم الصيني-الكوري، ومثيله الإغريقي-العربي المعروف باسم اللُّقاح، وأيضاً في ضوء

الدراسات الحديثة التي أجراها علماء صينيون وأوضحت أن الجنسة تحتوي بالفعل على منشط لكل من الجهازين السمبثاوي، والعصبي المركزي، وأيضاً للجهاز البولي-التناسلي.

أعشاب متنوعة

* الجذور الصفراء لنبات من عائلة «نبتة الدخان»، وكان يستورد من منشوريا، ويستخدم في علاج أمراض الكلى.

* الدِّرْنَة البنية قليلة السمية لنوع من بندق الشرق الأقصى، وكانت تأتي من كوريا، ورمال المنطقة المحيطة بكانسو، وكانت تستخدم في علاج «آلام القلب».

* جذور نوع من «حشائش النجوم» والتي كان هسوان تسونج قد تلقاها من راهب هندي، وسميت باسم «الجنسنج البراهمي»، بما يوحي بأن خصائصها كمقوٍ ومعيد للحيوية والشباب كانت تنافس الجنسنج الأصلي، وكانت تزرع في الصين بداية من أواخر عهد تانج، وأوائل عهد سونج، وأصبحت شائعة تماماً في كوانجسي بحلول القرن الثاني عشر.

* لحاء أشجار «الكاندا»، والتي قيل إن اسمها يشير إلى لونها البني، وقد استخدم في صباغة ثياب الرهبان البوذيين، وكان يجلب من «الغرب»، «وقد توافرت في آنام كذلك»، على حد قول لي هسون وقد يكون الاسم سنسيكريتياً (غاندا) بمعنى عطري، أو قد يكون «كانثا» بمعنى ثياب الراهب. وفي عهد تانج كان يتم تجرع ذلك اللحاء مع النبيذ لتدفئة الأحشاء والمعدة.

* «الحُتات الأصفر»، وهو مادة كانت تستورد من آنّام، واستخدمت كصبغة

صفراء، وأيضاً كدواء لتخفيف آلام البطن والصدر، وعلى ما يبدو كان عبارة عن مسحوق خشب الورد أو شيء من ذلك القبيل.

* نوع من «الكوبتيس الغربي» من سواحل بلاد فارس شكلت جذوره دواءً فاعلاً لعلاج اضطرابات المعدة والأمعاء، وأيضاً لعلاج البواسير، لكن هويته غير مؤكدة، وشاع استخدامه في شنسي وكانسو في عهد سونغ، ويبدو أن لا وجود له الآن.

* البذور السامة إلى حد ما والتي عرفت باسم «قمل الكركي»، وكانت تجلب من الغرب الأقصى، بما في ذلك بلاد فارس، وكان الأجانب يسمونها «قمل البجع»، وكانت تستخدم كمضاد للديدان الطفيلية، وأيضاً لعلاج مختلف القروح والأورام.

* خلاصة الألوة (الصبر) المرة المتبلرة، وهي عصارة نباتية إفريقية عرفت باسم «مرارة الفيل» بسبب مرارة طعمها، وكانت تعطى للأطفال المصابين بفقر الدم الناجم عن الحمى، وقيل إن ذلك النبات كان ينمو في بلاد فارس.

* فطر أبيض من مستنقعات منشوريا المالحة والمليئة بالأعشاب الطفيلية، وكان يتم استيراده من هناك ويتجرعه المصابون بداء الدودة الشريطية.

وثمة أعشاب ومواد غامضة وغير معروفة أخرى مثل نوع من الأعشاب الطفيلية (غير محددة الهوية) التي كانت تأتي مع السفراء الرهبان القادمين من شمال الهند وطوخارى ويقدم خصيصاً للبلاط، وغيرها مما سجله المتخصصون في المواد الطبية الغريبة والعجيبة مثل تشن تسانغ-تشيه، ولي هسون، ومنها «عشب يتأرجح من تلقاء نفسه دون التعرض للريح» وتضعه النساء بشكل أو آخر على أجسادهن للظفر بحب أزواجهن.

ومن بين كل العقاقير ذات الأصل الحيواني لم يصل أي منها إلى ما وصل إليه الترياق من حيث الشهرة في الصين. والترياق عبارة عن حصوة توجد في المعدة الرابعة لكثير من الحيوانات المجترة، والماعز بصفة خاصة، وقد تمتع بسمعة هائلة في الشرق الأدنى كمضاد للسموم. لكن الترياق في صين العصور الوسطى، والذي كان يسمى «صفراء الثور» لم يكن يرقى دائماً لذلك التعريف التقليدي. فبعضه (إن لم يكن أغلبه) كان تكلسات صفراوية تنتزع من مرارة الثيران. والواقع أن دور تلك التكلسات في الطب كان روحانياً أكثر منه فيزيقياً (جسمانياً)، ومن ثم فإنه ليس بمستغرب أن نقرأ عن «مادة صفراء» يتقيؤها الثور، وبداخلها «.... شيء كالفراشة تطير بعيداً». وفي الواقع فإن «صفراء الثور تهدئ النفس وتُسَكِّن الروح الأرضية، وتخلص الإنسان من العفاريت الضارة، وتضع حداً للشرور الداخلية». وكانت تلك «المنتجات الصفراوية» تُعَدُّ في الصين، وبصفة خاصة في شانتونج حيث كانت مدن كثيرة فيها ترسلها سنوياً في صناديق إلى تشانج-آن على سبيل الجزية (ومعها أواني ومعدات مطبخ حجرية، ومختلف أنواع المحار الصالح للأكل). وكانت شزوان من منتجي «صفراء الثور» أيضاً، وازداد الطلب على الترياق الصيني خارج البلاد، ووصل إلى بعيد (بلاد فارس على سبيل المثال) حيث كانت تعتبر منتجاً قيماً يستخدم كتمائم وأدوية. ومن ناحية أخرى فقد تلقت تانج في القرن الثامن كمية هائلة من الترياق الكوري من سيلا خاصة، ومن منشوريا، ونان-تشاو كذلك. ولا بد أن الحصى المسمى «صفراء الأفعى» والذي أرسلته فارخانا في عام 761 قد تسبب في إثارة بالغة.

الأولنول

لقد تمكن لي هسون من المحافظة على جزء من نص قديم يصف حيواناً يسمى في اللغة الكورية «أولنول»، وهو كما يلي:

«يأتي من مياه البحر الشرقي، ويشبه جسم الغزال، وإن كان رأسه يشبه رأس الكلب، وله ذيل طويل. وكل يوم يطفو على سطح الماء، ويطلق عليه الناس في كورونج السهام من الأقواس، وينتزعون «كُلاه الجانبية» ويجففونها في الظل، وبعد مائة يوم يصبح طعمها لذيذاً ورائحتها طيبة». والمقصود بالكلى الخارجية – بطبيعة الحال– خصيتا الحيوان. وواضح أن الحيوان المشار إليه نوع من الفقمة، أو القُضاعة (ثعلب الماء) إذا أخذنا مسألة الذيل الطويل تلك مأخذ الجد، وكان يتم اصطياده أساساً في بحر سيلا. وكان يتم تناول ذلك العقار مع الأعشاب والنبيذ لعلاج الأرواح الشريرة التي تسكن داخل البشر، وأرواح الثعالب، ومعاشرة الأشباح أثناء النوم، وأنواع شتى من الضعف الجنسي عند الرجال. ومن المحتمل أن الزَبّاد (طِيب يخرج من بعض غدد سِنَور الزّباد) والكاستور يوم (مادة زيتية يفرزها حيوان القندس) كانا يُسَوّقَان تحت الاسم ذاته، ولم يكن ثمة تمييز بين المواد الثلاث في الصين.

مرارة الأَصَلة

الأصلة ثعبان ضخم عاصر ذو ذيل أسود، وكان الصيادون يحصلون منه على غدته الصفراء في منطقة آنّام التي احتلتها الصين، ويبيعونها للأطباء في عاصمة تانج، وكان الشيء نفسه يحدث في بو–آن فيما يعرف الآن بمقاطعة كويتشو. ولقد شاهد ليو هسون (وهو من أكبر المهتمين بالحياة في الجنوب) بنفسه كيف كان «مربو الثعابين» يحصلون على ذلك العقار في اليوم الخامس من الشهر الخامس من السنة فكتب قائلاً:

«كانت الثعابين كلها في سلة كبيرة في قاعها حصيرة من أعشاب مرنة، ورقدت الثعابين عليها وهي ملتفة ومثنية. وقام زوج من الرجال برفع أحدها من السلة ووضعوه على الأرض، ثم ثبتوه بنحو عشرة أوتاد بحيث لا يتمكن من التقلب على جانبه، ثم شقوا بطنه بطول عدة بوصات أو قدم باستخدام نصل حاد، وسرعان ما انفجر كبده ومرارته، وبادروا إلى انتزاع المرارة والتي لم يزد حجمها في كل الحالات عن بيضة البط. ثم يضعون المرارة لتجف تحت الشمس متطلعين لإرسالها على سبيل الجزية. لكنهم أعادوا الكبد إلى موضعه ثم خاطوا الجرح، ثم قاموا بجمع الثعابين في السلة مرة أخرى، ويقول بعضهم إنهم حملوها بعيداً وأطلقوها في المجاري المائية والبرك».

ولقد سمع توان تشنج-شيه بتلك القصص عن الأصلة، وسجل ملاحظاته حول طريقة أسهل لاصطيادها:

«بعد أن يبتلع غزالاً، وبعد إتمام هضم ذلك الغزال يلتف الثعبان حول شجرة، وتنفذ العظام التي لم تهضم من حرافيشه. ويكون دهنه وشحمه مفيدان تماماً بينما هو يلعق جراحه تلك. ويلقي عليه بعضهم بثياب امرأة، ويلتف حولها ولا ينهض أبداً. وتوجد المرارة بالقرب من الرأس في الجزء العلوي، وبالقرب من القلب في الجزء الأوسط، وبالقرب من الذيل في الجزء السفلي».

وكما يحدث في العقاقير الأخرى فقد كانت تُطرح بالأسواق أنواع أخرى من المرارة غير النوع الأصيل، ولكن الصيدلاني الخبير كان يستطيع التمييز بينها بوضع قطعة من العقار في ماء نقي، فإذا كانت المرارة هي مرارة الأصلة بالفعل فإنها تطفو على السطح متحركة في دوائر، أما مرارة الخنزير أو النمر (وغالباً ما كانت هي العقار المغشوش) فتهوي إلى القاع.

واستخدام المرارة في الطب الصيني يربط البلاد بالهند الصينية، حيث كانت تستخدم في كمبوديا لعلاج الإسهال المصحوب بالدماء، والنزف الناجم عن

الديدان الطفيلية، وعدد آخر من الأمراض.

الشمع الأبيض

الشمع الأبيض الذي كان يأتي من آنّام هو شمع النحل الأصفر العادي الذي تم تبييضه في ضوء الشمس، وكانت له استخداماته الطبية: فتناوله مخلوطاً بالنبيذ مع بيضة يوقف النزف عند الحوامل (وهذا نوع من الوصفات السحرية؟)، كما أنه ينمي الشعر الأسود عند ظهور الأبيض.

الشّعر البشري

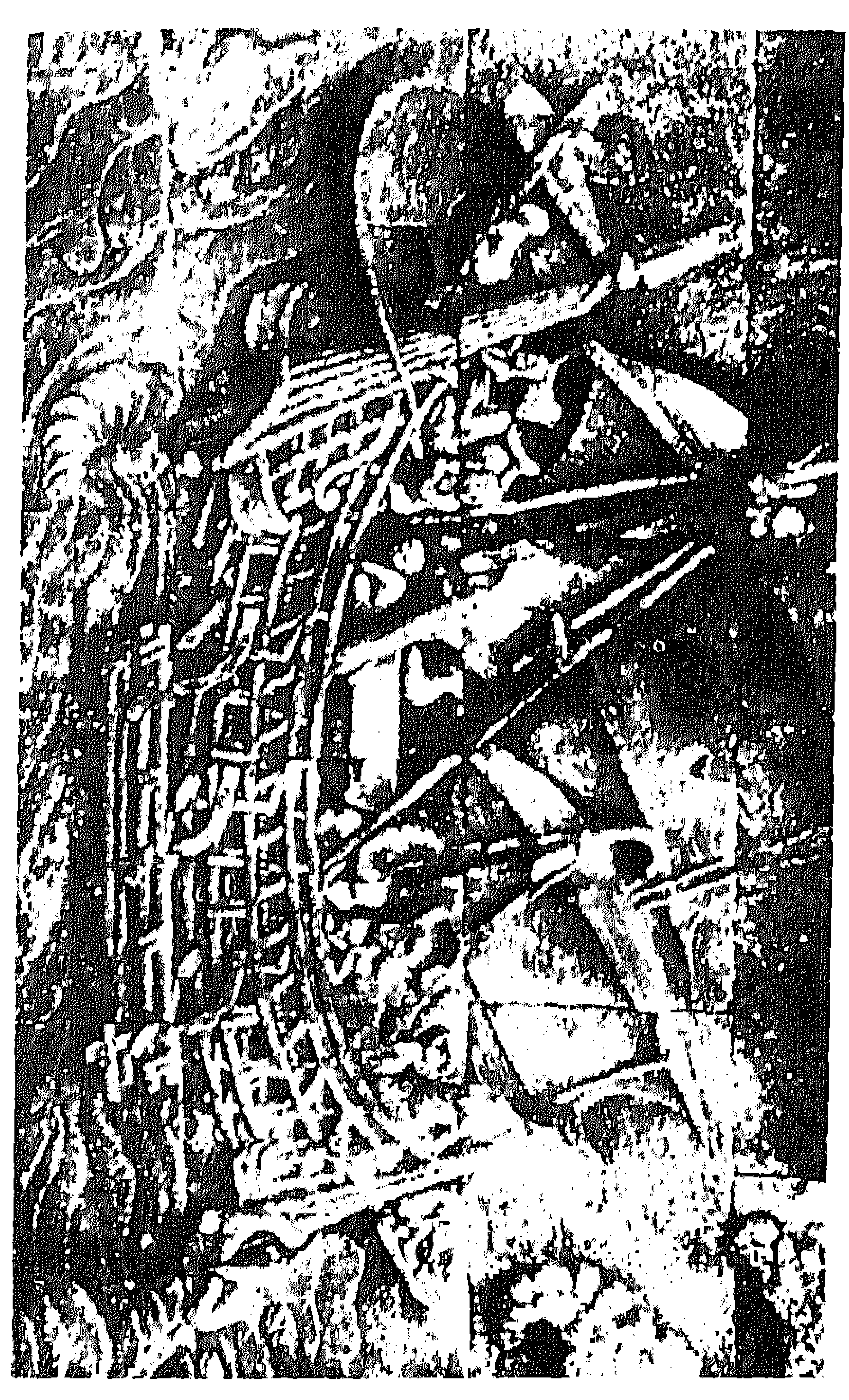
كانت كوريا ومنشوريا ترسلان كميات كبيرة من الشعر البشري إلى تشانغ-آن خلال القرن الثامن.

وقد يعجب الفرد إزاء الصفات التي جعلت الشعر الأجنبي أفضل من الشعر المحلي، وما إذا كان الشعر قد استُغِلَّ في غير أغراض الطب-السحرية، والتي يسهل تتبعها نسبياً. فالشعر البشري قوي، بل وخطير فهذا هو تشن لي-بن، وهو شقيق أصغر لتشن تشوان (وكلاهما كان طبيباً) وقد أعطي جرعة من رهج الغار لطاوي كان قد ابتلع شعراً وتحول الشعر بداخله وبشكل طبيعي إلى ثعبان. وإذا تعلق شعر إنسان حي على شجرة فواكه فلن تقترب منها طيور مثل الغربان التي تأتي على الثمار. وثمة رواية أخرى مؤداها أنه إذا هرب إنسان كانوا يأخذون خصلة من شعره ويضعونها على عربة مقلوبة، ثم يقلبونها إلى الخلف وعندها يتوه ويضل الطريق ولا يعرف إلى أين يذهب. وكل هذه الأشياء ومثلها عبارة عن تحولات مقدسة.

ويلاحظ أن غالبية الوصفات الطبية من النوع ذاته الذي وصف الحبل الذي شنق به نفسه مريض بالصرع بحثاً عن العلاج!! فالوصفات التي تنطوي على استخدام شعر الرأس تعتمد أساساً على فكرة الارتباط والاندماج والثبات. فإذا اعتاد طفل على الصياح والانزعاج يعطى رماد الشعر ممزوجاً بالزيت واللبن أو النبيذ؛ وإذا أصيب إنسان بنزف من دون سبب ظاهر يأخذ ملعقة من رماد الشعر والأظافر مذاباً في النبيذ.

الزّاج الأزرق

ثمة ملح أخضر كان ينتج في منطقة قراشهر في آسيا الوسطى وإيران، وكان يجلب إلى تانج بالسفن، وهو شبيه بكربونات النحاس الزرقاء الطبيعية، (الآزورايت)، ومثلها كان يستخدم في علاج أمراض العيون. ولا بُدَّ أن ذلك الملح كان سلفات النحاس المتبلرة، والتي كانت تعرف أحياناً باسم «الزّاج الأزرق»، ويفترض أنه كان علاجاً للرمد الحبيبي. ولقد تمكن الصينيون من تحضير بديل لذلك الدواء هو الزِّنجار الأخضر (نوع من خَلاَّت النحاس) من كل من النحاس المعدني والخل، لكن الأطباء قد حذّروا من استخدامه.



(١) «.... كانوا يبحرون عبر مضيق مالاكا صوب أراضي الذهب، سوفارنا بومي، جزر الهند الشرقية الأسطورية» (ص 43) [لوحة على البارز، بوربودرو، جاوه].



(2) «لا يستطيع أحد أن يخمن الأصناف التي كانت ترد على سبيل الجزية، ولا أي رموز للخضوع كانت تقدم للإمبراطور الصيني...» (ص68) [ين لي –بن، «سفير أجنبي قادم ومعه الجزية»، وربما كانت نسخة لاحقة].



(3) [ين لي-بن، «مبعوث أجنبي لدى وصوله لتقديم الجزية»].



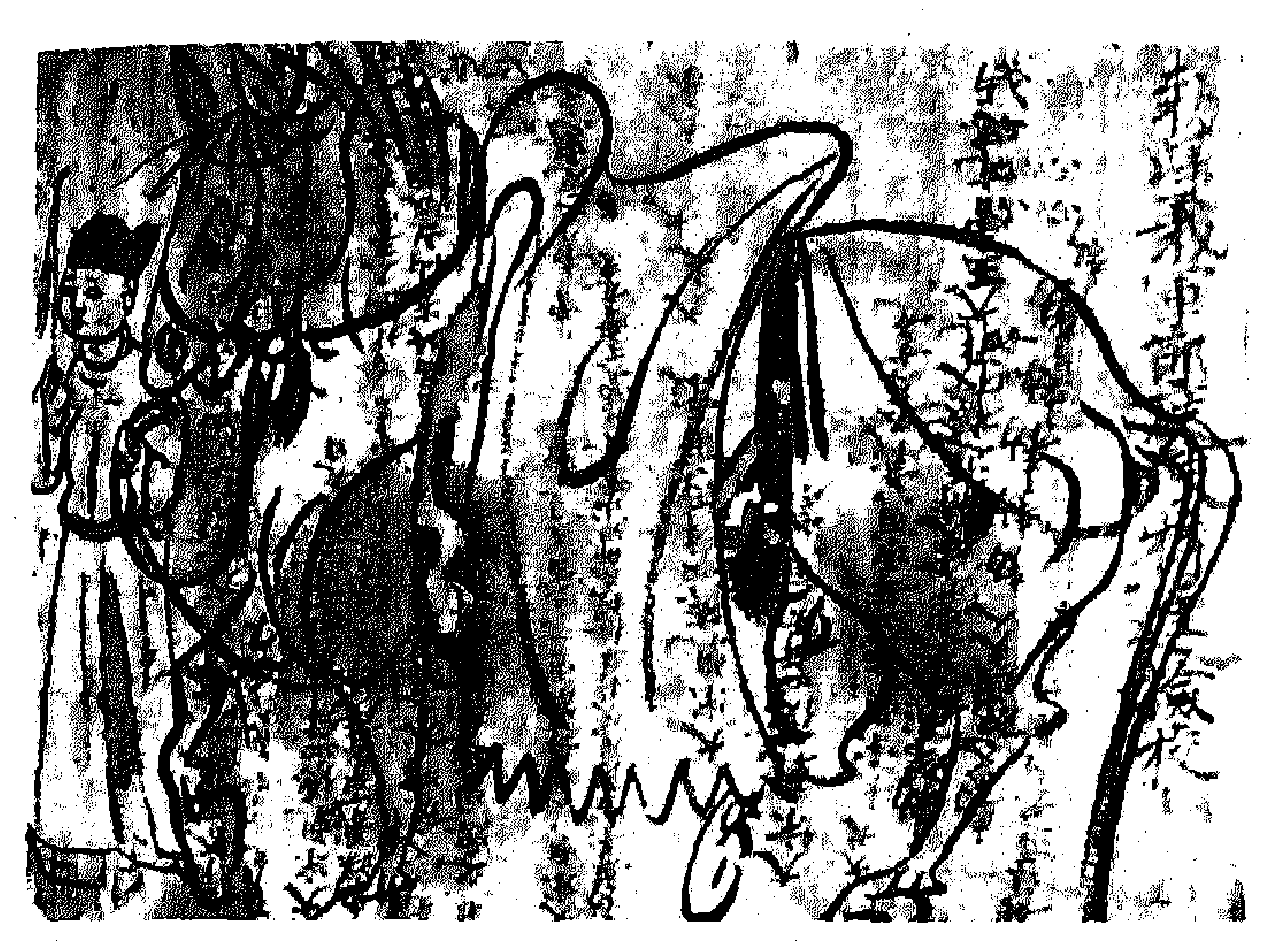
(4) «... جنات البوذية التي تستعصي على الوصف، مثل بلاد الخيال البعيدة»، (ص79)
[تون –هوانج، لوحة جدارية للجنة].



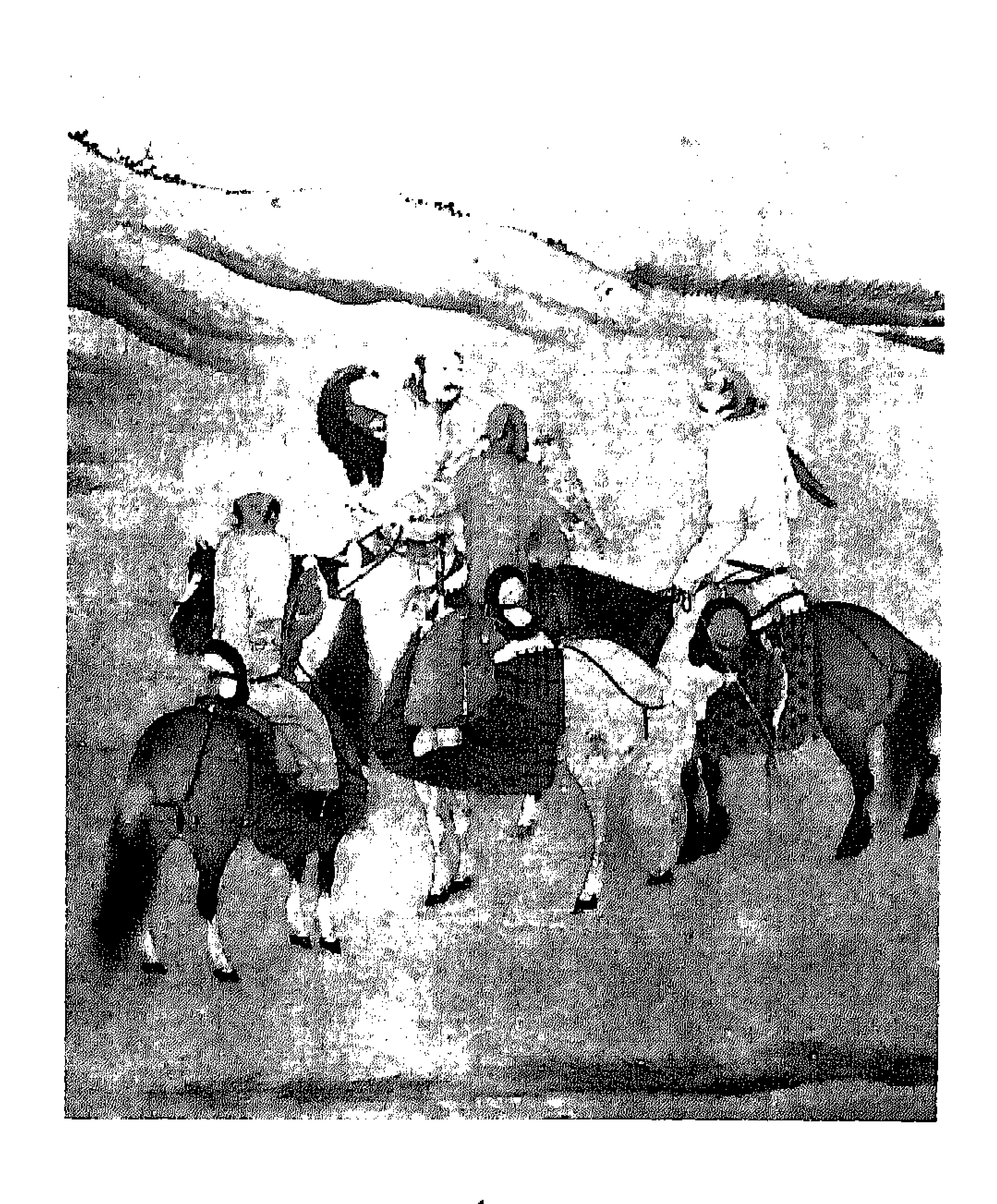
(5) «وقيل إن بلادهم غنية باللآلئ والجواهر الفوسفورية» (ص109) [قزم منحوت من الخزف].



(6) «في لو—يانج، وفي بيت تلو بيت كانوا يدرسون الموسيقا الغربية (ص114) [تون هوانج، لوحة جدارية للأوركسترا السيرنديي].

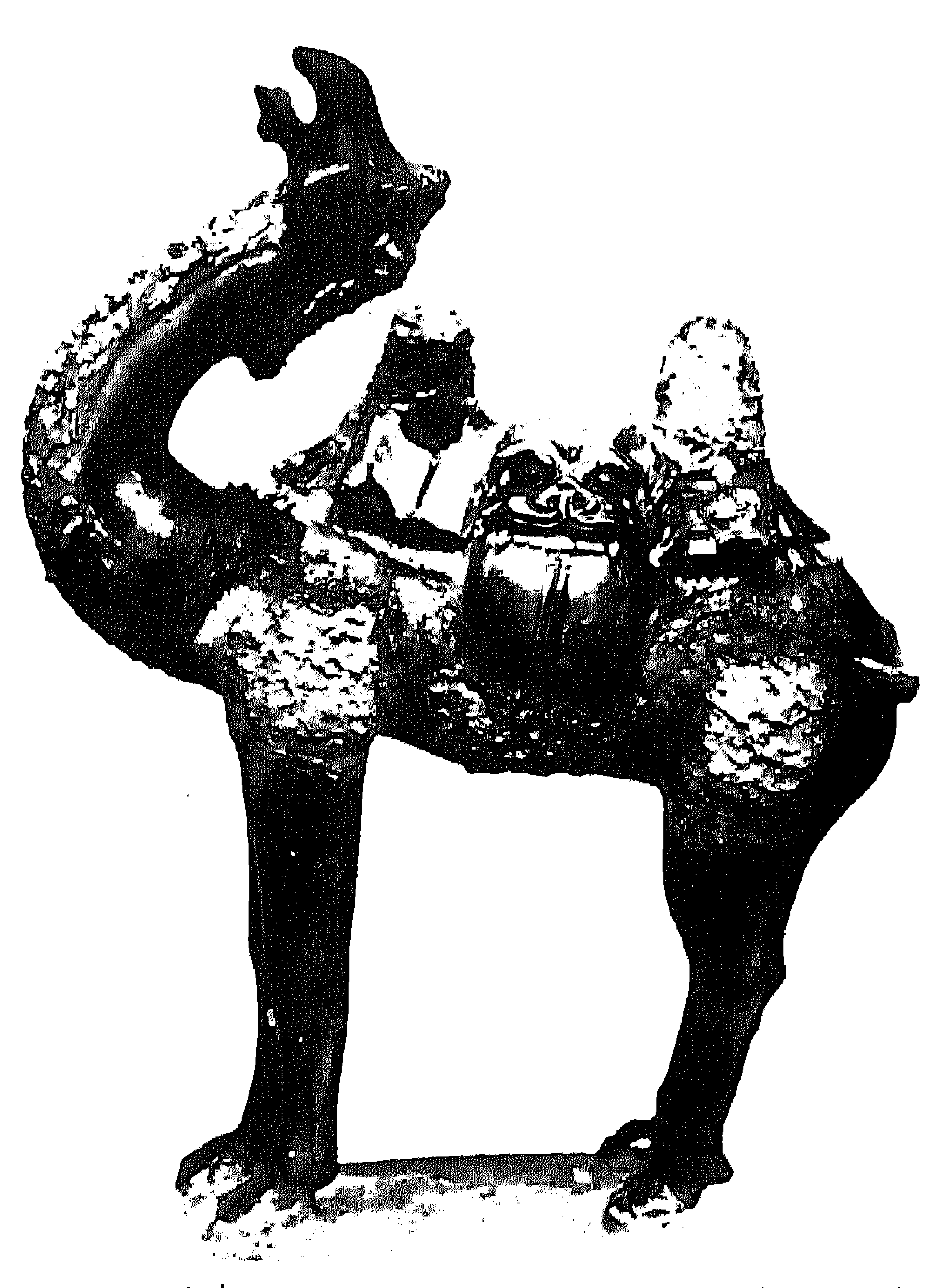


(7) «.... وقد ظهرت عليه علامات تدل على أصله المقدس» (ص131) [مخطوطة تون هوانج، رجل يقود حصاناً عليه سرج مزركش].



(8) «.... وكان ارتباطها بالشمال أكثر واقعية نظراً لكونه موطنها الطبيعي، وموئل البرابرة الذين أحضروها للصين».

(ص199) [هو كوي «الخروج للصيد»].



(9) «وغصت المدينة القديمة بالإبل القادمة من الشرق» (ص155) [جمل مُحمّل/ مجسم خزفي].



(10) «حيوان من ذوات الحوافر الغامضة (ص187) [تشو فانج، هدية غريبة من بلاد خاضعة وتقدم الجزية].

(١١) «والمخلوق المقدس يُرى جالساً... على زهرة لوتس صفراء» (ص265).
[تارا أو أڤالوكيتسڤارا جالساً على زهرة لوتس صفراء].





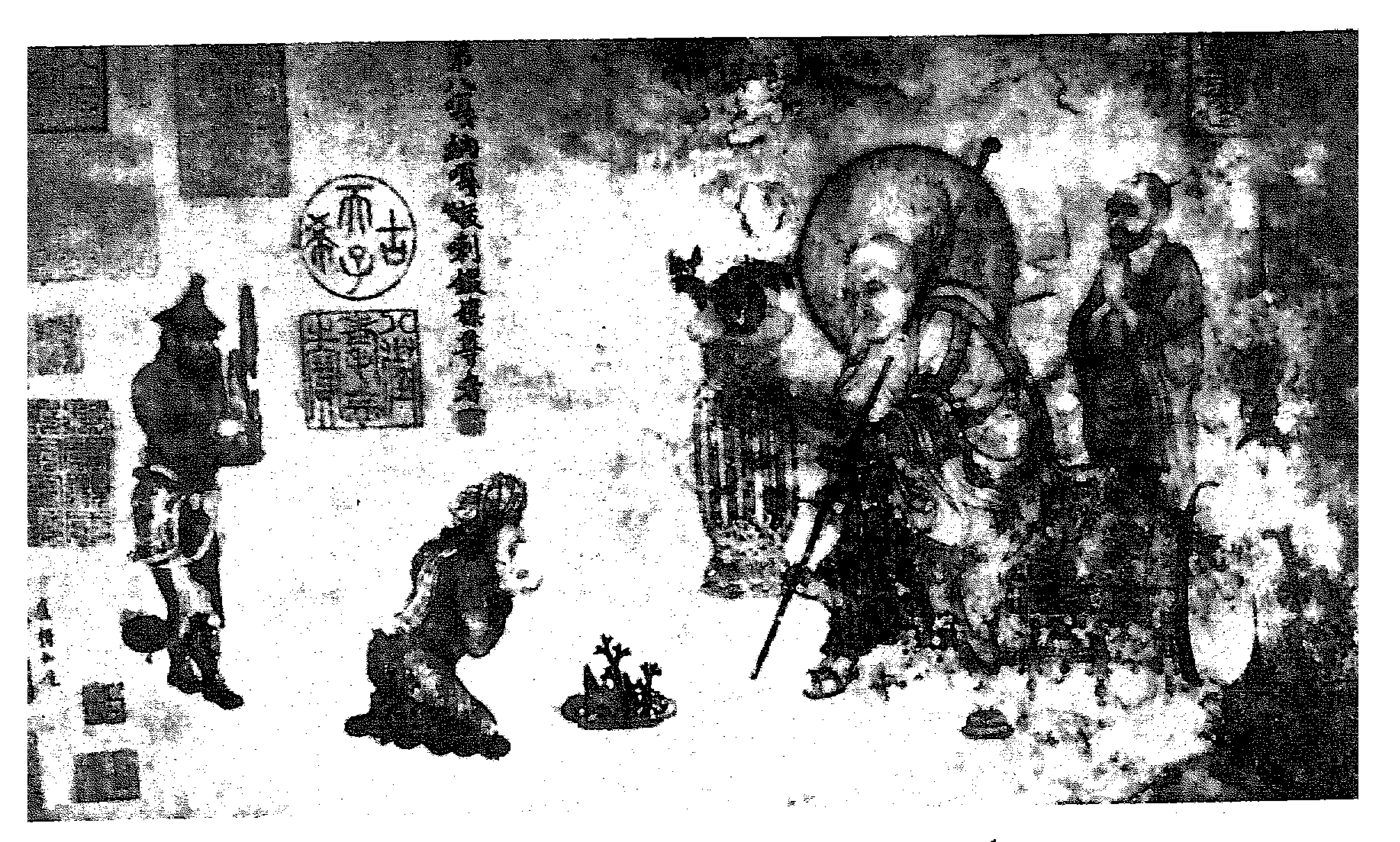
(12) «ويضاف إلى ذلك أن الرومان، والعرب، والأتراك الأجهوريين في سيرنديا كانوا من كبار زراع الكروم وشاربي النبيذ» (ص290) [شكل خزفي يبين تاجراً يمسك بقربة مليئة بالنبيذ].



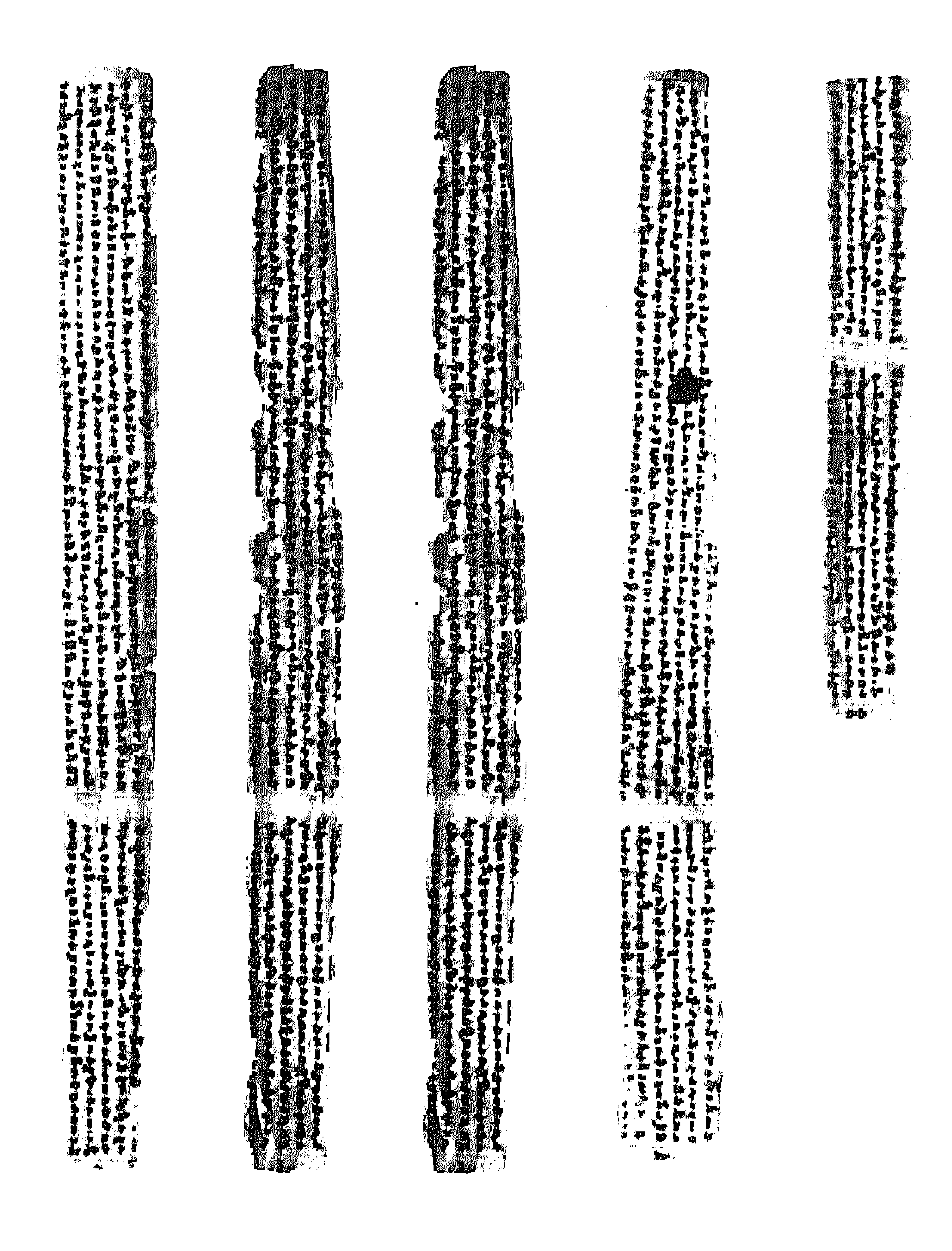
(13) «استخدم الصينيون مباخر ذات مقابض طويلة منذ عهد هان» (ص327) [«كوان–ين كدليل للأرواح»].



(14) «وكان ثمة نوع من المباخر الشعبية تتحوّر على هيئة طائر أو حيوان ...» (ص 327) [مبخرة على هيئة فيل].



(15) «... كانت تبدو أشجاراً حقيقية من بلاد الخيال...» (ص506) [لو لنج-تشيا، «أجانب يقدمون أشجار المرجان لآرهات»].



(16) «بعض النصوص الدينية الموغلة في القدم على أوراق الباترا (ص563) [براجنابارا ميتا في نص ديني نيبالي على جريد النخل من تون–هوانج].

«معلّقاتي جلها..
من مطرزات صُور وأنسجتها..
ففي صندوق العاج أودعت تاجي..
وفي صناديق السّرو وضعت أثوابي..
والملابس والخيام والقباب الباهظة..
وفيها أقمشة الكتان الفاخرة..
ووسائد تركية باللآلئ مرصعة..
وستائر البندقية بالذهب مطرزة»
وليم شكسبير، «ترويض النّمرة-الفصل الثاني-
المنظر الأول.



الفصل الثاني عشر

المنسوجات



المنسوجات

تقول إحدى الروايات إنه عندما حضر ممثلو «بلاد إناث برابرة مان»، ومن بينهم بودساتاڤات أميريون في منتصف القرن التاسع لتقديم الهدايا للقصر في تشانج–آن، كان من بين ما حملوا «منسوجات مطرزة في لون سحب الغروب المتوهجة»:

«ولقد أكدوا أن تلك المنسوجات قد صنعت من ليف مائي فاخر وعَطِر، وكان يلمع ويُشع وتفوح منه رائحة طيبة، وإذا أضيفت إلى تلك المزايا ألوانه الخمسة المتداخلة فإنه يكون أجمل بكثير من أي مطرزات تأتي من ولايتنا الوسطى».

ويبدو أن تلك المنسوجات الرائعة التي أهدتها النسوة ذات الخرز كانت تحويلات خيالية لتلك المنسوجات التي كانت تسمى «سحاب شروق الشمس»، والتي كانت تأتي من إندونيسيا والهند الصينية –وهي عبارة عن منسوجات قطنية فاخرة، وسوف نتحدث عنها بالتفصيل لاحقاً.

وتشهد فكرة أنه بالإمكان الحصول على منسوجات أروع وأجمل وأثمن مما كان –ينتج في عهد تانج– تشهد على إسراف وترف سو أو، وذلك لأن الصين في ذلك الوقت كانت موطن ومركز أفخر وأعظم المنسوجات والمطرزات.

وكان الحرير هو المادة الشائعة لصنع المنسوجات في عهد تانج، سواءً كان الحرير ذا الخيوط الطويلة التي يحصل عليها من شرانق ديدان القز المنزلية، أو الحرير ذا الخيطان القصيرة المتقطعة الذي كان يحصل عليه من شرانق ديدان القز البرية، والذي كان يتعين غزله إلى خيوط متصلة. كذلك كان هناك بعض الألياف التي تستخرج من الخضروات والتي كانت تصنع منها منسوجات عادية وفاخرة، بما في ذلك نباتات الرامي (قنّبْ سيام)، والقِنّبْ، والموز ، والخيزران. أما الصوف فقد

كان المادة الأساسية لصنع اللباد في الشرق الأقصى، وكانت المنسوجات الصوفية من سمات الثقافة الإيرانية.

ولقد كان عدد المنسوجات التي تصنع من تلك الخيوط كبيراً للغاية، الأمر الذي يتضح من القائمة الرسمية للأصناف التي كان يُوَرِّدُها المكتب الإمبراطوري للنسيج والصباغة، حيث تضمنت البونجي (الحرير الطبيعي)، والدِّمقس (الحرير الأحمر الضارب إلى الرمادي)، والشاش، والشبك والمنسوجات الكتانية والصوفية، وخمسة أنواع من الأحبال والشرائط، وأربعة أنواع من الخيوط المغزولة وحرير التُّوسَة.

ومن أشهر منسوجات عهد تانج التويل الملتحم (نسيج قطني متين مضلع منسوج عرضاً/المترجم). ويرى بعض الباحثين أن ذلك قد جاء من الغرب حيث كان هذا الفن النسيجي معروفاً منذ العصور القديمة، وكان من أهم أركان صناعة النسيج في ساسانيا. وفي الصين القديمة لم يكن هذا النوع من النسيج شائع الإستخدام، وإن شاع استخدام الخيوط المجدولة. والحرير الساتان اختراع تانجي، وهو نوع من التويل الملتحم وفيه تغطى اللُّحْمة بخيوط مجدولة دقيقة كثيرة. وفي الواقع فإن كثيراً من المنسوجات ذات الأنماط الجميلة والتي كانت تسمى «مطرزات» لم تكن سوى الدِّمَقْسْ ذي الألوان المتعددة، وغالبيته من التويل الملتحم والذي كان بعضه لا يزال يصنع بأسلوب الجدل القديم. ومع ذلك فقد كانت تُنتج في عهد تانج مطرزات أصلية لُفَّت خيوطها الحريرية في أوراق ذهبية. وعلى ما يبدو فإن المنسوجات ذات الصور والرسوم قد دخلت إلى الصين في القرن الثامن عن طريق الأتراك الأجهوريين.

وفي عهد تانج كانت المنسوجات المطبوعة سلعة مألوفة، وإن كانت هذه قد صنعت بالطرق «السلبية»، حيث كان الرسم أو التصميم يحفر في قوالب خشبية ثم يضغط النسيج بينها، وتصب الصبغة في الفجوات، وهو أسلوب عرف منذ

القرن الثامن، ويتناقض مع أسلوب الطباعة الشمعية التقليدية الذي ساد في الهند والغرب.

وكمثال على الترف الشديد في المنسوجات في عهد تانج هناك «شبكة عصفور كونج»، أو «شبكة الطاووس» كما سماها بعضهم، وهذا نوع فاخر من المنسوجات المتقزحة كان ينتج في هنج-تشو في هوبيه، وكان القماش المفضل لدى السيدات ذوات الذوق الراقي والمحبات للترف منذ القرن السادس.

ولقد كان أحد «المطالب العشرة» التي تقدمت بها فاتنة البلاط سِوى (وكان ترتيبها السادس هناك) لحبيبها:

«إزار مصنوع من شبكة عصفور كونج،
احمر وأخضر ممتزجان ومتناقضان،
يلمع كما لو كان حراشيف التنين،
واضح وبراق، غريب مثير للإعجاب:
املس أم خشن-انت الذي يعلم يا سيدي
أطلب منك أيها الشاب رداءً ونطاقاً!!».

وكانت المراكز الكبرى لصناعة النسيج في عهد تانج تتركز حول مصب نهر اليانجتسي، وفي شزوان. ففي بعض تلك المناطق تجمع العمال بأعداد كبيرة ناصبين أنوالهم لإنتاج كميات كبيرة من المنسوجات الفاخرة التي كان يطلبها الأغنياء من كل أنحاء الإمبراطورية. ويقال إن سبعمائة نساج كانوا مكرسين كليةً لإنتاج المنسوجات التي تحتاجها السيدة يانج-سيدة القصر المفضلة.

ومن حين لآخر كانت تلك الصناعة الهائلة تتعرض للهجوم، ومن ثم كانت تتقلص على أساس أنها كانت مفسدة للأخلاق العامة. ففي عام 771 -على سبيل المثال- أصدر تاي تسونج مرسوماً بوقف إنتاج أنواع معينة من المنسوجات ذات

الأشكال المعقدة، بما في ذلك الدمقس ذو اللون الواحد وذو الألوان المتعددة، والشاش المنمط، وذلك للسبب نفسه، وأيضاً لأن هذا العمل التفصيلي الدقيق «يضر بالصناع من الإناث». كذلك فقد منع رسم صور التنين، والعنقاء، والكركدن، والأسد، والطاووس، والخيول السماوية، والأعشاب المقدسة على المنسوجات ولكن المرسوم قد استثنى «... المنسوجات المقصبة العادية من كوريو، والمنسوجات المقصبة ذات الألوان المختلطة، والدمقس المطبوع عليه أشكال صغيرة وما إلى ذلك، ووفقاً للتقليد القديم». وفي عام 829 صدر مرسوم مماثل عن وين تسونغ وذهب إلى أبعد من ذلك بكثير حيث أمر بحرق كل الأنوال والأمشاط التي تنتج منسوجات مبهرجة أو تافهة، وذلك في اليوم الأول من السنة الجديدة.

ومن الغريب أن نجد نوعاً من النسيج الكوري (إذا كان ذلك حقاً أكثر من مجرد اسم وصفي) بين المنسوجات التي سمح تاي تسونغ بتداولها. فعلى ما يبدو فإن النزعة تجاه كل ما هو غريب وعجيب لم تضر في كل الأحوال بالروح الصينية. فعلى الرغم من تفوق صناعة النسيج في عهد تانج (وربما كان بسببها حيث أنها قد شجعت على الاهتمام بالسلع النادرة) فقد تم استيراد الكثير من المنسوجات الأجنبية، وبالتالي فإن الصين في عهد تانج -وقد كانت الممون الأكبر للسلع الفاخرة لآسيا كلها- قد تأثرت بتلك السلع الأجنبية بينما ظلت تُصدر منتجاتها التي بدا عليها تأثير الأفكار الغريبة والعجيبة الآتية من الخارج. وهكذا ليس بمستغرب أن المنسوجات الجميلة المحفوظة في متحف الشزوين، وفي متحف هوريجي في نارا باليابان، وما يقترب كثيراً مما عُثر عليه في طُرْفَان في آسيا الوسطى، تعرض الصور والرموز والتصميمات التي شاعت في بلاد فارس الساسانية، وقد تم تطويعها تماماً للثقافة التانجية. فعلى سبيل المثال فإن واحدة من المنسوجات في متحف هوريجي تأخذ نمطاً دائرياً، وداخل كل دائرة أربعة من الملوك الساسانيين على صهوات الجياد ويحملون الأقواس والسهام، لكن ثمة حروف صينية على أجناب الجياد. وفي قصيدة مرسلة ترجع إلى نهايات القرن

الثامن وعنوانها «قصيدة حول المطرزات التي يقدمها الرجال القادمون من أعالي البحار» نجد وصفاً لطيور العنقاء الراقصة، «... ذات تويج مزدوج، وأوراق في طبقات متداخلة معها بشكل منتظم بحيث تشكل نمطاً». والحيوان الذي يظهر في لفة أو دائرة زهرية من تصميم إيراني بحت، ولا بد أن تلك الهدايا الملكية كانت تحاكي المطرزات التانجية المعروفة والتي كانت تظهر صوراً للعنقاء في دوائر زهرية.

حُلّة من ذهب

لعل الافتراض قائم تقريباً بأن كاو تسونج قد رفض هدية مترفة للغاية عبارة عن حُلّة من الذهب كان قد قدمها له سفراء من طوخارى في أوائل عام 682.

المنسوجات الصوفية

اشتهرت تركستان في العصور الوسطى بمنسوجاتها الصوفية، وكانت تلك المنسوجات مألوفة تماماً في عهد تانج (فقد وردت إشارات عديدة إليها في الشعر– على سبيل المثال)، ولكن يبدو أن استيرادها كان قاصراً على السجاد والكليم.

وفي الحقيقة فقد كانت هناك صناعة صوف محلية، وربما كانت قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي من حيث الأغراض التي تخص الصينيين. لكن الأقمشة الصوفية (أو الشعرية على وجه التحديد) كانت استثناءً –أقمشة مصنوعة من فراء القضاعة (ثعلب الماء)، وهذه كان التبتيون يرسلونها في القرن التاسع مع أشياء ثمينة أخرى مثل ذيل الياك والأواني الذهبية. وعلى الرغم من أن هذا القماش كان من الأشياء الغريبة العجيبة فإن القضاعة ذاتها لم تكن كذلك، وكانت تعرف باسم «ألبكة تانج؟»، وثمة رواية عن صياد سمك كان لديه عشرة منها، وكان قد دربها على صيد الأسماك حتى تقوم هي بالعمل بينما يستريح هو.

ولقد كانت الأصواف التانجية المحلية في مثل غرابة الأصواف التبتية، فقد

كانوا يصنعون قماشاً صوفياً من فراء الأرانب في هسوان–تشو بالقرب من مصب نهر يانجتسي، ومن وبر الإبل في كانسو (هِوي–تشو) وفي الأوردوس (فنج–تشو). وعلى ما يبدو فإن الصينيين كانوا قد تعلموا فن تلك المنسوجات من الشعوب الإيرانية في الغرب.

الكليم (السجاد الصوفي)

في عام 726 أرسل ملك بخارى رسلاً إلى تانج يطلب المساعدة ضد العرب الغزاة، وقد أحضر هؤلاء معهم عدداً من الهدايا الثمينة مثل الزعفران، و«العسل الحجري» و«سجادة رومانية مطرزة». كما أرسلت زوجة الملك «القاطون» إلى الإمبراطورة الصينية كِلمين كبيرين وسجادة مطرزة، وفي المقابل طلب من هسوان تسونج إهداء سرج ولجام، ورداء وحزام وغيرها من الرموز الملكية إلى سيد بخارى، وفستان ومستحضرات تجميل لزوجته.

كذلك فقد أتت إلى تشانج–آن أكلمة أخرى في القرن الثامن بما في ذلك «حصائر الرقص»، وكانت هذه هدايا من ملوك كابيسا، وميمارغ، وطورجاش، وتشاش، وكيش. ومن بين «حصائر الرقص المطرزة» التي أتت من بلاد فارس إلى عاصمة تانج في عام 750 ما وصفت بأنها «طويلة الشعر» و«كبيرة الشعر»، وهذه إشارات واضحة للأكلمة ذات الشعر الكثيف العميق على غير العادة. وربما كانت «حصائر الرقص المزينة بأفاع مذهبة (والتي وصفها لي هُو في إحدى قصائده)– ربما كانت ذات أصل إيراني، وإن كان الشاعر نفسه قد أشار في قصيدة أخرى إلى كليم إيراني بحت وإن سمي باسم صيني–فارسي هو «تاب–تانج»، ولنا أن نعتقد أن هذه كانت شائعة في بيوت الأغنياء في القرنين الثامن والتاسع. وقصيدة «أغنية لحورية من القصر» جديرة بالترجمة، ومنها يفهم القارئ أن «حارس القصر» كان

سحلية، ووفقاً لرواية قديمة فإن تلك السحالي الصغيرة (الأبراص) كانت تغذى على الزِّنجفر (كبريتيد الزئبقيك الأحمر) حتى يصبح لونها أحمراً، ثم تسحق في هاون، ويستخدم السائل الناتج في وضع بصمات على محظيات الإمبراطور، وهذه لا تتلاشى -هكذا كانوا يعتقدون- إلا بالاتصال الجنسي، ومن ثم يعرف الإمبراطور (ابن السماء) مدى إخلاص نسائه له، ومن هنا جاءت التسمية «حارس القصر». وتوجد «النجوم السبعة» في «الدب الأعظم». وهذه آي-تشن التي كانت إحدى المحظيات المفضلات لدى حاكم من القرن الثالث والحورية في القصيدة المشار إليها تقصد القول بأنها وحيدة وتعيسة مثل سيدة من عصر سابق. «والجزيرة الطويلة» اسم لحديقة. وهكذا فإن القصيدة تمزج بين صور قديمة وأخرى معاصرة:

«ضوء الشموع المدلاة من أسقف عالية يطلع من
خلال الشاش؛

في الغرفة المليئة بالزهور، وليلاً يسحقون حراس
القصر،

ويضخ الفيل من فمه بخوراً، ويصبح السجاد
دافئاً؛

وتتعلق النجوم السبعة فوق أسوار المدينة، وأسمع
رنين الساعة المائية

ويتخلل البرد الستارة الحريرية، وظل البازيلكا
أسود اللون؛

وعتبة الستارة بسماريخها الملونة تظهر علامات
الصقيع.

ويصيح الجُدْجُدُ ناعياً القمر تحت السلم المتعرج؛

وتحبسني الأبواب بأقفالها مثل آي-تشن.

وفي الأحلام أدخل من باب منزلي، وأصعد

الجزيرة الرملية؛

عند المكان الذي ينبع منه نهر السماء، فهو
الطريق إلى الجزيرة الطويلة.

وأود لو أن سيدي ساطع متلألئ كالسيد
الأعظم،

يطلق سراح محظيته حتى تركب سمكة إلى بعيد
تحت الأمواج».

الأسبستوس (الحرير الصخري)

كان كلٌّ من الرومان والصينيين على دراية بالصفات الرائعة للأسبستوس منذ بداية العهد المسيحي تقريباً. ولقد اعتبره قوم هان من المنتجات الرومانية، وكم كانوا على صواب نظراً لأن ذلك الليف المعدني كان شائعاً عند الرومان الذين اعتقدوا هم أيضاً أنه يأتي من نوع من الصخور. وها هو أبولونيوس دايسكولوس قد كتب عن مناديل الأسبستوس فقال:

«عندما تتسخ تلك المناديل فإن تنظيفها لا يكون بغسلها، وإنما بوضعها على حطب مشتعل، ويتبدد الاتساخ ويخرج المنديل نظيفاً ناصعاً».

ولقد قيل إنه كان لهذا العرض الطبيعي الذي تفاخر به الرومان نظيره في الصين في القرن الثاني، إذ يحكى أن رجلاً قد وَسَّخَ عمداً رداءه المصنوع من الأسبستوس ثم ألقى به في النار بغضب مفتعل، ثم ما لبث أن أخرجه نظيفاً نقياً. والواقع أن تلك الروايات ومثلها تفسر الاسم الصيني لذلك النسيج المعدني، وهو «القماش الذي يغسل في النار». وكذلك فقد كانوا يسمونه «الشعر الناري» وهذا اسم يعكس نظرية أخرى (وإن كانت زائفة) حول أصل تلك المادة. ففي الشرق المتأغرق (ما

بعد الاسكندر الكبير) اعتقدوا أحياناً أنه من أصل نباتي، مثل القطن،ولكن في الصين وحتى القرن السادس، وبعد ذلك في بلاد العرب كانت أكثر النظريات شيوعاً هي أن الأسبستوس فراء فأر السّمندر (السّمندل، وهو حيوان من الضفدعيات زعم أنه قادر على العيش في النار/المترجم)، وأحياناً ريش العنقاء الذي كان ينظف ويتجدد بالنار.

وكان من بين الهدايا الفارسية التي وصلت إلى إمبراطور تانغ في عام 750 «حصيرة رقص مطرّزة من شَعر ناري»، أي (على سبيل الافترض) حصيرة مصنوعة من صوف السمندر. ويستدل من قصيدة تعود إلى الفترة ذاتها أن الأسبستوس كان يستخدم أحياناً في صنع الملابس، فقد جاء فيها وصف لملابس أحد الأرستقراطيين الأثرياء:

«رداء واحد يغسل بالنار، وله ياقة مربعة مطرزة؛
وحزام من خشب الكلب المقصب، مرصع
بالجواهر، وبه محفظة»

ويبدو أن الأسبستوس قد ارتبط بلنجنان بصفة خاصة، وربما كان ذلك بسبب كثرة استيراد التجار له هناك. ففي قصيدة حول تلك المنطقة للشاعر يوان تشن (في أوائل القرن التاسع) يرد وصف مثل تلك الأصناف: الساجو، والإليمي وغيرها:

«قماش النار يغسل بالنار عند اتساخه،
الزغب ناعم ودافئ،
وهو الأنسب لتبطين الملابس».

ولقد كان «زغب الشجر» أي القابوك (كتل ألياف حريرية تكتنف شجرة السيبة وتستعمل لحشو الوسائد/ المترجم) كان من المنتجات الجنوبية المعروفة.

اللّباد

منذ نهاية حكم أسرة تشو كان الصينيون قد عرفوا فنون صنع اللِّباد، وإن اعتبر ذلك النسيج مادة بربرية (أجنبية) في عهد هان. ويبدو أن الموطن الأصلي لتلك الصناعة كان إيران حيث كان المجوس وملوك الأخميم يعتمرون قبعات عالية مصنوعة من اللِّباد، وكذلك فعل مقلدوهم في سوجدانيا في عصور لاحقة.

وحتى في عهد تانج لم يكن اللباد منتجاً صينياً خالصاً على الرغم من شيوع استخدامه في صنع الستائر، والمفروشات والخيام، والسجاد، والأغطية، والسروج، والأحذية الطويلة وغيرها. وبشكل ما كان اللباد مقترناً بالقوم الرُّحَّل، شأنه شأن الزُّبْد، وهو ما يؤكده الوصف التانجي لوجود حياة الرحل (البدو). فقد كان كبار الضباط التبتيين يعيشون في خيام كبيرة مصنوعة من اللباد، وكانت كل خيمة تتسع لعدة مئات من الرجال. لكن الملك سرونج –بتسان– سجام–بو «قد تخلى عن لبَّادته وردائه المصنوع من الفرو وارتدى ثياباً مصنوعة من حرير صيني مطرز، وذلك لإرضاء عقيلته»، وقد كان ذلك بداية لاتجاه عام ظهر في القرن السابع. وبعد ذلك بعدة سنوات في عهد كاو تسونج طلب التبتيون صناعاً للحرير الخام والنبيذ، والورق والطحين والأحبار، وأجيبوا إلى طلبهم. وكان القيرقيزيون ذوو الشعر الأحمر والعيون الزرقاء (وكانوا يعتبرون الشعر الأسود شُؤماً) يحملون في أحزمتهم أحجاراً للشحذ (مشاحذ)، ويضعون على رؤوسهم قبعات مصنوعة من اللِّباد الأبيض. وكان الأتراك قد صنعوا صورة إلههم من قطعة اللباد، واحتفظوا بها في كيس جلدي، ولصقوا أطرافه بمراهم عطرية، وحملوه معهم أينما ذهبوا، وكانوا يعلقونه على عامود في أوقات العبادة.

وكانت الأحذية الطويلة تصنع من اللباد في تشانج–آن ذاتها، وكان اللباد الأحمر يأتي من كوشا، بينما كان اللباد الأبيض من منتجات كانسو والأوردوس الصيني.

وفي أوائل القرن السابع أطلق تشانج-سون وُو-تشي (وهو الذي وضع قوانين تانج)- أُطلق صرعة انتشرت سريعاً بين الرجال، وهي ارتداء قبعات مصنوعة من اللباد المنسوج من صوف أغنام سوداء. من بين الهدايا الثمينة التي بعث بها هسوان تسونج إلى روخشان «لباد مطرز بريش الإوز».

وباختصار فإن اللباد كان شائعاً في شمال الصين مثلما شاع الصوف الاسكتلندي في إنجلترا، وذلك على الرغم من ارتباط اللباد -ذهنياً على الأقل- بالبدو المتوحشين راكبي الخيول.

الكِتّان

إذا كان يقصد بالكتان أوسع ما يعنى (أي ذلك النسيج الذي يصنع من غزل لخيوط من ألياف نباتية) فقد كان لدى الصينيين الكثير من المنسوجات الكتانية الفاخرة خاصة تلك المصنوعة من القنّب، والرامي (قِنّب سيام)، والكودزو. ومع ذلك فقد كانوا يستوردون كميات من الكتان، وبصفة خاصة «الكتان الغربي (هو) لاستخدام النساء»، وكان يأتي من الأوردوس ومنغوليا، ومن بعض المقاطعات الصينية ذاتها مثل شنسي، وشانسي. وعلى الرغم من أن الاسم يوحي بأن صناعه كانوا من غير الصينيين فإننا لا نعلم أي نوع من الخيوط تم استخدامها. ومن سيلا ومنشوريا القريبة منها أتى نوع غير محدد من الكتان (ويبدو أنه مصنوع من ألياف القِنّبْ)، وفي هذا الصدد فإن القماش القطني يتلاءم مع تعريفنا لكلمة «كتان»، حيث كان الصينيون يعتبرونه من المرتبة نفسها في عالم المنسوجات. ولكن تلك قصة أخرى.

الڤارناكا

يستدل من كلمة «ڤارناكا» الهندية أنها اسم لنسيج ملون من إنتاج «براهمان الصغرى»، وهي بلاد يسكنها قوم نباتيون، وتقع وراء بيو في بورما مباشرة. كذلك فقد كان نسيج الڤارناكا يأتي إلى تشانج-آن من سمرقند في القرن الثامن. وعلى الرغم من أن النصوص التانجية تخبرنا عن «ڤارناكا أبيض اللون» —من بغداد (وفي هذا تناقض على ما يبدو)، و«ڤارناكا عليه حروف من ذهب» من روما، فإنه ليس ثمة إشارة إلى طبيعة ذلك الكتان «الملون» (نوع من القطن؟) في عهد تانج.

البونجي

وعلى الرغم من أن الصين في عهد تانج كانت تعرف باسم «بلاد الحرير»، فقد كانت تقبل بعض الحرير الأجنبي. ففي أوائل عام 839 عبرت البحر الأصفر شحنة من الحرير الخام (يمكن تسميته بالبونجي للتسهيل)، وكانت هدية من حاكم اليابان لابن عمه حاكم تانج. ويُعتقد أن هذا النوع من النسيج كان الأنسب لرسامي البلاط حيث كانوا يرسمون لوحاتهم عليه.

البومبيساين (حرير التوسة)

كان لدى تانج وغيرها من بلدان الشرق الأقصى نوع من الحرير المصنوع من البومبيساين أو التوسة الذي يغزل من البقايا الحريرية التي تتركها عِثّة التوسة البرية وهي تشق طريقها خارجة من شرانقها. وقرب نهاية القرن الثامن كانت نان-تشاو تقدم حرير التوسة التبتي كجزية لتانج. ومن كل من آنّام واليابان جاء ضمن الجزية نوع خشن من البومبيساين، أو الحرير الشانتونجي. وكان الشانتونج الياباني

من نوعين، وكان لكل نوع مائتا طول، وكان أحدهما يعرف باسم «كوني» أو منتج في مقاطعة مينو، والآخر باسم «النسيج المائي»، وهي تسمية يكتنفها الغموض، وتأخذنا إلى عالم «ديدان القز المائية» والتي سوف نتحدث عنها لاحقاً.

ولكن دعونا أولاً ننظر إلى بعض أنواع التوسة الواردة من سيلا. ففي مناسبات عديدة خلال القرن الثامن كانت تلك المملكة الكورية تقدم منسوجات تسمى «سحب الفجر»، و«ناب الأسماك». وكان النوع الأخير يأتي أيضاً من «مو—هو ذات المياه السوداء»، وشيه—وي. ويشير الاسم «سحب الفجر» إلى اللون الوردي الساطع للسحب البيضاء عندما يتسلط عليها الضوء من أسفل، وكان ذلك نعتاً يخلع على القماش القطني الشعبي المستورد من جزر الهند (الشرقية). ويفترض أن حرير التوسة الكوري هذا كان ذا ألوان زاهية جذابة بحيث كان جديراً باسمه أما بالنسبة «لناب السمك» فإنه يشير إلى لون ضارب للصفار وشكل مُحَبَّبْ وتموجات صفراء توحي بقطاع عرضي في العاج المأخوذ من الفظّ (حيوان ثديي شبيه بالفقمة)، ومن ثم اشتق الاسم .

الحرير المتعدد الألوان

وفي عهد تانغ وضعت المنسوجات ذات الصور والرسوم، والمقصبات وغيرها من المنسوجات الفاخرة في فئة واحدة تحت اسم ترجمته بكلمة «المقصبات»، ومن ثم فسوف أتناولها هنا وباختصار، وإن كان يتعين أن نتذكر أن الصين كانت مصدراً شهيراً لتلك السلع الفخمة، وأنها صدرت منها أكثر كثيراً مما استوردت. وكانت بلاد فارس من أكبر منافسيها في هذا الصدد، وبالتأكيد فقد كانت البعثات التي تأتي من خوطال، وكابيسا تتباهى بما تهديه لابن السماء من «المقصبات الفارسية».

وهنا أيضاً لا بد أن نذكر أن «القفطان المنسوج بخيوط من ذهب»، وهو من المطرزات الفاخرة، قد جاء كهدية من أمير المؤمنين سليمان (الخليفة الأموي) في عام 716 إلى هسوان تسونج.

وحتى الأسلوب الإغريقي البيزنطي كان معروفاً في الشرق الأقصى، ومن أمثلته نسيج مزين بثمانية نجوم مدببة، وقد عثر عليه في قبر في الآستانة بالقرب من طُرفان. ومن بين الغرائب أيضاً «مقصب شَعْرِيّ» جاء كهدية من سمرقند، وهو على الأرجح من الصوف الفاخر، أو خليط من الصوف والحرير، ومقصب آخر من سيلا لتخليد انتصار تلك البلاد على قوم باخي. وعلى تلك القطعة الأخيرة نسج نشيد النصر في هيئة حروف خماسية، وهو يمجد كاو تسونج التانجي أعظم تمجيد، وكانت تلك التحفة قد قدمت له بواسطة الشقيق الأصغر لملك سيلا.

أغنام الماء وديدان القز الثلجية

وفي معرض مناقشتنا للأغنام الغريبة والعجيبة ذكرنا قصة «الأغنام التي تلدها الأرض»، «الآجنوس سيثيكوس» كما في الأسطورة الرومانية. وهذه القصة قد تكون انعكاساً باهتاً لواقعة «ملاحو الآرجو والصوف الذهبي» في الشرق الأقصى، وقد اختلطت بقصة «الأغنام المائية» التي كان صوفها المادة الخام لصناعة حقيقية هي إنتاج «البينيكون» حول شواطئ المحيط الهندي خلال القرون الأولى من العهد المسيحي. فالنسيج الذي كان يعرف بذلك الاسم كان يصنع من خيوط رفيعة ومتينة مرتكزة تسمى «بيسي» (كتل ألياف حريرية تلتصق بواسطتها بعض الرخويات بالصخور/ المترجم)، وهي تخص بلح البحر الحامل للآلئ بصفة خاصة، وربما كانت تلك الخيوط من المنتجات الفرعية لصناعة اللؤلؤ في الخليج الفارسي، وسيلان. فهذه المنسوجات كانت تتميز بـ «... لون بني ذهبي أو لون

القرفة المتدرج الباهت». وفي الصين– حيث كان المصدر الحيواني الأعظم للحرير هو ديدان القز، وليس الأغنام– نشأت قصص حول خيوط عجيبة تأتي عبر البحار تنتجها «ديدان قز مائية»، وهي على الأرجح بلح البحر. ومن تلك القصص أن الفاتنة يانج كِوي-في كان لديها عود مصنوع من خشب مصقول كما المرآة، وعليه شكلان للعنقاء محفوران باللونين الأحمر والذهبي، وكانت أوتاره مصنوعة من «... خيوط الحرير التي تفرزها ديدان القز المائية»، وقد جاء ذلك العود ضمن ما جاء من جزية من بلاد بعيدة قبل نحو مائتين وخمسين سنة».

وثمة رواية أخرى عن مفرش مصنوع من «القصب المقدس» المنسوج من خيوط حريرية أفرزتها «ديدان القز الثلجية». وتمضي الرواية لتقول إن تلك الدودة المفيدة كانت تغذى على أوراقها المفضلة في برك مبطنة ببلاط متعدد الألوان في موطنها الأصلي في بحر الجنوب، وكان للديدان التي تصنع شرانقها ميزة التمدد عند تعرضها للماء، والانكماش إذا لامست النار. لكن تلك رواية من إنتاج صديقنا القديم سو أو. فإذا كانت «ديدان القز المائية» هي أحياناً «ديدان القز الثلجية» فإن ذلك راجع إلى أن الكلمة الصينية واحدة بالنسبة لكلٍّ من الماء والثلج باستثناء نقطة واحدة، ومن ثم جاء الخلط بين الاثنين في النصوص الصينية، وفي هذه الحالة فقد انتشر الخلط وأصبح مقبولاً، خاصة في ظل وجود روايات حول «ديدان القز الثلجية» في الصين ذاتها. وثمة رواية أخرى تعود للقرن الرابع وتحكي عن ديدان قز ثلجية ذات قرون وحرافيش، وطول كلٍّ منها سبع بوصات وكانت تعيش في جبل كوني مستدير.

فعندما كانت الثلوج والصقيع يغطيان تلك الديدان كانت تغزل شرانق متعددة الألوان، وهذه كان بالإمكان تحويلها إلى منسوجات ذات أنماط لا يبللها الماء، ولا تحرقها النيران، وتذهب الرواية إلى أن البطل القديم ياو كان قد تلقى بعضاً من تلك المادة من «رجال البحار» (وهذا اصطلاح كان يعني أحياناً شعوب ما وراء

البحار)، وقد نسج لنفسه منها ثوباً احتفالياً. ولقد انتشر الخلط بين هذا النسيج الخيالي (أم ترى أن بلح البحر وراء ذلك أيضاً؟)، على الأقل في أذهان الأدباء الأبرياء، وبين «التافتاه الثلجي» وهو نسيج فاخر حقيقي كان يصنع في شانتونج خلال القرن المسيحي الأول، وبتحليل اسم ذلك المنتج نجد أن كلمة «ثلج» تشير إلى نقاء اللون فحسب، فهو «نقي كالثلج». وبناءً على ذلك فقد نظم أديب من القرن التاسع قصيدة بعنوان «أغنية حول تقديم رجال البحر لديدان القز الثلجية، ويقول فيها «... الآن وقد جاء البرابرة الأربعة لم تعد البحار تخفي كنوزها»»، وفي هذا إشادة واضحة بالآثار العالمية للنهج الإمبريالي الصيني. كذلك فقد نظم شاعر كان قد حكم زايتون في وقت من الأوقات قصيدة مماثلة حول «تقديم رجال البحر للتافتاه الثلجي». وهكذا فإن القماش الملون الذي يتم الحصول عليه من تلك الديدان الوحشية التي تعيش في الجبل الكوني المجمد قد اندمج بفاعلية مع تافتاه هان الثلجي القديم، وإن احتفظ بالمزايا الفاخرة للحرير المصنوع من خيوط ديدان القز الثلجية. «...لا يبتل بالماء، ولا يتأثر بالنار، ولا يقارن إلا بفأر النار، وأحياناً يكون لونه قرمزياً، وأحياناً أخضر..»، وحتى السمندر الأسبستوس قد دخل كعنصر في الرواية.

لكن نغمة المديح الواضحة في تينك القصيدتين تجعلنا غير متأكدين مما إذا كان تافتاه الثلج الذي قدم ضمن الجزية مجرد رمز لإحياء أيام ياو العظيمة الخالية، أو إشارة إلى شيء قابل للوصف فعلاً كقماش مصنوع من شرائق ديدان القز الثلجية (أو المائية؟). فإذا كان الافتراض الثاني هو الصحيح فإن الشيء المشار إليه بتلك الأوصاف ربما كان البينيكون.

القطن

منذ بداية القرن التاسع تقريباً تظهر الكلمات التي تعني «القطن» بشكل متكرر في القصائد الصينية. فعلى سبيل المثال فقد أشار بي جيه–هسيو إلى الكهنة البوذيين «وقد ارتدوا ملابس من قماش قطني (كارباسا) مزين بقطع من الكاندانا»، كما وصف تشانج تشيه عبيد كوروِنج الذين أحضروا للصين بواسطة «زوار أجانب»، وكانوا ذوي بشرة سوداء وأرسلوا شعورهم في خُصِلٍ طويلة، وفي آذانهم حلق ثقيل، وعلى رؤوسهم «زغب الأشجار»، كما يحكي بو–تشو كيف أنه لم يستطع أن يتوب عن الشراب في ساعات الصباح في خيمته التركية ذات اللون الأزرق – السماوي:

«وتُغطي رأس الأريكة التي أرقد عليها ستارة
قصيرة لصد الرياح،
لها قبعة سوداء، ولبادة زرقاء ورداء قطني أبيض؛
واحتسي قدَحاً في ساعة مبكرة، ثم أخلد للنوم؛
ماذا هنالك– هنالك في العالم الخارجي– ليس
معتماً وبعيداً؟»

ولقد كان القطن معروفاً منذ منتصف عهد تانج، وإن كان كشيء جديد محبوب، وليس كشيء مألوف قديم. ودعونا الآن ننظر إلى تاريخ القطن في الشرق الأقصى. فالقطن هو الإنتاج السنوي لنبات القطن الحولي (السنوي)، و«شجرة القطن» الدائمة، وهما من النباتات البرية والمزروعة في آسيا الاستوائية. وفي كل من الأدب الصيني والغربي حدث خلط بين ألياف هذين النباتين المفيدين. فالمشاقات التي عرفت باسم «سيمال» هي نتاج لشجرة القطن الحريري، لكن القابوك يأتي من شجرة أخرى ذات ألياف حريرية تعرف باسم شجرة السيبة، وينمو كلاهما بكثرة في آسيا الجنوبية، ويستخدمان في حشو الوسائد والأرائك وما إليها، لكنهما لا يصلحان للغزل (صنع الخيوط).

وهكذا فإن القطن الحقيقي ليس نباتاً متوطناً في الصين، وإن كان كذلك في كثير من البلدان الاستوائية القريبة منها. وينبغي ملاحظة أنه لا يمكن زراعة القطن في المناطق التي تهطل بها الأمطار طوال السنة حيث إنه عرضة للعفن الفطري، ومن ثم فهو لا يزرع في جنوبي الملايو، وبورنيو، وسومطره، وجاوه الغربية، بينما ينمو (مثل خشب الصندل) في المناطق ذات الفصل الجاف (إبريل/نيسان-سبتمبر/أيلول تقريباً) مثل جاوه الشرقية، وبالي، وجزر سوندا، والملايو الشمالية. وعلى الأرجح فقد أصبح نباتا مستأنساً لأول مرة في الهند.

ولقد دخل القطن إلى الصين كسلعة تجارية في القرن الثالث تقريباً، وعن طريقين مختلفين: عبر سيرنديا، وعبر الهند الصينية، وتبعت زراعة القطن الطريقين نفسيهما، فقد استزرعته الشعوب غير الصينية فيما عرف لاحقاً ببلاد يُونّان في أواخر عهد هان، وفي تركستان الصينية بحلول القرن السادس.

وكان قطن كوكو (في سيرنديا) معروفاً بصفة خاصة، حيث كان يزرع ويغزل وينسج بمعرفة مواطني تلك المدينة حيث كان يستورد. ومن الناحية الإدارية كانت تلك منطقة صينية، وكان فتحها عاملاً منشطاً في خلق صناعة القطن الصينية لكن قطن الهند الصينية والجزر قد تمتع بشهرة أوسع في تانج فثمة رواية أن ملك تشامبا- على سبيل المثال- كان يرتدي ملابس مصنوعة من القطن (باجتاك، وكارباسا)، وكانت هذه الملابس تتدلى من ذراعيه وتغطي أعلى صدره، وكان يرصع تلك الثياب بجواهر حقيقية وسلاسل ذهبية على هيئة قلادات متدلية، كما كان يغطي شعره المجعّد بالزهور. كذلك فقد عرف عن بالي أنها كانت تزرع القطن وتصنع منه الملابس، فهنالك «... شَعْرُ الناس جميعا مُجَعّدٌ، ويغطون أجسامهم بقماش من الكارباسا حيث يستخدمون قطعاً أفقية منه ويلفون بها أفخاذهم».

ويقول المبشر المتجول هسوان- تسانج إن قماش الكارباسا كان يصنع في الهند، وإن كان قد أخطأ في حقيقة وصفه بأنه قد صنع من «خيوط دودة القز

البرية»، وأضاف قائلا إنهم يلبسون الكثير من الملابس القطنية وقليلاً من الملابس الصوفية. وكان القطن يستورد من أماكن كثيرة في الجنوب: غزل القطن من نان تشاو، والمنسوجات القطنية الزهرية وغيرها من تشامبا، والقطن الفاخر من سيلان. كذلك فقد دأبت ممالك- الجزر في البحر الجنوبي على إرسال الأقطان، ومن الصعب الآن تحديد أسماء تلك الممالك: ومن بينها ما كان يعرف باسم «داباتانج» على البحار غربي كالينجا، وكان أهلها يدونون كتبهم على أوراق أشجار النخيل، كما كانوا يملأون أفواه الموتى بالذهب، ثم يحرقون جثثهم في محارق من خشب كافور بورنيو. وكانت هذه المملكة الغامضة قد أرسلت قطناً لتانج في عام 647.

وفي الإشارات السابقة رأينا كلمتين أجنبيتين هما «باجتاك»، و«كارباسا»، أما في عهد تانج فقد عرفت الشجرة والمشاقة والقماش بعدة أسماء، ومن أقدمها الاسم «تونج» الذي استخدم منذ عهد هان المتأخر حتى عهد تانج. وأصل ذلك الاسم غير معروف، وقد أصبح غير مستخدم في أواخر عهد تانج وتبعته أسماء عبارة عن التسجيل الصوتي الصيني (تنطقه بعض اللهجات الملاوية) لكلمة «كارباسا» السنسيكريتية (القطن). ثم جاءت كلمة إيرانية قديمة وهي «باتاكا» وتوازي كلمة «باجتاك» الفارسية الحديثة. وللتمييز بين الكلمتين فإن كلمة «كارباسا» (أو التسجيل الصيني لها) تشير إلى نوع من القماش القطني أكثر خشونة، وكلمة «باتاكا» للإشارة إلى نوع أملس، وإن لم يكن الفرق بينهما ملحوظاً دائماً. وكما شاهدنا آنفاً فقد ظهرت تلك الكلمات في أشعار تانج المتأخرة، وفي ضوء ذلك كله يتضح أن صناعة القطن كانت قد أقيمت في لنجنان حوالى بداية القرن التاسع. ولقد نظم الشاعر وانج تشاين (وكان من شعراء تلك الفترة) قصيدة في مناسبة رحيل صديق إلى كانتون فقال:

«عند مدخل حامية الحدود، هنالك محّال لبيع مخ
التنين؛

وعند نهاية الحاجز الجمركي، هنالك أكوام من
ناب الفيل».

ثم يقول:

«باجتاك نسجته أسرة فوق أسرة،

والموز الأحمر يزرع في مكان فوق مكان».

وكتب شاعر آخر من القرن العاشر عن منطقة «يوية الجنوبية» وهي المنطقة ذاتها التي وصفها وانج تشاين فقال:

«وفي المطابخ يَغْلُونَ الخضروات عديمة النكهة في
الفجر،

وفي الربيع يغزلون زهور القطن».

«سحب الفجر»

لقد وردت من قبل إشارة للتعبير «سحب الفجر» كاسم لحرير التوسة الوردية كان يستورد من كوريا، وقد تفسر تلك العبارة أيضاً بأنها تعني «السحب التي يغمرها نور الفجر» بما يوحي باللون الدراقي الرائع لصبغة أقطان الهند الصينية وإندونسيا. كذلك فقد استخدم التعبير للإشارة إلى بعض أنواع الحرير الأخرى، مثلما كتب لي هو قائلا: «طول واحد من الشينون الخفيف، مصبوغ بلون سحب الفجر الوردي». وإنها لمجرد مصادفة أن تساءل ثيوفيل جوايتير عندما كتب «الثوب الوردي» فقال:

«إن ذلك هو لون سحب الفجر الوردية،

على الطريق إلى فينوس،

فإلى اين يأخذنا؟».

ويرد التعبير أيضا في إشارة مباشرة إلى لون الفجر الوردي في رباعية شعرية من

نظم وانج بو، وحتى في تلك لا يمكن تجاهل انطباقها على نوع من المنسوجات، لأن ذلك الفجر نسيج إلهي:

«وحيث رُسمَت أعشاب الربيع على لوحة
عطرة؛
وحيث نسج الفجر على نول سماوي.
تماماً كالطريق الذي تحفه التلال والماء–
حيث تطير الزهور وترتطم بوجهي».

وكان القطن الوردي يستورد مباشرة من المحمية الآنامية، وكان يأتي أيضاً كهدايا من أماكن غير متوقعة مثل التبت. ولكن شأنه شأن سلع قطنية أخرى فقد كان– قبل وبعد كل اعتبار– من منتجات البلاد الجنوبية «المهندوة». فعلى سبيل المثال هناك مزارع القطن في بلاد بيو اليورمية (وتسمى أيضا «سيركشيترا»). ففي القرن السابع مارس أهل تلك البلاد نوعاً من البوذية يقوم على أساس النصوص الدينية السنسيكريتية، وشكّل إحياء لمذهب قديم كانت كتبه المقدسة قد دوّنت في بالي. وكان أهل تلك البلاد يدفنون رماد موتاهم (بعد حرق جثثهم) في قدور من الفخار عليها نقوش، «ولا يستخدمون في صنع ملابسهم سوى «الباجتاك» الذي يحولونه إلى قماش سحب الفجر، ويلفونه ببساطة حول خصورهم، ولا يرتدون الحرير ولا الساتان على أساس أن هذين تأتيان من ديدان القز، ومن ثم فقد يضران بالكائنات الحية». وبالمثل فقد «تعودت نساء ملك تشامبا على ارتداء ملابس مصنوعة من قماش سحب الفجر (كارباسا) حيث كن يصنعن منه أزراً قصيرة، وكن يحملن على رؤوسهن زهوراً ذهبية، وتتدلى من أجسادهن قلادات مصنوعة من ذهب ولآلىء حقيقية ». وباختصار فقد كن يرتدين ثياب الملوك. وكان الناس في العواصم الشمالية قد اعتادوا على رؤية ليس هؤلاء البشر ذوي البشرة الداكنة فحسب، ولكن ملابسهم البربرية كذلك. فعندما كانت الفرق الموسيقية تأتي من بنام أو من الهند (بقيثاراتهم المصممة على هيئة طائر العنقاء، وأعوادهم،

ومزاميرهم، وصنوجهم، وأصدافهم وطبولهم الكثيرة) لتعزف في حفلات الاستقبال بالبلاط في تشانج-آن، كان يأتي معها راقصون يرتدون ملابس مصنوعة من قطن سحب الفجر، وهذه بالنسبة للهنود كانت تقص مثل أردية الكهنة البوذيين داخل المعابد.

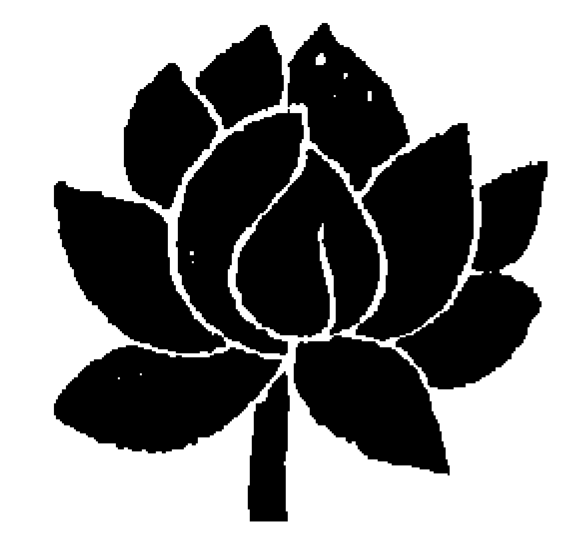
«ولأن مفهوم نيوتن..

للألوان غير فلسفي..

فلأن للألوان..

طابع روحاني..

كرستوفر سمارت، «ابتهاج الحَمَل»



الفصل الثالث عشر

الأصباغ

الأصباغ

كان صباغو البلاط في تشانج-آن قد ميزوا خمسة ألوان رسمية بخلاف اللون الأبيض وهي: الأزرق، والأحمر، والأصفر، والأسود، والأرجواني، وكانوا يحصلون عليها من مصادر نباتية قديمة وتحظى بالاحترام والتبجيل، بل لقد كانت هنالك بدائل لمصادر بعض الألوان. ومن المصادر الأساسية نبات الإنديجو الصيني، ونبات الفُوَّة، ونبات الجاردينا، ونبات البلوطة، ونبات الجرمويل. أما المصادر البديلة فقد شملت أشجار فلين الآمور (للون الأصفر)، وأشجار الدخان وأشجار البارباريس كبديل عن الجاردينا أو مكمل لها.

كذلك فقد استخدم الرسامون الأصباغ المعدنية لتلوين لوحاتهم، كما استخدمتها النساء في تلوين وجوههن تلويناً خفيفاً، وشملت تلك المجموعة من الأصباغ اللازورد (لتوفير اللون الأزرق)، والملكيت (لتوفير اللون الأخضر)، والقرفة وأحياناً المينيوم: أكسيد الرصاص الأحمر (لتوفير اللون الأحمر)، والمغرة: أكسيد الحديد المائي الطبيعي(لتوفير اللون الأصفر)، والكربون (لتوفير اللون الأسود)، والإسبيداج (لتوفير اللون الأبيض). أما الأصباغ الجديدة التي كانت ترد من بلدان أجنبية فقد كان غالبيتها من النوع النباتي. ولقد عرفت ثقافات البلدان الأخرى استخلاص الألوان من النباتات الغريبة) ولكن قلما وجدت أصباغ معدنية فيها. فالصخور ومكوناتها لا تختلف كثيراً من مناخ لآخر، ويقتصر الاختلاف على كثافة تواجدها، ومن ثم فإن واردات تانج من الأصباغ كانت نباتية أساساً.

دماء الجِبُّون

كان بعض الأصباغ الصينية في العصور الوسطى خيالياً سواء من حيث أصله، أو اسمه أو سمعته. وبطبيعة الحال فإننا نتحفظ كثيراً على «الصقيع الذي يتساقط على جبل جنوبي والذي يمكن استخدامه كصبغة أرجوانية»؛ و«قطرات الندى التي تتساقط على بحيرة جبلية وكانوا يحصلون منها على صبغة حمراء» وهذه- كما تقول الروايات- كانت «تاج ملوك تحت سماويين، وللأسف الشديد فإن الناس لا يعرفون شيئاً عنهم. أما الصبغة التي عرفت باسم «دماء جبُّون » فقد وجدت على مستوى مختلف من الواقع، وربما كانت مزيجاً من الأسطورة والواقع، وهي -كما قيل- دماء حيوان يسمى «هسنج -هسنج»:

«كان الناس في البلدان الغربية يأخذون دماءها لصبغ السجاجيد والأكلمة، فلون تلك الدماء ثابت وزاهٍ ولا يبهت. ويقول بعضهم إنه عندما تصطاده للحصول على دمائه، ثم تسأله: كم ستعطيني؟ فإنه يجيب قائلا: هل يكفيك ربع جالون؟ فإذا أردت ما يزيد عن ذلك فاضربه بالسوط قبل أن تسأله وسوف يحقق رغبتك ويعطيك من دمه حتى جالوناً كاملاً».

وهذا الحيوان الشبيه بالإنسان (نوع من القردة العليا) كان قد وصف في الكتب القديمة على أنه قادر على فهم لغة البشر، بل ويتكلم أيضاً. وذهب بعضهم إلى أنه «المرأة البرية» العارية ذات الجلد الأبيض (وقد عرف عنها أنها ترتاد أدغال آنّام)، وكانت شفاه ذلك الحيوان طعاماً لذيذاً فاخراً. ويقال إنه كان مدمناً للخمر، الأمر الذي ساعد سكان الغابات الجنوبية على الإمساك به بسهولة. ويبدو أنه كان حيواناً ظريفاً، إذ تذهب رواية من عهد تانج إلى أن عدداً منه قد أسر ووضع في حظيرة انتظاراً لذبحه وطبخه لتقديمه على موائد حاكم إحدى مدن تونكين. واختار الخدم أسمنها ووضعوه في قفص مغطى حتى يشاهده الحاكم ويتسلى

بمنظره: «وسأل الحاكم عن ماهية ذلك الشيء، وإذا بالحيوان يتكلم من داخل قفصه ويقول: «خادمك يا سيدي، وقدح من النبيذ!»»، فضحك الحاكم، وأمر بعدم ذبحه، وبطبيعة الحال ظل ذلك الحيوان السكير من حيوانات الحاكم المدللة المفضلة. وعلى الرغم من أن تلك الرواية قد دمجت– فيما يبدو– مع رواية أجنبية أخرى فإنه ليس ثمة شك في أن ذلك الحيوان كان الجبُّون الصيني، ويشير الاسم على الأرجح إلى فصيلته كلها والتي كان موطنها جنوبي الصين، والهند الصينية، بما فيها الجبُّون الأسود ذو العرف (جبُّون الهند الصينية)، والجبُّون ذو اليد البيضاء، والجبُّون ذو الخصلة، والأخير لا يزال يشاهد في جنوب غرب الصين (وربما الجبُّون ذو العرف أيضاً). أما الجبُّون ذو اليد البيضاء فيمكن مشاهدته في أقصى الجنوب. وفي أشعار القرنين الثامن والتاسع يظهر ذلك الحيوان في وادي اليانجتسي، وفي شزوان:«وهناك يرى المرء أحياناً حيوان هسنج–هسنج يقفز بين الأشجار». ومن الواضح أن الجبُّون ذا الخصلة (أو واحداً من أبناء عمومته) كان ذات يوم يجوب المناطق الشمالية بأكثر مما يفعل الآن، شأنه شأن غيره من الثدييات التي أصبحت الآن محصورة قريباً من الحدود الجنوبية.

وقد يكون ثمة أمل في التعرف على أصل حكاية دماء الجبُّون في الغرب، وهو أمل تعززه روايات مصرية قديمة تفيد بأن ثمة مخلوقات ذات جسم إنسان ورأس كلب تفهم الأصوات والحروف، ومن ثم فهي مكرسة لراعي الكتابة «تحوت». وهذا يذكرنا أيضاً بالقردة الصينية الكبيرة الثرثارة. وفي العالم القديم أيضاً اشتهرت القرود بحبها الشديد للنبيذ، وهو ما لاحظه كل من أرسطو، وإيليان، وبليني، وكان الصيادون يقدمون لها النبيذ ليسهل عليهم صيدها، وهو ما اعتقده الناس الذين عاشوا في مستنقعات جنوب غربي الصين. ومن ناحية أخرى فقد عرفت القرود في الروايات الغربية بشبقها، وقد يرجع ذلك إلى ما بذل من محاولات لتفسير الصور المصرية التي تظهرها هكذا. وعلى أية حال فإن قرود الهند الحمراء

كانت لها السمعة ذاتها، وفي الحقيقة فإن جيبونات تلك البلاد ربما كانت أصل الساطير (الشّبق) الآسيوي الذي وصفه بليني، وإيليان. فإذا كان إله الغابات والمراعي عند الإغريق القدماء قد صور على هيئة تَيْسٍ شَبِقٍ، فإن الساطير عند الصينيين القدماء قد صور على هيئة قرد شَبِق كذلك. وفي أواخر العصور الوسطى في أوروبا أصبح القرد رمزاً للرفاهية الزائدة، أي الشهوة الجنسية. ومن سوء الحظ فإن الجبُّون الصيني الذي نحن بصدده الآن لم يكن «ترفاً»، كما لم تكن لدم القرود الغربية أية فائدة كصبغة للمنسوجات.

والواقع أن مصدر رواية تلك الصبغة الدموية (إذا كانت قد وجدت أصلاً خارج نطاق الشرق الأقصى) لا يزال غامضاً ويحتاج لمزيد من البحث، ولكن ثمة روايات مماثلة في الغرب وإن لم يكن موضوع أي منها مخلوقاً شبيهاً بالقرود. فمعاجمنا تضم إلى الآن كلمات مثل «قرمزي»، و«الكارمويزي» (قماش قرمزي اللون)، وهما كلمتان مشتقتان من اسم حشرة القرمز والتي تسمى أيضاً «دماء القديس يوحنا» وكانت تستخدم في ألمانيا وبولندا منذ القرن الثاني عشر، وبهذا فإنها كلمات تسد الفجوة بين الصبغة ودم الزعيم الديني. ثم هناك «دم التنين» وهو اسم أطلق في الغرب على تشكيلة من الأصباغ النباتية. ولكن ليس للقرود مكان في ذلك كله. ويبقى أن نذكر أن الاستخدام الصيني لعبارة «دماء جبون» يشير إلى اسم لون قرمزي زاهٍ كان قد لوحظ في المنسوجات الغربية المستوردة، وليس إلى صبغة استخدمها الصينيون أنفسهم، وربما كانت تعني «صبغة قرمز»، ولكن لا نستطيع فهم كيفية تحول الحشرة إلى حيوان ثديي.

وعلى الرغم من أن «دماء جبُّون» قد استخدمت قبل عهد تانج للإشارة إلى صبغة غربية للنسيج فإن تعميمها كاسم لأحد الألوان لم يحدث إلا في أواخر ذلك العهد، حيث أن لون زهور الكاميليا قد يكون هو «دماء جبُّون»، وحيث كان يمكن رسم ستارة بلون «دماء جبُّون» باستخدام أغصان منزوعة من شجيراتها. كما

إن هناك أحمر شفاه (للسيدات) أطلق عليه «هالة جبُّون». وسوف نلاحظ التعبير الجديد في أشعار القرنين التاسع والعاشر عندما نناقش «اللازورد» (صبغة اللازورد)، وهو لون طالما كان يقارن به.

اللّك

استخدم الصينيون في عهد تانج صبغة ذات أصل حيواني بالفعل، وهذه هي اللّك الذي تفرزه «حشرة اللّك» على عدد من الأشجار في الهند الصينية. كذلك ترسب تلك الحشرة مادة راتنجية على الأغصان، وهذه مصدر للّك المصفى (الشيلاك) التجاري، وقد استخدمها صناع الجواهر في عهد تانج كمادة لاصقة، مثلما استخدمها المالايويين بعد ذلك بوقت طويل لتثبيت نصال الخناجر إلى مقابضها. وفي عهد تانج كانت تلك الصبغة تسمى اسمين: «المادة المعدنية القرمزية» (مما يوضح أن مصدر الصبغة قد فهم خطأً فيما مضى)، أو «لاكّا» وهذه كلمة مستعارة. وكان اللّك يستورد من آنام، ومن كمبوديا، واستخدم كصبغة للمنسوجات الحريرية، وأيضاً في إنتاج «الروج» (اللون الأحمر في مستحضرات التجميل).

دماء التنين

ولقد أدى انتشار حشرة اللّك إلى الخلط بينها وبين دماء حيوان آخر أسطوري أو شبه أسطوري وهو الكركدن الصيني. ولقد ساد اعتقاد في العالم القديم بأن أحد الأصماغ الحمراء التي كان يتم الاتجار فيها تحت اسم «دماء التنين» وكانت تسمى في الصين «قطرة الكركدن»، عبارة عن دم مجفف (مُدَرَّر)، وأنه كان ينتج من ثمار

شجرة نخيل الروطان الإندونيسية.

ولكن في التجارة اختلط ذلك المنتج بدم التنين السوقطري الذي هو من راتنجات نبات مختلف تماماً، كما اختلط بالصمغ الإندونيسي، وباللّك. وفي عهد تانج كان يستخدم كعقار ضام (زام) للأنسجة يوصف لعلاج النزف (جزئياً على الأقل، وعلى أساس سحر التقليد نظراً للونه الذي يشبه لون الدماء). ولا يمكن الجزم بأنه كان يستخدم كصبغة أيضاً، وإن كان قد استخدم كذلك في الملايو موطنه الأصلي، بينما يؤكد الصيادلة الصينيون أنه قد استخدم في كل ما استخدم فيه اللّك.

السّابان

عرف «خشب البرازيل» لدى الصينيين باسم «خشب السابان»، وهذا مصطلح شائع حالياً في الشرق، وهو مشتق من كلمة إندونيسية قريبة من كلمة «سابان» في اللغة الجاوية القديمة، وهي تعني «أحمر» وذلك نظراً للجِلْب (خشب القلب الصلب في جذع الشجرة) الذي ينتج الصبغة. وكان خشب السابان يستورد لعدة قرون من كلٍّ من تشامبا، وكمبوديا، وظلت تلك مصادره الأساسية في عهد تانج حيث كثر الطلب عليه. كذلك فقد استخدمه الفرس الساسانيون كصبغة، وكانت لدى القرصان الهيناوي فنج جو–فانج أكوام منه ضمن ما سلبه من كنوز السفن التجارية الفارسية. وكان صينيو تانج يصبغون القماش به، كما استخدموه في تلوين المنتجات الخشبية، وقد كان ذلك هو اللون المفضل في صباغة الصناديق الأنيقة المصنوعة من «خشب البرسيمون الأسود»، والموجودة في متحف الشزووين.

المريق الأرجواني

في عهد آخر أباطرة أسرة سِوي كان يصرف لنساء البلاط يومياً مقدار من مستحضر للتجميل عرف باسم «كحل القوقع» (أو المسكرة) والذي كان يستورد من بلاد فارس، وكن يستخدمنه لإطالة الحواجب، وكان ذلك أسلوباً شائعاً للتجميل. وعلى الرغم من أن أحداً لم يذكر لون تلك الصبغة فإن الاسم الصيني يوحي باللون القرمزي الصُّوري (نسبة إلى صور فيما هو الآن لبنان) والذي يحصل عليه من قوقعة المريق (نوع من الرخويات البحرية -ينتج صبغاً أرجوانياً/ المترجم). و لم أعثر على أي بيان حول ذلك يرجع إلى عهد تانج (على الرغم من أن قنينات قليلة من أدوات ومستحضرات التجميل الخاصة بالأسرة الحاكمة سِوي لا بد وقد نجت من دمار الغزو!!)، والذي يبرر تلك الملاحظة إمكانية أن تكون تلك الصبغة الشهيرة قد وصلت إلى الشرق الأقصى.

الإنديجو (النِّيلة)

توفر لصناع مستحضرات التجميل في عهد تانج مصدر نباتي للون الأزرق، وهو نبات الإنديجو (النِّيلة) المحلي والذي كانوا يحصلون عليه من الأعشاب ذات العقد (نوع من البوص). وإلى جانب ذلك توافر لهم صبغة مستوردة من بلاد فارس كانت تعرف باسم «الكحل الأزرق»، وكان يستخرج من نبات الإنديجو (النِّيلة) الأصلي. ويعتقد أن ذلك الكحل الأزرق الداكن كان من أصل هندي، ولكن تبين أن قدماء المصريين قد استخدموه، كما استخدمته الشعوب الإيرانية لاحقاً. وفي عهد تانج عرف بأنه من منتجات قابودان (ومعه صمغ جوجول، والبوكشوك)، وفرخانة حيث كانت النساء يصبغن جفونهن به. وكان حكام سمرقند قد أرسلوا الإنديجو مع غيره من الهدايا الثمينة إلى تانج في عام 717،

واستخدمته نساء تانج مثلما فعلت أخواتهن الغربيات، وهو ما يتضح من قصيدة للشاعر لي بو جاء فيها ما يلي:

«نبيذ الكروم –في أكواب ذهبية–

وحورية من وُو لا يزيد عمرها عن خمسة عشر
عاماً على جواد نحيف،

وحواجبها مصبوغة بالكحل الأزرق، وتلبس
حذاءً طويلاً مقصباً؛

ولا تتقن إخراج الألفاظ، وإن كان غناؤها رائعاً؛

وقد ثملت وهي راقدة على حصيرة المائدة–

ومن الآن يا سيدي تحت زهور اللوتس
المعلقة؟».

وفي أواخر القرن الثامن كان الإنديجو مطلوباً لتكحيل حواجب نساء قصر تي تسونج. ومع بداية القرن التاسع اتسع نطاق استخدام المصطلح «الكحل الأزرق» في الشعر ليشمل أي لون ملائم للجبال النائية. فقد أشار الشاعر بو تشو–آي إلى «الجبل الذي يسمى الهند، والذي هو كومة من الكحل الأزرق»، كما أشار يوان تشن إلى ما هو أكثر دهشة: «جبل مزهر يكسوه الكحل الأزرق». ولقد شاعت في ذلك العصر صور بلاغية الألوان الغريبة، ومن بينها «دماء الجبُّون».

البالاتاكا

هي الاسم السنسيكريتي لـ «بندق العلامات» الذي كان يستورد من «بلاد البحار الغربية وبلاد فارس»، وكان يستخدم كمنشط جنسي، ولصبغ الشعر باللون الأسود. وشجرة «بندق العلامات» من الأشجار المحليّة التي تنمو في شمال الهند وكانت تستخدم على نطاق واسع لوضع علامات سوداء على

القماش، وأيضاً في صنع صبغة رمادية داكنة. وليس هناك ما يؤكد أن الرجال في عهد تانج قد استخدموه في ذلك الغرض الأخير.

عَفَص البلُّوط

من خصائص أشجار «بلوط الصباغ» وغيرها من أنواع البلوط وجود نتوءات دائرية حول البراعم، وذلك بفعل حشرات الساينبس، وهذه النتوءات غنية بالتانين (حمض التانيك) الذي يستخدم في إنتاج الأحبار السوداء -الزرقاء، باتحادها مع أملاح الحديد، ومن ثم فهي مطلوبة بكميات كبيرة لصنع الأحبار والأصباغ. وكان الصينيون يحصلون على التانين من لحاء وجوزة أشجار البلوط المحلية منذ العهود الغابرة ، لكن عَفَص البلُّوط الذي كانوا يستوردونه من بلاد فارس تحت أسماء إيرانية مثل «مازاك»، أو«موزاك» كان يعتبر نوعاً أفضل، ولهم الحق في ذلك. ويذكر سوكونج أن العفص كان ينمو أيضاً على أشجار الطرفاء (أشجار نحيلة الأغصان/ المترجم) في صحارى الغرب. وعلى الرغم من أن كتب الصيدلة تشير إلى أن عفص البلوط وحده هو الذي كان يضاف لمختلف العقاقير المقوية، ولتسويد الشعر، يمكن استنتاج أنه كان يستخدم في الصباغة كذلك، شأنه شأن البالاتاكا.

الصمغ الكمبودي

الصمغ الكمبودي نوع من الصمغ الراتنجي أصفر اللون يستخرج من أشجار تنمو في كمبوديا (وسيام)، ومن ثم حمل اسم موطنه. وهذه الصبغة عبارة عن العصارة المجمدة لشجرة هندصينية قريبة من أشجار جوز جندم (شجر ذو ثمار لها

نكهة الدراق والأناناس معاً/ المترجم)، وتنتج من تلك العصارة صبغة صفراء جيدة تحظى بتقدير عالٍ في الشرق الأقصى: فهي «المادة التي يصنع منها حبر سيام الأصفر الذهبي الذي يستخدم للكتابة على أوراق سوداء تصنع محلياً»، وكانت الصبغة النباتية الوحيدة التي استخدمها بكثافة رسامو العصور الوسطى في الصين حيث كانوا يسمونها «أصفر الروطان». ويذكر لي هسون أنه إلى جانب الفنانين استخدم الكيميائيون تلك الصبغة، الأمر الذي يوحي بأنها لابد كانت تستورد، ومن كمبوديا على الأرجح.

الأزرق الرقائقي

استخدم الرسامون الصينيون كربونات النحاس، والملكيت والآزور كأصباغ خضراء وزرقاء. ولقد أعطيت أسماء عديدة (شعبية وفنية) لمختلف درجات تلك الأصباغ في صين العصور الوسطى، ومع التمييز بصفة خاصة بين المسحوق الخشن (الذي يميل نحو لون داكن)، والمسحوق الناعم (ذي اللون الفاتح). فالآزور كان يسمى بصفة عامة باسم «الحجر الأزرق»، وإن أسماه الكيميائيون باسم غريب حقاً هو «الفتاة ذات الخصر الأزرق»، كما أطلقوا على المستحضرات الخشنة الداكنة اسم «الأزرق الأعظم».

ووفقاً لما ذكره الصيدلاني سو كونج فإن «الأزرق الرقائقي» كان يأتي من البلدان الجنوبية (تشامبا، وبنام) على السفن التجارية، وقد اعتقد هو نفسه أنه نوع من الملكيت، وإن كان –على الأرجح– نوعاً من الآزور الخشن الرقائقي. وفي الحقيقة فإن الآزور في لغة الكيميائيين كان يعني ببساطة «كون–لون»، تماماً كما يحلو لنا أن نستخدم كلمة «الهند الصينية»، أو «الصين الهندية».

الزّهج الأصفر

الزّهج الأصفر هو كبريتوز الزرنيخ ذو اللون الأصفر الجميل، وسَمّاه الرسامون الغربيون «الأصفر الملكي». أما في الصين فقد سَمّوه «أصفر الدجاج» نظراً لارتباطه برهج الغار الذي يشبه لونه «لون الديك». أما الكيميائيون فقد أسموه «دماء المرأة المقدسة» أو «دماء التنين الأصفر» جرياً وراء عادتهم في إعطاء أسماء غريبة لمختلف المواد. وزعم هؤلاء أن «البصاق الدموي» الذي كانت السفن تأتي به إلى الصين كان أرقى من النوع المعدني الذي كان يستخرج في هونان. كذلك فقد كان يسمى «مَنِيّ الذهب» نظراً للعلاقة التعدينية المفترضة بينه وبين الذهب، مثلما سمّي الآزور «مَنِيّ النحاس». وكان هذا اللون الرائع يستورد من تشامبا، وكمبوديا ابتداءً من القرن الخامس على الأقل، ولذا كان يسمى أيضاً «أصفر كورونج»، وبالتالي لا نندهش إذ نجده الأصفر الذهبي للرسومات على الحرير العائد من تون-هوانج. وفي عهد تانج ساد اعتقاد بأن المنطقة المحيطة بماستوج كانت غنية بالكروم، والزّهج الأصفر، ولكن ليس ثمة دليل على أن أياً منهما كان يُصَدّر إلى الصين.

ومن الأدبيات الخاصة بالسلوك والعادات نعرف أن السيدات في عهد تانج كن يستخدمن «أصفر الجباه»، ويبدو أن ذلك كان نوعاً من الرصاص الأصفر مثل المسيكوت (أول أكسيد الرصاص/ المترجم)، وإن كان من المحتمل كذلك أنهن قد استخدمن الزرنيخ الذهبي أحياناً، وإن كان هذا (ومعه الأصباغ المصنوعة من الرصاص) يضر بالجلد إذا طالت مدة التلامس. والأصفر -مثله مثل الأزرق، بل والأسود- كان ملائماً تماماً لوجوه السيدات الراقيات. ولقد أثارت تلك الصرعات ردود فعل مختلفة لدى الشعراء، ما بين الإعجاب والسخط. وفيما يلي جزءٌ من قصيدة للشاعر بو تشو-آي بعنوان «أساليب أجنبية»، وتتناول فيما تتناول مستحضرات التجميل وقصات الشعر الأجنبية في مطلع القرن العاشر (وقد

ترجمها آرثر والي إلى اللغة الإنجليزية):

«أساليب عصرنا هذا

انتشرت من المدينة إلى أركان العالم الأربعة.

وحالياً تسود عادة قريباً وبعيداً

خدود بلا طلاء أحمر، ووجوه بلا مساحيق.

وبدهون كالطين تمصمص السيدات شفاههن؛

وتخضع حواجبهن للشكل الذي يفرضه سقف مصبوغ.

وتفقد النساء شكلهن الطبيعي، سواء كن جميلات أو قبيحات

وسواء كن سمراوات أو شقراوات؛

وعندما يغادرن حجراتهن تجدهن جميعاً على شكل واحد.

ويلففن شعورهن وراء رقابهن،

ولا يخففن صفار بشرتهن بأي لمسة من اللون الأحمر.

وكنا يوماً نرى الضفائر المرسلة بالقرب من أنهار مدينتنا الشرقية.

وتملك الأسى كل الناظرين، فهم يعلمون أن التتار كانوا هنا

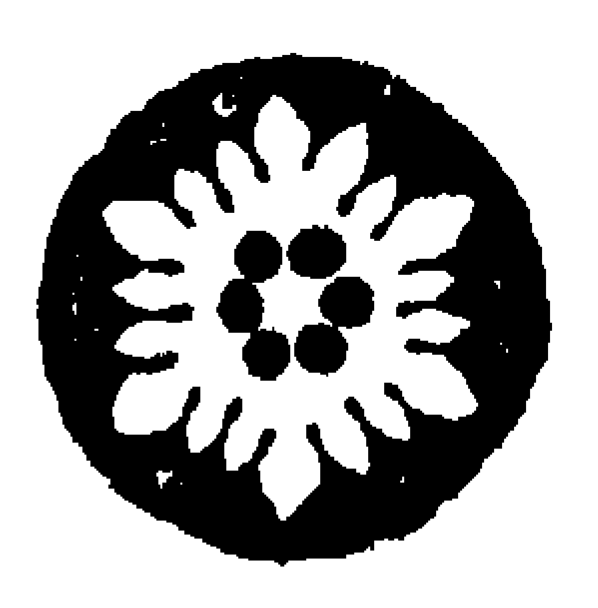
....

«أيها الأمير انتبه!! فهذه هي قصات الشعر في عصر يوان-هو-

فهذه الضفائر المكومة والخدود التي لم تعبث بها المساحيق

ليست الطريقة الصينية!!»

«حَجَرُكَ، ودواؤك، وجواهرك،
ملحُكَ، وكبريتك، وزئبقك،
زيتك، وشجرة حياتك، ودماؤك،
حديدك ورصاصك ومنجنيزك،
....
وعوالم من مكونات أخرى غريبة،
يصعب على الإنسان تسميتها».
بن جونسون، «الخيميائي»، الفصل الثاني



الفصل الرابع عشر
المواد المعدنية الصناعية

حملت بضائع كثيرة في الهند خلال العصور الوسطى أسماء يسبق كلاً منها المقطع «صيني» أو «صينا» إشارة إلى ورودها من الصين، وضمناً إلى جودتها كونها آتية من بلاد غنية وموهوبة. وهكذا فقد أشار «الحاج» التانجي هسوان- تسانج إلى أن الدراق كان يعرف في الهند باسم «صيناني» (أي من الصين)، والكمثرى باسم «صيناراجابوترا» (أي ابن ملك الصين). وفي الواقع فإن الكثير من الأسماء التي خلعت على هذا النحو لم تكن بالضرورة تشير إلى منتجات صينية فعلاً، بل شملت كذلك منتجات ذات أهمية خاصة في تجارة الصين ولم تكن صينية المنشأ، تماماً كما حدث في الهند والملايو حيث التصقت صفة «فارسي» بكثير من منتجات غير فارسية وإن أتت على سفن فارسية. ومن بين المنتجات الصينية اسما «صينا بشتا» (الطحين الصيني)، وهو اسم أطلق على المينيوم (أو الرصاص الأحمر)، و«صينافانجا» (الرصاص الصيني). وقد تكون تلك الأسماء مستحقة إذا علمنا أن الصينيين في عهد تانج قد استغلوا بالفعل مناجم الرصاص، وقد امتلكوا سر صنع الرصاص الأحمر الذي اعتبروه نوعاً من الزنجفر (كبريتيد الزئبقيك) ينتج بشكل غامض من الرصاص وليس من الزئبق. وعلى أية حال فإن مثل تلك الأسماء تعكس المكانة العالية للمواد المعدنية الصينية في آسيا العصور الوسطى.

والصين غنية بالمواد المعدنية مختلفة الأنواع، ولقد تمكن الصناع الصينيون من استغلال أغلبها في الأغراض العملية في عهد تانج. والحقيقة أن الصينيين القدماء قد درسوا المملكة المعدنية دراسة جيدة وشاملة تدعو للإعجاب. فقد تعرفوا على خصائص العقاقير المعدنية، وقادوا العالم في ذلك الحقل. ولكنهم كانوا يحصلون

على بعض المواد المعدنية من الخارج لتوفير احتياجات الرسامين والصباغين والدباغين والجواهرجية وغيرهم من الصناع من خامات ذات نوعية أرقى مما يتوافر محلياً، وتفهموا خصائصها جيداً. وعلى الرغم مما تمتع به الكيميائيون والفنانون والأطباء من معارف جيدة فإن ذلك لم يمنع حدوث الفوضى في الأسواق العامة حيث اعتاد بعض التجار على بيع البدائل للمشترين غير الواعين، وبهذا يتساوى الدارس الحديث مع المشترين في العصور الوسطى في الحيرة حيث انتقلت للدارس الحديث روايات متضاربة تماماً حول عينات لمادة معدنية واحدة من الناحية الاسمية فحسب. ومن حسن الحظ أن سوكونغ وغيره من جامعي الأدلة الدوائية في عهد تانغ قد سجلوا الكثير من حالات الغش التجاري تلك، فعلى سبيل المثال فقد ذكروا أن تجار القرن السابع قد دأبوا على بيع الكالسيت (كربونات الكالسيوم) على أنها الجبس (كبريتات الكالسيوم المائية). لكن الصيادلة الأقل دقة قد سجلوا خصائص كل من هاتين المادتين تحت اسم إحداهما (رغم ما بذلوه من جهد مخلص)، وهو أمر محير تماماً بالنسبة للدارسين في القرن العشرين.

ومن ناحية أخرى فقد كانت بعض المواد المعدنية المحلية في عهد تانغ تعتبر أنقى وأشد من مثيلاتها التي تأتي من بلدان الشرق الأقصى الأخرى، وما رهق الغار إلا واحدة من تلك المواد. لكن بعضاً من المواد التي يزداد الطلب عليها لم يكن متوفراً محلياً على الإطلاق، مثل البُورق (مسحوق أبيض متبلر/ المترجم).

وثمة مواد أخرى لم تنتجها الصناعة الصينية، مثل الكواشف المصنّعة، ومنها المرتك (أول أكسيد الرصاص) على سبيل المثال. وهكذا فقد تعين استيراد كل تلك المنتجات، وهذه وغيرها هي موضوع هذا الفصل من الكتاب.

المِلحْ

كانت الصين تنتج كميات هائلة من المِلح، فقد كتب تسانج–تشي يقول: «ونحن أربعة بحار، فأي مكان يفتقر للملح؟ فهو لا يندر إلا عند البرابرة الذين يعيشون في الجنوب الغربي». وكانت مياه البحر هي المصدر الأساسي لتلك المادة المعدنية المفيدة، وكان أكبر مراكز صناعة الملح (عن طريق البخر) في الزمن الأقدم الولاية الساحلية التي كانت تعرف باسم تشي (شانتونج الحديثة)، وظلت كذلك في عهد تانج.

ومنذ عهد أسرة هان الحاكمة كان يتم الحصول على كل من الملح والغاز الطبيعي من مسام عميقة في شزوان، كما توفر في البلاد ترسيبات الملح الصخري، وبحيرات مالحة جافة على الحدود. فعلى سبيل المثال فإن المستوطنات غير الصينية على طول الحدود المنغولية عند الانحناءة الكبرى للنهر الأصفر حول فينج–تشو كانت تجمع ما يزيد عن 14,000 بيكول من الملح سنوياً وتوردها للحكومة. ومن بين أشهر أنواع الملح المستخدم في الطب والطهي والصناعة «ملح جونج البربري»، و«الملح اللامع الساطع»، و«ملح الأختام»، وأولها كان في الحقيقة خليطاً من الأملاح بما في ذلك سلفات الماغنسيوم المائية، والكالسيوم، والصوديوم، والبوتاسيوم وكلوريدات الصوديوم، كلاً بشوائبه التي تعطي المنتج النهائي لونه، وكان يتم جمع تلك الأملاح من «التربة القلوية» في المناطق القاحلة في الشمال الغربي في كانسو، وكوكونور. وبمعنى آخر كان ذلك الملح عبارة عن الترسيبات البلورية المختلفة في قيعان البحيرات القديمة التي جفت تماماً. أما «الملح اللامع الساطع» فقد كان ملحاً صخرياً. وأما «ملح الأختام» (وقد سمي هكذا نسبة إلى مظهره) فقد كان ملحاً يتم تكريره اصطناعياً في بلورات كبيرة تشبه الأختام الصينية التسجيلية العادية، وكان على قوائم الأصناف التي تقبل على سبيل الجزية الآتية من لينج–تشو في غربي شنسي إلى تشانج–آن.

ومن الغريب حقاً أن نعلم أن الصين كانت تستورد الملح رغم ما كان لديها من ثروة هائلة منه بفضل احتكار الحكومة له. لكن تجارة الملح لم تكن في الواقع على قدر كبير من الأهمية، ويبدو أنها كانت مقتصرة على الأملاح الملونة المطلوبة بصفة خاصة للأغراض الدوائية، ومنها «الملح الأخضر» (وليس لهذا أي علاقة بملح الطعام: كلوريد الصوديوم، وقد ناقشناه في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب تحت عنوان «الزّاج الأزرق»).

أما «الملح الأسود» فقد أتى على سبيل الجزية مع البعثة المشتركة لكل من طورجاش، وتشاش، وكيش، وميمارغ، وكابيسا عام 746 (جنباً إلى جنب مع «الملح الأحمر»، وفي عام 751, ثم في عام 753 من خوارزم جنوبي الأوكزوس، وهذه بلاد اشتهرت باستخدام تجارها لعربات تجرها الثيران في تحركهم عبر آسيا. ولا تزال هوية تلك المادة مجهولة.

الشّب

استخدم الشّبْ (حجر الشّبْ) في العالم القديم شرقه وغربه لأغراض مختلفة فقد استخدمه الأطباء نظراً لقدرته على زَمّ الأنسجة؛ والصباغون كمثبت للألوان؛ والدباغون لجعل جلود الحيوانات لينة وطرية؛ وصناع الورق (في عهد تانغ) لصقل منتجاتهم.

وفي عهد تانغ كان الشّبْ يصنف في فئات وفقاً للونه. فالشب الأبيض كان أنقى الأصناف، أما الشّبْ الملون فكان يحتوي على شوائب مختلفة، بل ربما كانت الأنواع الملونة صنفاً آخر من الكبريتات المائية تشبه الشّبْ العادي سطحياً فحسب. وكان بعض الشّب الأبيض ينتج في شمال وشمال غربي الصين، ولكن أفضل الأنواع كان يستورد من كوكو في آسيا الوسطى لكي يستخدمه صناع

الورق التابعون للبلاط. كذلك فقد اشتهرت بيزنطة وبلاد فارس بإنتاجهما المتميز من الشَّبْ الأبيض فقد كان نقياً نقاء البلور، وله أنماط إبرية الشكل، وكان النوع المفضل لدى الكيميائيين الصينيين، كما كان صناع الأدوية يفضلون الشب الفارسي.

أما «الشَّب الأصفر» فهو على الأرجح سلفات الحديد والألومونيوم المائية، وكانت تعرف باسم «الترخيت الملحي»، وربما كان يخلط بالألونوجين، وكان يأتي ضمن الجزية من المدن الشمالية الغربية: شا–تشو، وكوا–تشو، وكان مطلوباً للأغراض الكيميائية، ولصباغة الأجسام. أما «الشَّب الأخضر» فكان لونه شبيهاً بلون زجاج البريل الأخضر، وكان من إنتاج كوا–تشو أيضاً، وهو على ما يبدو الميلانترايت، وبأكسدته (بالتحميض) يتحول إلى «الشب القرمزي».

ومن فارس كان يأتي نوع فاخر من الشَّبْ تتخلله خيوط ذهبية، وكان من المواد المفضلة لدى الكيميائيين، لكننا لا نعلم شيئاً عن ماهية تلك المادة، ولا عن استخداماتها في الحياة اليومية في الشرق الأقصى.

كلوريد النشادر

كلوريد النشادر (الأمونيوم) مادة تنشأ بشكل طبيعي حول المنافذ البركانية (التي تنبعث منها الغازات والأبخرة/ المترجم) في المناطق البركانية، كما يمكن تحضيرها من روث البهائم. أما في عهد تانغ فكانت ضمن ما يستورد من مواد، وكانت تأتي في «هيئة نترات سِنِّية الشكل، لامعة ونظيفة، من المناطق الغربية، وعلى سبيل الجزية من محمية كوخا الصينية، وكانت تسمى باسم «نجاو–سا، وهو اسم إيراني (وربما سُجْدِيّ) وهو قريب من كلمة «نوسادير» الفارسية. ولقد استخدمها

الجواهرجية في عهد تانج لتثبيت الذهب والفضة على الأشياء (الترصيع). كذلك فقد كان لها دور ملحوظ في الطب، وكان أول ظهور لها في كتب المواد الطبية في عهد تانج . وعلى الرغم من أن الصيادلة قد حذروا من سُميتها، ونبهوا إلى ضرورة توخي الحرص والحذر في تناولها وتداولها فقد أكدوا على أهميتها في تخفيف وشفاء حالات احتقان الشعب الهوائية وغيرها من النِّزلات الشُعَبية.

البَورق

يتبلر البورق على شواطىء البحيرات في المناطق القاحلة في غربي الصين، وفي منطقة التبت بصفة خاصة، وكان يأتي إلى تانج من تلك المناطق لكي يستخدمه عمال المسابك مستغلين خاصيته في إذابة أكاسيد المعادن لاستخدامها في لحام الذهب والفضة. ومع ذلك فإنه لا يظهر في كتب المواد الطبية في عهد تانج.

النترات، ومِلحْ جلوبر، وأملاح إبسوم

وعلى أساس التقاليد القديمة كان الصيادلة في عهد تانج يخزنون أملاح إبسوم (سلفات الماغنسيوم المائية) مع مِلحْ جلوبر أو الميرابيلايت (سلفات الصوديوم المائية)، وكلاهما مع النترات (نترات البوتاسيوم)، حيث كان التمييز بين المواد الثلاث بالاسم فحسب نظرا لأنهم اعتقدوا أنها مواد مرتبطة ارتباطاً وثيقاً من حيث التكوين. وكانت تلك الأملاح تستورد من المناطق القاحلة في آسيا الوسطى حيث كانت تنشأ بتبخر البحيرات القلوية.

ومن هذه كانت النترات هي الأكثر شيوعاً، وأهمها للأغراض التقنية نظراً لكونها عاملاً مساعداً في صهر المعادن وهذا كان أمراً حيوياً للكيميائيين الطاويين، كما كانت تستخدم في إعداد المركبات النارية (ومنها الألعاب النارية). ولقد كان لدى الناس في عهد تانج «زهور نارية»، و«زهور فضية»، و«زهور الخوخ (الدراق)»، وكلها فيما يبدو من الألعاب النارية الرائعة، كما كان ثمة نوع

من «عجلة كاترين (ألعاب نارية على هيئة ملف مسطح يلتف عند تثبيته وإشعال النار فيه /المترجم). وعلى الأرجح فإن كل تلك الأشياء كانت تحتاج في صنعها إلى النترات. ولقد اعتقد عرب القرن الثالث عشر أن النترات والألعاب النارية ذات طابع صيني بحت لدرجة أنهم سَمُّوا النترات «الثلج الصيني» أو «الجليد الصيني»، والصواريخ «سهم قطاي».

وكان الميرابيلايت يسمى «النترات الخام»، ولكنها احتلت مركزاً متأخراً في الطب بعد أملاح الإبسوم والإبسومايت) التي كانت تسمى «النترات الشوكية» نسبة إلى الشكل المدبب لبلوراتها، وكانت تستخلص من الميرابيلايت غير النقي عن طريق التقطير، وبتلك الطريقة كانوا يحصلون على عامل مساعد نقي، وهو ما يستدل عليه من عينة هي الآن من مقتنيات متحف الشنزوين . ولقد عرف الناس قيمتها كمطهر، ولطالما وصفها أطباء تانج لهذا الغرض.

الكبريت

احتاج أطباء تانج للكبريت لإعداد مستحضراتهم، واحتاجه الكيميائيون لإعداد إكسيرات الزنجفر، كما كانوا يصنعون منه اللون القرمزي الذي احتاجه رسامو اللوحات وصناع مستحضرات التجميل. كذلك فقد كان الكبريت يستخدم في صنع الوسائل النارية.

ولقد كانت للكبريت فائدة في علاج الأمراض الجلدية، ولعله لهذا السبب أن اشتهرت المناطق التي توجد بها عيون مياه ساخنة تحتوي على مركبات الكبريت منذ عهد هان .

ولقد اعتقد الناس أن لعنصر الكبريت خاصية توليد الحرارة، وأنه كان يستخدم

لتسخين مياه الحمامات العمومية. وبسبب تلك الخاصية ذاتها فقد استعمل في تحضير العقاقير التي يقصد بها تسخين الجسم (مثل علاج البرودة حول الخصر وحوض الكلى). ومنذ أقدم العصور ساد اعتقاد بأن للأكواب المصنوعة من الكبريت مزايا فريدة، منها إطالة العمر ويحكى أن يوان تساي، كبير الوزراء في عهد تاي تسونج كان يتناول طعامه الساخن من أوانٍ مصنوعة من الخزف طافية على سطح ماء بارد، كما كان يتناول المأكولات والمشروبات الباردة من أوان مصنوعة من الكبريت، وبهذا يحقق التوازن بين التأثيرات الساخنة والباردة، الأمر الذي كانوا يعتقدون بأنه ضروري لصحة الجسد وسلامته. بل إن كيمائياً طاوياً هو وي شان- فو قد زعم أنه كان قادراً على تخليص الناس من شهواتهم الجنسية باستخدام الكبريت، «....ومن ثم فقد أسرف في ممارسة فنونه تلك».

وكان الكبريت يأتي على متن السفن القادمة من إندونسيا، واستمر الحال على ذلك عدة قرون، ويفترض أنه كان يجمع من المناطق البركانية هناك، وكان يعرف باسم «المائع الأصفر»، ولذا فإنه ليس بمستغرب أن انسحب ذلك المصطلح نفسه على نوع من النسيج الملون في إحدى قصائد شاعر من القرن التاسع هو وين تينج- يون، (وهو عصر شاعت فيه الصور البلاغية للألوان الجديدة):

«إمرأة صغيرة،

ترتدي معطفاً بلون المائع الأصفر،

تصعد البرج،

وتداعب أناملها آلة القانون المرصعة بالجواهر»

وعلى الرغم من أن ذلك النوع من الصور البلاغية كان من سمات ذلك العصر فإنه لم يكن جديداً على الإطلاق، فالأمر لا يزيد عن إحياء أساليب قديمة، فقد ورد المصطلح ذاته في قصيدة أقدم بكثير وترجع إلى ما قبل عهد تانج ببعيد، وذلك للإشارة إلى البونجي (قماش حريري بلون الحرير الطبيعي /المترجم).

مثله مثل الرَّهَج الأصفر (كبريتور الزرنيخ الأصفر) فإن رهج الغار أحد مركبات الكبريت والزرنيخ، ومثله مثل الرَّهج الأصفر كذلك كان يأتي باعتباره «بذرة للذهب»، وذلك لأن كلاً منهما كان يوجد بالقرب من ترسيبات الذهب. وفي عالم الكيمياء في ذلك العصر كان يعتقد أن لرهج الغار القدرة على تحويل النحاس إلى ذهب، بل وتحويل ذاته إلى ذهب. من هنا فقد لعب رهج الغار دوراً أساسياً في المختبرات الطاوية، وفي إعداد إكسيرات إطالة العمر حيث كان يمثِّل اللون الأصفر في معناه الصوفي. وكان الاسم الشائع لرهج الغار هو «الديك الأصفر»، بينما كان الاسم الطاوي «روح جبل الزنجفر».

كذلك فقد كان لرهج الغار مكانة خاصة في دنيا الطب، ومن ثم فقد ورد في كتب المواد الطبية باعتباره دواءً للأمراض الجلدية، وكمطهر للجروح المَتسمِّمَة، ومعيد للحيوية والشباب، ولدرء الشر وسوء الحظ. ومن مقتنيات قسم الأدوية القديمة بمتحف الشزوين بيضة من رهج الغار يفترض أنها كانت تقوم بذلك الدور الأخير. ولقد كان ذلك العقار مفيداً بصفة خاصة في علاج حالات الحضون (روح شريرة زعموا أنها تجامع النساء ليلاً /المترجم) وكانت المرأة التي تعاني من تلك الحالة تطهر عضوها التناسلي بالدخان الناجم عن حرق كرة من رهج الغار والقار.

ومنذ العصور الباكرة كان الصينيون يستخرجون رهج الغار والرَّهج الأصفر من مناطق مختلفة في البلاد، أما في عهد تانج فقد كانوا يستوردون أفضل الأنواع من بلاد في الغرب (وإن تعذر تحديدها)، ومن المعروف أن بلاد نان-تشاو، التي تقع إلى الجنوب من بلاد تا-لي، كانت غنية بترسيبات كبريتات الزرنيخ تلك والتي يحتمل أنها قدمت إلى تانج أيضاً.

المُرْتكْ (أول أكسيد الرصاص)

عرف أول أكسيد الرصاص (المرتك) في عهد تانج. باسمه الفارسي «ميرداسانج» (وبشكل نادر بأسماء أخرى: «زهرة الرصاص الصفراء» و«الأنياب الصفراء»، و«التنين الأصفر»). وقد كان لتلك المادة استخدامين أساسيان، أولهما كونها عقاراً يوصف لعلاج البواسير، والجروح الناجمة عن التعرض لأسلحة معدنية أو أضرار أخرى، وكمستحضر لتجميل الوجه، ومن ثم فقد دخل في تركيب مراهم الوجه. أما الاستخدام الثاني فهو مجفف للأصباغ التي كان صناع الأثاث يستخدمونها لطلاء منتجاتهم وكانت أصباغ تانج الزيتية تحتوي عادة على زيت البيرلاّ، وغالبا ما كانت تستخدم مع اللّك (نوع من الورنيش). ومن خلال آداب العصور الوسطى نعلم أن من بين الأشياء التي كانت تطلى بالزيت صناديق حفظ الطعام، مثل ذلك الذي أهداه روخشان لهسوان تسونج. وكانت بلورات المرتك تستورد من بلاد فارس على هيئة «أسنان التنين الأصفر». وفي عهد سونج تعلم الصينيون كيفية تحضير المرتك كمنتج فرعي لعملية صهر الجالينا (كبريتيد الرصاص) للحصول على الرصاص والفضة، وإن كانت تلك العملية أقدم من ذلك بالفعل إذا علمنا أن الكيميائيين كانوا يمارسونها في السر.

رماد الصودا (كربونات الصوديوم)

ولأغراض غسل الملابس وصنع الزجاجيات كان الصينيون يستوردون كربونات الصوديوم الخام من «شواطىء البحار الجنوبية». وربما كانت تلك المادة من نواتج حرق نبات الحرض، تماماً كما كان يفعل صناع الزجاج الأوروبيون في

العصور الوسطى. وكان الصينيون يسمون تلك المادة باسم «الرماد الطبيعي»، واستخدموها في الأغراض المذكورة آنفاً ابتداءً من القرن الثالث. ومع ذلك، وحتى في عهد تانغ ذاته نجد أن غير المختصين مثل تشن تسانغ-تشيه قد أساؤوا فهم استخدامها، إذ اعتقدوا خطأً أنه يمكن تليين العقيق واليشم (حجر كريم) بدفنهما في تلك المادة حتى يمكن تشكيلهما بسهولة (مثل الفخار).

الماس

تلقى القائد الصيني الذي قهر هسيونغ-نو في مطلع القرن الثاني مكافأة عبارة عن حزام مرصع بالماس، وقد يكون ذلك الحزام من غنائم الحرب وليس صناعة صينية، وذلك بالنظر إلى أن الماس ليس حجراً صينياً. وبالمثل فقد أرسل حاكم كيلانتان في جاوه في القرن الخامس خاتماً من الماس إلى العاهل الصيني الذي كان يحكم دولة سونغ الجنوبية (ومعه ببغاء أحمر).

وإذا كانت مثل تلك القطع الماسية قد جاءت إلى تانغ فإنها لم تترك أي أثر في السجلات التاريخية فالماس التانجي كان ماساً اصطناعياً، ولا بد أن بعضاً منه قد جاء من الهند التي كانت المُورِّد الأساسي للماس (وأيضاً لخشب الصندل والزعفران) للشرق الروماني، وبنام، وآنام. لكن بنام قبل الكمبودية نفسها، والتي تقع على شواطىء خليج سيام، كانت تنتج الماس.«... وهو من حيث الشكل يشبه «الحجر الأرجواني الكريم؛ وينمو على الصخور في قاع المياه، ويغطس الناس في الماء للحصول عليه. وبالماس يمكن قطع اليشم. لكن ذلك الوصف يشير عادة إلى الجمْشتْ (حجر كريم أرجواني أو بنفسجي/المترجم)، وإن أشار مصدر عليم إلى أن الاسم في هذه الحالة بالذات يشير إلى الكوارتز (المَرْو) الأدْخن، ولكن الكلام المقتبس ها هنا يؤكد أهمية الماس كأداة لقطع وتشكيل الأحجار الكريمة، فقد كان

يُستخدم لقطع الأحجار الجامدة وشرشرة اللآلىء. كذلك فقد كان الصينيون يستوردون لُقَماً ماسية لحفارات اليشم من آسيا الوسطى لاستخدامها في الورش الإمبراطورية في تشانج-آن. وكان الأجهوريون في كان- تشو في الشمال الغربي ينتجون حفّارات الماس كذلك.

وإلى جانب ذلك الاستخدام في الحياة اليومية كان للماس في الصين مدلول بوذي أيضاً، فاسمه في اللغة الصينية يشير إلى «صلابة الذهب» حيث كان يعتقد أن الماس يتكون داخل الذهب، والواقع أن ذلك الاسم تعديل جزئي لكلمة «ڤاجرا» السنسيكريتية بمعنى «الصاعقة التي تشق أو تقطع كل شيء». وجسد بوذا الذي لا يمكن تدميره «جسد من الماس»، وبعد أن وصل السيد الأعظم إلى أوج الحكمة والمعرفة جلس على عرش ماسي. وفي عهد تانج كانت «الحكم الماسية» تتمتع بشعبية جارفة،وكان كوماراجيفا أول من ترجمها.

ومع أن الماس كان مادة غريبة وجامدة فإنه لم يكن أبداً رمزاً للثراء، ولا للرومانسية كما هو الحال بالنسبة إلينا.

«ثراء آرموس.. وثراء إيند..

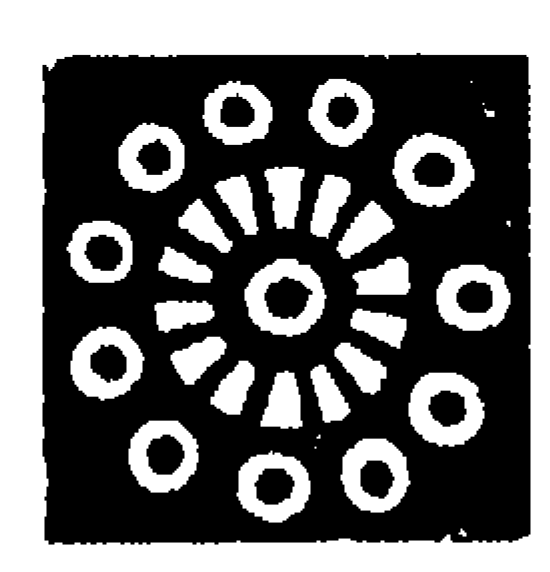
أو حيثما الشرق البهي..

ينثر بيده السخية..

لؤلؤاً لملوكها..

وذهباً بربرياً»

جون ميلتون؛ «الفردوس المفقود»، الكتاب الثاني



الفصل الخامس عشر

الجواهر



بالنسبة إلى الملك ليس هناك أفضل من إرسال جوهرة نفيسة، أو الكثير من الجواهر إلى ملك آخر لكسب صداقته ووده. ويزخر تاريخ أسرة تانج بالعديد من الإشارات إلى بعثات دبلوماسية حملت مثل هذه النفائس إلى تشانج– آن. لكن، وللأسف، فإن السجلات التاريخية لا تتضمن وصفاً دقيقاً لتلك الهدايا النفيسة، وفي أفضل الأحوال، أخفيت القيمة الحقيقية لتلك الهدايا، ومُوِّهَتْ بأوصاف غامضة مثل «جوهرة نادرة» أو « كنز ثمين». وهناك أيضاً بعض الأمثلة على الهدايا الملكية فمثلاً: في عام 619 أهدي حزامٌ مرصعٌ بالجواهر من كابيسا؛ وفي عام 627، حزام ذهبي مرصع بالجواهر و«الفصوص الصغيرة» مهدى من خان (أمير) الترك الغربيين، وفي عام 650 تقريباً، تلقى كاو تسونج تحفاً من المعادن النفيسة والأحجار الكريمة بمناسبة توليه العرش كهدية من ملك التبت سرونج بتسان سجام بو. وفي عام 712 قدم سفير من بلاد المسلمين (وهو نفسه ذلك السفير العنيد الذي رفض الانحناء أمام هسوان تسونج لأنه لا يسجد إلا لله) حزاماً مرصعاً بالجواهر، وفي عام 744 وصل العديد من النفائس والخيول من البلدان الغربية: بلاد الإسلام، وسمرقند، وكيش، وقابودان، وميمارغ، وجاجودا، وتوخارا وتورجاش. كما أرسل الملك سيلاميجا ملك كولا–ڤمسا في سيلان العديد من الجواهر مع الراهب أموجافاجارا. وفي عام 815 أرسل الملك كالنجا هدية من الجواهر النفيسة، وعلى الرغم من أن إرسال مثل هذه الهدايا كان دليلاً على المكانة التي تمتعت بها أسرة تانج في المناطق البعيدة من العالم فإن إحساساً بالذنب غالباً ما واكب تلقيها.

وهناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى رفض ابن السماء بعض الهدايا النفيسة تمسكاً بمبدأ «الفضيلة قبل الثراء»، بل إن أنفس الجواهر لم يشكل استثناءً لهذا

التوجه، فعلى سبيل المثال حين منح الإمبراطور الصيني لقباً أميرياً لخان الترك الغربيين في أول سنة من عمر إمبراطورية تانج، أرسل الخان لؤلؤة عظيمة إلى الكاهن الوزير كاو تسو الملقب بـ «الجد الأعلى»، إلا أنه تمت إعادة اللؤلؤة إلى الخان مع تلك الكلمات: «إن تلك اللؤلؤة كنز ثمين حقاً، لكن الذي نعتد به هو شجاعة القلب وإخلاصه أما تلك اللؤلؤة فلا حاجة لنا بها».

وعلى الرغم من توافر الرغبة في اقتناء النفائس، فإن السعي الحثيث المبالغ فيه لاقتنائها لم يكن محبذاً بشكل أو بآخر، ناهيك عن صعوبة تبرير مثل هذا السعي في ظل التقاليد الأخلاقية السائدة. ومن ناحية أخرى كان ينظر إلى الأجانب، وخاصة الغربيين منهم، والفرس على وجه التحديد، على أنهم عشاق وملاك للنفائس، الأمر الذي ميزهم عن رجال إمبراطورية تانج، وقد كان «الفارسي الفقير» مثلاً للسخرية المناقضة، وتحفل القصص الشعبية المتداولة خلال حقبة تانج بصور للإيراني المجوسي الذي تكلله هيبة الشعوذة التي اشتهر بممارستها، علاوة على تلك النفائس الساحرة التي كان يعتقد أنه يمتلكها. وكان ينظر إلى تاجر النفائس الإيراني على أنه خبير محنك في الجواهر النفيسة، إضافة إلى كونه عاشقاً لها، الأمر الذي جعله موضعاً للحسد والكراهية. وتوضح الحكاية التالية، والتي لا تخلو من مذاق الأساطير الطاوية، ذلك الشعور تجاه التجار الإيرانيين:

«كان هناك رجل يُدعى لن–تشوان ينتمي إلى عشيرة تسِن، وخلال ترحاله عبر التلال والوديان، وقعت عيناه على حجرين أبيضي اللون كل منهما في حجم بذرة نبات اللوتس، يتبع كل منهما الآخر بسرعة في الماء، فأمسك بهما وأخذهما إلى بيته واحتفظ بهما في صُرّة. وأثناء نومه تلك الليلة حلم بامرأتين جميلتين ترتديان ثياباً بيضاء تجالسانه عن اليمين وعن اليسار وتتناديان بالأخت الصغرى والأخت الكبرى، وحين أفاق من نومه أدرك أن الأختين تمثلان الحجرين اللذين عثر عليهما في الماء في صباح اليوم السابق. فوضع الحجرين في طيات ثيابه وذهب إلى يو –

تشانج التي كان فيها رجل غربي من بلاد فارس، فاقترب منه الفارسي وهمس له قائلاً: «أرى أن السيد يحمل معه كنزاً، أليس كذلك؟ فأجابه الرجل: نعم، وأخرج الحجرين وعرضهما على الفارسي الذي طلب شراءهما بثلاثين ألف قطعة، وعلى الرغم من أن الرجل تسن هذا كان شديد الإعجاب بالحجرين، فقد كانا عديمي الفائدة بالنسبة إليه، فضلاً عن سعادته بالثمن الذي سيحصل عليه مقابلهما، لذا فقد قبل البيع، واستخدم المقابل كرأسمال له ازدهرت به أحواله واستطاع أن يكون منه ثروة كبيرة. لكن الشيء الوحيد الذي ندم عليه هو أنه لم يتمكن من معرفة أي شيء عن الحجرين أو استخدامهما».

وهناك قصيدة للراهب هان شان الذي عرف بغرابة أطواره، توضح كيف كان هؤلاء الغربيون مثالاً للجشع، حيث تتناول القصيدة رجالاً ذوي عيون زرقاء يسعون إلى شراء مسبحته المصنوعة من اللؤلؤ الثمين المستجلب من الشرق الأقصى والتي تمثل نقاء العقيدة البوذية الخالصة.

اليشب (اليشم)

في هذا السياق تشير كلمة «يشب» إلى كل من النفريت، وهو أحد الأمفيبولات الصلبة، والجاديت الذي يعتبر إحدى الصور الصلبة لمادة البيروكسين. واليشب الصيني التقليدي أحد أنواع النفريت، و لم يبدأ استخدام الجاديت في الصين إلا في فترة متأخرة. أما اليشب المستخدم في حضارة الآزتك في أمريكا الجنوبية فهو شكل من أشكال الجاديت، في حين إن اليشب الذي استخدمه الماوريون في نيوزيلندة شكل من أشكال النفريت. وتتشابه تينك الحضارات مع الحضارة الصينية في استخدام الطقوس لليشب الملكي والريش المقدس كما أشار إلى ذلك ساكفيرل سيتويل قائلاً:

«هنا يتمتع المحاربون الماوريون بهدوء شديد يجعلهم يبدون كما لو كانوا أشباحاً لرجال عظام، أو ظلالاً للإلياذة. أما الريش الكثيف المهندم الذي يتزينون به فيضاعف من هيبتهم. ويحمل هؤلاء المحاربون في أياديهم اليمنى صولجانات من اليشب إشارة إلى مكانتهم الرفيعة».

وللأسف، فإن سجلات العصور الوسطى لا تحتوي إلا على معلومات بسيطة حول كيفية استخراج هذه الأحجار الكريمة. والكلمة الصينية التي نترجمها عادة إلى «اليشب» إنما تشير في بعض النصوص إلى أنواع من الأحجار تكاد تكون أرقى من «أحجار كريمة تستخدم للزخرفة»، كما استخدمت هذه الكلمة أيضاً للإشارة إلى أنواع مختلفة من الأحجار مثل حجر السربنتين المُسْيلَكْ (صخر أخضر اللون عادةً مرقط أحياناً كجلد الأفعى) نظراً لتشابهه مع حجر النفريت.

كما عرف الرخام أيضاً بـ«اليشب الأبيض»، في حين عرف الكهرمان الأسود بـ«اليشب الأسود». أما المواد الأخرى الأقل صلابة، مثل الإستيتيت (الحجر الصابوني) والبيروفليت، فقد منحت اسماً أكثر احتراماً في عهد تانج هو «نجي أوك» التي تعني أيضاً «يو» أي اليشب في لغة المندارين الصينية الحديثة. ومن أكثر أنواع اليشب غير الحقيقي شهرة ذلك الحجر الذي كان يعرف باسم «يشب حقل الإنديجو الجميل»، وهو في الواقع نوع من الرخام ذا اللونين الأبيض والأخضر كان يستخرج من «حقل الإنديجو» في جبال تشونج نان جنوبي تشانج-آن. وقد أهدى العاهل المخلص هسوان تسونج مجموعة من الأجراس المصنوعة من هذا الحجر الجميل إلى «السيدة يانج» التي كانت تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة، وكانت تهوى استخدام الأحجار كآلة إيقاع موسيقي(دفوف حجرية).

وعلى الرغم من عراقة فن تقطيع وصقل اليشب، وما كانت تحظى به هذه الحرفة من احترام في الصين، فإن المادة نفسها كانت تأتي من خارج البلاد. وحتى في

التقاليد القديمة وفي التصورات الخيالية للصينيين كان ينظر لليشب باعتباره من أحجار الجبال المقدسة الواقعة في مركز العالم.

وقد وردت الإشارة إليه في مجموعة القصص والحكايات التي تناولت الجبال والبحار، وفي إطار وصف الجبال الغربية:

«وجبل اليشب هو أيضاً موطن «أم الغرب الملكية» ولأم الغرب الملكية تلك هيئة البشر، لكن لها ذيل فهد وأسنان نمر، وتتمتع بقدرة كبيرة على إصدار الصفير، وتضع شريطاً على شعرها المتشابك».

أما المرادف الدنيوي والواقعي لجبل الأحلام الخالد هذا فقد كان مدينة خوطان القديمة (والتي عرفت أيضاً باسم جوستانا أو جاوستانا في أوائل حقبة تانغ، كما عرفت أيضاً باسم يوتينا في القرن التاسع الميلادي).

وتقع المدينة على طريق الحرير الجنوبي عبر سيرنديا، وكان ملكها يعيش في «منزل مطلي»، ويحكم شعباً عُرفت عنه سعة الحيلة وحسن الخطاب، وكانت هذه المدينة هي المصدر القديم لكل أحجار النفريت التي استخدمت في الصين، وكذلك اليشب الأبيض والأخضر الداكن الذي استخدمه فنانو أسرة تانغ الذين لم ينقطع توافدهم عن المدينة. أما كريستالات (بلورات) النفريت الثمينة فقد كان يتم جمعها من قيعان نهرين يلتقيان قرب مدينة خوطان قبل أن يصبا في نهر«تاريم»، وهما نهر قارا—قاش (اليشب الأسود) ونهر يورونغ—قاش (اليشب الأبيض) «.. وكان أهالي تلك البلاد على يقين من أنهم سيجدون أحجار اليشب الجميلة في الأماكن الغارقة في ضوء القمر من مياه النهرين»، ولذا كان يقال إن اليشب المستخرج من خوطان تجسيد لضوء القمر.

وقد كانت للنفريت مكانة كبيرة في حضارة العصر الحجري الحديث في الصين، لكنه كان جزءاً من صناعة أعم وأشمل لصقل الأحجار الكريمة، وبحلول عهد

تشو كان لهذه المادة المعدنية معان ملكية ومقدسة، حيث اقتصر استخدامها على الأدوات والأشياء الاحتفالية، وأيضاً في الطقوس السحرية، ومن هذه الأدوات الصولجانات الملكية القديمة، والتي يمكن اعتبارها تطوراً للفؤوس القديمة، كما كان هناك «اليشب الفلكي» الذي استخدمه المنجمون الملكيون في رصد النجوم. وهناك أيضاً الألواح «المليئة بقوى الطبيعة المختلفة» والتي استخدمت للإعلان عن اعتلاء ابن السماء للعرش، علاوة على اليشب الجنائزي الذي استخدم في سد الفتحات في أجسام الموتى.

كما استخدم اليشب أيضاً في تزيين قبعات الرجال وأحزمتهم، وفي زخرفة السيوف وأغمادها، وفي صناعة الخواتم. وعلى الرغم من أن الأشياء المشار إليها تبدو أغراضاً عادية للاستخدام الشخصي، فقد كانت أيضاً تحمل في بعض الأحيان تعاويذ وطلاسم فقد الكثير منها معناه بحلول فترة حكم هان. بيد أن الكثير من المعاني القديمة لهذه الأغراض قد استمر مع إدخال الكثير من التعديلات عليه. فعلى سبيل المثال لا تزال صورة الملك الساحر شامان، الذي أجبر تنين المطر على الحضور باستخدام عصاه السحرية المصنوعة من النفريت الأخضر إلا أن هذه العصا قد غلفت، بمرور الوقت بسمات الممتلكات الشخصية للأسرة الإمبراطورية الجديدة. كما ظهرت أيضاً إلى حيز الوجود صور شعرية وبلاغية حول هذا الحجر الرائع: فبريقه الأخاذ يمثل صورة من صور الإحسان للغير التي تمثل فضيلة «الإنسانية» في العقيدة الكونفوشيوسية، كما أن صلابته ونعومة ملمسه تمثل فضائل الاستقامة، وفي المستوى الأدنى من الأعمال الأدبية كان شبيه اليشب الأبيض يرمز إلى الجمال الحسي للنساء، ممثلاً الشكل الأمثل لأجسادهن، كما لو كن تماثيل رخامية لآلهات ينتمين إلى عالم منطقة البحر المتوسط.

وتمثل الإشارات السابقة في مجملها التراث الذي ارتبط باستخدام النفريت المستجلب من خوطان إبان عهد تانج، وقد اندثر معظم هذا التراث، فيما ظل جزء

منه حياً متمثلاً في استمرار استخدامه في صناعة الأدوات الطقوسية التي تُختزن في داخلها القوى المقدسة التي يتمتع بها اليشب.

ومن بين أكثر تلك الأدوات سرية وقدسية، تلك الألواح التي وضعها ابن السماء على جبل تاي في شانتونج عند احتفاله بمناسبة التضحية القديمة «لفينج، وشان»، شاكراً الآلهة العظام، بمن فيهم أسلافه المقدسون، على ما أسبغوه عليه وعلى أسرته الحاكمة من نعم، وفي عام 666 حين فتح كاو تسونج -بناءً على الامتياز الذي يتمتع به- القنوات التي تقود إلى السماء بأداء طقوسه المقدسة الخاصة، استخدم في ذلك «.. تعاويذ خاصة به مصنوعة من اليشب، متصلة ببعضها بعضاً بالذهب، وكل منها على شكل لوحة يبلغ طولها قدماً وبوصتين، وعرضها أكثر قليلاً من بوصتين، وسمكها أكثر من ثلاث بوصات، وقد مُلئت الحروف المحفورة عليها بالذهب، ووضعت جميعها في حاوية من اليشب. كما عثر على ألواح مقدسة مشابهة لتلك التي استخدمها كاو تسونج ضمن كنز في مقبرة وانج تشين، حاكم شزوان في بداية القرن العاشر، حيث كان بعض هذه الألواح مع تماثيل لمحاربين يرتدون دروعاً ذهبية محلاة بزخارف ملونة.

وقد تضمن مرسوم إمبراطوري صدر في العهد الثاني لهسوان تسونج انتقاداً لاذعاً لاستخدام بدائل أقل جودة ونقاء من اليشب في صناعة الأواني والأوعية المستخدمة للأغراض الاحتفالية لما تشكله هذه الممارسة من مساس بالتناغم المقدس، لذا فقد تقرر:

«من الآن فصاعداً سوف يستخدم اليشب الحقيقي في صناعة الأواني والأوعية المستخدمة لتكريم الآلهة، وفي تزيين حرم مقابر الأسلاف. كما يجوز استخدام بدائل اليشب في مناسبات التضحية العادية. وإذا كان اليشب صعب المنال يفضل الاقتصاد في عملية تقطيعه وصقله والاقتصاد كذلك في مقاييس الأشياء الكبيرة للمحافظة على قيمة الحجر الأصيل».

ومما لا شك فيه أن هذه الإجراءات الاقتصادية قد صدرت على مضض، حيث كان اليشب مُكوِّناً أساسياً في كافة أنواع الأواني المستخدمة في عبادة الآلهة. وفي عهد تانج استخدم اليشب في صنع مختلف أنواع المتعلقات الصغيرة، حيث كان محل إعجاب هؤلاء الذين يمتلكون القدرة على شرائه، وتتضمن تلك المتعلقات التي دخل اليشب في صناعتها المزهريات والصناديق الصغيرة، وفي بعض الأحيان كان يفضل استخدام اليشب الأصفر، واليشب المائل إلى اللون البني في صناعة التحف بعد تقطيعه وصقله في أشكال متعامدة على النمط القديم الذي كان شائعاً في أواخر عهد تشو، في حين اختلف الحال بالنسبة لليشب الأبيض أو الأكثر ميلاً للون الأخضر عند استخدامه وفقاً للنمط الزخرفي الأحدث والذي كان يميل إلى الأشكال الطبيعية.

وعلى سبيل المثال اعتادت سيدات القصر على الاحتفاظ بعطورهن في علب على شكل سلاحف صنعت من اليشب. وعلى الرغم من ذلك لم تكن كل هذه المتعلقات من إنتاج فناني عهد تانج حيث عثر في منطقة التبت على ما عرف بكأس نبيذ مصنوعة من يشب كورانج، وهي كأس رائعة الجمال، وفريدة من نوعها وربما كانت هذه الكأس الصغيرة قد عرفت بهذا الاسم نسبة إلى نمطها الزخرفي، وليس إلى المنطقة التي صُنعتْ فيها. لكن مما لا شك فيه أن هذه التحفة هي من نتاج نجاد آسيا الوسطى.

ويعتبر استخدام الحلي المصنوعة من اليشب من التقاليد القديمة، حتى وإن اتخذت هذه الحلي أشكالاً جديدة. وهناك العديد من الحلي وأدوات الزينة التي تعود إلى عهد تانج، ومنها أشكال لطيور صغيرة مصنوعة من اليشب المُطعَّم والمكسو بالذهب والفضة، وقد استخدمت لتزيين الشعر، ومقابض أمشاط للشعر مصنوعة من اليشب ومحلاة برسومات لبشر وحيوانات في حالة استرخاء. وفي فترة أحدث اكتسبت الأحزمة المرصعة بأشكال الأسماك المصنوعة من اليشب

شعبية كبيرة باعتبارها رمزاً لمكانة الفرد الذي يرتديها ورفعة شأنه.

وقد أتت بعض هذه الحلي من خارج الصين، مثل الخاتم المصنوع من اليشب الأبيض الذي أهدته سمرقند إلى هسوان تسونج.

وقد انتشرت عادة جديدة بين أفراد طبقة النبلاء تمثلت في ارتداء أحزمة مصنوعة من حلي متصلة ومصنوعة من اليشب، بدلاً من الأحزمة التقليدية المصنوعة من الجلد أو الحلقات المعدنية التي كانوا يرتدونها تحت رداء «السوي» في المناسبات الرسمية. وحتى هذه الأحزمة كانت تأتي كهدايا من الأجانب، مثل الحزام المرصع بأحجار اليشب الذي أهداه ملك خوطان في عام 632 إلى تاي تسونج، والذي كان يتكون من 24 حلية من اليشب على شاكلة الهلال والبدر، وتعكس صناعته مدى التأثر بالنمط الفارسي في التصميم. وخلال النصف الأول من القرن التاسع أرسل أهل التبت في العديد من المناسبات أحزمة مرصعة باليشب إلى الحكام في عهد تانج، وقد عثر على حزام ملكي مرصع بسبع حلي من اليشب على شكل تنين في مقبرة وانج تشاين الذي حكم شيزوان قبل وبعد انهيار إمبراطورية تانج في عام 907.

وقد تم نحت كثير من الأشكال صغيرة الحجم من اليشب في عهد تانج منها: الجمال والأسود والسلاحف والأرانب والكثير من أنواع الطيور، علاوة على المخلوقات الأسطورية والرمزية مثل العنقاء الصينية. كما تم صنع تماثيل صغيرة من اليشب للخيول المفضلة لدى هسوان تسونج ، والتي عرفت صورها من الكتب المصورة، ومما ورد لها من ذكر في الأعمال الأدبية. وكانت يانج عقيلة الإمبراطور تعاني من متاعب في الرئة تسببها حرارة الصيف، نظراً لسمنتها المفرطة (كما قيل)، وللتخلص من هذه الحالة كانت تضع في فمها سمكة صغيرة مصنوعة من اليشب، وعلى الدرجة نفسها من الشهرة كان هناك حيوان آخر نحتت تماثيله من اليشب، وإن كان ذا استخدامات عملية أكثر من كونه ذا قيمة دينية. وتقول الرواية إنه فيما كان بعض الأمراء الصغار يلهون في القصر ألقت الجدة الإمبراطورة عدداً من

الألعاب الصغيرة المصنوعة من اليشب، والتي جاءت كجزية من البلدان الغربية، كي تشاهد تصارع الأمراء الصغار وتكالبهم للحصول عليها. لكن صبياً واحداً ظل ساكناً لا يشارك أقرانه التكالب على تلك الألعاب، وكان هذا الصبي هو إمبراطور المستقبل هسوان تسونغ، والذي عرفته الجدة الإمبراطورة بأنه (ابن سماوات الكون العظيم) والمرتبط بالأرض بسلام أبدي، لذا فقد أعطته الجدة تمثالاً صغيراً لتنين مصنوع من اليشب تخليداً لتلك المناسبة، وفيما بعد كان الإمبراطور يصلي لهذا الطلسم المقدس استدراراً للمطر في أوقات الجفاف.

وفي بعض الأحوال استخدم اليشب في صناعة صور لمخلوقات ملائكية. وفي المعبد البوذي المسمى «تمجيد الخير» يوجد تمثال لبوذا مصنوع من اليشب يبلغ ارتفاعه قدماً وسبع بوصات ومحاط بطيور السّلف الخرافية مصنوعة من المادة نفسها.

وثمة استخدام آخر وفريد لليشب المستخرج من خوطان يرجع إلى أصول طاوية، حيث استخدم كدواء لتخفيف كتلة الجسم البشري، ولإطالة العمر. وقد وصف هذا الدواء بدقة ضمن الأدوية المذكورة في السجلات الصيدلانية الإمبراطورية. وأفضل طريقة لاستخدام اليشب في هذا النوع الغريب من العلاج هو تناوله بصورة سائلة وفقاً لوصفة كيميائية قديمة، كما يمكن تناول اليشب في شكل مسحوق أو حبات صغيرة لتطهير أعضاء الجسم الداخلية من النجاسات.

الكريستال (البلّور)

ونعني بالكريستال أو الصخر الكريستالي بلّورات الكوارتز النقية والشفافة، وهي نوع من السيلكا عديم اللون. والاسم الصيني للكريستال هو «أصل منبع الماء

أو فحوى الماء».

ويتماشى هذا التركيب اللغوي مع العقيدة الصينية التي تقول إن هذه المادة المعدنية هي جليد متحجر. كما أشار بليني أيضاً إلى ذلك. ويوجد الصخر الكريستالي في العديد من المناطق، ولا يكتسب قيمته العالية إلا إذا كان تام النقاء، وهذه الصفة –بالإضافة إلى الدقة المتناهية في صنعه– هي ما يميز الأشياء المصنوعة من الكريستال، والتي تم استيرادها إبان حقبة تانج، مثل تلك المزهرية التي أهداها الراهب الياباني إنين، أو بعض الأشياء المصنوعة من الكريستال الصخري (بما في ذلك أقداح الشراب) التي جاءت على شكل هدايا ملكية من سمرقند إلى حكام تانج في أكثر من مناسبة خلال القرن الثامن، وكذلك الكأس الكريستالية المُهداة من كابيسا.

وقد استخدم الكريستال الصخري في الأغراض ذاتها التي استخدمت فيها أنواع أخرى من أحجار الزينة الصلبة. ونظراً لجماله الأخاذ كان الكريستال خامة مناسبة لأعمال فناني «أرض الجان». فعلى سبيل المثال فقد كان هناك «العصفور الذي لا يحترق» في قفص من الكريستال، وقد كان هذا العصفور من الأشياء التي تضمنتها قائمة الهدايا العجيبة التي قدمها سو أو، أما «عذراء القمر» التي ورد ذكرها في أحدى قصائد القرن التاسع فقد «...أنزلت شلالاً من الكريستال النقي هدية إلى حبيبها الأرضي».

وكمادة أخاذة،فرض الكريستال نفسه على الاستعارات والتشبيهات البلاغية، وغالباً ما كانت الأشياء المصنوعة من هذه المادة تُشبَّه في الصور البلاغية بالثلج، أو الماء، أو قطرات الندى، أو ضوء القمر، ومثال على ذلك تلك الأبيات التي وردت في قصيدة عن مزهرية كريستالية:

«أبدع الصناع المهرة مسبحة متعقدة الحبات،

غاية في الشفافية والنقاء،

حتى لا يكاد المرء يدرك وجودها،

كبريق النجوم أو شعاع القمر،

لا يضاهيها شيء».

وأيضاً الأبيات التالية في قصيدة عن مسبحة أحد الرهبان:

«رائع صقلت حباتها من جليد الربيع»

وأيضاً:

«وكأنها سُكِبت سكباً على وريقات زهرة لوتس،

وعندما تنظر إليها تبدو كقطرات الندى».

وكذلك في رباعية «وي وينج موو» في امتداح الكريستال:

«تعكس صور الأشياء بمختلف ألوانها،

فتبدو الأشياء كما لو كانت تدخلها وتخرج منها،

رفعتها بين يدي نحو ضوء القمر،

شفافة مشرقة -مرتجفاً خشية أن تستحيل ماء».

وبخلاف ما سبق من صور، هناك ما ورد في قصيدة نظمها «لي بو» تضمنت وصفاً لشجرة جوز ذات زهور بيضاء تحولت مجازاً إلى شبح راهب يخاطب مسبحته:

«على أطراف الرداء الأحمر الرقيق

واضحة للعيان،

مجللة بهالة من اليشب الأبيض -تكاد تراه،

أتخيله، في صورة راهب مسترخ،

تتدلى من رسغه مسبحة من أصل الماء

يداعبها بيده».

وتعتبر الصورة الملونة من الأشياء الأكثر شيوعاً مما قد يعتقد الكثيرون (هذا إذا كان هناك شك في هذا الأمر على الإطلاق). وقد كانت القوالب الإستعارية المتداولة تستخدم في الغالب ألواناً غير طبيعية (مثل الأزرق الداكن، والبنفسجي)، بيد أن هذه الصور قد فقدت معظم بريقها في عهد تانج. وعلى الرغم من أن أياً من شعراء العصور الوسطى في الصين لم يذهب إلى مثل ما ذهب إليه مارلو في استحضاره للألوان في صوره البلاغية –حيث كان يشير إلى الأشياء الخضراء بالزُّمُرُّد، والزرقاء بالصفير (الياقوت الأزرق)، والصفراء بالذهب والتوباز، والبيضاء بالعاج، أما نقاء جداول الماء والنوافير فقد شبهها بالفضة أو الكريستال– إلا أن قليلاً من البحث، يكشف أن الصينيين كانوا على الأقل يفرحون عند عثورهم على الجواهر أو الأحجار الكريمة في الأشجار أو الزهور أو مع الطيور، كما جاء في الشعر الملحمي التبتي:

«... في السهول، حيث تتلألأ أحجار الماس،

هناك بحيرة بها مرآة من الذهب والتركواز ».

العقيق الأحمر

ونعني بكلمة العقيق الأحمر تشكيلة من أنواع العقيق متفاوت الاحمرار، والتي هي أشكال نصف شفافة من السيلكا. وفي هذا السياق تستخدم الكلمة كترجمة للكلمة الصينية «ما–ناو» (والتي تعني أصلاً «مخ الحصان»)، والترجمة الإنجليزية لهذه الكلمة هي «Agate»، والتي تعني أيضاً «عقيق»، وهو الاسم الإنجليزي للعقيق المعرق بحلقات بيضاء ورمادية اللون، في حين إن كلمة «ما–ناو» كانت تشير (أثناء حقبة تانج على الأقل) إلى ظلال من اللون الأحمر. وإذا افترضنا أن كلمة

«ما–ناو» ترادف الكلمة الإنجليزية «Agate»فإنه تتعين الإشارة إلى أنها تعني نوعاً محدداً من العقيق ذي اللون الصارخ، لكن للتبسيط يمكن استخدام عبارة «العقيق الأحمر» لوصف الحجر الذي نتحدث عنه. وفيما يلي وصفٌ للون الأحمر الذي يميز حجر «ما–ناو»: في عام 846 أرسل بو–هاي هدية من حجر عبارة عن علبة يبلغ حجمها ثلاثة أقدام مربعة ذات لون أحمر قانٍ، لا تضاهى في صنعتها ودقتها، وفي مناسبة أخرى ورد ذكر اللون الأحمر الذي يميز هذا الحجر، حين قام رجل بتحطيم طبق مصنوع من «الما–ناو» وأرسل شظايا من حطام هذا الطبق إلى أحد أصدقائه مدعياً أنها حب الرمان. وأخيراً، وبلاغياً كان حجر «الما–ناو» يستخدم في الإستعارة البلاغية عِوضاً عن دماء الأشباح. وبالطبع فإن الأحمر القاني، والأحمر الدموي، والأحمر الرماني هي كلها من درجات العقيق.

وكان يتم استيراد كميات كبيرة من العقيق من الغرب، واستخدمت كلها في صنع الأشياء الصغيرة، وقد بقيت بعض تلك الأشياء المصنوعة من العقيق الأحمر (بما في ذلك إناء زهور)، والتي كانت قد أهديت إلى البلاط الإمبراطوري من سمرقند، ومن طوخارى التي كانت تقدم العقيق الأحمر الخام كجزية للإمبراطور. لذا يفترض أن هذه المادة كانت تحال إلى الفنانين في بلاط حكام أسرة تانج لاستخدامها في أعمال الحفر والزخرفة. وقد أهدت بعثة فارسية (قد تكون حكومة في المنفى) أريكة صغيرة مصنوعة من العقيق الأحمر. إلا أن هذا الحجر النفيس كان يُستقدم أيضاً من الشرق: ففي سنة 730 أهدى بو–هاي موهو كأساً من العقيق الأحمر، وقبل ذلك في عام 655 جاء مصباح كبير مصنوع من هذا الحجر الأحمر من اليابان. لكن من الواضح أن العقيق الأحمر المستورد من اليابان لم يكن أصلياً في بعض الأحيان.

وتزخر أدبيات حقبة تانج بفيض من الإشارات إلى أقداح وأطباق ودوارق وأنواع مختلفة من الأواني منحوتة من العقيق الأحمر. لذا لم يكن من المستغرب أن

يتضمن متحف الشزوين طبقاً يعود إلى حقبة تانج مصنوعاً من العقيق الأحمر على شكل ورقة نبات بكثير من التعرقات الواضحة، ويبدو أن فناني عهد تانج قد تفوقوا في نحت الأشياء الصغيرة تماماً مثل فناني خوطان الذين تميزوا في نحت تماثيل للحيوانات الصغيرة من العقيق الأحمر والعقيق الأبيض.

الملكيت

الملكيت هو كربونات النحاس الخضراء في صورتها الأصلية، ويمكن استخراج معدن النحاس الخام منها باستخدام الوسائل التقنية الحديثة، كما يمكن أن تُستخرج منها أصباغ تستخدم في صناعة الدهانات والألوان، أما إذا كانت أحجار الملكيت شديدة الخضرة وتتميز بوجود هالات حلقية فيها، مثل تلك الموجودة في بعض أنواع العقيق فيمكن استخدامها في العديد من الأغراض المتعلقة بالزينة والزخرفة، وفي صناعة الكثير من الأدوات المفيدة. وأكثر أنواع الملكيت شهرة في الأزمنة الحديثة هي تلك المستخرجة من منطقة الأورال، والتي استخدمت في روسيا لصناعة أسطح الموائد وفي أعمال الزخرفة والتطعيم الأنيقة. وفي الصين استخدمت مادة الملكيت، وفقاً لدرجة نقائها وجودتها لكل تلك الأغراض. وقد كان الملكيت وشبيهه اللازورد الأزرق من بين المواد التي كانت تستخرج لصناعة الألوان والأصباغ في تاي–تشو في شمال شانسي خلال حقبة تانج. ومما لا شك فيه أن مناجم النحاس في هسين تشو في المنطقة التي تعرف الآن باسم كيانجسي الشرقية قد أنتجت الملكيت (وهو شكل معتاد من أشكال النحاس)، ولكن يبدو أن الملكيت عالي النقاء، والذي يقترب في قيمته من الأحجار الكريمة لم يستخرج من هذه المناجم حتى القرن الحادي عشر، حيث انتعشت صناعة الجواهر في المدينة. كما استخرج الملكيت أيضاً من هسوان تشو (جنوبي أنهوي)، وكان يقدم كجزية، لكنه ليس من الواضح على وجه التحديد الغرض الذي كان يستخدم فيه الملكيت المستخرج من المنطقة، وما إذا كان قد استخدم في أعمال الزخرفة أو في

الصباغة والتلوين. وهناك الكثير من حوامل المرايا التي صنعت من الملكيت في القرن الثامن، لكن يبدو أن هذه المادة المعدنية لم تستخدم كثيراً في أعمال النحت، كما أنها لا تظهر إلا نادراً في الأعمال الأدبية. ويقال إنه قد ورد ذكر لها باعتبارها حجراً أخضر اللون (حيث كان يقطع ويشكل في الصين) في مناقشة حول مجموعة من البضائع القيمة التي جاءت كهدايا من روما في عام 643، وهنا لم توضح أي من المصادر التي بحوزتنا شكل هذه الهدية أو ماهيتها. وفي القرن العاشر، ظهر للملكيت استخدام جديد، وعلى الرغم من أن مناقشة هذا الاستخدام الجديد ستخرج بنا قليلاً عن حقبة تانج، فإن الموضوع على درجة من الإثارة تبرر تكريس هذا القدر من السطور له. فقد انتشرت عادة متمثلة في عرض مجسمات صغيرة للجبال على صوانٍ وأطباق خاصة، ولاسيما تلك الجبال التي تتميز بقسوة صخورها، ومنحدراتها الشديدة، وفي الواقع فإن لهذه العادة جذورها حيث كان من المعتاد صنع محارق البخور (المباخر) على شكل «جبال الكون» في حقبة هان، إلا أنه مع مطلع القرن السابع ظهرت في مكان ما في الشرق الأقصى فكرة استخدام الأحجار الطبيعية في صناعة هذه المباخر، بدلاً من المعادن المصنعة بهدف إضفاء لمسة جمالية طبيعية على أشكال الجبال الصغيرة. وهناك نموذج من هذه المباخر عبارة عن مبخرة على شكل جبل من الحجر الطبيعي مركزة في وعاء مقعر، وكانت قد أُهديت من دولة بخش الكورية إلى إمبراطورة اليابان سويكو. وتعتبر هذه المباخر أحد الأشكال الأولى «لحدائق الصقور الصغيرة» والتي عرفت باسم «جبال الأطباق» في حقبة سونج، علماً بأن هذا المصطلح لم يكن قد استخدم بعد في عهد تانج، على الرغم من أننا سمعنا عن «بحيرات الأطباق» والتي هي في الغالب نماذج مصغرة لحدائق تلتف حول بركة مرسومة على الأطباق، وبعد ذلك بثلاثة قرون (أي في بداية القرن العاشر) بدأنا نقرأ عن نماذج صغيرة للجبال مصنوعة من مواد معدنية خضراء وزرقاء:«كان المشرف العام في وو–ييه، واسمه صن تشينج–يو، يتمتع بثروة طائلة، فقد أنفق ألف قطعة نقد معدنية لشراء كتلة من

الحجر الأخضر كانت على شكل جبل، ثم أمر الفنانين أن يصنعوا منها مبخرة (من طراز مباخر جبال الكون)، وعند قمة المبخرة جعلوا فيها ثقباً غير مرئي، يخرج منه دخان البخور ليتجمع عند أحد الأجناب ثم ينساب بعد ذلك في الهواء في منظر بديع، مما حدا بمعارفه وأصدقائه المقربين إلى تقليده، وبعد ذلك أطلقوا على ذلك النوع من المباخر اسم (الجبل الفريد)».

ولم تكن التحفة هي كل ما صنع في عهد صَنّ من تحف فريدة، فثمة نموذج مصغر لجبل لي، حيث يوجد الحمام العام الشهير بالقرب من العاصمة الغربية، وكان النموذج مصنوعاً من خشب كافور بورنيو مطبوخاً بالحليب.

وفي الفترة ذاتها، أي العقود الأولى من القرن العاشر، اشترى أحد أمراء خيطان الذين حكموا منشوريا الجنوبية، حجراً منحوتاً على شكل عدة قمم عبارة عن مجسم صغير لمشهد طبيعي يعرف باسم «مكتنز الزرقة الداكنة» (والأزرق الداكن هو الاسم القديم الذي كان يطلق على اللازورد، أو خام كربونات النحاس الزرقاء، شديدة الشبه بالملكيت).

وبعد ما يزيد على مائة عام أرسلت دولة تا-لي التي حلت محل دولة نان-تشاو في يونّان مبعوثاً إلى بلاط سونغ لتقديم هدايا تضمنت إلى جانب السيوف، والدروع المصنوعة من جلد الكركدن، والسجاد، وسُروج الخيل، والهوادج، كتلة ضخمة من حجر ذي لون أزرق داكن (أو أخضر داكن) يسمى «بي كان». وليس معروفاً حتى الآن ما إذا كان هذا الحجر من الملكيت أو الزجاج الملون (كما يشير إلى ذلك أحد مصادر حقبة تانغ)، أو أنه من المرجان الأخضر، (حيث توجد أدلة قوية تشير إلى ذلك)، أو أنه من حجر السربنتين الأخضر الثمين، وكان السكان الأصليون في كل من يُونّان وبورما هم الذين يجلبون أحجار بي-كان الثمينة تلك المرغوبة إبان حقبة تانغ من مناطقهم الجنوبية الغربية النائية، كما كان يستخرج أيضاً في خوطان.

اللازورد الأزرق

تكتنف أهمية اللازورد الأزرق في الشرق الأقصى قدراً من الغموض، ويرجع السبب في ذلك إلى عدم التعرف على أي كلمة في اللغة الصينية تشير إلى هذه المادة المعدنية في حقبة ما قبل الحكم المغولي. ويبدو لنا الآن أن كلمة «سي—سي» والتي تلفظ «سوت سوت» في اللغة الصينية القديمة، والتي استخدمت لوصف الأحجار الكريمة ذات اللون الأزرق الداكن إبان حقبة تانج إنما استخدمت للإشارة إلى اللازورد الأزرق، وأحجار الصوداليت الزرقاء، والتي يصعب تمييزها عن اللازورد الأزرق، كما استخدمت في بعض الأحيان للإشارة إلى الياقوت الأزرق أيضاً.

لكن فيما يلي ستتم الإشارة إلى اللازورد الأزرق وفقاً للتسمية التي وردت له في المصادر الصينية افتراضاً لصحة ودقة تلك المصادر.

ويبدو أن رجال أسرة تانج كانوا يشترون احتياجاتهم من اللازورد الأزرق من مدينة خوطان التي عرفت بقلاعها خماسية الأضلاع، والتي كانت مدينة عزيزة على آلهات الأرض، كما كانت أنهارها غنية بأحجار اليشب. وفي أواخر القرن الثامن أرسل إمبراطور الصين عامله تشوجو يو (والذي يعني اسمه لؤلؤة تشبه اليشب) لشراء أدوات مصنوعة من اليشب من مدينة خوطان، حيث عاد الرسول بصولجان، وأدوات للزينة، ووسائد، وأدوات لتزيين الشعر، وعلب لمساحيق التجميل، وأساور، وغيرها من الحلي والأشياء المصنوعة من أجود أنواع النفريت، كما أحضر الرسول أيضاً «..... مائة حجر مصقول من اللازورد الأزرق»، ويبدو أن تجار مدينة خوطان قد حققوا ثروات كبيرة من تعاملهم في الأحجار الكريمة، علاوة على تجارتهم في أحجار اليشب التي كانت تستخرج محلياً. وفيما بعد عرف اللازورد الأزرق في بلاد الصين باسم «حجر خوطان»، الأمر الذي يعني أن أسواق الأحجار الكريمة في مدينة خوطان كانت قد احتكرت تجارة تلك الأحجار

في الشرق الأقصى وفي غيره من الأقاليم.

وتعتبر منطقة باداخشان ذات المراعي الخصبة والمناخ الصحي الموطن الأصلي للازورد الأزرق ومصدره القديم والتقليدي. وهناك حيث وادي نهر كوكشا، أحد فروع نهر أوكسوس كان يتم قطع اللازورد الأزرق، والأزرق الشاحب، وفي بعض الأحيان الأخضر أو الرمادي من الأحجار الجيرية. كما كان يتم استخراج «الإسبنيل الأحمر» من المناطق، كان يسمى «حجر بالاس الياقوتي» وهو من الأحجار الكريمة التي اكتسبت شهرة موازية للازورد الأزرق في الشرق خلال فترة العصور الوسطى.

وقد كان الصينيون على دراية بوجود المناجم التي تنتج هذه الأحجار الكريمة، حيث حددوا مواقعها على وجه الدقة إلى الجنوب الشرقي من تشاش (طشقند الحديثة) موطن أفضل الراقصين.

وحين استباح القائد الكوري كاو هيسين تشي، قائد القوات الصينية في الغرب، منطقة تشاش عام 750 استولى على كميات كبيرة من أجود أنواع اللازورد الأزرق، وكميات من الذهب وأعداد كبيرة من الجمال والخيول الحمراء.

وعلى الرغم من أن منطقة تشاش كانت مصدراً للازورد الأزرق كانت مدينة «خوطان» هي سوقه الرئيسية، إلا أن الصينيين اعتبروا هذا الحجر الكريم «جوهرة فارس الأولى بلا منازع». وقد كانوا على صواب في ذلك. فاللازورد الأزرق لم يكن مجرد حجر كريم استخدم في صناعة الجواهر الساسانية كغيره من الأحجار التي استخدمت لهذا الغرض مثل العقيق الأحمر، واليشب بأنواعه كما تشير الآثار الساسانية، بل إنه كان يتمتع برمزية خاصة في تمثيل الأجرام السماوية لدى الساسانيين، فقد استخدم في صنع «عرش خِسرو الثاني» الذي عرف باسم «تختيتاكديس» والذي كان عرشاً على شكل قبة تعلوها مظلة موشاة باللازورد

الأزرق والذهب، وتمثل النجوم والكواكب على خلفية سماوية زرقاء تشمل أشكال الأجرام السماوية، ورسومات تعكس أنماط المناخ المختلفة في العالم، إلى جانب صور لملوك فارس القدامى. وفيما يتعلق بالرومان فقد عرف الصينيون أن القصر الملكي في روما فيه أبواب مزخرفة بالعاج وأرضيات محلاة بالذهب وعروق الخشب العطري، ومجالس للملك صنعت من الكريستال والزجاج الملون، وأعمدة من اللازورد الأزرق. وربما يشير ذلك الوصف إلى أخبار ترامت إلى الصين عن بناء قد يكون قاعة ملكية أو واحدة من الكنائس الكبيرة في مدينة القسطنطينية في القرن السادس أو السابع، ويتضمن البناء المشار إليه تعريقات ذهبية في أرضيته المصنوعة من الفسيفساء، وأعمدة طليت باللون الأزرق اللازوردي. وقد طرح بليني وصفاً لللازورد الأزرق تحت اسم «الياقوت الأزرق» حيث كتب مذكراً بأن حجر «النجم الذهبي» هو المرادف لحجر خوطان في اللغة الصينية أثناء حقبة سونج. كما أشار بليني أيضاً إلى أن أفضل أنواع هذا الحجر كان يستجلب من ميديا.

وفي الصين نفسها كان اللازورد الأزرق من الهدايا القيمة، فعلى سبيل المثال أعطت الأميرة شقيقة يانج كوي—في، وكانت معروفة بأسرافها، كمية كبيرة من اللازورد في وعاء إلى النجارين الذين شيدوا لها قصراً جديداً. وبالإضافة إلى ذلك استخدم اللازورد في صناعة أجمل الجواهر. وتشير المصادر الموثوق بها إلى أنه كلما كان هسوان تسونج ينتقل مع بلاطه إلى قصره الشتوي في جبل لي خلال فصل الربيع الدافىء عند اكتمال البدر العاشر من كل سنة، كان الموكب الإمبراطوري يملأ الوادي بألوان زاهية وروائح عطرية فاتنة، بحيث كان يخلف وراءه آثاراً من حبات اللازورد الأزرق والنعال المزركشة على طول الطريق. ويوجد في متحف الشزوين حزام مرصع باللازورد الأزرق البنفسجي، ويعد هذا الحزام مثالا تقليدياً على الأحزمة التي كان يرتديها رجال البلاط في القرن الثامن. ويتضمن المتحف

أيضا «عصا سحرية لتحقيق الأمنيات» مصنوعة من العاج المرقش، وموشاة باللازورد الأزرق والعاج.

ولم يكن الصينيون وحدهم من بين شعوب الشرق الأقصى إعجاباً باللازورد الأزرق، فقد كان محل تقدير أهل التبت الذين فضلوه على كافة أنواع الأحجار الكريمة الأخرى، بل وفضلوه أيضاً على الذهب، وقد اعتبره التبتيون صورة من صور زرقة السماء وقالوا إن شعور آلهتهم لها نفس لونه الأزرق، وقد استخدم في الصناعة التي تزين بها الرجال والنساء في التبت. وهناك كتابات صينية (تعود إلى القرن العاشر) تشير إلى أن الرجال في التبت أثناء هذه الحقبة كانوا يرتدون قبعات صينية، وأن نساءهم كن يزين ضفائرهن بعقود من حبات الـ«سي–سي»، وقد ورد ذكر هذه الحبات الرائعة الجمال، والتي كانت تثمن بالخيول– ورد ذكرها لأول مرة في ذلك القرن، ومن المحتمل أنها لم تكن من اللازورد بل كانت من الياقوت الأزرق الداكن المصقول.

وكان اللازورد الأزرق من الأحجار الكريمة التي شاع استخدامها مع الأصداف والكهرمان لزينة الشعر لدى النساء في نان–تشاو، كما أرسل مليكهم هدية إلى إمبراطور الصين (ابن السماء) من اللازورد الأزرق، وبالمثل فقد كانت النساء في حقبة تانج يفضلن اللازورد الأزرق لزينة الشعر، وقد كرس الشاعر وين تنج–يون (القرن الثامن) قصيدة بأكملها عن مشابك الشعر المصنوعة من اللازورد الأزرق، وصف فيها هذه الجواهر بأنها «مثل حبات الجليد النقي الملون في شعورهن تتدلى مثل السحب المتدنية». علاوة على ذلك فقد كان اللازورد الأزرق مناسباً لزخرفة الأدوات المقدسة، فعلى سبيل المثال زخرت به اللافتات الرائعة التي صاحبت العربة المزخرفة والمعطرة التي حملت بقايا عظمة مقدسة تعود إلى بوذا إلى حفل استقبال إمبراطوري مهيب عام 873 ، كما استخدم اللازورد الأزرق في صنع أو ترقيق العديد من أدوات مختلفة الاستخدام والأحجام، مثل تلك الوسادة

التي تعود ملكيتها مع سرير مُذَهب إلى أحد كبار المسؤولين في فوكين التي كانت تحتكر تجارة الحديد والملح.

وعلى الرغم من أنه لم يرد ذكر لاستخدام اللازورد في العمارة الصينية، حيث لم تصلنا أية معلومات عن استخدامه في المباني الإمبراطورية إبان حقبة تانج في تشيد مثل تلك الأعمدة الزرقاء الكبيرة التي عرفتها روما الشرقية، إلا أن ذلك يرجع في الغالب إلى خطأ ما في تداول الوثائق الخاصة بالعصور الوسطى.

ومما يزيد الأمر غرابة أن استخدام اللازورد الأزرق كان شائعاً لدرجة كبيرة في زخرفة المباني، وخاصة تلك التكوينات الفنية التي كانت تشير إلى رموز معينة. واستخدام اللازورد الأزرق في المباني البيزنطية، وفي التشكيل السماوي الذي كَلّل عرش الملك الفارسي، ثم استخدم بعد ذلك بقرون في كاتدرائية القديس إسحق في مدينة سان بطرسبرج والتي احتَوتَ على «أعمدة من اللازورد الأزرق في مدخلها، أما قوائم المذبح فقد صنعت من الملكيت». وفي روسيا أيضاً استخدم اللازورد الأزرق في تساركوسيلو حيث ورد ذكر لاستخدامه في غرفة زينت جدرانها بالكهرمان إشارة إلى شواطيء بحر البلطيق الرملية؛ وبهو مزين باللازورد الأزرق المطعم بخشب الأبنوس وعرق اللؤلؤ. ومن وجهة النظر الصينية في القرون الوسطى فإن هذا الوصف ينطبق على صورة فارسية وليس روسية، حيث كان كل من اللازورد الأزرق والكهرمان يرتبط في المخيلة الصينية ارتباطاً وثيقاً بفارسُ علماً بأن مناطق تعدينهما تقع في أنحاء أخرى. ويمكننا القول بأن الصينيين لم يقلدوا النمط الفارسي بحذافيره، على الرغم من المحاولات في عهد تانج لنسخ الصورة المعمارية لـ«الرواق الوضّاء العتيق»؛ المعبد الاحتفالي الخاص بابن السماء، وخاصة قبابه ذات اللون الأزرق السماوي والذي لابد قد استوحيت من استخدام اللازورد الأزرق.

ومـن الجائـز أن يكـون الـلازورد الأزرق قـد اسـتـخـدم في تـزيين الحدائـق الإمبراطورية، فعلى سبيل المثال فقد أمر هسوان تسونج، الذي اعتاد أن يقضي فصل الشتاء مع مقربيه وكامل بلاطه فيما عرف بـ"القصر الشفاف" في التلال الحرجية الواقعة إلى الشرق من عاصمة ملكه، ببناء نموذج مصغر لجزيرة على شكل جبل من اللازورد الأزرق في أحد أحواض المياه المعدنية هناك، والتي كانت تجتمع حولها نساء الحريم الإمبراطوري، ويلهون فيها بقوارب صغيرة ذات مجدافين مصنوعة من خشب الصندل الأملس، وقد كان مثل هذا المنظر الطبيعي قمّة الرفاهية والترف في الحدائق الأرستقراطية قبل قرن كامل من استخدام الصخور الطبيعية في صناعة ما كان يعرف بـ«جبل الكون».

وفي القرن الثاني عشر ظهر للتداول نوع صناعي من الـ «سي–سي»، وهو في الغالب عجينة ذات لون أزرق لازوردي، ويبدو أن هذه العجينة كانت تصنع إبان حقبة تانج أيضاً، كما يبدو أن معظم الـ «سي–سي» الذي استخدم في هذه الحقبة كان من اللازورد الصناعي. كما كان قدماء المصريين قد استخدموا نوعاً من اللازورد الأزرق المقلد في تلوين النقوش على أقنعة المومياوات، وفي بعض أنواع الأثاث التي عثر عليها في مقبرة توت عنخ آمون. وهناك أيضاً عدد من النصوص الآشورية التي تعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، والتي تتضمن وصفات لصناعة عجينة الجواهر، بما في ذلك صناعة السيبرو (الياقوت) أو اللازورد الأزرق.

وقد أدت الشعبية الكبيرة التي تمتع بها هذا الحجر الكريم، والتي أتت من الشرق الأقصى إلى خلق صورة لونية جديدة ذات صلة وثيقة بالزبرجد، لذا كانت هناك حاجة إلى اسم جديد لهذا اللون لاستخدامه في الصور الشعرية: فكلمة «بي» ذات الدلالة الجميلة تشير في الأصل إلى اسم مادة معدنية، وأصبحت تستخدم الآن لوصف كل الدرجات اللونية الداكنة التي تتراوح بين الأزرق والأخضر. أما الصورة الأكثر تحديداً فكانت من نتاج الشاعر بوتشي آي، الذي اشتق اسم اللون

الجديد من اسم مادة معدنية بالطريقة التي اشتققنا بها اسم اللون اللازوردي والذي كان من قبل اسماً لأحد الألوان لذا فقد سبق بوتشي الشاعر تشوسر الذي كان أول شاعر إنجليزي يستخدم كلمة «اللازوردي» (اشتقاقاً من الكلمة الفارسية لازوارد) للإيحاء باللون الأزرق، بدلاً من استخدام كلمة اللازورد الأزرق. ولم تكن مثل تلك الاستعارات جديدة على الشعر الصيني، فعلى سبيل المثال كتب الإمبراطور الصيني تشاين وين تي، من أسرة ليانج هذا المقطع الشعري في القرن السادس :

«تتفتح أوراق العقيق بفعل الرياح،
والمياه تدفع دفعات بيضاء في لون البريل».

وفي هذا المقطع استخدم العقيق، وهو «الماناو» كإستعارة عن اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة،أما البريل وهو «ليو لي»، ذلك اللازورد الأزرق الصناعي فقد استخدم عوضاً عن العجينة الزرقاء أو الزرقاء المخضرة.

وكانت ال سي – سي المزدوجة نفسها قد استخدمت في الشعر قبل القرن التاسع ، ولكن من دون إشارة للون ولقد كانت شكلاً محاكياً لصوت فعلي مثل صرير الرياح واصطدامها بأوراق الأشجار. ولقد كان يانج شن (وهو من نقاد القرن السادس عشر) أول من كشف عن حقيقة أن ذلك المصطلح، والذي يرد بكثرة في قصائد بو تشو – آي كان صورة لونية براقة، على عكس ماكان يعتقده معاصروه الذين أجمعوا على أنه كان يحمل المعنى العادي في كتابات ذلك المؤلف. وعلى طريقة الزجاج الإمبراطوري الأزرق لأسرة ليانج فقد طبّق بو «الأزرق العميق» أو «اللازورد» (وهو حجر سماوي الزرقة)، أو «الألترامارين»(بمعنى زرقة مياه البحر البعيدة)، وكلها ترجمات ممكنة – طبق ذلك الوصف على لون الأمواج التي تحركها الرياح، كما طبقها على حجر بحديقته،

وعلى « الخريف»(والمؤكد أنه يقصد سماء الخريف الداكنة). وفي تلك الصورة البلاغية الأخيرة فقد صُوِّرَ اللون الأزرق البحري الداكن ليكون متناقضاً مع احمرار أوراق الأشجار في الخريف قياساً إلى أوراق الأشجار ذات اللون الأحمر العقيقي لدى تشاين ون تي . ولقد كان ذلك التناقض في الألوان من الصور البلاغية الغريبة حقاً في أوائل القرن التاسع، لكنها شاعت بالتدريج بين أكابر الشعراء في القرن العاشر حيث تبنوا اختراع بو تشو آي وزاوجوا بينه وبين اللون القرمزي الفاخر والذي كان يسمى دماء الجبون ولقد تم العثور على ذلك الاقتران الجديد في قصيدة للشاعر تانج كان (قرابة 860 م) صور فيها غابة ذات لون أزرق بحري وفي وسطها حديقة زهور بدماء الجبون. وفي قصيدة أخرى للشاعر وي تشوانج (قرابة 900م) نجد تناقضاً واضحاً بين اللون الأزرق اللازوردي لأمواج نهرٍ ما، ولون الدم الأحمر (لون الجبون) على لوحة رسمت بالألوان المائية، وكذلك في قصيدة للشاعر ين وين – كيوي (قرابة ٩٠٤م) ، وقد جاء بها مايلي:

«والندى في قلب الزهرة يتلاشى بفعل دماء الجبون
والريح على صفحة الماء ينتشر الشاش الأزرق»

وفيما يلي رباعية كاملة من إحدى قصائد الراهب الموهوب كوان هسيو حول أرض الأساطير (ولقد تساوت شهرته كشاعر بشهرته كرسام)، وإن كان اللازورد يتناقض هنا مع اللون الذهبي:

« ثلاث أو أربع حوريات،
أجساد ملفوفة في ثياب لازوردية،
وأيد تمسك بلآلئ قمرية مضيئة
يضربن بها لآلئ ذهبية اللون»

وهكذا فقد كان اللون الجديد ملائماً تماماً لذلك الحلم الذي انتشر في أواخر القرن التاسع، مثلما كانت الصور البلاغية الطاوية بالنسبة إلى الرهبان البوذيين في ذلك العصر . فكل تلك الازدواجات اللونية كانت إحياءً للنمط القديم الذي عفا عليه الدهر وعلاه التراب والكآبة، نمط تشنج تان، نمط اللازورد والزنجفر (كبريتيد الزئبقيك)، الذي بهت وأصبح أزرقاً وقرمزياً، وهذه استعارة عادية بالنسبة «إلى رسم متعدد الألوان».

أصل المعادن

في عام 643 التقى تاي تسونج مبعوثين من ملك روما، و قد حملوا إليه هدايا عبارة عن زجاج أحمر وأخضر، والملكيت، وشيء يسمى «أصل المعادن». ولقد روى الرومان الكثير عن غزوات العرب لبلادهم، وقد أحسن الإمبراطور استقبالهم، وأعطاهم خطاباً يحمل خاتمه، كما أهداهم أقمشة من الحرير الفاخر.

وفي عام 741 أرسلت طوخارى بعثة إلى تشانج آن، محملة بهدايا من الزجاج الملون والكهرمان الخام وكميات كبيرة من "أصل المعادن". كما أرسل ملك شيجانان ذلك الحجر الغامض ذاته (ويبدو أنه من الأحجار الكريمة). وتشير الكتابات والسجلات إلى أن صاقلي الأحجار الكريمة قد حصلوا على هذا الحجر من أحد أنهار كوران القريبة من طوخارى.

وعلى ما يبدو فإن كلمة «أصل المعادن» لم تصمم كاصطلاح يشير إلى أحد الأحجار الكريمة حتى عهد تانج، فقد تعين علينا أن ننظر في أدبيات الحقب السابقة للوصول إلى تفسير لهذا المصطلح، وللوصول إلى بعض الأدلة التي يمكن أن تحدد هوية هذا المعدن أو الحجر. وفي واقعة مماثلة تعود إلى القرن الخامس توصلنا إلى إشارات إلى أشكال لحيوانات بيضاء منها ذئاب، وأرانب، وعصافير، وطيور التدرج والحمام: «... وقد اعتبرت هذه الحيوانات فأل خير«أبيض» وتتحدّر من

أصل المعادن، مما يعني أن هذه المخلوقات تجسد فكرة «الأبيض» الذي يشير إلى الغرب، وأن «العنصر» أو «المعدن» يعكس عقيدة «العناصر الخمسة»، وفيما يلي مثال آخر يعود إلى حقبة «تانج»:

«وإلى الغرب من قمة الصولجان في جبل تشونج–نان سقط نجم أصل المعادن، ومن يومها سميت هذه القمة باسم «الجبل الأبيض العظيم»، ثم تحول النجم إلى حجر أبيض جميل يشبه في مظهره اليشب الأبيض».

و«النجم المعدني» أو«الأبيض العظيم» اسمان لكوكب الزهرة الذي استوحيت منه الصفة الجمالية للحجر الأبيض الذي يشبه اليشب الأبيض في مظهره ودرجة شفافيته، وقد كتب الشاعر بي جيه هِسيو واصفاً الماء بتلك الصفات قائلا:

«متبخرة في نقاء لب اليشب،
مبتهجة بصحو أصل المعادن».

و«لب اليشب» هذا كان مصطلحاً طاوياً قديماً، وقد ورد أيضاً في الحكايات الأسطورية للإشارة إلى المشروبات الروحية المقطرة من اليشب المسال، كما كان يعني أيضاً العقيق الأبيض. وتدعم هذه الأبيات الفرضية التي تقول إن «أصل المعادن» حجر شفاف أو ذو لون أبيض لؤلؤي يوازي في قيمته العقيق الأبيض أو اليشب.

ويبدو أنه من الصعوبة بمكان الجزم بماهية هذا الحجر الذي استُجلب لفترة قصيرة إبان حقبة تانج، وقد استخدم كما رأينا لتجسيد فكرة "أصل المعادن" الميتافيزيقية ذات الصلة بمبدأ الغرب والخريف، كما أشير إليه أيضاً باعتباره أصل اللون الأبيض للقمر، تماماً كما كان ينظر إلى اللازورد على أنه أصل النحاس، وإلى رهج الغار باعتباره أصلاً للذهب.

وباختصار يمكننا القول إن «أصل المعادن» كان حجراً نصف كريم، قليل التداول، ذا لون أبيض لامع. ومن المحتمل أن يكون«أصل المعادن» هو نفسه «حجر القمر»، الذي يعتبر أحد أنواع الفلدسبار التي تتميز بلونها الأبيض الناصع، والتي عرفت أيضا باسم «أدولاريا».

ومن المحتمل أيضاً أن يكون «أصل المعادن» هو «السيراونيا» التي ضمنها بليني قائمته الخاصة بالأحجار الكريمة البيضاء، «... والتي تستمد ضياءها ليس من الشمس ومن القمر فحسب، بل أيضاً من النجوم»، وكانت تجلب من منطقة كرمان في فارس.

الزجاج

لقرون طويلة عرف الصينيون الزجاج، وصنعوه منذ أيام حقبة تشو. وتميز اللغة الصينية بين نوعين من الزجاج الأول: «ليو-لي»، والثاني «بو-لي»، والليو-لي» هو الزجاج الملون الأكمد أو قليل الشفافية، أو السيراميك المزجج الملون، وهو يشبه الزجاج غير النقي الذي نطلق عليه اسم «زجاج العجينة» والذي اعتبر مادة بديلة للأحجار الكريمة، خاصة تلك ذات اللونين الأخضر والأزرق، بل إنه في بعض الأحيان كان يصعب التمييز بين هذا النوع من الزجاج والأحجار الكريمة الأخرى وخصوصاً اللازورد والبريل، والفيروز. أما النوع الثاني، «بو-لي»، فكان شفافاً مثل أحجار الكريستال، وعادة ما شُبِّهَ بالماء والجليد. وعلى الرغم من أن الزجاج «الليو-لي» كان معروفاً في الصين منذ قديم الأزل، إلا أن استخدام «البو - لي» كان مستحدثاً في صناعة الأواني في حقبة تانج.

ولا يعوزنا ذكر الكثير عن زجاج «ليو-لي» أو الجواهر المُقلدة. فقد كان معروفاً سواء في الحياة، أو في الأعمال الأدبية، وقد استحوذ على إعجاب الناس لسببين: الأول أنه كان يرد في بعض الأحيان ضمن هدايا السفراء القادمين من البلدان

الغربية، والثاني أنه قد وردت عنه أخبار من حضارات بعيدة مثل حضارة بايو في بورما التي اشتهرت بوجود علماء الفلك المتميزين، وبقوانينها البوذية ومعابدها المزينة بالبلاط المصنوع من «الليو-لي» والمطعم بالذهب والفضة. وقد انتشر استخدام «الليو-لي» في صناعة الأساور وحلي تزيين الشعر أثناء عهد تانغ، ويشير أحد سجلات العصور الوسطى، والتي يمكن تطبيقها على عهد تانغ إلى مزايا زجاج «الليو-لي»، المحلي منه والمستجلب من خارج الصين. ويوضح السجل أن الأنواع المحلية كانت زاهية الألوان لكنها هشة سهلة الكسر، أما تلك المستجلبة من الخارج فكانت ذات ألوان داكنة لكنها أكثر صلابة وأكثر تحملاً. وقد أعجب الشعراء بصفات هذا النوع من الزجاج، واستخدموه بلاغياً في وصف المناظر الطبيعية الأسطورية مثل «القصور الفخمة المزينة (بأصل الماء)، والمبلطة بالليو-لي» المصنوع من صخر الكريستال وعجينة الزجاج الملون.

إلا أن أدوات وأواني المطبخ المصنوعة من الزجاج الشفاف كانت تعتبر من الكنوز الغريبة حتى هذا الوقت. لذا كتب تشين تسانغ تشي عن الزجاج الشفاف قائلاً: إنه من مجوهرات البلدان الغربية، ويشبه اليشب وغيره من الأحجار الكريمة، وهو ينشأ في باطن الأرض، وهناك من يقول إن بعض أنواع الزجاج كانت في الأصل ماء تحول إلى هذه الصورة عبر آلاف السنين، وإن كان ذلك ليس بالضرورة صحيحاً. وهناك من اعتقد أن الزجاج شكل من أشكال الجليد، مثل الصخر الكريستالي، وقد وصلت عينات مصنوعة من هذه المادة المدهشة إلى بلاط تانغ من كابيسا، كما وصل أيضاً العديد من الأنواع من أماكن أخرى منها على سبيل المثال زجاج البو-لي الأزرق الداكن من فارخانا، وذو اللون الزهري واللون الأزرق من طوخارى، والأحمر والأخضر بدرجاته من روما. ومن المحتمل أن تكون هذه العينات التي قدمت على سبيل الجزية هي نفسها المحفوظة في متحف الشزوين، فعلى سبيل المثال يوجد في المتحف دورق من الزجاج الأزرق المزين بحلقات

ومثبتاً على قاعدة من الفضة، ومما لا شك فيه أن هذه التحفة لا تنتمي إلى نمط الفن الصيني. وهناك أيضاً إبريق من الزجاج الأخضر الفاتح على الطراز الفارسي أو من المحتمل أن تكون هذه الأدوات من إنتاج عهد تانج أخرجها الفنانون على النمط الغربي، وفي الوقت نفسه الذي بدأ فيه استخدام كربونات الصوديوم في صناعة الزجاج بدلاً من مادة الباريوم.

وعلى الرغم من أن زجاج اللو-لي كان يستخدم أساساً في أعمال التزيين والزخرفة والنحت، وفي صنع مختلف الأدوات الثمينة، (كما تخبرنا قصائد تانج) إلا أن زجاج البو-لي كان أكثر شيوعاً في صناعة الأواني والأكواب والأطباق وغيرها من الأدوات الشبيهة ذات الأصول الصينية والغربية والمعروضة في متحف الشزوين، والمنتشرة ضمن المقتنيات الخاصة والعامة في مختلف أنحاء العالم، وتذكر في هذا السياق -على سبيل المثال لا الحصر- قلادات من الزجاج الأخضر الداكن على شكل أسماك ذات عيون وأفواه وخياشيم ذهبية، وربما تكون قد صنعت لتماثل عصا الحساب التي كان مسؤولو حقبة تانج يستخدمونها في عملياتهم الحسابية؛ وكأس من الزجاج الأخضر الفاتح ذا حواف مموجة؛ وطبق زجاجي بني اللون مثبت على حامل صغير؛ وأجزاء وقطع من لعبة "الستة المزدوجة" ذات ألوان صفراء وخضراء داكنة وفاتحة؛ وكأس زجاجية ذات لون أحمر مائل إلى البني له قاعدة؛ ومزين برسوم نباتية بارزة مستوحى من المشغولات الفضية الساسانية؛ وقلادة ذات لون أبيض ضارب إلى الخضرة على شكل رأسي تنينين متقابلين ويحملان لؤلؤة؛ وقلادة أخرى كهرمانية اللون عليها تنينان متقابلان وذات خطوط حمراء بنية. وإذا كان هناك وصف لهذه الأعمال يعود إلى عهد تانج ففي الغالب كانت ستوصف بأنها مصنوعة من زجاج «الليو-لي» الذي يحتمل أنه كان يشير أيضاً إلى الزجاج المشابه للأحجار الكريمة.

بلّورة النار

في عام 630 أهدى إمبراطور تشام بلورة أو كرة نار (حبة النار أو اللؤلؤ الناري) في حجم بيضة الدجاجة إلى الإمبراطور تاي تسونج (من أسرة تانج)، ومعها رسالة توضح أنه عند وضع هذه البلورة بين أشعة الشمس وقطعة من الفتيل فإن الأخيرة سوف تشتعل. وقال الرسل الذين حملوا الهدية إلى الإمبراطور الصيني أن البلورة أحضرت من راكشاسا، وهي بلاد يقطنها رجال سود البشرة ذوو شعور قرمزية، ولهم أظافر مثل مخالب الوحوش وثمة وصف مماثل لحجر بلورة النار المستجلب من بالي في سجلات عهد تانج، وقد أرسلت دفاراڤاتي، وهي أيضاً من بلدان جنوب شرقي آسيا، مثل هذه البلورة مع كميات من العاج طالبين مقايضتها بالخيول. كما ورد في السجلات التاريخية أن تلك البلورات كانت تأتي أيضاً من كشمير التي عرفت لدى خبراء المعادن العرب بغناها بالصخور الكريستالية. وحينما حط «الحاج» إنين رحاله في تينج تشو في منطقة شانتونج في عام 839 قدم بلورة (كريستالية) كقربان إلى الإله سميوشي العظيم، داعياً إياه أن يعيده بسلام إلى اليابان بعد رحلة الحج التي كان بصددها.

وتعود الكلمة الصينية التي تعني البلورة (الكريستالة) إلى الكلمة السنسيكريتية "أجنيماني" أو "جوهرة النار"، وهو الاسم الذي أطلق على العدسات الحارقة في الهند، والتي يبدو أن هذه البلورات الكريستالية قد خرجت منها إلى الشرق بأسره. وفي الغالب وصلت هذه البلورات إلى الهند من الحضارة الهيلينستية (المتأغرقة أي بعد الإسكندر الكبير) في الشرق الأدنى، وقد وصف بليني استخدام الكرات الكريستالية في معرض حديثه عن العلاج بالكي، وقبل ذلك بفترة طويلة، في القرن التاسع قبل الميلاد، احتفظ الملك الآشوري آشور نصربال في قصره بعدسة مصنوعة من الحجر الكريستالي. أما في الصين فقد عُرف الزجاج المحدب والعدسات الكريستالية مع بداية القرن الأول الميلادي. وكان البديل

التقليدي لهذه العدسات شائعاً ومعروفاً في الصين إبان عهد هان، وهو عبارة عن مرايا مقعرة مصنوعة من البرونز عُرفت باسم «يانج سوي» أو «القداحات الشمسية» أو «القداحات التي تستخدم يانج، أو الشمس». وفي الواقع فإن أية أداة يمكنها تركيز طاقة الشمس (والتي كانت تعتبر في حد ذاتها تجسيداً للطاقة والضوء المقدسين) كانت تعتبر بالتالي أداة مقدسة قادرة على تجسيد الطاقة الكونية، ولذا اعتبرت «بلورات النار» الجديدة رافداً لتلك القوة. وفي الوقت نفسه كانت هذه الكرات الكريستالية تمثل رموزاً قمرية، بل ومجسمات صغيرة لكوكب القمر، وأحد أشكال «اللؤلؤ الناري» الذي كان يعد لعبة من ألعاب التنين، وفي الأصل كان ينظر إلى «لؤلؤة التنين» على أنها تجسيد لحالة القمر عندما يكون بدراً يرفعه منذ قديم الأزل، تنين الربيع على قرنيه إلى السماء في بداية كل عام، وكان يرمز إلى هذا التنين بنجم «السّماك الرامح» أيضاً، وهو أيضاً ما عرف في الهند باسم، «جوهرة تحقيق الأحلام» (ناجاس)، والتي توازي تنين المطر في الأساطير الشعبية الصينية.

وقد استخدمت تلك الكريستالات كرمز للشمس أو للقمر نظراً لما تميزت به من قدرة على تركيز الضوء والحرارة. ومن ناحية أخرى ارتبط «اللؤلؤ الناري» بأنواع من المجوهرات البراقة وهناك إشارات إلى "اللؤلؤ البراق" أو "الحبات البراقة" واللآلىء التي تسطع في الليل، وقد بدأت في الظهور في المعتقدات الصينية القديمة اعتباراً من حقبة تشو، ويعتقد أنها تعود أساساً إلى أصول هندية. ومن المعروف أن هناك مرادفاً لهذه الأفكار والتصورات في الكثير من الحضارات الأخرى، منها على سبيل المثال حضارة المانوية في سيرنديا حيث كانت «حبات القمر البراقة» تعد أفضل أنواع الجواهر. وقد ذكر أن الحجر الكريم المثبت على رأس صورة دياسيريكا في هيرابوليس كان «يومض ومضات باهرة في الليل».

وفي الغالب اعتبر الصينيون الأحجار البراقة «عيون الحيتان» التي تشع في الأصل قدراً من الضوء بشكل طبيعي لاحتوائها على الفسفور مثل أعضاء الكثير من الكائنات البحرية. ومما لا شك فيه أن هذه الكرات البراقة هي ذاتها «حجر الأماني» الذي يعود إلى «الملك التنين» المتواري تحت مياه المحيط، وقد عرفت الكرات البللورية في الصين منذ القرن الرابع، حين أرسلها شعب «موهو» من منشوريا كجزية في أكثر من مناسبة إلى بلاط «هسوان تسونج».

وهناك العديد من الأحجار البراقة التي تعود إلى أصول معدنية، وبعض هذه الأحجار يشع بريقاً بشكل دائم. وبعضها الآخر يشع قدراً من البريق عند حكه، أو رفع درجة حرارته. وأثناء الفترة الأولى من حكم هسوان تسونج، قدم سفراء من ميمار غ هدية عبارة عن حجر كريم عرف باسم «بيوك» وهو الاسم الذي أطلق على نوع من الخواتم المسطحة التي ترمز إلى الطبيعة الإلهية للإمبراطور أثناء حقبة تشو، إلا أن هذه الكلمة قد استخدمت أيضاً بالتبادل مع كلمة أخرى هي «بياك» وتعني «حجر أزرق داكن ضارب إلى الخضرة»،وإذا لم يكن هذا الخاتم الذي استخدم في المراسم والاحتفالات مصنوعاً من اليشب، فمما لا شك فيه أنه قد صنع من الكلورفان، وهو أحد أشكال الفلوريت التي تشع قدراً من البريق عند تعرضها للحرارة، وهو نفس المعدن الذي ينتمي إليه الزمرد الفسفوري الذي استخدم في صناعة التحف الكلاسيكية، مثل تلك العيون الخضراء في الأسد الرخامي الذي عثر عليه في قبر الملك «هيرماس» في قبرص، مما يدل على أن علماء الكيمياء في الحضارة الهيلينية القديمة كانوا على دراية بأساليب، يبدو أنها سحرية، لصناعة الأحجار الكريمة التي تشع ضوءاً في الليل، عن طريق طلاء بعض الأحجار بمادة فسفورية. وأكثر الأحجار التي طليت بهذه المادة كان من الزمرد والعقيق الأحمر. وتوجد أهم كرة نارية في عهد تانج على قمة بهو الأنوار التي تعتبر تكراراً للقاعة الكونية المقدسة التي بناها تشو سون تمثيلاً للسماء، وذلك بصفتة قادراً على

تنظيم فصول السنة وضبطها. ومنذ أقدم العصور كان البهو محلاً للنقاش والمداولات بين الفنانيين والمعماريين ومنظري الأسر الحاكمة. وقد احتدم الجدل حوله أثناء السنوات الأولى من حكم أسرة تانج، لكن محاولات إعادة تشييده لم تبدأ إلا عندما دمرت الإمبراطورة وو التي عرفت بغرابة أطوارها وتشبهها بالرجال (ويبدو أنها تشكل النظير الصيني للملكة الفرعونية حتشبسوت) أحد القصور الإمبراطورية في مدينة لو-يانج العاصمة الشرقية للإمبراطورية في عام 687، وشرعت في تشييد بهو الأنوار في محاولة منها على ما يبدو- لتحسين صورتها. وقد أنجز العمل في هذا المعبد الساحر في فبراير/شباط من عام 688، إلا أنه دُمّرَ تماماً على إثر حريق شب فيه في عام 695، لكن تمت إعادة إعماره على الفور ، حيث اكتمل العمل في المعبد الجديد في ربيع عام 696، وقد بلغ ارتفاع المبنى نحو 294 قدماً، وكانت مساحته نحو 300 قدم مربعة. وقد احتوى المعبد في داخله على تسع قوائم ثلاثية مصنوعة من البرونز، تشير إلى سيطرة الإمبراطوره على أقاليم الجزر التسع. وقد تعرض تمثال طائر العنقاء المصنوع من الحديد المزخرف، والذي كان يزين قمة القاعة للتدمير بفعل العواصف الشديدة، ومن ثم استبدل بكرة نارية (بيلّورة) رائعة الجمال. وثمة عمل آخر لا يقل جمالاً، هو النصب الحديدي الذي عرف باسم «محور السماء»، والذي بني عام 695 احتفالاً باستعادة أسرة تشاو للعرش، وكان طوله 105 أقدام، وعلى قمته كرة نارية رائعة، يحملها أربعة رجال كل منهم على شكل تنين. وقد حُفرت على الكرة أسماء كبار قادة الأسرة، وأسماء العديد من زعماء القبائل البربرية الخاضعين لسيطرة الأسرة وقد كان هذا النصب الرائع من تصميم ماوبولو والذي يبدو من اسمه أنه أجنبي.

وفي عام 738 ، أي بعد نحو اثنتين وأربعين سنة من دمار بهو الأنوار، كتب تسوي شو قصيدة عن «اللؤلؤة النارية في البهو البراق» بمناسبة الامتحان الذي خضع له لنيل درجة «السادة الشرفاء» قال فيها:

«من زاوية صحيحة يمكن للناظر أن يرى بناءً

متعدد الطوابق،

وهناك، بعيداً تبدو كرة نارية؛

وحين يهبط الليل، يتحول قمران إلى بدرين،

لكن حين يأتي الصباح تقف نجمة واحدة منفردة؛

وحين تصفو السماء يبقى لها بريق خافت،

وحين تتراكم السحب في استحياء،

وهناك بعيداً ندرك الصفاء الأعظم،

حيث تسترخي جوهرة الأمة في المدينة المعروفة»

وتشير السجلات التاريخية إلى أن هذه الكرة المعروفة كانت من البرونز، وإذا صحت هذه السجلات، فقد أطلق اسم الكرات الكريستالية القادرة على تركيز الحرارة، مع الاستمرار في استخدام المواد ذاتها التي استخدمت في صناعة مثل تلك الكرات إبان حقبة يانج. وقد كانت هذه الكرات خطوة نحو الوصول إلى الشكل النهائي للكرات التي استخدمت في الهياكل البوذية متعددة الطوابق، والتي أصبحت بعد ذلك رمزاً لسطوع حقيقة بوذا في أرجاء المعمورة.

وتتضمن إحدى الروايات الشعبية المكتوبة بلغة أدبية في عهد تانج إشارة إلى كرات النار أو بلّورات النار لكن باسم مشتق، مما يوضح أن هذه البلّورات تعتبر التطور الطبيعي للكرات البرونزية القديمة. كما توضح الحكاية أيضاً ما اعتقده الصينيون في الفترة من حيث ثروة الفرس وقواهم السحرية، ولا يسعنا في هذا السياق إلا أن نسرد جزءاً قصيراً من هذه الحكاية التي تقول إن البطل الشاب قد حصل على لؤلؤة ثمينة بعد أن أجتاز سلسلة من المغامرات المذهلة مع أشباح الكثير من العظماء الغابرين في الكهوف والمغارات والمقابر بالقرب من كانتون، والتي تشبه العالم السفلي في أدبيات الطاوية. وحين حضر الشاب إلى المدينة ليبيع اللؤلؤة

في «السوق الفارسي» أخبره عن قصتها رجل فارسي رغب في شرائها حيث قال:

«إنها لؤلؤة الشمس الحارقة، وهي من كنوز بلادي، بلاد الطاجيك، فمنذ زمن بعيد وفي بداية عهد هان أرسل الإمبراطور الصيني تشاو تو أحد الغرباء ليقيس الجبال ويحدد المسالك في البحار، لكن هذا الغريب سرق اللولؤة من بلادي وأحضرها إلى مليكه في بان – يو. وقد أخبرني المنجمون في بلادي أن كنزنا المفقود سوف يعود في عامنا هذا. لذا فقد استدعاني مليكي لتجهيز قافلة بحرية كبيرة محملة بالكثير من البضائع والخيرات والتوجه بها إلى بان– يو للبحث عن اللؤلؤة والعودة بها، وها هي في حوزتي اليوم». ثم أخرج الرجل الفارسي سائلاً مستخلصاً من اليشب، وغسل به اللؤلؤة فأشعت ضوءاً ملأ الغرفة بأسرها، ثم حمل معه كنزه الثمين وعاد بقافلته إلى بلاده.

العاج

كتب العالم الصيدلاني تشين تشوان قائلاً:

«في الأقاليم الغربية يستخدمون سن الفيل بكثرة في تزيين العربات والمقاعد، أما نحن في الأقاليم الوسطى فنقدره بأكثر من ذلك بكثير، ونعرف قيمته، ونستخدمه في الألواح الاحتفالية. وكلما يطرح الفيل أنيابه يقوم بدفنها أو إخفائها بنفسه حتى يستولي عليها الصيادون في مختلف أنحاء إقليم كورانج ويضعون بدلاً منها أنياباً مصنوعة من الخشب» وإبان عهد تانج، جلب الصينيون العاج من إقليم لينجنان التابع لهم، ومنطقة آنّام التي كانت أيضاً خاضعة لحمايتهم، كما حصلوا عليه من نان تشاو في منطقة يونّان، ومن مناطق أكثر بعداً مثل تشامبا، وباك آب، ودابا تانج في جزر الهند، ومن بلاد الأسود (سيلان).

وقد استخدم العاج بكثرة في صناعة الأدوات الصغيرة مثل عصي تناول الطعام، ومشابك الشعر والأمشاط، كما استخدم في تزيين الأدوات الأكبر حجماً وفي بعض الأحيان كان العاج يرقش بألوان جذابة مثل القرمزي، والأزرق الداكن، والأخضر، وكانت تتم زخرفة الأدوات المصنوعة من العاج برسوم نباتية غائرة فتبدو بيضاء اللون على خلفية السطح الطبيعي، كما كانت تلك الرسوم تلون أيضاً بألوان أخرى في بعض الأحيان. ويتضمن متحف الشزوين صندوقاً خشبياً مستطيل الشكل من خشب الصندل ومزخرفاً بتصميمات هندسية مطعمة بأنواع أخرى من الخشب والعاج الأبيض، والعاج المرقش بالأخضر. ويضم المتحف ذاته، ضمن مجموعة أكبر من المصنوعات العاجية، قيثارة مزخرفة برسومات لجبال وحيوانات وطيور، وأزهار، بألوان قرمزية وقليل من الأخضر والأزرق. ومن بين الأدوات الاحتفالية التي كانت تطلب للإمبراطور (ابن السماء) في مختلف الأعياد - مثل بيض الدجاج الملون لعيد الطعام البارد؛ و«عربات البرق» في عيد الانقلاب الشمسي الصيفي- طُلب من أحد المسؤولين في القصر أن يوفر في اليوم الثاني من الشهر الثاني، مجموعة من المساطر أو أدوات قياس جميلة التصميم على أن يكون بعضها مصنوعاً من خشب الساندرز المطلي، وبعضها الآخر من العاج المزخرف. ومما لا شك فيه أن المسطرة العاجية المزخرفة برسوم دقيقة وأشكال لحيوانات، والموجودة في متحف الشزوين هي من ضمن تلك الأدوات الصينية الإمبراطورية، التي استخدمها «ملك الشمس الياباني».ومن بين الأدوات التي تميزت بها حقبة تانج «ألواح الكتابة الاحتفالية» ذات الحواف الرأسية المستديرة، والتي كان يقدمها رجال البلاط لزوار الإمبراطور ومجالسيه اعتباراً من منتصف القرن التاسع على الأقل. وكان مستشارو الإمبراطور المقربين يأخذون هذه الألواح من رفوف مخصصة توجد عند مدخل القصر، فيما كان رجال البلاط والمسؤولين الأقل شأناً يحتفظون بألواحهم الخاصة في حقائب يحملها الخدم. وكانت الألواح الخاصة بالمسؤولين ذوي المراتب الرفيعة تصنع من العاج، في حين استخدم البامبو

(الخيزران) أو خشب الصندل في صنع الألواح الخاصة بالمسؤولين الأقل مرتبة. ويبدو أن بعض هذه الألواح كان كثيف الزخرفة. فعلى سبيل المثال: «كان وريث العرش في أسرة تانج يرتدي في ذهابه إلى الحفل الخاص ببلوغه سن العشرين وهو السن الذي يسمح له فيها بارتداء «غطاء الرأس، وعباءة وتاج ملكيين، ويتمنطق بسيف مرصع بالجواهر في غمد عليه بلّورة نارية، ويحمل في يده لوح كتابة مصنوعاً من العاج ومزيناً بالذهب».

ومن بين الاستخدامات الأخرى المتميزة للعاج، استخدامه في تزيين المركبات الخمس الخاصة بالإمبراطور (ابن السماء):

الأولى كانت مطعمة باليشب، والثانية بالذهب، والثالثة بالعاج والرابعة بالجلد، والخامسة بالخشب وكلها مزينة برسم رمزي لتنين أزرق على الجانب الأيسر، ونمر أبيض على الجانب الأيمن، ومزودة بمظلات زرقاء مشغولة برسومات «الجبل الكوني». وكان الإمبراطور يستخدم العربة المزخرفة بالعاج، والتي كانت صفراء اللون «إذا رغب في السير بسرعة اعتيادية في طريقه إلى مقصده».

كما استخدم العاج في أعمال النحت الصغيرة: فهناك على سبيل المثال: تمثال عاجي صغير للإلهة هاريتي وهي ترضع طفلاً ذا شعر أجعد، يعود إلى القرن الثامن أو التاسع.

ويوضح هذا التمثال ميل الذوق الفني في عهد تانج إلى رسم الأجسام الأكثر اكتنازاً، وإلى الأوضاع الأكثر انحناءً، كما يوضح هذا العمل كذلك تأثير النمط الفني القندهاري على الفن الصيني. كما يوجد أيضاً تمثال عاجي مطلي بعدة ألوان لفتاة وهي ترقص، يعود صنعه في الغالب لفناني حقبة تانج.

قرن الخرتيت (الكركدن)

يتشابه الدور الذي لعبه قرن الخرتيت (الكركدن) مع دور العاج في فن المنمنمات خلال حقبة تانج. وفي الواقع هناك ربط بين المادتين في اللغة الصينية، ولاسيما في الشعر. وكان الطلب على قرن الخرتيت كبيراً، لدرجة أنه على الرغم من وجود أعداد كبيرة من هذا الحيوان لا تزال تعيش في منطقة هونان كما رأينا، وكانت قرونها تقدم كجزية للإمبراطور، فقد كان من الضروري استيراد كميات منها من الخارج للوفاء بالطلب الكبير عليها. وكان يتم استجلاب قرون الخرتيت إلى ميناء كانتون من مناطق قريبة مثل نان تشاو وآنّام، ومن مناطق أكثر بعداً مثل جزر الهند، لدرجة أن الانقراض المتوقع حدوثه قريباً لخرتيت الهند الصينية يعزي بدرجة كبيرة إلى التجارة الصينية في قرن ذلك الحيوان إبان حقبة تانج. ويقال إن وحيد القرن كان يدفن قرنه المتساقط، ومن ثم يمكن للصيادين الحصول عليه بأمان واستبداله بآخر صناعي، لكن يبدو أن هذه المقولة ليست سوى نسخة مكررة لحكاية أنياب الفيل. وكان يتم صقل أفضل أنواع القرون بعناية حتى يظهر عليها بعد تلميعها أشكال تبدو كما لو كانت رسومات خطية لمخلوقات ومناظر مثيرة للانتباه. وقد اكتسب قرن الخرتيت أهمية خاصة في الطب الصيني خلال القرون الوسطى، خاصة باعتباره ترياقاً لكافة أنواع السموم. ويرجع الاعتقاد في قدرته العلاجية إلى القرن الرابع، ومن المحتمل أن يكون هذا الاعتقاد قد انتقل من الصين إلى آسيا الغربية، ومنها إلى الإمبراطورية الرومانية. وأثناء حقبة تانج كان يتم التداوي بمسحوق قرن الخرتيت (كان يعتقد أن حمل قرن الخرتيت ملفوفاً في ورق في الصدور يلين مادته الخام ويسهل عملية طحنه)، أو يبتلع رماده مع الماء. وفي فترات سابقة كان يتم تجويف القرون واستخدامها ككؤوس طبية على شاكلة الكؤوس التي تصنع من قرون الجاموس المجوفة أصلاً، إلا أن معظم الكؤوس القرنية التي عرفت في حقبة تانج كانت صغيرة ومستديرة ومصنوعة بشكل أكثر ملاءمة

للاستخدام. ولا يمكننا الجزم بأن مستخدمي تلك الكؤوس كانوا يتوقعون أنها توقف أثر السموم. وتُوجد كأس على شكل قرن صغير ضمن مقتنيات متحف الشزوين.

وكان ينظر إلى قرن الخرتيت على أنه مادة مناسبة للاستخدام في صناعة الجواهر، كما استخدم أيضاً في صناعة العلب الصغيرة والأساور، ومثاقل الأوراق، ومقابض السكاكين، وعصي تناول الطعام، ومعظم الأدوات الأخرى التي كان العاج يدخل في صناعتها. كما استخدم قرن الخرتيت في صناعة أثقال مزخرفة للستائر حيث قرأنا عن «... سرير مصنوع من العاج بستائر من قماش رقيق ذات أثقال مصنوعة من قرن الخرتيت».

وفي الحفلات واللقاءات الإمبراطورية كان رجال البلاط وكبار المسؤولين يتمنطقون بأحزمة مزينة بحلي من قرن الخرتيت ذو اللون الأسود الكهرماني المعرق، والذي كان يضاهي في قيمته اليشب والذهب، وقد ذاع صيت تلك الأحزمة في موانيء وأسواق البلاد الإسلامية. ويوجد في متحف الشزوين حزام من الجلد المدبوغ مزين بصفائح ملونة. وتشير سجلات تو-يانج المتنوعة إلى أن الإمبراطور تشنج تسونج الذي حكم في القرن التاسع كان لديه مثل ذلك الحزام الذي كان يبرق في الليل.

كما استخدم قرن الخرتيت أيضاً في صناعة نوع من العصي السحرية الطويلة والمسطحة ذات الحواف الدائرية، وهذه قد استخدمها الرهبان البوذيون بقدر كبير من التبجيل عند قراءتهم للنصوص الدينية المقدسة، ويزخر متحف الشزوين بنماذج عديدة لتلك الأدوات المقدسة، منها واحدة محلاة بكريات زجاجية وخطوط مذهبة ورسوم غائرة لزهور وطيور مختلفة مطعمة بالعاج، وأخرى عليها رسوم لطيور وفراشات وسحب فضية، ذات مقبض من خشب الصندل المطعم بالعاج.

أنياب الأسماك

تلقى القصر الإمبراطوري في أكثر من مناسبة خلال عهد تانج هدايا مصنوعة من أنياب الأسماك من بلاد سيلا، كما أُرسلت من منشوريا هدايا عبارة عن مادة عرفت باسم «كتوت»، وتعني هذه الكلمة بالفارسية «دندان ماهي» أي أنياب السمك، وبالعربية تعني «الخطوط» وكلتاهما تشير إلى أنياب حيوان الفظ الشبيه بالفقمة، كما استخدمت أيضاً للإشارة إلى أنياب مستخرجة من حفريات حيوان الماموث في سيبيريا. أما «الخطوط» فكانت ترسل كجزية من ينج– تشو التي كانت تضم أكبر حامية صينية في جنوب منشوريا. وأما «أسنان الأسماك» التي أتت من سيلا ومعظمها من أنياب حيوان الفظ فقد تضمنت أيضاً أنياباً من حفريات حيوان النرول (كركدن البحر) من شواطىء سيبيريا المطلة على المحيط الهادىء .

اللؤلؤ

تمتع اللؤلؤ بقوة وسحر من نوع خاص، ويبدو أن الناس في حقبة تانج كانوا يعرفون أن سحره الأخاذ لا يُعْرف حق قدره إلا في بلاد بعيدة عنهم، ففي تلك العوالم البعيدة عَرف الناس كيف يستفيدون من مزاياه الفريدة، خاصة فيما يتعلق بالتحكم في العنصر المائي الذي يحتوي اللؤلؤ جوهره في داخله.لذا فقد اعتقدوا أن اللؤلؤ يرشد إلى مواقع آبار المياه العذبة في الصحراء، وإلى أماكن كنوز ملوك الجان في قاع البحار، وتلك كانت، على الأقل، صفات «اللؤلؤة العظيمة كاشفة الأسرار» التي أهداها ملك كابيسا إلى الإمبراطور هسوان تسونج (كما أشارت السجلات التاريخية) والتي قيل عنها:

«إنتشر ضياؤها في كافة أرجاء الحجرة، وداخلها بدا رجال في هيئة السِّلف (الخرافي الذي يعيش في السماء) يلهون مع نساء أجسادهن من اليشب وسط

سحب كثيفة دانية وإذا تضرع لها المرء بإخلاص في حالة الفيضان أو الجفاف أو الحرب، أو عند فقدان شيء ما فإنها لا ترده خائباً».

وقد استشهد العديد من الكتاب الموثوق بهم في القرنين التاسع والعاشر بهذه الحكاية، لذا يمكننا أن نثق بوجود تلك اللؤلؤة، والتي ربما تكون قد نحتت على شكل كرة من معدن براق يظهر عليها أشكالاً لنباتات ومخلوقات أسطورية، لكنها كانت بالنسبة للصينيين لؤلؤة سحرية من أرض أسطورية تسكنها مخلوقات خرافية.

وتشير الأساطير الصينية إلى أن تجار الفرس كانوا يمتلكون أفضل أنواع اللؤلؤ، ولا يألون جهداً في السعي لاقتنائه. وتشير الرواية التالية، والتي يبدو أنها من حكايات البحارة وقد عدلت لتناسب الذوق الصيني، تشير إلى هذا التصور:

«وفي هذا الزمن الأخير حضر إلى فو–فينج رجل غربي من فارس وبحث عن مكان يبيت فيه إلى أن وجد نُزُلاً في المدينة، وبالقرب من مدخل النُزل، كان هناك حجر مربع استرعى انتباه الرجل الفارسي، فظل ينظر إليه ويتفحصه لعدة أيام، وحين سأله صاحب النزل عن سر اهتمامه بذلك الحجر أجابه الفارسي أنه يرغب في شراء هذا الحجر من مالكه بأي ثمن يريده، وعرض لذلك ألفي قطعة نقدية لشرائه من صاحب المكان الذي فرح فرحاً عظيماً لهذه الثروة وأعطاه الحجر فحمله الفارسي إلى خارج المدينة وفلقه واستخرج منه لؤلؤة رائعة لا يقل قطرها عن بوصة كاملة. ثم أخرج سكيناً وأحدث جرحاً تحت إبطه وخبأ فيه اللؤلؤة ثم قفل عائداً إلى بلاده في رحلة بحرية طويلة. وبعد عشرة أيام في البحر، بدأت السفينة تتعرض لمتاعب جمة، وكانت على وشك الغرق وأدرك بحارتها أن وراء ذلك أحد آلهة البحر يبحث عن كنز يرغبه بشدة، وحين أعياهم البحث عن شيء ثمين يقدمونه للإله الغاضب رغبوا في إلقاء الرجل الفارسي في البحر، فما كان منه إلا أن فتح جرحه وأخرج اللؤلؤة الثمينة، فأخذها البحارة، وتلو تعويذة سحرية

ونادوا قائلين إن كنت ترغب في هذه اللؤلؤة فخذها وخلّ عنا، وعندها أخرج إله البحر يده وكانت غاية في الضخامة ومغطاة بشعر كثيف فأخذ اللؤلؤة وخلى عنهم».

لذا فقد كان اللؤلؤ دوماً مثالاً للثروة والجمال والقوى الخارقة. وفي التعبيرات المجازية استخدم للإشارة إلى الشخص واسع الثراء، ومثال على ذلك وصف الرسام الصيني بن لي–بن للشاب الموهوب تي جن–تشيه الذي تبوأ فيما بعد منصباً رفيعاً بأنه «درة ثمينة ألقاها البحر الأزرق». كما كان اللؤلؤ، وخاصة عند الإشارة إليه باسمه السنسيكريتي «ماني» رمزاً لبوذا وشريعته. وفي الروايات الصينوهندية كان اللؤلؤ أيضاً هو «جوهرة الأمنيات» التي تحقق لصاحبها أمنياته ورغباته. كما وجد الصينيون والهنود على حد سواء صلة وثيقة بين اللؤلؤ والقمر. وقد اعتبر الصينيون أن اللؤلؤ هو «ين» (هذه مادة قمرية أنثوية) مزروعة في قلب المحارة التي تحويه، كما اعتقدوا أيضا أن «جنين اللؤلو» الموجود في قلب المحارة يتشكل ويتكون وفقاً لتغير أوضاع القمر.

وفي الأزمنة القديمة استخرج الصينيون اللؤلؤ من سواحلهم الوسطى، لكن مع تأسيس إمبراطورية هان أصبح الإقليم الذي عرف في تلك الحقبة باسم إقليم هو–بو وهو من المناطق النائية الموحشة، ويقع في المنطقة التي تشغل الآن جنوب غرب كوانجتونج هو المصدر الرئيسي للؤلؤ. ونظراً إلى أن العاج، وقرن الخرتيت، والفضة، والذهب، والفواكه، إضافة إلى اللؤلؤ كانت تجلب كلها من المناطق الجنوبية فقد ترسخت صورة الجنوب كمصدر للخيرات التي ينبغي أن تسخر لخدمة الشماليين. وقد تعرضت مصائد اللؤلؤ للصيد الجائر للدرجة التي أدت إلى استنفاذ مخزونها الطبيعي منه. وفي الفترة الأخيرة من حقبة هان تمكن الحاكم العام للإقليم منج تشانج من إحياء مصائد اللؤلؤ التي كانت تعتبر المصدر الأساسي للدخل في ذلك الإقليم، وذلك من خلال مجموعة من الإجراءات الحكيمة التي عمدت إلى

تنظيم صيد اللؤلؤ والمحافظة على مخزونه الطبيعي. ونظراً للنجاح الكبير الذي حققته تلك الإجراءات، ارتفعت مكانة الرجل، واعتبر الراعي الروحي لتلك المصائد. وقد ظهر موضوع عودة اللؤلؤ إلى «هو–بو» في العديد من القصائد التي نظمت في عهد تانج، والتي أشارت أيضاً إلى التدهور الاقتصادي الذي نتج عن الاستخدام الجائر لموارد اللؤلؤ.

وقد تعرضت مصائد اللؤلؤ للعديد من التقلبات تحت حكم أسرة تانج. ففي البداية كان يتعين إرسال اللؤلؤ كجزية إلى البلاط الإمبراطوري. لكن تم وقف العمل بهذا الأمر في 25 ديسمبر/كانون أول عام 655. ويبدو أن نظام دفع الجزية من اللؤلؤ قد أعيد مرة أخرى، حيث تشير السجلات إلى أنه قد تم التوجيه بوقف التوريد مرة ثانية في27 أغسطس/آب عام 714، لذا تحول هو–بو إلى إقليم منتج للفضة بشكل أساسي حتى 18 أغسطس/آب عام 863. وبهدف توفير أسباب الرزق لسكان الإقليم وتحسين أحوالهم المعيشية سُمح مرة أخرى بممارسة صيد اللؤلؤ وتجميعه في «حوض اللؤلؤ» وهو أكبر المراكز البرية لإنتاج اللؤلؤ في الجزيرة (ومن الجدير بالذكر أيضاً أن السكان المحليين كانوا يقبلون على تناول لحم محار اللؤلؤ بعد تجفيفه بتركه على شرائح من خشب البامبو). وكان يتم الحصول على اللؤلؤ أيضاً من مصائد المياه العذبة في غربي شيزوان.

وقد تمتعت أنواع اللؤلؤ الذي كان يستجلب على السفن التجارية القادمة من البحار الجنوبية باحترام وإعجاب أكبر بكثير من كافة الأنواع التي استخرجت من المصائد الصينية، نظراً لبهاء ألوانها وبريقها الآخاذ:

«هناك في الأراضي الجنوبية يغرد الكثير من
الطيور؛

حيث المدن والقرى نصفها بلا أسوار؛

والأسواق تعج بحشود من قبائل المتوحشين؛

وقرى الجبال التي تحمل أسماء الأنهار.
ويرتفع الضباب الثخين من خلف المرتفعات الرملية،
وحيث تنبثق ألسنة اللهب من بين زخات المطر في الليل. فلا يقدر أحد على المرور غير هذا الوحيد الذي يسعى وراء اللؤلؤ عاماً بعد آخر وهو في طريقه للبحر الجنوبي».

وتلك هي ترجمة آرثر والي للقصيدة التي نظمها الشاعر الصيني «وانج تشاين» تحت عنوان «الجنوب». وقد تلقى الصينيون هذه الصور عن أرض النيران بمشاعر من الارتياح والغيرة في آن واحد، مظهرين الكثير من الازدراء لها حيث اعتبروها مجرد فقاعات لحضارات متخلفة، يتعين عليها الرضا والقبول بالنزر اليسير مما يصل إلى شواطئها المتخلفة من شذرات الحضارة الصينية. ونجد هذه الصورة واضحة المعالم في القصيدة التي نظمها لوينج إبان حقبة تشنج تسونج في أوائل القرن التاسع بعنوان «اللؤلؤة العظيمة التي قدمتها البلاد الغربية» والتي تضمنت صوراً مثل: «لذا تم تحويلهم إلى التقاليد المتبعة في الوطن الأم، حيث اجتاحتهم تلك التقاليد كما تجتاح الرياح حشائش الأرض».

وبالمثل كانت النظرة إلى «حبات اللؤلؤ الرائعة» التي جاءت من الهند عام 749 في شكل هدية تتكون من مائة لؤلؤة قدمها سفراء الملك رودرافرمان الثاني ملك تشامبا، واللآلىء الخام التي جاءت من بلاد الفرس «شعب الجان» في عام 750 (ثم في عام 771) ومن سيلان عام 750،ومن اليابان عام 839.

وسواء كان محلياً أو مستجلباً من خارج الصين كان الاستخدام الأهم للؤلؤ هو ترصيع الملابس والأثاث المنزلي، كما ساعد شكله الطبيعي على استخدامه في صنع الستائر. روايات القرنين التاسع والعاشر المدونة إلى أن حبات، اللؤلؤ المتميزة،أو الجواهر التي يمكن يدخل اللؤلؤ في صنعها كانت تعتبر من الهدايا الثمينة التي

تقديمها للمعابد البوذية في ذلك الوقت.

و لم يفلت اللؤلؤ من براثن الصيدلانيين في حقبة تانج، مثله مثل غيره من المواد التي استخدمت في تحضير الدواء، سواء بفائدة أو من دونها. ففي الطب، أو لنقل في ممارسة السحر استخدم اللؤلؤ لعلاج داء إعتام العدسة (الكتراكت)، ولعلاج الكثير من أمراض العيون الأخرى، لما للؤلؤ من شبه بشكل العين البشرية، ولما يتمتع به من صفاء وبريق مثل البدر في تمامه. وقد حظي اللؤلؤ بمكانة خاصة عند الطاويين الذين اعتبروه من الأدوية التي تطيل العمر، وكان يتم طحن اللآلئ الثمينة وتحويلها إلى مسحوق قبل استخدامها ضمن التراكيب الدوائية.

دروع السلاحف

وإبان حقبة تانج كان يتم إحضار دروع السلاحف من لو-تشو في منطقة آنّام لاستخدامها في صنع أدوات زينة الشعر، وتزيين أغطية الرأس، وفي تزيين الأدوات المنزلية الثمينة. وبالإضافة إلى ما تم استجلابه من لو-تشو تشير السجلات إلى شحنة من دروع السلاحف وصلت مع فتاتين زنجيتين، وأعداد من حيوان الخرتيت الحية بصحبة سفارة من كالينجا. ويضم متحف الشزوين ريشة رائعة للعزف على القيثارة مصنوعة من دروع السلاحف، ومطعمة بعرق اللؤلؤ على شكل رجل غربي يعزف على القيثارة وهو جالس على ظهر جمل. وفي الغالب فإن هذه القطعة، وغيرها من الأعمال الفنية التي دخلت في صنعها دروع السلاحف قد جاءت من بحار الجنوب الدافئة. ويبدو أن دروع السلاحف قد أسهمت بدورها في إلهام الشعراء كما في الأبيات التالية:

«والماء المترقرق يتجمع في صفاء،

وزهور الحدائق مزركشة مثل دروع السلاحف».

مهد نبتون

اعتبرت أصداف البطلينوس العملاق (والذي عرف أيضاً «بمهد الإله نبتون» وهو من الرخويات ذات الأصداف الكبيرة التي تستخدم في الصناعات الفنية لما تميزت به هذه الأصداف من لون أبيض ناصع البياض، وتجاعيد عميقة)، اعتبرت في الصين القديمة من الأحجار نظراً لعدم معرفة أصلها، ولأنه كان يتم صقلها مثل أحجار اليشب. وقد شاع استخدام تلك الأصداف في صنع الكؤوس وأواني الشرب في أوائل العصور الوسطى. وأثناء حقبة تانج كان يشار إلى عرق اللؤلؤ على أنه من إنتاج روما، وأنه من ضمن العناصر السبعة الثمينة التي ورد ذكرها في أدبيات الحضارة الهندية تحت اسم «سابترانتا». وهناك من الأدلة ما يشير إلى أن هذه الأصداف المروحية الشكل كانت تستجلب أيضاً خلال حقبة تانج، لكن النصوص المتوافرة لا تجزم بذلك.

المرجان

تتضمن السجلات التاريخية لعهد تانج وصفاً للطريقة التي كان الرومان يحصلون بها على المرجان الثمين:

"هناك بالقرب من جزيرة مرجانية صغيرة في وسط البحر، يستقل البحارة سفناً ضخمة ويدلون منها شباكاً حديدية إلى قاع البحر. وحين يبدأ المرجان في النمو على الحواف الحجرية يكون ذا لون أبيض يشبه الفطريات، ثم يتحول إلى اللون الأصفر بعدسته. وفي غضون ثلاث سنوات ينمو في شكل فروع متداخلة يصل ارتفاعها إلى ثلاث أو أربع أقدام، وتكون جذوره قد تشابكت مع الشبكة الحديدية فيقوم البحارة برفعها إلى السطح، وإذا فاتهم موعد الحصاد و لم يجمعوا المرجان، فإنه يتعرض للتعفن».

وبالطبع فإن هذا الوصف يتناول المرجان الأحمر الثمين المستخرج من البحر الأبيض المتوسط، والذي نال شهرة واسعة في كافة أرجاء العالم المتحضر. وكما كان معروفاً إبان حقبة تانج، كان المرجان ينمو أيضاً في أعالي البحار الجنوبية، كما كان يستجلب من فارس وسيلان. ويبدو أن اسمه الصيني مشتق من الكلمة الفارسية القديمة «سانجا» والتي تعني «الحجر».

وقد كان للتشكيلات الشجرية للمرجان أكبر الأثر في المخيلة الصينية، حيث بدت لهم تلك التشكيلات أشجاراً حقيقية من بلاد الخيال أو أنها أشجار الجواهر في جنائن الآلهة الخالدة. وقد وصف الشاعر وي ينج–وو (الذي عرف بذوقه الرفيع والذي كان يطلق البخور أينما جلس) المرجان قائلاً:

«شجرة قرمزية باسقة بلا زهور ولا أوراق،
لا هي بالحجر ولا هي بالجوهر،
وأنّى لرجال عصرنا أن يصلوا إلى منشئها،
فهي لا تنْمُ إلا هناك على قمة جبل بيينج–لاي».

وبيينج–لاي هي جزيرة المخلوقات السماوية الخالدة في البحار الشرقية، التي حاول أسلاف تشين وهان الوصول إليها؛ إلا أنها أصبحت مجرد حلم في حقبة تانج. لذا فإن وجود شجيرة مرجانية في حوض الحديقة يمكن أن يعكس صورة مخملية لما يحويه عالم الأحلام هذا من أشجار ونباتات.

وثمة شبيه قاري لشجيرات المرجان في جزيرة بيينج–لاي تلك، وهي شجيرات «المعدن الغامض» الذي عرف باسم «لانج كان». في كون–لان، التي كانت المقابل لجزيرة بيينج–لاي في العالم الخارجي البعيد، حيث تنمو ثمار «الدراق التي تمنح الخلود».

وقد عرفت أشجار الجواهر الأسطورية تلك منذ أيام الأسلاف القدامى، وكانت ذات أوراق زرقاء وخضراء، أو أزرق ضارب إلى الخضرة، وقد ورد ذكرها في

أمهات الأعمال الأدبية في حقبة تشو، وأوائل حقبة هان. وعلى الرغم من أن شجرة "لانج- كان" التي قيل إنها كانت تنمو في الغرب، كانت تشكل في حد ذاتها أسطورة أخرى مستقلة، تماماً، مثل شجرة المرجان التي تنمو في الشرق، إلا أنه كان يتم استجلاب مادة عرفت أيضاً باسم «لانج-كان» من الشعوب البربرية التي قطنت الجنوب الغربي، ومن خوطان أيضاً إبان حقبة تانج. ويقول بعضهم إن هذه المادة نوع من أنواع الزجاج الشبيه بالعجينة الملونة المسماه ليو-لي والتي ورد ذكرها من قبل، فيما يذهب بعضهم إلى أن مادة «اللانج-كان» نوع من المرجان الذي يكون أحمر اللون عند استخراجه من مصائده، إلا أنه يتحول تدريجياً إلى اللون الأزرق مع مرور الوقت. ومن المحتمل أن «اللانج-كان» كان نوعاً من المرجان الأزرق أو الأخضر، وأن أنواعاً أخرى منه كانت عبارة عن معدن زجاجي المظهر ذي لون أزرق ضارب إلى الخضرة.

وعلى أية حال فإن هذه المادة لا تبعد كثيراً عن مادة «الكان» ذات اللون الأزرق الداكن، والتي صنعت منها نماذج مصغرة للجبال، وقد أحضرت من يُونّان إلى الصين في القرن العاشر (وذلك كما لاحظنا أثناء مناقشتنا للملكيت).

وقد استخدم المرجان الأحمر المستجلب من الغرب في صنع الخواتم والأساور والقلادات وغيرها من أنواع الجواهر، ولتزيين أسطح الأدوات الثمينة. ولا تخلو أشعار حقبة تانج من إشارات إلى مشغولات دخل المرجان في صنعها، مثل أقراط ومشابك الشعر التي تتزين بها الجميلات، أو حاويات الأقلام المصنوعة من المرجان.

الكهرمان

والكلمة التي تعني كهرمان في اللغة الصينية هي «زيو-بويك»، وهي ذات دلالة

جميلة، وتعني «روح النمر». وقد تم التعرف على أصل هذه الكلمة من خلال الحكايات التي تقول إن نظرة من مقلة النمر المحتضر تؤدي إلى تكون المادة الشمعية للكهرمان.

وتذكرنا هذه الحكاية بالأسطورة اليونانية القديمة التي تقول إن الكهرمان هو الصورة المتحجرة لبول حيوان الوشق، لكن توان تشنج شي، وهو جامع للكتب والغرائب التي تعود إلى عهد تانج، يقول: «يذهب بعضهم إلى أن دم التنين يتحول إلى كهرمان عندما يسيل على الأرض»، إلا أن «سجلات مان الجنوبية تشير إلى أن هناك في رمال نينج–تشو أنواعاً من الدبابير الصغيرة، وعند انهيار الحواف الرملية تظهر تلك الحشرات، حيث يجمعها الناس ويحرقونها، ومن نتاج تلك العملية يصنع الكهرمان».

ويبدو أن هذه الحكاية الغريبة مستوحاة من العثور على بعض الدبابير وغيرها من الحشرات مطمورة في الكهرمان. وعلى أية حال يمكننا القول بأنه ليس ثمة علاقة بين «روح النمر» وكلمة «زيو بويك»، والتي هي في الغالب مستعارة من إحدى لغات آسيا الغربية أو الجنوبية، والكلمة مشتقة من كلمة "زاروباه" القريبة من كلمة «هارباكس» السورية التي أوردها بليني.

وعلى الرغم مما شهدته العصور الوسطى من ربط بين الكهرمان وما يمثله كل من النمر والتنين من قوة وطاقة، فان أصل المادة كان معروفاً منذ القرن الثالث على الأقل.

وتوضح السجلات الصيدلانية في حقبة تانج أنهم كانوا على دراية بأصل مادة الكهرمان، فعلى سبيل المثال جاء في كتاب «الأعشاب الأساسية في شو»: «والكهرمان، كمادة، هو في الأصل العصارة التي تسيل من بعض أنواع الأشجار، فتسقط على الأرض، ثم تتحول بعد ألف سنة إلى كهرمان». ليس هذا فقط، بل إن

الشعراء أيضاً عرفوا تلك الحقيقة عن الكهرمان كما تشير إلى ذلك القصيدة الغنائية القصيرة التي كتبها وي ينج-وو، والتي جاء فيها:

«مرة وصف بأنه الشجرة الإلهية حين تشيخ،
لكنه نسخ شجرة الصنوبر الباردة،
ثم تسقط فيه بعوضة أو حشرة،
وبعد ألف سنة قد تراها هناك».

«والشجرة الإلهية»، أو ما يعرف باسم «شجرة الأزدرخت الإلهي» هي في الأصل نوع من النباتات الفطرية الثمينة التي تنمو بين جذور الصنوبريات، وكان يعتقد أنها تشكل مرحلة وسطى في تكون مادة الكهرمان من الراتنج الصمغي الذي يسيل من أشجار الصنوبر. وقد أعتقد الصينيون أن هذا الراتنج (الكهرمان) من إنتاج روما. كما كان يستجلب أيضاً من إيران، ويبدو أن هذا هو الكهرمان الثمين الذي كان يأتي من المناطق المتاخمة لسواحل البلطيق. كما استجلب الكهرمان أيضاً من مصادر أكثر قرباً مثل بورما العليا بالقرب من ميتكينا (وبالقرب من مناجم الجاديت التي اكتشفت بعد ذلك بعدة قرون)، وكان الناس في نان-تشاو يقومون بجمع الكهرمان، الذي استخدمه نبلاؤهم في صنع أقراط زينوا بها آذانهم مثل شعب الكاتشين. وهناك هدايا مصنوعة من الكهرمان جاءت من تشامبا، ومن اليابان. كما أحضر التجار تشكيلة كبيرة من منتوجات الكهرمان عبر بحر الصين الجنوبي. وقد لعب الكهرمان دوراً مشابها للدور الذي لعبه المرجان في صناعة الجواهر إبان حقبة تانج، حيث استخدم في صنع حلي السيدات، والأدوات المنزلية الصغيرة الثمينة، ومن بين الأدوات المصنوعة من الكهرمان والموجودة في متحف الشزوين قطع لعبة «الستة المزدوجة»، وقلادة على شكل سمكة، ومسابح، وحبات خاصة بأحد التيجان الاحتفالية، ومرايا عشقت أطرها وقوائمها بالكهرمان. ومثل غيره من المواد الثمينة الأخرى التي اعتُقد أنها تمنح

جمالها وديمومتها لأعضاء الجسم البشري، كان للكهرمان استخدامه في الطب أيضاً. فقد حازت أشجار الصنوبر اهتمام الصينيين القدامى، كما أن الراتنج المستخلص من تلك الأشجار كان يستخدم كإكسير للحياة، وقد نظر إلى الكهرمان على أنه راتنج الأشجار محفوظاً ومحاطاً بمواد لها قوى روحية. وعلى وجه أكثر تحديداً استخدم الكهرمان لعلاج حالات الدم الفاسد، ووقف النزف الناتج عن الجروح التي تسببها طعنات الأسلحة. وباختصار يمكننا القول إن الكهرمان قد دخل في الوصفات التقليدية القديمة التي تقوم على فكرة كونه شكلاً من أشكال الدم، وقد استمر استخدامه بناء على هذه الفكرة خلال حقبة تانج على الرغم من توافر المعلومات الصحيحة بشأن أصل مادته.

وبالنسبة لشعراء حقبة تانج فقد شكل الكهرمان لوناً مفيداً في الصور الشعرية، يستخدم للإشارة إلى اللون الأحمر الضارب إلى الصفرة، واستخدموه كناية عن النبيذ، وقد شاهدنا من قبل كيف استخدمه الشاعر لي بو خلال حديثنا عن الزعفران. لكن هناك حالة أخرى للإشارة إلى الكهرمان في البيت التالي الذي أورده تشانج يويه:

«وفي البهو الشمالي يقدرون النبيذ الكهرماني حق قدره». أما الشاعر لي هو، الذي يعتبر من أبرز الشعراء الصينيين خلال القرن التاسع، فقد زاد على ذلك باستعماله المباشر للكهرمان كناية عند النبيذ، وذلك في إطار أسلوبه الشعري الذي تميز بالتصوير اللوني للمشاعر والعواطف. وقد تميز أسلوبه بالاستخدام الكثيف للصور الشعرية التي تتضمن ألواناً مثل الذهبي، والفضي، والأخضر الداكن، وبالطريقة التي استخدم بها اللون الأبيض للتعبير عن الضياء الباهر والتناقض العاطفي في وصفه للمناظر الطبيعية (كما في الصور الفوتوغرافية ذات اللونين الأبيض والأسود). فعلى سبيل المثال كانت السماء بيضاء، وأيضا رياح الخريف بيضاء. وفيما يلي بعض من الأبيات تضمنتها قصيدته المعنونة «فلتحضروا لنا

النبيذ»:

«في أقداح زجاجية ملونة،

يبدو الكهرمان ثخيناً،

ومن قنينة صغيرة يتساقط النبيذ

فيستحيل لؤلؤاً حقيقياً،

ومن التنين المتوهج،

والعنقاء الملتهبة يسيل اليشب الثمين،

والريح العطرة تداعب الستائر والمظلات

ليعزف مزمار التنين،

ولتقرع طبول التمساح،

ولترقص الدبابير،

وحين يقترب الربيع الأزرق من نهايته

تتساقط زهور الدراق

مثل المطر الوردي المضطرب،

وأهمس إلى سيدي أن يشرب حتى الثمالة حتى
نهاية اليوم،

وألا يدع النبيذ يراق على الأرض فوق قبر
ليولينج!!

وليو لينج هذا واحد من «حكماء بستان البامبو السبعة» القدامى، والذي عرفت عنه معاقرته للنبيذ، لدرجة أن زجاجات منه قد دفنت معه في قبره، واليوم تعتبر إراقة النبيذ بمثابة أضحية سواء بقصد أو بغير قصد، مثل حمل الفحم إلى نيوكاسل.

الكهرمان الأسود

يعتبر الكهرمان الأسود من المواد الأحفورية ذات الأصل العضوي، والتي استخدمت في صنع الجواهر خلال العصور الوسطى. وعلى الرغم من ليونته النسبية، فقد عرف في بعض الأحيان باسم اليشب الأسود، ووفقاً للمعارف القديمة فإن الكهرمان الأسود إحدى مراحل تطور الكهرمان العادي الذي يتحول لونه إلى الأسود بعد مرور ألف سنة، ويمكن الحكم على أصله الخشبي من الرائحة التي تنبعث منه عند حرقه. وقد استخدم الكهرمان الأسود في تعاويذ يرتديها الأطفال الصغار لحمايتهم من الأرواح الشريرة، وكان يستجلب من مناجم في منطقة كوكو في سيرنديا.

«أطباق من الخزف اللامع، و ملاعق ذهبية،
أطباق و دوارق تحتضن السكر الأبيض،
وروائح البخور العطرية
تفوح من صناديق مرصعة بالذهب و الماس؛
و أشياء لا تقل روعة وجمالاً من العقيق،
تتدلى منها سلاسل ذهبية،
بعلامات غامضة و رموز جديدة،
ذهبية هي خلاتها، وذهبية أيضاً ساعة معصمها،
وذهب كل ما تلمس يداها».
"رحلة إلى ميريلاند؛
أو غرفة ملابس السيداق" (شاعر مجهول)



الفصل السادس عشر

المعادن

المعادن

لعبت المعادن دوراً مهماً في حضارة تانج، كما عرفت تلك الحقبة تقدماً كبيراً في أساليب تشغيلها واستخدامها، وغالباً ما سعى الزوار الأجانب إلى اقتناء المصنوعات المعدنية وأخذها معهم إلى بلادهم مما حدا بالصينيين لإصدار مراسيم تمنع تصدير الذهب والفضة والنحاس والحديد، وتحظر على التجار الغرباء الاستحواذ على العملات المعدنية. وعلى الرغم من غنى الصين بالثروات المعدنية الطبيعية فقد كان هناك نقص دائم في بعض المعادن ومنها الذهب.

الذهب

كان يتم الحصول على الذهب من مصادر محلية في منطقة شزوان إبان حقبة تانج، حيث كان يستخرج من الطبقات الغرينية في تلك المنطقة. وقد عرف الذهب المستخرج من هذه الطبقات باسم «نخالة الذهب». وقد كتب الشاعر هسو تانج عن منطقة لونج تشو (وهي حالياً المنطقة الشمالية من الإقليم الذي يعرف حالياً بالاسم نفسه) حيث تجري المياه بيضاء وتحلق الطيور الحمراء في السماء:

«كل ما تنبت الأرض هو دواء،
وكل ما تخرج هو جزية ملكية من الذهب».

لكن مناجم الذهب في لينجنان وآنّام، التي كانت تقع في مناطق شديدة الوعورة لا يقوى على العيش فيها إلا سكانها الأصليون، وكانت أكثر أهمية من مناجم لونج–تشو.

«ويقول أهالي الجنوب إنه أينما تسقط أنياب الثعابين السامة على الصخور، أو حين يلتصق روث الأفاعي بالصخور، أو حين يسقط عليها روث طائر اليوان، تتفتت تلك الصخور وتتحول الأجزاء التي تلقت تلك السموم إلى ذهب خام».

وقد أشار العالم الصيدلاني الكبير تشين تسانج-تشي هو الآخر إلى أنه يمكن تمييز الذهب الخام، وهو مادة معروفة بسميتها، عن الذهب الأصفر غير الضار، وقال أيضاً إنه قد شاهد بنفسه ما يلي:

«كثيراً ما شهدت رجالاً يستخرجون الذهب، حيث يحفرون في الأرض أكثر من عشر أقدام، إلى أن يصلوا إلى طبقة الصخور السوداء التي تبدو كما لو كانت مسحوقة، وأسفل هذه الصخور تُوجد قطع من الذهب، أكبرها في حجم الإصبع، وأصغرها في حجم حبات وبذور القنب، ولونها أصفر رخامي. وإذا كانت شديدة الطراوة بحيث يسهل قضمها فهذه ذهب حقيقي لكنها تصيب العمال بالتسمم إذا ابتلعوها خلسة، إلا أنني لم أشاهد ذلك بنفسي. أما نخالة الذهب فيتم استخلاصها بنخل رمال النهر وغسلها».

ويشير مصدر آخر إلى أن الناس الذين يعيشون على ضفاف أنهار فو-تشو، وبين-تشو، وتشانج-تشو (وكلها يقع جنوبي كوانجتسي) يقضون نهارهم في العمل في مواقع مخصصة لغسل غرين الأنهار بهدف استخلاص الذهب. وبالقرب من كانتون كانت هناك «بحيرة الذهب» حيث شرع السكان المحليون فجأة في تربية البط والإوز لأنهم «لاحظوا وجود قشور رقيقة من الذهب في براز تلك الطيور المنزلية، لذا فقد توسعوا في تربيتها بأعداد كبيرة، حيث كانوا يغسلون روثها ويحصلون منه يومياً على أوقية أو نصف أوقية من الذهب، مما حقق لهم ثروة كبيرة».

وقد استمر الباحثون عن الذهب في استخدام المؤشرات النباتية الدالة على وجود المعادن، والتي وردت في كتب التعدين القديمة، والتي تقول إن وجود نبات

الزنجبيل يدل على وجود النحاس أو القصدير؛ والبصل البري يشير إلى وجود الفضة، في حين ينمو القفلوط (الكراث الأندلسي) أينما وجد الذهب، ومن الحقائق التي ثبتت مؤخراً في الغرب أن وجود آثار بعض المعادن في التربة يساعد على نمو أنواع معينة من النباتات، وبالتالي فإن نمو بعض النباتات يعد مؤشراً على وجود معادن معينة بكميات قابلة للتعدين بالقرب من أماكن نموها.

وقد عرف أيضاً أنه يمكن اصطياد الذهب باستخدام الزئبق، لكنه ليس معروفاً على وجه اليقين ما إذا كان العاملون بالتعدين قد عرفوا فن استخراج الذهب من التراب أو الصخور المطحونة باستخدام طريقة الملغَمة. ومن المحتمل أن هذا الفن كان من الأسرار الطاوية. وقبل مجيء أسرة تانج إلى سدة الحكم في الصين كان من النادر استخدام الذهب والفضة كمعادن أساسية في صنع الأطباق والأواني أو حتى الجواهر. وقد دخل الذهب على نطاق ضيق في صناعة الحلي الشخصية كبديل للبرونز. كما استخدم الذهب أيضاً في تحلية الأواني البرونزية. بيد أن الطرز الفنية الفارسية المتبعة في التطعيم بخيوط رفيعة من الذهب والفضة ضمن خلفيات جميلة قد استحوذت على اهتمام الحرفيين المشتغلين في الصين (ومن الراجح أن هناك في الصين بعض الورش المتخصصة في المشغولات الذهبية أقامها الفرس الذين فروا إلى هناك هرباً من الغزو العربي لبلادهم، وأن هؤلاء قد علموا صنعتهم لأقرانهم الصينيين)، الأمر الذي جعلهم يتخلون عن الأساليب التقليدية في صناعة الأدوات المعدنية التي كانت تعتمد أساساً على القولبة. ومع هذا الطراز الفني الجديد، الذي اكتسب شعبية كبيرة، بدأت تظهر التصميمات والرسومات الساسانية الفارسية: مثل رسومات رحلات الصيد في المناطق الطبيعية، والتعرقات المتسقة هندسياً والأشكال الزهرية. وعلى الرغم من سيطرة النزعة الجديدة؛ فإن الأنماط التقليدية في زخرفة المعادن لم تندثر تماماً، فعلى سبيل المثال كانت هناك سيوف بمقابض فضية وأنصال مطعمة بالذهب، وخناجر ذات مقابض خشبية وأنصال نقشت عليها رسوم زهرية مطعمة بالذهب.

وقد استخدم فنانو عهد تانج أيضاً أنماطاً مختلفة من الزخارف الذهبية مثل أوراق النبات، والرقائق الذهبية، ونمط نقوش الأبليك. وقد استخدمت رسومات أوراق النبات في العديد من الأعمال الفنية كما تشير النماذج التي عثر عليها في تون هونج، ويضم متحف الشزووين العديد من الأدوات الجميلة المزينة بهذه الرسوم، منها على سبيل المثال آلة موسيقية تشبه القانون عليها نقوش ذهبية لطيور ونباتات. وتشير السجلات إلى أن مدينة هوان-تشو في منطقة آنّام كانت واحدة من المدن التي اشتهرت بوجود الحرفيين الذين ينتجون المواد التي استخدمت في تلك الأعمال الفنية الرائعة.

وقد استخدمت المعادن النفيسة أيضاً في زخرفة الأسطح المصقولة، ويعرف هذا النمط الزخرفي باسمه الياباني «هيداتسو».

وهناك العديد من الأمثلة التي تعود إلى حقبة تانج، والتي استخدم هذا الأسلوب في زخرفتها ومنها: صناديق ذات أغطية مصقولة وعليها زخارف فضية وذهبية لطيور وزهور وسحب. وتوضح الأدبيات أن هذا الأسلوب الزخرفي قد استخدم في كافة أنواع الأدوات والمقتنيات، فحينما كان «روخشان» على ولائه في تشانج -آن منحه هسوان تسونج العديد من الهدايا القيمة، مثل ملاعق وعصي طعام مزينة بقرن الخرتيت والذهب، وصحن منقوش بالذهب والفضة على طريقة «هيداتسو»، كما منحت زوجة الإمبراطور هدية كبيرة لهذا الزعيم الأجنبي العظيم، عبارة عن صناديق مصقولة بأحجار كريمة ونقوش ذهبية على طريقة «هيداتسو».

وكان يعتقد أن فن برغلة الذهب، والذي كان معروفاً في الكثير من أنحاء العالم القديم قد اندثر، إلا إنه تم اكتشاف سر ذلك الفن في القرن العشرين. وتتلخص طريقة البرغلة في تسخين حبيبات الذهب إلى درجة الاحمرار في وسط من رماد

الفحم الحجري، مما ينتج عنه طبقة رقيقة من كربيد الذهب (الذهب المتحد مع الكربون) التي تعمل على لحام حبيبات الذهب على السطح الذهبي الرقيق عند تسخينها في الهواء وبعد التخلص من عنصر الكربون الموجود في كربيد الذهب. وقد كان هذا الأسلوب معروفاً في الصين القديمة، إلا أن موطنه الأصلي يعود على الأرجح إلى جنوب روسيا. وقد عثر في لو-لانج المستعمرة الصينية في كوريا على إبزيم ذهبي لحزام مرصع بحجر الفيروز وأشكال للتنين الصيني وكريات ذهبية صغيرة. ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ تلك القطعة ذات الأصل الصيني، وإن عثر عليها مع قطع أخرى تعود إلى الفترة بين القرنين الثالث والثامن. وعلى أية حال فقد تميزت أعمال الذهب المبرغل التي صيغت إبان حقبة تانج بوجود أسلاك من الذهب المحبب، كما تدل على ذلك التفاصيل الدقيقة لرسم العنقاء المصنوع من رقائق الذهب والذي كان يطرز على أغطية الرأس الذهبية، أو رسوم الطاووس المصنوعة من رقائق الذهب وأسلاك الذهب المحبب، والتي استخدمت في زخرفة مشابك الشعر.

لكن الذوق العام أثناء العصور الوسطى في الصين، كما في غيرها من مناطق العالم، كان قد اتجه إلى أسلوب الزركشة بالتخريم بدلاً من البرغلة. وهناك الكثير من مشابك الشعر الجميلة التي تعود إلى عهد تانج والتي استخدم في صناعتها الذهب المُخَرم، واللؤلؤ والفيروز وغيرها من الأحجار الكريمة.

أما مسحوق الذهب فقد كان له دور كبير في الرسم الزخرفي إبان حقبة تانج، وقد استخدم في الرسومات الطولية إبان حقبة تون هوانج، وفي تزيين زهور اللوتس المصنوعة من الورق الأخضر والتي استخدمت على الأرجح في احتفالات نثر الزهور البوذية. وهناك أيضاً غمد خشبي لأحد الخناجر مطلي بالذهب وعليه نقوش ذهبية لطيور وزهور وسحب، فيما طليت حلقة تثبيته في الحزام بالفضة.

ومن المحتمل أن يكون فن الطلاء بالذهب من الاختراعات التي تعود في الأصل

إلى حقبة تانج، حيث توجد إشارات إلى هذا الفن في العديد من قصائد القرن التاسع. وقد استخدمت الفضة (وأيضاً الذهب الصلب) في طلاء تشكيلة واسعة من الأدوات مثل: صناديق مواد التجميل الخاصة بالسيدات، وآنية النبيذ المصنوعة على شكل جمال، وأيضاً في طلاء أغمدة السيوف والخناجر. وقد استخدم الذهب أيضاً في صنع الجواهر، وكافة أنواع الحلي المستخدمة في زينة النساء، ومشابك الشعر والأمشاط، والتيجان القماشية المرصعة بالجواهر، والأساور. كما شاع أيضاً بين النساء، أكثر من أي شيء آخر، استخدام مشابك الشعر الذهبية المصنوعة على شكل الطائر الذي نعرفه بالعنقاء. وهناك أيضاً مقتنيات رائعة تعود إلى حقبة تانج، مثل تاج ذهبي يتكون من أشرطة متوازية تظهر رسماً لفراشات وأنماطاً زخرفية نباتية، ومشبك ذهبي على شكل طائر، ويبدو أنه كان يستخدم في ملابس النساء، ومشط خشبي ذي مقبض ذهبي عليه تصميمات مرققة، ورسم لأسد يثب على قائمتيه الخلفيتين على الطراز الفارسي.

وبالإضافة إلى الاستخدامات التي سبق الإشارة إليها، كان الذهب على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للطاويين الذين أعتبروه (سواء في صورة سائل أو مسحوق) دواءً ناجعاً لاستقرار الروح وإطالة العمر. ويقول الصيدلاني مينج شين إن إحراق الذهب طبياً تنتج عنه هالة خماسية الألوان، وهي ظاهرة تحقق منها بنفسه كما أشار.

ليس هذا فحسب، بل كان الذهب مكوناً أساسياً من مكونات أراضي الأساطير؛ فالأشياء ذات السمات العجيبة والطبائع الإلهية والسماوية كانت تصور أو توصف بألوان وصفات ذهبية. وقد ترسخت تلك الصور الخيالية والتي أتت من الهند خلال الفترة التي شهدت ذروة البوذية الصينية أثناء حقبة تانج. فالمخلوقات السماوية الخالدة كانت «ذهبية»، ليس هذا فحسب، بل إننا نرى بوذا العظيم كرجل ذهبي أو «رسى ذهبي»، كما طليت صوره وتماثيله بالذهب، بل قيل

إن لغته كانت ذهبية ومنازله أيضاً، وكذلك مناقبه كانت ذهبية وعطرة، وكذلك كانت جنة «مانجوسري» ذات تدرجات ذهبية اللون، وطائر الجارودا الذي اقترن بفيشنو كانت له هو الآخر أجنحة ذهبية.

وعلى مستوى أقل، كان الذهب يمثل كل ما هو ثمين وغال، وخاصة القيم الإنسانية. فقد امتدح تاي تسونج وزيره العظيم وي تشنج واصفاً إياه بأنه صانع ماهر قادر على رصد الذهب من خامته في الشخص الإمبراطوري، واستخلاصه وتنقيته بما يوازي حكمته وصوابه. وقد نظم العديد من القصائد الحماسية التي كان محورها «أزح التراب لتكشف عما تحته من ذهب»، ومنها قصيدة مقفاة نظمها ليوتسونج-يوان وتفيد بأن «اكتشاف الكنوز يضارع اكتشاف المواهب»، ويعتمد التشبيه في هذه القصيدة على فكرة أن قيمة وبهاء الذهب يوازيان الصفات الحسنة والأخلاق الكريمة في الإنسان الجيد.

تلك كانت لمحة عن الذهب في حقبة تانج. بيد أن الإنتاج المحلي من هذا المعدن النفيس لم يكن يفي باحتياجات الناس منه. لذا فقد تدفق الذهب من كل أرجاء آسيا عبر الحدود إلى الصين وعلى الرغم من أن إيران كانت المصدر الأساسي للأواني المصنوعة من الذهب، ومصدر الإلهام الأول بلا منازع للعديد من المشغولات الفنية الذهبية التي أبدعها فنانو حقبة تانج، فإنه من الواضح أن التبت أيضاً كانت من بين الأمم التي ترك فنانوها مساهمات يعتد بها في ثقافة تانج. وتؤكد السجلات المرة تلو الأخرى أن الجِزى[1] والهدايا التي كانت تصل من التبت قد تضمنت أدوات ومشغولات كبيرة مصنوعة من الذهب، فريدة في جمالها وكمال صنعها، ولا غرو في ذلك فقد كان صائغو التبت هم الأشهر والأعلى سهماً في كافة أنحاء العالم خلال العصور الوسطى. لكن الأمر يستلزم عالماً على درجة كبيرة من الجرأة كي يشير إلى الأدلة التي تؤكد الدور الكبير والمؤثر الذي لعبه فنانو التبت في الحضارة الصينية. ولنلق نظرة على أوصاف بعض الأدوات المترفة والثمينة التي

وردت من التبت، فيما نأمل أن يتمكن علماء الآثار في المستقبل من اكتشاف نماذج حقيقية من المشغولات الفنية الذهبية التبتية الأصل، أو تلك المستوحاة من التبت، والتي تعود إلى حقبة تانج في الأراضي الصينية.

والقطعة التي سنتناولها بالحديث الآن تعد واحدة من أكبر الهدايا الذهبية التي وردت من التبت وأقدمها أيضاً؛ ففي أواخر عام 640 جاء ماجار ستونج رتسان الذي كان وزيراً للملك التبتي العظيم سرونج-بتسان-سجام-بو إلى بلاط تشانج-آن لترتيب زواج مولاه من أميرة صينية. ولإتمام الخطبة قدم الوزير التبتي أواني ذهبية تزن ألف كاتي (والكاتي هو وحدة وزن صينية تساوي رطلاً وثلث رطل) بالإضافة إلى العديد من الهدايا الثمينة الأخرى. وفي العام التالي خرجت إحدى بنات الإمبراطور للاقتران بسيد الجبال (ملك التبت)، وقد أحبها التبتيون المخلصون إلى حّد التأليه. وقد خلد الرسام ين لي-تي تلك المناسبة الجميلة، (وقد تعرضت للاندثار ولا يمكن استرجاعها للأسف الشديد).

ولا يوجد لدينا الكثير من المعلومات عن الأواني الذهبية التي أهديت من التبت عام 640. لكن لدينا معلومات أكثر عن هدية أخرى أرسلها الملك التبتي نفسه في عام 641 إلى حماه تاي تسونج بمناسبة الانتصار الحاسم الذي حققه الأخير في كوريا. وكانت الهدية عبارة عن إناء للنبيذ على شكل إوزة يبلغ ارتفاعها سبع أقدام. وفي أوائل عام 658 أرسل التبتيون أعجوبة أخرى من تحفهم المعدنية منها نموذج لمدينة ذهبية فيها خيالة من الذهب، ومجسمات لخيول وأسود وأفيال وحيوانات أخرى كلها مصنوعة من الذهب.

وقد كان هناك الكثير من التحف المشابهة؛ فالتبت كانت أرض الذهب، ففي القرن التاسع كان ملك التبت يعيش في مسكن مترف مزين برسومات ذهبية لنمور وفهود وزواحف مفترسة.

وقد عُرفت أممٌ أخرى بغناها بالأعمال الذهبية أيضاً: فعلى سبيل المثال كان لأمير الأجهور خيمة ذهبية في خاراباالاجاس تتسع لمائة من الرجال، كما كان ملك روم النائية يجلس على عرش مغطى برقائق الذهب. وعلاوة على ذلك أرسلت سيلا كميات كبيرة من الذهب والفضة، كما جاءت هدايا مصنوعة من هذين المعدنين في مناسبات مختلفة من قبائل منشوريا، ومن مملكة نان-تشاو، ومن العديد من شعوب تركستان مثل تشاش، وكيش، وميمارغ ومن بالور بلاد الثلج جاءت أيضاً هدايا على شكل زهور مصنوعة من الذهب.

ومن الغريب أننا في وسط هذا الخضم من الأعمال والمشغولات الذهبية لا نجد أية إشارة إلى ذهب أو مصنوعات ذهبية وردت إلى الصين من الجزر الهندية، وذلك على الرغم من الاعتقاد بوجود جزيرة سوڤارنادفيبا، في مكان ما من الملايو، والتي كانت المقابل لمدينة الدورادو (مدينة ذهبية زعم بوجودها في حضارة أمريكا اللاتينية) بالنسبة إلى الهند. إلا أن ذلك الاعتقاد (الذي كان أحد القوى المحركة للاستيطان الهندي في جنوب شرقي آسيا) كان غائباً تماماً عن الصين.

الذهب الأرجواني

منح هسوان تسونج ابنه حزاماً من الذهب الأرجواني تقديراً منه للكتاب الذي ألفه بعنوان «كتاب بحيرة التنين»، حينما ضربت موجة من الجفاف الشديد الإقليم الذي ضم عاصمة الإمبراطورية، وكان أحد أسلاف هسوان تسونج وهو كاو تسونج قد استولى فيما استولى على هذا الحزام إبان انتصاره على مملكة كوريو في كوريا. ومن وقت لآخر تظهر بعض الإشارات إلى الذهب الأرجواني في أدبيات حقبة تانج مثل تلك «المطرقة المصنوعة من الذهب الأرجواني» والتي تتدلى من يد محارب شاب نُحِتَ ركاب فرسه من «اليشب الأبيض»، أو «إناء النبيذ المصنوع من الذهب الأرجواني» الذي أرسل مع عباءات إمبراطورية وأحزمة مرصعة بالذهب

كهدية من الإمبراطور سيِّء الطالع تشاو تسونج إلى سيد الصين الفعلي تشو تشوان-تشونج في عام 903. كما جاء أيضاً الكثير من الهدايا المصنوعة من الذهب الأرجواني من بلاد بالور البعيدة والتي تغطيها الثلوج.

وقد عُرف الذهب الأرجواني، ذلك المعدن ذو الاسم الجميل، قبل حقبة تانج، وفي أثناء حقبة سونج، وبعدها أيضاً، ويبدو أن الذهب الأرجواني الذي عرف أثناء حقبة مينج لم يكن سوى تقليد للمعدن الأصلي الجميل.

ويمكن العثور على بعض الأدلة التي قد تساعد على تحديد هوية الذهب الأرجواني في الحضارة المصرية الفرعونية. فقد تضمنت الكنوز التي عثر عليها في مقبرة توت عنخ آمون أدوات مصنوعة من الذهب مغطاة بطبقة رقيقة من اللون الأرجواني الزهري، منها على سبيل المثال نعال تخص الفرعون الشاب موشّاة برسوم زهرية مصنوعة من هذه المادة، ومثبتة بالتعاقب على قوائم من الذهب الأصفر الخالص، كما استخدمت تلك المادة الغريبة الأرجوانية اللون في تزيين غطاء الرأس الخاص بالملكة توسريت التي تنتمي أيضاً إلى الأسرة التاسعة عشرة، وفي الأقراط الخاصة بالملك «رمسيس الحادي عشر» من الأسرة العشرين، الأمر الذي يثبت أن هذه المادة كانت عبارة عن ذهب يحتوي على قدر من معدن الحديد، حيث يتحول لون هذا المزيج المعدني إلى اللون البنفسجي بعد تسخينه، وفي الأزمنة اللاحقة اعتبر فن تحويل المعادن إلى هذا اللون وغيره من الألوان الأخرى من الأسرار الكبيرة التي اقتصر علمها على الكيميائيين الهيلينيين القدامى، والتي عرفنا بأمرها من المخطوطات الإسكندرانية والبيزنطية.

ولا يمكننا الجزم الآن بما إذا كان الذهب الأرجواني الذي عرف في الصين، وفي بالور، وكوريا يمثل بالمصادفة حالة من حالات التطابق مع الذهب الأرجواني الذي تم التوصل إليه خلال تطبيقات علم الخيمياء في الشرق والغرب، والتي عرفت في الحضارة المصرية القديمة، وفي الصين، كلٌ على حدة، وربما في غيرهما من

الحضارات القديمة أيضاً، أم أن سر صناعته قد انتقل من مكان إلى آخر عبر قارة آسيا. وسواء كان سر صناعته محلي المنشأ أو مستجلباً من الخارج فإن الذهب الأرجواني الذي عرف في الصين لا بد أن يكون نتاجاً للأبحاث القيمة التي أنجزها علماء الخيمياء الطاويون.

الفضة

تركز إنتاج الفضة إبان حقبة تانج في منطقتي لينجنان وآنام. ويبدو أنه كان يتم إنتاج المعدن الأبيض عن طريق صهر كبريتيد الرصاص (الغالينة) في بوتقة، وينتج جزء أو جزءان من الفضة من كل 384 جزءاً من الرصاص. وفي بداية القرن التاسع كان يوجد في الصين أربعون مصفاة لإنتاج الفضة تنتج ما مجموعه 12000 أوقية سنوياً، ثم زاد عدد مصافي إنتاج الفضة إلى اثنتين وأربعين مصفاة كانت تنتج 15000 أوقية سنوياً مع انتصاف القرن التاسع.

وكانت مشاغل الفضة إبان حقبة تانج تنتج أعمالاً رائعة حتى منتصف القرن التاسع على الأقل الذي شهد بداية الاضمحلال في هذا الفن نظراً لتلاشي التأثير الايراني بسبب موجة الاضطهاد الديني عام 845. وقد أنتج فنانو عهد تانج العديد من التصميمات التي كانت عادة ما «تنقش على خلفيات من الدوائر الصغيرة المطروقة بعناية».

وفي بعض الأحيان كانت التصميمات تجسد فكرة الاسترخاء والراحة، وفي أحيان أخرى كان يتم استخدام أسلوب الرسم الغائر في إنتاج بعض الأعمال الفنية. وغالباً ما كان يتم صنع الغرض أو القطعة عن طريق لحام أكثر من قطعة معاً، وبصفة خاصة استخدم هذا الأسلوب في صنع الأكواب ذات القوائم الطويلة. وقد استخدم أسلوب الطلاء والتعشيق بالذهب بكثرة في تزيين كافة أنواع الأواني.

وكانت الأشكال التي ترسم على الأواني والأطباق والصناديق تصويراً لمشاهد من الروايات الأسطورية ورسومات لنباتات وحيوانات، وخاصة مشاهد «رحلات الصيد الملكية» التي تعكس التأثر بالنمط الساساني في أعمال الفضة والرسم على النسيج. إلا أن بعض أعمال الفضة عكست أيضاً الأنماط الفنية الصينية الأصيلة، ولاسيما تلك التي استوحت النمط الفني الذي يعتمد على الرسومات الباعثة على الاسترخاء، والذي عرف إبان حقبة هان. وقد طبق أسلوب خاص في الأعمال الفنية تمثل في تكسية المرايا المصنوعة من البرونز برقائق من الفضة.

كما أنتج الفنانون الصينيون أيضاً مشغولات فضية باستخدام أسلوب «هيداتسو» ياباني الأصل، حيث كان يتم نقش رسوم فضية على أسطح مصقولة، ومن الأمثلة الشهيرة لتلك الأعمال الفنية رسم لسيدة ممتلئة من سيدات القصر تقف تحت شجرة، وتشبه نماذج أخرى صنعت بأسلوب «هيداتسو» وموجودة في متحف الشزوين. كما استخدمت الفضة أيضاً في صنع الكثير من الأدوات مثل المقصات والكُلاّبات، وعصي تناول الطعام، والتماثيل الصغيرة التي كانت توضع في القبور.

وتتضمن قائمة المواد الطبية عجينة فضية عرفت باسم «الشحم الفضي»، وكانت على ما يبدو من اختراعات الخيميائيين، وتتكون من خليط من الفضة والقصدير والزئبق، وكانت توصف كمقوٍّ ومنشط للقلب والروح. ولا تُعرف على وجه التحديد المكونات الخاصة بما عرف باسم «الفضة الصفراء» التي استخدمت في إعداد بعض أنواع الطلاسم المخصصة لأغراض علاجية، لكن مما لا شك فيه أنها هي الأخرى من الاختراعات الطاوية. أما «الفضة السوداء» فقد كان يتم تحضيرها بتبخير الفضة باستخدام الكبريت. وكان الساعون إلى الخلود أو إطالة العمر يحفظون أدويتهم في أوانٍ صنعت من تلك المادة التي تمتعت بسحر خاص.

وبصفة عامة لم تستخدم الفضة ولا الذهب كعملة رسمية من إصدار الحكومة

الصينية، لكنها استخدمتها في عمليات التبادل التجاري، خاصة في لينجنان والتي كانت الفضة أكثر تداولاً فيها منها في الأماكن الأخرى، تماماً مثل الملح والحرير اللذين استخدمهما التجار التبتيون في عمليات المقايضة والزنجفر والزئبق اللذين استخدما أيضاً للمقايضة في مناطق وسط الصين الجبلية. وفي الواقع كانت عمليات الشراء والبيع تتم كلها باستخدام الفضة كوسيلة للتعامل فيما وراء الممرات الجبلية الخمسة (والتي كانت تفصل لينجنان عن باقي البلاد)، وكانت الفضة على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للحياة التجارية في إقليم كانتون لدرجة أن لينجنان قد استثنيت من قرار حظر تعدين الفضة الذي صدر عام 808 (حيث اعتبر الإمبراطور أن النحاس أكثر فائدة ونفعاً من الفضة).

وباستثناء بعض الهدايا التي أتت من تركستان، ومنشوريا، كان معظم الفضة المستوردة من الخارج سيلا، ومن التبت، وكانت هذه الهدايا تأتي في صورة أوان جميلة مصنوعة من الفضة.

ومن أهم الهدايا التي أرسلت إلى بلاط تانج في أوائل عام 658 هدية من ملك التبت عبارة عن شيء كان يعرف باسم «البالا الذهبية». وفي عام 761 قدم الملك القوشي «بالا فضية» إلى تشانج-آن ومنح مقابل ذلك كميات من الحرير الممتاز كعرفان لجميل صنعه. وعلاوة على ذلك هناك الكثير من الأدوات المصنوعة من المعادن الثمينة في معبد أحد الآلهة العظام في قبودان، ويقال إن تلك الأدوات الثمينة كانت قد أهديت إلى المعبد من ابن السماء الصيني إبان حقبة هان. وتتضمن هذه «صورة ذهبية»، و«بالا ذهبية» يبلغ عرضها خمس عشرة قدماً. لكن ما هية «البالا» سواء كانت من الذهب أو الفضة تظل سراً عصياً على الحل.

النحاس الأصفر

عرف الصينيون سبيكة النحاس الأصفر المصنوعة من النحاس والزنك كأحد منتجات بلاد فارس، وأطلقوا عليها اسم «حجر توو» ليميزوا بينها وبين التوتيا الفارسية. وقد استجلب النحاس الأصفر للوفاء باحتياجات البلاط الإمبراطوري، كما استخدم في تزيين أحزمة المسؤولين من الدرجتين الثامنة والتاسعة. وعلاوة على ذلك استخدم الخيميائيون كميات ضئيلة من النحاس «النحاس الأصفر الفارسي» في تركيباتهم السرية، وقد أُرسِلَ النحاس الأصفر أيضاً كجزية من ميمارغ إلى بلاط تانج خلال عام 718.

ويبدو أن كميات كبيرة نسبياً كانت تتوافر في بعض الأحيان، كما يشير إلى ذلك تمثال ڤيروكانا النحاسي الذي يبلغ طوله ست أقدام، والموجود في أحد معابد تشانج–آن.

ومن المحتمل أن الصناع في بلاط تانج كانوا قد عرفوا سر سبيكة النحاس الأصفر، بل إنه من المؤكد أنهم أنتجوا سبائك أفضل من النحاس الأصفر، مثل «النحاس الأبيض»، وهو خليط فضي اللون من النحاس والنيكل كان يصنع منذ حقبة هان. ويحتوي متحف الشزوين على مبخرة ذات سلاسل طويلة مصنوعة من هذا المعدن، وأخرى مصنوعة من «النحاس الأحمر» والذي قيل إنه يصنع من سبيكة من الآنتمون (إثمِد) والذهب والنحاس. ويعتبر «النحاس الأبيض» الصيني ضرباً من معدن «التوتانج» الذي عرف في الحضارات الأنجلوهندية (وهي كلمة أخرى مشتقة من كلمة توتيا) والذي عرفه الفرس باسم خار–صيني الذي يعني «حجر الصين»، وقد قالوا إن الصينيين يفضلون استخدامه في صنع المرايا ورؤوس الأسهم، في حين فضل المسلمون استخدامه في صناعة رؤوس الحراب والخواتم والنواقيس (وأسموه الخارصين/المترجم).

العملات الذهبية والفضية

لم يستخدم صينيو العصور الوسطى الذهب أو الفضة في سك العملات، وفضلوا ادخار هذين المعدنين الثمينين لاستخدامهما في صنع الأدوات الثمينة والحلي، وتعتبر لينجنان حالة استثنائية حيث استخدمت الفضة (وربما الذهب) في عمليات التبادل التجاري والمقايضة. إلا أنهم قد رحبوا بالتعامل بالذهب مع الخارج فعلى سبيل المثال كان المبعوثون اليابانيون يأتون بمعظم أموالهم والأصول التي استخدموها في التجارة في صورة ذهب. كما تدوولت العملات الذهبية والفضية الخاصة بأمم أخرى مثل سيرنديا وكوخا في مختلف مناطق الصين خلال القرن السادس. ومن الثابت أيضاً أن هذه العملات قد استخدمت في شتى المناطق التي خضعت لحماية الإمبراطورية الصينية في الغرب خلال القرنين السابع والثامن. ومن الأدلة التي تشير إلى ذلك تلك العملة الفضية التي عثر عليها في فم رجل ميت في كوكو وتحمل على أحد وجهيها صورة لأحد كهنة أهورا—مازدا، وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة معاوية. وقد عثر على عملة أخرى عادية تعود إلى حقبة تانج بصحبة هذه العملة الهجينة.

كذلك عرفت العملات الذهبية الرومانية والعملات الفضية الفارسية طريقها إلى التجار السيرنديين خلال تلك الفترة، وقد وصل بعضها إلى الصين واستحوذت على اهتمام الصينيين وأثارت فضولهم بما تحمله من صور لآلهة غريبة وملوك يسمعون عنهم فحسب؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر عُثر على إحدى عملات الصلدوس الذهبية التي تعود للإمبراطور الروماني جوستين الثاني في أحد القبور التي تعود إلى حقبة سوِي بالقرب من تشانج-آن، وعلى عملتين فضيتين تعودان لكسرى فارس خسرو الثاني في قبره الذي يعود إلى الفترة ذاتها بالقرب من هونان. لكن يبدو أن العملات الثمينة كانت أكثر شيوعاً إبان حقبة سوِي أكثر منها في حقبة تانج إلا أن ذلك قد يكون من قبيل المصادفة التي حكمت الاستكشافات

الأثرية؛ فقد عُثر أيضاً على عملة ذهبية بيزنطية في أحد المقابر التي تعود إلى حقبة تانج على مقربة من تشانج-آن، وعلى عملة فضية تعود إلى خسرو الثاني في مقبرة قريبة من المكان نفسه.

وفي كانتون، الطرف الآخر من الإمبراطورية الصينية، شاع استخدام الدينار الإسلامي في المعاملات التجارية، كما يشير إلى ذلك كتاب يعود إلى حقبة تانج، ويقدم وصفاً للمدينة حيث يذكر أن العرب كانوا يستخدمون عملة ذهبية موحدة في تعاملاتهم التجارية.

«عجباً !

تألق من بعيد في محراب نافذ..

تتراءى بشموخ كتمثال ثاقب..

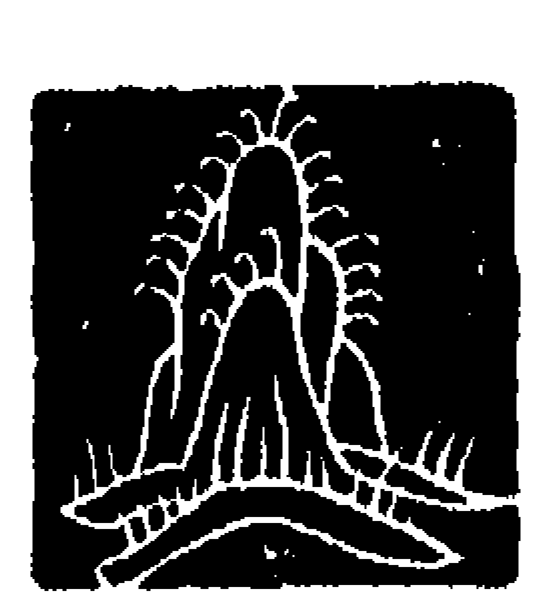
وقنديل العقيق في يديها..

آه بسيشة!

ولكل حبيبة آتية من

بقاع قدسية..»

إدجار آلان بو، «إلى هيلين»



الفصل السابع عشر

الأدوات الحياتية

أواني المطبخ

على الرغم من الحرفية العالية التي تميزت بها المنتجات والأعمال الصينية المصنوعة من الخشب، والسيراميك، والمعادن، وغيرها من المواد فإنه ليس من المستغرب أن تكون هناك رغبة في اقتناء الأدوات المصنوعة في أماكن أخرى من العالم، خاصة في أوساط الطبقة المترفة؛ فعلى سبيل المثال، لقي الرهبان اليابانيون كل الترحيب والحفاوة لما أحضروه معهم من هدايا تضمنت «سكاكين مزينة ومحلاة بالفضة، وأحزمة وأدوات كتابية مختلفة الأشكال...».

ولنا أن نتصور كذلك مقدار الترحاب والسعادة اللذين أبداهما الصينيون إزاء الهدايا التي أحضرها «أحد أبناء الملك» الياباني عام 853. ولم تكن أهمية الأدوات المستجلبة من الخارج تتوقف كلياً على ندرة وقيمة المادة الخام المستخدمة في صنعها؛ فعلى سبيل المثال نجد أن البلاط الإمبراطوري كان يطلب السّلال المصنوعة من الروطان (وهو نوع من النباتات التي تستخدم في صناعة العصي والسلال) من منطقة آنّام.

ولم تقتصر الأدوات والأغراض التي صنعت في الصين أثناء حقبة تانج على الأواني الإيرانية الطراز (وقد أنتج الحرفيون الصينيون أباريق من السيراميك الملون مشابهة لتلك الأباريق المعدنية الإيرانية). وقد استورد الصينيون أيضاً أحواضاً وأباريق من الشرق الأقصى، ويمكننا أن نزعم أن بعض الدوارق الفضية وغيرها من المشغولات المعدنية الفنية التي نراها اليوم في مختلف المجموعات قد صنعت في الأصل في إيران بهدف التصدير إلى الصين وقد أرسلت كل من بخارى، وسمرقند

أكواباً مصنوعة من بيض النعام والتي يعود استخدامها في الأصل إلى الحضارة البابلية القديمة، وقد أعجب الشعراء العرب كثيراً بهذه الأقداح وامتدحوها في قصائدهم مشبهين إياها بـ«المرأة الجميلة الناعمة». ومن عند العرب جاء إناءٌ مرصع بالجواهر لرش الماء على الأرض؛ ومن كابيسا جاء قلم ذهبي حفر عليه نص قصيدة «لوسزوتاو» المسماة «أغنية السنونو». وهناك أيضاً صندوق نُحت من العقيق عليه صورة لملك روما. كما أهدت سمرقند أيضاً مبخرة مرصعة بالجواهر، وإناءً يستخدم لحفظ أدوية العيون، وأيضاً أرسل ملك سيلا أجراساً صغيرة دقيقة الصنع تعلق في ذيول الصقور المدربة على الصيد، كما أرسلت سيلا أيضاً الكثير من اللافتات الاحتفالية إلى الصين. وتشير السجلات التاريخية أيضاً إلى أن بخارى أرسلت هدية إلى الإمبراطور الصيني كانت عبارة عن أريكة مرصعة بالجواهر. ويبدو أن الأمير الياباني نفسه الذي أحضر معه بعض الهدايا إلى الإمبراطور في عام 853 كان بارعاً في لعبة «جو» اليابانية (وهي لعبة تُلعب بالحجارة على رقعة ذات 361 مربعاً/المترجم) وقد أحضر معه رقعة لعب مصنوعة من حجر رمادي اللون سماه الأمير «اليشب المُعَرق» وأحجار لعب تبدو باردة في الصيف ودافئة في الشتاء.

أشجار المصابيح

ومن أكثر أشجار المصابيح أهمية اثنتان أحضرهما إلى البلاط الإمبراطوري في منتصف القرن السابع ابن ملك طوخارى. وكانت الأشجار الصناعية، والتي سميت أيضاً «أشجار النار» تستخدم في أكثر الاحتفالات أهمية وبهجة وهو «عيد رأس السنة الصينية» الذي كان يستمر لمدة ثلاثة أيام أو أكثر، ويجري الاحتفال به في منتصف الشهر الأول من السنة. وأثناء هذا الاحتفال كانت جميع الأسر تتسابق في تعليق المصابيح الجميلة وتقوم بالغناء والرقص طوال الليل، ويبدو أن هذا

المهرجان كان امتداداً للاحتفالات القديمة بالسنة الجديدة والتي عرفتها سيرنديا من قبل. وهناك لوحة جدارية تعود لزمن أسرة تانج في كوكو توضح شجرة متفرعة في سبع ثنيات تحمل كل منها صفاً من المصابيح، وإلى جوار الشجرة سيدة صينية بصحبة خادمتها. وقد بدأ الاحتفال بهذا العيد في الصين مع حلول القرن السادس على الأقل، إلا أن موعده قد تغير إلى الخامس عشر من الشهر الأول حين يكون القمر بدراً في تلك الليلة، حيث كان أحد الأسباب الصريحة وراء هذا الاحتفال هو إنتاج ضوء أكثر قوة وبهاء من ضوء كوكب القمر باستخدام تلك المصابيح الاحتفالية، وأثناء ليالي الاحتفال كانت السلطات الصينية ترفع حالة حظر التجول ليلاً والتي كانت تفرض عادة على المدن الكبيرة ويسمح للناس بالاحتفال وممارسة مظاهر البهجة ليلاً.

ويشير وصفٌ لإحدى أشجار المصابيح الكبيرة في تشانج-آن إلى أن الشجرة كانت مزينة بزخارف كثيرة ومعادن ثمينة، وتحمل خمسين ألف مصباح كروي الشكل، ويقوم عليها نحو ألف من نساء المنطقة، ويتزين بمشابك شعر محلاة بالزهور، ومعهن عدد كبير من الخدم. ويقال إن جوانب شوارع مدينة لو-يانج كانت تزدان بأعداد كبيرة من الشموع و«أبراج المصابيح» التي صنعها أمهر الحرفيين من الحرير الفاخر، ويبلغ طول الواحد منها 150 قدماً، وتُحَلّى بالذهب والفضة والأحجار الكريمة، وتتدلّى منها مصابيح على شكل التنين، وطيور العنقاء، والنمور، والفهود. وهناك شجرة مصابيح أخرى صنعت من البرونز أثناء حقبة تانج دفع فيها أربعون ألف قطعة نقدية كرواتب للحرفيين الذين أنجزوها، وتم حملها عبر الأقاليم حتى يشاهدها الناس وبلغت تكلفة نقلها عشرة آلاف قطعة نقدية فقط. وتقول إحدى الروايات الشعبية المتداولة أثناء حقبة تانج أن هسوان تسونج قد سأل أحد العلماء الطاويين عن المدينة التي تشهد أجمل مهرجانات واحتفالات المصابيح في الصين فأخبره العالم الطاوي أنها مدينة يانج-تشو، وبطريقة سحرية حمل العالم الإمبراطور هسوان تسونج إلى تلك المدينة. وقد قدم

الراهب الياباني إنين، الذي زار مدينة يانج تشو عام 839، وصفاً لروعة الاحتفالات برأس السنة في المدينة وما تشهده المعابد البوذية من نشاط كبير أثناء تلك الاحتفالات وكان المواطنون المتدينون يتركون تبرعاتهم أسفل أشجار المصابيح التي تقيمها المؤسسات الدينية. ويخبرنا الراهب إنين أيضاً عن شجرة «الملعقة ومصابيح البامبو» في أحد معابد مدينة يانج–تشو، وهي شجرة صنعت من أعواد البامبو، ويبلغ طولها سبع أو ثماني أقدام، ومعلق على أفرعها عدة آلاف من المصابيح على شكل ملاعق.

وقبل أن يفقد عرشه لصالح أسرة تانج قال الإمبراطور يانج تاي من أسرة سوِي تلك الأبيات الشعرية التي يعبر فيها عن انطباعاته عن احتفالات رأس السنة في مدينة يانج–تشو:

«إلى السماء ترتقي عجلة الناموس،

وإليها ترتفع الأصوات،

وأشجار المصابيح تزهو بآلاف الأضواء،

كأزهار نارية تتفتح على أغصانها السبعة.

وتتجمد صورة القمر على المياه الدافقة،

وعلى الأرض تحتضن نسائم الربيع الليلية ثمار الدراق؛

وأرض صفراء ذهبية تزهو براياتها الملونة،

ودقات وضجيج من نواقيس خضراء».

الدروع

اكتسبت الأدوات والمعدات الحربية أهمية كبيرة أثناء حقبة تانج إذ لم تكتف الحكومة الصينية بتدبير احتياجاتها من العتاد الحربي، بل عملت أيضاً على حجبه

عن جيرانها. وقد ازدهرت تجارة السلاح السرية مع القبائل القاطنة على التخوم الشمالية الغربية للإمبراطورية الصينية، ومع ذلك نصت القوانين على معاقبة كل من ينقل السلاح والدروع، أو يحوزها بدون ترخيص بالحبس فترة تتراوح بين سنة واحدة وثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة. وكان الشخص العادي يتعرض لعقوبة الإبعاد عن موطنه بمسافة ألفي ميل صيني إذا عثر معه على درع كامل وثلاثة أقواس لرمي السهام، وكانت عقوبة الحرفيين الذين يصنعون الأسلحة من دون ترخيص أكبر من ذلك بكثير. ومن ناحية أخرى كان يتم تسجيل كافة الأدوات ذات الاستخدامات الحربية التي ترد إلى العاصمة الإمبراطورية بالصنف والعدد قبل أن تودع في مخازن السلاح الرسمية. وكانت منطقة وادي نهر يانجتسي وجارتها منطقة هوآي من أهم مصادر السلاح في الصين، إن لم تكن أهمها على الإطلاق.

وقد استخدمت جلود الحيوانات البرية، وخاصة جلد الخرتيت (الكركدن) والجاموس الوحشي في صنع أقدم أنواع الدروع في الصين واستمرت صناعتها خلال حقبة تانج التي عرفت أيضاً صناعة الدروع من جلود أسماك القرش (وهي من الأنواع القديمة أيضاً). وقد استخدم الخشب والكتان وأنواع من الحرير الطبيعي والورق واللباد في صنع أنواع من الدروع الصغيرة المخصصة لحماية أجزاء معينة من أجسام الجنود. وهناك مجموعة من الدروع الجميلة المصنوعة من جلد أفخاذ الخيول البرية أرسلت كهدية من لدن أتراك تقوز—أوجوز. وقد عثر على أنواع أحدث من «الدروع الصفائحية» المزودة بأجزاء خاصة لحماية منطقة الصدر وباقي أجزاء الجسم على التماثيل الطينية للفرسان المحاربين و«الدراماباالا» (أي حماة العقيدة) في المقابر التي تعود إلى حقبة تانج. وعثر على دروع من هذا الطراز نفسه أيضاً في سيرنديا، ومن المحتمل أن تكون تلك الدروع قد وصلت إلى الصين، باعتبارها مشغولات فنية وليس كشكل من أشكال الدروع الحقيقية التي يمكن أن تستخدم في المعارك.

وتعتبر الدروع ذات الألواح المعدنية تطوراً مباشراً للدروع الجلدية القديمة، حيث كانت الدروع الحديدية هي الدروع الأساسية أثناء حقبة تانج. وهناك نوع من هذه الدروع الحديدية كان يتم صقلة لدرجة اللمعان وعرف باسم «الدرع اللامع»، وكان هذا الدرع من الأدوات التي اشتهرت كوريا بصنعها، أو ربما جنوب غربي كوريا على وجه التحديد، حيث أرسلت دولة بخش الكثير من هذه الدروع اللامعة كهدايا، إلى جانب الفؤوس الحربية في أكثر من مناسبة إلى تشانج- آن في النصف الأول من القرن السابع، كما استولى الصينيون على عدة آلاف منها أثناء الحروب التي خاضها تاي تسونج في شبه الجزيرة الكورية. لكن مما لا شك فيه أن الدروع الذهبية كانت أكثر ملاءمة لاستخدام الإله الأوحد، وأكثر تماشياً مع عظمة وأُبهة ابن السماء وحراس قصره، وقد أرسلت بخش مثل تلك الدروع أيضاً كهدايا للإمبراطور تاي تسونج.

وأثناء الحرب التي شنها تاي تسونج لإخضاع جنوبي منشوريا لسلطانه، أرسلت إليه دولة بخش مدرعة مطلية بالذهب وأخرى من «الذهب الداكن» عليها رسومات خماسية الشكل للجبال. وكان النبلاء في بلاط ابن السماء يرتدون مثل تلك الدروع البراقة الثمينة أثناء مشاركتهم الإمبراطور في تفقد قواته حيث «كانت الدروع تبهر الأنظار ببريقها تحت أشعة الشمس». ومما لا شك فيه أن مثل تلك الدروع الثمينة لم تكن أقل انتشاراً في حقبة تانج التي شهدت المزيد من الازدهار، والتي عرفت أيضاً استخدام أنواع مماثلة من الدروع الفضية الثمينة. وحين أمر الإمبراطور هسوان تسونج بإجراء مناورات حربية عام 713 عند سفح جبل لي بالقرب من عاصمة الإمبراطورية، تجمع هناك مائتا ألف من الرجال «...في كامل عتادهم وعدتهم وعجلاتهم الحربية ورماحهم، وقد عكست دروعهم الذهبية ضياءً وبريقاً ملأ أرجاء الأرض والسماء» أما توفو الذي كان من أبرز المتابعين للحياة العسكرية في الصين، والذي عرف عنه أن قرع طبول الحرب لا يفارق

أذنيه، ولا تغيب عن ناظريه صور الرماح، فقد كتب يصف بطولات بعض الشباب الشجعان الذين ينتمون لأسرة عرفت بالحمية الوطنية قائلاً:

«لم يذب الجليد بعد عن دروعهم الذهبية،

ولم ينفض غبار المعارك عن راياتهم الخفاقة».

وإبان حقبة تانج كان يتم صنع الدروع ذات الصفائح المعدنية بحياكة ألواح أو قطع حديدية صغيرة بشكل متداخل مع بعضها بعضاً. وقد استخدم قوم نا-خي في يونّان مثل تلك الدروع، بخلاف قوم نان-تشاو الذين كانوا يرتدون الدروع المصنوعة من الجلد.

وفي العصور الوسطى عرف التبتيون استخدام الدروع الجلدية، وكانوا عادة مايطلونها باللونين الأحمر والأسود، وفي الواقع لاتزال هذه الدروع موجودة في التبت حتى وقتنا هذا، ومن المحتمل أن تكون هذه الدروع امتداداً للدروع التي عرفت واستخدمت إبان حقبة تانج، ولكننا لا نستطيع أن نقول الآن على وجه اليقين بما إذا كانت هذه الدروع تمثل استمراراً لسابقاتها من الدروع القديمة، أم أنها مجرد آثار لأنواع مشابهة من الدروع التي استخدمت من قبل.

ومع مطلع القرن الثامن بدأت الدروع المعروفة باسم «المزرودة»،- وهي عبارة عن دروع مصنوعة من سلاسل تتكون من حلقات معدنية صغيرة وغالباً ما تغطي النصف العلوي من الجسد والفخذين- بدأت تظهر في الصين. وتعود أول إشارة إلى الدروع «المزرودة» تلك إلى عام 718 حين أرسلت سمرقند هدية عبارة عن «دروع متشابكة». ومع نهايات القرن الثامن استخدم التبتيون الذين سيطروا على مناطق المستنقعات الغربية الدروع «المزرودة» لحماية فرسانهم وخيولهم التي لم يكن يظهر منها سوى العينين فقط.

أما في القرن التاسع ساد اعتقاد بين الكوريين أن حلة «المزرودة» قد هبطت من

السماء منذ زمن بعيد «إلى الشرق من مدينة لياو ذات الأسوار العالية». وعلى أية حال فإن هذا النوع من الدروع هو في الواقع إيراني الأصل. وهناك المزيد من الدروع «المزرودة» المستجلبة من الشرق الأقصى يعود لحقبة تون هوانج. وعلى الرغم من أن الحديد كان يستخدم عادة في صنع ذلك النوع من الدروع فإن أنواعاً أخرى من المعادن قد دخلت في إنتاجها، كما يستدل على ذلك من الأبيات التالية:

«مزرودات ذهبية منتشرة تحت المطر؛
ورمح مغروس في الخضرة بعيداً وراء المستنقع».

وأيضاً:

«فرسان على صهوة جيادهم يختالون في
دروعهم الصفراء المزرودة بصفائح عطرة
وألواح ذهبية»

السيوف والحراب

«عندي سيف لإله،
رجل غريب أعطاني إياه–
في الظلمة تهمس لي روحه الطيبة مرة بعد مرة.
من بحار الشرق أتى،
ولا يعرف ذلك إلا العارفون».

وتوضح تلك الأبيات التي نظمت عن سيف كان قد جاء من سيلا الاعتقاد القديم بوجود سيوف مسكونة بأرواح تمنحها قوى سحرية، مثل سيوف: «المادجا باهيت» الهندية. وقد اعتبرت السيوف الغنية بقوى الطبيعة الأسلحة التقليدية في البلاد البعيدة، حيث السحرة والأرواح والأعمال الطلسمية أكثر شيوعاً وانتشاراً، على عكس بلاد إمبراطورية تانج. بل إن الرماح المسمومة التي استخدمها «الرجال

الجنوبيون»، والتي تفتك بالرجل دون أن تسيل له قطرة دم واحدة، إنما يأتي مفعولها بأوامر سماوية، وليس بفعل مادة كميائية سامة، فتلك الرماح إنما «أمطرتها السماء على الأرض».

وفي الواقع كان الصينيون يعتقدون أن تكاثف القوى الذكورية مع السمات الأنثوية من شأنه أن ينتج ليس فقط أكثر السيوف كمالاً، بل أيضا أفضل المنتجات المعدنية، ومنها أجراس المعابد على سبيل المثال، وكان يؤتى بطفل وفتاة عذراء لتشغيل كير الحداد المستخدم لتسخين المعدن الذي ستصنع منه السيوف المميزة. وفي الأزمنة القديمة كانت السيوف تصنع في أزواج، منها الذكر ويسمى «ين» والأنثى ويسمى «يانج». وقد اعتبر الصينيون القدامى أن السيوف هي الأشقاء الروحيون لمعدن البرونز، وأنها تتمتع بالقدرة على الكلام والغناء والتحرك من تلقاء نفسها علاوة على قدرتها على إصدار الوميض. كما اعتقد الصينيون أيضاً أن «روح التنين» تسكن بعض السيوف، وأن بعضها «سادة البرق ومحدثوه» وفي عهد تانج أيضاً اعتبرت السيوف البرونزية القوية المصنوعة في كون—وُو سيوفاً ثمينة قادرة على فلق أحجار اليشب، وكان يوصي باستخدامها باعتبارها نموذجاً لكافة السيوف السحرية والملكية القديمة. وفي الشعر كان لمثل تلك السيوف محور وموضوع لمعظم القصائد التي تناولت الأساطير التاريخية، حتى وإن لم تشر إليها بالاسم كما في تلك القصيدة التي نظمها شاعر المعارك توفو، وهي عن سيف سحري جديد بملك بطل سوف يأتي لوقف العواصف التي اجتاحت الأرض حيث يقول:

«إلى هنا، أتيت من بلادك البعيدة،
لست مرصعاً بالجواهر ولا باللآلىء—
ففيم مكمن غرابتك وتفردك؟
في كل ليلة تومض ومضة خاطفة!!

فتطفر روح النمر وثابة إلى العلا،
ويقبع جسد التنين من الخوف وجلاً،
فلا تبقى الزوابع والريح ساكنة،
سوف أدخرك لملك يأتي لا ريب عارفاً!!

وتتضمن السجلات الرسمية للأسلحة في حقبة تانج أنواعاً مختلفة من السيوف منها: سيوف احتفالية طويلة مرصعة بالذهب والفضة، وسيوف قصيرة لاستخدام الجنود، ونوع آخر من السيوف الطويلة المخصصة لجنود المشاة، وكانت كل تلك السيوف وغيرها من الأسلحة ذات الشفرة الواحدة، هي العتاد الرئيس لجيوش تانج التي فرضت سيطرتها على شعوب قارة آسيا.

أما بالنسبة للرماح فقد كانت هناك عدة أنواع مختلفة الاستخدام في عهد تانج، نذكر منها على سبيل المثال الرماح القصيرة ذات الأنصال المعدنية المصقولة والمخصصة لاستخدام الفرسان؛ والرماح الخشبية الطويلة المخصصة لاستخدام المشاة. وبالإضافة إلى تلك الأنواع عرفت حقبة تانج أنواعاً أكثر أناقة من الرماح خصصت لحراس القصور الإمبراطورية ورجال الدرك.

وتعطينا السيوف الموجودة في متحف الشزوين فكرة عن مدى جمال وروعة سيوف القرون الوسطى الصينية، ولاسيما أغماد ومقابض تلك السيوف التي تميزت بكثرة استخدام الأحجار والمعادن الكريمة، وثمة مجموعة من تلك السيوف والأغماد المصقولة والمزينة برسومات زيتية جميلة لنباتات وحيوانات. ومن الأمثلة الجيدة لهذه الأعمال الفنية سيف غُلف مقبضه بجلد سمك القرش فيما زين المقبض والغمد بخيوط الذهب والفضة وأحجار كريمة مستديرة الشكل. ومن الواضح أن بعضاً من تلك الأسلحة الثمينة قد صنع في الصين، على أقل تقدير، حيث تشير السجلات التاريخية إلى أن «السيوف والأسلحة الحادة» كانت تنتج

لصالح البلاط الإمبراطوري في شرقي شزوان بالقرب من الحدود.

ومما لا شك فيه أن الكثير من السيوف والرماح قد استجلب من خارج الصين، ومنها ذلك السيف الذي أرسلته مملكة نان-تشاو، والذي كان من صنع حداد فاجر أضاف السم إلى المعدن المنصهر الذي سُبِكَ منه السيف ثم بَرَّدَهُ بعد ذلك في دم الخيل، ولجعله لائقاً لاستخدام الملوك زين مقبض السيف بالذهب وحلاه بقرن الخرتيت. وفي أكثر من مناسبة أثناء القرن الثامن استجلبت الأسلحة الحديدية من مناطق مو-هو (المياه السوداء) في منشوريا ، لكن يبدو أنها كانت سيوفاً عادية نظراً لعدم وجود أي ذكر لقوى خاصة تمتعت أو تميزت بها.

وقد عرف «الصلب الدمشقي» في الصين في العصور الوسطى، إلا أنه من غير المعروف ما إذا كان قد استورد إبان حقبة تانج أم لا. وفي القرن السادس أشير إلى هذا النوع من الصلب على أنه من إنتاج بلاد فارس. أما في القرن العاشر فقد كان يعتقد أنه كشميري، ووصف بأنه «صَلْبُ وحاد وقادر على قطع المعادن وفلق الأحجار الصلبة». ولم يكن لحام قضبان رقيقة من الصلب معاً هو الطريقة الوحيدة للحصول على المظهر المتموج للسيوف الدمشقية، حيث استخدمت تلك الطريقة أيضاً في الهند أثناء العصور الوسطى لإنتاج أنواع من السيوف المصنوعة من الصلب الغني بالكربون والتي عرفت باسم «ووتز». وفي الصين عرف هذا المعدن باسم «الحديد الأخبوري». وعلى الأرجح فإن الصينيين قد استقوا تلك التسمية من لهجة إيرانية ما نطقت الاسم بلغة هندية حديثة. وإذا كان مسؤولو أسرة تانج قد حصلوا على السيوف الدمشقية فإن ذلك قد تم عبر الهند، أو من خلال وسيط مهندو (متأثر تماماً بالثقافة الهندية).

الأقواس والسهام

تقترب الكلمة الصينية المقابلة لكلمة «قوس» في معناها من «تنين»، و«قوس قزح»، و«خارق السماء». ويمكننا الجزم بأن تلك العلاقة اللغوية إنما تعكس ما أحاط بهذه الأدوات الحربية من تصورات أسطورية شبّهتها بقوة السحب الممطرة، ورشقات البرق. وقد استخدم العديد من أنواع الأقواس أثناء حقبة تانج منها على سبيل المثال: ما خصص لرجال المشاة مثل الأقواس القصيرة والأقواس الطويلة المصنوعة من خشب أشجار التوت، والأقواس الضخمة للرمي بعيد المدى، والأقواس الملونة المخصصة للأغراض الاحتفالية، «والأقواس القرنية» التي كانت السلاح الرئيسي للفرسان في الأزمنة القديمة، وكان هذا النوع الأخير من الأقواس القرنية المدعمة بما يشبه القرن والأوتار القوية هو السلاح الرئيسي الذي استخدمه محاربو السهب، وهم أعداء الإمبراطورية في حروبهم ضد الصينيين وقد تطلب الأمر فترة طويلة من الزمن حتى تمكنت الحضارة الصينية من التغلب على تحفظاتها تجاه هذا السلاح، ومن ثم استخدامه من قبل الجنود الصينيين. وبالفعل كان يتم تصنيع هذه الأقواس في هوبي شمالي شنسي، أي بالقرب من المناطق الحدودية التي يظهر فيها بوضوح تأثير القبائل الرُّحّلْ. ويعتقد أن الأقواس الجميلة المصنوعة من خشب الكتالبا والتي يضمها متحف الشزوين هي صينية الصنع، لكن ليس من المؤكد ما إذا كانت الأقواس الأجنبية مثل تلك المستوردة من خوارزم، والتي «لا يقدر على شدها إلا أقوى الرجال»، أو «الأقواس القرنية» المستجلبة من شيه–وِي في منشوريا، هي من زمرة المقتنيات الثمينة التي تعود إلى حقبة تانج.

وإبان حقبة تانج كانت قصبات الأسهم تصنع من خشب البامبو (الخيزران) المستجلب من غابات كيانجسي، وهونان إلى الجنوب من نهر لونج، وقد اقتصر

استخدام السهام الخشبية على أغراض الرمي المباشر والصيد، أما السهام الطويلة ذات النصال المصنوعة من الصلب فكانت تستخدم في المعارك لاختراق الدروع. وفي الأغلب فقد استخدم الصينيون أنواعاً من السهام القصيرة المريشة بالجلد. وكانت رؤوس السهام «التي تصدر صفيراً مرعباً عند انطلاقها» تصنع في مدينة صغيرة بالقرب من الحدود مع منغوليا، وترسل على سبيل الجزية إلى العاصمة الصينية. وعلى الرغم من الشهرة الكبيرة التي اكتسبتها رؤوس السهام المصنوعة خارج الصين، مثل الرؤوس الحجرية المستجلبة من «المياه السوداء» في مو–هو، والتي حظيت بالاحترام كأحد المنتجات المميزة لشعب التونجو، وعلى الرغم من الروايات الكثيرة التي أثيرت حول تأثير رؤوس الأسهم المسمومة التي استخدمها «المتوحشون من قاطني الغابات» بالقرب من بورما، فإن رؤوس السهام الصينية المحلية الصنع لم تلق منافسة تذكر من مثيلاتها الأجنبية أثناء حقبة تانج.

ويضم متحف الشزوين عدداً من كنانات السهام المصنوعة من خشب الكودزو الأبيض، والمطلي عادة باللونين الأحمر والأسود، ولكننا لا نستطيع الجزم بما إذا كانت تلك الكنانات هي نفسها التي صنعت في مدينة كِوي–تشو شمالي هوبي لاستخدام رجال الإمبراطور.

أتعجب، وأسأل عن أرض لم أطأها وتقبع في مكان ما من المعمورة، هل فعلاً يسعى الناس أبداً خلف أثر تركته قدم إله؟

فهنا حيث الهند الغامضة المبهمة تحلق أرواح الآلهة،

كأسراب نحل بري يغمر قمم الأشجار، أو كعاصفة تتلبد في الآفاق،

سير ألفريد كومبين لايول

«تأملات أمير هندوسي»

الفصل الثامن عشر

الأشياء المقدسة

شهدت طرق التجارة التقليدية، عبر صحارى آسيا الوسطى والبحار الجنوبية، رواجاً كبيراً في التعامل في الأغراض الدينية والأشياء والأدوات المقدسة القادمة من الهند والمناطق التي تدور في فلكها الثقافي والحضاري وصولا إلى الأراضي الصينية إبان حقبة تانج. وقد انشغل الكثير من الفنانين من مختلف الأعراق، بمن فيهم الصينيون في صناعة تلك الأدوات في المعابد البوذية الكبيرة المنتشرة في مختلف أنحاء القارة الآسيوية، حيث كانت هذه المعابد مؤسسات قائمة بذاتها، وتمتلك الكثير من المحال التجارية والفنادق ومحال رهن الأمتعة، ومكاتب الإقراض، وكلها كانت تقدم خدماتها للمؤمنين (بديانة بوذا) الذين يرتادون تلك الطرق والمسالك الخطرة. وقد أسهمت هذه التجارة الرائجة بشكل كبير في تدفق الكثير من الصور الدينية، والأيقونات، والذخائر المقدسة من الهند «موطن العقيدة والشريعة» إلى مختلف أنحاء الشرق الأقصى. وكنتيجة مباشرة لهذا الدفق الكبير وصل إلى الصين الكثير من الأغراض والأدوات المتميزة أثناء حقبة تانج، منها على سبيل المثال «هيكل بوذي مقدس» يبلغ ارتفاعه خمس أقدام، وكان قد قدم كهدية من التبت للبلاط الإمبراطوري، ونموذج لمعبد نالاندا قدمه أحد الرهبان كهدية من الهند أيضاً. وهناك عدد من الأغراض الدينية التي ورثها الإمبراطور تاي تسونج عن أسلافه العظام وتضمنت «جرساً خماسي الأصابع، وطبقاً فضيا ومسبحة مصنوعة من شجرة بوذا (البودهي)، وكريات الكريستال وقد تضمن دير تين –تاي في جبل وو–تاي قيثارة فضية و84,000 مخطوطة صغيرة يحتوي كل منها على علاج لواحد من آلام الدنيا ومتاعبها، ويعتبر أي– تشنج مثالاً على حماس الرحالة والمسافرين الصينيين لزيارة الأماكن المقدسة، وجمع ما تطوله أياديهم من مقتنيات

مقدسة، وأغراض دينية. فقد تمكن آي–تشنج من جمع 400 مجموعة من الكتب المقدسة المكتوبة باللغة السنسيكريتية تتضمن 500,000 نشيد،و300 من الذخائر المقدسة، وذلك خلال رحلته التي شملت ثلاثين بلداً واستمرت من عام 671 حين خرج من كانتون، إلى عام 695 الذي عاد فيه إلى لو–يانج.

الذخائر المقدسة

حظيت الذخائر المقدسة المنسوبة إلى قديسي الديانة البوذية وكبار رجالها، وتلك التي تعود إلى بوذا نفسه، أو من تقمصتهم روحه وفقاً للعقيدة البوذية، بقدر كبير من التقدير والاحترام، بل إن مثل هذه الذخائر كانت تباع بأسعار كبيرة للغاية في الأسواق العامة كما تشير إلى ذلك الحكاية التالية التي تعتبر واحدة من الحكايات النادرة التي دأب على سردها كبير رهبان أحد المعابد البوذية في حي بنج–كانج في تشانج–آن، والذي كان ملاصقاً لمنزل الوزير لي لين–فو (ويُشار إليه في هذه الحكاية باسم «الجالس على اليمين»):

«اعتاد لي، الجالس على اليمين، أن يدعو واحداً من كهنة المعبد المجاور لقصره إلى وليمة ضخمة كلما حل عيد ميلاده. وذات مرة جاء الدور على الراهب آي الذي أجاد في مديح بوذا فمنحه الجالس على اليمين سرجاً رائعاً بكامل عدته مقابل إجادته. فخرج الراهب آي إلى السوق وباع السرج بسبعين ألف قطعة نقدية. وفي العام التالي كان الدور على الراهب كوانج الذي عُرفت عنه عذوبة الصوت بعد عدة سنوات قضاها في ترتيل أجزاء كثيرة من محاورات بوذا. وأثناء الحفل أطلق لنفسه العنان في إطراء الجالس على اليمين ومدح وطنيته وخصاله الشخصية، وقد منّى نفسه بمنحة عظيمة. وعند انتهاء الحفل، أُعْطي الراهب سلة كبيرة ملونة مغطاة بمنديل تفوح منها رائحة عطرة، وبداخلها جسم غريب يشبه

الأظافر المتعفنة، ويبلغ طوله عدة بوصات. فشعر الراهب بالخيبة، وأقفل راجعاً إلى المعبد حيث انقطع عن العالم متنسكاً في محرابه لعدة أيام متتالية. ثم تراءى له بعد ذلك أن هذه السلة الكبيرة لن تخيب ظنه، فحملها وذهب إلى سوق الغربيين. وهناك عرضها على واحد من طبقة كبار التجار. وحين وقعت عينا التاجر الغربي على السلة وما فيها اعتراه الذهول وقال للراهب: من أين حصلت على هذا الشيء أيها المبجل؟ ثم أردف قائلاً: على أية حال إذا قررت عرضه للبيع فإنني لن أرفض له ثمناً مهما كان ما تطلب. فتشجع الراهب وطلب مائة ألف قطعة، فأطلق التاجر ضحكة عالية وقال له: كلا لم تصب، اطلب أكثر من ذلك بكثير، فاستمر الراهب في زيادة الثمن الذي يطلبه حتى وصل إلى خمسمئة ألف قطعة، (ومع ذلك قال له التاجر إنها تساوي ألف ميرياد (أي عشرة ملايين قطعة) ونقده ثمنها في الحال، وحين سأله الراهب عن ماهية ذلك الشيء أجابه التاجر قائلا إنها العظمة الثمينة الكريمة».

وفي بعض الأحيان كانت الرغبة الجامحة في اقتناء الذخائر المقدسة أو أجزاء من رفات القديسين سبباً مباشراً للقيام بأعمال السرقة والقرصنة. فعلى سبيل المثال يُروى أن «سيد القانون» الصيني مينج–يُوان حاول سرقة سِن بوذا ذائعة الصيت من المقام المحفوظة فيه في جزيرة سيلان. وكانت المعتقدات السائدة في حينها تقول إن هذا السن يجب أن تظل في مكانها، وإنه إذا أخذت من الجزيرة فإن الأرواح التي تحرسها ستبيدها بأكملها، وبالتالي تراجع مينج–يوان عن محاولته لسرقة هذه الذخيرة المقدسة، بعد يأسه من ترويض القوى الخارقة التي كانت تحرسها.

إلا أن مثل هذا التطرف قد أثار رد فعل معاكساً، وقد عرفت حقبة تانغ الكثير من الذين أدانوا تقديس أو حتى عبادة الذخائر المقدسة، واعتبروها مجرد مخلفات لا قيمة لها. ويعتبر هان يو، الذي كتب عملاً هجائياً حينما استثاره الاستقبال الحافل الذي أقيم لأحد عظام أصابع بوذا، يعتبر من أكثر الذين هاجموا تلك العقائد

والممارسات. ويمثل هذا التوجه المعادي لتقديس الذخائر وعبادتها الجانب الثقافي من حالة العداء الشديد للأجانب التي شهدتها الصين في القرن التاسع، تلك الحالة التي وصلت ذروتها في موجة الاضطهاد الكبرى للأديان الأجنبية، وتم في أثنائها تدمير الأعمال الفنية الدينية غير الصينية، وتلك كانت بداية النهاية للديانة البوذية كواحد من الروافد المهمة للحضارة الصينية.

وعلى الرغم من ذلك لم يتوقف السعي الحثيث لاقتناء الذخائر المقدسة. ففي عام 790 أحضر «حاج» يدعى وُو–كونج سناً للشاكياميوني (بوذا)، إلى تشانج–آن لدى عودته من رحلة الحج التي قام بها إلى أحد الأديرة في أوديانا. وفي القرن التاسع كانت توجد أسنان لبوذا محفوظة في أربعة معابد مختلفة في العاصمة الصينية، وكان لكل منها عيدها الديني الخاص الذي يجذب المؤمنين الذين كانوا يقدمون الأدوية والطعام والفواكه والزهور كقرابين، ويحرقون الكثير من البخور تبركاً بها، كما كانت العملات النقدية تنهمر بغزارة على القاعة التي تضم تلك الأسنان. وقد احتوى معبد جبل وُو–تاي على جمجمة قيل أنها جمجمة براتيكا–بوذا، وهي التي وصفها الراهب الياباني إنين قائلاً... «وهي جمجمة ذات ألوان سوداء وبيضاء. وتبدو في مظهرها حجر النّسفة الياباني» (والنسفة حجر بركاني يستخدم في صقل الزجاج/المترجم) .ويقال أيضاً إن بضع شعيرات بيضاء كانت لاتزال ملتصقة بالجمجمة.

وبالإضافة إلى الذخائر المقدسة كانت هناك أيضاً ذخائر تعود إلى بعض الشخصيات التاريخية المهمة، وهذه تراوحت بين بقايا بسيطة تعود إلى الملك أشوكا حفظت في معبد تشانج–آن، إلى رفات أكبر حجماً تعود إلى الراهب الياباني ريزان وقد حفظت في رواق خاص على جبل وُو–تاي، والغريب في هذه الرفات أنها كانت عبارة عن قطعة من جلد ذراع الراهب الياباني يبلغ طولها نحو أربع بوصات وعرضها نحو ثلاث بوصات، وكان الراهب الياباني المخلص قد وَشم

عليها رسماً لبوذا.

وعلى الرغم من الإقرار بأن تلك الذخائر كانت قليلة التأثير في الشعراء، لكنها قد استثارت مخيلة رواة القصص والحكايات الشعبية، لذا نجد على سبيل المثال، أن إحدى تلك الحكايات تتمحور حول لؤلؤة سحرية كانت قد أرسلت إلى الإمبراطورة وُو من إحدى البلدان الغربية مع عظمة الفك السفلي للملك الإله ڤيروباسكا، وكانت في حجم كرسي صغير، ولسان براتيكا–بوذا الذي كان أزرق اللون وفي حجم لسان ثور.

الصور والأيقونات

لقد انتشرت الصور والأيقونات، وعلى رأسها تلك الخاصة ببوذا، انتشاراً واسعاً إبان حقبة تانج، وخاصة تلك المصنوعة من المعدن والحديد والفخار، والتي كانت في متناول كافة المؤمنين بتلك العقيدة على اختلاف مستوياتهم. وقد أنتج فنانو حقبة تانج الكثير من الصور والأيقونات التي استخدمها العامة، أما الأثرياء وعلية القوم، والمباني الفاخرة والقصور فقد اتجهوا جميعاً للصور والأيقونات المستجلبة من الخارج، أو تلك الأجنبية والتي تمت معالجتها محلياً. وقد أثرت تلك الأيقونات المستجلبة من خارج الصين في الأعمال الفنية المحلية المماثلة، وساعدت على تطورها بشكل ملحوظ. وعلى أية حال فإن الأعمال المحلية الصنع كانت من الكثرة والوفرة بما فيه الكفاية، وقد اشتملت على العديد من الأنماط منها الرمزية مثل رسم الأجرام السماوية السبعة (وهذه قد تكون منشورية الأصل) التي رسمها ين لي–تي، أو التي تميل إلى المذهب الطبيعي (مثل صور الموسيقيين التي أرسلها وِي كاو قاهر نان–تشاو، وشعب التبت)، إلى البلاط الإمبراطوري. علاوة على ذلك كان يتم رسم الكثير من الصور واللوحات الواقعية أثناء حقبة تانج، حيث كان رسم

زوار البلاط وملابسهم من الواجبات الأساسية التي يقوم بها الرسامون الرسميون في البلاط. وكان يتم لف تلك اللوحات والصور على أسطوانات من خشب الصندل المرصع باليشب والعقيق والكريستال، ومما لا شك فيه أنه كان لتلك الأعمال الفنية تأثيرها في الذوق العام في تلك الحقبة، ولا سيما في أوساط البلاط. إلا أن الأعمال الفنية المستجلبة من الخارج كانت أشد أثراً، وأبعد انتشاراً.

وتأتي الصور والأيقونات بعد الذخائر المقدسة والكتب الدينية مباشرة من حيث الأهمية بالنسبة إلى الحجاج الصينين أثناء رحلاتهم إلى الأماكن المقدسة في الجزر الهندية، فحرصوا على اقتنائها لإضفاء لمسة إيمانية على منازلهم، ولتزيين المعابد البوذية في بلادهم أثناء حقبة تانج، ومن الثابت أن الصور والأيقونات الدينية قد استجلبت من عدة أماكن بالإضافة إلى الهند. وهناك العديد من الأمثلة التي تشير إلى أن تلك الأعمال الفنية قد أنتجت على يد فناني أمم أخرى اعتنقت الديانة البوذية، ومنها تمثال من النحاس الأصفر من خوطان والذي زين إحدى القاعات ذات خلفية جدارية عليها رسومات زيتية لمخلوقات ملائكية في معبد الزهرة المقدسة في مدينة تشانج آن، ومجموعة تماثيل لبوذا صنعت من الذهب والفضة قدمها نجل ملك سيلا كهدية إلى الإمبراطور هسين تسونج عام 810. وبالإضافة إلى الرسومات، والأيقونات البوذية عثر كذلك على رسومات تعود لديانات أخرى، مثل الرسم الذي يبدو أنه لقديس مسيحي ذي شوارب حمراء ويضع عُصَابة أو تاجاً يحمل صليباً مالطياً، وقد عثر عليه ضمن بعض الرسومات الأخرى في تون- هوانج. ومن المحتمل أن يكون الرجل قد اعتبر ناسكاً بوذياً في الشرق الأقصى.

ومن بين أكثر الصور والأيقونات تأثيراً، بل والتي تركت أثراً بعيد الأمد، في الذوق الفني الصيني تلك المجموعة التي تكونت في الأساس من أنماط ونماذج للرسومات والأيقونات البوذية، والتي كان الهدف الأساسي من إحضارها توفير مصدر إلهام ونماذج يحتذي بها للفنانين البوذيين الذين لم يسعفهم الحظ بالعيش

في المناطق التي عاش فيها بوذا أو ارتحل في أرجائها هو وغيره من قديسي الديانة البوذية. ونكاد نجزم بأن الرسام فارجا تريبتاكا، وهو أصلاً من سيلان، قد جلب معه كراساته الفنية الخاصة التي توضح النسب والأنماط المتبعة في رسم الصور والأيقونات الدينية. وكان هذا الفنان قد جاء من بلاده إلى بلاط تانج لتعليم وتدريب الفنانين الصينيين على هذا النوع من الأعمال الفنية. إلا إننا لا نعرف ما إذا كان هذا الفنان القادم من سيلان قد بخل على أقرانه الصينيين بخلاصة عمله وحرفته، أم أنه أطلعهم عليها من باب الفخر والتباهي بإنجازاته، ومما لا شك فيه أن الفنانين الصينيين كانوا متعطشين لمثل تلك النماذج الكلاسيكية التي ظهرت في اعمالهم بشكل جلي، وبالفعل هناك مجموعة رسومات عثر عليها في عدة كهوف بمنطقة تون–هوانج، وتضمنت نسخاً كاملاً لتلك النماذج فيما يعتبر ظاهرة لا يمكن تفسيرها إلا في ضوء افتراض وجود حرص شديد على اتباع النماذج بشكل دقيق في تنفيذ الرسومات والأيقونات الدينية محلياً. وقد أرسل أباطرة تانج بعثات خاصة إلى خارج البلاد للحصول على نماذج أساسية للرسومات الدينية والأيقونات. فقد أرسل هسوان تسونج أحد رجاله في مهمة خاصة إلى خوطان للحصول على رسم دقيق لفايسارافانا، ملك الشمال المقدس الذي كان من أهم الآلهة التي عبدتها الدويلات التركية في آسيا الوسطى. وقد شكلت الرسومات الفنية الدينية، والنماذج الأساسية لتلك الرسومات جانباً مهماً من الغنائم الحربية والدبلوماسية، فقد استولى وانج هسوان–تسي، أحد ممثلي أسرة تانج، الذي عرف بقسوته وتسلطه، على العديد من صور بوذا من الهند، منها صورة أخذها قسراً من بوذا–جايا كان قد صنعها الراهب مايثاريا بنفسه. وتأسيساً على هذه الصورة تم صنع تمثال لبوذا مغطى بالذهب في تشانج–آن عام 665. (ومما لا شك فيه أن التأثير كان يسير في اتجاهين، حيث نجد في الناحية الأخرى الفنانين والصناع والرسامين الصينيين يعملون لدى العرب في بلاد الرافدين في القرن الثامن، ومنهم على سبيل

المثال الرسامان فان شو، وليوتزو، والنساجان مثل يوه هوان، ولو لي).

ثـم ولّتْ أيام التـأثير الفنـي الغريب والجميل في الأعمال الفنية مع موجة الاضطهاد الديني الكبرى عام 845، حيث تم التخلص من الصور والأيقونات الدينية وإزالتها من أماكنها، وصهرها وصنع أدوات زراعية منها، أو استولت عليها الدولة لصالح الخزانة. وقد وصف الراهب الياباني إنين تلك الكارثة قائلاً: «كانت تماثيل بوذا البرونزية والحديدية والذهبية تملأ الأرض طولاً وعرضاً. أما الآن فقد دمرت كلها، أوحولت إلى أشياء تافهة بأمر الإمبراطور».

«سأجعلهم يقرؤون لي كل عجيب
من الكتب الفلسفية..
وسآمرهم بالبوح بأسرار كل ملك
من ملوك البلاد الأجنبية»

كرستوفر مارلو
«التاريخ المأساوي للدكتور فاوستس»
(الفصل الأول)



الفصل التاسع عشر
الكتب

أثارت الكتب التي جاءت من البلدان الأجنبية إبان حقبة تانج دهشة الصينيين واستحوذت على اهتمامهم بمظهرها الخارجي غير المألوف، لكن شيئاً فشيئاً زالت تلك الدهشة وأصبحت الكتب بشكلها الأجنبي الغريب مقبولة لديهم. فبالنسبة للصينيين كانت المخطوطات الأجنبية أشياءً غريبة، خاصة بما أوحى شكلها من غموض ورهبة لتلك العقول المنغلقة على أفكار وتقاليد معينة، بل إنهم نظروا إلى المخطوطات الأجنبية على أنها تحتوي علوماً غامضة، أو تعاويذ سحرية شريرة. وبالإضافة إلى المخطوطات والكتب الأجنبية، التي تعامل معها الصينيون على أنها أشياء غامضة، كانت هناك أيضاً كتب صينية غامضة وغريبة نذكر منها «كتاب مخلب النمر»، وكتاب «الكراث الأندلسي المتساقط »، وكتاب «هدهدة الماء المترقرق»، وكتاب «الشمس»،وكتاب «القمر»، وكتاب «الرياح»، وكتاب «أوراق الأشجار التي أكلتها الديدان»، وغيرها الكثير، بالإضافة إلى عدد من الكتب القديمة والمتداولة مثل «كتاب الأختام»، و«كتاب الأنماط». وقد تضمنت بعض هذه الكتب أعمالاً أشير إليها على أنها «غربية»، أو «كتب هندية».

وقد تضمنت مقتنيات حقبة تانج بعض الكتب المستجلبة من «الأقاليم الغربية» والتي أشير إليها بأسماء غريبة، نذكر منها هذه الأسماء التي تضمنتها قائمة توان تشينج– شيه ذات الأربعة وستين كتاباً: «كتاب الرُدْفين»، و«كتاب بتلات زهرة اللوتس»، و«كتاب الروماني العظيم»، و«كتاب امتطاء ظهور الخيل»،«وكتاب محصول الكرم»، و«كتاب السماء»، و«كتاب التنين»، و«كتاب تغريد الطيور».

ولم يختلف الأمر كثيراً بالنسبة لأنواع الورق التي كتبت عليها كلمات

وحروف تلك الكتب، حيث صنع الصينيون إبان حقبة تانج أنواعاً من الورق من خيوط نبات القنب والكودزو، ومن لحاء أشجار التوت، ومن لُب البامبو (الخيزران) وشجر الورد، وبدرجات متفاوتة من اللون الأصفر الباهت (وكان أفضل الأنواع التي استخدمت أثناء حقبة تانج نوعٌ رقيق جَعْدْ ذو لون أصفر ذهبي). وفي بعض الأحيان كان يتم تعطير تلك الأوراق قبل استخدامها للكتابة. وكان يتم لصق نهايات الأوراق لتشكيل لفافات طويلة، حيث كان يتم لف هذه الأوراق على بكرات من خشب الصندل ذات مقابض كريستالية (وكانت هناك أيضاً كتب مطوية في القرن التاسع، كما عرف الصينيون الكتب المجلدة بنظام الغرز الجانبية) إلا أن أجمل الكتب كانت تكتب على رقائق الحرير الذي حظي استخدامه باحترام كبير في الأزمنة القديمة.

وعلى الرغم من توافر أنواع ممتازة من الورق المحلي، عرفت أنواع من الورق المستجلب من الخارج طريقها للاستخدام في الصين. وفي أكثر من مناسبة أشار شعراء حقبة تانج إلى «ورق برابرة مان»، كما أرسلت دولة كوريو لفافات من الورق كشكل من أشكال الجزية إلى البلاط الإمبراطوري. كما جاءت أوراق مصنوعة من لحاء أشجار الصنوبر من اليابان، واستجلبت أنواع مصنوعة من الأعشاب البحرية من مناطق جنوب الصين عرفت باسم «أوراق الخطوط المائلة»، ونوع من الورق الأبيض الذي تميز بوجود علامات تشبه بيض الأسماك. وفي الواقع فإن الصينيين هم الذين نقلوا صناعة الورق إلى الأمم الأخرى، لذا لم تلفت الخصائص المميزة لأي من هذه الأوراق اهتمامهم، وليس هناك ما يجعلنا نجزم بأن الصينيين قد استجلبوا أي من الورق أو صحائف الكتابة من بلاد الغرب البعيدة، أو أنهم كانوا على علم بكيفية صنع مختلف أنواع الورق التي وصلت إليهم من الخارج أو على الأقل كانت لديهم أنواع تشبهها وذلك اعتباراً من القرن الثاني، حيث أشار الرحالة العظيم تشانج تشاين إلى أن أهل فارس يكتبون في

خطوط أفقية على رقع من جلود الحيوانات. وقد عرف استخدام جلود الحيوانات في الكتابة في خوطان خلال العصور الوسطى، لكنه لم يكن شائع الاستخدام في الصين، بيد أن نوعاً غريباً من المواد التي استخدمت كصحائف للكتابة قد انتشر على نطاق واسع أثناء حقبة تانج، وأثار مخيلة الشعراء في تلك الحقبة، وهو سعف نخيل التمر ذوالشكل المروحي والتي تنمو بكثرة في مناطق جنوب آسيا، وقد عرفت هذه الأوراق العريضة باسمها السنسيكريتي «باترا» أثناء حقبة تانج. وتشير السجلات التاريخية الرسمية لعهد تانج إلى أن «الهنود الذين عرف عنهم التميز في علوم الفلك والرياضيات كانوا يكتبون حولياتهم على أوراق «الباترا». ويقدم توان تشينج شيه (الذي كان قد طرح وصفاً صحيحاً ودقيقاً لأصل كلمة «باترا» المستعارة من اللغة السنسيكريتية) وصفاً للبلميرا على أنها شجرة دائمة الخضرة تنمو في منطقة ماجادا (ربما لأن صناعة ورق الكتابة من سعف النخيل كانت من الصناعات المهمة في هذه المنطقة)، ويضيف قائلاً إن الكتب والنصوص المكتوبة على تلك الأوراق يمكن أن تبقى لخمسمائة أو ستمائة سنة إذا اعتني بها جيداً.

وكان في إمكان أهالي العاصمة الإمبراطورية مشاهدة تلك النخلة ذات الأوراق المفيدة، والتي استجلبت من «المناطق الغربية»، وزرعت في أرجاء المعبد البوذي الشهير الذي عرف باسم «تعظيم الخير»، والذي اشتهر بعظمة وروعة مبانيه والتي قيل إنها كانت الأكبر والأضخم في تشانج-آن.

كما اشتهر ذلك المعبد أيضاً بكثرة ما يضمه من كنوز وتحف، منها تمثال لبوذا صنع من اليشب الخوطاني، ولوحة من رسم الفنان الكبير وو تاو-هسوان، بالإضافة إلى أشجار الصنوبر العتيقة التي ملأت أرجاء المعبد. ويقال إن أحد غصون تلك الأشجار -وكان قد نُحت على شكل تنين- قد ساعد في استحضار الأمطار أثناء إحدى موجات الجفاف الشديدة. وفي أواخر القرن التاسع، كتب الشاعر تشانج تشياو بعض الأبيات التي تمتدح الورق المصنوع من سعف النخيل.

ومما يدعو للعجب أن هذا النوع من الورق والصحائف قد صمد في مناخ تشانج-آن.

وأثناء حقبة تانج عرفت الكتب التي خطت على أوراق ذات أشكال منتظمة باسم «أولاه»، وكانت أوراق هذه الكتب تحفظ بين لوحين. ومن الواضح أن هذا النوع من الكتب كان منتشراً على نطاق كبير في ضوء الحرص الشديد للحجاج الصينيين على جمع الكتب والمقتنيات الدينية أثناء رحلاتهم الدينية إلى الهند، وقد زخرت المعابد البوذية في حقبة تانج بالكثير من تلك الكتب والمخطوطات. وقد أشار الراهب الياباني إنين إلى نسخة من «محاورات اللوتس» من هذا الشكل من الكتب في جبل وُو-تاي. وبالإضافة إلى المعابد كان يتم تداول الكتب وقراءتها في محيطات أكثر علمانية؛ فعلى سبيل المثال احتفظ آي تسونج، والذي كان مؤمناً مخلصاً، بنسخ من الكتب المدونة على سعف النخيل، حيث كان كثيراً ما يردد بنفسه أجزاء ومقاطع من محاورات بوذا. وفي عام 746 أرسل الملك سيلاميجاها ملك سيلان نسخة من «محاورات ماهابرا جناباراميتا» كهدية إلى تشانج-آن كان قد خطها الراهب أموجافاجرا بيده.

وقد حظيت الكتب المسطورة على أوراق النخيل بقدر كبير من الهيبة والإجلال، مثلها في ذلك مثل الرسائل التي بعثها ملك كوران إلى أباطرة عهد تانج عام 646، حيث كتبها «...بلغة الخطاب الذي تحدث به بوذا». وقد وجد الأدباء الصينيون صوراً بلاغية من صور الغرائب في تلك «الأوراق المقدسة»، وكثيراً ما ظهرت تلك الصور في الأشعار التي هدفت إلى إثارة جو من الإخلاص والتفاني للديانة البوذية، مثل ما كتبه لي شانج-ين في عمله «نقوش على جدار الراهب» قائلاً: «إذا آمنت بما ورد من كلمات صادقة على أوراق الباترا...» (أي كلمات محاورات بوذا المقدسة). وقد ذهب بي جيه-هسيو إلى أبعد من ذلك حين زاوج بين أوراق الباترا المقدسة وخشب الصندل ذي الرائحة الزكية، في إطار تصويره

لحديقة أحد المعابد حيث قال:

«قصر صغير مخضب برائحة الصندل الزكية؛
بعض النصوص الدينية الموغلة في القدم على
أوراق الباترا»

ويالها من صورة تجمع بين الباترا وعبق البخور واللبان لتعكس أحاسيس وروائح الدين القادم من بلاد الغرب الدافئ.

محال بيع الكتب والمكتبات

أثناء القرنين الثامن والتاسع يفترض أنه كان في إمكان المواطنين الذين عاصروا حقبة تانج اقتناء الكتب التي تتحدث عن البلدان الأجنبية والمناطق البعيدة عن الصين، والقواميس والمعاجم اللغوية، وكذلك الكتب الأجنبية من محال بيع الكتب في المدن الكبرى، وعلى الرغم من ذلك لم يصلنا سوى النزر اليسير عن محال بيع الكتب إبان حقبة تانج، وفي شكل إشارات بسيطة تضمنتها قصة شعبية عن محل لبيع الكتب القديمة في العاصمة يرتاده المرشحون لأداء اختبارات الوظائف الحكومية، وهناك أيضاً بعض الأبيات الشعرية التي تشير إلى محل لبيع الكتب في السوق الجنوبي في لو–يانج. ومن المعروف أن الكتب الحديثة المطبوعة (ومعظمها كتب في علوم تفسير الأحلام والفلك والأنساب) كانت متداولة في مدينة تشِنج–تو خلال القرن التاسع.

ونظراً لما تميزت به حقبة تانج من وجود عدد كبير من الناشطين في مجال جمع الكتب، فقد توافر لدينا قدر أكبر من المعلومات عن المكتبات في تلك الحقبة. وتعتبر مكتبة ابن السماء أهم المكتبات المعروفة في تلك الحقبة، وقد أنشأ تاي تسونج تلك المكتبة في عام 628 نزولاً عند نصيحة عدد من كبار رجال دولته من أمثال وِي تشينج، ويوشيه–نان، و ين شيه–كو الذين أشرفوا بأنفسهم على تزويد

المكتبة بالكتب والمخطوطات، وعينوا عدداً من الخطاطين والكتبة للقيام بأعمال النسخ. أما مكتبة تانج الإمبراطورية الجديدة فقد تضمنت مائتي ألف مخطوطة منها عدد كبير من الكتب النادرة. وفي هذا المجال أيضاً قام الإمبراطور هسوان تسونج بإنجاز كبير تمثل في نسخ عدد كبير من الكتب النادرة، وحفظها في عدد من المكتبات الخاصة. وقد استخدم أفضل أنواع الورق المصنوع من جدائل القنب المستجلبة من شزوان لكتابة تلك الكتب. كما أنشئ أيضاً عدد من الأكاديميات والمؤسسات المنوطة بالمحافظة على مختلف أنواع الآداب والعلوم في العاصمتين الإمبراطوريتين. وعلاوة على ذلك أقيمت دار للمقتنيات والمجموعات الإمبراطورية وطبق فيها النظام الذي تم استحداثه لفهرسة وتصنيف الكتب وفق أربعة مصنفات رئيسية، وباستخدام علامات مصنوعة من العاج (تحمل نقشاً بعنوان الكتاب ورقمه في المكتبة). ووفقاً لهذا النظام حملت الكتب «الكلاسيكية» (أمهات الكتب) شارة حمراء وعلامة من العاج الأبيض وشريطاً أصفر اللون. أما كتب التاريخ فكانت تميز بشارة خضراء وعلامة من العاج الأزرق وشريط ذي لون أخضر فاتح، في حين مُيزت كتب الفلسفة بشارة باللون الأزرق الداكن وعلامات من خشب الساندرز المنحوت، وشريط أرجواني اللون، وأخيراً استخدمت شارات بيضاء اللون وعلامات من العاج الأخضر وشرائط قرمزية اللون لتمييز «المجموعات الخاصة».

وقد وصل النشاط الرسمي لجمع الكتب إلى أوْجه أثناء فترة السلم والاستقرار التي شهدتها الحقبة الأولى من حكم «هسوان تسانج» في النصف الأول من القرن الثامن.

لكن حين بدأ المؤرخ أو يانج هسيو استعداداته لكتابة تاريخ أسرة تانج في القرن الحادي عشر فوجئ بأن أكثر من نصف مقتنيات تلك المكتبة، العظيمة قد اختفى كنتيجة للاضطرابات الداخلية التي شهدتها البلاد، وخاصة عصيان هوانج تشاو.

وليس هناك إحصاء عام للمكتبات الخاصة بالمؤسسات الدينية في حقبة تانج، لكن مما لا شك فيه أن تلك المكتبات الدينية قد احتوت مجموعات ضخمة من الكتب. ويتضمن الدليل الذي تم إعداده في عام 664 لما بقي من الكتب البوذية المترجمة من اللغة السنسيكريتية 2,487 عملاً مختلفاً بعضها من الأعمال الطويلة جداً، وإذا وضعنا في الاعتبار أن معبداً واحداً في تشانج-آن كان يحتوي على ألف نسخة من كتاب «محاورات اللوتس» محفوظة في واحد من أبراج المعبد فمما لا شك فيه أن هذه المدينة الكبيرة تزخر بأعداد هائلة من تلك الكتب المقدسة.

وقد انتشر جامعو الكتب والمجموعات الخاصة من الأفراد في كل مكان في البلاد حيث اقتنوا بعضاً من أقدم الكتب وأكثرها ندرة. ومن بين هؤلاء الأشخاص ني جو-شوي الذي كان من أشهر الكلاسيكيين المحافظين في تلك الحقبة، وقد اشتهر أيضاً بتوبيخه ونقده للإمبراطور هسوان تسونج لحرصه على اقتناء الطيور عديمة الفائدة. وكان الرجل يمتلك مجموعات كبيرة من الكتب لدرجة أن أرفف مكتبته الخاصة كانت تنوء بما تحمل، ولم تعد تتسع للمزيد من الكتب فكان يضع الكتب في أكوام متراصة بجوار نوافذ المكتبة إلى أن تكاثرت للدرجة التي حجبت ضوء الشمس تماماً عن مكتبته. وهناك أيضاً رجال من أمثال تشانج تسان الذي كرس سنوات عمره لنسخ كلاسيكيات الديانة الكونفوشيوسية، حيث اشتهر عنه قوله «إنه لا يمكن مقارنة الفائدة التي تتحقق من نسخ النص بتلك التي تتحقق من مجرد قراءته»، ويعتبر تشانج تسان أيضاً من كبار جامعي الكتب في تلك الفترة، حيث كان يتمتع بذاكرة قوية، وكان قد تمرس في تلك المهنة بعد أن قضى فيها وقتاً طويلاً لصالح البلاط الإمبراطوري، ثم أصبح بعد ذلك يقضي جُلَّ وقته في مكتبته الخاصة بين كتبه ومخطوطاته إلى أن بات من أهم المتخصصين في الأدبيات البوذية.

وفي ظل مثل ذلك الحماس لجمع الكتب، والمجهود المتصل في هذا الاتجاه، ليس من المستغرب أن تصل المكتبات الخاصة في تلك الحقبة إلى درجة كبيرة من التوسع

والجودة، فعلى سبيل المثال كانت المكتبة التي امتلكها لي بي تضم ثلاثين ألف عمل، في حين وصل عدد الكتب في المجموعات الخاصة لدى ليو بو-تشو، و وي شو، وسو بن إلى نحو عشرين ألف عمل لكل منهم. ويبدو أن تلك المكتبات الخاصة قد فاقت مثيلاتها الإمبراطورية من حيث جودة تأثيثها، وندرة ما تضمه من أعمال وكتب ومخطوطات. ويقدم لنا الشاعر لو وين وصفاً للمجلدات الفاخرة «المرصعة بالكريستال، والمكتوبة على أوراق مزججة بالميكا» التي تضمنتها مكتبة تسوي جين-ليانج الذي كان واحداً من كبار جامعي الكتب في تلك الحقبة:

أبراج من اليشب المرصع تتوسط السماوات،

عليها ألوان من النفائس النادرة والأسرار المكنونة؛

كتب مطرزة بالكريستال، ومخطوطات خضراء،

أوراقها مزججة بالميكا، وحروفها من ذهب».

كتب الرحلات والجغرافيا

أسهمت الكتب التي وضعها الرحالة والجغرافيون في تشكيل الكثير من الأفكار والانطباعات التي انتشرت إبان حقبة تانج عن البلدان الأجنبية وشعوبها. ولا تزال عناوين بعض هذه الكتب معروفة حتى وقتنا هذا، لكن الكتب نفسها لم تصل إلينا، ومنها على سبيل المثال «رسائل الغرائب في بنام» لتشو ينج، و«سجلات السفر إلى الأقاليم الغربية» لتشينج شيه-تشانج، و«انطباعاتي حول أسفاري بين الأمم الأخرى» للراهب تشيه منج، و«سجلات الرحلة إلى شعب مدينة الغابة (بروم إيراب)» و«سجلات البعثة إلى كوريو»، و«دليل التبت والنهر الأصفر» وثلاثتها مجهول المؤلف، وكتاب «رسائل الغرائب في الربع الجنوبي» لفانج تشين-لي، و«الدليل المصور للأقاليم الغربية» لبي تشو، وكتاب «سجلات قوم سيلا» لكو ين، و«سجلات يوان» ليوان تزو، و«انطباعات القرغيز المصورة عن التبت -أثناء

الجلسات الإمبراطورية» للكاتب لوشو.

ويعتبر كتاب «رسائل مصورة عن الأقاليم الغربية» من أهم كتب الرحلات والجغرافيا في حقبة تانج، ويتكون العمل من 60 مخطوطة قام بكتابتها وإعدادها مكتب الشؤون التاريخية والجغرافية في البلاط الإمبراطوري بناء على المواد التي جمعها الكثير من الرسل والمبعوثين الذين كلفهم كاو تسونج بدراسة العبادات والتقاليد والأزياء والمنتجات ورسم الخرائط الخاصة بمناطق مثل سمرقند، وطوخارى وغيرهما من المناطق. وقد أنجز هذا العمل تحت إشراف هسو تشنج–تسونج، ورفع العمل النهائي إلى الإمبراطور سنة 658. وبالإضافة إلى هذا العمل هناك أيضاً الكثير من الكتب المهمة، وقد وصلت إلينا أجزاء من الكتب المفقودة– والتي كانت عناوينها تشكل مصدر إثارة نظراً لعدم معرفة محتوياتها– في شكل أجزاء منقولة واقتباسات حفلت بها الكتب الحديثة، مثل رسائل «فانج تشين–لي» التي سبق الإشارة إليها، و«سجلات رحلاتي في الهند الوسطى» الذي كتبه المبعوث الإمبراطوري وانج هسوان–تسي، وتضمن الكثير من الأخبار عن عجائب الهند.

وتعتبر حوليات الحجيج إلى الأماكن والبقاع المقدسة في الهند، والذين كانوا في مجملهم من رجال الدين المتعلمين واحداً من أهم المصادر التي زودت الناس بالمعلومات (وفي بعض الأحيان بالمعلومات غير الصحيحة) عن البلدان الأخرى. ومن حسن الحظ أن بعض تلك الحوليات قد بقي إلى القرن العشرين. لذا نجد أن أي شخص يعرف قدراً من المعلومات عن الصين في العصور الوسطى لا بد وأن يكون على دراية بأسماء مثل هسوان تسانج، وآي–تشينج. وفي الواقع فإن التأثير الذي أحدثه كتاب الرحلات الذي ألفه هسوان تسانج بعنوان «سجلات المناطق الغربية» قد تجاوز حدود الفترة الزمنية التي صدر فيها، بل وحدود أدب الرحلات بصفة عامة، فقد كان الرجل من أشهر الرهبان خلال حقبة تانج لدرجة أنه كان

يعتبر مثالاً يحتذى به فيما يتعلق بالتبحر في علوم الحضارة الهندية وغيرها من الثقافات التي تأثرت بها ودارت في فلكها. وبعد عدة قرون على صدور هذا العمل ظهر إلى الوجود عمل روائي كبير حول تلك الرحلة تحت عنوان «سجلات رحلة في الغرب». وقد قام آرثر والي بترجمة هذا العمل باسم «مونكي» أو «القرد»، وقد أصبح بعد ذلك واحداً من أعظم الأعمال الروائية في العالم والتي نالت سمعة دولية طيبة، بل ويمكن أن يكون واحداً من أهم الأعمال في أدب الرحلات والغرائب.

الكتب الدينية

كان الراهب المبجل هسوان تسانج قد أحضر ما يزيد عن ستمائة مجموعة من «محاورات بوذا»، وغيرها من النصوص البوذية المقدسة إلى الصين. وفي أحد خطاباته إلى رجل الدين الهندي إنانابرابها، كتب هسوان تسانج واصفاً المخاطر والمتاعب التي تكتنف الطريق بين الهند والصين والذي يرتاده الرهبان المؤمنون كي يعودوا إلى بلادهم في الصين حاملين معهم الكلمات الحقيقية التي قالها بوذا، حيث جاء في ذلك الخطاب:

«أود أن أحيط مقامكم علماً بأنني قد فقدت مجموعة من الكتب المقدسة أثناء عبورنا وادي الإندوس، وستجدون مرفقاً طي هذه الرسالة قائمة بتلك الكتب، وأود أن ترسلوا لي هذه الكتب إذا تمكنتم من استعادتها. وكهدية مني أرسل إليكم بعض الأشياء البسيطة التي أود أن تقبلوها، فالطريق كما تعلمون طويل، ومن الصعب إرسال أشياء كبيرة».

وكان الهدف الأساسي لتلك الرحلات الدينية التي يكتنفها الكثير من المخاطر الحقيقية والأسطورية هو الوصول إلى دير «نالانادا» العظيم في مجادا، والذي كان

يؤوي نحو خمسة آلاف كاهن وطالب علم في قاعاته وأروقته المفروشة بالقرميد. وكان أغلب هؤلاء الطلبة يقيمون الصلاة ويؤدون بعض الطقوس التي تعبر عن الإحترام والتقدير عند شجرة البودهي في جايا، وهي الشجرة التي تلقى بوذا تحتها معارفه وعلومه. ويعتبر الراهب تاو شينج (وقد أطلق عليه اسم كاندراديفا في اللغة السنسيكريتية) واحداً من أشهر الرهبان الذين قاموا بتلك الرحلة المقدسة، حيث خرج من الصين إلى التبت لدراسة نصوص «الهينايانا» المقدسة في المركز الفكري الكبير في نالاندا، وقد حمل معه كميات كبيرة من الكتب والصور والرسومات المقدسة في طريق عودته إلى الصين. إلا أنه أصيب بمرض شديد ووافته المنية في نيبال. وهناك أيضاً الراهب هسوان تشاو الذي دفعه إيمانه الشديد وحماسته الدينية رغم تقدمه في العمر إلى القيام برحلة شاقة ينشد فيها الأماكن المقدسة في وسط الهند حيث توفي هناك دون أن ينال مراده. وعلى الرغم من أن هؤلاء الرجال وأمثالهم لم يدونوا مشاهداتهم أثناء رحلاتهم إلى الهند و لم يتمكنوا من إضافة أي كتب جديدة للمكتبات الصينية في حقبة تانج، فقد اعتبروا في عداد الشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل ترسيخ المعتقدات الدينية التي آمنت بها مجتمعاتهم. ومما لا شك فيه أنه قد كان لمجهوداتهم الكبيرة وتضحياتهم كبير الأثر في إثراء المعارف في بلدانهم. ولقد شهدت حقبة تانج جهوداً حثيثة ومتصلة للبحث عن النصوص الأصلية للكتب الدينية البوذية الشهيرة في ذلك الوقت: فعلى سبيل المثال احتلت نصوص «محاورات اللوتس» تلك المكانة التي شغلتها نصوص «البارينيرڤانا» خلال النصف الثاني من القرن السابع. كما نجد أيضاً أن «المحاورات الماسية» قد حلت محل ترجمة آن–تشينج لنصوص «سوڤارنا–باراباسا–أوتاماراجا»، والتي حظيت باهتمام وتقدير بالغين في أوائل القرن الثامن. وتعتبر «المحاورات الماسية» بحق أول وأقدم نصوص الكتب المطبوعة في الوقت الحاضر، وقد أسهمت هذه التغيرات في دفع جامعي الكتب من الحجيج للقيام بجهود أكبر لجمع المزيد من النصوص، كما أن جهودهم تلك كانت تلقى الكثير من الاستحسان والمساندة من

جانب البلاط الإمبراطوري. ومن بين المجهودات الرسمية اللافتة للنظر في هذا المجال ما قامت به الإمبراطورة وُو، فقد كانت لديها مجموعة غير مكتملة من الكتب الدينية، ولذا رغبت في اقتناء النص السنسيكريتي الأصلي لكتاب «الأفتاماسكا» وذلك تماشياً مع إيمانها الشديد بعقيدة المهايانية (البوذية والتي تقول بوجود الله عز وجل/المترجم). وفي سبيل تحقيق تلك الرغبة أرسلت الإمبراطورة مبعوثيها إلى خوطان حيث قيل إن الكتاب الذي تبحث عنه موجود هناك، وبالفعل نجح المبعوثون في الحصول على الكتاب، لكنهم لم يحضروه فقط بل جلبوا معهم أيضاً مترجماً قديراً من خوطان اسمه سيكساناندا، ومنحته الإمبراطورة اسماً صينياً دينياً هو هسيوه–هسي. وبعد ذلك تم وضع النص السنسيكريتي بين لوحين لحفظه، وأودع في القصر الإمبراطوري بالعاصمة الشرقية حيث أقام المترجم الخوطاني ليعكف على إعداد الترجمة الصينية للنص المقدس، ومن حوله عمال الإمبراطورة وجواريها –مما جعل مهمته أكثر صعوبة بالطبع. وبعد ذلك أصبح هذا المترجم الخوطاني رئيساً لعدة مئات من الكهنة العلماء الذين استدعوا الى البلاط الإمبراطوري. وعلى النقيض من حالة المترجم سيكساناندا كان هناك عدد من العلماء الكهنة الذين حققوا شهرة عالمية واسعة، منهم على سبيل المثال سوبها–كراسيمها الذي حضر إلى تشانج–آن وعمره ثمانون عاماً مدعياً أنه يتحدَّر من نسل الساكياميوني. وكان الرجل قد أحضر معه عدداً كبيراً من النصوص السنسيكريتية، وقد تمكن من نيل استحسان الإمبراطور هسوان تسونج وإعجابه لما تميز به من علوم وقدرات سحرية، لدرجة أنه قد تم استخدامه من قبل البلاط «كمستجلب للمطر» في أكثر من مناسبة. وهناك أيضاً رجل كان يدعى ظهراماكندرا جاء إلى الصين ومعه مجموعة جديدة من التعاويذ والكتب الدينية البوذية وكتب الفلك ونصوص طبية مكتوبة باللغة السنسيكريتية، وكذلك فاجرابودهي أحد أبناء ملك سيلان الذي تلقى تعليمه في الحوزات العلمية البوذية في جنوب الهند ثم عاد بعد ذلك إلى سيلان حيث ذهب منها إلى الصين ضمن

سفارة الملك السيلاني التي قدمت نصوص «الماهابراجناباراميتا» إلى البلاط الإمبراطوري. إلا أن أكثر هؤلاء الكهنة العلماء شهرة وحيتاً هو أموجافاچرا الذي كان أحد أتباع فاجرابودهي، والذي قضى حياة حافلة في البلاط الإمبراطوري لأسرة تانج في النصف الثاني من القرن الثامن. وكان الرجل يتمتع بالكثير من الامتيازات الخاصة، ومات وهو في قمة المجد والشهرة، ودفن في الصين التي احتضنته.

إلا أن الكتب الدينية قد عرفت طريقها إلى الصين من مناطق أخرى بخلاف الهند. ففي القرن الثامن أرسلت سيلا مجموعة من الكتب الدينية البوذية إلى بلاط تانج كهدية قيمة تليق بمقام الإمبراطور.

وعلاوة على ذلك كان هناك عدد لا بأس به من الكتب المستجلبة من خارج الصين وتحتوي على تعاليم مستمدة من ديانات أخرى، ففي عام 638 أحضر الراهب النسطوري آلابوين -وهو من بلاد فارس- مجموعة من نصوصه الدينية وعرضها على الإمبراطور تاي تسونج الذي استحسنها وأثنى على عمقها وثرائها، وأمر بتشييد معبد لتلك الديانة في عاصمة ملكه. وفي عام 807 حصل الأجهوريون على إذن بإنشاء معابد لممارسة طقوس الديانة المانوية في كل من لو-يانج، وتاي-يوان، لكن بعد أن تراجعت قوة الأجهوريين ونفوذهم لصالح القرغيز في المناطق التابعة للإمبراطور الطاوي ووتسونج الذي كان يدين بالعقيدة المانوية «أحرقت كتابات وصور ماني في الشوارع». ومرة أخرى عادت الآلهة القديمة إلى سابق سيطرتها ونفوذها، وتراجع نفوذ الديانات الأجنبية إلى الحضيض.

الكتب العلمية

بالإضافة إلى الكتب الدينية أحضر الرهبان الكثير من الكتب الأجنبية في

الفلسفة، والرياضيات، والفلك، والطب من المناطق الغربية التي قاموا بزيارتها أثناء حقبة تانج التي شهدت إقبالاً كبيراً على الدراسات العلمية، وخصوصاً تلك ذات الصلة بعلوم الفلك الهندية، وقد لقيت الأبحاث والكتب العلمية تقديراً كبيراً. ففي عام 720 قدم سفراء من كابيسا هدية قيمة للإمبراطور هسوان تسونغ عبارة عن مجلد كبير في الدراسات الفلكية، بالإضافة إلى كتاب عن «الوصفات السرية لصناعة الأدوية وأنواع الدواء المختلفة».

وفي القرن الثامن كانت كافة الدراسات والحسابات الفلكية المتعلقة بإعداد الرزنامات حكراً على ثلاث عائلات هندية هي عائلات كاسايابا، وجواتاما، وكومارا. ويعتبر جواتاما سيديهارتا والذي كان مديراً للمرصد الفلكي الإمبراطوري أثناء فترة حكم هسوان تسونغ أشهر علماء الفلك الهنود. ويعود الفضل إلى هذا العالم الكبير في إدخال النظام الحسابي الفلكي المعروف باسم «نفاجارا ألماناك» (أي الكواكب التسعة)، من الهند إلى الصين، كما استحدث أيضاً سبلاً أكثر دقة للتنبؤ بكسوف الشمس وخسوف القمر، وإدخال الصفر في العمليات الحسابية، كما قام أيضاً بوضع جدول للعلامات المستخدمة في الرياضيات.

وللأسف الشديد فإن الاختراعين الأخيرين قد لقيا رفضاً شديداً من جانب علماء الفلك الصينيين الذين حالوا دون استخدامهما في تطبيقاتهم المتعلقة بعلم الفلك.

وفي القرن السابع استخدم الصينيون «رزنامة الأجرام السبعة»، وهي أيضاً من أصل هندي، وقد استخدمت قبل ذلك تحت مسميات مختلفة اعتباراً من حقبة هان.

وفي منتصف القرن السابع صدر قانون يحظر على العامة دراسة تلك الرزنامات

الفلكية وغيرها من خرائط الأجرام السماوية، وكتب الكهانة، وعلوم وفنون الحرب والقتال. وقد ساعد هذا القانون على قصر التأثير النفسي الكبير للعلوم المتصلة بالتنجيم والفلك على العلماء والساسة المخولين فقط والقادرين على مقاومة ما تتركه هذه العلوم والممارسات من آثار نفسية. ولقد تميز الراهب السيلاني أموجافاجارا في استخدام الأساليب والطرق الهندية لحساب الرزنامات والعمليات الرياضية المتعلقة بها حيث قام بإعداد ترجمة صينية للكتاب المعروف باسم «حوارات مانجوسيري، وحِكم أيام اليسر والعسر، ومنازل الخير والشر للقمر والكواكب الأخرى»، والتي أمكن من خلالها إجراء حسابات دقيقة للتنبؤ بمواضع الأجرام السماوية. وفي عام 764 نشر يانج تشينج-فينج، الذي كان واحداً من أتباع أموجافاچارا ملاحظات على كتاب معلمه، أشار فيها إلى أسماء أيام الأسبوع المشتقة من أسماء الكواكب في اللغات الهندية والفارسية والسوجدانية.

وتعتبر قائمة «الأجرام السبعة» المكتوبة باللغة السوجدانية (المانوية على ما يبدو) والتي كتبت بحروف صينية سجلاً مدهشاً لأسماء الآلهة البابلية الغابرة حيث تضمنت ميهر (الشمس)، وماه (القمر)، وبهرام (المريخ)، وتير (عطارد)، وأرموزد (المشترى)، وناهيد (الزهرة)، وكيفان (زُحل). ومن المحتمل أن اسم ناهيد هذا قد استخدم للإشارة إلى آناهاتا، وهو الاسم الفارسي القديم للإلهة أفروديت. لكنه ليس من المحتمل أن ذكر اسم هذا الكوكب أثناء حقبة تانج كان يمكن أن يثير مخيلة الصينيين ويجعلهم يتصورون تلك السيدة اللعوب «أفروديت». وعلى وجه الخصوص، استمر استخدام الاسم السوجداني ليوم الأحد، حيث ظهر اسم يوم ميهر في تقويم صيني صدر في تايوان عام 1960.

وهناك العديد من الرزنامات وكتب الفلك التي اتبعت النظام الغربي في التقويم، وكانت شائعة الاستخدام أثناء حقبة تانج؛ فعلى سبيل المثال، استخدم الراهب وعالم الفلك العظيم آي-هسينج (وكان قد أسهم في صنع آلة «المَحلَّقة» التي تعمل بطاقة

المياه، والمزودة بآلية خاصة تسمح لها بالتحرك بدقة في اتجاه واحد بحيث تحافظ على سرعة تحرك مساوية لسرعة حركة الأجرام السماوية) استخدم الأسماء المستخدمة في الشرق الأدنى للإشارة إلى الكواكب في كتبه التي ألفها في علوم الفلك.

وبالإضافة إلى كتب الفلك، وصل أيضاً العديد من الكتب في الطب وعلم الصيدلة من المناطق المتأثرة بالحضارة الهندية. وقد شهدت حقبة سِوِي وصول العديد من تلك الكتب إلى المكتبات الإمبراطورية وكان بعضها يحمل عناوين مثل «وصفات الأدوية المقدمة من حكماء البلدان الغربية»، و«وصفات الأدوية في بلاد براهما»، و«الوصفات المهمة التي وضعها أطباء البلدان الغربية»، ولا تتضمن قوائم الكتب الرسمية في حقبة تانغ أياً من تلك العناوين، لذا نفترض أنها قد تعرضت للتدمير والإتلاف أثناء الحروب الأهلية التي كانت تنشب من وقت لآخر أثناء تلك الحقبة. وقد استمر وصول الكتب الطبية الحديثة من خارج البلاد، وخاصة كتب «الوصفات السرية» كما سبق وأشرنا. وقد وصل إلينا أيضاً بعض من الكتب المصورة عن الأعشاب الطبية، منها كتاب تم الحصول عليه مقابل زوج من الببغاوات البيضاء، وروب من الحرير القرمزي المطرز، وأوانٍ ذهبية وفضية مرصعة، وما يزيد عن ثلاثمائة قطعة من الحرير الفاخر، وقد جاء ذلك الكتاب إلى هسوان تسونغ من ملك سيلا.

ومن ناحية أخرى فإن شعبية الموسيقا السيرندية، واستخدام مدرس موسيقا من سيرنديا كانت بالتأكيد سبباً في قدوم نوت موسيقية من تلك البلاد. وكان الشقيق الأكبر للإمبراطور هسوان تسونغ، وكان يعرف بالأمير ننج، عازفاً ماهراً، وكان يستخدم الطبول و«.. كانت الكتب التي قرأها عبارة عن نوت موسيقية من كوخا». وكان «مفتوناً بالموسيقا» على حد وصف شقيقه الإمبراطور. وعلى الرغم من عدم توافر نماذج لتلك النصوص الموسيقية الكوخية فقد تم العثور في

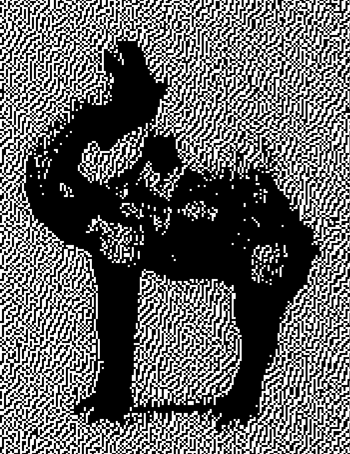
تون-–هوانج على نوت خاصة بالعود مدونة بعلامات تعود للعصور الوسطى (وهي مختلفة تماماً عن العلامات الحديثة)، كما يوجد باليابان نوت خاصة بعود تانج ذي الأوتار الخمسة، ولا بد أن نصوص الأمير كانت تشبهها.

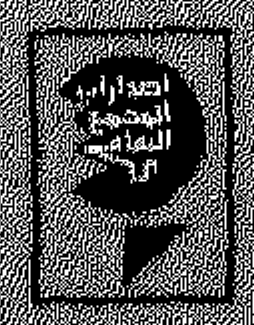
الخرائط

وكان صنع الخرائط في حقبة تانج مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالاستراتيجيات العسكرية، وكان يمثل أهمية خاصة للأجنحة العسكرية للحكومة. ومن أجل تسهيل نجاح مظفّر في إخضاع أقاليم جديدة، والاحتفاظ بسيطرتها على الأقاليم الخاضعة بالفعل فقد كان من بين مهام السفراء والمبعوثين إعداد الخرائط والرسومات الطوبوغرافية –وكان ذلك نوعاً من التجسس التقليدي. كذلك فقد كان سؤال زوار البلاد الأجانب للحصول منهم على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن بلادهم، خاصة من الناحية الطوبوغرافية، ومن ثم رصد تلك التفاصيل على الخرائط والرسومات الطوبوغرافية. وقد كان يحدث أحياناً أن تقدم البلاد بمحض إرادتها خرائط لابن السماء، وبهذا تكون قد عبرت وبشكل ينم عن الذل والخنوع عن وضعها كبلاد تقدم الجزية للإمبراطور. ولقد حدث ذلك على سبيل المثال في أعقاب الغزوة الناجحة التي قادها وانج هسوان–تي لماجادا، ودخوله المظفر إلى كاماروبا (فيما هو الآن آسّام الغربية)، وبعدها أرسل ملك تلك البلاد مبعوثية إلى تشانج–آن وحَمَّلهم بالكثير من الأشياء النادرة والعجيبة، وكان من بينها خريطة لبلاده، وطلب مقابلها الحصول على صورة لـ لاو تزو، ونص كتابه «تاو تي تشينج».


آسيا
في عهد
تانج
الإسلام
(فارس)
(الشام)
الأتراك
الأتراك الغربيون
سيرنديا
التبت
تانج
جزر الهند
الشرقية الخمس
دولة ليون
اليابان
كالينجا
نان-شو
كانتون
تشاو-تشو
(أنام)
خوطان
دويلات - المدن الإيرانية
سمرقند
بخارى
فرغانا

هذا الكتاب يحكي عن امتداد فنون وآداب الصين في عهد امبراطورية تانج إلى جيرانها في الشرق الأقصى في العصور الوسطى، خاصة اليابان، وكوريا، وتركستان، والتبت، وأنام. ومجرد الإشارة إلى فنون النقش على الخشب، وتخطيط المدن، وتصميم الأزياء، والكلام المنظوم يكفي لبيان ما دانت به تلك البلاد المحيطة لإمبراطورية تانج من الناحية الثقافية. ومن المألوف كذلك سعي الأجانب الذين يزورون الصين أو يقيمون فيها لبعض الوقت لاقتناء سلع وأدوات، وكذا حرص الصينيون على حمل مثل تلك السلع والأدوات معهم عند سفرهم للخارج. ومن بين هذه المنسوجات الحريرية، والمنتجات الخزفية، والمشغولات المعدنية، والأدوية، وبعض المأكولات الشهية مثل الدراق وعسل النحل، والصنوبر، ومعها -وبطبيعة الحال- بعض دلائل التحضُّر والثقافة الراقية مثل الكتب واللوحات الفاخرة ذات الألوان الطبيعية الزاهية.





منشورات المجمع الثقا
tural Foundation Publications
أبوظبي - الإمارات العربية الم
ص.ب 2380 هاتف 15300
ABI - U . A . E . - P. O. BOX : 2380
215300 - Cultural Foundation
library@ns1.cultural.org.ae
www.cultural.org.ae



45